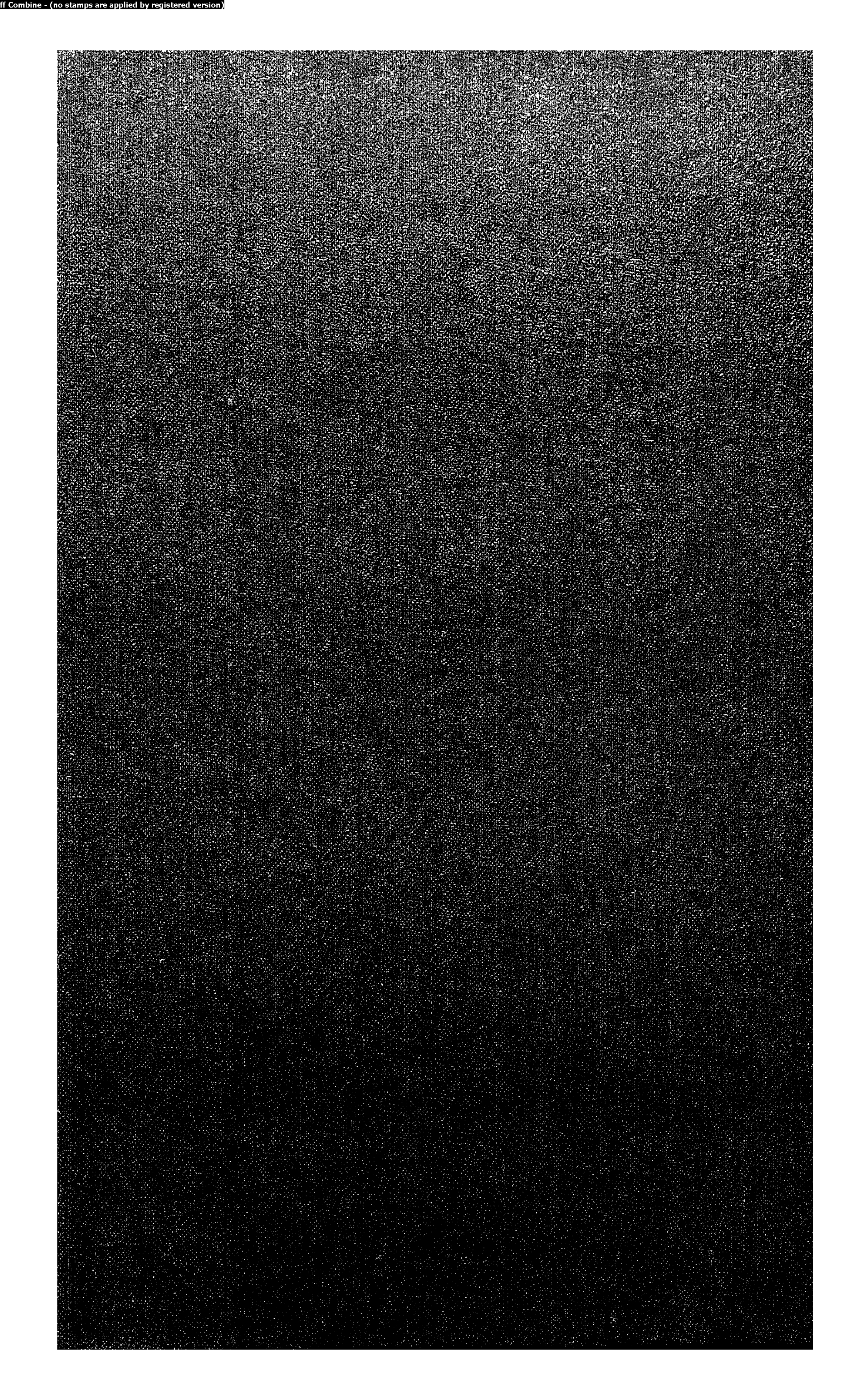






إهـــــــداء2005

الأستاذ الدكتور/ أحمد حمدي محمود
القاهرة

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء التاسع

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت ٢١٨١١



الآفة الثالثة

الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي ، كحكاية أحوال النساء ، ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء ، وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة ، وأحوالهم المكروهة . فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه ، وهو حرام . وأما الكلام فيما لا يعني ، أو أكثر مما يعني ، فهو ترك الأولى ، ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني ، لا يؤمن عليه الخوض في الباطل وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس ، أو الخوض في الباطل .

وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها . فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا . وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها ، وهو يستحقرها . فقد قال بلال بن الحارث ، [1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ بِهِ مَا بَلَغَتْ فَيَكْتُبُ اللهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بِهَا أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا » وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقي لها بالا ، يهوي بها في جهنم ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة ، ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها في أعلى الجنة

﴿ الآفة الثالثة الخوض في الباطل ﴾

(١) حديث بلال بن الحارث أن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ـ الحديث : هـ ت وقال حسن صحيح

(٢) حديث أن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا : ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة بسند حسن وللشيخين وت أن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوي بها سبعين خريفا في النار لفظ ت وقال حسن غريب

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « أَعْظَمُ النَّاسِ خَطَايَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضاً فِى الْبَاطِلِ » وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ [١]) وبقوله تعالى (فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ [٢]) وقال سلمان : أكثر الناس ذنوبا يوم القيامة . أكثرهم كلاما فى معصية الله : وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم فيقول لهم ، توضئوا ، فإن بعض ماتقولون شر من الحدث

فهذا هو الخوض فى الباطل ، وهو وراء ماسيأتى من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها بل هو الخوض فى ذكر محظورات سبق وجودها ، أو تدبر للتوصل إليها ، من غير حاجة دينية إلى ذكرها . ويدخل فيه أيضا الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ماجرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم ، وكل ذلك باطل ، والخوض فيه خوض فى الباطل ، نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه

الآفة الرابعة

المراء والجدال

وذلك منهى عنه . قال صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَ تُمَارِ أَخَاكَ وَلاَ تُمَازِحْهُ وَلاَ تَعِدْهُ مَوْعِداً فَتُخْلِفَهُ » وقال عليه السلام [٣] « ذَرُوا الْمِرَاءَ فَإِنَّهُ لاَ تُفْهَمُ حِكْمَتُهُ وَلاَ تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِىَ لَهُ بَيْتٌ فِى أَعْلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِىَ لَهُ بَيْتٌ فِى رَبَضِ الْجَنَّةِ » وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت

---

(١) حديث أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضا فى الباطل : ابن أبى الدنيا من حديث قتادة مرسلا ورجاله ثقات ورواه هو والطبرانى موقوفا على ابن مسعود بسند صحيح

(الآفة الرابعة المراء والمجادلة)

(٢) حديث لاتمار أخاك ولاتمازحه ولاتعده موعدا فتخلفه : ت من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٣) حديث ذروا المراء فانه لاتفهم حكمته ولاتؤمن فتنته : طب من حديث أبى الدرداء وأبى أمامة وأنس ابن مالك ووائلة بن الأسقع باسناد ضعيف دون قوله لاتفهم حكمته ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا موقوفا على ابن مسعود

(٤) حديث من ترك المراء وهو محق بنى له بيت فى أعلى الجنة ـ الحديث : تقدم فى العلم

(١) المدثر : ٤٥ (٢) النساء : ١٤٠

[1] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ أَوَّلَ مَاعَهِدَ إِلَيَّ رَبِّي وَنَهَانِي عَنْهُ بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ مُلَاحَاةُ* الرِّجَالِ » وقال أيضا [2] «مَاضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللهُ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ » وقال أيضا [3] « لَايَسْتَكْمِلُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَدَعَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا »وقال أيضا [4] « سِتٌّ مَنْ كُنَّ فِيهِ بَلَغَ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ الصِّيَامُ فِي الصَّيْفِ وَضَرْبُ أَعْدَاءِ اللهِ بِالسَّيْفِ وَتَعْجِيلُ الصَّلَاةِ فِي الْيَوْمِ الدَّجْنِ وَالصَّبْرُ عَلَى الْمُصِيبَاتِ وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَتَرْكُ الْمِرَاءِ وَهُوَ صَادِقٌ »

وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرءان ، فإنك لا تستطيعهم ، ولكن عليك بالسنة وقال عمر بن العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات ، أكثر التنقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء ، فإنه ساعة جهل العالم ، وعندها يبتغى الشيطان زلته . وقيل ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدال . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه . ليس هذا الجدال من الدين فى شىء . وقال أيضا . المراء يقسى القلوب ، ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه يابنى لا تجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد ، إذا رأيت الرجل لجوجا ، مماريا معجبا برأيه ، فقد تمت خسارته . وقال سفيان . لو خالفت أخى فى رمانة ، فقال حلوة ، وقلت حامضة . لسعى بى إلى السلطان . وقال أيضا ، صاف من شئت ، ثم أغضبه بالمراء ، فليرمينك بداهية تمنعك العيش . وقال ابن أبى ليلى ، لا أمارى صاحبى ، فإما أن أكذبه ، وأما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء ، كفى بك إثما أن لا تزال مماريا .

---

(١) حديث أم سلمة ان أول ماعهد الى ربى ونهانى عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال ابن أبى الدنيا فى الصمت والطبرانى والبيهقى بسند ضعيف وقد رواه ابن أبى الدنيا فى المراسيل من حديث عروة بن رويم .

(٢) حديث ماضل قوم الا أوتوا الجدل :ت من حديث أبى أمامة وصححه وزاد بعد هدى كانوا عليه وتقدم فى العلم وهو عند ابن أبى الدنيا دون هذه الزيادة كما ذكره المصنف

(٣) حديث لا يستكمل عبد حقيقة الايمان حتى يذر المراء وان كان محقا : ابن أبى الدنيا من حديث ابى هريرة بسند ضعيف وهو عند أحمد بلفظ لا يؤمن العبد حتى يترك الكذب فى المزاحة والمراء وان كان صادقا

(٤) حديث ست من كن فيه بلغ حقيقة الايمان ــ الحديث : وفيه ترك المراء وهو صادق أبو منصور الديلمى من حديث أبى مالك الاشعرى بسند ضعيف بلفظ ست خصال من الخير ــ الحديث :

---

* ملاحاة الرجال : مقاولتهم ومخاصمتهم يقال . لاحيته ملاحاة ولحاء إذا نازعته

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « تَكْفِيرُ كُلِّ لِحَاءٍ رَكْعَتَانِ » وقال عمر رضي الله عنه ، لا تتعلم العلم لثلاث ، ولا تتركه لثلاث . لا تتعلمه لتمارى به ، ولا لتباهى به ، ولا لترائى به ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه. وقال عيسى عليه السلام ، من كثر كذبه ، ذهب جماله . ومن لاحى الرجال ، سقطت مروءته . ومن كثر همه ، سقم جسمه. ومن ساء خلقه ، عذب نفسه

وقيل لميمون بن مهران ، مالك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال لأنى لا أشاريه ولا أماريه

وما ورد فى ذم المراء والجدال أكثر من أن يحصى

وحد المراء هو كل اعتراض على كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ، إما فى اللفظ ، وإما فى المعنى ، وإما فى قصد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعته فإن كان حقا فصدق به، وإن كان باطلا أو كذبا ولم يكن متعلقا بأمور الدين، فاسكت عنه

والطعن فى كلام الغير تارة يكون فى لفظه ، بإظهار خلل فيه من جهة النحو ، أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير. وذلك يكون تارة من قصور المعرفة ، وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله

وأما فى المعنى ، فبأن يقول ليس كما تقول ، وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا

وأما فى قصده ، فمثل أن يقول هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض . وما يجرى مجراه . وهذا الجنس إن جرى فى مسألة علمية ، ربما خص باسم الجدل ، وهو أيضا مذموم . بل الواجب السكوت ، أو السؤال فى معرض الاستفادة ، لا على وجه العناد والنكارة أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن

وأما المجادلة ، فعبارة عن قصد إفحام الغير ، وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك .أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروها عند المجادل ، يحب أن يكون هو المظهر له خطأه ، ليبين به فضل نفسه ، ونقص صاحبه. ولا نجاة من هذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه .

---

(١) حديث تكفير كل لحاء ركعتان: الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان للنفس ، قويتان لها

أما إظهار الفضل ، فهو من قبيل تزكية النفس ، وهي من مقتضى ما في العبد من طغيان دعوى العلو والكبرياء ؛ وهي من صفات الربوبية

وأما تنقيص الآخر ، فهو من مقتضى طبع السبعية ، فإنه يقتضي أن يمزق غيره ، ويقصمه ويصدمه ويؤذيه

وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان . وإنما قوتهما المراء والجدال . فالمواظب على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة . وهذا مجاوز حد الكراهة ، بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير ، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب ، وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح في قائله بكل ما يتصور له ، فيثور الشجار بين المتمارين ، كما يثور الهراش بين الكلبين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعلم نكاية ، وأقوى في إفحامه وإلجامه

وأما علاجه . فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره ، كما سيأتي ذلك في كتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغضب . فإن علاج كل علة بإماطة سببها ، وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعا ، حتى يتمكن من النفس ، ويعسر الصبر عنه

روى أن أبا حنيفة رحمة الله عليه ، قال لداود الطائي . لم آثرت الانزواء ؟ قال لأجاهد نفسي بترك الجدال . فقال احضر المجالس واستمع ما يقال ، ولا تتكلم . قال ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشد علىّ منها . وهو كما قال ، لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه ، تعسر عليه الصبر عند ذلك جدا . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتاً فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ » لشدة ذلك على النفس .

وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد ؛ فإن المراء طبع ، فإذا ظن أن له عليه ثوابا اشتد عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض . بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة . وإذا رأى مبتدعا تلطف في نصحه في خلوة ، لا بطريق

الجدال . فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه فى التلبيس ، وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا . فتستمر البدعة فى قلبه بالجدل وتتأكد . فإذ عرف أن النصح لا ينفع ، اشتغل بنفسه وتركه . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « رَحِمَ اللهُ مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَهْلِ القِبْلَةِ إِلَّا بِأَحْسَنِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ » وقال هشام بن عروة . كان عليه السلام يردد قوله هذا سبع مرات . وكل من اعتاد المجادلة مدة ، وأثنى الناس عليه ، ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا ، قويت فيه هذه المهلكات ، ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب ، والكبر ، والرياء ، وحب الجاه ، والتعزز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها ، فكيف بمجموعها !

الآفة الخامسة

الخصومة

وهى أيضا مذمومة . وهى وراء الجدال والمراء . فالمراء طعن فى كلام الغير ، بإظهار خلل فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار مزية الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج فى الكلام ، ليستوفى به مال أو حق مقصود . وذلك تارة يكون ابتداء ، وتارة يكون اعتراضا . والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق . فقد قالت عائشة رضى الله عنها ، [٢] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ » وقال أبو هريرة ، [٣] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ جَادَلَ فِى خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِى سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ »

---

(١) حديث رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة الا بأحسن مايقدر عليه : ابن أبى الدنيا باسناد ضعيف من حديث هشام بن عروة عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية هشام عن عائشة بلفظ رحم الله امرأ كف لسانه عن إعراض المسلمين وهو منقطع وضعيف جدا

(الآفة الخامسة الخصومة)

(٢) حديث عائشة ان أبغض الرجال الى الله الألد الخصم : خ وقد تقدم

(٣) حديث أبى هريرة من جادل فى خصومة بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع : ابن أبى الدنيا والأصفهانى فى الترغيب والترهيب وفيه رجاء أبو يحيى ضعفه الجمهور

وقال بعضهم ، إياك والخصومة ، فإنها تمحق الدين . ويقال ماخاصم ورع قط فى الدين

وقال ابن قتيبة ، مرّ بى بشر بن عبد الله بن أبى بكرة ، فقال ما يجلسك ههنا ؟ قلت خصومة بينى وبين ابن عم لى . فقال إن لأبيك عندى يدا ، وأنى أريد أن أجزيك بها . وإنى والله ما رأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة . قال فقمت لأنصرف . فقال لى خصمى ، مالك ؟ قلت لا أخاصمك . قال إنك عرفت أن الحق لى . قلت لا ، ولكن أكرم نفسى عن هذا . قال فإنى لا أطلب منك شيئا هو لك

فإن قلت : فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة فى طلبه ، أو فى حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ؟ وكيف تذم خصومته

فاعلم أن هـذا الذم يتناول الذى يخاصم بالباطل ، والذى يخاصم بغير علم ، مثل وكيل القاضى ، فإنه قبل أن يتعرف أن الحق فى أى جانب ، هو يتوكل فى الخصومة من أى جانب كان ، فيخاصم بغير علم . ويتناول الذى يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة ، بل يظهر اللدد فى الخصومة ، على قصد التسلط ، أو على قصد الإيذاء

ويتناول الذى يمزج بالخصومة كلمات مؤذية ، ليس يحتاج إليها فى نصرة الحجة ، وإظهار الحق . ويتناول الذى يحمله على الخصومة محض العناد ، لقهر الخصم وكسره ، مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال . وفى الناس من يصرح به ويقول ، إنما قصدى عناده وكسر عرضه ، وإنى إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به فى بئر ولا أبالى . وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج ، وهو مذموم جدا .

فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع ، من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج ، على قدر الحاجة ، ومن غير قصد عناد وإيذاء ، ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلا . فإن ضبط اللسان فى الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب . وإذا هاج الغضب نسى المتنازع فيه ، وبقى الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان فى عرضه . فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات . وأقل ما فيه تشويش خاطره ، حتى إنه فى صلاته يشتغل بمحاجة خصمه ، فلا يبقى الأمر على حد الواجب .

فالخصومة مبدأ كل شر ، وكذا المراء والجدال . فينبغى أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغى أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة ، وذلك متعذر جدا فمن اقتصر على الواجب فى خصومته سلم من الإثم ، ولا تذم خصومته ، إلا أنه إن كان مستغنيا عن الخصومة فيما خاصم فيه ، لأن عنده ما يكفيه ، فيكون تاركا للأولى ، ولا يكون آثما . نعم أقل ما يفوته فى الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام ، وما ورد فيه من الثواب إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة فى الكلام أعظم من الطعن والاعتراض ، الذى حاصله إما تجهيل ، وإما تكذيب . فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه ، فقد جهله أو كذبه ، فيفوت به طيب الكلام

وقال صلى الله عليه وسلم «يُمَكِّنُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ طِيبُ الْكَلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ» وقد قال الله تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا [(١)]) وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، من سلم عليك من خلق الله ، فاردد عليه السلام وإن كان مجوسيا ، إن الله تعالى يقول (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا [(٢)]) وقال ابن عباس أيضا لو قال لى فرعون خيرا لرددت عليه . وقال أنس[(٢)] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ فِى الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللهُ تَعَالَى لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَلَانَ الْكَلَامَ »

وروى أن عيسى عليه السلام مر به خنزير ، فقال مر بسلام . فقيل يا روح الله أتقول هذا لخنزير ؟ فقال أكره أن أعود لسانى الشر . وقال نبينا عليه السلام[(٣)] « الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » وقال[(٤)] «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» وقال عمر رضى الله عنه ، البر شىء هين ، وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء ، الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة فى الجوارح . وقال بعض الحكماء ، كل كلام لا يسخط ربك

---

(١) حديث يمكنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام الطبرانى من حديث جابر وفيه من لا أعرفه وله من حديث هانى أبى شريح باسناد جيد وجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام

(٢) حديث أنس ان فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها ـ الحديث : ت وقد تقدم

(٣) حديث الكلمة الطيبة صدقة : م من حديث أبى هريرة

(٤) حديث اتقوا النار ولو بشق تمرة ـ الحديث : متفق عليه من حديث عدى ابن حاتم وقد تقدم

---

(١) البقرة : ٨٣ (٢) النساء : ٨٦

إلا أنك ترضى به جليسك ، فلا تكن به عليه بخيلا ، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين

وهذا كله فى فضل الكلام الطيب ، وتضاده الخصومة ، والمراء ، والجدال ، واللجاج فإنه الكلام المستكره الموحش ، المؤذى للقلب ، المنغص للعيش ، المهيج للغضب ، الموغر للصدر ، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

الآفة السادسة

التقعر فى الكلام

بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة ، والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات ، وما جرت به عادة المتفاصحين ، المدعين للخطابة . وكل ذلك من التصنع المذموم ، ومن التكلف الممقوت ، الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنَا وَأَتْقِيَاءُ أُمَّتِي بُرَآءُ مِنَ التَّكَلُّفِ » وقال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ فِي الْكَلاَمِ » وقالت فاطمة رضى الله عنها[2] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُّوا بِالنَّعِيمِ يَأْكُلُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ وَيَلْبَسُونَ أَلْوَانَ الثِّيَابِ وَيَتَشَدَّقُونَ فِي الْكَلاَمِ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « أَلاَ هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » ثلاث مرات . والتنطع هو التعمق والاستقصاء .

وقال عمر رضى الله عنه ، إن شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمرو بن سعد بن أبى وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة . فتكلم بين يدى حاجته بكلام . فقال له سعد ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[4] « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَتَخَلَّلُونَ الْكَلاَمَ بِأَلْسِنَتِهِمْ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ الْكَلَأَ بِأَلْسِنَتِهَا »

(الآفة السادسة التقعر فى الكلام والتشدق)

(١) حديث ان أبغضكم الى الله وأبعدكم منى مجلسا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون أحمد من حديث أبى ثعلبة وهو عند ت من حديث جابر وحسنه بلفظ ان أبغضكم الى

(٢) حديث فاطمة شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ــ الحديث : وفيه يتشدقون ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب

(٣) حديث ألا هلك المتنطعون م من حديث ابن مسعود

(٤) حديث سعد يأتى على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها رواه أحمد

وكأنه أنكر عليه ماقدمه على الكلام ، من التشبب ، والمقدمة المصنوعة المتكلفة وهذا أيضا من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصح الخارج عن حد العادة ، وكذلك التكلف بالسجع فى المحاورات ، إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرة فى الجنين ، فقال بعض قوم الجانى ، [1] كيف ندى من لاشرب ولاأكل ولا صاح ولا استهل ، ومثل ذلك بطل ! فقال « أَسَجْعًا كَسَجْعِ الْأَعْرَابِ » وأنكر ذلك ؛ لأن أثر التكلف والتصنع بيّن عليه . بل ينبغى أن يقتصر فى كل شىء على مقصوده ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم

ولا يدخل فى هذه تحسين ألفاظ الخطابة ، والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها ، وقبضها وبسطها ، فرشاقة اللفظ تأثير فيه ، فهو لائق به . فأما المحاورات التى تجرى لقضاء الحاجات ، فلا يليق بها السجع والتشدق ، والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة ، والتميز بالبراعة ، وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ، ويزجر عنه

الآفة السابعة

الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهى عنه ، ومصدره الخبث واللؤم . قال صلى الله عليه وسلم [2] « إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ » [3] ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن تسب قتلى بدر من المشركين ، فقال « لَا تَسُبُّوا هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ شَىْءٌ

---

(١) حديث كيف ندى من لاشرب ولاأكل الحديث : م من حديث المغيرة بن شعبة وأبى هريرة وأصلهما عند خ أيضا

(الآفة السابعة الفحش والسب وبذاءة اللسان)

(٢) حديث اياكم والفحش ـ الحديث : ن فى الكبرى فى التفسير والحاكم وصححه من حديث عبد الله ابن عمرو ورواه ابن حبان من حديث أبى هريرة .

(٣) حديث النهى عن سب قتلى بدر من المشركين ـ الحديث : ابن أبى الدنيا من حديث محمد بن على الباقر مرسلا ورجاله ثقات وللنسائى من حديث ابن عباس باسناد صحيح ان رجلا وقع فى أب للعباس كان فى الجاهلية فلطمه ـ الحديث : وفيه لاتسبوا أمواتنا فتؤذوا أحياتنا

بِمَا تَمُولُونَ وَتُؤْذُونَ الْأَحْيَاءَ أَلَا إِنَّ الْبِذَاءَ لُؤْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم[١] « لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَذِيءِ » وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « الْجَنَّةُ حَرَامٌ عَلَى كُلِّ فَاحِشٍ أَنْ يَدْخُلَهَا » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْأَذَى يَسْعَوْنَ بَيْنَ الْحَمِيمِ وَالْجَحِيمِ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ رَجُلٌ يَسِيلُ فُوهُ قَيْحًا ودَمًا فَيُقَالُ لَهُ مَا بَالُ الْأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بِنَا مِنَ الْأَذَى فَيَقُولُ إِنَّ الْأَبْعَدَ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ كَلِمَةٍ قَذِعَةٍ خَبِيثَةٍ فَيَسْتَلِذُّهَا كَمَا يَسْتَلِذُّ الرَّفَثَ » وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة[٤] « يَا عَائِشَةُ لَوْ كَانَ الْفُحْشُ رَجُلًا لَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٥] « الْبَذَاءُ وَالْبَيَانُ شُعْبَتَانِ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ » فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضا المبالغة في الإيضاح ، حتى ينتهي إلى حد التكلف ، ويحتمل أيضا البيان في أمور الدين ، وفي صفات الله تعالى ، فإن القاء ذلك مجملا إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه ، إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب . ولكن ذكره مقرونا بالبذاء ، يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه ، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل ، دون الكشف والبيان

وقال صلى الله عليه وسلم[٦] « إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ الصَّيَّاحَ فِي الْأَسْوَاقِ »

---

(١) حديث ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي : ت باسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب والحاكم وصححه وروى موقوفا قال الدار قطني في العلل والموقوف أصح

(٢) حديث الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها : ابن أبي الدنيا وأبو نعيم في الحلية من حديث عبد الله بن عمرو

(٣) حديث أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى ـ الحديث : وفيه ان الابعد كان ينظر الى كل كلمة خبيثة فيستلذها كما يستلذ الرفث ابن أبي الدنيا من حديث شفي بن ماتع واختلف في صحبته فذكره أبو نعيم في الصحابة وذكره خ حب في التابعين

(٤) حديث يا عائشة لو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء : ابن أبي الدنيا من رواية ابن لهيعة عن أبي النضر عن أبي سلمة عنها

(٥) حديث البذاء والبيان شعبتان من النفاق : ت وحسنه و ك وصححه على شرطهما من حديث أبي امامة وقد تقدم

(٦) حديث ان الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش الصياح في الاسواق : ابن أبي الدنيا من حديث جابر بسند ضعيف وله وللطبراني من حديث أسامة بن زيد ان الله لا يحب الفاحش المتفحش واسناده جيد

وقال جابر بن سمرة (١) ، كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي أمامي . فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْفُحْشَ وَالتَّفَاحُشَ لَيْسَا مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلَامًا أَحَاسِنُهُمْ أَخْلَاقًا »

وقال ابراهيم بن ميسرة : يقال يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة كلب أوفي جوف كلب . وقال الأحنف بن قيس ، ألا أخبركم بأدوإ الداء ، اللسان البذي ، والخلق الدني . فهذه مذمة الفحش

فأما حده وحقيقته ، فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة . وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به . فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكنون عنها ، ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها . وقال ابن عباس ، إن الله حيي كريم ، يعفو ويكنو . كنى باللمس عن الجماع . فالمسيس ، واللمس ، والدخول ، والصحبة ، كنايات عن الوقاع . وليست بفاحشة وهناك عبارات فاحشة ، يستقبح ذكرها ، ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير . وهذه العبارات متفاوتة في الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد ، وأوائلها مكروهة ، وأواخرها محظورة ، وبينهما درجات يترددفيها .

وليس يختص هذا بالوقاع ، بل بالكناية بقضاء الحاجة عن البول ، والغائط أولى من لفظ التغوط والخراء وغيرهما . وإن هذا أيضا مما يخفى ، وكل ما يخفى يستحيا منه ، فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة ، فإنه فحش

وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء ، فلا يقال قالت زوجتك كذا ، بل يقال قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أوقالت أم الأولاد ، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود ، والتصريح فيها يفضي إلى الفحش

وكذلك من به عيوب يستحيا منها ، فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها ، كالبرص ، والقرع ، والبواسير ، بل يقال العارض الذي يشكوه ، وما يجري مجراه . فالتصريح بذلك داخل في الفحش . وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون ، كان عمر بن عبد العزيز

(١) حديث جابر بن سمرة ان الفحش والتفحش ليسا من الاسلام في شيء الحديث : أحمد وابن أبي الدنيا باسناد صحيح

يتحفظ فى منطقه ، فخرج تحت إبطه خراج ، فأتيناه نسأله لنرى ما يقول ، فقلنا من أين خرج ؟ فقال من باطن اليد .

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم ، ومن عادتهم السب . وقال أعرابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم [1] أوصنى فقال « عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَإِنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِشَيْءٍ تَعْلَمُهُ فِيهِ يَكُنْ وَبَالُهُ عَلَيْهِ وَأَجْرُهُ لَكَ وَلاَ تَسُبَّنَّ شَيْئاً » قال فما سببت شيئا بعده

وقال عياض بن حمار [2] قلت يارسول الله ، إن الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال « الْمُتَسَابَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَعَاوَيَانِ وَيَتَهَارَجَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « سِبَابُ الْمُؤْمِنِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ فَعَلَى الْبَادِىءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِىَ الْمَظْلُومُ » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ وَالِدَيْهِ » وفى رواية « مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ أَنْ يَسُبَّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » قالوا يارسول الله ، كيف يسب الرجل والديه ؟ قال « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ الآخَرُ أَبَاهُ »

الآفة الثامنة

اللعن

إما لحيوان أو جماد أو إنسان . وكل ذلك مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث قال اعرابى أوصنى فقال عليك بتقوى الله وان امرؤ عيرك بشىء تعلمه فيك فلا تعيره بشىء تعلمه فيه ـ الحديث : أحمد والطبرانى باسناد جيد من حديث أبى جرى الهجيمى قيل اسمه جابر ابن سليم وقيل سليم بن جابر

(٢) حديث عياض بن حمار قلت يارسول الله الرجل من قومى يسبنى وهو دونى هل على من بأس ان أنتصر منه فقال المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران : د الطيالسى واصله عند أحمد

(٣) حديث سباب المسلم فسوق وقتاله كفر : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٤) حديث المستبان ماقالا فعلى البادىء حتى يعتدى المظلوم : م من حديث أبى هريرة وقال مالم يعتد

(٥) حديث ملعون من سب والديه وفى رواية من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث ابن عباس باللفظ الأول باسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثانى من حديث عبد الله بن عمرو

[1] « المؤمن ليس بلعان » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « لَا تَلَاعَنُوا بِلَعْنَةِ اللهِ وَلَا بِغَضَبِهِ وَلَا بِجَهَنَّمَ » وقال حذيفة ، ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول وقال عمران بن حصين[3] بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره ، إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها ، فلعنتها . فقال صلى الله عليه وسلم « خُذُوا مَا عَلَيْهَا وَأَعْرُوهَا فَإِنَّهَا مَلْعُونَةٌ » قال فكأنى أنظر إلى تلك الناقة تمشى بين الناس ، لا يتعرض لها احد

وقال أبو الدرداء ، ما لعن أحد الأرض إلا قالت ، لعن الله أعصانا لله . وقالت عائشة رضى الله عنها سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] أبابكر وهو يلعن بعض رقيقه ، فالتفت إليه وقال « يَاأَبَا بَكْرٍ أَصِدِّيقِينَ وَلَعَّانِينَ ! كَلَّا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ » مرتين أو ثلاثا ، فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال لا أعود

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] ، « إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُفَعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أنس[6] ، كان رجل يسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره ، فقال صلى الله عليه وسلم « يَاعَبْدَ اللهِ لَا تَسِرْ مَعَنَا عَلَى بَعِيرٍ مَلْعُونٍ » وقال ذلك إنكارا عليه

واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، أن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين

(الآفة الثامنة اللعن)

(١) حديث المؤمن ليس بلعان : تقدم حديث ابن مسعود ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ـ الحديث قبل هذا بأحد عشر حديثا وللترمذى وحسنه من حديث ابن عمر لايكون المؤمن لعانا

(٢) حديث لاتلاعنوا بلعنة الله ـ الحديث : ت د من حديث سمرة بن جندب قال ت حسن صحيح

(٣) حديث عمران بن حصين بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها ـ الحديث : رواه م

(٤) حديث عائشة سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه فقال ياأبا بكر لعانين وصديقين ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى الصمت وشيخه بشار ابن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأى فيه

(٥) حديث إن اللعانين لايكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة : م من حديث أبى الدرداء

(٦) حديث أنس كان رجل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير فلعن بعيره فقال ياعبد الله لاتسر معنا على بعير ملعون ابن أبى الدنيا باسناد جيد

وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع ، فإن في اللعنة خطرا ، لأنه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون ، وذلك غيب لا يطلع عليه غير الله تعالى ، ويطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أطلعه الله عليه

والصفات المقتضية للعن ثلاثة ، الكفر ، والبدعة ، والفسق . وللعن في كل واحدة ثلاثة مراتب

الأولى : اللعن بالوصف الأعم ، كقولك لعنة الله على الكافرين والمبتدعين ، والفسقة

الثانية : اللعن بأوصاف أخص منه ، كقولك لعنة الله على اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وعلى القدرية ، والخوارج ، والروافض ، أو على الزناة ، والظلمة ، وآكلي الربا ، وكل ذلك جائز ، ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر ، لأن معرفة البدعة غامضة ، ولم يرد فيه لفظ مأثور ، فينبغي أن يمنع منه العوام ، لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ، ويثير نزاعا بين الناس وفسادا

الثالثة . اللعن للشخص المعين ، وهذا فيه خطر . كقولك زيد لعنه الله ، وهو كافر ، أو فاسق ، أو مبتدع والتفصيل فيه ، أن كل شخص ثبتت لعنته شرعا ، فتجوز لعنته . كقولك فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعا . أما شخص بعينه في زماننا ، كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودي مثلا فهذا فيه خطر . فإنه ربما يسلم ؛ فيموت مقربا عند الله ، فكيف يحكم بكونه ملعونا ؟

فإن قلت . يلعن لكونه كافرا في الحال ، كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلما في الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد

فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله ، أي ثبته الله على الإسلام ، الذي هو سبب الرحمة . وعلى الطاعة . ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة . فإن هذا سؤال للكفر ، وهو في نفسه كفر . بل الجائز أن يقال ، لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدري ، والمطلق متردد بين الجهتين ، ففيه خطر ، وليس في ترك اللعن خطر

وإذا عرفت هذا في الكافر ، فهو في زيد الفاسق ، أو زيد المبتدع أولى . فلعن الأعيان فيه خطر ، لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عين قوما باللعن ، فكان يقول في دعائه على قريش ،[1] « اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ » وذكر جماعة

---

(١) حديث اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وذكر جماعة . متفق عليه من حديث ابن مسعود

قد ماتوا على الكفر بار حتى أن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه . إذ روى[1] أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا ، فنزل قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ[1]) يعنى أنهم ربما يسلمون ، فمن أين تعلم أنهم ملعونون

وكذلك من بان لنا موته على الكفر ، جاز لعنه ، وجاز ذمه ، إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يجز ، كما روى[2] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سأل أبا بكر رضى الله عنه عن قبر مر به ، وهو يريد الطائف . فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يارسول الله ، هذا قبر رجل كان أطعم للطعام ، وأضرب للهام من أبى قحافة . فقال أبو بكر ، يكلمنى هذا يارسول الله بمثل هذا الكلام ! فقال صلى الله عليه وسلم « اكْفُفْ عَنْ أَبِي بَكْرٍ » فانصرف ثم أقبل على أبى بكر فقال « يَاأَبَا بَكْرٍ إِذَا ذَكَرْتُمُ الْكُفَّارَ فَعَمِّمُوا فَإِنَّكُمْ إِذَا خَصَّصْتُمْ غَضِبَ الْأَبْنَاءُ لِلْآبَاءِ » فكف الناس عن ذلك

وشرب[3] نعيمان الخمر ، فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال بعض الصحابة ، لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به . فقال صلى الله عليه وسلم « لَا تَكُنْ عَوْنًا لِلشَّيْطَانِ

---

(١) حديث انه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة فى قنوته شهرا فنزل قوله تعالى ليس لك من الأمر شىء . الشيخان من حديث أنس دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة ثلاثين صباحا ـ الحديث : وفى رواية لهما قنت شهرا يدعو على رعل وذكوان ـ الحديث : ولهما من حديث أبى هريرة وكان يقول حين يفرغ من صلاة الفجر من القراءة ويكبر ويرفع رأسه ـ الحديث : وفيه اللهم العن لحيان ورعلا ـ الحديث : وفيه ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما أنزل الله ليس لك من الأمر شىء لفظ م

(٢) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله وعلى رسوله وهو سعيد ابن العاص فغضب ابنه ـ الحديث : د فى المراسيل من رواية على بن ربيعة قال لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة توجه من فوره ذلك إلى الطائف ومعه أبو بكر ومعه ابا سعيد بن العاص فقال أبو بكر لمن هذا القبر قالوا قبر سعيد بن العاص فقال أبو بكر لعن الله صاحب هذا القبر فانه كان يحاد الله ورسوله ـ الحديث : وفيه فاذا سببتم المشركين فسبوهم جميعا

(٣) حديث شرب نعيمان الخمر فحد مرات فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض الصحابة لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تكن عونا للشيطان على أخيك وفى رواية لا تقل هذا فانه يحب الله ورسوله ابن عبد البر فى الاستيعاب من طريق الزبير بن بكار

---

(١) آل عمران : ١٢٨

عَلَى أَخِيكَ » وفى رواية « لاَ تَقُلْ هَذَا فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ » فنهاه عن ذلك . وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز

وعلى الجملة ، ففي لعن الأشخاص خطر ، فليجتنب . ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلا . فضلا عن غيره

فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد ، لأنه قاتل الحسين أو آمر به ؟

قلنا : هذا لم يثبت أصلا ، فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت ، فضلا عن اللعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . نعم يجوز أن يقال قتل ابن ملجم عليا ، وقتل أبو لؤلؤة عمر رضي الله عنهم ، فإن ذلك ثبت متواترا . فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق . قال صلى الله عليه وسلم [1] « لاَ يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بِالْكُفْرِ وَلاَ يَرْمِيهِ بِالْفِسْقِ إِلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَا شَهِدَ رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ بِالْكُفْرِ إِلاَّ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَافِراً فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا فَقَدْ كَفَرَ بِتَكْفِيرِهِ إِيَّاهُ » وهذا معناه أن يكفره وهو يعلم أنه مسلم . فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها ، كان مخطئا لا كافرا . وقال معاذ [3] قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَنْهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلِماً أَوْ تَعْصِيَ إِمَاماً عَادِلاً »

والتعرض للأموات أشد . قال مسروق ، دخلت على عائشة رضي الله عنها ؛ فقالت ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت توفي . قالت رحمه الله ، قلت وكيف هذا ؟ قالت قال رسول الله

من رواية محمد بن عمرو بن حزم مرسلا ومحمد هذا ولد في حياته صلى الله عليه وسلم وسماه محمدا وكناه عبد الملك والبخاري من حديث عمر أن رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد جلده في الشرب فأتي به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم اللهم العنه ما أكثر ما يؤتى به فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله من حديث أبي هريرة في رجل شرب ولم يسم وفيه لا تعينوا عليه الشيطان وفي رواية لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم

(١) حديث لا يرمي رجل رجلا بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه ان لم يكن صاحبه كذلك : متفق عليه والسياق للبخاري من حديث أبي ذر مع تقديم ذكر الفسق

(٢) حديث ماشهد رجل على رجل بالكفر الا باء به أحدهما ان كان كافرا فهو كما قال وان لم يكن كافرا فقد كفر بتكفيره إياه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد بسند ضعيف

(٣) حديث معاذ أنهاك أن تشتم مسلما أو تعصي اماما عادلا : أبو نعيم في الحلية في أثناء حديث له طويل

صلى الله عليه وسلم [١] « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا » وقال عليه السلام [٢] « لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَتُؤْذُوا بِهِ الْأَحْيَاءَ » وقال عليه السلام [٣] « أَيُّهَا النَّاسُ احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي وَأَصْهَارِي وَلَا تَسُبُّوهُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ فَاذْكُرُوا مِنْهُ خَيْرًا »

فإن قيل : فهل يجوز أن يقال قاتل الحسين لعنه الله ؟ أو الآمر بقتله لعنه الله

قلنا الصواب أن يقال ، قاتل الحسين إن مات قبل التوبة لعنه الله . لأنه يحتمل أن يموت بعد التوبة . فإن وحشيا قاتل حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتله وهو كافر ، ثم تاب عن الكفر والقتل جميعا . ولا يجوز أن يلعن . والقتل كبيرة ، ولا تنتهى إلى رتبة الكفر . فإذا لم يقيد بالتوبة وأطلق ، كان فيه خطر . وليس فى السكوت خطر ، فهو أولى

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة ، وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعّان . فلا ينبغى أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين . فالاشتغال بذكر الله أولى ، فإن لم يكن ، ففى السكوت سلامة . قال مكى بن إبراهيم ، كنا عند ابن عون ، فذكروا بلال بن أبى بردة ، فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه . وابن عون ساكت . فقالوا يا ابن عون ، إنما نذكره لما ارتكب منك ، فقال إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتى يوم القيامة . لا إله إلا الله ، ولعن الله فلانا . فلأن يخرج من صحيفتى لا إله إلا الله ، أحب إلىّ من أن يخرج منها لعن الله فلانا . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] أوصنى ، فقال « أُوصِيكَ أَنْ لَا تَكُونَ لَعَّانًا »

---

(١) حديث عائشة لاتسبوا الاموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا : خ وذكر المصنف فى أوله قصة لعائشة وهو عند ابن المبارك فى الزهد والرقائق مع القصة

(٢) حديث لاتسبوا الاموات فتؤذوا الاحياء : الترمذى من حديث المغيرة بن شعبة ورجاله ثقات إلا أن بعضهم أدخل بين المغيرة وبين زياد بن علاقة رجلا لم يسم

(٣) حديث أيها الناس احفظونى فى أصحابى واخوانى وأصهارى ولاتسبوهم ايها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيرا : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث عياض الانصارى احفظونى فى أصحابى وأصهارى واسناده ضعيف وللشيخين من حديث أبى سعيد وأبى هريرة لاتسبوا أصحابى ولأبى داود والترمذى وقال غريب من حديث ابن عمر اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم وللنسائى من حديث عائشة لاتذكروا موتاكم الا بخير واسناده جيد

(٤) حديث قال رجل أوصنى قال أوصيك أن لاتكون لعانا : أحمد والطبرانى وابن أبى عاصم فى الآحاد والثانى من حديث جرموز الهجيمى وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبى عاصم

وقال ابن عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان ، وقال بعضهم : لعن المؤمن يعدل قتله . وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا : لو قلت إنه مرفوعا لم أبال . وعن أبي قتادة ، قال[1] كان يقال من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله . وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر ، حتى الدعاء على الظالم . كقول الإنسان مثلا لا صحح الله جسمه ، ولا سلمه الله ، وما يجري مجراه . فإن ذلك مذموم . وفي الخبر[2] « إِنَّ الْمَظْلُومَ لَيَدْعُو عَلَى الظَّالِمِ حَتَّى يُكَافِئَهُ ثُمَّ يَبْقَى لِلظَّالِمِ عِنْدَهُ فَضْلَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

الآفة التاسعة

الغناء والشعر

وقد ذكرنا في كتاب السماع ما يحرم من الغناء وما يحل ، فلا نعيده

أما الشعر ، فكلام حَسَنُهُ حَسَنٌ ، وقبيحه قبيح . إلا أن التجرد له مذموم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا » وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر ، فكرهه ، فقيل له في ذلك ، فقال أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر ، فقال اجعل مكان هذا ذكرا ، فإن ذكر الله خير من الشعر .

وعلى الجملة : فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام ، إذا لم يكن فيه كلام مستكره . قال صلى الله عليه وسلم[4] « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً » نعم مقصود الشعر المدح ، والذم ، والتشبيب ، وقد يدخله الكذب . وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[5] حسان بن ثابت

---

(١) حديث لعن المؤمن كقتله : متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك .

(٢) حديث ان المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضلة يوم القيامة : لم أقف له على أصل . وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف من دعا على من ظلمه فقد انتصر

﴿ الآفة التاسعة الغناء والشعر ﴾

(٣) حديث لأن يمتلئ جوف احدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلئ شعرا : مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص واتفق عليه الشيخان من حديث أبي هريرة نحوه والبخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد

(٤) حديث ان من الشعر لحكمة : تقدم في العلم وفي آداب السماع

(٥) حديث أمره حسانا أن يهجو المشركين : متفق عليه من حديث البراء انه صلى الله عليه وسلم قال لحسان أهجهم وجبريل معك

الانصارى بهجاء الكفار . والتوسع فى المدح ، فإنه وإن كان كاذبا ، فإنه لا يلتحق فى التحريم بالكذب . كقول الشاعر

ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء . فإن لم يكن صاحبه سخيا ، كان كاذبا . وإن كان سخيا . فالمبالغة من صنعة الشعر ، فلا يقصد منه أن يعتقد صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو تتبعت ، لوجد فيها مثل ذلك ، فلم يمنع منه قالت عائشة رضى الله عنها : [١] «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نورا ، قالت فبهت ، فنظر إلىّ فقال « مَالَكِ بَهِتِّ ؟ » فقلت يارسول الله ، نظرت إليك ، فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولو رآك أبو كبير الهذلى ، لعلم أنك أحق بشعره . قال « وَمَا يَقُولُ يَا عَائِشَةُ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ ؟ » قلت يقول هذين البيتين

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قال فوضع صلى الله عليه وسلم ما كان بيده ، وقام إلىّ ، وقبل ما بين عينى ، وقال «جَزَاكِ اللهُ خَيْراً يَا عَائِشَةُ مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُورِي مِنْكِ » [٢] ولما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين ، أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص ، فاندفع يشكو فى شعره وفى آخره

---

(١) حديث عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت أغزل قالت فنظرت إليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا ـ الحديث : وفيه انشاد عائشة لشعر أبى كبير الهذلى

ومبرأ من كل غبر حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل

فاذا نظرت الى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

الى آخر الحديث : رواه البيهقى فى دلائل النبوة

(٢) حديث لما قسم الغنائم أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص وفى آخره شعره

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عنى لسانه ـ الحديث : مسلم من حديث رافع بن خديج أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أباسفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأقرع ابن حابس كل انسان منهم مائة من الابل وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس

وما كان بدر ولا حابس . يسودان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرىء منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم « اقْطَعُوا عَنِّى لِسَانَهُ » فذهب به أبو بكر الصديق رضى الله عنه حتى اختار مائة من الإبل ، ثم رجع وهو من أرضى الناس . فقال له صلى الله عليه وسلم « أَتَقُولُ فِيَّ الشِّعْرَ ؟ » فجعل يعتذر إليه ويقول ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ، ثم يقرضنى كما يقرض النمل ، فلا أجدبدا من قول الشعر . فتبسم صلى الله عليه وسلم وقال « لاَ تَدَعُ الْعَرَبُ الشِّعْرَ حَتَّى تَدَعَ الْإِبِلُ الْحَنِينَ »

الآفة العاشرة

المزاح

وأصله مذموم منهى عنه ، إلا قدرا يسيرا يستثنى منه . قال صلى الله عليه وسلم [(1)] « لاَ تُمَارِ أَخَاكَ وَلاَ تُمَازِحْهُ »

فإن قلت : المماراة فيها إيذاء ، لأن فيها تكذيبا للأخ والصديق ، أو تجهيلا له ، وأما المزاح فطايبة ، وفيه انبساط وطيب قلب ، فلم ينهى عنه؟

فاعلم . أن المنهى عنه الإفراط فيه ، أو المداومة عليه

أما المداومة ، فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه ، واللعب مباح ، ولكن المواظبة عليه مذمومة

وأما الإفراط فيه ، فإنه يورث كثرة الضحك ، وكثرة الضحك تميت القلب ، وتورث الضغينة فى بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم ،

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

قال فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وزاد فى رواية وأعطى علقمة بن علاثة مائة وأما زيادة اقطعوا عنى لسانه فليست فى شىء من الكتب المشهورة

(الآفة العاشرة المزاح)

(١) حديث لا تمار أخاك ولا تمازحه : الترمذى وقد تقدم

لم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [١] « إنّي لأمزحُ ولا أقولُ إلاّ حقًا » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقا . وأما غيره إذا فتح باب المزاح ، كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ يُضْحِكُ بِهَا جُلَسَاءَهُ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا »

وقال عمر رضي الله عنه ، من كثر ضحكه ، قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال صلى الله عليه وسلم [٣] « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً »

وقال رجل لأخيه يا أخي ؛ هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال . فهل أتاك أنك خارج منها ؟ قال : لا قال . ففيم الضحك ؟ قيل فما رئي ضاحكا حتى مات ، وقال يوسف بن أسباط أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك . وقيل : أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك . ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر ، فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين . وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول ، أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ! وقال ابن عباس ، من أذنب ذنبا وهو يضحك ، دخل النار وهو يبكي . وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلا يبكي ، ألست تعجب من بكائه ؟ قيل بلى ، قال . فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه

فهذه آفة الضحك . والمذموم منه أن يستغرق ضحكا . والمحمود منه التبسم الذي ينكشف فيه السن ، ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] قال القاسم مولى معاوية [٥] أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، على قلوص له صعب

---

(١) حديث أني امزح ولا أقول الا حقا : تقدم

(٢) حديث ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا : تقدم

(٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : متفق عليه من حديث أنس وعائشة

(٤) حديث كان ضحكه التبسم : تقدم

(٥) حديث القاسم مولى معاوية أقبل اعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم على قلوص له صعب فسلم فجعل كلما دنا الى النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله يفر به وجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون منه

فسلّم ، فجعل كلما دنا من النبي صلى الله عليه وسلم ليسأله ، يقربا ، فيضحك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون منه . ففعل ذلك مرارا ثم وقصه فقتله ، فقيل يارسول الله ، إن الأعرابى قد صرعه قلوصه وقد هلك . فقال « نَعَمْ وَأَفْوَاهُكُمْ مَلأَى مِنْ دَمِهِ »

وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار ، فقد قال عمر رضى الله عنه ، من مزح استخف به وقال محمد بن المنكدر ، قالت لى أمى ، يابنى لا تمازح الصبيان فتهون عندهم . وقال سعيد ابن العاص لابنه ، يابنىّ لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترىء عليك . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى ، اتقوا الله وإياكم والمزاح ، فإنه يورث الضغينة ، ويجر إلى القبيح . تحدثوا بالقرءان ، وتجالسوا به ، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال . وقال عمر رضى الله عنه . أتدرون لم سمي المزاح مزاحا ؟ قالوا لا . قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق . وقيل لكل شيء بذور ، وبذور العداوة المزاح . ويقال المزاح مسلبة للنهى ، مقطعة للأصدقاء .

فإن قلت . قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه فأقول . إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفرط فيه ، وتقتصر عليه أحيانا على الندور فلا حرج عليك فيه . ولكن من الغلط العظيم ، أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة يواظب عليه ، ويفرط فيه ، ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو كمن يدور نهاره مع الزنوج ، ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد[1] . وهو خطأ . إذ من الصغائر مايصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات مايصير صغيرة بالإصرار . فلا ينبغى أن يغفل عن هذا

---

*ففعل ذلك ثلاث مرات ثم وقصه فقتله فقيل يارسول الله ان الاعرابى قد صرعه قلوصه فهلك قال نعم وأفواهكم ملأى من دمه : ابن المبارك فى الزهد والرقائق وهو مرسل

(١) حديث أذنه لعائشة فى النظر إلى رقص الزنوج فى يوم عيد : تقدم

نعم روى أبو هريرة [١] أنهم قالوا يارسول الله، إنك تداعبنا ، فقال « إِنِّي وَإِنْ دَاعَبْتُكُمْ لاَأَقُولُ إِلاَّ حَقًّا » وقال عطاء ، [٢] إن رجلا سأل ابن عباس ، أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ؟ فقال نعم . قال فما كان مزاحه ؟ قال كان مزاحه : إنه صلى الله عليه وسلم كسا ذات يوم امرأة من نسائه ثوبا واسعا ، فقال لها « الْبَسِيهِ وَاحْمَدِي ، وَجُرِّي مِنْهُ ذَيْلاً كَذَيْلِ الْعَرُوسِ » وقال أنس ، إن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] كان من أفكه الناس مع نسائه . وروى [٤] أنه كان كثير التبسم . وعن الحسن [٥] قال ، أتت عجوز إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها صلى الله عليه وسلم « لاَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ » فبكت فقال « إِنَّكِ لَسْتِ بِعَجُوزٍ يَوْمَئِذٍ » قال الله تعالى (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً [١])

وقال زيد بن أسلم [٦] إن امرأة يقال لها أم أيمن ، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ، إن زوجي يدعوك . قال « وَمَنْ هُوَ ؟ أَهُوَ الَّذِي بِعَيْنِهِ بَيَاضٌ ؟ » قالت والله مابعينه بياض . فقال « بَلَى إِنَّ بِعَيْنِهِ بَيَاضاً » فقالت لا والله . فقال صلى الله عليه وسلم « مَامِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَبِعَيْنِهِ بَيَاضٌ » وأراد به البياض المحيط بالحدقة . وجاءت امرأة أخرى فقالت [٧] يارسول الله ، احملني على بعير . فقال « بَلْ نَحْمِلُكِ عَلَى ابْنِ الْبَعِيرِ » فقالت ماأصنع به ؟ إنه لايحملني . فقال صلى الله عليه وسلم « مَامِنْ بَعِيرٍ إِلاَّ وَهُوَ ابْنُ بَعِيرٍ » فكان يمزح به

---

(١) حديث أبي هريرة قالوا أنك تداعبنا قال أني وان داعبتكم فلاأقول الاحقا : الترمذي وحسنه

(٢) حديث عطاء ان رجلا سأل ابن عباس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح فقال ابن عباس نعم ـ الحديث : فذكر منه قوله لامرأة من نسائه البسيه واحمدي وجري منه ذيلا كذيل العروس لم أقف عليه

(٣) حديث أنس كان من أفكه الناس : تقدم

(٤) حديث انه كان كثير التبسم

(٥) حديث الحسن لايدخل الجنة عجوز : الترمذي في الشمائل هكذا مرسلا وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف

(٦) حديث زيد بن أسلم في قوله لامرأة يقال لها أم ايمن قالت ان زوجي يدعوك أهو الذي بعينه بياض ـ الحديث : الزبير ابن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف

(٧) حديث قوله لامرأة استحملته نحملك على ابن البعير ـ الحديث : ابوداود والترمذي وصححه من حديث أنس بلفظ اناحاملك على ولد الناقة

---

(١) الواقعة : ٣٥

وقال أنس ، كان لأبى طلحة ابن يقال له أبو عمير [١] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ويقول « يَا أَبَا عُمَيْرٍ مَافَعَلَ النُّغَيْرُ » لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور ،

وقالت عائشة رضى الله عنها [٢] ، خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فقال « تَعَالِى حَتَّى أُسَابِقَكِ » فشددت درعى على بطنى ، ثم خططنا خطا ، فقمنا عليه واستبقنا ، فسبقنى . وقال « هَذِهِ مَكَانَ ذِى الْمَجَازِ » وذلك أنه جاء يوما ونحن بذى المجاز ، وأنا جارية قد بعثنى أبى بشىء ، فقال أعطينيه ، فأبيت وسعيت ، وسعى فى أثرى ، فلم يدركنى . وقالت أيضا [٣] ، سابقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته ، فلما حملت اللحم سابقنى فسبقنى وقال « هَذِهِ بِتِلْكَ » وقالت أيضا رضى الله عنها [٤] ، كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسودة بنت زمعة ، فصنعت حريرة وجئت به ، فقلت لسودة كلى . فقالت لا أحبه ، فقلت والله لتأكلن أولأ لطخن به وجهك ، فقالت ما أنا بذائقته . فأخذت بيدى من الصحفة شيئا منه . فلطخت به وجهها ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بينى وبينها . فخفض لها رسول الله ركبتيه لتستقيد منى . فتناولت من الصحفة شيئا ، فمسحت به وجهى وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك

وروى أن الضحاك بن سفيان الكلابى ، [٥] كان رجلا دميما قبيحا ، فلما بايعه النبى صلى الله عليه وسلم ، قال إن عندى امرأتين أحسن من هذه الحميراء ، وذلك قبل أن تنزل

---

(١) حديث أنس أباعمير مافعل النغير : متفق عليه وتقدم فى أخلاق النبوة

(٢) حديث عائشة فى مسابقته صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر فسبقها وقال هذه بمكان ذى المجاز : لم أجد له أصلا ولم تكن عائشة معه فى غزوة بدر

(٣) حديث عائشة سابقنى فسبقته : النسائى وابن ماجه وقد تقدم فى النكاح

(٤) حديث عائشة فى لطخ وجه سودة بحريرة ولطخ سودة وجه عائشة فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك الزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة وأبو يعلى باسناد جيد

(٥) حديث أن الضحاك بن سفيان الكلابى قال عندى امرأتان أحسن من هذه الحميراء أفلا أنزل لك عن إحداهما فتتزوجها وعائشة جالسة قبل أن يضرب الحجاب فقالت أهى أحسن أم أنت فقال بل أنا أحسن منها وأكرم فضحك النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان دميما : الزبير بن بكار فى الفكاهة من رواية عبد الله بن حسن مرسلا أو معضلا وللدارقطنى نحو هذه القصة مع عيينة ابن حصن الفزارى بعد نزول الحجاب من حديث أبى هريرة

أيه تخجلين؟ ألا أنزل لك عن إحداهما تتزوجها؟ وعائشة جالسة تسمع فقالت، أهي أحسن أم أنت؟ فقال بل أنا أحسن منها وأكرم. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم من سؤالها إياه، لأنه كان دميا

وروى علقمة عن أبي سلمة[١]، أنه كان صلى الله عليه وسلم يدلع لسانه للحسن بن علي عليهما السلام، فيرى الصبي لسانه، فيهش له. فقال له عيينة بن بدر الفزاري، والله ليكونن لي الابن قد تزوج، وبقل وجهه، وما قبلته قط. فقال صلى الله عليه وسلم «إِنَّ مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ»

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان. وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم معالجة لضعف قلوبهم، من غير ميل إلى هزل. وقال صلى الله عليه وسلم[٢] مرة لصهيب وبه رمد، وهو يأكل تمراً «أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَأَنْتَ رَمِدٌ؟» فقال: إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله. فتبسم صلى الله عليه وسلم. قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه.

وروى[٣] أن خوات بن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة. فطلع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ مَالَكَ مَعَ النِّسْوَةِ؟» فقال يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود. قال فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته، ثم عاد

---

(١) حديث أبي سلمة عن أبي هريرة انه صلى الله عليه وسلم كان يدلع لسانه للحسن بن علي فيرى الصبي لسانه فيهش اليه فقال عيينة بن بدر الفزاري والله ليكونن لي الابن رجلا قد خرج وجهه وماقبلته قط فقال ان من لا يرحم لا يرحم: أبو يعلى من هذا الوجه دون ما في آخره من قول عيينة ابن بدر وهو عيينة بن حصن بن بدر ونسب إلى جده وحكى الخطيب في المبهمات قولين في قائل ذلك أحدهما انه عيينة بن حصن والثاني انه الأقرع بن حابس وعند مسلم من رواية الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ان الأقرع بن حابس أبصر النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن فقال ان لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لا يرحم لا يرحم

(٢) حديث قال لصهيب وبه رمد أتأكل التمر وأنت رمد فقال انما آكل على الشق الآخر فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم: ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات

(٣) حديث ان خوات بن جبير كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أبا عبد الله مالك مع النسوة فقال يفتلن ضفيرا لجمل لي شرود ـ الحديث: الطبراني في الكبير من رواية زيد بن أسلم عن خوات بن جبير مع اختلاف ورجاله ثقات وأدخل بعضهم بين زيد وبين خوات ربيعة بن عمرو

فقال «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَمَا تَرَكَ ذَلِكَ الْجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ ؟» قال فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك أتفرر منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمت المدينة، وبعد ما قدمت المدينة، قال فرآني في المسجد يوما أصلي، فجلس إلي، فطولت، فقال «لَا تُطَوِّلْ فَإِنِّي أَنْتَظِرُكَ» فلما سلمت قال «يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَمَا تَرَكَ ذَلِكَ الْجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ ؟» قال فسكت واستحييت، فقام، وكنت بعد ذلك أتفرر منه، حتى لحقني يوما وهو على حمار، وقد جعل رجليه في شق واحد فقال «أَبَا عَبْدِ اللهِ أَمَا تَرَكَ ذَلِكَ الْجَمَلُ الشِّرَادَ بَعْدُ ؟» فقلت والذي بعثك بالحق ماشرد منذ أسلمت فقال «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ اللَّهُمَّ اهْدِ أَبَا عَبْدِ اللهِ» قال فحسن إسلامه وهداه الله

وكان نعيمان الأنصاري[1] رجلا مزاحا، فكان يشرب الخمر في المدينة، فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فيضربه بنعله، ويأمر أصحابه فيضربونه بنعالهم. فلما كثر ذلك منه، قال له رجل من الصحابة: لعنك الله. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «لَا تَفْعَلْ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ» وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول يارسول الله، هذا قد اشتريته لك، وأهديته لك. فإذا جاء صاحبها يتقاضاه بالثمن، جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال يارسول الله، أعطه ثمن متاعه. فيقول له صلى الله عليه وسلم «أَوَ لَمْ تُهْدِهِ لَنَا ؟» فيقول يارسول الله، إنه لم يكن عندي ثمنه، وأحببت أن تأكل منه. فيضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ويأمر لصاحبه بثمنه

فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور، لا على الدوام. والمواظبة عليها هزل مذموم، وسبب للضحك المميت للقلب

الآفة الحادية عشرة

السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذيا، كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ

---

(١) حديث كان نعيمان رجلا مزاحا وكان يشرب فيؤتى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيضربه ـ الحديث وفيه انه كان يشتري الشيء ويهديه الى النبي صلى الله عليه وسلم ثم يجيء بصاحبه فيقول اعطه ثمن متاعه ـ الحديث: الزبير بن بكار في الفكاهة ومن طريقه ابن عبد البر من رواية محمد ابن عمرو بن حزم مرسلا وقد تقدم أوله

﴿ الآفة الحادية عشرة السخرية والاستهزاء ﴾

عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ [١]) ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير ، والتنبيه على العيوب والنقائص ، على وجه يضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة فى الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء . وإذا كان بحضرة المستهزأ به ، لم يسم ذلك غيبة ، وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها ، [١] حاكيت إنسانا ، فقال لى النبي صلى الله عليه وسلم « وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّى حَاكَيْتُ إِنْسَانًا وَلِى كَذَا وَكَذَا » وقال ابن عباس فى قوله تعالى : (يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا [٢]) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن ، والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمعة [٢] أنه قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فوعظهم فى ضحكهم من الضرطة فقال « عَلَامَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ ! » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالنَّاسِ يُفْتَحُ لِأَحَدِهِمْ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ فَيُقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ آخَرُ فَيُقَالُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ فَإِذَا أَتَاهُ أُغْلِقَ دُونَهُ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَحُ لَهُ الْبَابُ فَيُقَالُ لَهُ هَلُمَّ هَلُمَّ فَلَا يَأْتِيهِ »

وقال معاذ بن جبل ؛ [٤] قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ عَيَّرَ أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَعْمَلَهُ » وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير ، والضحك عليه استهانة به واستصغارا له . وعليه نبه قوله تعالى (عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ [٣]) أي لا تستحقره استصغارا ، فلعله خير منك . وهذا إنما يحرم فى حق من يتأذى به .

---

(١) حديث عائشه حكيت انسانا فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم ما يسرنى انى حاكيت انسانا ولى كذ وكذا : أبو داود والترمذى وصححه

(٢) حديث عبد الله بن زمعة وعظهم فى الضحك من الضرطة وقال علام يضحك أحدكم مما يفعل : متفق عليه

(٣) حديث ان المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فاذا جاء أغلق دونه ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى الصمت من حديث الحسن مرسلا ورويناه فى ثمانيات النجيب من رواية أبى هدبة أحد الهالكين عن أنس

(٤) حديث معاذ بن جبل من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله : الترمذى دون قوله قد تاب منه وقال حسن غريب وليس اسناده بمتصل قال الترمذى قال أحمد بن منيع قالوا من ذنب قد تاب منه

---

(١) الحجرات : ١١ (٢) الكهف : ٤٩ (٣) الحجرات : ١١

وأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح . وقد سبق مايذم منه وما يمدح . وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوسة ، كالضحك على خطه ، وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيرا ، أو ناقصا لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها

الآفة الثانية عشرة

إفشاء السر

وهو منهي عنه ، لما فيه من الإيذاء ، والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ الْحَدِيثَ ثُمَّ الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ » وقال [2] مطلقا « الْحَدِيثُ بَيْنَكُمْ أَمَانَةٌ » وقال الحسن . إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك

ويروى أن معاوية رضي الله عنه ، أسر إلى الوليد بن عتبة حديثا . فقال لأبيه ، ياأبت إن أمير المؤمنين أسر إلي حديثا ، وما أراه يطوى عنك مابسطه إلى غيرك . قال فلا تحدثني به ، فإن من كتم سره كان الخيار إليه ؛ ومن أفشاه كان الخيار عليه . قال . فقلت ياأبت ، وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يابني ، ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر . قال : فأتيت معاوية فأخبرته ، فقال . ياوليد ، أعتقك أبوك من رق الخطأ

فإفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار . وقد ذكرنا مايتعلق بكتمان السر في كتاب آداب الصحبة ، فأغنى عن الإعادة

الآفة الثالثة عشرة

الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لاتسمح بالوفاء ، فيصير الوعد خلفا ، وذلك

﴿ الآفة الثانية عشرة افشاء السر ﴾

(١) حديث اذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة : أبو داود والترمذي وحسنه من حديث جابر

(٢) حديث الحديث بينكم أمانة : ابن أبي الدنيا من حديث ابن شهاب مرسلا

(الآفة الثالثة عشرة الوعد الكاذب)

من أمارات النفاق قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [١]) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « العِدَةُ عَطِيَّةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الْوَأْيُ مِثْلُ الدَّيْنِ أَوْ أَفْضَلُ » والوأى الوعد . وقد أثنى الله تعالى على نبيه اسمعيل عليه السلام ، فى كتابه العزيز ؛ فقال (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ [٢]) قيل إنه وعد إنسانا فى موضع ، فلم يرجع إليه ذلك الإنسان بل نسى . فبقى إسمعيل اثنين وعشرين يوما فى انتظاره

ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال ، إنه كان خطب إلىّ ابنتى رجل من قريش وقد كان منى إليه شبه الوعد ، فو الله لا ألقى الله بثلث النفاق ، أشهدكم أنى قد زوجته ابنتى [٣] وعن عبد الله بن أبى الخنساء قال: بايعت النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية ، فواعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك ، فنسيت يومى والغد ، فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه ، فقال « يَافَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَاهَهُنَا مُنْذُ ثَلَاثٍ أَنْتَظِرُكَ » وقيل لإبراهيم الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجىء . قال . ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التى تجىء وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] إذا وعد وعدا قال « عَسَى » وكان ابن مسعود لا يعد وعدا إلا ويقول إن شاء الله ، وهو الأولى ثم إذا فهم مع ذلك الجزم فى الوعد ، فلابد من الوفاء ، إلا أن يتعذر . فإن كان عند الوعد عازما على أن لا يفى ، فهذا هو النفاق .

وقال أبو هريرة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم [٥] « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ »

---

(١) حديث العدة عطية :الطبرانى فى الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم فى الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن ابى الدنيا فى الصمت والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلا

(٢) حديث الوأى مثل الدين أو أفضل :ابن أبى الدنيا فى الصمت من رواية أبن لهيعة مرسلا وقال الوأى يعنى الوعد ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث على بسند ضعيف

(٣) حديث عبد الله بن أبى الخنساء بايعت النبى صلى الله عليه وسلم فوعدته أن آتيه بها فى مكانه ذلك فنسيت يومى والغد فأتيته اليوم الثالث وهو فى مكانه فقال يابنى قد شققت على أنا هېنا منذ ثلاث انتظرك :رواه ابو داود واختلف فى اسناده وقال ابن مهدى ما اظن ابراهيم ابن طهمان الا اخطأ فيه

(٤) حديث كان إذا وعد وعدا قال عسى : لم اجد له اصلا

(٥) حديث ابى هريرة ثلاث من كن فيه فهو منافق ـ الحديث : وفيه إذا وعد اخلف متفق عليه وقد تقدم

---

[١] المائدة : ١ [٢] مريم : ٥٤

وقال عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَلَّةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » وهذا ينزل على من وعد وهو على عزم الخلف ، أو ترك الوفاء عن غير عذر . فأما من عزم على الوفاء ، فعنّ له عذر منعه من الوفاء ، لم يكن منافقا ، وإن جرى عليه ماهو صورة النفاق .

ولكن ينبغى أن يحترز من صورة النفاق أيضا ، كما يحترز من حقيقته . ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذورا من غير ضرورة حاجزة ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] ، كان وعد أبا الهيثم بن التيهان خادما ، فأتى بثلاثة من السبي ، فأعطى اثنين وبقى واحد فأتت فاطمة رضى الله عنها تطلب منه خادما وتقول . ألا ترى أثر الرحى بيدى ؟ فذكر موعده لأبى الهيثم ، فجعل يقول « كَيْفَ بِمَوْعِدِي لِأَبِي الْهَيْثَمِ » فآثره به على فاطمة ، لما كان قد سبق من موعده له ، مع أنها كانت تدير الرحى بيدها الضعيفة .

[٣] ولقد كان صلى الله عليه وسلم جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين ، فوقف عليه رجل من الناس ، فقال إن لى عندك موعدا يارسول الله ، قال « صَدَقْتَ فَاحْتَكِمْ مَاشِئْتَ » فقال أحتكم ثمانين ضائية وراعيها . قال « هِيَ لَكَ » وقال « احْتَكَمْتَ يَسِيراً وَلَصَاحِبَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّتِي دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ كَانَتْ أَحْزَمَ مِنْكَ وَأَجْزَلَ حُكْماً مِنْكَ حِينَ حَكَّمَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَتْ حُكْمِي أَنْ تَرُدَّنِي شَابَّةً وَأَدْخُلَ مَعَكَ الْجَنَّةَ »

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو اربع من كن فيه كان منافقا ـ الحديث متفق عليه

(٢) حديث كان وعد ابا الهيثم بن النيهان خادما فأتى بثلاثة من السبى فأعطى اثنين وبقى واحد فجاءت فاطمة تطلب منه ـ الحديث : وفيه فجعل يقول كيف بموعدى لأبى الهيثم فآثره به على فاطمة تقدم ذكر قصة أبى الهيثم فى آداب الأكل وهى عند الترمذى من حديث أبى هريرة وليس فيها ذكر لفاطمة

(٣) حديث انه كان جالسا يقسم غنائم هوازن بحنين فوقف عليه رجل فقال ان لى عندك موعدا قال صدقت فاحتكم ما شئت ـ الحديث : وفيه لصاحبة موسى التى دلته على عظام يوسف كانت أحزم منك ـ الحديث : ابن حبان والحاكم فى المستدرك من حديث أبى موسى مع اختلاف قال الحاكم صحيح الاسناد وفيه نظر

قيل فكان الناس يضعفون ما احتكم به حتى جعل مثلا ، فقيل أشح من صاحب الثمانين والراعى وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لَيْسَ الْخُلْفُ أَنْ يَعِدَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ » وفى لفظ آخر « إِذَا وَعَدَ الرَّجُلُ أَخَاهُ وَفِي نِيَّتِهِ أَنْ يَفِيَ فَلَمْ يَجِدْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »

الآفة الرابعة عشرة

الكذب فى القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب ،وفواحش العيوب . قال اسماعيل بن واسط ، سمعت أبا بكر الصديق رضى الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال . [٢] ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ، ثم بكى وقال « إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ » وقال أبو أمامة . [٣] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْكَذِبَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النِّفَاقِ » وقال الحسن . كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذى بنى عليه النفاق الكذب وقال عليه السلام [٤] « كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثاً هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ

---

(١) حديث ليس الخلف ان يعد الرجل الرجل ومن نيته أن يفى وفى لفظ آخر إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا اثم عليه: أبو داود والترمذى وضعفه من حديث زيد بن أرقم باللفظ الثانى الا أنهما قالا فلم يف

(الآفة الرابعة عشرة الكذب فى القول واليمين)

(٢) حديث أبى بكر الصديق قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامى هذا عام أول ثم بكى وقال اياكم والكذب ـ الحديث : ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وجعله المصنف من رواية اسماعيل بن أوسط عن أبى بكر وانما هو أوسط بن اسماعيل بن أوسط واسناده حسن

(٣) حديث أبى أمامة ان الكذب باب من ابواب النفاق : ابن عدى فى الكامل بسند ضعيف وفيه عمر بن موسى الوجيهى ضعيف جدا ويغنى عنه قوله صلى الله عليه وسلم ثلاث من كن فيه فهو منافق وحديث أربع من كن فيه كان منافقا قال فى كل منهما وإذا حدث كذب وهما فى الصحيحين وقد تقدما فى الآفة التى قبلها

(٤) حديث كبرت خيانة ان تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق وأنت له كاذب: البخارى فى كتاب الأدب المفرد وابو داود من حديث سفيان بن اسيد وضعفه ابن عدى ورواه احمد والطبرانى من حديث النواس بن سمعان باسناد جيد

بِهِ كَاذِبٌ » وقال ابن مسعود ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [١] « لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا »

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان [٢] ، يقول أحدهما والله لا أنقصك من كذا وكذا ، ويقول الآخر . والله لا أزيدك على كذا وكذا . فمر بالشاة وقد اشتراها أحدهما . فقال « أَوْجَبَ أَحَدُهُمَا بِالْإِثْمِ وَالْكَفَّارَةِ » وقال عليه السلام [٣] « الْكَذِبُ يُنْقِصُ الرِّزْقَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الْفُجَّارُ » فقيل يارسول الله ، أليس قد أحل الله البيع ؟ قال « نَعَمْ وَلَكِنَّهُمْ يَحْلِفُونَ فَيَأْثَمُونَ وَيُحَدِّثُونَ فَيَكْذِبُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] ، « ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ الْمَنَّانُ بِعَطِيَّتِهِ وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « مَا حَلَفَ حَالِفٌ بِاللهِ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إِلَّا كَانَتْ نُكْتَةً فِي قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال أبو ذر [٧] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ رَجُلٌ كَانَ فِي فِئَةٍ فَنَصَبَ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَصْحَابِهِ

---

(١) حديث ابن مسعود لا يزال العبد يكذب حتى يكتب عند الله كذابا : متفق عليه

(٢) حديث مر برجلين يتبايعان شاة ويتحالفان ـ الحديث : وفيه فقال اوجب احدهما بالاثم والكفارة ابو الفتح الازدى في كتاب الاسماء المفردة من حديث ناسخ الحضرمى وهكذا رويناه فى امالى ابن سمعون وناسخ ذكره البخارى هكذا فى التاريخ وقال ابو حاتم هو عبد الله بن ناسخ

(٣) حديث الكذب ينقص الرزق : أبو الشيخ فى طبقات الاصبهانيين من حديث أبى هريرة ورويناه كذلك فى مشيخة القاضى أبى بكر واسناده ضعيف

(٤) حديث ان التجار هم الفجار ـ الحديث : وفيه ويحدثون فيكذبون أحمد والحاكم وقال صحيح الاسناد والبيهق من حديث عبد الرحمن بن شبل

(٥) حديث ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم المنان بعطيته والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمسبل ازاره : مسلم من حديث أبى ذر

(٦) حديث ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة الا كانت نكتة فى قلبه إلى يوم القيامة الترمذى والحاكم وصحح اسناده من حديث عبد الله بن أنيس

(٧) حديث أبى ذر ثلاثة يحبهم الله ـ الحديث وفيه وثلاثة يشنؤهم الله التاجر أو البائع الحلاف أحمد واللفظ له وفيه ابن الاحمس ولا يعرف حاله ورواه هو والنسائي بلفظ اخر باسناد جيد وللنسائى من حديث أبى هريرة أربعة يبغضهم الله البياع الحلاف ـ الحديث : واسناده جيد

وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ جَارُ سَوْءٍ يُؤْذِيهِ فَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتٌ أَوْ ظَعْنٌ وَرَجُلٌ كَانَ مَعَهُ قَوْمٌ فِي سَفَرٍ أَوْ سَرِيَّةٍ فَأَطَالُوا السُّرَى حَتَّى أَعْجَبَهُمْ أَنْ يَمَسُّوا الْأَرْضَ فَنَزَلُوا فَتَنَحَّى يُصَلِّي حَتَّى يُوقِظَ أَصْحَابَهُ لِلرَّحِيلِ . وَثَلَاثَةٌ يَشْنَؤُهُمُ اللَّهُ التَّاجِرُ أَوِ الْبَيَّاعُ الْحَلَّافُ وَالْفَقِيرُ الْمُخْتَالُ وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « رَأَيْتُ كَأَنَّ رَجُلاً جَاءَنِي فَقَالَ لِي قُمْ فَقُمْتُ مَعَهُ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا قَائِمٌ وَالْآخَرُ جَالِسٌ بِيَدِ الْقَائِمِ كَلُّوبٌ مِنْ حَدِيدٍ يُلْقِمُهُ فِي شِدْقِ الْجَالِسِ فَيَجْذِبُهُ حَتَّى يَبْلُغَ كَاهِلَهُ ثُمَّ يَجْذِبُهُ فَيُلْقِمُهُ الْجَانِبَ الْآخَرَ فَيَمُدُّهُ فَإِذَا مَدَّهُ رَجَعَ الْآخَرُ كَمَا كَانَ فَقُلْتُ لِلَّذِي أَقَامَنِي مَا هَذَا ؟ فَقَالَ هَذَا رَجُلٌ كَذَّابٌ يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وعن عبد الله بن جراد قال ، [٣] سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يارسول الله ، هل يزنى المؤمن ؟ قال « قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ » قال يانبي الله ،هل يكذب المؤمن قال لا . ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ [١]) وقال أبو سعيد الخدرى : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] يدعو فيقول فى دعائه « اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ النِّفَاقِ وَفَرْجِي مِنَ الزِّنَا وَلِسَانِي مِنَ الْكَذِبِ »

---

(١) حديث ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له: أبو داود والترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده

(٢) حديث رأيت كأن رجلا جاءنى فقال لى قم فقمت معه فاذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس بيد القائم كلوب من حديد يلقمه فى شدق الجالس ـ الحديث : البخارى من حديث سمرة ابن جندب فى حديث طويل

(٣) حديث عبد الله بن جراد أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم هل يزنى المؤمن قال قد يكون من ذلك قال هل يكذب قال لا ـ الحديث : ابن عبد البر فى التمهيد بسند ضعيف ورواه ابن أبى الدنيا فى الصمت مقتصرا على الكذب وجعل السائل أبا الدرداء

(٤) حديث أبى سعيد اللهم طهر قلبي من النفاق وفرجى من الزنا ولسانى من الكذب هكذا وقع فى نسخ الاحياء عن ابن سعيد وانما هو عن أم معبد كذا رواه الخطيب فى التاريخ دون قوله وفرجى من الزنا وزاد وعملى من الرياء وعينى من الخيانة واسناده ضعيف

---

(١) النحل : ١٠٥

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ شَيْخٌ زَانٍ وَمَلِكٌ كَذَّابٌ وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » وقال عبد الله بن عامر ، [٢] جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي ، ياعبد الله ، تعال حتى أعطيك فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ ؟ » قالت تمرا فقال « أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي لَكُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « لَوْ أَفَاءَ اللهُ عَلَيَّ نَعَماً عَدَدَ هٰذَا الْحَصَى لَقَسَمْتُهَا بَيْنَكُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً »

وقال صلى الله عليه وسلم ، وكان متكئا ، [٤] « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ؟ الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » ثم قعد وقال « أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ » وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَكْذِبُ الْكِذْبَةَ فَيَتَبَاعَدُ الْمَلَكُ عَنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتْنِ مَا جَاءَ بِهِ » وقال أنس [٦] قال النبي صلى الله عليه وسلم « تَقَبَّلُوا إِلَيَّ بِسِتٍّ أَتَقَبَّلْ لَكُمْ بِالْجَنَّةِ » فقالوا وما هن ؟ قال « إِذَا حَدَّثَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَكْذِبْ وَإِذَا وَعَدَ فَلاَ يُخْلِفْ وَإِذَا ائْتُمِنَ فَلاَ يَخُنْ وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ »

---

(١) حديث ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم ـ الحديث : وفيه والامام الكذاب مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) حديث عبد الله بن عامر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي ياعبد الله تعال أعطيك فقال وما أردت ان تعطيه قالت تمرا فقال ان لم تفعلي كتبت عليك كذبة رواه أبو داود وفيه من لم يسم وقال الحاكم ان عبد الله بن عامر ولد في حياته صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه قلت وله شاهد من حديث أبي هريرة وابن مسعود ورجالهما ثقات الا أن الزهري لم يسمع من أبي هريرة

(٣) حديث لو أفاء الله على نعما عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا : رواه مسلم وتقدم في أخلاق النبوة

(٤) حديث ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ الحديث : وفيه ألا وقول الزور متفق عليه من حديث أبي بكرة

(٥) حديث ابن عمر ان العبد ليكذب الكذبة فيتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به الترمذي وقال حسن غريب

(٦) حديث أنس تقبلوا الى بست أتقبل لكم بالجنة إذا حدث أحدكم فلا يكذب ـ الحديث : الحاكم في المستدرك والخرائطي في مكارم الأخلاق وفيه سعد بن سنان ضعفه أحمد والنسائي ووثقه ابن معين ورواه الحاكم بنحوه من حديث عبادة بن الصامت وقال صحيح الاسناد

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ لِلشَّيْطَانِ كُحْلاً وَلَعُوقاً وَنَشُوقاً أَمَّا لَعُوقُهُ فَالْكَذِبُ وَأَمَّا نَشُوقُهُ فَالْغَضَبُ وَأَمَّا كُحْلُهُ فَالنَّوْمُ »

وخطب عمر رضي الله عنه يوما فقال ، [٢] قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كقيامي هذا فيكم ، فقال « أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ عَلَى الْيَمِينِ وَلَمْ يُسْتَحْلَفْ وَيَشْهَدَ وَلَمْ يُسْتَشْهَدْ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِإِثْمٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لَقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم [٥] ، أنه رد شهادة رجل في كذبة كذبها . وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « كُلُّ خَصْلَةٍ يُطْبَعُ أَوْ يَطْوِي عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إِلاَّ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ »

وقالت عائشة رضي الله عنها [٧] ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب ، فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها .

---

(١) حديث أن للشيطان كحلا ولعوقا ـ الحديث : الطبراني وأبو نعيم من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث خطب عمر بالجابية ـ الحديث : وفيه ثم يفشو الكذب الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى من رواية ابن عمر عن عمر

(٣) حديث من حدث بحديث وهو يرى انه كذب فهو أحد الكذابين مسلم في مقدمة صحيحه من حديث سمرة بن جندب

(٤) حديث من حلف على يمين مأثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٥) حديث انه رد شهادة رجل في كذبة كذبها : ابن أبي الدنيا في الصمت من رواية موسى بن شيبة مرسلا وموسى روى معمر عنه مناكير قاله أحمد بن حنبل

(٦) حديث على كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن الا الخيانة والكذب : ابن ابي شيبة في المصنف من حديث أبي امامة ورواه ابن عدى في مقدمة الكامل من حديث سعد ابن أبي وقاص وابن عمر أيضا وأبي أمامة أيضا ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت من حديث سعد مرفوعا وموقوفا والموقوف أشبه بالصواب قاله الدار قطني في العلل

(٧) حديث ما كان من خلق الله شيء أشد عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ولقد كان يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله منها توبة أحمد من حديث عائشة ورجاله ثقات الا أنه قال عن ابن أبي مليكة أو غيره وقد رواه أبو الشيخ في الطبقات فقال ابن أبي مليكة ولم يشك وهو صحيح

وقال موسى عليه السلام : يارب ، أي عبادك خير لك عملا ؟ قال من لا يكذب لسانه ، ولا يفجر قلبه ، ولا يزنى فرجه . وقال لقمان لابنه يابنى ، إياك والكذب ، فإنه شهى كلحم العصفور ، عما قليل يقلاه صاحبه .

وقال عليه السلام فى مدح الصدق [١] « أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا يَضُرُّكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا صِدْقُ الْحَدِيثِ وَحِفْظُ الْأَمَانَةِ وَحُسْنُ خُلُقٍ وَعِفَّةُ طُعْمَةٍ » وقال أبو بكر رضى الله عنه [٢] فى خطبة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل مقامى هذا عام أول ؛ ثم بكى وقال « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِى الْجَنَّةِ » وقال معاذ . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَبَذْلِ السَّلَامِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ »

وأما الآثار فقد قال على رضى الله عنه أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب ، وشر الندامة ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه . ما كذبت كذبة منذ شددت علىّ إزارى . وقال عمر رضي الله عنه ، أحبكم إلينا مالم نركم أحسنكم اسما فإذا رأينا كم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقا فإذا اختبرنا كم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة

وعن ميمون بن أبى شبيب قال ، جلست أكتب كتابا ، فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت ، فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت (يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ [١]) وقال الشعبى ما أدرى أيهما أبعد غورا فى النار ، الكذاب أو البخيل . وقال ابن السماك ، ما أرانى أوجر على ترك الكذب ، لأنى إنما أدعه أنفة

---

(١) حديث أربع إذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا صدق الحديث .. الحديث : الحاكم والخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث عبد الله بن عمرو وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث أبى بكر عليكم بالصدق فانه مع البر وهما فى الجنة ابن ماجه والنسائى فى اليوم والليلة وقد تقدم بعضه فى أول هذا النوع

(٣) حديث معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث : أبو نعيم فى الحلية وقد تقدم

---

(١) ابراهيم : ٢٧

وقيل لخالد بن صبيح: أيسمى الرجل كاذبا بكذبة واحدة؟ قال نعم. وقال مالك بن دينار: قرأت في بعض الكتب: ما من خطيب إلا وتعرض خطبته على عمله، فإن كان صادقا صدق، وإن كان كاذبا قرضت شفتاه بمقاريض من نار، كلما قرضتا نبتتا. وقال مالك ابن دينار: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه. وكلم عمر ابن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء، فقال له كذبت. فقال عمر: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه

بيان

ما رخص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره. فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلا، وقد يتعلق به ضرر غيره. ورب جهل فيه منفعة ومصلحة. فالكذب محصل لذلك الجهل، فيكون مأذونا فيه، وربما كان واجبا، قال ميمون بن مهران: الكذب في بعض المواطن خير من الصدق، أرأيت لو أن رجلا سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله، فدخل دارا، فانتهى إليك فقال أرأيت فلانا؟ ما كنت قائلا؟ ألست تقول لم أره، وما تصدق به؟ وهذا الكذب واجب

فنقول: الكلام وسيلة إلى المقاصد. فكل مقصود محمود، يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا، فالكذب فيه حرام. وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح، إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا. كما أن عصمة دم المسلم واجبة، فهما كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم، فالكذب فيه واجب. ومهما كان لا يتم مقصود الحرب، أو إصلاح ذات البين، أو استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب، فالكذب مباح، إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه، فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراما في الأصل إلا لضرورة.

والذى يدل على الاستثناء ، ماروى عن أم كلثوم قالت [١] ، ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص فى شىء من الكذب ، إلا فى ثلاث، الرجل يقول القول يريد به الإصلاح والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها . وقالت أيضا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْراً أَوْ نَمَى خَيْراً » وقالت أسماء بنت يزيد [٣] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا رَجُلٌ كَذَبَ بَيْنَ مُسْلِمَيْنِ لِيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا »

وروى عن أبى كاهل [٤] قال وقع بين اثنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام حتى تصارما . فلقيت أحدهما فقلت مالك ولفلان ؟ فقد سمعته يحسن عليك الثناء . ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك ، حتى اصطلحا . ثم قلت أهلكت نفسى وأصلحت بين هذين ، فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم فقال « يَا أَبَا كَاهِلٍ أَصْلِحْ بَيْنَ النَّاسِ » أى ولو بالكذب وقال عطاء بن يسار [٥] قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم ، أكذب على أهلى ؟ قال « لَا خَيْرَ فِى الْكَذِبِ » قال أعدها وأقول لها ؟ قال « لَا جُنَاحَ عَلَيْكَ »

وروى أن ابن أبى عذرة الدؤلى ، وكان فى خلافة عمر رضى الله عنه ، كان يخلع النساء اللاتى يتزوج بهن . فطارت له فى الناس من ذلك أحدوثة يكرهها . فلما علم بذلك ، أخذ بيد عبد الله ابن الأرقم ، حتى أتى به إلى منزله . ثم قال لامرأته ، أنشدك بالله هل تبغضينى ؟ قالت لا تنشدنى

---

(١) حديث أم كلثوم ما سمعته يرخص فى شىء من الكذب الا فى ثلاث : مسلم وقد تقدم

(٢) حديث أم كلثوم أيضا ليس بكذاب من أصلح بين الناس ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم والذى قبله عند مسلم بعض هذا

(٣) حديث اسماء بنت يزيد كل الكذب يكتب على ابن آدم الا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما : أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذى مختصرا وحسنه

(٤) حديث أبى كاهل وقع بين رجلين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلام ـ الحديث : وفيه ياأبا كاهل اصلح بين الناس رواه الطبرانى ولم يصح

(٥) حديث عطاء بن يسار قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم أكذب على أهلى قال لا خير فى الكذب قال أعدها وأقول لها قال لا جناح عليك : ابن عبد البر فى التمهيد من رواية صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار مرسلا وهو فى الموطأ عن صفوان بن سليم معضلا من غير ذكر عطاء بن يسار

قال فإني أنشدك الله . قالت نعم ، فقال لابن الأرقم أتسمع؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضى الله عنه فقال إنكم لتحدثون أنى أظلم النساء وأخلعهن . فاسأل ابن الأرقم - فسأله فأخبره . فأرسل إلى امرأة ابن أبى عذرة ، فجاءت هى وعمتها . فقال أنت التى تحدثين لزوجك أنك تبغضينه ؛ فقالت إنى أول من تاب وراجع أمر الله تعالى ، إنه ناشدني فتحرجت أن أكذب، أفأكذب بأمير المؤمنين ؟ قال نعم ، فاكذبى ، فإن كانت إحداكن لاتحب أحدنا فلا تحدثه بذلك فإن أقل البيوت الذى يبنى على الحب ؛ ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب

وعن النواس بن سمعان الكلابى [1] ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَالِى أَرَاكُمْ تَتَهَافَتُونَ فِى الْكَذِبِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ فِى النَّارِ كُلُّ الْكَذِبِ يُكْتَبُ عَلَى ابْنِ آدَمَ لَا مَحَالَةَ إِلَّا أَنْ يَكْذِبَ الرَّجُلُ فِى الْحَرْبِ فَإِنَّ الْحَرْبَ خَدْعَةٌ أَوْ يَكُونَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ شَحْنَاءُ فَيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا أَوْ يُحَدِّثَ امْرَأَتَهُ يُرْضِيهَا » وقال ثوبان . الكذب كله إثم ، إلا مانفع به مسلما ، أو دفع عنه ضررا . وقال على رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلأن أخرّ من السماء أحب إلىّ من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بينى وبينكم ، فالحرب خدعة

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها ، إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره

أما ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله ، فله أن ينكره . أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها ، فله أن ينكر ذلك ، فيقول مازنيت وماسرقت وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هٰذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ » وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه ، وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه ، وإن كان كاذبا

---

(١) حديث النواس بن سمعان مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفراش فى النار كل الكذب مكتوب ـ الحديث : أبو بكر بن لال فى مكارم الاخلاق بلفظ تتبا يعون إلى قوله فى النار دون ما بعده فرواه الطبرانى وفيها شهر بن حوشب

(٢) حديث من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله : الحاكم من حديث ابن عمر بلفظ اجتنبوا هذه القاذورات التى نهى الله عنها فمن ألم بشىء منها فليستتر بستر الله واسناده حسن

وأما عرض غيره ، فبأن يُسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره . وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه . وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه ، فيعدها فى الحال تطييبا لقلبها . أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد ، فلا بأس به .

ولكن الحد فيه ، أن الكذب محذور . ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ، ويزن بالميزان القسط . فإذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق ، أشد وقعا فى الشرع من الكذب ، فله الكذب . وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق ، فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران ، بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى ، لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة . فإن شك فى كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم ، فيرجع إليه . ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ، ينبغى أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه . وكذلك مهما كانت الحاجة له ، فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب . فأما إذا تعلق بغرض غيره ، فلا تجوز المسامحة لحق الغير ، والإضرار به .

وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم . ثم هو لزيادات المال والجاه ، ولأمور ليس فواتها محذورا ، حتى أن المرأة لتحكى عن زوجها ما تفتخر به ، وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء [1] ، سمعت امرأة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ، إن لى ضرة ، وإنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ، أضارُّها بذلك . فهل علىَّ شيء فيه؟ فقال صلى الله عليه وسلم « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ تَطَعَّمَ بِمَا لَا يُطْعَمُ أَوْ قَالَ لِي وَلَيْسَ لَهُ أَوْ أُعْطِيتُ وَلَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ويدخل فى هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذى لا يتثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول لا أدرى . وهذا حرام

---

(١) حديث اسماء قالت امرأة ان لى ضرة وانى أتكثر من زوجى بما لم يفعل ـ الحديث : متفق عليه وهى أسماء بنت أبى بكر الصديق

(٢) حديث من تطعم بما لا يطعم وقال لى وليس له وأعطيت ولم يعط كان كلابس ثوبى زور يوم القيامة : لم أجده بهذا اللفظ

ومما يلتحق بالنساء الصبيان . فإن الصبي إذا كان لا يرغب فى المكتب إلا بوعد ، أو وعيد ، أو تخويف كاذب ، كان ذلك مباحا . نعم روينا فى الأخبار أن ذلك يكتب كذبا ولكن الكذب المباح أيضا قد يكتب ، ويحاسب عليه ، ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ؛ لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ، ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذى هو مستغن عنه ، وإنما يتعلل ظاهرا بالإصلاح ، فلهذا يكتب

وكل من أتى بكذبة ، فقد وقع فى خطر الاجتهاد ، ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا . وذلك غامض جداً . والحزم تركه إلا أن يصير واجبا بحيث لا يجوز تركه ، كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث فى فضائل الأعمال ، وفى التشديد فى المعاصى وزعموا أن القصد منه صحيح . وهو خطأ محض ، إذ قال صلى الله عليه وسلم[١] « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » وهذا لا يرتكب إلا لضرورة ، ولا ضرورة . إذ فى الصدق مندوحة عن الكذب . ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها .

وقول القائل إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التى تقاوم محذور الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الله تعالى ، ويؤدى فتح بابه إلى أمور تشوش الشريعة ، فلا يقاوم خير هذا شره أصلا . والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر التى لا يقاومها شىء ، نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين

بيان

الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف : أن فى المعاريض مندوحة عن الكذب . قال عمر رضي الله عنه : أما فى المعاريض ما يكفى الرجل عن الكذب ! وروى ذلك عن ابن عباس وغيره .

---

(١) حديث من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار : متفق عليه من طرق وقد تقدم فى العلم

وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب . فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة ، فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعا ، ولكن التعريض أهون

ومثال التعريض ماروى أن مطرفا دخل على زياد ، فاستبطأه . فتعلل بمرض وقال : مارفعت جنبي مذ فارقت الأمير إلا مارفعني الله . وقال إبراهيم ، إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب ، فقل إن الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء . فيكون قوله ما حرف نفي عند المستمع ، وعنده للإبهام

وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه . فلما رجع ، قالت له امرأته ، ماجئت به مما يأتى به العمال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشيء ، فقال : كان عندى ضاغط . قالت : كنت أمينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند أبى بكر رضى الله عنه ، فبعث عمر معك ضاغطا ! وقامت بذلك بين نسائها ، واشتكت عمر . فلما بلغه ذلك ، دعا معاذا وقال بعثت معك ضاغطا ؟ قال لم أجد ماأعتذر به إليها إلا ذلك . فضحك عمر رضى الله عنه ، وأعطاه شيئا ، فقال أرضها به . ومعنى قوله ضاغطا يعنى رقيبا ، وأراد به الله تعالى

وكان النخعى لايقول لابنته أشترى لك سكرا ، بل يقول أرأيت لو اشتريت لك سكرا ؟ فإنه ربما لايتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو فى الدار ، قال للجارية ، قولى له أطلبه فى المسجد ، ولاتقولى ليس ههنا ، كيلا يكون كذبا . وكان الشعبي إذا طلب فى المنزل وهو يكرهه، خط دائرة، وقال للجارية ضعى الأصبع فيها وقولى ليس ههنا

وهذا كله فى موضع الحاجة . فأما فى غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا ، فهو مكروه على الجملة . كما روى عبد الله بن عتبة قال ، دخلت مع أبى على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه ، فخرجت وعلىّ ثوب ، فجعل الناس يقولون ، هذا كساكه أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول جزى الله أمير المؤمنين خيرا . فقال لى أبى يابنى اتق الكذب وما أشبهه . فنهاه عن ذلك ، لأن فيه تقريرا لهم على ظن كاذب، لأجل غرض المفاخرة ، وهذا غرض باطل لافائدة فيه . نعم المعاريض تباح لغرض خفيف ، كتطييب

قلب الغير بالمزاح ، كقوله صلى الله عليه وسلم [1] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ » وقوله للأخرى الذي في عين زوجك بياض ، وللأخرى نحملك على ولد البعير ، وما أشبهه

وأما الكذب الصريح ، كما فعله نعيمان الأنصاري مع عثمان ، في قصة الضرير ، إذ قال له إنه نعيمان ، وكما يعتاده الناس من ملاعبة الحمق ، بتغريرهم بأن امرأة قد رغبت في تزويجك فإن كان فيه ضرر يؤدي إلى إيذاء قلب ، فهو حرام . وإن لم يكن إلا لمطايبته ، فلا يوصف صاحبها بالفسق ، ولكن ينقص ذلك من درجة إيمانه . قال صلى الله عليه وسلم [2] « لَا يَكْمُلُ لِلْمَرْءِ الْإِيمَانُ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَحَتَّى يَجْتَنِبَ الْكَذِبَ فِي مِزَاحِهِ »

وأما قوله عليه السلام [3] « إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لِيُضْحِكَ بِهَا النَّاسَ يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِنَ الثُّرَيَّا » أراد به ما فيه غيبة مسلم ، أو إيذاء قلب ، دون محض المزاح

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ، ما جرت به العادة في المبالغة ، كقوله طلبتك كذا وكذا مرة ، وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها ، بل تفهيم المبالغة . فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذبا . وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة ، لا يأثم ، وإن لم تبلغ مائة . وبينهما درجات ، يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب

ومما يعتاد الكذب فيه ، ويتساهل به ، أن يقال كل الطعام ، فيقول لا أشتهيه . وذلك منهي عنه ، وهو حرام ، وإن لم يكن فيه غرض صحيح . قال مجاهد : [4] قالت أسماء بنت عميس ، كنت صاحبة عائشة في الليلة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث لا يدخل الجنة عجوز وحديث في عين زوجك بياض وحديث نحملك على ولد البعير : تقدمت الثلاثة في الآفة العاشرة

(٢) حديث لا يستكمل المؤمن ايمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وحتى يجتنب الكذب في مزاحه ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب من حديث أبي مليكة الذماري وقال فيه نظر وللشيخين من حديث أنس لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وللدارقطني في المؤتلف والمختلف من حديث أبي هريرة لا يؤمن عبد الايمان كله حتى يترك الكذب في مزاحه قال أحمد بن حنبل منكر

(٣) حديث ان الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها الناس يهوى بها أبعد من الثريا : تقدم في الآفة الثالثة

(٤) حديث مجاهد عن أسماء بنت عميس كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : وفيه قال لا تجمعن جوعا وكذبا ابن أبي الدنيا في الصمت والطبراني

ومعى نسوة ، قالت فو الله ما وجدنا عنــده قرى إلا قدحا من لبن ، فشرب ، ثم ناوله عائشة ، قالت فاستحيت الجارية ، فقلت لاتردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خذى منه . قالت فأخذت منه على حياء فشربت منه ثم قال ناولى صواحبك ، فقلن لانشتهيه . فقال « لَاتَجْمَعْنَ جُوعا وَكَذِبًا » قالت فقلت يارسول الله ، إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا أشتهيــه ، أيعــد ذلك كـذبا ؟ قال « إِنَّ الْـكَذِبَ لَيُـكْتَبُ كَذِبًا حَتَّى تُكْتَبُ الْـكُذَيْبَةُ كُذَيْبَةً »

وقد كان أهل الورع يحترزون عن التسامح بمثل هذا الـكذب ، قال الليث بن سعد كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص ، حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له لو مسحت عينيك ، فيقول وأين قول الطبيب لا تمس عينيك ، فأقول لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه انسل لسانه فى الـكذب عن حد اختياره ، فيكذب ولا يشعر .

وعن خوات التيمى قال جاءت أخت الربيع بن خثيم عائدة لابن له ، فانكبت عليه ، فقالت كيف أنت يابنى ؟ فجلس الربيع وقال أرضعتيه ؟ قالت لا . قال ماعليك لو قلت ياابن أخى فصدقت

ومن العادة أن يقول يعلم الله فيما لا يعلمه . قال عيسى عليه السلام : إن من أعظم الذنوب عند الله ، أن يقول العبد إن الله يعلم لما لا يعلم

وربما يكذب فى حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم ، إذ قال عليه السلام [١] « إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْيَةِ أَنْ يُدْعَى الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ يُرِىَ عَيْنَيْهِ فِى الْمَنَامِ مَالَمْ يَرَ أَوْ يَقُولَ عَلَىَّ مَالَمْ أَقُلْ » وقال عليه السلام [٢] « مَنْ كَذَبَ فِى حُلُمٍ كُلِّفَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ بَيْنَهُمَا أَبَدًا »

فى الكبير وله نحوه من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد وهو الصواب فان أسماء بنت عميس كانت إذ ذاك بالحبشة لكن فى طبقات الاصبهانيين لأبى الشيخ من رواية عطاء ابن أبى رباح عن أسماء بنت عميس زففنا الى النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه ـ الحديث : فاذا كانت غير عائشة ممن تزوجها بعد خيبر فلا مانع من ذلك

(١) حديث ان من أعظم الفرى أن يدعى الرجل إلى غير أبيه أو يرى عينيه فى المنام مالم تريا أو يقول على مالم أقل : البخارى من حديث واثلة بن الاسقع وله من حديث ابن عمر من أفرى الفرى أن يرى عينيه ما لم تريا

(٢) حديث من كذب فى حلمه كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين البخارى من حديث ابن عباس

الآفة الخامسة عشرة

الغيبة

والنظر فيها طويل ، فلنذكر أولا مذمة الغيبة ، وما ورد فيها من شواهد الشرع

وقد نص الله سبحانه على ذمها فى كتابه ، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ [1]) وقال عليه السلام [1] « كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ » والغيبة تتناول العرض ، وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو برزة : قال عليه السلام [2] « لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا »

وعن جابر وأبى سعيد [3] قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِيَّاكُمْ وَالْغِيبَةَ فَإِنَّ الْغِيبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَزْنِي وَيَتُوبُ فَيَتُوبُ اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ » وقال أنس [4] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى أَقْوَامٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ بِأَظَافِرِهِمْ فَقُلْتُ يَا جِبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ » وقال سليم بن جابر [5] أتيت النبى عليه الصلاة والسلام ، فقلت علمنى خيرا أنتفع به . فقال « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَصُبَّ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَقِي وَأَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِبِشْرٍ حَسَنٍ وَإِنْ أَدْبَرَ فَلَا تَغْتَابَنَّهُ »

﴿ الآفة الخامسة عشرة الغيبة ﴾

(١) حديث كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه : مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أبى هريرة لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله اخوانا : متفق عليه من حديث أبى هريرة وأنس دون قوله ولا يغتب بعضكم بعضا وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٣) حديث جابر وأبى سعيد اياكم والغيبة فان الغيبة أشد من الزنا ـ الحديث : ابن ابى الدنيا فى الصمت وابن حبان فى الضعفاء وابن مردويه فى التفسير

(٤) حديث أنس مررت ليلة أسرى بى على قوم يخمشون وجوههم بأظفارهم ـ الحديث : أبو داود مسندا ومرسلا والمسند أصح

(٥) حديث سليم بن جابر أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت علمنى خيرا ينفعنى الله به ـ الحديث : أحمد فى المسند وابن ابى الدنيا فى الصمت واللفظ له ولم يقل فيه أحمد وإذا أدبر فلا يغتابه وفى اسنادها ضعف

---

(1) الحجرات : ١٢

وقال البراء [١] خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسمع العواتق فى بيوتهن ، فقال « يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقَلْبِهِ لاَ تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِى جَوْفِ بَيْتِهِ » وقيل أوحى الله إلى موسى عليه السلام ، من مات تائبا من الغيبة ، فهو آخر من يدخل الجنة . ومن مات مصرا عليها ، فهو أول من يدخل النار

وقال أنس ، [٢] أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم يوم ، فقال « لاَ يُفْطِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى آذَنَ لَهُ » فصام الناس ، حتى إذا أمسوا ، جعل الرجل يجىء فيقول يارسول الله ظللت صائما فائذن لى لأفطر ، فيأذن له . والرجل ، والرجل ، حتى جاء رجل فقال ، يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك ، فائذن لهما أن يفطرا . فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم ثم عاوده ، فأعرض عنه ثم عاوده ، فقال « إِنَّهُمَا لَمْ يَصُومَا وَكَيْفَ يَصُومُ مَنْ ظَلَّ نَهَارَهُ يَأْكُلُ لُحُومَ النَّاسِ اذْهَبْ فَمُرْهُمَا إِنْ كَانَتَا صَائِمَتَيْنِ أَنْ تَسْتَقِيئَا » فرجع إليهما فأخبرهما ، فاستقاءتا ، فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم . فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ بَقِيَتَا فِى بُطُونِهِمَا لَأَكَلَتْهُمَا النَّارُ » وفى رواية ، أنه لما أعرض عنه . جاء بعد ذلك وقال ، يارسول الله ، والله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا . فقال صلى الله عليه وسلم ، [٣] « ائْتُونِى بِهِمَا » فجاءتا . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح ، فقال لإحداهما قيىء . فقاءت من قيح ودم وصديد ، حتى ملأت القدح . وقال للأخرى قيىء فقاءت كذلك . فقال إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما ،

---

(١) حديث البراء يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ـ الحديث : ابن أبى الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبى برزة باسناد جيد

(٢) حديث أنس امر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بصوم وقال لا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس ـ الحديث : فى ذكر المرأتين اللتين اغتابتا فى صيامهما فقاءت كل واحدة منهما علقة من دم : ابن أبى الدنيا فى الصمت وابن مردويه فى التفسير من رواية يزيد الرقاشى عنه ويزيد ضعيف

(٣) حديث المرأتين المذكورتين وقال إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ـ الحديث : أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه رجل لم يسم ورواه أبو يعلى فى مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المبهم

وأفطرتا على ما حرم الله عليهما ، جلست إحداهما إلى الأخرى ، فجعلتا تأكلان لحوم الناس

وقال أنس[1] خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه ، فقال . إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا ، أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل : وأربى الربا عرض المسلم

وقال جابر[2] ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ، فأتى على قبرين يعذب صاحباهما.فقال « إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاسَ وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ » فدعا بجريدة رطبة أو جريدتين : فكسرهما، ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر .وقال « أَمَا إِنَّهُ سَيُهَوَّنُ مِنْ عَذَابِهِمَا مَا كَانَتَا رَطْبَتَيْنِ أَوْ مَا لَمْ يَيْبَسَا ».

ولما رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] ماعزا في الزنا ، قال رجل لصاحبه ، هذا أقعص كما يقعص الكلب . فمر صلى الله عليه وسلم وهما معه بجيفة ، فقال ، « انْهَشَا مِنْهَا » فقالا يارسول الله ، ننهش جيفة ! فقال « مَا أَصَبْتُمَا مِنْ أَخِيكُمَا أَنْتَنُ مِنْ هَذِهِ »

وكان الصحابة رضي الله عنهم ، يتلاقون بالبشر ، ولا يغتابون عند الغيبة . ويرون ذلك أفضل الأعمال ، ويرون خلافه عادة المنافقين . وقال أبو هريرة[4] من أكل لحم أخيه في الدنيا ، قرب إليه لحمه في الآخرة : وقيل له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله ، فينضج ويكلح. وروي مرفوعا كذلك . وروي أن رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد،

---

(١) حديث أنس خطبنا فذكر الربا وعظم شأنه ـ الحديث : وفيه واربى الربا عرض الرجل المسلم ابن أبي الدنيا بسند ضعيف

(٢) حديث جابر كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال أما انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يغتاب الناس ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتاب الآداب باسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس الا أنه ذكر فيه النميمة بدل الغيبة وللطيالسي فيه أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة نحوه باسناد جيد .

(٣) حديث قوله للرجل الذي قال لصاحبه في حق المرجوم هذا أقعص كما يقعص الكلب فمر بجيفة فقال انهشا منها ـ الحديث : أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة نحوه باسناد جيد

(٤) حديث أبي هريرة من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب اليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ـ الحديث : ابن مردويه في التفسير مرفوعا وموقوفا وفيه محمد بن اسحاق رواه بالعنعنة

فر بهما رجل كان مخنثا فترك ذلك . فقالا لقد بقي فيه منه شيء، وأقيمت الصلاة ، فدخلا ، فصليا مع الناس، فلك في أنفسهما ماقالا فأتيا عطاء فسألاه ، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة وأمرهما أن يقضيا الصيام إن كانا صائمين . وعن مجاهد ، أنه قال في (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [1]) الهمزة الطعان في الناس ، واللمزة الذي يأكل لحوم الناس . وقال قتادة ، ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث . ثلث من الغيبة ، وثلث من النميمة ، وثلث من البول . وقال الحسن ، والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد . وقال بعضهم ، أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ، ولكن في الكف عن أعراض الناس . وقال ابن عباس ، إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك ، فاذكر عيوبك . وقال أبو هريرة، يبصر أحدكم القذى في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في عين نفسه . وكان الحسن يقول ، ابن آدم ، إنك لن تصيب حقيقة الأيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب ، فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك ، كان شغلك في خاصة نفسك ، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا . وقال مالك بن دينار، مر عيسى عليه السلام ، ومعه الحواريون . بجيفة كلب . فقال الحواريون ، ماأنتن ريح هذا الكلب! فقال عليه الصلاة والسلام ، ماأشد بياض أسنانه . كأنه صلى الله عليه وسلم نهاهم عن غيبة الكلب ونبههم على أنه لا يذكر من شيء من خلق الله إلا أحسنه . وسمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يغتاب آخر، فقال له إياك والغيبة ، فإنها إدام كلاب الناس وقال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء . وإياكم وذكر الناس فإنه داء نسأل الله حسن التوفيق لطاعته

بيان

معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه، أو في خلقه أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه ، وداره ، ودابته أما البدن ، فكذكرك العمش ، والحول ، والقرع ، والقصر ، والطول ، والسواد ،

(1) الهمزة : ١

والصفرة : وجميع مايتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب، فبأن تقول أبوه نبطى : أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ، أو إسكاف ، أو زبال ، أو شيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق ، فبأن تقول : هو سيء الخلق ، بخيل ، متكبر مراء . شديد الغضب ، جبان، عاجز ، ضعيف القلب ، متهور ، ومايجرى مجراه . وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين . فكقولك هو سارق ، أو كذاب ، أو شارب خمر ، أو خائن ، أو ظالم ، أو متهاون بالصلاة ، أو الزكاة ، أو لا يحسن الركوع ، أو السجود ، أو لا يحترز من النجاسات ، أو ليس بار ابوالديه ، أو لايضع الزكاة موضعها ، أو لا يحسن قسمتها ، أو لا يحرس صومه عن الرفث ، والغيبة ، والتعرض لأعراض الناس . وأما فعله المتعلق بالدنيا ، فكقولك إنه قليل الأدب ، متهاون بالناس ، أو لا يرى لأحد على نفسه حقا ، أو يرى لنفسه الحق على الناس ، أو أنه كثير الكلام ، كثير الأكل ، نؤم ، ينام فى غير وقت النوم ، ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه ، فكقولك إنه واسع الكم ، طويل الذيل ، وسخ الثياب

وقال قوم : لاغيبة فى الدين ، لأنه ذم ماذمه الله تعالى ، فذكره بالمعاصى ، وذمه بها يجوز ، بدليل ماروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ذكرت له امرأة ، وكثرة صلاحها وصومها ، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال « هِيَ فِي النَّارِ » [2] وذكرت عنده امرأة أخرى بأنها بخيلة ، فقال « فَمَا خَيْرُهَا إِذاً » فهذا فاسد ، لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه فى غير مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم . والدليل عليه ، إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حد الغيبة . وكل هذا ، وإن كان صادقا فيه ، فهو به مغتاب ، عاص لربه ، وآكل لحم أخيه ، بدليل ماروى أن النبي صلى الله عليه وسلم [3] قال « هَلْ تَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ » قالوا الله ورسوله أعلم. قال « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُهُ »

---

(١) حديث ذكر له امرأة وكثرة صومها وصلاتها لكن تؤذى جيرانها فقال هى فى النار : ابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث ذكر امرأة أخرى بأنها بخيلة قال فما خيرها اذا : الخرائطى فى مكارم الاخلاق من حديث أبى جعفر محمد بن على مرسلا ورويناه فى أمالى ابن شمعون هكذا

(٣) حديث هل تدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

قيل أرأيت إن كان في أخي ما أقوله ، قال « إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ » وقال معاذ بن جبل ، [١] ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا ما أعجزه ، فقال صلى الله عليه وسلم « اغْتَبْتُمْ أَخَاكُمْ » قالوا يارسول الله ، قلنا ما فيه . قال « إِنْ قُلْتُمْ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَتُّمُوهُ » وعن حذيفة، عن عائشة رضي الله عنها، [٢] أنها ذكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة، فقالت إنها قصيرة. فقال صلى الله عليه وسلم « اغْتَبْتِيهَا »

وقال الحسن ، ذكر الغير ثلاثة ، الغيبة، والبهتان، والإفك. وكل في كتاب الله عز وجل فالغيبة أن تقول مافيه . والبهتان أن تقول ماليس فيه . والإفك أن تقول مابلغك . وذكر ابن سيرين رجلا فقال ، ذاك الرجل الأسود ، ثم قال ، أستغفر الله ، إني أراني قد اغتبته وذكر ابن سيرين ، إبراهيم النخعي ، فوضع يده على عينه ، ولم يقل الأعور . وقالت عائشة [٣] لايغتابن أحدكم أحدا ، فإني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إن هذه لطويلة الذيل ، فقال لي « الْفِظِي الْفِظِي » فلفظت مضغة لحم

بيان

أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان ، إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك ، وتعريفه بما يكرهه فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول ،والإشارة ،والإيماء ،والغمز ،والهمز ،والكتابة والحركة ، وكل ما يفهم المقصود، فهو داخل في الغيبة، وهو حرام فمن ذلك، قول عائشة رضي الله عنها [٤] ،دخلت علينا امرأة ؛فلما ولت ،أومأت بيدي أنها قصيرة، فقال عليه السلام « اغْتَبْتِيهَا »

---

(١) حديث معاذ ذكر رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما اعجزه ـ الحديث : الطبراني بسند ضعيف

(٢) حديث عائشة انها ذكرت امرأة فقالت انها قصيرة فقال اغتبتيها: رواه احمد واصله عند ابي داود والترمذي وصححه بلفظ اخر ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة وكذا هو في الصمت لابن ابي الدنيا والصواب عن أبي حذيفة كما عند احمد وابي داود والترمذي واسم ابي حذيفة سلمة بن صهيب

(٣) حديث عائشة قلت لامرأة ان هذه طويلة الذيل فقال صلى الله عليه وسلم الفظي فلفظت بضعة من لحم ابن أبي الدنيا وابن مردويه في التفسير وفي اسناده امرأة لا أعرفها

(٤) حديث عائشة دخلت علينا امرأة فأومأت بيدي أي قصيرة فقال النبي صلى الله عليه وسلم قد اغتبتها ابن أبي الدنيا وابن مردويه من رواية حسان بن مخارق عنها وحسان وثقه ابن حبان وباقيهم ثقات

ومن ذلك المحاكاة ، كأن يمشي متعارجا ، أو كما يمشي . فهو غيبة ، بل هو أشد من الغيبة ، لأنه أعظم في التصوير والتفهيم . ولما رأى صلى الله عليه وسلم عائشة حاكت امرأة قال [1] « مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَاكَيْتُ إِنْسَانًا وَلِي كَذَا وَكَذَا »

وكذلك الغيبة بالكتابة ، فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصا معينا ، وتهجين كلامه في الكتاب غيبة ، إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره ، كما سيأتي بيانه . وأما قوله . قال قوم كذا ، فليس ذلك غيبة . إنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت

ومن الغيبة أن تقول بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصا معينا ، لأن المحذور تفهيمه ، دون ما به التفهيم . فأما إذا لم يفهم عينه جاز كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : [2] إذا كره من إنسان شيئا ، قال « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا وَكَذَا » فكان لا يعين . وقولك بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدعي العلم : إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص ، فهي غيبة

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين . فإنهم يفهمون المقصود ، على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ، ويفهمون المقصود . ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين ، الغيبة والرياء . وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان . فيقول ، الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل في طلب الحطام . أو يقول ، نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها . وإنما قصده أن يفهم عيب الغير ، فيذكره بصيغة الدعاء . وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته . فيقول ما أحسن أحوال فلان ، ما كان يقصر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور ، وابتلي بما يبتلي به كلنا ، وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ، ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين ، بأن يذم نفسه . فيكون مغتابا ومرائيا ، ومزكيا نفسه . فيجمع بين ثلاث فواحش ، وهو بجهله ، يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل : إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ، ويحبط بمكايده عملهم : ويضحك عليهم ، ويسخر منهم

---

(١) حديث ما سرني أني حكيت ولي كذا وكذا : تقدم في الآفة الحادية عشرة

(٢) حديث كان إذا كره من انسان شيئا قال مابال أقوام يفعلون كذا وكذا ـ الحديث : أبو داود من حديث عائشة دون قوله وكان لا يعينه ورجاله رجال الصحيح

ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان ، فلا يتنبه له بعض الحاضرين ، فيقول سبحان الله ماأعجب هـذا ، حتى يصغى إليه ، ويعلم مايقول . فيذكر الله تعالى ، ويستعمل إسمه آلة له فى تحقيق خبثه ، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره،جهلامنه وغرورا . وكذلك يقول، ساءنى ماجرى على صديقنا من الاستخفاف به ، نسأل الله أن يروح نفسه . فيكون كاذبا فى دعوى الاغتمام ؛ وفى إظهار الدعاء له. بل لو قصد الدعاء لأخفاه فى خلوته عقيب صلاته . ولو كان يغتم به لاغتم أيضا بإظهار مايكرهه . وكذلك يقول، ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه . فهو فى كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره، وخفي قصده . وهو لجهله لايدرى أنه قد تعرض لمقت أعظم مما تعرض له الجهال إذا جاهروا

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب . فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب فى الغيبة ؛ فيندفع فيها ، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق . فيقول، عجب ، ماعلمت أنه كذلك ، ماعرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائه . فإن كل ذلك تصديق للمغتاب ، والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المغتاب ، قال صلى الله عليه وسلم [1] « المُسْتَمِعُ أَحَدُ المُغْتَابِينَ » وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، [2] أن أحـدهما قال لصاحبه ، إن فلانا لنؤم ، ثم إنهما طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأكلا به الخبز . فقال صلى الله عليه وسلم « قَدِ ائْتَدَمْتُمَا » فقالا مانعلمه . قال « بَلَى إِنَّكُمَا أَكَلْتُمَا مِنْ لَحْمِ أَخِيكُمَا » فانظر كيف جمعهما، وكان القائل أحدهما ، والآخر مستمعا. وقال للرجلين اللذين قال أحدهما، اقعص الرجل كما يقعص الكلب [3] « انْهَشَا مِنْ هَذِهِ الْجِيفَةِ » فجمع بينهما . فالمستمع لايخرج من إثم الغيبة ، إلا أن ينكر بلسانه ، أو بقلبه إن خاف ، وإن قـدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، فلم يفعل

---

(١) حديث المستمع أحد المغتابين:الطبرانى من حديث ابن عمر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف

(٢) حديث ان أبا بكر وعمر قال أحدهما لصاحبه ان فلانا لنؤم ثم طلبا أدما من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد ائتدمتما فقالا ما نعلم فقال بلى ما أكلتما من لحم صاحبكما: أبو العباس الدغولى فى الآداب من رواية عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا نحوه

(٣) حديث انهشا من هذه الميتة قاله للرجلين اللذين قال أحدهما اقعص كما يقعص الكلب : تقدم قبل هـذا باثنى عشر حديثا

لزمه. وإن قال بلسانه اسكت، وهو مشته لذلك بقلبه، فذلك نفاق، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه. ولا يكفي في ذلك أن يشير باليد أي اسكت، أو يشير بحاجبه وجبينه فإن ذلك استحقار للمذكور، بل ينبغي أن يعظم ذلك، فيذب عنه صريحا. وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ أَذَلَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُسِ الْخَلَائِقِ » وقال أبو الدرداء، [2] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَرُدَّ عَنْ عِرْضِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أيضا [3] « مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِالْغَيْبِ كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يَعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ » وقد ورد في نصرة المسلم في الغيبة، وفي فضل ذلك أخبار كثيرة، أوردناها في كتاب آداب الصحبة وحقوق المسلمين، فلا نطول بإعادتها

بيان

الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة، ولكن يجمعها أحد عشر سببا، ثمانية منها تطرد في حق العامة، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة، أما الثمانية

فالأول: أن يشفي الغيظ، وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه، فإنه إذا هاج غضبه، يشتفي بذكر مساويه، فيسبق اللسان إليه بالطبع، إن لم يكن ثم دين وازع. وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب، فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حقدا ثابتا، فيكون سببا دائما لذكر المساوي. فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة

---

(١) حديث من أذل عنده مؤمن وهو قادر على أن ينصره فلم ينصره أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق: الطبراني من حديث سهل بن حنيف وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث أبي الدرداء من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة ابن أبي الدنيا في الصمت وفيه شهر بن حوشب وهو عند الطبراني من وجه آخر بلفظ رد الله عن وجهه النار يوم القيامة وفي رواية له كان له حجابا من النار وكلاهما ضعيف

(٣) حديث من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقا على الله أن يعتقه من النار: أحمد والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد

الثانى : موافقة الأقران ، ومجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر عليهم ، أو قطع المجلس ، استثقلوه ، ونفروا عنه ، فيساعدهم ، ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، ويظن أنه مجاملة فى الصحبة . وقد يغضب رفقاؤه ، فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم ، إظهارا للمساهمة فى السراء والضراء ، فيخوض معهم فى ذكر العيوب والمساوى

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ، ويطول لسانه عليه ، أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة ، فيبادره قبل أن يقبح هو حاله ، ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتدىء بذكر ما فيه صادقا ، ليكذب عليه بعده ، فيروج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول ، ما من عادتى الكذب ، فإنى أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله ، فكان كما قلت

الرابع : أن ينسب إلى شىء ، فيريد أن يتبرأ منه ، فيذكر الذى فعله ، وكان من حقه أن يبرىء نفسه ، ولا يذكر الذى فعل ، فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركا له فى الفعل ، ليمهد بذلك عذر نفسه فى فعله

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول فلان جاهل ، وفهمه ركيك ، وكلامه ضعيف ، وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه ، فيقدح فيه لذلك

السادس : الحسد ، وهو أنه ربما يحسد من يثنى الناس عليه ، ويحبونه ، ويكرمونه فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلا إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند الناس ، حتى يكفوا عن كرامته ، والثناء عليه ، لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه ، وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد ، وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعى جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن ، والرفيق الموافق

السابع : اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والعجب

الثامن : السخرية والاستهزاء . استحقاراً له ، فإن ذلك قد يجرى فى الحضور ويجرى أيضاً فى الغيبة . ومنشؤه التكبر ، واستصغار المستهزأ به

وأما الأسباب الثلاثة التى هى فى الخاصة ، فهى أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان فى معرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر

الاول : أن تنبعث من الدين داعية التعجب فى إنكار المنكر والخطأ فى الدين ، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان ، فإنه قد يكون به صادقا ؛ ويكون تعجبه من المنكر ؛ ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه ، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه فى إظهار تعجبه ، فصار به مغتابا وآثما من حيث لا يدرى . ومن ذلك قول الرجل ؛ تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهى قبيحة ، وكيف يجلس بين يدى فلان وهو جاهل

الثانى : الرحمة ، وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به ، فيقول مسكين فلان قد غمنى أمره وما ابتلى به ، فيكون صادقا فى دعوى الاغتمام ، ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه ، فيذكره فيصير به مغتابا ، فيكون غمه ورحمته خيرا ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدرى ، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه ، فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه

الثالث : الغضب لله تعالى ، فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه ، فيظهر غضبه ، ويذكر اسمه . وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ولا يظهره على غيره . أو يستر اسمه ، ولا يذكره بالسوء

فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلا عن العوام . فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة ، والغضب إذا كان لله تعالى ، كان عذرا فى ذكر الاسم ، وهو خطأ . بل المرخص فى الغيبة حاجات مخصوصة ، لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم ، كما سيأتى ذكره

روى عن عامر بن واثلة ،[1] أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم ، فردوا عليه السلام . فلما جاوزهم ، قال رجل منهم ، إنى لأبغض هذا فى الله تعالى

---

(١) حديث عامر بن واثلة أن رجلا مر على قوم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهم فردوا عليه السلام فلما جاوزهم قال رجل منهم انى لأبغض هذا فى الله ـ الحديث : بطوله وفيه فقال قم فلعله خير منك : أحمد باسناد صحيح

فقال أهل المجلس ، لبئس ماقلت ، والله لننبئنه . ثم قالوا يافلان ، لرجل منهم ، قم فأدركه وأخبره بما قال . فأدركه رسولهم . فأخبره . فأتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكى له ماقال ، وسأله أن يدعوه له ، فدعاه وسأله . فقال قد قلت ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم « لِمَ تبْغُضُهُ » فقال أنا جاره ، وأنا به خابر . والله مارأيته يصلى صلاة قط إلا هذه المكتوبة . قال فاسأله يارسول الله ، هل رآنى أخرتها عن وقتها ؟ أو أسأت الوضوء لها ؟ أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال لا . فقال والله مارأيته يصوم شهرا قط إلا هذا الشهر الذى يصومه البر والفاجر . قال فاسأله يارسول الله ، هل رآنى قط أفطرت فيه ؟ أو نقصت من حقه شيئا ؟ فسأله عنه . فقال والله مارأيته يعطى سائلا ولا مسكينا قط ، ولا رأيته ينفق شيئا من ماله فى سبيل الله ، إلا هذه الزكاة التى يؤديها البر والفاجر . قال فاسأله هل رآنى نقصت منها ؟ أو ماكست فيها طالبها الذى يسألها ؟ فسأله فقال لا . فقال صلى الله عليه وسلم للرجل « قُمْ فَلَعَلَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ »

بيان

العلاج الذى به يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوى الأخلاق كلها ، إنما تعالج بمعجون العلم والعمل . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ، فلنفحص عن سببها

وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة . والآخر على التفصيل

أما على الجملة ، فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته ، بهذه الأخبار التى رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه ، بدلا عما استباحه من عرضه . فإن لم تكن له حسنات ، نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ، ومشبه عنده بآكل الميتة . بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه ، فيحصل بها الرجحان ، ويدخل بها النار . وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله ، وذلك

يمد المخاصمة والمطالبة ، والسؤال والجواب والحساب . قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا النَّارُ فِي الْيَبَسِ بِأَسْرَعَ مِنَ الْغِيبَةِ فِي حَسَنَاتِ الْعَبْدِ »

وروى أن رجلا قال للحسن : بلغنى أنك تغتابنى فقال ما بلغ من قدرك عندى أنى أحكمك فى حسناتى . فمهما آمن العبد بما ورد من الأخبار فى الغيبة ، لم يطلق لسانه بها خوفا من ذلك

وينفعه أيضا أن يتدبر فى نفسه ، فإن وجد فيها عيبا اشتغل بعيب نفسه . وذكر قوله صلى الله عليه وسلم [٢] « طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ » ومهما وجد عيبا ، فينبغى أن يستحيى من أن يترك ذم نفسه ، ويذم غيره . بل ينبغى أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه ، فى التنزه عن ذلك العيب ، كعجزه . وهذا إن كان ذلك عيبا يتعلق بفعله واختياره . وإن كان أمرا خلقيا ، فالذم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها . قال رجل لحكيم يا قبيح الوجه ، قال ما كان خلق وجهى إلىّ فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيبا فى نفسه ، فليشكر الله تعالى ، ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب . بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه برىء من كل عيب ، جهل بنفسه ، وهو من أعظم العيوب . وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته ، كتألمه بغيبة غيره له . فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب ، فينبغى أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جملية

أما التفصيل فهو أن ينظر فى السبب الباعث له على الغيبة ، فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب

أما الغضب فيعالجه بما سيأتى فى كتاب آفات الغضب ، وهو أن يقول إنى إذا أمضيت غضبى عليه ، فلعل الله تعالى يمضى غضبه علىّ بسبب الغيبة ، إذ نهانى عنها فاجترأت على نهيه ، واستخففت بزجره . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ لِجَهَنَّمَ بَابًا لَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنِ اتَّقَى رَبَّهُ كَلَّ لِسَانُهُ وَلَمْ يَشْفِ غَيْظَهُ »

---

(١) حديث ما النار فى اليبس بأسرع من الغيبة فى حسنات العبد : لم أجد له أصلا

(٢) حديث طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس : البزار من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث ان لجهنم بابا لا يدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله : البزار وابن أبى الدنيا وابن عدى والبيهقى والنسائى من حديث ابن عباس بسند ضعيف

(٤) حديث من اتقى ربه كل لسانه ولم يشف غيظه : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف ورويناه فى الاربعين البلدانية للسلفى

وقال صلى الله عليه وسلم[1] «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُمْضِيَهُ دَعَاهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُسِ الْخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ» وفى بعض الكتب المنزلة على بعض النبيين ، يابن آدم اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق

وأما الموافقة ، فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك ، إذا طلبت سخطه فى رضا المخلوقين فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك ، وتحقر مولاك ، فتترك رضاه لرضاهم ، إلا أن يكون غضبك لله تعالى . وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء ، بل ينبغى أن تغضب لله أيضا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب ، وهى الغيبة

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة ، حيث يستغنى عن ذكر الغير ، فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق ، أشد من التعرض لمقت المخلوقين . وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقينا ، ولا تدرى أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ، فتخلص نفسك فى الدنيا بالتوهم ، وتهلك فى الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة . ويحصل لك ذم الله تعالى نقدا ، وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة ، وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذرك كقولك إن أكلت الحرام ففلان يأكله ، وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله ، فهذا جهل . لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به . فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به ، كائنا من كان . ولو دخل غيرك النار ، وأنت تقدر على أن لا تدخلها ، لم توافقه . ولو وافقته لسفه عقلك . ففيما ذكرته غيبة ، وزيادة معصية ، أضفتها إلى ما اعتذرت عنه ، وسجلت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك ، وكنت كالشاة تنظر إلى المعزى تردى نفسها من قلة الجبل ، فهى أيضا تردى نفسها ، ولو كان لها لسان ناطق بالعذر ، وصرحت بالعذر ، وقالت العنز أكيس منى ، وقد أهلكت نفسها ، فكذلك أنا أفعل ، لكنت تضحك من جهلها . وحالك مثل حالها . ثم لا تعجب ولا تضحك من نفسك

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس ، بزيادة الفضل بأن تقدح فى غيرك ، فينبغى أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله ، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر .

---

(١) حديث من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه ـ الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس

وربما نقص اعتقادهم فيك ، إذا عرفوك بثلب الناس ، فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينا ، بما عند المخلوقين وهما، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل ، لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئا

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين ، لأنك حسدته على نعمة الدنيا ، وكنت في الدنيا معذبا بالحسد ، فما قنعت بذلك ، حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسرا نفسك في الدنيا ، فصرت أيضا خاسراً في الآخرة ، لتجمع بين النكالين . فقد قصدت محسودك ، فأصبت نفسك ، وأهديت إليه حسناتك ، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك ، إذ لا تضره غيبتك وتضرك ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك، أو تنقل إليك سيآته ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقدحك ، سبب انتشار فضل محسودك ، كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس ، بإخزاء نفسك عند الله تعالى ، وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام . فلو تفكرت في حسرتك ، وجنايتك ، وخجلتك ، وخزيك يوم القيامة ، يوم تحمل سيآت من استهزأت به وتساق إلى النار ، لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك . ولو عرفت حالك ، لكنت أولى أن تضحك منك ، فإنك سخرت به عند نفر قليل ، وعرضت نفسك لأن يأخذ يوم القيامة بيدك على ملأ من الناس ، ويسوقك تحت سيآته ، كما يساق الحمار إلى النار، مستهزئا بك ، وفرحا بخزيك ، ومسرورا بنصرة الله تعالى إياه عليك ، وتسلطه على الانتقام منك

وأما الرحمة له على إثمه ،فهو حسن،ولكن حسدك ابليس ،فأضلك ،واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك ، فيكون جبرا لإثم المرحوم ، فيخرج عن كونه مرحوما ، وتنقلب أنت مستحقا لأن تكون مرحوما ، إذ حبط أجرك ، ونقصت من حسناتك

وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجب الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ، ليحبط أجر غضبك ، وتصير معرضا لمقت الله عز وجل بالغيبة

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة ، فتعجب من نفسك أنت ، كيف أهلكت

نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه ، وأنت مع ذلك لاتأمن عقوبة الدنيا ، وهو أن يهتك الله سترك ، كما هتكت بالتعجب ستر أخيك .

فإذاً علاج جميع ذلك المعرفة فقط ، والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان . فمن قوى إيمانه بجميع ذلك ، انكف لسانه عن الغيبة لامحالة

بيان

تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام ، مثل سوء القول . فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير ؛ فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك . ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء . فأما الخواطر وحديث النفس ، فهو معفو عنه . بل الشك أيضا معفو عنه . ولكن المنهى عنه أن يظن والظن عبارة عما تركن إليه النفس ، ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [1]) . وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لايعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك ،بعيان لا يقبل التأويل ، فعند ذلك لايمكنك إلا أن تعتقد ماعلمته وشاهدته . وما لم تشاهده بعينك ، ولم تسمعه بأذنك ، ثم وقع في قلبك ، فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه ، فإنه أفسق الفساق . وقد قال الله تعالى . (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ [2]) فلا يجوز تصديق إبليس : وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد ، واحتمل خلافه ، لم يجز أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ، ولكن لايجوز لك أن تصدق به . حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر ، لايجوز أن يحد ، إذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها ، وما شربها ، أو حمل عليه قهرا . فكل ذلك لامحالة دلالة محتملة

---

(١) الحجرات : ١٢ (٢) الحجرات : ٦

فلا يجوز تصديقها بالقلب ، وإساءة الظن بالمسلم بها ، وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ وَمَالَهُ وَأَنْ يُظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوْءِ » فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال ، وهو نفس مشاهدته ، أو بينة عادلة . فإذا لم يكن كذلك ، وخطر لك وسواس سوء الظن ، فينبغي أن تدفعه عن نفسك ، وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر

فإن قلت · فبماذا يعرف عقد الظن ، والشكوك تختلج ، والنفس تحدث

فنقول : أمارة عقد سوء الظن ، أن يتغير القلب معه عما كان ، فينفر عنه نفورا ما ، ويستثقله ، ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه ، والاغتمام بسببه ، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه . وقد قال صلى الله عليه وسلم[2] « ثَلَاثٌ فِي الْمُؤْمِنِ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ فَمَخْرَجُهُ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ أَنْ لَا يُحَقِّقَهُ » أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل ، لا في القلب ولا في الجوارح . أما في القلب ، فبتغيره إلى النفرة والكراهة · وأما في الجوارح ، فبالعمل بموجبه ، والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك ، وسرعة فهمك ، وذكائك ، وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته . وأما إذ أخبرك به عدل ، فمال ظنك إلى تصديقه، كنت معذورا . لأنك لو كذبته لكنت جانيا على هذا العدل . إذ ظننت به الكذب ، وذلك أيضا من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد . وتسيء بالآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت ، فتتطرق التهمة بسببه[3] ، فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة· ورد شهادة العدو . فلك عند ذلك أن تتوقف ، وإن كان عدلا ، فلا تصدقه ولا تكذبه .

---

(١) حديث ان الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء : البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند ضعيف ولابن ماجه نحوه من حديث ابن عمر

(٢) حديث ثلاث في المؤمن وله منهن مخرج : الطبراني من حديث حارثة بن النعمان بسند ضعيف

(٣) حديث رد الشرع شهادة لوالد العدل وشهادة العدو : الترمذي من حديث عائشة وضعفه لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا ولا ذي غمر لأخيه وفيه ولا ظنين في ولاء ولا قرابة ولأبي داود وابن ماجه باسناد جيد من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد شهادة الخائن والخائنة وذي الغمر على أخيه

ولكن تقول فى نفسك ، المذكور حاله كان عندى فى ستر الله تعالى ، وكان امره محجوبا عنى ، وقد بقى كما كان ، لم ينكشف لى شىء من أمره

وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ، ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس ، وذكر مساويهم . فهذا قد يظن انه عدل ، وليس بعدل . فإن المغتاب فاسق . وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته . إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا فى أمر الغيبة ، ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته ، وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ، ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك الخاطر السوء ، خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة

ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة ، فانصحهُ فى السر ، ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه . وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه ، لينظر إليك بعين التعظيم ، وتنظر إليه بعين الاستحقار ، وتترفع عليه بأبداء الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان فى دينك . وينبغى أن يكون تركه لذلك من غير نصحك ، أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته ، وأجر الاعانة له على دينه.

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وهو أيضا منهى عنه . قال الله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا [1]) فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهى عنه فى آية واحدة . ومعنى التجسس ، أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر ، حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه ، وقد ذكرنا فى كتاب الأمر بالمعروف حكم التجسس وحقيقته

بيان

الأعذار المرخصة فى الغيبة

اعلم أن المرخص فى ذكر مساوى الغير هو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل اليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة ، وهى ستة أمور :

(١) الحجرات : ١٢

الاول : التظلم فإن من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة كان مغتابا عاصيا إن لم يكن مظلوما . أما المظلوم من جهة القاضى فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم . إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به . قال صلى الله عليه وسلم [1] « إنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً » وقال عليه السلام [2] « مَطَلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ » وقال عليه السلام [3] « لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عُقُوبَتَهُ وَعِرْضَهُ »

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح كما روى أن عمر رضى الله عنه مر على عثمان وقيل على طلحة رضى الله عنه، فسلم عليه، فلم يرد السلام. فذهب إلى أبى بكر رضي الله عنه، فذكر له ذلك فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك، ولم يكن ذلك غيبة عندهم وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه، أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام. كتب إليه، بسم الله الرحمن الرحيم (حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ [(1)]) الآية فتاب . ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك، فينفعه نصحه مالا ينفعه نصح غيره . وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح . فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراما

الثالث : الاستفتاء ، كما يقول للمفتى ، ظلمنى أبى ، أو زوجتى، أو أخى، فكيف طريقى فى الخلاص . والأسلم التعريض ، بأن يقول ، ماقولك فى رجل ظلمه أبوه ، أو أخوه ، أو زوجته . ولكن التعيين مباح بهذا القدر ، لما روى عن هند بنت عتبة ، أنها قالت [4] للنبى صلى الله عليه وسلم ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطينى مايكفينى أنا وولدى ، أفآخذ من غير علمه ؟ فقال « خُذِي مَا يَكْفِيكِ وَوَلَدَكِ بِالْمَعْرُوفِ » فذكرت الشح ، والظلم لها ولولدها ، ولم يزجرها صلى الله عليه وسلم إذ كان قصدها الاستفتاء

الرابع . تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيها يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه ، فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك

---

(١) حديث لصاحب الحق مقال متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث مطل الغنى ظلم متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث لى الواجد يحل عرضه وعقوبته أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث الشريد باسناد صحيح

(٤) حديث ان هندا قالت ان أبا سفيان رجل شحيح متفق عليه من حديث عائشة

---

(1) غافر : ١ و٢ و٣

الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره . وهذا موضع الغرور ، إذ قد يكون الحسد هو الباعث ، ويلبس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق . وكذلك من اشترى مملوكا ، وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق ، أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن فى سكوتك ضرر المشترى ، وفى ذكرك ضرر العبد ، والمشترى أولى بمراعاة جانبه . وكذلك المزكى إذا سئل عن الشاهد ، فله الطعن فيه إن علم مطعنا

وكذلك المستشار فى التزويج ، وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة . فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله لا تصلح لك ، فهو الواجب ، وفيه الكفاية . وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه ، فله أن يصرح به . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « أَتَرْعَوْنَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ اهْتِكُوهُ حتى يَعْرِفَهُ النَّاسُ اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ » وكانوا يقولون ، ثلاثة لا غيبة لهم ، الإمام الجائر ، والمبتدع ، والمجاهر بفسقه

الخامس . أن يكون الإنسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يقول ، روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، وما يجرى مجراه . فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه ، بعد أن قد صار مشهورا به . نعم إن وجد عنه معدلا ، وأمكنه التعريف بعبارة أخرى ، فهو أولى . ولذلك يقال للأعمى البصير ، عدولا عن اسم النقص

السادس . أن يكون مجاهرا بالفسق ، كالمخنث ، وصاحب الماخور ، والمجاهر بشرب الخمر ، ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به ، بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به . فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به ، فلا إثم عليك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ فَلَا غِيبَةَ لَهُ » وقال عمر رضى الله عنه

---

(١) حديث أترعون عن ذكر الفاجر اهتكوه حتى يعرفه الناس اذكروه بما فيه يحذره الناس الطبرانى وابن حبان فى الضعفاء وابن عدى من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده دون قوله حتى يعرفه الناس ورواه بهذه الزيادة ابن أبى الدنيا فى الصمت

(٢) حديث من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له ابن عدى وأبو الشيخ فى كتاب ثواب الاعمال من حديث أنس بسند ضعيف وقد تقدم

ليس لفاجر حرمة . وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر . إذ المستتر . لابد من مراعاة حرمته . وقال الصلت بن طريف ، قلت للحسن ، الرجل الفاسق المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة له ؟ قال لا ولا كرامة . وقال الحسن . ثلاثة لا غيبة لهم صاحب الهوى ،والفاسق المعلن بفسقه ؛ والإمام الجائر . فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به ، وربما يتفاخرون به فكيف يكرهون ذلك ، وهم يقصدون إظهاره . نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به إثم

وقال عوف ، دخلت على ابن سيرين ، فتناولت عنده الحجاج . فقال، إن الله حكم عدل، ينتقم للحجاج ممن اغتابه ، كما ينتقم من الحجاج لمن ظلمه . وإنك إذا لقيت الله تعالى غداً ، كان أصغر ذنب أصبته ، أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج

بيان

كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج به من حق الله سبحانه . ثم يستحل المغتاب ، ليحله ، فيخرج من مظلمته . وينبغي أن يستحله وهو حزين ، متأسف ، نادم على فعله إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع ،وفي الباطن لا يكون نادما ، فيكون قد قارف معصية أخرى . وقال الحسن ، يكفيه الاستغفار دون الاستحلال . وربما استدل في ذلك بما روى أنس بن مالك قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « كَفَّارَةُ مَنِ اغْتَبْتَهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ » وقال مجاهد ، كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه ، وتدعو له بخير

وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة ، قال أن تمشي إلى صاحبك فتقول له ، كذبت فيما قلت ،وظلمتك ، وأسأت. فإن شئت آخذت بحقك، وإن شئت عفوت .وهذا هو الأصح

وقول القائل ، العرض لا عوض له ، فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال ، كلام ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف ، وتثبت المطالبة به

---

(١) حديث كفارة من اغتبته أن تستغفر له ابن أبي الدنيا في الصمت والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف

بل فى الحديث الصحيح ، ماروى أنه صلى الله عليه وسلم قال [١] « مَنْ كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عِرْضٍ أَوْ مَالٍ فَلْيَسْتَحِلَّهَا مِنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَيْسَ هُنَاكَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَزِيدَتْ عَلَى سَيِّئَاتِهِ » وقالت عائشة رضى الله عنها لامرأة قالت لأخرى إنها طويلة الذيل ، قد اغتبتيها فاستحليها

فإذا لا بد من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائبا أو ميتا ، فينبغى أن يكثر له الاستغفار والدعاء ، ويكثر من الحسنات

فإن قلت . فالتحليل هل يجب؟ فأقول لا . لأنه تبرع ، والتبرع فضل وليس بواجب . ولكنه مستحسن . وسبيل المعتذر ، أن يبالغ فى الثناء عليه ، والتودد إليه ، ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه فإن لم يطب قلبه ، كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة له ، يقابل بها سيئة الغيبة فى القيامة وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب ، لا أحلل من ظلمنى . وقال ابن سيرين إنى لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه ، وما كنت لأحلل ما حرم الله أبدا

فإن قلت . فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم « يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحِلَّهَا » وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن

فنقول : المراد به العفو عن المظلمة ، لا أن ينقلب الحرام حلالا . وما قاله ابن سيرين ، حسن فى التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة

فإن قلت : فما معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم [٢] « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ تَصَدَّقْتُ بِعِرْضِي عَلَى النَّاسِ » فكيف يتصدق بالعرض ؟ ومن تصدق به فهل يباح تناوله ؟ فإن كان لا تنفذ صدقته ، فما معنى الحث عليه

---

(١) حديث من كانت له عند أخيه مظلمة من عرض أو مال فليتحلله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم كان اذ خرج من بيته قال اللهم انى تصدقت بعرضى على الناس البزار وابن السنى فى اليوم والليلة والعقيلى فى الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف وذكره ابن عبد البر من حديث ثابت مرسلا عند ذكر أبى ضمضم فى الصحابة قلت وانما هو رجل ممن كان قبلنا كما عند البزار والعقيلى .

فنقول معناه أنى لا أطلب مظلمة فى القيامة منه ، ولا أخاصمه . وإلا فلا تصير الغيبة حلالا به ، ولا تسقط المظلمة عنه ، لأنه عفو قبل الوجوب . إلا أنه وعد ، وله العزم على الوفاء بأن لا يخاصم ، فإن رجع وخاصم ، كان القياس كسائر الحقوق أن له ذلك . بل صرح الفقهاء أن من أباح القذف ، لم يسقط حقه من حد القاذف . ومظلمة الآخرة مثل مظلمة الدنيا

وعلى الجملة فالعفو أفضل . قال الحسن ، إذا جثت الأمم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ، نودوا ليقم من كان له أجر على الله . فلا يقوم إلا العافون عن الناس فى الدنيا . وقد قال الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [١]) فقال النبى صلى الله عليه وسلم [١] « يَاجِبْرِيلُ مَا هَذَا الْعَفْوُ ؟ » فقال ، إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطى من حرمك . وروى عن الحسن ، أن رجلا قال له إن فلانا قد اغتابك . فبعث إليه رطبا على طبق ، وقال قد بلغنى أنك أهديت إلىّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها . فاعذرنى ، فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام

الآفة السادسة عشرة

النميمة

قال الله تعالى (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ [٢]) ثم قال (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ [٣]) قال عبد الله ابن المبارك . الزنيم ولد الزنا الذى لا يكتم الحديث . وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة ، دل على أنه ولد زنا ، استنباطا من قوله عز وجل (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) والزنيم هو الدعى . وقال تعالى (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [٤]) قيل الهمزة النمام وقال تعالى (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ [٥]) قيل إنها كانت نمامة ، حمالة للحديث . وقال تعالى (فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً [٦]) قيل كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان ، وامرأة نوح تخبر أنه مجنون

---

(١) حديث نزول خذ العفو الآية فقال ياجبريل ماهذا فقال ان الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك تقدم فى رياضة النفس

---

[١] الاعراف : ١٩٩ [٢] و[٣] القلم : ١١ و١٣ [٤] الهمزة : ١ [٥] المسد : ٤ [٦] التحريم : ١٠

وقد قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ » وفى حديث آخر « لَايَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ » والقتات هو النمام . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « أَحَبُّكُمْ إِلَى اللهِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً الْمُوَطَّئُونَ أَكْنَافاً الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللهِ الْمَشَّاؤُنَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ الْمُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَثَرَاتِ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشِرَارِكُمْ ؟ » قالوا بلى . قال « الْمَشَّاؤُنَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَيْبَ » وقال أبو ذر [(٤)] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَشَاعَ عَلَى مُسْلِمٍ كَلِمَةً لِيَشِينَهُ بِهَا بِغَيْرِ حَقٍّ شَانَهُ اللهُ بِهَا فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أبو الدرداء [(٥)] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَيُّمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ كَلِمَةً وَهُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ لِيَشِينَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا كَانَ حَقّاً عَلَى اللهِ أَنْ يُذِيبَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ » وقال أبو هريرة [(٦)] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ شَهِدَ عَلَى مُسْلِمٍ بِشَهَادَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ويقال إن ثلث عذاب القبر من النميمة

وعن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم [(٧)] « إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ الْجَنَّةَ قَالَ لَهَا تَكَلَّمِي فَقَالَتْ سَعِدَ مَنْ دَخَلَنِي فَقَالَ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَايَسْكُنُ فِيكِ ثَمَانِيَةُ نَفَرٍ مِنَ النَّاسِ لَايَسْكُنُكِ مُدْمِنُ خَمْرٍ وَلَا مُصِرٌّ عَلَى الزِّنَا وَلَا قَتَّاتٌ وَهُوَ النَّمام

---

(١) حديث لايدخل الجنة نمام وفى حديث آخر قتات متفق عليه من حديث حذيفة وقد تقدم

(٢) حديث أبى هريرة وأحبكم الى الله أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الطبرانى فى الأوسط والصغير وتقدم فى آداب الصحبة

(٣) حديث ألا اخبركم بشراركم قالوا بلى قال المشاؤن بالنميمة الحديث أحمد من حديث أبى مالك الاشعرى وقد تقدم

(٤) حديث أبى ذر من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها فى النار يوم القيامة ابن ابى الدنيا فى الصمت والطبرانى فى مكارم الاخلاق وفيه عبد الله بن ميمون فان يكن القداح فهو متروك الحديث

(٥) حديث أبى الدرداء أيما رجل أشاع على رجل كلمة هو منها برىء ليشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة فى النار ابن أبى الدنيا موقوفا على أبى الدرداء ورواه الطبرانى بلفظ آخر مرفوعا من حديثه وقد تقدم

(٦) حديث أبى هريرة من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار أحمد وابن أبى الدنيا وفى رواية أحمد رجل لم يسم أسقطه ابن ابى الدنيا من الاسناد

(٧) حديث ابن عمر ان الله لما خلق الجنة قال لها تكلمى قالت سعد من دخلنى قال الجبار وعزتى وجلالى لايسكن فيك ثمانية فذكر منها ولا قتات وهو النمام لم أجده هكذا بتمامه ولأحمد لايدخل الجنة

وَلا دَيُّوثٌ وَلا شُرَطِيٌّ وَلا مُخَنَّثٌ ولا قَاطِعُ رَحِمٍ وَلا الَّذِى يَقُولُ عَلَىَّ عَهْدُ اللهِ إِنْ لَمْ أَفْعَلْ كَذا وَكَذا ثُمَّ لَمْ يَفِ بِهِ »

وروى كعب الأحبار ، أن بنى اسرائيل أصابهم قحط ، فاستسقى موسى عليه السلام مرات فما سقوا . فأوحى الله تعالى إليه ، إنى لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام ، قد أصر على النميمة . فقال موسى ، يارب من هو ؟ دلنى عليه حتى أخرجه من بيننا . قال ياموسى ، أنهاكم عن النميمة وأكون نماما ! فتابوا جميعا ، فسقوا . ويقال اتبع رجل حكيما سبعمائة فرسخ فى سبع كلمات . فلما قدم عليه ، قال إنى جئتك للذى آتاك الله تعالى من العلم ، أخبرنى عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ؟ وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار وما أحر منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذل منه ؟ فقال له الحكيم ، البهتان على البرىء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار ، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم

بيان

حد النميمة وما يجب فى ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق فى الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا . وليست النميمة مختصة به . بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه ، أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث . وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو بالإيماء . وسواء كان المنقول من الأعمال ، أو من الأقوال وسواء كان ذلك عيبا ونقصا فى المنقول عنه ، أو لم يكن . بل حقيقة النميمة إفشاء السر ،

ثان لوالديه وديوث وللنسائى من حديث عبد الله بن عمر ولا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر وللشيخين من حديث حذيفة لا يدخل الجنة قتات ولهما من حديث جبير بن مطعم لا يدخل الجنة قاطع وذكر صاحب الفردوس من حديث ابن عباس لما خلق الله الجنة قال لها تكلمى تزينى فتزينت فقالت طوبى لمن دخلنى ورضى عنه إلهى فقال الله عز وجل لا أسكنك مخنث ولا نائحة

وهتك الستر عما يكره كشفه . بل كل مارآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره، فينبغى ان يسكت عنه ، إلا مافى حكايته فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية ، كما إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، مراعاة لحق المشهود له . فأما إذا رآه يخفى مالا لنفسه ، فذكره فهو نميمة ، وإفشاء للسر فإن كان مايُنم به نقصاوعيبافى المحكى عنه،كان قدجمع بين الغيبة والنميمة

فالباعث على النميمة أما إرادة السوء المحكى عنه ،أو إظهار الحب للمحكى له ، أو التفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل

وكل من حملت إليه النميمة ، وقيل له إن فلانا قال فيك كذا ، أو فعل فى حقك كذا أوهويدبر فى إفساد أمرك،أو فى ممالأة عدوك،أو تقبيح حالك،أو ما يجرى مجراه، فعليه ستة أمور

الأول. أن لا يصدقه لأن النمام فاسق ،وهو مردود الشهادة ، قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ [1])

الثانى . أن ينهاه عن ذلك، وينصح له ، ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ [2])

الثالث. أن يبغضه فى الله تعالى، فإنه بغيض عند الله تعالى، ويجب بغض من يبغضه الله تعالى

الرابع . أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى (اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ [3])

الخامس . أن لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث لتتحقق اتباعا لقوله تعالى (وَلَا تَجَسَّسُوا [4])

السادس . أن لا ترضى لنفسك مانهيت النمام عنه ، ولا تحكى نميمته ، فتقول فلان قد حكى لى كذا وكذا ، فتكون به نماما ومغتابا ، وقد تكون قد أتيت ماعنه نهيت

وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أنه دخل عليه رجل ، فذكر له عن رجل شيئا . فقال له عمر ، إن شئت نظرنا فى أمرك ، فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا [5]) وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ [6]) وإن شئت عفونا عنك . فقال العفو ياأمير المؤمنين لا أعود إليه أبدا

(1) الحجرات : ٦ (2) لقمان : ١٧ (3) و(4) الحجرات : ١٢ (5) الحجرات : ٦ (6) القلم : ١١

وذكر أن حكيما من الحكماء زاره بعض إخوانه ، فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه . فقال له الحكيم ، قد أبطأت فى الزيارة ، وأتيت بثلاث جنايات . بغضت أخي إلى ، وشغلت قلبي الفارغ ، واتهمت نفسك الأمينة . وروى أن سليمان بن عبد الملك، كان جالسا وعنده الزهرى، فجاءه رجل ، فقال له سليمان، بلغنى إنك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا، فقال الرجل مافعلت ولا قلت . فقال سليمان ، إن الذى أخبرنى صادق . فقال له الزهرى ، لا يكون النمام صادقا . فقال سليمان صدقت . ثم قال للرجل إذهب بسلام

وقال الحسن . من نم اليك ، نم عليك . وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغى أن يبغض ، ولا يوثق بقوله ، ولا بصداقته . وكيف لا يبغض وهو لا ينفك عن الكذب والغيبة ، والغدر والخيانة ، والغل والحسد والنفاق ، والإفساد بين الناس والخديعة . وهو ممن يسعى فى قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض

وقال تعالى(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [1]) والنمام منهم . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ » والنمام منهم . وقال [2] « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » قيل وما القاطع . قال « قَاطِعٌ بَيْنَ النَّاسِ » وهو النمام ، وقيل قاطع الرحم

وروى عن علي رضى الله عنه ، أن رجلا سعى إليه برجل ، فقال ياهذا ، نحن نسأل عما قلت ، فإن كنت صادقا مقتناك ، وإن كنت كاذبا عاقبناك ، وإن شئت أن نقيلك أقلناك . فقال أقلنى ياأمير المؤمنين . وقيل لمحمد بن كعب القرظى ، أى خصال المؤمن أوضع له؟فقال كثرة الكلام ، وإفشاء السر ، وقبول قول كل أحد. وقال رجل لعبد الله بن عامر، وكان أميرا بلغنى أن فلانا أعلم الأمير أنى ذكرته بسوء . قال قد كان ذلك . قل فأخبرنى بما قال لك . حتى أظهر كذبه عندك . قال ما أحب أن أشتم نفسى بلسانى ، وحسبي أنى لم أصدقه فيما قال ، ولا أقطع عنك الوصال

---

(١) حديث انمن شر الناس من اتقاه الناس لشره :متفق عليه من حديث عائشة نحوه

(٢) حديث لايدخل الجنة قاطع :متفق عليه من حديث جبير بن مطعم

---

(١) الشورى : ٤٢

وذكرت السعاية عند بعض الصالحين فقال ، ما ظنكم بقوم يحمد الصدق من كل طائفة من الناس إلا منهم ؟ وقال مصعب بن الزبير ، نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به ، كمن قبله وأجازه ، فاتقوا الساعي ، فلو كان صادقا في قوله لكان لئيما في صدقه حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستتر العورة

والسعاية هي النميمة ، إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « السَّاعِي بِالنَّاسِ إِلَى النَّاسِ لَغَيْرُ رِشْدَةٍ » يعني ليس بولد حلال

ودخل رجل على سليمان بن عبد الملك ، فاستأذنه في الكلام ، وقال إني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام ، فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته . فقال قل . فقال يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، ولا تصخ إليهم فيما استحفظك الله إياه ، فإنهم لن يألوا في الأمة خسفا ، وفي الأمانة تضييعا ، والأعراض قطعا وانتهاكا أعلى قربهم البغي والنميمة ، وأجل وسائلهم الغيبة والوقيعة ، وأنت مسؤل عما أجرموا ، وليسوا المسؤلين عما أجرمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنا من باع آخرته بدنيا غيره

وسعى رجل بزياد الأعجم ، إلى سليمان بن عبد الملك ، فجمع بينهما للموافقة . فأقبل زياد على الرجل وقال

فأنت امرؤ ما ائتمنتك خاليا ... فخنت وإما قلت قولا بلا علم

فأنت من الأمر الذي كان بيننا ... بمنزلة بين الخيانة والإثم

---

(١) حديث الساعي بالناس إلى الناس لغير رشدة: الحاكم من حديث أبي موسى من سعى بالناس فهو لغير رشدة أو فيه شيء منها وقال له أسانيد هذا أمثلها قلت فيه سهل بن عطية قال فيه ابن طاهر في التذكرة منكر الرواية قال ــ والحديث : لا أصل له وقد ذكر ابن حبان في الثقات سهل بن عطية ورواه الطبراني بلفظ لا يسعى على الناس إلا ولد بغي وإلا من فيه عرق منه وزاد بين سهل وبين بلال ابن أبي بردة أبا الوليد القرشي

وقال رجل لعمرو بن عبيد ، أن الأسوارى ما يزال يذكرك فى قصصه بشر . فقال له عمرو ، ياهذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل ، حيث نقلت إلينا حديثه . ولا أديت حقى ، حين اعلمتنى عن أخى ما أكره . ولكن أعلمه أن الموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا ، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين

ورفع بعض السعاة إلى الصاحب بن عباد رقعة ، نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرته فوقع على ظهرها . السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة . فإن كنت أجريتها مجرى النصح، فخسرانك فيها أفضل من الربح . ومعاذ الله أن نقبل مهتوكا فى مستور . ولولا أنك فى خفارة شيبتك ، لقابلناك بما يقتضيه فعالك فى مثلك . فتوقَّ ياملعون العيب ، فإن الله أعلم بالغيب . الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والمال ثمره الله ، والساعى لعنه الله

وقال لقمان لابنه ، يابنى ، أوصيك بخلال، إن تمسكت بهن لم تزل سيدا . ابسط خلقك للقريب والبعيد ، وأمسك جهلك عن الكريم واللئيم ، واحفظ إخوانك ، وصل أقاربك وآمنهم من قبول قول ساع ، أو سماع باغ يريد فسادك ، ويروم خداعك وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك .

وقال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق ،وهى أثافى الذل. وقال بعضهم لو صح مانقله النمام إليك ، لكان هو المجترىء بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك ؛ لأنه لم يقابلك بشتمك . وعلى الجملة ، فشر النمام عظيم ، ينبغى أن يتوقى . قال حماد ابن سلمة : باع رجل عبدا ، وقال للمشترى : مافيه عيب إلا النميمة . قال قد رضيت . فاشتراه فمكث الغلام أياما ، ثم قال لزوجة مولاه ، إن سيدى لايحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك فخذى الموسى واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات ، حتى أسحره عليها ، فيحبك . ثم قال للزوج ، إن امرأتك اتخذت خليلا ، وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك . فتناوم لها ، فجاءت المرأة بالموسى ، فظن أنها تريد قتله ، فقام إليها فقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين . فنسأل الله حسن التوفيق

الآفة السابعة عشرة

كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه

وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين . وذلك عين النفاق . قال عمار بن ياسر ، [١] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال أبو هريرة ، [٢] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تَجِدُونَ مِنْ شَرِّ عِبَادِ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِحَدِيثٍ وَهَؤُلَاءِ بِحَدِيثٍ » وفى لفظ آخر « الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ »

وقال أبو هريرة : لا ينبغى لذى الوجهين أن يكون أميناً عند الله . وقال مالك بن دينار : قرأت فى التوراة ، بطلت الأمانة، والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين ، يهلك الله تعالى يوم القيامة كل شفتين مختلفتين . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « أَبْغَضُ خَلِيقَةِ اللهِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكَذَّابُونَ وَالْمُسْتَكْبِرُونَ وَالَّذِينَ يُكْثِرُونَ الْبَغْضَاءَ لِإِخْوَانِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ فَإِذَا لَقُوهُمْ تَمَلَّقُوا لَهُمْ وَالَّذِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ كَانُوا بِطَاءً وَإِذَا دُعُوا إِلَى الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ كَانُوا سِرَاعاً » . وقال ابن مسعود ، لا يكونن أحدكم إمعة . قالوا وما الإمعة ؟ قال الذى يجرى مع كل ريح . واتفقوا على أن ملاقاة الإثنين بوجهين نفاق، وللنفاق علامات كثيرة، وهذه من جملتها وقد روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فلم يصل عليه حذيفة . فقال له عمر ، يموت رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تصل عليه فقال ياأمير المؤمنين ، إنه منهم . فقال نشدتك الله أنا منهم أم لا ؟ قال اللهم لا ، ولا أومن منها أحدا بعدك

(الآفة السابعة عشرة كلام ذى اللسانين)

(١) حديث عمار بن ياسر من كان له وجهان فى الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة : البخارى فى كتاب الادب المفرد وأبو داود بسند حسن

(٢) حديث أبى هريرة تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين ـ الحديث: متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخارى وهو عند ابن أبى الدنيا بلفظ المصنف

(٣) حديث أبغض خليقة الله إلى الله يوم القيامة الكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لاخوانهم فى صدورهم فاذا لقوهم تملقوا لهم ـ الحديث : لم أقف له على أصل

فإن قلت : فاذا يصير الرجل ذا لسانين ؟ وما حد ذلك ؟

فأقول . إذا دخل على متعاديين ، وجامل كل واحد منهما ، وكان صادقا فيه ، لم يكن منافقا ، ولا ذا لسانين . فإن الواحد قد يصادق متعاديين . ولكن صداقة ضعيفة ، لا تنتهي إلى حد الأخوة . إذ لو تحققت الصداقة ، لاقتضت معاداة الأعداء ، كما ذكرنا في كتاب آداب الصحبة والأخوة . نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر ، فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط . فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام . وإن لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكل واحد منهما ماهو عليه من المعاداة مع صاحبه : فهذا ذو لسانين . وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على كل واحد منهما في معاداته . وكذلك إذا أثنى على أحدهما ، وكان إذا خرج من عنده يذمه ، فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت ، أو يثني على المحق من المتعاديين ، ويثني عليه في غيبته ، وفي حضوره ، وبين يدي عدوه . قيل لابن عمر رضي الله عنهما ، [1] إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول ، فإذا خرجنا قلنا غيره . فقال كنا نعد هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا نفاق مهما كان مستغنيا عن الدخول على الأمير ، وعن الثناء عليه . فلو استغنى عن الدخول ، ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن ، فهو نفاق ، لأنه الذي أحوج نفسه إلى ذلك . فإن كان مستغنيا عن الدخول لو قنع بالقليل ، وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى ، وأثنى ، فهو منافق . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم [2] « حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراآتهم . فأما إذا ابتلي به لضرورة ، وخاف إن لم يثن ، فهو معذور فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه ، إنا لنكشر في وجوه أقوام ،

(١) حديث قيل لابن عمر انا ندخل على أمرائنا فنقول القول فاذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الطبراني من طرق

(٢) حديث حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل : أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف الا انه قال حب الغناء وقال الشعب مكان البقل

وإن قلوبنا لتلعنهم وقالت عائشة رضي الله عنها [١] استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ هُوَ » ثم لما دخل ألان له القول . فلما خرج قلت يارسول الله ، قلت فيه ماقلت، ثم ألنت له القول! فقال « يَاعَائِشَةُ إِنَّ شَرَّ النَّاسِ الَّذِي يُكْرَمُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ » ولكن هذا ورد في الإقبال، وفي الكشر والتبسم . فأما الثناء، فهو كذب صراح ، ولا يجوز إلا لضرورة ، أو إكراه يباح الكذب بمثله ، كما ذكرناه في آفة الكذب بل لايجوز الثناء ، ولا التصديق ، ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل فإن فعل ذلك ، فهو منافق . بل ينبغي أن ينكر ،فإن لم يقدر فيسكت بلسانه، وينكر بقلبه

الآفة الثامنة عشرة

المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع . أما الذم ، فهو الغيبة والوقيعة ، وقد ذكرنا حكمها . والمدح يدخله ست آفات ، أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح . فأما المادح :

فالأولى . أنه قد يفرط ، فينتهي به إلى الكذب . قال خالد بن معدان من مدح إماما أو أحدا بما ليس فيه على رؤس الأشهاد ، بعثه الله يوم القيامة يتعثر بلسانه

الثانية : أنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لايكون مضمرا له ، ولا معتقدا لجميع مايقوله :فيصير به مرائيا منافقا .

الثالثة:أنه قد يقول مالا يتحققه ، ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه . روى [٢] أن رجلا مدح رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه السلام « وَيْحَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ » ثم قال « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ لَابُدَّ مَادِحًا أَخَاهُ فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلَانًا وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا حَسِيبُهُ اللهُ إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ »

---

(١) حديث عائشة استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ائذنوا له فبئس رجل العشيرة ـ الحديث : وفيه ان شر الناس الذي يكرم اتقاء شره متفق عليه وقد تقدم في الآفة التي قبلها

(الآفة الثامنة عشرة المدح)

(٢) حديث ان رجلا مدح رجلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ويحك قطعت عنق صاحبك متفق عليه من حديث أبي بكرة بنحوه وهو في الصمت لابن أبي الدنيا بلفظ المصنف

وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة ، التي تعرف بالأدلة ، كقوله إنه متق وورع ، وزاهد ، وخير ، وما يجرى مجراه . فأما إذا قال رأيته يصلي بالليل ، ويتصدق ، ويحج ، فهذه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله إنه عدل ، رضا ، فإن ذلك خفي ، فلا ينبغي أن يجزم القول فيه . إلا بعد خبرة باطنة . سمع عمر رضي الله عنه رجلا يثني على رجل ، فقال أسافرت معه ؟ قال لا . قال. أخالطته في المبايعة والمعاملة ؟قال لا . قال :فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال لا . فقال : والله الذي لا إله إلا هو لأراك تعرفه

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَغْضَبُ إِذَا مُدِحَ الْفَاسِقُ » وقال الحسن . من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه . والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ، ولا يمدح ليفرح . وأما الممدوح فيضره من وجهين :

أحدهما . أنه يحدث فيه كبرا وإعجابا ، وهما مهلكان . قال الحسن رضي الله عنه . كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة ، والناس حوله ، إذ أقبل الجارود بن المنذر ، فقال رجل هذا سيد ربيعة . فسمعها عمر ومن حوله ، وسمعها الجارود . فلما دنا منه ، خفقه بالدرة . فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال مالي ولك أما لقد سمعتها ؟ قال سمعتها فمه . قال خشيت أن يخالط قلبك منها شيء ، فأحببت أن أطاطيء منك .

الثاني : هو أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتر ، ورضي عن نفسه . ومن أعجب بنفسه قل تشمره . وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً . فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ، ظن أنه قد أدرك . ولهذا قال عليه السلام «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ» وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِذَا مَدَحْتَ أَخَاكَ فِي وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمْرَرْتَ عَلَى حَلْقِهِ مُوسَى وَمِيضاً »وقال أيضا لمن مدح رجلا [3] « عَقَرْتَ الرَّجُلَ عَقَرَكَ اللهُ »

---

(١) حديث ان الله يغضب اذا مدح الفاسق :ابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب من حديث أنس وفيه أبو خلف خادم أنس ضعيف ورواه أبو يعلى الموصلي وابن عدى بلفظ اذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز العرش قال الذهبي في الميزان منكر وقد تقدم في آداب الكسب

(٢) حديث اذا مدحت أخاك في وجهه فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضا :ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية يحيى بن جابر مرسلا

(٣) حديث عقرت الرجل عقرك الله :قاله لمن مدح رجلا لم أجد له أصلا

وقال مطرف، ماسمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة، إلا تراءى له الشيطان. ولكن المؤمن يراجع. فقال ابن المبارك، لقد صدق كلاهما. أما ماذكره زياد، فذلك قلب العوام. وأما ماذكره مطرف، فذلك قلب الخواص. وقال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْ مَشَى رَجُلٌ إِلَى رَجُلٍ بِسِكِّينٍ مُرْهَفٍ كَانَ خَيْراً لَهُ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْهِ فِي وَجْهِهِ » وقال عمر رضي الله عنه: المدح هو الذبح. وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل. والمدح يوجب الفتور. أو لأن المدح يورث العجب والكبر، وهما مهلكان كالذبح، فلذلك شبهه به

فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح، لم يكن به بأس. بل ربما كان مندوبا إليه ولذلك أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة فقال [2] « لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ الْعَالَمِ لَرَجَحَ » وقال في عمر [3] « لَوْ لَمْ أُبْعَثْ لَبُعِثْتَ يَا عُمَرُ » وأي ثناء يزيد على هذا؟ ولكنه صلى الله عليه وسلم قال عن صدق وبصيرة وكانوا رضي الله عنهم أجل رتبة من أن يورثهم ذلك كبرا وعجبا وفتورا. بل مدح الرجل نفسه قبيح لما فيه من الكبر والتفاخر. إذ قال صلى الله عليه وسلم [4] « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ » أي لست أقول هذا تفاخرا، كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم. وذلك لأن افتخاره صلى الله عليه وسلم كان بالله، وبالقرب من الله، لا بولد آدم وتقدمه عليهم. كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يفتخر بقبوله إياه، وبه يفرح، لا بتقدمه على بعض رعاياه

وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه. قال صلى الله عليه وسلم [5] « وَجَبَتْ » لما أثنوا على بعض الموتى. وقال مجاهد إن لبني آدم جلساء

---

(١) حديث لو مشى رجل بسكين مرهف كان خيرا له من أن يثني عليه في وجهه: لم أجده أيضا

(٢) حديث لو وزن ايمان أبي بكر بايمان العالمين لرجح: تقدم في العلم

(٣) حديث لو لم أبعث لبعثت يا عمر: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وهو منكر والمعروف حديث عقبة بن عامر لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب رواه الترمذي وحسنه

(٤) حديث أنا سيد ولد آدم ولا فخر: الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري والحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وله من حديث عبادة بن الصامت أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ولمسلم من حديث أبي هريرة أنا سيد ولد آدم يوم القيامة

(٥) حديث وجبت قاله لما أثنوا على بعض الموتى: متفق عليه من حديث أنس

من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل المسلم أخاه المسلم بخير ، قالت الملائكة ولك بمثله . وإذا ذكره بسوء ، قالت الملائكة يا ابن آدم المستور عورتك أربع على نفسك . واحمد الله الذى ستر عورتك . فهذه آفات المدح .

بيان

ما على الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب ، وآفة الفتور ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ، ويتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح . ولو انكشف له جميع أسراره ، وما يجرى على خواطره ، لكف المادح عن مدحه

وعليه أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح . قال صلى الله عليه وسلم[1] « أَحْثُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ الْمَادِحِينَ » وقال سفيان بن عيينة ، لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثنى على رجل من الصالحين : فقال اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى ، وأنت تعرفنى . وقال آخر لما أثنى عليه ، اللهم إن عبدك هذا تقرب إلىّ بمقتك ، وأنا أشهدك على مقته . وقال على رضى الله عنه لما أثنى عليه ، اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه ، فقال أتهلكنى وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على علي كرم الله وجهه فى وجهه ، وكان قد بلغه أنه يقع فيه ، فقال أنا دون ما قلت ، وفوق ما فى نفسك

الآفة التاسعة عشرة

الغفلة عن دقائق الخطأ فى فحوى الكلام

لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين . فلا يقدر على تقويم اللفظ فى أمور الدين إلا العلماء الفصحاء . فمن قصر فى علم أو فصاحة ، لم يخل كلامه عن الزلل . لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله ما قال حذيفة قال النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث احثوا فى وجوه المداحين التراب : مسلم من حديث المقداد .

[1] « لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ مَاشَاءَ اللهُ وَشِئْتَ وَلَكِنْ لِيَقُلْ مَاشَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكا وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، [2] جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكلمه في بعض الأمر ، فقال ماشاء الله وشئت . فقال صلى الله عليه وسلم « اجَعَلْتَنِي لِلهِ عَدِيلاً بَلْ مَاشَاءَ اللهُ وَحْدَهُ » وخطب رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] ، فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال « قُلْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى » فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ومن يعصهما ، لأنه تسوية وجمع

وكان ابراهيم يكره أن يقول الرجل أعوذ بالله وبك ، ويجوز أن يقول أعوذ بالله ثم بك وأن يقول لولا الله ثم فلان، ولا يقول لولا الله وفلان . وكره بعضهم أن يقال، اللهم أعتقنا من النار، وكان يقول العتق يكون بعد الورود .وكانوا يستجيرون من النار ، ويتعوذون من النار

وقال رجل : اللهم اجعلنى ممن تصيبه شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال حذيفة « إن الله يغنى المؤمنين عن شفاعة محمد ، وتكون شفاعته للمذنبين من المسلمين

وقال ابراهيم ، إذا قال الرجل للرجل ياحمار ، ياخنزير ، قيل له يوم القيامة ، حمارا رأيتنى خلقته ! خنزيرا رأيتنى خلقته ؟ . وعن ابن عباس رضى الله عنها إن أحدكم ليشرك « حتى يشرك بكلبه ' فيقول لولاه لسُرقنا الليلة

وقال عمر رضى الله عنه ، [4] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْهَاكُمْ أَن تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ مَنْ كَانَ حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ » قال عمر رضي الله عنه « فو الله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال صلى الله عليه وسلم [5] « لاَ تُسَمُّوا الْعِنَبَ كَرْماً

(الآفة التاسعة عشرة في الغفلة عن دقائق الخطأ)

(١) حديث حذيفة لايقل أحدكم ماشاء الله وشئت ـ الحديث : أبوداود والنسائى فى الكبرى بسند صحيح

(٢) حديث ابن عباس جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلمه فى بعض الامر فقال ماشاء الله وشئت، فقال جعلتنى لله عدلا قل ماشاء الله وحده النسائى فى الكبرى باسناد حسن وابن ماجه

(٣) حديث خطب رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى ـ الحديث: مسلم من حديث عدى بن حاتم

(٤) حديث عمران الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم :متفق عليه

(٥) حديث لاتسموا العنب الكرم انما الكرم الرجل المسلم:متفق عليه من حديث أبى هريرة

إِنَّمَا الْكَرْمُ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ »

• وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلَا أَمَتِي كُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللهِ وَلْيَقُلْ غُلَامِي وَجَارِيَتِي وَفَتَايَ وَفَتَاتِي وَلَا يَقُولُ الْمَمْلُوكُ رَبِّي وَلَا رَبَّتِي وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَسَيِّدَتِي فَكُلُّكُمْ عَبِيدُ اللهِ وَالرَّبُّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لَا تَقُولُوا لِلْفَاسِقِ سَيِّدَنَا فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ قَالَ أَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَهُوَ كَمَا قَالَ وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَلَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْإِسْلَامِ سَالِمًا »

فهذا وأمثاله مما يدخل فى الكلام ، ولا يمكن حصره . ومن تأمل جميع ما أوردناه من آفات اللسان ، علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم . وعند ذلك يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ صَمَتَ نَجَا » لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب ، وهى على طريق المتكلم ، فإن سكت سلم من الكل . وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه : إلا أن يوافقه لسان فصيح ، وعلم غزير ، وورع حافظ ؛ ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام ، فعساه يسلم عند ذلك وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر . فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم ، فكن ممن سكت فسلم ، فالسلامة إحدى الغنيمتين

الآفة العشرون

سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وعن الحروف وأنها قديمة أو محدثة

ومن حقهم الاشتغال بالعمل بما فى القرءان . إلا أن ذلك ثقيل على النفوس، والفضول خفيف على القلب . والعامى يفرح بالخوض فى العلم . إذ الشيطان يخيل إليه أنك من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك : حتى يتكلم فى العلم بما هو كفر ، وهو لا يدرى

---

(١) حديث لا تقولوا للمنافق سيدنا ـ الحديث : أبو داود من حديث بريدة بسند صحيح

(٢) حديث من قال أنا برىء من الاسلام فان كان صادقا فهو كما قال ـ الحديث : النسائى وابن ماجه من حديث بريدة باسناد صحيح

(٣) حديث من صمت نجا : الترمذى وقد تقدم فى أول آفات اللسان

(الآفة العشرون سؤال العوام عن صفات الله تعالى)

وكل كبيرة يرتكبها العامى ، فهى أسلم له من أن يتكلم فى العلم ، لاسيما فيما يتعلق بالله وصفاته وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرءان ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث . وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم ؛ يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر . وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك ، وهو موجب للعقوبة . وكل من سأل عن علم غامض ، ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم . فإنه بالإضافة إليه عامى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « ذَرُونِى مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ مَانَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَااسْتَطَعْتُمْ »

وقال أنس : [2] سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال « سَلُونِى وَلاَ تَسْأَلُونِى عَنْ شَىْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ » فقام إليه رجل ؛ فقال يارسول الله من أبى ؟ فقال « أَبُوكَ حُذَافَةُ » فقام إليه شابان أخوان ، فقالا يارسول الله ، من أبونا ؟ فقال « أَبُوكُمَا الَّذِى تُدْعَيَانِ إِلَيْهِ » ثم قام إليه رجل آخر ، فقال يارسول الله ، أفى الجنة أنا أم فى النار ؟ فقال « لاَ بَلْ فِى النَّارِ » فلما رأى الناس غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسكوا . فقام إليه عمر رضى الله عنه ، فقال رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا . فقال « اجْلِسْ يَاعُمَرُ رَحِمَكَ اللهُ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَمُوَفَّقٌ » وفى الحديث ، [3] نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل ، والقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « يُوشِكُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يَقُولُوا قَدْ خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَ اللهَ فَإِذَا قَالُوا ذَلِكَ فَقُولُوا (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ

---

(١) حديث ذرونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم — الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما حتى أكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر فقال سلونى فلا تسألونى عن شىء إلا أنبأتكم به — الحديث : متفق عليه مقتصرا على سؤال عبد الله بن حذافة وقول عمر ولمسلم من حديث أبى موسى فقام آخر فقال من أبى فقال أبوك سالم مولى شيبة

(٣) حديث النهى عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال متفق عليه من حديث المغيرة بن شعبة

(٤) حديث يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا قد خلق الله الخلق — الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

اللهُ الصَّمَدُ[١]) حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم » وقال جابر[١] ، مانزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال

وفى قصة موسى والخضر عليهما السلام ، تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا[٢]) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر ، وقال (لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا[٣]) فلما لم يصبر حتى سأل ثلاثا قال (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ[٤]) وفارقه

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات ، وهو من المثيرات للفتن ، فيجب دفعهم ومنعهم من ذلك . وخوضهم فى حروف القرءان ، يضاهى حال من كتب الملك إليه كتابا ، ورسم له فيه أمورا ، فلم يشتغل بشىء منها ، وضيع زمانه فى أن قرطاس الكتاب عتيق أم حديث ، فاستحق بذلك العقوبة لامحالة . فكذلك تضييع العامي حدود القرءان واشتغاله بحروفه أهى قديمة أم حديثة، وكذلك سائر صفات الله سبحانه وتعالى . والله تعالى أعلم

---

(١) حديث جابر مانزلت آية التلاعن الا لكثرة السؤال رواه البزار باسناد جيد

[١] الصمد : ١-٢ (٢ ، ٣ ، ٤) الكهف : ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٨

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

وهو الكتاب الخامس من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لا يتكل على عفوه ورحمته إلا الراجون ، ولا يحذر سوء غضبه وسطوته إلا الخائفون . الذى استدرج عباده من حيث لا يعلمون ، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بترك مايشتهون ، وابتلاهم بالغضب وكلفهم كظم الغيظ فيما يغضبون . ثم حفهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كيف يعملون ، وامتحن به حبهم ليعلم صدقهم فيما يدعون ، وعرفهم أنه لا يخفى عليه شىء مما يسرون وما يعلنون ، وحذرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون ، فقال (مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ [1]) . والصلاة والسلام على محمد رسوله الذى يسير تحت لوائه النبيون ، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديين ، والسادة المرضيين ، صلاة يوازى عددها عدد ما كان من خلق الله وما سيكون ، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد . فإن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة فى طى الفؤاد ، استكنان الجمر تحت الرماد . ويستخرجها الكبر الدفين فى قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد . وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين ، فمن استفزته نار الغضب ، فقد قويت فيه قرابة الشيطان ، حيث قال (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [2]) فإن شأن الطين السكون والوقار ، وشأن النار التلظى والاستعار ، والحركة والاضطراب . ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، وبهما هلك من هلك ، وفسد من فسد ، ومفيضهما مضغة إذا صلحت صلح معها سائر الجسد . وإذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد إلى مواطن العطب ،

---

(1) يس : ٤٩ ، ٥٠ (2) الاعراف : ١٢

فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه ليحذر ذلك ويتقيه، ويميطه عن القلب إن كان ينفيه، ويعالجه إن رسخ فى قلبه ويداويه ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، ومن عرفه فالمعرفة لا تكفيه ، مالم يعرف الطريق الذى به يدفع الشر ويقصيه

ونحن نذكر ذم الغضب، وآفات الحقد والحسد فى هذا الكتاب، ويجمعها بيان ذم الغضب ، ثم بيان حقيقة الغضب، ثم بيان أن الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا ، ثم بيان الأسباب المهيجة للغضب ، ثم بيان علاج الغضب بعد هيجانه ، ثم بيان فضيلة كظم الغيظ ، ثم بيان فضيلة الحلم ، ثم بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام، ثم القول فى معنى الحقد ونتائجه ، وفضيلة العفو والرفق ، ثم القول فى ذم الحسد ، وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته، وغاية الواجب فى إزالته ، ثم بيان السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال ، والأقران ، والأخوة ، وبنى العم، والأقارب . وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه ، ثم بيان الدواء الذى به ينفى مرض الحسد عن القلب ، ثم بيان القدر الواجب فى نفى الحسد عن القلب ، وبالله التوفيق

بيان

ذم الغضب

قال الله تعالى: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ [1]) الآية ، ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنزل الله عليهم من السكينة . وروى أبو هريرة [٢] أن رجلا قال يارسول الله ، مرنى بعمل وأقلل . قال « لاَ تَغْضَبْ » ثم أعاد عليه فقال « لاَ تَغْضَبْ » وقال ابن عمر [٢] قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « قل لى قولا وأقلله لعلى أعقله . فقال « لاَ تَغْضَبْ » فأعدت عليه مرتين ، كل ذلك يرجع إلى لا تغضب .

(كتاب الغضب والحقد والحسد)

(١) حديث أبى هريرة انرجلا قال يارسول الله مرنى بعمل وأقلل قال لاتغضب ثم أعاد عليه فقال لاتغضب :رواه البخارى

(٢) حديث ابن عمر قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم قل لى قولا وأقلل ـ الحديث : نحوه أبو يعلى باسناد حسن

(١) الفتح : ٢٦

وعن عبد الله بن عمرو [١] ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماذا ينقذني من غضب الله ؟ قال « لاَ تَغْضَبْ » وقال ابن مسعود [٢] ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ ؟ » قلنا الذي لا تصرعه الرجال . قال « لَيْسَ ذَلِكَ وَلَـكِنِ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وقال أبو هريرة [٣] قال النبي صلى الله عليه وسلم « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ وَإِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » وقال ابن عمر [٤] قال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام : يا بني إياك وكثرة الغضب فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم . وعن عكرمة في قوله تعالى (وَسَيِّداً وَحَصُوراً [١]) قال السيد الذي لا يغلبه الغضب . وقال أبو الدرداء ، [٥] قلت يارسول الله ، دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « لاَ تَغْضَبْ » وقال يحيى لعيسى عليهما السلام ، لا تغضب ، قال : لاأستطيع أن لا أغضب ، إنما أنا بشر . قال لا تقتن مالا ، قال هذا عسى

وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « الْغَضَبُ يُفْسِدُ الإِيمَانَ كَمَا يُفْسِدُ الصَّبِرُ الْعَسَلَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « مَا غَضِبَ أَحَدٌ إِلاَّ أَشْفَى عَلَى جَهَنَّمَ » وقال له رجل [٨] ، أي شيء أشد قال « غَضَبُ اللهِ » قال فما يبعدني عن غضب الله ؟ قال « لاَ تَغْضَبْ »

---

(١) حديث عبد الله بن عمرو سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم مايبعدني من غضب الله قال لاتغضب الطبراني في مكارم الاخلاق وابن عبد البر في التمهيد باسناد حسن وهو عند أحمد وان عبد الله ابن عمرو هو السائل

(٢) حديث ابن مسعود ماتعدون الصرعة ـ الحديث : رواه مسلم

(٣) حديث أبي هريرة وليس الشديد بالصرعة ـ الحديث : متفق عليه

(٤) حديث ابن عمر من كف غضبه ستر الله عورته : ابن أبي الدنيا في كتاب العفو وذم الغضب وفي الصمت وتقدم في آفات اللسان

(٥) حديث أبي الدرداء دلني على عمل يدخلني الجنة قال لاتغضب : ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والاوسط باسناد حسن

(٦) حديث الغضب يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل : الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف

(٧) حديث ماغضب أحد الا أشفى على جهنم : البزار وابن عدي من حديث ابن عباس للنار باب لايدخله الا من شفى غيظه بمعصية الله واسناده ضعيف وتقدم في آفات اللسان

(٨) حديث قال رجل أي شيء أشد علي قال غضب الله قال فما يبعدني من غضب الله قال لاتغضب : أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بالشطر الاخير منه وقد تقدم قبله بست أحاديث

---

(١) آل عمران : ٣٩

الآثار . قال الحسن : ياابن آدم ، كلما غضبت وثبت ، ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار . وعن ذى القرنين ، أنه لقي ملكا من الملائكة ، فقال علمني علما أزداد به إيمانا ويقينا ، قال لا تغضب ، فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة . وإياك والعجلة ، فإنك إذا عجلت أخطأت حظك . وكن سهلا لينا للقريب والبعيد ، ولا تكن جبارا عنيدا

وعن وهب بن منبه ، أن راهبا كان في صومعته ، فأراد الشيطان أن يضله ، فلم يستطع فجاءه حتى ناداه ، فقال له افتح فلم يجبه ، فقال افتح . فإني إن ذهبت ندمت ، فلم يلتفت إليه . فقال إني أنا المسيح قال الراهب ، وإن كنت المسيح . . فما أصنع بك ؟ أليس قد أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ؟ ووعدتنا القيامة ؟ فلو جئتنا اليوم بغيره لم نقبله منك . فقال إني الشيطان ، وقد أردت أن أضلك فلم أستطع ، فجئتك لتسألني عما شئت فأخبرك . فقال ما أريد أن أسألك عن شيء قال : فولى مدبرا . فقال الراهب ألا تسمع ؟ قال بلى . قال أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم ؟ قال الحدة . إن الرجل إذا كان حديدا ، قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة

وقال خيثمة ، الشيطان يقول ، كيف يغلبني ابن آدم ، وإذا رضي جئت حتى أكون في قلبه ، وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه . وقال جعفر بن محمد ، الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار ، رأس الحمق الحدة ، وقائده الغضب . ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه وقال مجاهد ، قال ابليس ، ما أعجزني بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث . إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته فقدناه حيث شئنا ، وعمل لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم ، وعمل بما يندم . ونبخله بما في يديه ، ونمنيه بما لا يقدر عليه . وقيل لحكيم ، ما أملك فلانا لنفسه قال إذا لا تذله الشهوة . ولا يصرعه الهوى ، ولا يغلبه الغضب ، وقال بعضهم إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبد الله بن مسعود ، انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه . وأمانته عند طمعه ، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله ، أن لا تعاقب عند غضبك على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه . ولا تجاوز به خمسة عشر سوطا . وقال علي بن زيد ، أغلظ

رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول ؛ فأطرق عمر زمانا طويلا ؛ ثم قال أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا . وقال بعضهم لابنه ، يابني ، لا يثبت العقل عند الغضب ، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة .

فأقل الناس غضبا أعقلهم . فإن كان للدنيا كان دهاء ومكرا ، وإن كان للآخرة كان حلما وعلما . فقد قيل الغضب عدو العقل ، والغضب غول العقل . وكان عمر رضي الله عنه اذا خطب قال في خطبته ، أفلح منكم من حفظ من الطمع ، والهوى ، والغضب . وقال بعضهم ، من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجمل في فاقة ، وإحسان في قدرة ، وتحمل في رفاقة ، وصبر في شدة ، لا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ، ولا يبذر ، ولا يسرف ، ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء.

وقيل لعبد الله بن المبارك ، أجمل لنا حسن الخلق في كلمة . فقال ترك الغضب وقال نبي من الأنبياء لمن تبعه ، من يتكفل لي أن لا يغضب ، فيكون معي في درجتي ، ويكون بعدي خليفتي . فقال شاب من القوم ، أنا . ثم أعاد عليه ، فقال الشاب أنا أوفي به فلما مات كان في منزلته بعده ، وهو ذو الكفل . سمي به لأنه تكفل بالغضب ، ووفى به . وقال وهب ابن منبه ، للكفر أربعة أركان ، الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع

بيان

حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرضا للفساد والموتان ، بأسباب في داخل بدنه ، وأسباب خارجة عنه ، أنعم عليه بما يحميه عن الفساد ، ويدفع عنه الهلاك ، إلى أجل معلوم سماه في كتابه . أما السبب الداخل ، فهو أنه ركبه من الحرارة والرطوبة ، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة ومضادة ، فلا تزال الحرارة تحلل الرطوبة . وتجففها ، وتبخرها ،

حتى تصير أجزاؤها بخارا تتصاعد منها . فلو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء ، يجبر ما انحل وتبخر من أجزائها ، لفسد الحيوان . فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان ، وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء ، كالموكل به في جبر ما انكسر ، وسد ما انثلم ؛ ليكون ذلك حافظا له من الهلاك بهذا السبب

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرض لها الإنسان، فكالسيف، والسنان، وسائر المهلكات التي يقصد بها ؛ فافتقر إلى قوة وحمية تثور من باطنه ، فتدفع المهلكات عنه ؛ فخلق الله طبيعة الغضب من النار ، وغرزها في الإنسان ، وعجنها بطينته ، فمهما صد عن غرض من أغراضه ، ومقصود من مقاصده ، اشتعلت نار الغضب ، وثارت به ثورانا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر . فلذلك ينصب إلى الوجه ، فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها ، تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم ، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها . وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه، واستشعر القدرة عليه . فإن صدر الغضب على من فوقه ، وكان معه يأس من الانتقام ، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب ، وصار حزنا . ولذلك يصفر اللون . وإن كان الغضب على نظير يشك فيه ، تردد الدم بين انقباض وانبساط ، فيحمر ويصفر ويضطرب

وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ، ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام . وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها ، وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة ، من التفريط ، والإفراط والاعتدال . أما التفريط ، فبفقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم . وهو الذي يقال فيه إنه لا حمية له ولذلك قال الشافعي رحمه الله ، من استغضب فلم يغضب فهو حمار فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلا ، فهو ناقص جدا . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالشدة والحمية ، فقال (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ [1]) وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ [2]) الآية . وإنما الغلظة والشدة

(١) الفتح : ٢٩ (٢) التحريم : ٩

من آثار قوة الحمية ، وهو الغضب . وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة ، حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ، ولااختيار ، بل يصير في صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية ، وأمور اعتيادية. فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب ، حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان . ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب ، لأن الغضب من النار ، كما قال صلى الله عليه وسلم ‹‹[1] وَإِنَّمَا بُرُودَةُ الْمِزَاجِ تُطْفِئُهُ وَتُكْسِرُ سَوْرَتَهُ ››

وأما الأسباب الاعتيادية ، فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفي الغيظ ، وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم أنا الذي لاأصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحدأمرا ، ومعناه لاعقل فيّ ولا حلم . ثم يذكره في معرض الفخر بجهله فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب ، وحب التشبه بالقوم ، فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب ، وقوى اضطرامها ، أعمت صاحبها ، وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وعظ لم يسمع ، بل زاده ذلك غضبا . وإذا استضاء بنور عقله ، وراجع نفسه ، لم يقدر . إذ ينطفىء نور العقل ، وينمحي في الحال بدخان الغضب . فإن معدن الفكر الدماغ . ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ ، يستولى على معادن الفكر . وربما يتعدى إلى معادن الحس ، فتظلم عينه ، حتى لايرى بعينه ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار ، فاسود جوه ، وحمى مستقره ، وامتلأ بالدخان جوانبه ، وكان فيه سراج ضعيف فانمحى ، أو انطفأ نوره ، فلا تثبت فيه قدم ، ولا يسمع فيه كلام ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغي أن يصبر إلى أن يحترق جميع مايقبل الاحتراق . فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب ، فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب ، فيموت صاحبه غيظا ، كما تقوى النار في الكهف فينشق ، وتنهد أعاليه على أسفله وذلك لإبطال النار مافي جوانبه من القوة الممسكة ، الجامعة لأجزائه . فهكذا حال القلب عند الغضب . وبالحقيقة

---

(١) حديث الغضب من النار : الترمذي من حديث أبي سعيد بسند ضعيف الغضب جمرة في قلب ابن آدم ولابي داود من حديث عطية السعدي ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار

فالسفينة فى ملتطم الأمواج ، عند اضطراب الرياح فى لجة البحر ، أحسن حالا ، وأرجى سلامة ، من النفس المضطربة غيظا . إذ فى السفينة من يحتال لتسكينها وتدبيرها ، وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب ، فهو صاحب السفينة ، وقد سقطت حيلته ، إذ أعماه الغضب وأصمه

ومن آثار هذا الغضب فى الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة فى الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة . ولو رأى الغضبان فى حالة غضبه قبح صورته ، لسكن غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقته . وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن . وإنما قبحت صورة الباطن أولا ، ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانيا ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فقس الثمرة بالمثمرة . فهذا أثره فى الجسد

وأما أثره فى اللسان ، فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام ، الذى يستحيى منه ذو العقل ، ويستحيى منه قائله عند فتور الغضب . وذلك مع تخبط النظم ، واضطراب اللفظ

وأما أثره على الأعضاء ، فالضرب ، والتهجم ، والتمزيق ، والقتل ، والجرح عند التمكن من غير مبالاة . فإن هرب منه المغضوب عليه ، أو فاته بسبب ، وعجز عن التشفى ، رجع الغضب على صاحبه ، فمزق ثوب نفسه ، ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض ، ويعدو عدو الواله السكران ، والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعا ، لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ، ويعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلا على الأرض ، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها ، ويتعاطى أفعال المجانين ، فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ، ويقول إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلا ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ، ويقابلها بذلك

وأما أثره فى القلب مع المغضوب عليه ، فالحقد ، والحسد ، وإضمار السوء ، والشماتة بالمساآت ، والحزن بالسرور ، والعزم على إفشاء السر ، وهتك الستر ، والاستهزاء ، وغير ذلك من القبائح . فهذه ثمرة الغضب المفرط . وأما ثمرة الحمية الضعيفة ، فقلة الأنفة مما يؤنف منه ، من التعرض للحرم ، والزوجة ، والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس ، والقماءة ، وهو أيضا مذموم . إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم ، وهو خنوثة

قال صلى الله عليه وسلم[١] « إن سَعْداً لَغَيُورٌ وأنا أغيرُ من سَعْدٍ وإن الله أغيرُ مني » وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها ، وضعت الصيانة فى نسائها .

ومن ضعف الغضب الخور ، والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد قال صلى الله عليه وسلم[٢] « خَيْرُ أُمَّتِي أَحِدَّاؤُهَا » يعنى فى الدين . وقال تعالى (وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ[١]) بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة .

ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفىء حيث يحسن الحلم . وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التى كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذى وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال[٣] « خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا » . فمن مال غضبه إلى الفتور ، حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس فى احتمال الذل والضيم فى غير محله . فينبغى أن يعالج نفسه ، حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط ، حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش ، فينبغى أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ، فهو الصراط المستقيم ، وهو أرق من الشعرة ، وأحد من السيف . فإن عجز عنه ، فليطلب القرب منه قال تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ[٢]) فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ، ينبغى أن يأتى بالشر كله ولكن بعض الشر أهون من بعض ، وبعض الخير أرفع من بعض

فهذه حقيقة الغضب ودرجاته ، نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه ، إنه على ما يشاء قدير

---

(١) حديث ان سعدا لغيور ــ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه وتقدم فى النكاح

(٢) حديث خير أمتى احداؤها : الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث على بسند ضعيف وزاد الذين اذا غضبوا رجعوا

(٣) حديث خير الامور أوساطها : البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم

---

(١) النور : ٢ (٢) النساء : ١٢٩

بيان

الغضب هل يمكن إزالة أصله بالرياضة أم لا

اعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وزعموا أن الرياضة إليه تتوجه وإياه تقصد . وظن آخرون أنه أصل لا يقبل العلاج ، وهذا رأى من يظن أن الخلق كالخلق وكلاهما لا يقبل التغيير . وكلا الرأيين ضعيف . بل الحق فيه ما نذكره ، وهو أنه ما بقى الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً ، فلا يخلو من الغيظ والغضب . وما دام يوافقه شيء ، ويخالفه آخر ، فلا بد من أن يحب ما يوافقه ، ويكره ما يخالفه : والغضب يتبع ذلك . فإنه مهما أخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، وإذا قصد بمكروه غضب لا محالة . إلا أن ما يحبه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام

الأول : ما هو ضرورة فى حق الكافة ، كالقوت ، والمسكن ، والملبس ، ، وصحة البدن فمن قصد بدنه بالضرب والجرح ، فلابد وأن يغضب . وكذلك إذا أخذ منه ثوبه الذى يستر عورته ، وكذلك إذا أخرج من داره التى هى مسكنه ، أو أريق ماؤه الذى لعطشه . فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها ، ومن غيظ على من يتعرض لها

القسم الثانى : ما ليس ضروريا لأحد من الخلق ، كالجاه ، والمال الكثير ، والغلمان والدواب . فإن هذه الأمور صارت محبوبة بالعادة ، والجهل بمقاصد الأمور ، حتى صار الذهب والفضة محبوبين فى أنفسهما فيكنزان ، ويغضب على من يسرقهما ، وإن كان مستغنيا عنهما فى القوت . فهذا الجنس مما يتصور أن ينفك الإنسان عن أصل الغيظ عليه . فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه ، فهدمها ظالم ، فيجوز أن لا يغضب . إذ يجوز أن يكون بصيرا بأمر الدنيا ، فيزهد فى الزيادة على الحاجة ، فلا يغضب بأخذها ، فإنه لا يحب وجودها ولو أحب وجودها لغضب على الضرورة بأخذها ، وأكثر غضب الناس على ما هو غير ضرورى ، كالجاه ، والصيت ، والتصدر فى المجالس ، والمباهاة فى العلم . فمن غلب هذا الحب عليه ، فلا محالة يغضب إذا زاحمه مزاحم على التصدر فى المحافل . ومن لا يحب ذلك

فلا يبالى ولو جلس فى صف النعال ، فلا يغضب إذا جلس غيره فوقه . وهذه العادات الرديئة هى التى أكثرت محاب الإنسان ومكارهه ، فأكثرت غضبه . وكلما كانت الإرادات والشهوات أكثر ، كان صاحبها أحط رتبة وأنقص . لأن الحاجة صفة نقص . فهما كثرت كثر النقص . والجاهل أبدا جهده فى أن يزيد فى حاجاته وفى شهواته ، وهو لا يدرى أنه مستكثر من أسباب الغم والحزن ، حتى ينتهى بعض الجهال بالعادات الرديئة ، ومخالطة قرناء السوء ، إلى أن يغضب لو قيل له إنك لا تحسن اللعب بالطيور ، واللعب بالشطرنج ولا تقدر على شرب الخمر الكثير ، وتناول الطعام الكثير ، وما يجرى مجراه من الرذائل . فالغضب على هذا الجنس ليس بضرورى ، لأن حبه ليس بضرورى

القسم الثالث : ما يكون ضروريا فى حق بعض الناس دون البعض . الكتاب مثلا فى حق العالم ، لأنه مضطر إليه فيحبه ، فيغضب على من يحرقه ويغرقه . وكذلك أدوات الصناعات فى حق المكتسب ، الذى لا يمكنه التوصل إلى القوت إلا بها . فإن ما هو وسيلة إلى الضرورى والمحبوب يصير ضروريا ومحبوبا . وهذا يختلف بالأشخاص . وإنما الحب الضرورى ما أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله [1] « مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ وَلَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » ومن كان بصيرا بحقائق الأمور ، وسلم له هذه الثلاثة ، يتصور ، أن لا يغضب فى غيرها

فهذه ثلاثة أقسام ، فلنذكر غاية الرياضة فى كل واحد منها

أما القسم الأول : فليست الرياضة فيه لينعدم غيظ القلب ، ولكن لكى يقدر على أن لا يطيع الغضب ، ولا يستعمله فى الظاهر إلا على حد يستحبه الشرع ، ويستحسنه العقل . وذلك ممكن بالمجاهدة ، وتكلف الحلم والاحتمال مدة ، حتى يصير الحلم والاحتمال خلقا راسخا . فأما قمع أصل الغيظ من القلب ، فذلك ليس مقتضى الطبع ، وهو غير ممكن نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه ، حتى لا يشتد هيجان الغيظ فى الباطن . وينتهى ضعفه إلى أن لا يظهر أثره فى الوجه . ولكن ذلك شديد جدا . وهذا حكم القسم الثالث أيضا

---

(١) حديث من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها : الترمذى . وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله بحذافيرها قال الترمذى حسن غريب

لأن ما صار ضروريا فى حق شخص ، فلا يمنعه من الغيظ استغناء غيره عنه . فالرياضة فيه تمنع العمل به ، وتضعف هيجانه فى الباطن ، حتى لا يشتد التألم بالصبر عليه

وأما القسم الثانى : فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه ، إذ يمكن إخراج حبه من القلب . وذلك بأن يعلم الإنسان أن وطنه القبر ، ومستقره الآخرة ، وإن الدنيا معبر يعبر عليها ، ويتزود منها قدر الضرورة ، وما وراء ذلك عليه وبال فى وطنه ومستقره فيزهد فى الدنيا ، ويمحو حبها عن قلبه . ولو كان للإنسان كلب لا يحبه . لا يغضب إذا ضربه غيره . فالغضب تبع للحب . فالرياضة فى هذا تنتهى إلى قمع أصل الغضب ، وهو نادر جدا وقد تنتهى إلى المنع من استعمال الغضب ، والعمل بموجبه ، وهو أهون.

فإن قلت: الضرورى من القسم الأول التألم بفوات المحتاج إليه دون الغضب . فمن له شاة مثلا وهى قوته ، فماتت ، لا يغضب على أحد ، وإن كان يحصل فيه كراهة . وليس من ضرورة كل كراهة غضب ، فإن الإنسان يتألم بالفصد والحجامة ، ولا يغضب على الفصاد والحجام . فمن غلب عليه التوحيد ، حتى يرى الأشياء كلها بيد الله ومنه . فلا يغضب على أحد من خلقه ، إذ يراهم مسخرين فى قبضة قدرته ، كالقلم فى يد الكاتب ، ومن وقع ملك بضرب رقبته لم يغضب على القلم . فلا يغضب على من يذبح شاته التى هى قوته ، كما لا يغضب على موتها ، إذ يرى الذبح والموت من الله عز وجل ، فيندفع الغضب بغلبة التوحيد ، ويندفع أيضا بحسن الظن بالله ، وهو أن يرى أن الكل من الله ، وأن الله لا يقدر له إلا ما فيه الخيرة وربما تكون الخيرة فى مرضه ، وجوعه ، وجرحه وقتله ، فلا يغضب ، كما لا يغضب على الفصاد والحجام ، لأنه يرى أن الخيرة فيه . فنقول هذا على هذا الوجه غير محال ولكن غلبة التوحيد إلى هذا الحد ، إنما تكون كالبرق الخاطف ، تغلب فى أحوال مختطفة ولا تدوم ، ويرجع القلب إلى الالتفات إلى الوسائط ، رجوعا طبيعيا لا يندفع عنه . ولو تصور ذلك على الدوام لبشر ، لتصور لرسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فإنه كان يغضب

---

(١) حديث كان صلى الله عليه وسلم يغضب حتى تحمر وجنتاه: مسلم من حديث جابر كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه وللحاكم كان اذا ذكر الساعة احمرت وجنتاه واشتد غضبه وقد تقدم فى أخلاق النبوة

حتى تحمر وجنتاه ، حتى قال [١] « اللَّهُمَّ أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ ضَرَبْتُهُ فَاجْعَلْهَا مِنِّي صَلَاةً عَلَيْهِ وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ، [٢] يارسول الله ، أكتب عنك كل ماقلت في الغضب والرضا ؟ فقال « اُكْتُبْ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ نَبِيًّا مَا يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ » وأشار إلى لسانه . فلم يقل إني لاأغضب . ولكن قال إن الغضب لايخرجني عن الحق ، أي لاأعمل بموجب الغضب . وغضبت عائشة رضي الله عنها مرة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « مَالَكِ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ » فقالت ومالك شيطان ؟ قال « بَلَى وَلَكِنِّي دَعَوْتُ اللَّهَ فَأَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِالْخَيْرِ » ولم يقل لاشيطان لي وأراد شيطان الغضب ، لكن قال لايحملني على الشر . وقال علي رضي الله عنه ، [٤] كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لايغضب للدنيا . فإذا أغضبه الحق ، لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتصر له فكان يغضب على الحق ، وإن كان غضبه لله ، فهو التفات إلى الوسائط على الجملة

بل كل من يغضب على من يأخذ ضرورة قوته وحاجته ، التي لابد له في دينه منها ، فإنما غضب لله ، فلا يمكن الانفكاك عنه . نعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري ، إذا كان القلب مشغولا بضروري أهم منه ، فلا يكون في القلب متسع للغضب ، لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهمات ، يمنع الاحساس بما عداه ، وهذا كما أن سلمان لما شتم قال ، إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول ، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ماتقول فقد كان همه مصروفا إلى الآخرة ، فلم يتأثر قلبه بالشتم . وكذلك شتم الربيع بن خثيم فقال ياهذا ، قد سمع الله كلامك ، وإن دون الجنة عقبة ، إن قطعتها لم يضرني ما تقول ،

---

(١) حديث اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ـ الحديث : مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله أغضب كما يغضب البشر وقال جلدته بدل ضربته وفي رواية اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وأصله متفق عليه وتقدم ولمسلم من حديث أنس إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر ولأبي يعلى من حديث أبي سعيد أو ضربته

(٢) حديث عبد الله بن عمرو يارسول الله أكتب عنك كل ماقلت في الغضب والرضا قال اكتب فوالذي بعثني بالحق مايخرج منه الاحق وأشار الى لسانه: أبو داود بنحوه

(٣) حديث غضبت عائشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم مالك جاءك شيطانك ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة

(٤) حديث علي كان لايغضب للدنيا ـ الحديث : الترمذي في الشمائل وقد تقدم

وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول . وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه ، فقال ما ستر الله عنك أكثر . فكأنه كان مشغولا بالنظر في تقصير نفسه عن أن يتقي الله حق تقاته ، ويعرفه حق معرفته فلم يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان ، إذ كان ينظر إلى نفسه بعين النقصان . وذلك لجلالة قدره . وقالت امرأة لمالك بن دينار ، يا مرائي . فقال ما عرفني غيرك . فكأنه كان مشغولا بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء ، ومنكرا على نفسه ما يلقيه الشيطان إليه ، فلم يغضب لما نسب إليه . وسب رجل الشعبي فقال ، إن كنت صادقا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبا فغفر الله لك

فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا ، لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم . ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر في قلوبهم ، ولكنهم لم يشتغلوا به ، واشتغلوا بما كان هو الأغلب على قلوبهم . فإذاً اشتغال القلب ببعض المهمات ، لا يبعد أن يمنع هيجان الغضب عند فوات بعض المحاب . فإذاً يتصور فقد الغيظ ، إما باشتغال القلب بمهم ، أو بغلبة نظر التوحيد ، أو بسبب ثالث ، وهو أن يعلم أن الله يحب منه أن لا يغتاظ ، فيطفىء شدة حبه لله غيظه ، وذلك غير محال في أحوال نادرة . وقد عرفت بهذا أن الطريق للخلاص من نار الغضب محو حب الدنيا عن القلب ، وذلك بمعرفة آفات الدنيا وغوائلها ، كما سيأتي في كتاب ذم الدنيا . ومن أخرج حب المزايا عن القلب ، تخلص من أكثر أسباب الغضب وما لا يمكن محوه ، يمكن كسره وتضعيفه فيضعف الغضب بسببه ، ويهون دفعه . نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير ، والحمد لله وحده .

بيان

الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها ، وإزالة أسبابها . فلابد من معرفة أسباب الغضب . وقد قال يحيى لعيسى عليهما السلام . أي شيء أشد؟ قال غضب الله . قال فما يقرب من غضب الله؟ قال أن تغضب ، قال فما يبدي الغضب وما ينبته ؟ قال عيسى الكبر ، والفخر ، والتعزز ، والحمية

والأسباب المهيجة للغضب ، هي الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتعيير والمماراة . والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهي بأجمعها أخلاق

رديئة مذمومة شرعا ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلابد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها . فينبغى أن تميت الزهو بالتواضع ، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ، كما سيأتى بيانه فى كتاب الكبر والعجب ، وتزيل الفخر بأنك من جنس عبدك إذ الناس يجمعهم فى الانتساب أب واحد ، وإنما اختلفوا فى الفضل أشتاتا ، فبنو آدم جنس واحد ، وإنما الفخر بالفضائل ، والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل،وهى أصلها ورأسها فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك . فلم تفتخر وأنت من جنس عبدك ، من حيث البنية والنسب ، والأعضاء الظاهرة والباطنة

وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التى تستوعب العمر وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل فتزيله بالجد فى طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية ، التى تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس ، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح ، وصيانة النفس عن مر الجواب وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة ، طلبا لعز الاستغناء، وترفعا عن ذل الحاجة . وكل خلق من هذه الأخلاق ، وصفة من هذه الصفات ، يفتقر فى علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة . وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها . ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة ، حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس . فإذا انمحت عن النفس ، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا عن الغضب الذى يتولد منها . ومن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال ، تسميتهم الغضب شجاعة ، ورجولية ، وعزة نفس ، وكبر همة ، وتلقيبه بالألقاب المحمودة ، غباوة وجهلا ، حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر ، فى معرض المدح بالشجاعة . والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب إلى القلب بسببه . وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل ، بل هو مرض قلب ، ونقصان عقل ، وهو لضعف النفس ونقصانها . وآية أنه لضعف النفس أن المريض أسرع غضبا من الصحيح ، والمرأة أسرع غضبا من الرجل ، والصبى أسرع غضبا من الرجل الكبير والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا

من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، ولبخله إذا فاتته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوى من يملك نفسه عند الغضب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ » بل ينبغى أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء ، والحكماء والعلماء ، وأكابر الملوك الفضلاء وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك ؟ والجهلة والأغبياء ، الذين لا عقول لهم ، ولا فضل فيهم

بيان

علاج الغضب بعد هيجانه

ماذكرناه هو حسم لمواد الغضب ، وقطع لأسبابه حتى لا يهيج . فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت ، حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم . وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل . أما العلم فهو ستة أمور

الأول : أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها ، في فضل كظم الغيظ . والعفو ، والحلم ، والاحتمال ، فيرغب في ثوابه ، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفىء عنه غيظه . قال مالك بن أوس بن الحدثان ، غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت ياأمير المؤمنين (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[1]) فكان عمر يقول (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ[2]) فكان يتأمل في الآية ، وكان وقافا عند كتاب الله مهما تلى عليه ، كثير التدبر فيه ، فتدبر فيه ، وخلى الرجل . وأمر عمر ابن عبد العزيز بضرب رجل ، ثم قرأ قوله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ[3]) فقال لغلامه خل عنه

الثاني : أن يخوف نفسه بعقاب الله ، وهو أن يقول قدرة الله علىّ أعظم من قدرتى على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبي عليه ، لم آمن أن يمضى الله غضبه علىّ يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو ، فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة ، يا ابن آدم ، اذكرنى حين

---

(١) حديث ليس الشديد بالصرعة تقدم قبله

---

(١) و(٢) الاعراف : ١٩٩ (٣) آل عمران : ١٣٤

تغضب ، أذكرك حين أغضب ، فلا أمحقك فيمن أمحق . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصيفا إلى حاجة ، فأبطأ عليه ، فلما جاء قال (١) « لَوْلاَ الْقِصَاصُ لأَوْجَعْتُكَ » أى القصاص فى القيامة . وقيل ما كان فى بنى إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها ارحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة ، فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمر العدو لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلو عن المصائب ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب فى الدنيا ، إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب ، وليس هذا من أعمال الآخرة ، ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة ، يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه فى الدنيا فراغته للعلم والعمل ، وما يعينه على الآخرة ، فيكون مثابا عليه

الرابع : أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، بأن يتذكر صورة غيره فى حالة الغضب ويتفكر فى قبح الغضب فى نفسه ، ومشابهة صاحبه للكلب الضارى ، والسبع العادى ، ومشابهة الحليم الهادى التارك للغضب ، للأنبياء والأولياء ، والعلماء والحكماء ، ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء فى عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء ، إن كان قد بقى معه مسكة من عقل

الخامس : أن يتفكر فى السبب الذى يدعوه إلى الانتقام ، ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد وأن يكون له سبب . مثل قول الشيطان له ، إن هذا يحمل منك على العجز ، وصغر النفس والذلة ، والمهانة ، وتصير حقيرا فى أعين الناس . فيقول لنفسه ، ما أعجبك ! تأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين من خزى يوم القيامة والافتضاح ، إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك ! وتحذرين من أن تصغرى فى أعين الناس ، ولا تحذرين من أن تصغرى عند الله والملائكة والنبيين ! فمهما كظم الغيظ ، فينبغى أن يكظمه لله ، وذلك يعظمه عند الله ، فماله وللناس ، وذل من ظلمه يوم القيامة أشد من ذله لو انتقم الآن . أفلا يحب أن يكون هو القائم إذا نودى يوم القيامة ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا . فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغى أن يقرره على قلبه .

---

(١) حديث لولا القصاص لأوجعتك : أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف

السادس: أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله ، لا على وفق مراده. فكيف يقول مرادي أولى من مراد الله؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه

وأما العمل ، فأن تقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم[(١)] أن يقال عند الغيظ . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ،[(٢)] إذا غضبت عائشة ، أخذ بأنفها وقال « يَاعُوَيْشُ قُولِي اللَّهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلاَّتِ الْفِتَنِ » فيستحب أن تقول ذلك

فإن لم يزل بذلك ، فاجلس إن كنت قائما ، واضطجع إن كنت جالسا ، واقرب من الأرض التي منها خلقت ، لتعرف بذلك ذل نفسك . واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون، فإن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)] « إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ تُوقَدُ فِي الْقَلْبِ أَلَمْ تَرَوْا إِلَى انْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ وَحُمْرَةِ عَيْنَيْهِ؟ فَإِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ قَائِمًا فَلْيَجْلِسْ وَإِنْ كَانَ جَالِسًا فَلْيَنَمْ »

فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء فقد قال صلى الله عليه وسلم[(٤)] « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ بِالْمَاءِ فَإِنَّمَا الْغَضَبُ مِنَ النَّارِ » وفي رواية « إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ

---

(١) حديث الامر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ: متفق عليه من حديث سليمان بن صرد قال كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه ـ الحديث : وفيه لوقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه مايجد فقالوا له ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ الحديث :

(٢) حديث كان اذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال ياعويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي ـ الحديث : ابن السني في اليوم والليلة من حديثها وتقدم في الأذكار والدعوات

(٣) حديث ان الغضب جمرة توقد في القلب ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله توقد وقد تقدم ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب

(٤) حديث اذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد ـ الحديث : أبو داود من حديث عطية السعدي دون قوله بالماء البارد وهو بلفظ الرواية الثانية التي ذكرها المصنف وقد تقدم

بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » وقال ابن عباس[1] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا غضبت فاسكت » وقال أبو هريرة[2] ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس ؛ وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب غضبه . وقال أبو سعيد الخدرى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم[3] « ألاَ إنّ الغضبَ جمرةٌ في قلبِ ابنِ آدمَ ألاَ تَرَوْنَ إلى حُمرةِ عينيهِ وانتفاخِ أوداجِه فمن وجدَ من ذلكَ شيئاً فليُلصقْ خدَّهُ بالأرضِ » وكان هذا إشارة إلى السجود ، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل ، وتزايل به العزة والزهو الذى هو سبب الغضب

وروى أن عمر غضب يوما ، فدعا بماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان ، وهذا يذهب الغضب . وقال عروة بن محمد ، لما استعملت على اليمن ، قال لى أبى ، أوليت ؟ قلت نعم . قال فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك ، وإلى الأرض تحتك ، ثم عظم خالقهما

وروى أن أباذر قال لرجل ياابن الحمراء : فى خصومة بينهما . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، فقال[4] « ياأبا ذرٍّ بلغني أنكَ اليومَ عيّرتَ أخاكَ بأمهِ » فقال نعم . فانطلق أبو ذر ليرضى صاحبه ، فسبقه الرجل فسلم عليه ، فذكر ذلك لرسول الله

---

(١) حديث ابن عباس اذا غضبت فاسكت: احمد وابن ابى الدنيا والطبرانى واللفظ لهما والبيهقى فى شعب الايمان وفيه ليث بن أبى سليم

(٢) حديث أبى هريرة كان اذا غضب وهو قائم جلس واذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه ابن أبى الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد باسناد جيد فى اثناء حديث فيه وكان أبو ذر قائما فجلس ثم اضطجع فقيل له لم جلست ثم اضطجعت فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا اذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فان ذهب عنه الغضب والا فليضطجع والمرفوع عند أبى داود وفيه عنده انقطاع سقط منه أبو الاسود

(٣) حديث أبى سعيد ألا ان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ـ الحديث : الترمذى وقال حسن

(٤) حديث أبى ذر أنه قال لرجل ياابن الحمراء فى خصومة بينهما فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ـ الحديث: وفيه فقال يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ـ الحديث : وفيه ثم قال اذا غضبت الى آخره ابن أبى الدنيا فى العفو وذم الغضب باسناد صحيح وفى الصحيحين من حديثه قال كان بينى وبين رجل من إخوانى كلام وكانت أمه أعجمية فعيرته بأمه فشكانى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ياأباذر إنك امرؤ فيك جاهلية ولأحمد أنه صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود الا أن تفضله بتقوى ورجاله ثقات

صلى الله عليه وسلم فقال « يَاأَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ فَانْظُرْ ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّكَ لَسْتَ بِأَفْضَلَ مِنْ أَحْمَرَ فِيهَا وَلاَ أَسْوَدَ إِلاَّ أَنْ تَفْضُلَهُ بِعَمَلٍ » ثم قال « إِذَا غَضِبْتَ فَإِنْ كُنْتَ قَائِمًا فَاقْعُدْ وَإِنْ كُنْتَ قَاعِدًا فَاتَّكِئْ وَإِنْ كُنْتَ مُتَّكِئًا فَاضْطَجِعْ »

وقال المعتمر بن سليمان : كان رجل ممن كان قبلكم ،يغضب فيشتد غضبه. فكتب ثلاث صحائف ، وأعطى كل صحيفة رجلا . وقال للأول . إذا غضبت فأعطنى هذه . وقال للثانى إذا سكن بعض غضبي فأعطنى هذه . وقال للثالث . إذا ذهب غضبي فأعطنى هذه . فاشتد غضبه يوما ، فأعطى الصحيفة الأولى ، فإذا فيها ' ماأنت وهذا الغضب ، إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضا . فسكن بعض غضبه ، فأعطي الثانية ، فإذا فيها ، ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء . فأعطى الثالثة ،فإذا فيها ،خذ الناس بحق الله ، فإنه لايصلحهم إلا ذلك . أى لاتعطل الحدود . وغضب المهدى على رجل ، فقال شبيب لاتغضب لله بأشد من غضبه لنفسه ، فقال خلوا سبيله

فضيلة

كظم الغيظ

قال الله تعالى (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ [1]) وذكر ذلك فى معرض المدح ،وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ وَمَنِ اعْتَذَرَ إِلَى رَبِّهِ قَبِلَ اللهُ عُذْرَهُ وَمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَشَدُّكُمْ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ وَأَحْلَمُكُمْ مَنْ عَفَا عِنْدَ الْقُدْرَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم

﴿ فضيلة كظم الغيظ ﴾

(١) حديث من كف غضبه كف الله عنه عذابه ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان واللفظ له من حديث أنس باسناد ضعيف ولابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر من ملك غضبه وقاه الله عذابه ـ الحديث : وقد تقدم فى آفات اللسان

(٢) حديث أشدكم من ملك نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة : ابن أبى الدنيا من حديث على بسند ضعيف والبيهقى فى الشعب بالشطر الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلا باسناد جيد وللبزار والطبرانى فى مكارم الأخلاق واللفظ له من حديث أشدكم أملككم لنفسه عند الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه

(١) آل عمران : ١٣٤

[1] « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ لَأَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضًا » وفى رواية « مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ أَمْنًا وَإِيمَانًا » وقال ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « مَا جَرَعَ عَبْدٌ جُرْعَةً أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى » وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، [3] قال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِجَهَنَّمَ بَابًا لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا مَنْ شَفَى غَيْظَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ وَمَا كَظَمَهَا عَبْدٌ إِلَّا مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ إِيمَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ وَيُخَيِّرُهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ »

الآثار: قال عمر رضى الله عنه . من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون . وقال لقمان لابنه . يا بنى ، لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ، ولا تشف غيظك بفضيحتك ، واعرف قدرك تنفعك معيشتك . وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شرا كثيرا ، واجتمع سفيان الثورى ، وأبو خزيمة اليربوعى ، والفضيل ابن عياض ، فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضي الله عنه ، والله ما تقضى بالعدل ، ولا تعطى الجزل . فغضب عمر حتى عرف ذلك فى وجهه ، فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، ألا تسمع أن الله تعالى

---

(١) حديث من كظم غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا وفى رواية أمنا وإيمانا ابن أبى الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر وفيه سكين بن أبى سراج تكلم فيه ابن حبان وأبو داود بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن أبيه ورواها ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة وفيه من لم يسم

(٢) حديث ابن عمر ماجرع رجل جرعة أعظم أجرا من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله: ابن ماجه

(٣) حديث ابن عباس ان لجهنم بابا لا يدخل منه الا من شفى غيظه بمعصية الله: تقدم فى آفات اللسان

(٤) حديث مامن جرعة أحب إلى الله تعالى من جرعة غيظ كظمها عبد وما كظمها عبد الا ملأ الله قلبه ايمانا: ابن ابى الدنيا من حديث ابن عباس وفيه ضعف ويتلفق من حديث ابن عمر وحديث الصحابى الذى لم يسم وقد تقدما

(٥) حديث من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء: تقدم فى آفات اللسان

يقول . (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [(١)]) فهذا من الجاهلين . فقال عمر صدقت . فكأنما كانت نارا فأطفئت . وقال محمد بن كعب . ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله ، إذا رضى لم يدخله رضاه فى الباطل ، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ماليس له . وجاء رجل إلى سلمان ، فقال ياعبد الله أوصنى . قال: لا تغضب ، قال لا أقدر . قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

بيان

فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم ، أى تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة . ولكن إذا تعود ذلك ، مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ . وإن هاج فلا يكون فى كظمه تعب وهو الحلم الطبيعى ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا . قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ وَمَنْ يَتَخَيَّرِ الْخَيْرَ يُعْطَهُ وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ » وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه ، كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم

وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] « اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَاطْلُبُوا مَعَ الْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ لِينُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَ وَلِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ وَلَا تَكُونُوا مِنْ جَبَابِرَةِ الْعُلَمَاءِ فَيَغْلِبَ جَهْلُكُمْ حِلْمَكُمْ » أشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر ، هو الذى يهيج

(فضيلة الحلم)

(١) حديث انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ـ الحديث : الطبراني والدار قطنى فى العلل من حديث أبى الدرداء بسند ضعيف

(٢) حديث أبى هريرة اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم ـ الحديث : ابن السنى فى رياضة المتعلمين بسند ضعيف

---

(١) الاعراف : ١١٩

الغضب ويمنع من الحلم واللين . وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم [١] « اللَّهُمَّ أَغْنِنِي بِالْعِلْمِ وَزَيِّنِّي بِالْحِلْمِ، وَأَكْرِمْنِي بِالتَّقْوَى وَجَمِّلْنِي بِالْعَافِيَةِ » وقال أبو هريرة، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « ابْتَغُوا الرِّفْعَةَ عِنْدَ اللهِ » قالوا وما هي يارسول الله ؟ قال « تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَحْلُمُ عَمَّنْ جَهِلَ عَلَيْكَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « خَمْسٌ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ الْحَيَاءُ وَالْحِلْمُ وَالْحِجَامَةُ وَالسِّوَاكُ وَالتَّعَطُّرُ » وقال علي كرم الله وجهه، [٤] قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ لَيُدْرِكُ بِالْحِلْمِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ وَإِنَّهُ لَيُكْتَبُ جَبَّاراً عَنِيداً وَلاَ يَمْلِكُ إِلاَّ أَهْلَ بَيْتِهِ » وقال أبو هريرة، [٥] إن رجلا قال يارسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، ويجهلون عليّ وأحلم عنهم . قال « إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ* وَلاَ يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ مَادُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » الملّ يعني به الرمل .

[٦] وقال رجل من المسلمين، اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة . فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أني قد غفرت له

---

(١) حديث كان من دعائه اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية: لم أجد له أصلا

(٢) حديث ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي قال تصل من قطعك ـ الحديث : الحاكم والبيهقي وقد تقدم

(٣) حديث خمس من سنن المرسلين الحياء والعلم والحجامة والسواك والتعطر: أبو بكر بن أبي عاصم في المثاني والآحاد والترمذي الحكيم في نوادر الاصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده وللترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد النكاح

(٤) حديث علي ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم ـ الحديث : الطبراني في الأوسط بسند ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة ان رجلا قال يارسول الله ان لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن إليهم ويسيئون الي ويجهلون علي وأحلم عنهم ـ الحديث رواه مسلم

(٦) حديث قال رجل من المسلمين اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها فأيما رجل أصاب من عرضي شيئا فهو صدقة عليه ـ الحديث : أبو نعيم في الصحابة والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد ابن أبي عبس بن جبر عن ابيه عن جده باسناد لين زاد البيهقي عن علية بن زيد وعلية هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث، وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب انه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلا من المسلمين ولم يسمه وقال أظنه أبا ضمضم قلت وليس بأبي ضمضم انما هو علية بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة وانما هو متقدم

---

* تسفهم الملّ : يعني تجعل وجوههم كلون الرماد

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ كَأَبِي ضَمْضَمٍ؟ » قالوا وما أبو ضمضم؟ قال « رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ إِذَا أَصْبَحَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي تَصَدَّقْتُ الْيَوْمَ بِعِرْضِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي » . وقيل فى قوله تعالى (رَبَّانِيِّينَ[1]) أى حلماء علماء .

وعن الحسن فى قوله تعالى (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا[2]) قال حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا . وقال عطاء بن أبى رباح (يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا[3]) أى حلما . وقال ابن أبى حبيب فى قوله عز وجل (وَكَهْلًا[4]) قال الكهل منتهى الحلم . وقال مجاهد (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا[5]) أى إذا أوذوا صفحوا[2] . وروى أن ابن مسعود مر بلغو معرضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَصْبَحَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَأَمْسَى كَرِيمًا » ثم تلا إبراهيم ابن ميسرة ، وهو الراوى ، قوله تعالى (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا[6]) وقال النبى صلى الله عليه وسلم[3] « اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكُنِي وَلَا أُدْرِكُهُ زَمَانٌ لَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ الْعَلِيمَ وَلَا يَسْتَحْيُونَ فِيهِ مِنَ الْحَلِيمِ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْعَجَمِ وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ » وقال صلى الله عليه وسلم[4] « لِيَلِيَنِي مِنْكُمْ ذَوُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ وَإِيَّاكُمْ وَهَيْشَاتِ* الْأَسْوَاقِ » . وروى أنه وفد على النبى صلى الله عليه وسلم الأشج ، فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه السلام[5] « إِنَّ فِيكَ يَا أَشَجُّ خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ »

---

(١) حديث أيعجز أحدكم أن يكون كأبى ضمضم ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان .

(٢) حديث ان ابن مسعود مر بلغو معرضا فقال النبى صلى الله عليه وسلم أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ابن المبارك فى البر والصلة

(٣) حديث اللهم لا يدركنى ولا أدركه زمان لا يتبعون فيه العلم ولا يستحيون فيه من الحليم ـ الحديث : أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف

(٤) حديث ليلينى منكم أولوا الاحلام والنهى ـ الحديث : مسلم من حديث ابن مسعود دون قوله ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم فهى عند أبى داود والترمذى وحسنه وهى عند مسلم فى حديث آخر لابن مسعود

(٥) حديث يا أشج ان فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة ـ الحديث : متفق عليه

---

(١) آل عمران : ٧٩ (٢) ، (٥) الفرقان : ٦٣ (٣) ، (٤) آل عمران : ٤٦ (٥) ، (٦) الفرقان ٧٢ .

* الهيشات : الفتن

قال ماهما بأبي أنت وأمي يارسول الله ؟ قال « الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ » فقال خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال « بَلْ خُلُقَانِ جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا » فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله . وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْحَلِيمَ الْحَيِيَّ الْغَنِيَّ الْمُتَعَفِّفَ أَبَا الْعِيَالِ التَّقِيَّ وَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيَّ السَّائِلَ الْمُلْحِفَ الْغَبِيَّ »

وقال ابن عباس ، [٢] قال النبي صلى الله عليه وسلم « ثَلَاثٌ مَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلَا تَعْتَدُّوا بِشَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ تَقْوَى تَحْجُزُهُ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحِلْمٌ يَكُفُّ بِهِ السَّفِيهَ وَخُلُقٌ يَعِيشُ بِهِ فِي النَّاسِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ أَيْنَ أَهْلُ الْفَضْلِ ؟ فَيَقُومُ نَاسٌ وَهُمْ يَسِيرٌ فَيَنْطَلِقُونَ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ لَهُمْ إِنَّا نَرَاكُمْ سِرَاعًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ نَحْنُ أَهْلُ الْفَضْلِ فَيَقُولُونَ لَهُمْ مَا كَانَ فَضْلُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ كُنَّا إِذَا ظُلِمْنَا صَبَرْنَا وَإِذَا أُسِيءَ إِلَيْنَا عَفَوْنَا وَإِذَا جُهِلَ عَلَيْنَا حَلُمْنَا فَيُقَالُ لَهُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ »

الآثار : قال عمر رضي الله عنه . تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وقال علي رضي الله عنه . ليس الخير إن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك وأن لاتباهي الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى ، وقال الحسن اطلبوا العلم ، وزينوه بالوقار والحلم . وقال أكثم بن صيفي : دعامة العقل الحلم ، وجماع الأمر الصبر . وقال ابو الدرداء : أدركت الناس ورقا لاشوك فيه ، فأصبحوا شوكا لاورق فيه ، إن عرفتهم نقدوك ، وإن تركتهم لم يتركوك . قالوا كيف نصنع ؟ قال تقرضهم عن عرضك ليوم فقرك . وقال علي رضي الله عنه : إن أول ما عوض الحليم من حلمه ، أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى ، لا يبلغ العبد مبلغ الرأي ،

---

(١) حديث ان الله يحب الحيي الحليم الغني المتعفف ـ الحديث : الطبراني من حديث سعد أن الله يحب العبد التقي الغني الخفي

(٢) حديث ابن عباس ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدن بشيء من عمله أبو نعيم في كتاب الايجاز باسناد ضعيف والطبراني من حديث أم سلمة باسنادين وقد تقدم في آداب الصحبة

(٣) حديث اذا جمع الخلائق نادى مناد أين أهل الفضل فيقوم ناس ـ الحديث : وفيه اذا جهل علينا حلمنا البيهقي في شعب الايمان من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . قال البيهقي في اسناده ضعف

حتى يغلب حلمه جهله ، وصبره شهوته . ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم . وقال معاوية لعمرو ابن الأهتم ، أي الرجال أشجع ؟ قال من رد جهله بحلمه . قال أي الرجال أسخى قال من بذل دنياه لصلاح دينه . وقال أنس بن مالك ، في قوله تعالى (فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[1]) إلى قوله (عَظِيمٍ[2]) هو الرجل يشتمه أخوه ، فيقول إن كنت كاذبا فغفر الله لك ، وإن كنت صادقا فغفر الله لي .

وقال بعضهم شتمت فلانا من أهل البصرة ، فحلم عليّ ، فاستعبدني بها زمانا . وقال معاوية لعرابة بن أوس ، بم سدت قومك ياعرابة ؟ قال ياأمير المؤمنين ، كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ، وأسعى في حوائجهم . فمن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصر عني فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما ، فلما فرغ ، قال ياعكرمة ، هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز ، أشهد أنك من الفاسقين . فقال ليس تقبل شهادتك .

وعن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم ، أنه سبه رجل ، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم ، جمع له خمس خصال محمودة ، الحلم ، وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل ، وحمله على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى مدح بعد الذم . اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير . وقال رجل لجعفر بن محمد ، إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر ، وإني أريد أن أتركه ، فأخشى أن يقال لي إن تركك له ذل . فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد ، كان يقال من أساء فأحسن إليه ، فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته . وقال الأحنف بن قيس ، لست بحليم ، ولكنني أتحلم . وقال وهب بن منبه ، من يرحم يُرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يُغلب ، ومن يعجل يخطىء ، ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المراء يشتم ، ومن لا يكره الشر يأثم ، ومن يكره الشر يُعصم ومن يتبع وصية الله يُحفظ ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ، ومن لا يسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله

(١ و ٢) فصلت : ٣٤ و ٣٥

يخذل ، ومن يستعن بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار ، بلغنى أنك ذكرتنى بسوء قال أنت إذا أكرم على من نفسى . إنى إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتى . وقال بعض العلماء ، الحلم أرفع من العقل ، لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء ، والله لأسبنك سبا يدخل معك فى قبرك ، فقال معك يدخل لا معى . ومر المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود ، فقالوا له شرا ، فقال لهم خيرا . فقيل له إنهم يقولون شرا ، وأنت تقول خيرا فقال كل ينفق مما عنده . وقال لقمان ، ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة ، لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه

ودخل على بعض الحكماء صديق له ، فقدم إليه طعاما ، فخرجت امرأة الحكيم ، وكانت سيئة الخلق ، فرفعت المائدة ، وأقبلت على شتم الحكيم . فخرج الصديق مغضبا . فتبعه الحكيم وقال له ، تذكر يوم كنا فى منزلك نطعم ، فسقطت دجاجة على المائدة ، فأفسدت ما عليها ، فلم يغضب أحد منا . قال نعم . قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة . فسرى عن الرجل غضبه وانصرف ، وقال صدق الحكيم ، الحلم شفاء من كل ألم . وضرب رجلا قدم حكيم فأوجعه ، فلم يغضب . فقيل له فى ذلك . فقال أقمته مقام حجر تعثرت به . فذبحت الغضب وقال محمود الوراق

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه على الجرائم

وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم

فأما الذى فوقى فأعرف قدره ... وأتبع فيه الحق والحق لازم

وأما الذى دونى فإن قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم

وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالحلم حاكم

بيان

القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله . فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصى وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به ، وقد فصلناه فى الفقه . وأما السب فلا يقابل بمثله ،

إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِنِ امْرُؤٌ عَيَّرَكَ بِمَا فِيكَ فَلاَ تُعَيِّرْهُ بِمَا فِيهِ » وقال « الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ فَهُوَ عَلَى الْبَادِيءِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ » وقال (٢) « الْمُسْتَبَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ » وشتم رجل (٣) أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، وهو ساكت . فلما ابتدأ ينتصر منه ، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر ، إنك كنت ساكتا لما شتمني فلما تكلمت قمت ؟ قال « لِأَنَّ الْمَلَكَ كَانَ يُجِيبُ عَنْكَ فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ ذَهَبَ الْمَلَكُ وَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَلَمْ أَكُنْ لِأَجْلِسَ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ الشَّيْطَانُ »

وقال قوم تجوز المقابلة بما لا كذب فيه ، وإنما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقابلة التعيير بمثله نهي تنزيه ، والأفضل تركه ، ولكنه لا يعصى به . والذى يرخص فيه ، أن تقول من أنت ؟ وهل أنت إلا من بنى فلان ؟ كما قال سعد لابن مسعود ، وهل أنت إلا من بنى هذيل ؟ وقال ابن مسعود وهل أنت إلا من بنى أمية ؟ ومثل قوله يا أحمق . قال مطرف ، كل الناس أحمق فيما بينه و بين ربه ، إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض وقال ابن عمر (٤) فى حديث طويل ، حتى ترى الناس كلهم حمقى فى ذات الله تعالى

وكذلك قوله يا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه جهل ، فقد آذاه بما ليس بكذب

وكذلك قوله يا سيء الخلق ، يا صفيق الوجه ، يا ثلابا للأعراض ، وكان ذلك فيه .

وكذلك قوله لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك فى عينى بما فعلت ، وأخزاك الله وانتقم منك . فأما النميمة ، والغيبة ، والكذب ، وسب الوالدين ، فحرام بالاتفاق لما روى أنه كان بين خالد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالدا عند سعد ، فقال سعد مه ، إن ما بيننا لم يبلغ ديننا . يعنى أن يأثم بعضنا فى بعض . فلم يسمع السوء ، فكيف يجوز له أن يقوله . والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام ، كالنسبة إلى الزنا

---

(١) حديث إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه : أحمد من حديث جابر بن مسلم وقد تقدم

(٢) حديث المستبان شيطانان يتهاتران : تقدم

(٣) حديث شتم رجل أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدأ ينتصر منه قام صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : أبو داود من حديث أبي هريرة متصلا ومرسلا قال البخارى المرسل أصح

(٤) حديث ابن عمر فى حديث طويل حتى ترى الناس كأنهم حمقى فى ذات الله عز وجل : تقدم فى العلم

والفحش والسب ، ماروت عائشة رضى الله عنها : [1] أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقالت يارسول الله : أرسلني إليك أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، والنبي صلى الله عليه وسلم نائم ، فقال « يَا بُنَيَّةُ أَتُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ؟ » قالت نعم . قال « فَأَحِبِّي هَذِهِ » فرجعت إليهن ، فأخبرتهن بذلك ، فقلن ماأغنيت عنا شيئا . فأرسلن زينب بنت جحش ، قالت وهي التي كانت تساميني في الحب ، فجاءت فقالت ، بنت أبي بكر ، وبنت أبي بكر ، فما زالت تذكرني وأنا ساكتة ، أنتظر أن يأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجواب ، فأذن لي . فسببتها حتى جف لساني . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كَلَّا إِنَّهَا ابْنَةُ أَبِي بَكْرٍ » يعني أنك لاتقاومينها في الكلام قط . وقولها سببتها ليس المراد به الفحش ، بل هو الجواب عن كلامها بالحق ، ومقابلتها بالصدق

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « الْمُسْتَبَّانِ مَاقَالاَ فَعَلَى الْبَادِيءِ مِنْهُمَا حَتَّى يَعْتَدِي الْمَظْلُومُ » فأثبت للمظلوم انتصارا إلى أن يعتدى . فهذا القدر هو الذى أباحه هؤلاء ، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق ، ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجره إلى ماوراءه ، ولا يمكنه الانتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن أصل الجواب ، لعله أيسر من الشروع في الجواب ، والوقوف على حد الشرع فيه . ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ، ولكن يعود سريعا ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام

والناس في الغضب أربعة : فبعضهم كالحلفاء ، سريع الوقود سريع الخمود . وبعضهم كالغضا ، بطيء الوقود بطيء الخمود ، وهذا هو بطيء الوقود سريع الخمود ، وهو الأحمد ، مالم ينته إلى فتور الحمية والغيرة . وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود ، وهذا هو شرهم . وفي الخبر [3] « الْمُؤْمِنُ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الرِّضَا » فهذه بتلك . وقال الشافعي رحمه الله من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضى فلم يرض فهو شيطان .

---

(١) حديث عائشة ان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أرسلن فاطمة فقالت يارسول الله أرسلني أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ـ الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث المستبان ماقالا فعلى البادىء ـ الحديث : رواه مسلم وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن سريع الغضب سريع الرضى : تقدم

وقد قال أبو سعيد الخدري[1]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَلاَ إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى فَمِنْهُمْ بَطِيءُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ. وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ سَرِيعُ الْفَيْءِ، فَتِلْكَ بِتِلْكَ وَمِنْهُمْ سَرِيعُ الْغَضَبِ بَطِيءُ الْفَيْءِ أَلاَ وَإِنَّ خَيْرَهُمُ الْبَطِيءُ الْغَضَبِ السَّرِيعُ الْفَيْءِ وَشَرَّهُمُ السَّرِيعُ الْغَضَبِ الْبَطِيءُ الْفَيْءِ »

ولما كان الغضب يهيج ويؤثر في كل إنسان، وجب على السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه، لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظا عليه، فيكون متشفيا لغيظه، ومريحا نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحب حظ. فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه. ورأى عمر رضي الله عنه سكران: فأراد أن يأخذه ويعزره، فشتمه السكران. فرجع عمر. فقيل له ياأمير المؤمنين، لما شتمك تركته؟ قال لأنه أغضبني ولو عزرته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب أن أضرب مسلما حمية لنفسي. وقال عمر ابن عبد العزيز رحمه الله لرجل أغضبه، لولا أنك أغضبتني لعاقبتك

القول

في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقدا. ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله، والبغضة له، والنفار عنه، وأن يدوم ذلك ويبقى. وقد قال صلى الله عليه وسلم[2] « الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ » فالحقد ثمرة الغضب والحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه، فتغتم بنعمة إن أصابها، وتسر بمصيبة إن نزلت به. وهذا من فعل المنافقين، وسيأتي ذمه إن شاء الله تعالى

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن، فتشمت بما أصابه من البلاء

الثالث. أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه؛ وإن طلبك وأقبل عليك

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري ألا ان بني آدم خلقوا على طبقات ـ الحديث: تقدم

(٢) حديث المؤمن ليس بحقود: تقدم في العلم

الرابع : وهو دونه ، أن تعرض عنه استصغاراله

الخامس : أن تتكلم فيه بمالا يحل ، من كذب ، وغيبة ، وإفشاء سر، وهتك ستر، وغيره

السادس : أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه

السابع : إيذاؤه بالضرب ومايؤلم بدنه

الثامن : أن تمنعه حقه من قضاء دين ، أوصلة رحم ، أورد مظلمة ، وكل ذلك حرام

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ، ولا تخرج بسبب الحقد إلى ماتعصى الله به ، ولكن تستثقله فى الباطن ، ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوع به من البشاشة ، والرفق ، والعناية ، والقيام بحاجاته ، والمجالسة معه على ذكر الله تعالى ، والمعاونة على المنفعة له . أو بترك الدعاء له ، والثناء عليه ، أوالتحريض على بره ومواساته. فهذا كله مما ينقص درجتك فى الدين ، ويحول بينك وبين فضل عظيم، وثواب جزيل . وإن كان لا يعرضك لعقاب الله [1] . ولما حلف أبو بكر رضى الله عنه أن لا ينفق على مسطح ، وكان قريبه ، لكونه تكلم فى واقعة الإفك ، نزل قوله تعالى (وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ [1]) إلى قوله (أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ [2]) فقال أبو بكر نعم نحب ذلك . وعاد إلى الإنفاق عليه . والأولى أن يبقى على ماكان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد فى الإحسان مجاهدة للنفس، وارغاما للشيطان ، فذلك مقام الصديقين ، وهو من فضائل أعمال المقربين . فللمحقود ثلاثة أحوال عند القدرة

أحدها. أن يستوفى حقه الذى يستحقه ، من غير زيادة و نقصان وهو العدل

الثانى : أن يحسن إليه بالعفو والصلة ، وذلك هو الفضل .

الثالث . أن يظلمه بما لا يستحقه . وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثانى هو اختيار الصديقين، والأول هو منتهى درجات الصالحين، ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان

---

(١) حديث الحلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح نزل قوله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الآية: متفق عليه من حديث عائشة

---

(١) و (٢) النور : ٢٢

فضيلة

العفو والإحسان

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقا ، فيسقطه ويبرىء عنه ، من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفردناه ، قال الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [1]) وقال الله تعالى (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى [2])

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلاَثٌ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كُنْتُ حَلاَّفاً لَحَلَفْتُ عَلَيْهِنَّ مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا وَلاَ عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ زَادَهُ اللهُ بِهَا عِزّاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلاَّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « التَّوَاضُعُ لاَ يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلاَّ رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْفَعْكُمُ اللهُ وَالْعَفْوُ لاَ يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلاَّ عِزّاً فَاعْفُوا يُعِزَّكُمُ اللهُ وَالصَّدَقَةُ لاَ تَزِيدُ الْمَالَ إِلاَّ كَثْرَةً فَتَصَدَّقُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ » . وقالت عائشة رضي الله عنها [3] ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ، مالم ينتهك من محارم الله . فإذا انتهك من محارم الله شيء ، كان أشدهم في ذلك غضبا . وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرها ، مالم يكن إثما . وقال عقبة ، لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، فأبتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي. فقال [4] « يَا عُقْبَةُ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ أَخْلاَقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث ثلاث والذى نفسى بيده ان كنت حالفا لحلفت عليهن ما نقصت صدقة من مال ـ الحديث : الترمذى من حديث أبى كبشة الانمارى ولمسلم وأبى داود نحوه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث التواضع لا يزيد العبد الا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله : الأصفهانى فى الترغيب والترهيب وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف

(٣) حديث عائشة ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط ـ الحديث : الترمذى فى الشمائل وهو عند مسلم بلفظ آخر وقد تقدم

(٤) حديث عقبة بن عامر ياعقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة تصل من قطعك ـ الحديث ابن ابى الدنيا والطبرانى فى مكارم الأخلاق والبيهقى فى الشعب باسناد ضعيف وقد تقدم

---

(١) الاعراف : ١١٩ (٢) البقرة : ٢٣٧

(١) «قالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ يَارَبِّ أَيُّ عِبادِكَ أَعَزُّ عَلَيْكَ ؟ قالَ الَّذِي إِذا قَدَرَ عَفَا» وكذلك سئل أبو الدرداء عن أعز الناس ، قال الذي يعفو إذا قدر ، فاعفوا يعزكم الله

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكو مظلمة ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجلس ، وأراد أن يأخذله بمظلمته . فقال له صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ الْمَظْلُومِينَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ دَعَا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ فَقَدِ انْتَصَرَ » وعن أنس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « إِذا بَعَثَ اللهُ الْخَلائِقَ يَوْمَ الْقِيامَةِ نَادَى مُنادٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ثَلاثَةَ أَصْوَاتٍ يَامَعْشَرَ الْمُوَحِّدِينَ إِنَّ اللهَ قَدْ عَفَا عَنْكُمْ فَلْيَعْفُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ »

وعن أبي هريرة ، (٤) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ، طاف بالبيت ، وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة ، فأخذ بعضادتي الباب فقال « مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ ؟ » فقالوا نقول أخ وابن عم ، حليم رحيم . قالوا ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم « أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ » (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ [1])

---

(١) حديث قال موسى يارب أي عبادك أعز عليك قال الذي إذا قدر عفا : الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة

(٢) حديث ان المظلومين هم المفلحون يوم القيامة وفي أوله قصة ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلا

(٣) حديث أنس إذا بعث الله عز وجل الخلائق يوم القيامة نادى مناد من تحت العرش ثلاثة أصوات يامعشر الموحدين ان الله قد عفا عنكم فليعف بعضكم عن بعض : أبو سعيد أحمد بن ابراهيم المقرى في كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ ينادى مناد من بطنان العرش يوم القيامة ياأمة محمد ان الله تعالى يقول ما كان لي قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتي واسناده ضعيف ورواه الطبراني في الاوسط بلفظ نادى مناد ياأهل الجمع تتاركوا المظالم بينكم وثوابكم على وله من حديث أم هانىء ينادى مناد ياأهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الثواب

(٤) حديث أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال ما تقولون ـ الحديث : رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف

---

(١) يوسف : ٩٣

قال فخرجوا كأنما نشروا من القبور ، فدخلوا في الإسلام . وعن سهيل بن عمرو قال [١] لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وضع يديه على باب الكعبة ، والناس حوله فقال « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَشَرِيكَ لَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ثم قال « يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَاتَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ ؟» قال قلت يارسول الله ، نقول خيرا ونظن خيرا أخ كريم وابن عم رحيم ، وقد قدرت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ »(لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ [١])

وعن أنس قال [٢] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِذَا وَقَفَ الْعِبَادُ نَادَى مُنَادٍ لِيَقُمْ مَنْ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ فَلْيَدْخُلِ الْجَنَّةَ » قيل ومن ذا الذى له أجر ؟ قال « الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ فَيَقُومُ كَذَا وَكَذَا أَلْفًا فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ » وقال ابن مسعود [٣] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاَ يَنْبَغِي لِوَالِي أَمْرٍ أَنْ يُؤْتَى بِحَدٍّ إِلاَّ أَقَامَهُ وَاللهُ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ » ثم قرأ (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا [٢]) الآية . وقال جابر [٤] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثَلاَثٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيمَانٍ دَخَلَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شَاءَ وَزُوِّجَ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ حَيْثُ شَاءَ مَنْ أَدَّى دَيْنًا خَفِيًّا وَقَرَأَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ [٣]) عَشْرَ مَرَّاتٍ وَعَفَا عَنْ قَاتِلِهِ » قال أبو بكر ، أو إحداهن يارسول الله ؟ قال « أَوْ إِحْدَاهُنَّ »

---

(١) حديث سهل بن عمرو لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وضع يديه على باب الكعبة الحديث : بنحوه لم أجده

(٢) حديث أنس إذا وقف العباد نادى مناد ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة قيل من ذا الذى أجره على الله قال العافون عن الناس ـ الحديث : الطبراني في مكارم الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه

(٣) حديث ابن مسعود لا ينبغي لوالى أمر أن يؤتى بحد الا أقامه والله عفو يحب العفو ـ الحديث : أحمد والحاكم وصححه وتقدم في آداب الصحبة

(٤) حديث جابر ثلاث من جاء بهن مع ايمان دخل الجنة من أى أبواب الجنة شاء ـ الحديث : الطبراني في الاوسط وفي الدعاء بسند ضعيف

---

(١) يوسف : ٩٢ (٢) النور : ٢٢ (٣) الصمد : ١

الآثار : قال ابراهيم التيمي : إن الرجل ليظلمني فأرحمه . وهذا إحسان وراء العفو ، لأنه يشتغل قلبه بتعرضه لمعصية الله تعالى بالظلم ، وأنه يطالب يوم القيامة فلا يكون له جواب وقال بعضهم ، إذا أراد الله أن يتحف عبدا ، قيض له من يظلمه . ودخل رجل على عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ، فجعل يشكو إليه رجلا ظلمه ، ويقع فيه . فقال له عمر إنك إن تلق الله ومظلمتك كما هي ، خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها . وقال يزيد بن ميسرة إن ظللت تدعو على من ظلمك ، فإن الله تعالى يقول ، إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى

وقال مسلم بن يسار لرجل دعا على ظالمه : كِل الظالم إلى ظلمه ، فإنه أسرع إليه من دعائك عليه ، إلا أن يتداركه بعمل ، وقمن أن لا يفعل . وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال ، بلغنا أن الله تعالى يأمر مناديا يوم القيامة ، فينادي من كان له عند الله شيء فليقم ، فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن هشام بن محمد قال ، أتى النعمان بن المنذر برجلين ، قد أذنب أحدهما ذنبا عظيما ، فعفا عنه ، والآخر أذنب ذنبا خفيفا ، فعاقبه وقال

تعفو الملوك عن العظيم ... من الذنوب بفضلها
ولقد تعاقب في اليسير ... وليس ذاك لجهلها
إلا ليعرف حلمها ... ويخاف شدة دخلها

وعن مبارك بن فضالة قال ، وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل البصرة إلى أبي جعفر . قال فكنت عنده ، إذ أتي برجل فأمر بقتله . فقلت يقتل رجل من المسلمين وأنا حاضر . فقلت يا أمير المؤمنين ، ألا أحدثك حديثا سمعته من الحسن ، قال وما هو ، قلت سمعته يقول ، إذا كان يوم القيامة ، جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد ، حيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر . فيقوم مناد فينادي ، من له عند الله يد فليقم . فلا يقوم إلا من عفا . فقال والله لقد سمعته من الحسن ؟ فقلت والله لسمعته منه . فقال خلينا عنه

وقال معاوية : عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة . فإذا أمكنتكم فعليكم بالصفح والإفضال . وروى أن راهبا دخل على هشام بن عبد الملك . فقال للراهب ، أرأيت ذا القرنين ،

أ كان نبيا ؟ فقال لا . ولكنه إنما أعطى ماأعطى بأربع خصال كن فيه . كان إذا قدر عفا ، وإذا وعد وفى ، وإذا حدث صدق ، ولا يجمع شغل اليوم لغد. وقال بعضهم ليس الحليم من ظلم فحلم ، حتى إذا قدر انتقم ، ولكن الحليم من ظلم فحلم ، حتى إذا قدر عفا

وقال زياد ، القدرة تذهب الحفيظة ، يعنى الحقد والغضب . وأتى هشام برجل ابلغه عنه أمر ، فلما أقيم بين يديه ، جعل يتكلم بحجته . فقال له هشام ، وتتكلم أيضا ؟ فقال الرجل ياأمير المؤمنين ، قال الله عز وجل (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا[1]) أفنجادل الله تعالى ولا نتكلم بين يديك كلاما ؟ قال هشام ، بلى ويحك تكلم

وروى أن سارقا دخل خباء عمار بن ياسر بصفين، فقال له اقطعه فإنه من أعدائنا . فقال بل أستر عليه ، لعل الله يستر علىّ يوم القيامة . وجلس ابن مسعود فى السوق يبتاع طعاما ، فابتاع ، ثم طلب الدراهم ، وكانت فى عمامته ، فوجدها قد حلت : فقال لقد جلست وإنها لمعى . فجعلوا يدعون على من أخذها ويقولون ، اللهم اقطع يد السارق الذى أخذها ،اللهم افعل به كذا فقال عبد الله ، اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة فبارك له فيها . وإن كان حملته جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه . وقال الفضيل ، ما رأيت أزهد من رجل من أهل خراسان ، جلس إلىّ فى المسجد الحرام ، ثم قام ليطوف ، فسرقت دنانير كانت معه ، فجعل يبكى فقلت أعلى الدنانير تبكى؟ فقال لا. ولكن مثلتنى وإياه بين يدى الله عز وجل، فأشرف عقلى على إدحاض حجته فبكائى رحمة له .وقال مالك بن دينار، أتينا منزل الحكم بن أيوب ليلا، وهو على البصرة أمير وجاء الحسن وهو خائف . فدخلنا معه عليه .فما كنا مع الحسن إلا بمنزلة الفراريج فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام ، وما صنع به إخوته من بيعهم إياه ، وطرحهم له فى الجب . فقال باعوا أخاهم ، وأحزنوا أباهم . وذكر ما لقى من كيد النساء ومن الحبس ، ثم قال، أيها الأمير ، ماذا صنع الله به ؟ أداله منهم ، ورفع ذكره ، وأعلى كلمته : وجعله على خزائن الأرض . فماذا صنع حين أكمل له أمره ؟ وجمع له أهله ؟ قال (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ[2]) يعرض للحكم بالعفو عن أصحابه . قال الحكم ، فأنا أقول (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ[3]) ولو لم أجد إلا ثوبى هذا لواريتكم تحته.

---

(١) النحل : ١١١ (٢و٣) يوسف : ٩٢

وكتب ابن المقفع إلى صديق له، يسأله العفو عن بعض إخوانه، فلان هارب من زلته إلى عفوك. لائذ منك بك . واعلم أنه لن يزداد الذنب عظما . إلا ازداد العفو فضلا . وأتى عبد الملك بن مروان بأسارى بن الأشعث ، فقال لرجاء بن حيوة ، ماترى؟ قال إن الله تعالى قد أعطاك ماتحب من الظفر ، فأعط الله مايحب من العفو . فعفا عنهم . وروى أن زيادا أخذ رجلا من الخوارج ، فأفلت منه ، فأخذ أخا له، فقال له إن جئت بأخيك وإلا ضربت عنقك فقال أرأيت إن جئتك بكتاب من أمير المؤمنين تخلي سبيلي ؟ قال نعم . قال فأنا آتيك بكتاب من العزيز الحكيم ، وأقيم عليه شاهدين ابراهيم وموسى . ثم تلا (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى[1]) فقال زياد، خلوا سبيله ؟ هذا رجل قد لقن حجته : وقيل مكتوب في الأنجيل ، من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان

فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق محمود ، ويضاده العنف والحدة . والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة . وقد يكون سبب الحدة الغضب ، وقد يكون سببها شدة الحرص واستيلاءه ، بحيث يدهش عن التفكر ، ويمنع من التثبت . فالرفق في الأمور ثمرة لايثمرها إلا حسن الخلق . ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة : وحفظهما على حد الاعتدال . ولأجل هذا أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق ، وبالغ فيه. فقال[1] « يَاعَائِشَةُ إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ أَهْلَ بَيْتٍ أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ »

﴿ فضيلة الرفق ﴾

(١) حديث ياعائشة انه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة ـ الحديث : أحمد والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضعفه عن القاسم عن عائشة وفي الصحيحين من حديثها ياعائشة ان الله يحب الرفق في الامر كله

(٢) حديث اذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق : أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة

---

(١) النجم : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ لَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَالاَ يُعْطِي عَلَى الْخُرْقِ وَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْداً أَعْطَاهُ الرِّفْقَ وَمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرِّفْقَ إِلاَّ حُرِمُوا مَحَبَّةَ اللهِ تَعَالَى » . وقالت عائشة رضى الله عنها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَالاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « يَاعَائِشَةُ ارْفُقِي فَإِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ كَرَامَةً دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « أَيُّمَا وَالٍ وُلِّيَ فَرَفَقَ وَلاَنَ رَفَقَ اللهُ تَعَالَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « تَدْرُونَ مَنْ يُحْرَمُ عَلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « الرِّفْقُ يُمْنٌ وَالْخُرْقُ شُؤْمٌ » وقال صلى الله عليه وسلم [٨] « التَّأَنِّي مِنَ اللهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فقال ، [٩] يارسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ، فاخصصني منك بخير : فقال « الْحَمْدُ لِلّٰهِ » مرتين

---

(١) حديث ان الله ليعطى على الرفق مالا يعطى على الخرق ـ الحديث : الطبراني في الكبير من حديث جرير باسناد ضعيف

(٢) حديث ان الله رفيق يحب الرفق ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة

(٣) حديث ياعائشة ارفقى ان الله اذا أراد بأهل بيت كرامة دلهم على باب الرفق : أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع ولأبى داود ياعائشة أرفقى

(٤) حديث من يحرم الرفق يحرم الخير كله : مسلم من حديث جرير دون قوله كله فهى عند أبى داود

(٥) حديث أيما وال ولى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة : مسلم من حديث عائشة وفى حديث فيه ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به

(٦) حديث تدرون على من تحرم النار على كل هين لين سهل قريب : الترمذى من حديث ابن مسعود وتقدم فى آداب الصحبة

(٧) حديث الرفق يمن والخرق شؤم : الطبرانى فى الاوسط من حديث ابن مسعود والبيهقى فى الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف

(٨) حديث التأنى من الله والعجلة من الشيطان : أبو يعلى من حديث أنس ورواه الترمذى وحسنه من حديث سهل بن سعد بلفظ الأناة من الله وقد تقدم

(٩) حديث أتاه رجل فقال يارسول الله ان الله قد بارك لجميع المسلمين فيك ـ الحديث وفيه فاذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فان كان رشدا فأمضه ـ الحديث : ابن المبارك فى الزهد والرقائق من حديث أبى جعفر هو المسمى عبد الله بن مسور الهاشمى ضعيف جدا ولأبى نعيم فى كتاب الايجاز من رواية اسماعيل الانصارى عن أبيه عن جده اذا هممت بأمر فأجلس فتدبر عاقبته واسناده ضعيف

أو ثلاثا ، ثم أقبل عليه فقال « هَلْ أَنْتَ مُسْتَوْصٍ » مرتين أو ثلاثا . قال نعم . قال « إِذَا أَرَدْتَ أَمْرًا فَتَدَبَّرْ عَاقِبَتَهُ فَإِنْ كَانَ رُشْداً فَأَمْضِهِ وَإِنْ كَانَ سِوَى ذَلِكَ فَانْتَهِ » وعن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر على بعير صعب فجعلت تصرفه يمينا وشمالا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « يَا عَائِشَةُ عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ فَإِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ »

الآثار : بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله ، فأمرهم أن يوافوه . فلما أتوه ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ، أيها الناس ، أيتها الرعية إن لنا عليكم حقا ، النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير . أيتها الرعاة ، إن للرعية عليكم حقا ، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ولا أعز ، من حلم إمام ورفقه . وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم ؛ من جهل إمام وخرقه . واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه ، يرزق العافية ممن هو دونه . وقال وهب بن منبه ، الرفق ثني الحلم . وفي الخبر موقوفا ومرفوعا[2] « اَلْعِلْمُ خَلِيلُ الْمُؤْمِنِ وَالْحِلْمُ وَزِيرُهُ وَالْعَقْلُ دَلِيلُهُ وَالْعَمَلُ قَيِّمُهُ وَالرِّفْقُ وَالِدُهُ وَاللِّينُ أَخُوهُ وَالصَّبْرُ أَمِيرُ جُنُودِهِ » وقال بعضهم : ما أحسن الإيمان يزينه العلم ، وما أحسن العلم يزينه العمل وما أحسن العمل يزينه الرفق . وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم . وقال عمرو ابن العاص لابنه عبد الله ، ما الرفق ؟ قال . أن تكون ذا أناة فتلاين الولاة . قال فما الخرق ؟ قال . معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك . وقال سفيان لأصحابه ، تدرون ما الرفق ؟ قالوا قل يا أبا محمد قال : أن تضع الأمور مواضعها ، الشدة في موضعها ، واللين في موضعه ، والسيف في موضعه والسوط في موضعه . وهذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين ، والفظاظة بالرفق كما قيل .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

---

(١) حديث عائشة عليك بالرفق فانه لا يدخل في شيء الا زانه ـ الحديث : رواه مسلم

(٢) حديث العلم خليل المؤمن والحلم وزيره والعقل دليله والعمل قائده والرفق والده أبو الشيخ في كتاب الثواب وفضائل الاعمال من حديث أنس بسند ضعيف ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف

فالمحمود وسط بين العنف واللين ، كما فى سائر الأخلاق : ولكن لما كانت الطباع إلى العنف والحدة أميل ، كانت الحاجة إلى ترغيبهم فى جانب الرفق أكثر . فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف ، وإن كان العنف فى محله حسنا ، كما أن الرفق فى محله حسن . فإذا كان الواجب هو العنف ، فقد وافق الحق الهوى ، وهو ألذ من الزبد بالشهد ، وهكذا • وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله، روي أن عمرو بن العاص ، كتب إلى معاوية يعاتبه فى التأنى ، فكتب إليه معاوية

أما بعد . فإن التفهم فى الخير زيادة رشد ، وإن الرشيد من رشد عن العجلة ، وإن الخائب من خاب عن الأناة ، وإن المتثبت مصيب ، أو كاد أن يكون مصيبا . وإن العجل مخطىء ، أو كاد أن يكون مخطئا . وأن من لا ينفعه الرفق يضره الخرق . ومن لا ينفعه التجارب لا يدرك المعالى . وعن أبى عون الأنصارى ، قال ما تكلم الناس بكلمة صعبة ، إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجرى مجراها . وقال أبو حمزة الكوفى . لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه ، فإن مع كل إنسان شيطانا واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئا ، إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن . المؤمن وقاف متأن ، وليس كحاطب ليل .

• فهذا ثناء أهل العلم على الرفق ، وذلك لأنه محمود ، ومفيد فى أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على الندور . وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطى كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة ، أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع ، فليكن ميله إلى الرفق ، فإن النجح معه فى الأكثر

القول

فى ذم الحسد وفى حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب فى إزالته

بيان

ذم الحسد

اعلم أن الحسد أيضا من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب ، فهو فرع فرعه ، والغضب أصل أصله . ثم إن للحسد من الفروع الذميمة مالا يكاد يحصى . وقد ورد فى ذم

الحسد خاصة أخبار كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وقال صلى الله عليه وسلم فى النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته (٢) « لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَقَاطَعُوا وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا »

وقال أنس ، (٣) كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الآنَ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ » قال فطلع رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه فى يده الشمال ،فسلم . فلما كان الغد : قال صلى الله عليه وسلم مثل ذلك . فطلع ذلك الرجل . وقاله فى اليوم الثالث ، فطلع ذلك الرجل . فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم ، تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص : فقال له ، إنى لاحيت أبى ،فأقسمت أن لاأدخل عليه ثلاثا . فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى الثلاث فعلت . فقال نعم . فبات عنده ثلاث ليال ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر . قال غير أنى ماسمعته يقول إلا خيرا. فلمامضت الثلاث ، وكدت أن أحتقر عمله ؛ قلت ياعبد الله ، لم يكن بينى وبين والدى غضب ولا هجرة ، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا وكذا ، فأردت أن أعرف عملك ، فلم أرك تعمل عملا كثيرا . فا الذى بلغ بك ذلك؟ فقال ماهو إلا مارأيت. فلما وليت دعانى فقال . ماهو إلا مارأيت ، غير أنى لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا ، على خير أعطاه الله إياه. قال عبدالله ، فقلت له هى التى بلغت بك ، وهى التى لا نطيق

(القول فى ذم الحسد)

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب : أبو داود من حديث أبى هريرة وابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم

(٢) حديث لاتقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم

(٣) حديث أنس كنا يوما جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ـ الحديث بطوله وفيه أن ذلك الرجل قال لاأجد على أحد من المسلمين فى نفسى غشا ولا حسدا على خير أعطاه الله : رواه أحمد باسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار وسمى الرجل فى رواية له سعدا وفيها ابن لهيعة

وقال صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلَاثٌ لَا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ الظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ وَالْحَسَدُ وَسَأُحَدِّثُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ وَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَامْضِ وَإِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ » وفى رواية « ثَلَاثَةٌ لَا يَنْجُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ وَقَلَّ مَنْ يَنْجُو مِنْهُنَّ » فأثبت فى هذه الرواية إمكان النجاة . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ وَالْبِغْضَةُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ حَالِقَةُ الشَّعْرِ وَلَكِنْ حَالِقَةُ الدِّينِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَنْ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَا يُثْبِتُ ذَلِكَ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « إِنَّهُ سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأُمَمِ » قالوا وما داء الأمم ؟ قال « الْأَشَرُ وَالْبَطَرُ وَالتَّكَاثُرُ وَالتَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا وَالتَّبَاعُدُ وَالتَّحَاسُدُ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ ثُمَّ الْهَرْجُ » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيُعَافِيَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ » . وروى أن موسى عليه السلام ، لما تعجل إلى ربه تعالى ، رأى فى ظل العرش رجلا ، فغبطه بمكانه . فقال إن هذا لكريم على ربه . فسأل

---

(١) حديث ثلاث لاينجو منهن أحد الظن والطعن والحسد ـ الحديث : وفى رواية وقل من ينجو منهن ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الحسد من حديث أبى هريرة وفيه يعقوب بن محمد الزهرى وموسى ابن يعقوب الزمعى ضعفهما الجمهور والرواية الثانيـة رواها ابن أبى الدنيا أيضا من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف وللطبرانى من حـديث حارثة بن النعمان نحوه وتقدم فى آفات اللسان

(٢) حديث دب إليكم داء الأمم الحسد والبغضاء ـ الحديث : الترمذى من حديث مولى الزبير عن الزبير

(٣) حديث كاد الفقر أن يكون كفراً وكاد الحسد أن يغلب القدر : أبو مسلم الكشى والبيهقى فى الشعب من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف ورواه الطبرانى فى الأوسط من وجه آخر بلفظ كادت الحاجة أن تكون كفرا وفيه ضعف أيضا

(٤) حديث انه سيصيب أمتى داء الأمم قبلكم قالوا وماداء الأمم قال الاشر والبطر ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى ذم الحسد والطبرانى فى الأوسط من حديث أبى هريرة باسناد جيد

(٥) حديث لاتظهر الشماتة بأخيك فيعافيه ويبتليك : الترمذى من حديث واثلة بن الأسقع وقال حسن غريب وفى رواية ابن أبى الدنيا فيرحمه الله

ربه تعالى أن يخبره باسمه فلم يخبره ، وقال أحدثك من عمله بثلاث . كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وكان لا يعق والديه ، ولا يمشي بالنميمة . وقال زكريا عليه السلام . قال الله تعالى ، الحاسد عدو لنعمتي ، متسخط لقضائي ، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ يَكْثُرَ فِيهِمُ الْمَالُ فَيَتَحَاسَدُونَ وَيَقْتَتِلُونَ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « إِنَّ لِنِعَمِ اللهِ أَعْدَاءً » فقيل ومن هم ؟ فقال « الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[4] « سِتَّةٌ يَدْخُلُونَ النَّارَ قَبْلَ الْحِسَابِ بِسَنَةٍ » قيل يارسول الله من هم؟ قال « الْأُمَرَاءُ بِالْجَوْرِ وَالْعَرَبُ بِالْعَصَبِيَّةِ وَالدَّهَاقِينُ بِالتَّكَبُّرِ وَالتُّجَّارُ بِالْخِيَانَةِ وَأَهْلُ الرُّسْتَاقِ بِالْجَهَالَةِ وَالْعُلَمَاءُ بِالْحَسَدِ »

الآثار: قال بعض السلف ، أول خطيئة كانت هي الحسد . حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته ، فأبى أن يسجد له ، فحمله الحسد على المعصية . وحكي أن عون بن عبد الله ، دخل على الفضل بن المهلب ، وكان يومئذ على واسط . فقال إني أريد أن أعظك بشيء . فقال وما هو ؟ قال إياك والكبر ، فإنه أول ذنب عصى الله به ، ثم قرأ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ

---

(١) حديث أخوف ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون :ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد ان مما أخاف عليكم من بعدي مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ولهما من حديث عمرو بن عوف البدري والله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا الحديث ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو إذا فتحت عليكم فارس والروم الحديث وفيه يتنافسون ثم يتحاسدون ثم يتدابرون الحديث ولأحمد والبزار من حديث عمر لاتفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة

(٢) حديث استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود :ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف

(٣) حديث إن لنعم الله أعداء قيل ومن أولئك قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله :الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس إن لأهل النعم حسادا فاحذروهم

(٤) حديث ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة قيل يارسول الله ومن هم قال الامراء بالجور ـ الحديث: وفيه والعلماء بالحسد أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين

اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ (١)) الآية . وإياك والحرص ، فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض، يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها ، فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ (اهْبِطُوا مِنْهَا (٢)) إلى آخر الآية . وإياك والحسد ، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ، ثم قرأ (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ (٣)) الآيات . وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمسك . وإذا ذكر القدر فاسكت . وإذا ذكرت النجوم فاسكت.

وقال بكر بن عبد الله . كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك : فيقول أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسيء سيكفيكه إساءته . فحسده رجل على ذلك المقام والكلام ، فسعى به إلى الملك ، فقال إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول مايقول ، زعم أن الملك أبخر . فقال له الملك ،وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر . فقال له انصرف حتى أنظر. فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله ، فأطعمه طعاما فيه ثوم . فخرج الرجل من عنده ، وقام بحذاء الملك على عادته . فقال أحسن إلى المحسن بإحسانه ،فإن المسيء سيكفيكه إساءته. فقال له الملك ادن مني. فدنا منه ، فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم. فقال الملك في نفسه، ما أرى فلانا إلا قد صدق . قال وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة . فكتب له كتابا بخطه إلى عامل من عماله ، إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه ،واسلخه، واحش جلده تبنا، وابعث به إليّ.فأخذ الكتاب وخرج ، فلقيه الرجل الذي سعى به ، فقال ماهذا الكتاب ؟ قال خط الملك لي بصلة . فقال هبه لي . فقال هو لك . فأخذه ومضى به إلى العامل ، فقال العامل ، في كتابك أن أذبحك وأسلخك. قال إن الكتاب ليس هو لي، فالله الله في أمري حتى تراجع الملك. فقال ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه ، وسلخه ، وحشا جلده تبنا ،وبعث به .ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ،وقال مثل قوله فعجب الملك، وقال مافعل الكتاب؟ فقال لقيني فلان فاستوهبه مني فوهبته له. قال الملك، إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر. قال ماقلت ذلك. قال فلم وضعت يدك على فيك قال لأنه أطعمني طعاما فيه ثوم فكرهت أن تشمه. قال صدقت ارجع إلى مكانك، فقد كفي المسيء إساءته

(١) البقرة : ٣٤ (٢) البقرة: ٣٨ (٣) المائدة : ٢٧

وقال ابن سيرين رحمه الله . ماحسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة ، فكيف أحسده على الدنيا وهى حقيرة فى الجنة ؟ وإن كان من أهل النار ، فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار ! وقال رجل للحسن ، هل يحسد المؤمن ؟ قال ما أنساك بني يعقوب ، نعم ، ولكن غمه في صدرك ، فإنه لا يضرك مالم تعد به يدا ولا لسانا ، وقال أبو الدرداء ، ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه ، وقل حسده ، وقال معاوية ، كل الناس أقدر على رضاه ، إلا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلا زوالها ، ولذلك قيل

كل العداوات قد ترجى إماتتها * إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال بعض الحكماء : الحسد جرح لا يبرأ ، وحسد الحسود ما يلقى . وقال أعرابي : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه . وقال الحسن يا ابن آدم ، لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذى أعطاه لكرامته عليه ، فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك ، فلم تحسد من مصيره إلى النار ؟ وقال بعضهم ، الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلا . ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضا . ولا ينال من الخلق إلا جزعا وغما . ولا ينال عند النزع إلا شدة وهولا . ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالا

بيان

حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة . فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة ، فلك فيها حالتان

إحداها : أن تكره تلك النعمة ، وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسدا . فالحسد حده كراهة النعمة ، وحب زوالها عن المنعم عليه

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ، ولا تكره وجودها ودوامها ، ولكن تشتهي لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة . وقد تختص باسم المنافسة . وقد تسمى المنافسة حسدا ، والحسد منافسة ، ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حجر فى الأسامى بعد فهم المعاني . وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغْبِطُ وَالْمُنَافِقَ يَحْسُدُ »

فأما الأول: فهو حرام بكل حال، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها على تهييج الفتنة، وإفساد ذات البين، وإيذاء الخلق، فلا يضرك كراهتك لها، ومحبتك زوالها فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة، بل من حيث هي آلة الفساد. ولو أمنت فساده، لم يغمك بنعمته. ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها، وأن هذه الكراهة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم، من غير أن يكون لك منه مضرة، وإلى هذا أشار القرءان بقوله (﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[1]) وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة يتلازمان.

وقال تعالى (﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾[2]) فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد. وقال عز وجل (﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[3]) وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام، وعبر عما في قلوبهم بقوله تعالى (﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[4]) فلما كرهوا حب أبيهم له، وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه، فغيبوه عنه. وقال تعالى (﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾[5]) أي لا تضيق صدورهم به ولا يغتمون. فأثنى عليهم بعدم الحسد

وقال تعالى في معرض الإنكار (﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[6]) وقال تعالى (﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[7]) إلى قوله (﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[8]) قيل في التفسير حسدا، وقال تعالى (﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[9]) فأنزل الله العلم ليجمعهم، ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم

---

(١) حديث المؤمن يغبط والمنافق يحسد: لم أجد له أصلا مرفوعا وإنما هو من قول الفضيل بن عياض كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد

(١) آل عمران: ١٢٠ (٢) البقره: ١٠٩ (٣) النساء: ٨٩ (٤) يوسف: ٨ (٥) الحشر: ٩ (٦) النساء: ٥٤ (٧) و (٨) البقره: ٢١٣ (٩) الشورى: ١٤

أن يتألفوا بالعلم ، فتحاسدوا واختلفوا ، إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة ، وقبول القول ، فرد بعضهم على بعض . قال ابن عباس [١] كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا قاتلوا قوما ، قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله ، و بالكتاب الذي تنزله ، إلا مانصرتنا . فكانوا ينصرون . فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم من ولد اسماعيل عليه السلام عرفوه ، وكفروا به بعد معرفتهم إياه فقال تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ [١]) إلى قوله (أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا [٢]) أي حسدا . وقالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم ، [٢] جاء أبي وعمي من عندك يوما ، فقال أبي لعمي ماتقول فيه ؟ قال أقول إنه النبي الذي بشر به موسى قال فما ترى ؟ قال أرى معاداته أيام الحياة . فهذا حكم الحسد في التحريم

وأما المنافسة ، فليست بحرام . بل هي إما واجبة ، وإما مندوبة ، وإما مباحة . وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة ، والمنافسة بدل الحسد . قال قثم بن العباس ، [٣] لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة ، قالا لعلي

(بيان حقيقة الحسد وحكمه)

(١) حديث ابن عباس قوله كانت اليهود قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتلوا قوما قالوا نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله ـ الحديث : في نزول قوله تعالى وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا : ابن اسحاق في السيرة فيما بلغه عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ان اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره بنحوه وهو منقطع

(٢) حديث قالت صفية بنت حيي للنبي صلى الله عليه وسلم جاء أبي وعمي من عندك يوما فقال أبي لعمي ما تقول فيه قال أقول انه النبي الذي بشر به موسى ـ الحديث : ابن اسحاق في السيرة قال حدثني أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال حدثت عن صفية فذكره نحوه وهو منقطع أيضا

(٣) حديث قال قثم بن العباس لما أراد هو والفضل أن يأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة قالا لعلي ـ الحديث : هكذا وقع للمصنف انه قثم والفضل وانما هو الفضل والمطلب بن ربيعة كما رواه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة بن الحارث قال اجتمع ربيعة ابن الحارث والعباس بن عبد المطلب فقالا والله لو بعثنا هذين الغلامين قال لي وللفضل بن عباس ائتيا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلماه فذكر ـ الحديث :

---

(١) البقرة : ٨٩ (٢) البقرة : ٩٠

حين قال لهما لا تذهبا إليه ، فإنه لا يؤمر كما عليها ، فقالا له ماهـذا منك إلا نفاسة . والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك ، أي هذا منك حسد ، وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة ، والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة . والذى يدل على إباحة المنافسة ، قوله تعالى (وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [١]) وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ [٢]) وإنما المسابقة عند خوف الفوت ، وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ، إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه ، فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها . فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال[١] « لَا حَسَدَ إِلَّا فِى اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِى الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ وَيُعَلِّمُهُ النَّاسَ » ثم فسر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال[٢] « مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةٍ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ فِى مَالِهِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَيَقُولُ رَبِّ لَوْ أَنَّ لِى مَالاً مِثْلَ مَالِ فُلَانٍ لَكُنْتُ أَعْمَلُ فِيهِ بِمِثْلِ عَمَلِهِ فَهُمَا فِى الْأَجْرِ سَوَاءٌ » وهذا منه حب لأن يكون له مثل ماله ، فيعمل مثل مايعمل ، من غير حب زوال النعمة عنه قال « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِى مَعَاصِى اللهِ وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ عِلْماً وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالاً فَيَقُولُ لَوْ أَنَّ لِى مِثْلَ مَالِ فُلَانٍ لَكُنْتُ أُنْفِقُهُ فِى مِثْلِ مَا أَنْفَقَهُ فِيهِ مِنَ الْمَعَاصِى فَهُمَا فِى الْوِزْرِ سَوَاءٌ » فذمه رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله

فإذاً لا حرج على من يغبط غيره في نعمة ، ويشتهي لنفسه مثلها ، مهما لم يحب زوالها عنه ، ولم يكره دوامها له . نعم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة ، كالإيمان والصلاة ، والزكاة ، فهذه المنافسة واجبة . وهو أن يحب أن يكون مثله ، لأنه إذا لم يكن يحب ذلك فيكون راضياً بالمعصية ، وذلك حرام . وإن كانت النعمة من الفضائل ، كإنفاق

(١) حديث لا حسد الا في اثنتين ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم في العلم

(٢) حديث أبي كبشة مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا ـ الحديث : رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح

(١) المطففين : ٢٦ (٢) الحديد : ١٢

الأموال فى المكارم والصدقات ، فالمنافسة فيها مندوب إليها . وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح ، فالمنافسة فيها مباحة . وكل ذلك يرجع إلى إرادة مساواته ، واللحوق به فى النعمة ، وليس فيها كراهة النعمة ، وكان تحت هذه النعمة أمران ، أحدهما :راحة المنعم عليه ، والآخر ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه . وهو يكره أحد الوجهين ، وهو تخلف نفسه ، ويحب مساواته له . ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها فى المباحات نعم ذلك ينقص من الفضائل ، ويناقض الزهد ، والتوكل ، والرضا ، ويحجب عن المقامات الرفيعة ، ولكنه لا يوجب العصيان

وههنا دقيقة غامضة ، وهو أنه إذا أيس من أن ينال مثل تلك النعمة ، وهو يكره تخلفه ونقصانه ، فلا محالة يحب زوال النقصان وإنما يزول نقصانه إما بأن ينال مثل ذلك أو بأن تزول نعمة المحسود فإذا انسد أحد الطريقين ، فيكاد القلب لا ينفك عن شهوة الطريق الآخر ، حتى إذا زالت النعمة عن المحسود ، كان ذلك أشفى عنده من دوامها إذ بزوالها يزول تخلفه وتقدم غيره . وهذا يكاد لا ينفك القلب عنه . فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ، ورد إلى اختياره ، لسعى فى إزالة النعمة عنه ، فهو حسود حسدا مذموما . وإن كان تدعه التقوى عن إزالة ذلك ، فيعفى عما يجده فى طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده ، مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه : ولعله المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلاَثٌ لاَ يَنْفَكُّ الْمُؤْمِنُ عَنْهُنَّ الْحَسَدُ وَالظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ » ثم قال « وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ إِذَا حَسَدْتَ فَلاَ تَبْغِ » أى إن وجدت فى قلبك شيئا فلا تعمل به . وبعيد أن يكون الإنسان مريدا اللحاق بأخيه فى النعمة ، فيعجز عنها ، ثم ينفك عن ميل إلى زوال النعمة . إذ يجد لا محالة ترجيحا له على دوامها . فهذا الحد من المنافسة يزاحم الحسد الحرام ، فينبغى أن يحتاط فيه ، فإنه موضع الخطر . وما من إنسان إلا وهو يرى فوق نفسه جماعة من معارفه وأقرانه يحب مساواتهم ، ويكاد ينجر ذلك إلى الحسد المحظور إن لم يكن قوى الإيمان ، رزين التقوى ومهما كان محركه خوف التفاوت وظهور نقصانه عن غيره ، جره ذلك إلى الحسد المذموم

---

(١) حديث ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن الحسد والظن والطيرة ـ الحديث : تقدم غيره مرة

وإلى ميل الطبع إلى زوال النعمة عن أخيه ، حتى ينزل هو إلى مساواته ، إذ لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة ، وذلك لا رخصة فيه أصلا ، بل هو حرام ، سواء كان في مقاصد الدين ، أو مقاصد الدنيا ، ولكن يعفى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله تعالى وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له . فهذه حقيقة الحسد وأحكامه، وأما مراتبه فأربع

الأولى : أن يحب زوال النعمة عنه : وإن كان ذلك لا ينتقل إليه . وهذا غاية الخبث

الثانية : أن يحب زوال النعمة إليه ، لرغبته في تلك النعمة ، مثل رغبته في دار حسنة ، أو امرأة جميلة ، أو ولاية نافذة ، أو سعة نالها غيره ، وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها

الثالثة : أن يشتهي عينها لنفسه ، بل يشتهي مثلها . فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما

الرابعة . أن يشتهي لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه . وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا . والمندوب إليه إن كان في الدين . والثالثة فيها مذموم وغير مذموم . والثانية أخف من الثالثة والأولى مذموم محض . وتسمية الرتبة الثانية حسدا فيه تجوز وتوسع ، ولكنه مذموم لقوله تعالى (وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ [1]) فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم ، وأما تمنيه عين ذلك فهو مذموم

بيان

أسباب الحسد والمنافسة

أما المنافسة ، فسببها حب ما فيه المنافسة . فإن كان ذلك أمرا دينيا ، فسببه حب الله تعالى وحب طاعته . وإن كان دنيويا ، فسببه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها . وإنما نظرنا الآن في الحسد المذموم ، ومداخله كثيرة جدا ؛ ولكن يحصر جملتها سبعة أبواب ، العداوة ، والتعزز ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ، وخبث النفس وبخلها . فإنه إنما يكره النعمة على غيره ، إما لأنه عدوه فلا يريد له الخير

(١) النساء : ٣٢

وهذا لا يختص بالأمثال ، بل يحسد الخسيس الملك ، بمعنى أنه يحب زوال نعمته ، لكونه مبغضاله بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه . وإما أن يكون من حيث يعلم أنه يستكبر بالنعمة عليه ، وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه ، وهو المراد بالتعزز

وإما أن يكون فى طبعه أن يتكبر على المحسود ، ويمتنع ذلك عليه لنعمته. وهو المراد بالتكبر

وإما أن تكون النعمة عظيمة ، والمنصب عظيما ، فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة ، وهو المراد بالتعجب . وإما أن يخاف من فوات مقاصده بسبب نعمته ، بأن يتوصل بها إلى مزاحمته فى أغراضه . وإما أن يكون يحب الرياسة التى تنبنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها . وإما أن لا يكون بسبب من هذه الأسباب ، بل لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ، ولابد من شرح هذه الأسباب

السبب الأول : العداوة والبغضاء . وهذا أشد أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب ، وخالفه فى غرض بوجه من الوجوه ، أبغضه قلبه ، وغضب عليه ، ورسخ فى نفسه الحقد . والحقد يقتضى التشفى والانتقام . فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه ، أحب أن يتشفى منه الزمان . وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى : فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها ، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه ، وأنها لأجله . ومهما أصابته نعمة ، ساءه ذلك ؛ لأنه ضد مراده . وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله ؛ حيث لم ينتقم له من عدوه الذى آذاه ، بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما . وإنما غاية التقى أن لا يبغى ، وأن يكره ذلك من نفسه . فأما أن يبغض إنسانا ثم يستوى عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن . وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعنى الحسد بالعداوة ، إذ قال تعالى (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ [1]) الآية . وكذلك قال تعالى (وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ [2]) . والحسد بسبب البغض ربما يفضى إلى التنازع والتقاتل ، واستغراق العمر فى إزالة النعمة بالحيل ، والسعاية ، وهتك الستر ، وما يجرى مجراه

---

(١) آل عمران : ١١٩ ، ١٢٠ (٢) آل عمران : ١١٨

السبب الثانى : التعزز . وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية ، أو علما ، أو مالا ، خاف أن يتكبر عليه ، وهو لا يطيق تكبره ، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر ، بل غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضى بمساواته مثلا ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه

السبب الثالث : الكبر . وهو أن يكون فى طبعه أن يتكبر عليه ، ويستصغره ويستخدمه ، ويتوقع منه الانقياد له ، والمتابعة فى أغراضه . فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ، ويترفع عن متابعته ، أو ربما يتشوف إلى مساواته ، أو إلى أن يرتفع عليه ، فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا كيف يتقدم علينا غلام يتيم ! وكيف نطأطىء رءوسنا[1] فقالوا (لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ[1]) أى كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ، ونتبعه إذا كان عظيما . وقال تعالى يصف قول قريش (أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا[2]) كالاستحقار لهم والأنفة منهم

السبب الرابع : التعجب . كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة ، إذ قالوا (مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا[3]) وقالوا (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا[4]) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ[5]) فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة ، والوحى ، والقرب من الله تعالى ، بشر مثلهم . فحسدوهم ، وأحبوا زوال النبوة عنهم ، جزعا أن يفضل عليهم من هو مثلهم فى الخلقة ، لا عن قصد تكبر ، وطلب رياسة ، وتقدم عداوة ، أو سبب آخر من سائر الأسباب وقالوا متعجبين (أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً[6]) وقالوا (لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ[7])

---

(١) حديث سبب نزول قوله تعالى لولا نزل هذا القرمان على رجل من القريتين عظيم : ذكره ابن اسحاق فى السيرة وإن قائل ذلك الوليد بن المغيرة قال أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف فنحن عظماء القريتين فأنزل الله فيما بلغنى هذه الآية ورواه أبو محمد بن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسيريهما من حديث ابن عباس الا أنهما قالا مسعود بن عمرو وفى رواية لابن مردويه حبيب بن عمير الثقفى وهو ضعيف

---

(١) الزخرف : ٣١ (٢) الانعام : ٥٣ (٣) يس : ١٥ (٤) المؤمنون : ٤٧ (٥) المؤمنون : ٣٤ (٦) الاسراء : ٩٤ (٧) الفرقان : ٢١

وقال تعالى (أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ [1]) الآية

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد . وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد . فإن كل واحد يحسد صاحبه فى كل نعمة تكون عونا له فى الانفراد بمقصوده . ومن هذا الجنس تحاسد الضرات فى التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحاسد الأخوة فى التزاحم على نيل المنزلة فى قلب الأبوين ، للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال . وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه فى نيل المنزلة من قلبه : للتوصل به إلى المال والجاه . وكذلك تحاسد الواعظين المتزاحمين على أهل بلدة واحدة ، إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم . وكذلك تحاسد العالمين المتزاحمين على طائفة من المتفقهة محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة فى قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له

السبب السادس : حب الرياسة ، وطلب الجاه لنفسه ، من غير توصل به إلى مقصود وذلك كالرجل الذى يريد أن يكون عديم النظير فى فن من الفنون ، إذا غلب عليه حب الثناء ، واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر فى فنه ، وأنه لا نظير له ، فإنه لو سمع بنظير له فى أقصى العالم لساءه ذلك ، وأحب موته ، أو زوال النعمة عنه ، التى بها يشاركه فى المنزلة ، من شجاعة ، أو علم ، أو عبادة ، أو صناعة ، أو جمال ، أو ثروة أو غير ذلك مما يتفرد هو به ، ويفرح بسبب تفرده . وليس السبب فى هذا عداوة ، ولا تعززا ، ولا تكبرا على المحسود ، ولا خوفا من فوات مقصود ، سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد . وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة فى قلوب الناس ، للتوصل إلى مقاصد سوى الرياسة . وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون به ، خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم ، مهما نسخ علمهم

السبب السابع : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى . فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ، وتكبر ، ولا طلب مال ، إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى ، فما

---

(1) الأعراف : ٦٣

أنعم الله به عليه ، يشق ذلك عليه . وإذا وصف له اضطراب أمور الناس ،وإدبارهم ، وفوات مقاصدهم ، وتنغص عيشهم ، فرح به . فهو أبدا يحب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته . ويقال البخيل من يبخل بمال نفسه ، والشحيح هو الذى يبخل بمال غيره . فهذا يبخل بنعمة الله تعالى ، على عباده الذين ليس بينه و بينهم عداوة ولا رابطة . وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث فى النفس ، ورذالة فى الطبع ، عليه وقعت الجبلة ، ومعالجته شديدة . لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب ، أسبابه عارضة يتصور زوالها ، فيطمع فى إزالتها . وهذا أخبث فى الجبلة ، لا عن سبب عارض فتعسر إزالته ، إذ يستحيل فى العادة إزالته . فهذه هى أسباب الحسد ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب ، أو أكثرها ، أو جميعها فى شخص واحد ،فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينهتك حجاب المجاملة، وتظهر العداوة بالمكاشفة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب . وقلما يتجرد سبب واحد منها .

بيان

السبب فى كثرة الحسد بين الأمثال والأقران والأخوة وبنى العم والأقارب وتأكده وقلته فى غيرهم وضعفه

اعلم أن الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التى ذكرناها ، وإنما يقوى بين قوم تجتمع جملة من هذه الأسباب فيهم وتتظاهر ، إذ الشخص الواحد يجوز أن يحسد لأنه قد يمتنع عن قبول التكبر ، ولأنه يتكبر ، ولأنه عدو ، ولغير ذلك من الأسباب . وهذه الأسباب إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط ، يجتمعون بسببها فى مجالس المخاطبات ، ويتواردون على الأغراض : فإذا خالف واحد منهم صاحبه فى غرض من الأغراض ، نفر طبعه عنه ، وأبغضه ، وثبت الحقد فى قلبه ، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه ، ويكافئه على مخالفته لغرضه ، ويكره تمكنه من النعمة التى توصله إلى أغراضه ، وتترادف جملة من هذه الأسباب . إذ لا رابطة بين شخصين فى بلدتين متنائيتين ، فلا يكون بينهما

محاسدة . وكذلك فى محلتين . نعم إذا تجاورا فى مسكن ، أوسوق ، أو مدرسة ، أومسجد تواردا على مقاصد تتناقض فيها أغراضهما ، فيثور من التناقض التنافر والتباغض ، ومنه تثور بقية أسباب الحسد . ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البزاز ، لا بسبب آخر سوى الاجتماع فى الحرفة .

ويحسد الرجل أخاه وابن عمه ، أكثر مما يحسد الأجانب . والمرأة تحسد ضرتها وسرية زوجها ، أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته : لأن مقصد البزاز غير مقصد الإسكاف ، فلا يتزاحمون على المقاصد ، إذ مقصد البزاز الثروة ، ولا يحصلها إلا بكثرة الزبون ، وإنما ينازعه فيه بزاز آخر . إذ حريف البزاز لا يطلبه الإسكاف بل البزاز . ثم مزاحمة البزاز المجاور له ، أكثر من مزاحمة البعيد عنه إلى طرف السوق . فلاجرم يكون حسده للجار أكثر

وكذلك الشجاع يحسد الشجاع ولا يحسد العالم ، لأن مقصده أن يذكر بالشجاعة ويشتهر بها ، وينفرد بهذه الخصلة ، ولا يزاحمه العالم على هذا الغرض . وكذلك يحسد العالم العالم ، ولا يحسد الشجاع . ثم حسد الواعظ للواعظ أكثر من حسده للفقيه والطبيب لأن التزاحم بينهما على مقصود واحد أخص

فأصل هذه المحاسدات العداوة ، وأصل العداوة التزاحم بينهما على غرض واحد ، والغرض الواحد لا يجمع متباعدين بل متناسبين ، فلذلك يكثر الحسد بينهما . نعم من اشتد حرصه على الجاه ، وأحب الصيت فى جميع أطراف العالم بما هو فيه ، فإنه يحسد كل من هو فى العالم ، وإن بعد ، ممن يساهمه فى الخصلة التى يتفاخر بها .

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا ، فإن الدنيا هى التى تضيق على المتزاحمين . أما الآخرة فلا ضيق فيها . وإنما مثال الآخرة نعمة العلم ، فلاجرم من يحب معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته ، وملائكته ، وأنبيائه ، وملكوت سمواته وأرضه ، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضا ، لأن المعرفة لا تضيق عن العارفين ، بل المعلوم الواحد يعلمه ألف ألف عالم ، ويفرح بمعرفته ، ويلتذ به ، ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره ، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأنس ، وثمرة الاستفادة والإفادة فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة ، لأن مقصدهم معرفة الله تعالى ، وهو بحر واسع

لاضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله تعالى ولا ضيق أيضا فيما عند الله تعالى ، لأن أجل ما عند الله سبحانه من النعيم لذة لقائه ، وليس فيها ممانعة ومزاحمة ، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض ، بل يزيد الأنس بكثرتهم

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال ، والجاه ، تحاسدوا ، لأن المال أعيان وأجسام ، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر . ومعنى الجاه ملك القلوب . ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم ، انصرف عن تعظيم الآخر ، أو نقص عنه لامحالة ، فيكون ذلك سببا للمحاسدة وإذا امتلأ قلب بالفرح بمعرفة الله تعالى ؛ لم يمنع ذلك أن يمتلىء قلب غيره بها ، وأن يفرح بذلك . والفرق بين العلم والمال ، أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن اليد الأخرى . والعلم في قلب العالم مستقر ، ويحل في قلب غيره بتعليمه ، من غير أن يرتحل من قلبه . والمال أجسام وأعيان ، ولها نهاية : فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض ، لم يبق بعده مال يتملكه غيره . والعلم لا نهاية له ولا يتصور استيعابه . فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته ، وملكوت أرضه وسمائه ، صار ذلك ألذ عنده من كل نعيم ، ولم يكن ممنوعا منه ، ولا مزاحما فيه ، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق ، لأن غيره أيضا لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته ، بل زادت لذته بمؤانسته ، فتكون لذة هؤلاء في مطالعة عجائب الملكوت على الدوام ، أعظم من لذة من ينظر إلى أشجار الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة . فإن نعيم العارف وجنته معرفته ، التي هي صفة ذاته ، يأمن زوالها ، وهو أبدا يجني ثمارها . فهو بروحه وقلبه مغتذ بفاكهة علمه ، وهي فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل قطوفها دانية . فهو وإن غمض العين الظاهرة ، فروحه أبدا ترتع في جنة عالية ، ورياض زاهرة . فإن فرض كثرة في العارفين ، لم يكونوا متحاسدين ، بل كانوا كما قال فيهم رب العالمين (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [1]) فهذا حالهم وهم بعد في الدنيا . فماذا يظن بهم عند انكشاف الغطاء ، ومشاهدة المحبوب في العقبى ! فإذاً لا يتصور أن يكون في الجنة محاسدة ولا أن يكون بين أهل الجنة في الدنيا محاسدة ، لأن الجنة لامضايقة فيها ولا مزاحمة ، ولا تنال إلا بمعرفة الله تعالى ، التي لا مزاحمة فيها في الدنيا أيضا . فأهل الجنة بالضرورة برآء

(١) الحجر : ٤٧

من الحسد فى الدنيا والآخرة جميعا . بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين ، إلى مضيق سجين . ولذلك وسم به الشيطان اللعين ،وذكر من صفاته أنه حسد آدم عليه السلام على ماخص به من الاجتباء ، ولما دعى إلى السجود استكبر وأبى ، وتمرد وعصى

فقد عرفت أنه لاحسد إلا للتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ، ولهذا لاترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينة السماء ، ويتحاسدون على رؤية البساتين ، التى هى جزء يسير من جملة الأرض ، وكل الأرض لاوزن لها بالإضافة إلى السماء ، ولكن السماء لسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار ، فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد أصلا

فعليك إن كنت بصيرا ، وعلى نفسك مشفقا ، أن تطلب نعمة لازحمة فيها ، ولذة لا كدر لها ، ولا يوجد ذلك فى الدنيا إلا فى معرفة الله عز وجل ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وعجائب ملكوت السموات والأرض . ولا ينال ذلك فى الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضا . فإن كنت لاتشتاق إلى معرفة الله تعالى ، ولم تجد لذتها ، وفتر عنك رأيك ، وضعفت فيها رغبتك فأنت فى ذلك معذور ، إذ العنين لايشتاق إلى لذة الوقاع ، والصبي لايشتاق إلى لذة الملك فإن هذه لذات يختص بإدراكها الرجال دون الصبيان والمخنثين . فكذلك لذة المعرفة ، يختص بإدراكها الرجال (رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ [1])ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهم، لأن الشوق بعد الذوق ،ومن لم يذق لم يعرف ومن لم يعرف لم يشتق ،ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ،ومن لم يدرك بقى مع المحرومين فى أسفل السافلين (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ [2])

بيان

الدواء الذى ينفى مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد ، هو أن تعرف تحقيقا أن الحسد ضرر عليك فى الدنيا والدين ،

(١) النور : ٣٧ (٢) الزخرف : ٣٦

وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما ، ومهما عرفت هذا عن بصيرة ، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك ، فارقت الحسد لا محالة .

أما كونه ضررا عليك في الدين . فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدقة التوحيد ، وقذى في عين الإيمان ، وناهيك بهما جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلا من المؤمنين : وتركت نصيحته ، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . وهذه خبائث في القلب ، تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتمحوها كما يمحو الليل النهار

وأما كونه ضررا عليك في الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا ، أو تتعذب به ولا تزال في كمد وغم ، إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموما ، محروما ، متشعب القلب ، ضيق الصدر ، قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك ، وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمك نقدا ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب ، لكان مقتضى الفطنة . إن كنت عاقلا ، أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته ، مع عدم النفع . فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ! فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله ، بل مع ضرر يحتمله ، وألم يقاسيه ، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح . لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة ، فلابد أن يدوم إلى أجل معلوم ، قدره الله سبحانه ، فلا حيلة في دفعه . بل كل شيء عنده بمقدار ، ولكل أجل كتاب . ولذلك شكا نبي من الأنبياء ، من امرأة ظالمة مستولية على الخلق ، فأوحى الله إليه فر من قدامها ، حتى تنقضي أيامها . أي ما قدرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره ، فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء

بدوام إقبالها فيها . ومهما لم تزل النعمة بالحسد ، لم يكن على المحسود ضرر فى الدنيا . ولا يكون عليه إثم فى الآخرة . ولعلك تقول ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدى . وهذا غاية الجهل ، فإنه بلاء تشتهيه أولا لنفسك ، فإنك أيضا لا تخلو عن عدو يحسدك ، فلو كانت النعمة تزول بالحسد ، لم يبق لله تعالى عليك نعمة ، ولا على أحد من الخلق ، ولا نعمة الإيمان أيضا ، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان . قال الله تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ[1]) إذ ما يريده الحسود لا يكون . نعم هو يضل بإرادته الضلال لغيره ، فإن إرادة الكفر كفر فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد ، فكأنما يريد أن يسلب نعمة الإيمان بحسد الكفار ، وكذا سائر النعم .

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك ولا تزول عنك بحسد غيرك ، فهذا غاية الجهل والغباوة . فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضا ، يشتهى أن يخص بهذه الخاصية ، ولست بأولى من غيرك ، فنعمة الله تعالى عليك فى أن لم تزل النعمة بالحسد ، مما يجب عليك شكرها ، وأنت بجهلك تكرهها

وأما أن المحسود ينتفع به فى الدين والدنيا ، فواضح . أما منفعته فى الدين ، فهو أنه مظلوم من جهتك ، لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل ، بالغيبة ، والقدح فيه ، وهتك ستره ، وذكر مساويه ، فهذه هدايا تهديها إليه : أعنى أنك بذلك تهدى إليه حسناتك ، حتى تلقاه يوم القيامة مفلسا ، محروما عن النعمة ، كما حرمت فى الدنيا عن النعمة . فكأنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل . نعم كان لله عليه نعمة ، إذ وفقك للحسنات فنقلتها إليه ، فأضفت إليه نعمة إلى نعمة ، وأضفت إلى نفسك شقاوة إلى شقاوة .

وأما منفعته فى الدنيا ، فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء ، وغمهم ، وشقاوتهم ، وكونهم معذبين ، مغمومين ، ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد . وغاية أمانى أعدائك ، أن يكونوا فى نعمة ، وأن تكون فى غم وحسرة بسببهم . وقد فعلت بنفسك

---

(1) البقرة : ١٠٩

ماهو مرادهم . ولذلك لايشتهى عدوك موتك ، بل يشتهى أن تطول حياتك ، ولكن في عذاب الحسد ، لتنظر إلى نعمة الله عليه ، فينقطع قلبك حسداً . ولذلك قيل

لا مات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيك الذى يكمد

لازلت محسودا على نعمة فإنما الكامل من يحسد

ففرح عدوك بغمك وحسدك ، أعظم من فرحه بنعمته . ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه ، لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده . فما أنت فيما تلازمه من غم الحسد ، إلا كما يشتهيه عدوك

فإذا تأملت هذا ، عرفت أنك عدوّ نفسك ، وصديق عدوك ، إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة ، وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة ، وصرت مذموما عند الخالق والخلائق ، شقيا في الحال والمآل ، ونعمة المحسود دائمة ، شئت أم أبيت باقية . .

ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك ، حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على ابليس الذى هو أعدى أعدائك ، لأنه لما رآك محروما من نعمة العلم ، والورع ، والجاه ، والمال ، الذى اختص به عدوك عنك ، خاف أن تحب ذلك له ، فتشاركه في الثواب بسبب المحبة ، لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكا في الخير ، ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدين لم يفته ثواب الحب لهم ، مهما أحب ذلك . فخاف ابليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه ، فتفوز بثواب الحب ، فبغضه إليك ، حتى لا تلحقه بحبك ، كما لم تلحقه بعملك . وقد قال أعرابى للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله [1] الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقام أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب ، فقال [2] يارسول الله ، متى الساعة ؟ فقال « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ » قال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله فقال صلى الله عليه وسلم « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس ، فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ . إشارة إلى أن أكبر بغيتهم كانت حب الله ورسوله . قال أنس ، فنحن نحب رسول الله ، وأبا بكر ، وعمر ، ولا نعمل مثل عملهم ، ونرجو أن نكون معهم

(١) حديث الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم فقال هو مع من أحب: متفق عليه من حديث ابن مسعود

(٢) حديث سؤال الاعرابى متى الساعة فقال ما أعددت لها ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس

وقال أبو موسى :[1] قلت يارسول الله ، الرجل يحب المصلين ولا يصلى ، ويحب الصوام ولا يصوم حتى عد أشياء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « هُوَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » وقال رجل لعمر بن عبد العزيز ، إنه كان يقال إن استطعت أن تكون عالما فكن عالما فإن لم تستطع أن تكون عالماً فكن متعلما ، فإن لم تستطع أن تكون متعلما فأحبهم فإن لم تستطع فلا تبغضهم . فقال سبحان الله ، لقد جعل الله لنا مخرجا

فانظر الآن كيف حسدك إبليس ، ففوت عليك ثواب الحب ، ثم لم يقنع به حتى بغض إليك أخاك ، وحملك على الكراهة ، حتى أثمت . وكيف لا ، وعساك تحاسد رجلا من أهل العلم ، وتحب أن يخطىء في دين الله تعالى ، وينكشف خطؤه ليفتضح ، وتحب أن يخرس لسانه حتى لا يتكلم ، أو يمرض حتى لا يعلم ولا يتعلم ، وأى إثم يزيد على ذلك ! فليتك إذفاتك اللحاق به ، ثم اغتممت بسببه ، سلمت من الإثم وعذاب الآخرة وقد جاء في الحديث[2] « أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاثَةٌ الْمُحْسِنُ وَالْمُحِبُّ لَهُ وَالْكَافُّ عَنْهُ » أى من يكف عنه الأذى ، والحسد ، والبغض ، والكراهة . فانظر كيف أبعدك إبليس عن جميع المداخل الثلاثة ، حتى لا تكون من أهل واحد منها ألبتة ، فقد نفذ فيك حسد إبليس وما نفذ حسدك في عدوك ، بل على نفسك :

بل لو كوشفت بحالك في يقظة أو منام لرأيت نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمى سهما إلى عدوه ليصيب مقتله ، فلا يصيبه ، بل يرجع إلى حدقته اليمنى ، فيقلعها ، فيزيد غضبه ، فيعود ثانية ، فيرمى أشد من الأولى ، فيرجع إلى عينه الأخرى ، فيعميها ، فيزداد غيظه ، فيعود ثالثة ، فيعود على رأسه فيشجه ، وعدوه سالم في كل حال ، وهو إليه راجع مرة بعد أخرى ، وأعداؤه حوله يفرحون به ، ويضحكون عليه . وهذا حال الحسود ؛ وسخرية الشيطان منه

---

(١) حديث أبي موسى قلت يارسول الله الرجل يحب المصلين ولا يصلى ـ الحديث : وفيه هو مع من أحب متفق عليه من حديث بلفظ آخر مختصرا الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم قال المرء مع من أحب

(٢) حديث أهل الجنة ثلاثة المحسن والمحب له والكاف عنه : لم أجد له أصلا

بل حالك فى الحسد أقبح من هذا ، لأن الرمية العائدة لم تفوت إلا العينين ، ولو بقيتا لفاتتا بالموت لا محالة ، والحسد يعود بالإثم ، والإثم لا يفوت بالموت، ولعله يسوقه إلى غضب الله، وإلى النار . فلأن تذهب عينه فى الدنيا، خير له من أن تبقى له عين يدخل بها النار، فيقلعها لهيب النار

فانظر كيف انتقم الله من الحاسد ، إذ أراد زوال النعمة عن المحسود ، فلم يزلها عنه ، ثم أزالها عن الحاسد ، إذ السلامة من الإثم نعمة ، والسلامة من الغم والكمد نعمة ، وقد زالتا عنه ، تصديقا لقوله تعالى (وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ[1]) وربما يبتلى بعين مايشتهيه لعدوه ، وقلما يشمت شامت بمساءة إلا ويبتلى بمثلها ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها ، ماتمنيت لعثمان شيئا إلا نزل بى ، حتى لو تمنيت له القتل لقتلت

فهذا إثم الحسد نفسه ، فكيف مايجر إليه الحسد من الاختلاف، وجحود الحق ، وإطلاق اللسان واليد بالفواحش فى التشفى من الأعداء ، وهو الداء الذى فيه هلك الأمم السالفة

فهذه هى الأدوية العلمية ، فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف ، وقلب حاضر ، انطفأت نار الحسد من قلبه ، وعلم أنه مهلك نفسه ، ومفرح عدوه ، ومسخط ربه ، ومنغص عيشه

وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يحكم الحسد ، فكل مايتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغى أن يكلف نفسه نقيضه . فإن بعثه الحسد على القدح فى محسوده ، كلف لسانه المدح له ، والثناء عليه . وإن حمله على التكبر عليه ، ألزم نفسه التواضع له ، والاعتذار إليه . وإن بعثه على كف الإنعام عليه ، ألزم نفسه الزيادة فى الإنعام عليه . فمهما فعل ذلك عن تكلف ، وعرفه المحسود ، طاب قلبه وأحبه . ومهما ظهر حبه ، عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التى تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع ، والثناء ، والمدح ، وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه . ويسترقه ، ويستعطفه ، ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان . ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول ، فيطيب قلبه ، ويصير ماتكلفه أولا طبعا آخرا . ولا يصدنه عن ذلك قول الشيطان له، لو تواضعت وأثنيت عليه ، حملك العدو على العجز ، أو على النفاق أو الخوف ، وأن ذلك مذلة ومهانة . وذلك من خدع الشيطان ومكايده . بل المجاملة تكلفا كانت أو طبعا ، تكسر سورة العداوة من الجانبين ، وتقل مرغوبها ، وتعود القلوب

[1] فاطر : ٤٣

التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد ، وغم التباغض

فهذه هي أدوية الحسد ، وهي نافعة جدا ، إلا أنها مُرة على القلوب جدا. ولكن النفع في الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء ، لم ينل حلاوة الشفاء . وإنما تهون مرارة هذا الدواء ، أعني التواضع للأعداء ، والتقرب إليهم بالمدح والثناء ، بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها ، وقوة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى ، وحب ما أحبه ، وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل . وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد . وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين ، إما بأن يكون ما تريد ، أو بأن تريد ما يكون . والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل هذا هو الدواء الكلي .

فأما الدواء المفصل ، فهو تتبع أسباب الحسد ، من الكبر وغيره ، وعزة النفس ، وشدة الحرص على ما لا يغني . وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها إن شاء الله تعالى فإنها مواد هذا المرض ، ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة . فإن لم تقمع المادة لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ، ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده . فإنه ما دام محبا للجاه ، فلا بد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه ، ويغمه ذلك لا محالة . وإنما غايته أن يهون الغم على نفسه ، ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلو عنه رأسا فلا يمكنه ، والله الموفق

بيان

القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالبا . فإذا تيسرت له نعمة ، فلا يمكنك أن لا تكرهها له ، حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له . ولكن إن قوي ذلك فيك ، حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل ، بحيث يعرف ذلك

من ظاهرك بأفعالك الاختيارية ، فأنت حسود عاص بحسدك . وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة ، وليس فى نفسك كراهة لهذه الحالة ، فأنت أيضا حسود عاص . لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل. قال الله تعالى (وَلاَ يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا [١]) وقال عز وجل (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً [٢]) وقال (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ [٣]) . أما الفعل ، فهو غيبة وكذب ، وهو عمل صادر عن الحسد ، وليس هو عين الحسد . بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها ، بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح .

فأما إذا كففت ظاهرك ، وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع ، من حب زوال النعمة ، حتى كأنك تمقت نفسك على ما فى طبعها ، فتكون تلك الكراهة من جهة العقل ، فى مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أديت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك فى أغلب الأحوال أكثر من هذا

فأما تغيير الطبع ، ليستوى عنده المؤذى والمحسن ، ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة ، أو تنصب عليهما من بلية سواء ، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه ، مادام ملتفتا إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقا بحب الله تعالى ، مثل السكران الواله. فقد ينتهى أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة ، وهى عين الرحمة . ويرى الكل عباد الله ، وأفعالهم أفعالا لله ، ويراهم مسخرين . وذلك إن كان ، فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ، ويعود العدو إلى منازعته ، أعنى الشيطان ، فإنه ينازع بالوسوسة . فمهما قابل ذلك بكراهته ، وألزم قلبه هذه الحالة ، فقد أدى ما كلفه .

وقد ذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه ، لما روى عن الحسن ، أنه سئل عن الحسد فقال ، غمه فإنه لا يضرك مالم تبده . وروى عنه موقوفا

---

(١) الحشر : ٩ (٢) النساء : ٨ (٣) آل عمران : ١٢٠

ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثَلَاثَةٌ لَا يَخْلُو مِنْهُنَّ الْمُؤْمِنُ وَلَهُ مِنْهُنَّ مَخْرَجٌ » فمخرجه من الحسد أن لا يبغى .

والأولى أن يحمل هذا على ماذكرناه ، من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل ، فى مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو . وتلك الكراهة تمنعه من البغى والإيذاء ، فإن جميع ماورد من الأخبار فى ذم الحسد ، يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم . ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذا كونه آثما بمجرد حسد القلب من غير فعل هو فى محل الاجتهاد . والاظهر ماذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ، ومن حيث المعنى . إذ يبعد أن يعفى عن العبد فى إرادته إساءة مسلم ، واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة . وقد عرفت من هذا أن لك فى أعدائك ثلاثة أحوال

أحدها : أن تحب مساءتهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك ، وميل قلبك إليه بعقلك ، وتمقت نفسك عليه ، وتود لو كانت لك حيلة فى إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه قطعا ، لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه

الثانى : أن تحب ذلك ، وتظهر الفرح بمساءته ، إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحظور قطعا

الثالث : وهو بين الطرفين ، أن تحسد بالقلب ، من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد فى مقتضاه ، وهذا فى محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلو عن إثم ، بقدر قوة ذلك الحب وضعفه ، والله تعالى أعلم

والحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل

كتاب ذمّ الدنيا

كتاب ذم الدنيا

وهو الكتاب السادس من ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى عرّف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها ، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها ، حتى نظروا فى شواهدها وآياتها ، ووزنوا بحسناتها سيآتها ، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها ، ولا يفى مرجوها بمخوفها ، ولا يسلم طلوعها من كسوفها . ولكنها فى صورة امرأة مليحة ، تستميل الناس بجمالها ، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين فى وصالها . ثم هي فرارة عن طلابها ، شحيحة بإقبالها ، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها . إن أحسنت ساعة ، أساءت سنة . وإن أساءت مرة ، جعلتها سنة . فدوائر إقبالها على التقارب دائرة وتجارة بنيها خاسرة بائرة ، وآفاتها على التوالى لصدور طلابها راشقة ، ومجارى أحوالها بذل طالبيها ناطقة فكل مغرور بها إلى الذل مصيره ، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره . شأنها الهرب من طالبها ، والطلب لهاربها . ومن خدمها فاتته ، ومن أعرض عنها واتته لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات ، ولا ينفك سرورها عن المنغصات سلامتها تعقب السقم ، وشبابها يسوق إلى الهرم ، ونعيمها لا يثمر إلاّ الحسرة والندم . فهى خداعة مكارة طيارة فرارة ، لا تزال تتزين لطلابها ، حتى إذا صاروا من أحبابها ، كشرت لهم عن أنيابها وشوشت عليهم مناظم أسبابها ، وكشفت لهم عن مكنون عجابها ، فأذاقتهم قواتل سمامها ورشقتهم بصوائب سهامها ، بينما أصحابها منها فى سرور وإنعام ، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام ، ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد ، ووارتهم فى أكفانهم تحت الصعيد . إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس ، جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس . تمنى أصحابها سرورا ، وتعدهم غرورا ، حتى يأملون كثيرا ، ويبنون قصورا ، فتصبح قصورهم قبورا ،

وجمعهم بورا ، وسعيهم هباء منثورا ، ودعائهم ثبورا ، هذه صفتها وكان أمر الله قدرا مقدورا
والصلاة على محمد عبده ورسوله ، المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا ، وسراجا منيرا ، وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا . وعلى الظالمين نصيرا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فإن الدنيا عدوة لله ، وعدوة لأولياء الله ، وعدوة لأعداء الله

أما عداوتها لله ، فإنها قطعت الطريق على عباد الله . ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها

وأما عداوتها لأولياء الله عز وجل ، فإنها تزينت لهم بزينتها ، وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها

وأما عداوتها لأعداء الله ، فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها ، فاقتنصتهم بشبكتها ، حتى وثقوا بها ، وعولوا عليها ، فخزلتهم أحوج ما كانوا إليها ، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد ، ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد ، فهم على فراقها يتحسرون ، ومن مكايدها يستغيثون ولا يغاثون ، بل يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَاهُمْ يُنْصَرُونَ[1])

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها ، فلابد أولا من معرفة حقيقة الدنيا ، وما هي ، وما الحكمة في خلقها مع عداوتها ، وما مدخل غرورها وشرورها ، فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه . ونحن نذكر ذم الدنيا ، وأمثلتها وحقيقتها ، وتفصيل معانيها وأصناف الأشغال المتعلقة بها ، ووجه الحاجة إلى أصولها ، وسبب انصراف الخلق عن الله بسبب التشاغل بفضولها إن شاء الله تعالى ، وهو المعين على ما يرتضيه

بيان

ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة وأكثر القرءان مشتمل على ذم الدنيا ، وصرف الخلق عنها ، ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرءان لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها

(١) البقرة : ٨٦

فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] مر على شاة ميتة ، فقال « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الشَّاةَ هَيِّنَةً عَلَى أَهْلِهَا ؟ » قالوا من هوانها ألقوها : قال « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الشَّاةِ عَلَى أَهْلِهَا وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَاسَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ مَا كَانَ للهِ مِنْهَا » وقال أبو موسى الأشعرى [٤] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ »

[٦] وقال زيد بن أرقم ، كنا مع أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فدعا بشراب ، فأتى بماء وعسل . فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، وسكتوا وما سكت . ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته . قال ثم مسح عينيه ، فقالوا ياخليفة رسول الله ماأبكاك ؟ قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ولم أر معه أحدا . فقلت يارسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال « هَذِهِ الدُّنْيَا مُثِّلَتْ لِي فَقُلْتُ

﴿ كتاب ذم الدنيا ﴾

(١) حديث مر على شاة ميتة فقال أترون هذه الشاة هينة على صاحبها ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث سهل بن سعد وآخره عند الترمذى وقال حسن صحيح ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث المستورد بن شداد دون هذه القطعة الأخيرة ولمسلم نحوه من حديث جابر

(٢) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث الدنيا ملعونة ملعون مافيها : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وزاد الاذكر الله وماوالاه وعالم ومتعلم

(٤) حديث أبى موسى الأشعرى من أحب دنياه أضر بآخرته ـ الحديث : أحمد والبزار والطبرانى وابن حبان والحاكم وصححه

(٥) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة : ابن أبى الدنيا فى ذم الدنيا والبيهقى فى شعب الايمان من طريقه من رواية الحسن مرسلا

(٦) حديث زيد بن أرقم كنا مع أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل فلما أدناه من فيه بكى ـ الحديث : وفيه كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئا ـ الحديث : البزار بسند ضعيف بنحوه والحاكم وصحح اسناده وابن أبى الدنيا والبيهقى من طريقه بلفظه

لها إليك عني ثم رجعت فقالت إنك إن أفلت مني لم يفلت مني من بعدك »

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور » وروى [٢] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف على مزبلة ، فقال « هلموا إلى الدنيا » وأخذ خرقا قد بليت على تلك المزبلة ، وعظاما قد نخرت ، فقال « هذه الدنيا » وهذه إشارة إلى أن زينة الدنيا ستخلق مثل تلك الخرق ، وأن الأجسام التي ترى بها ستصير عظاما بالية . وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب »

وقال عيسى عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم عبيدا . اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة وقال عليه أفضل الصلاة والسلام ، يامعشر الحواريين ، إني قد كببت لكم الدنيا على وجهها فلا تنعشوها بعدي . فإن من خبث الدنيا أن عصي الله فيها وإن من خبث الدنيا أن الآخرة لا تدرك إلا بتركها ، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا . وقال أيضا ، بطحت لكم الدنيا ، وجلستم على ظهرها ، فلا ينازعنكم فيها الملوك والنساء . فأما الملوك فلا تنازعوهم الدنيا ، فإنهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم . وأما النساء فاتقوهن بالصوم والصلاة . وقال أيضا ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا ، حتى يستكمل فيها رزقه . وطالب الدنيا تطلبه الآخرة ، حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه

---

(١) حديث ياعجبا كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور : ابن أبي الدنيا من حديث أبي جرير مرسلا

(٢) حديث انه وقف على مزبلة فقال هلموا الى الدنيا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا والبيهقي في شعب الايمان من طريقه من رواية ابن ميمون اللخمي مرسلا وفيه بقية بن الوليد وقد عنعنه وهو مدلس

(٣) حديث ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ـ الحديث : الترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد دون قوله ان بني اسرائيل الخ والشطر الأول متفق عليه ورواه ابن أبي الدنيا من حديث الحسن مرسلا بالزيادة التي في آخره

وقال موسى بن يسار[١]. قال النبي صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا وَأَنَّهُ مُنْذُ خَلَقَهَا لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا » وروى أن سليمان ابن داود عليهما السلام ، مر في موكبه والطير تظله ، والجن والإنس عن يمينه وشماله ، قال فربعابد من بني اسرائيل ، فقال والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكا عظيما ، قال فسمع سليمان وقال ، لتسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطى ابن داود فإن ما أعطى ابن داود يذهب ، والتسبيحة تبقى . وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتَ » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَمَالُ مَنْ لَامَالَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعَقْلَ لَهُ وَعَلَيْهَا يُعَادِي مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَعَلَيْهَا يَحْسُدُ مَنْ لَا فِقْهَ لَهُ وَلَهَا يَسْعَى مَنْ لَا يَقِينَ لَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ وَأَلْزَمَ اللهُ قَلْبَهُ أَرْبَعَ خِصَالٍ هَمًّا لَا يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَبَدًا وَشُغْلًا لَا يَتَفَرَّغُ مِنْهُ أَبَدًا وَفَقْرًا لَا يَبْلُغُ غِنَاهُ أَبَدًا وَأَمَلًا لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ أَبَدًا » وقال أبو هريرة ،[٥] قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَلَا أُرِيكَ الدُّنْيَا جَمِيعَهَا بِمَا فِيهَا ؟ » فقلت بلى يارسول الله . فأخذ بيدي ، وأتى بي واديا من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رءوس أناس ، وعذرات ، وخرق ، وعظام ، ثم قال « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هَذِهِ

---

(١) حديث موسى بن يسار ان الله جل ثناؤه لم يخلق خلقا أبغض اليه من الدنيا وانه منذ خلقها لم ينظر اليها ابن أبي الدنيا من هذا الوجه بلاغا والبيهقي في الشعب من طريقه وهو مرسل

(٢) حديث ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي ـ الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن الشخير

(٣) حديث الدنيا دار من لادار له ـ الحديث : أحمد من حديث عائشة مقتصرا على هذا وعلى قوله ولها يجمع من لاعقل له دون بقيته وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه ومال من لامال له واسناده جيد

(٤) حديث من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء وألزم الله قلبه أربع خصال ـ الحديث : الطبراني في الأوسط من حديث أبي ذر دون قوله وألزم الله قلبه الخ وكذلك رواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس باسناد ضعيف والحاكم من حديث حذيفة وروى هذه الزيادة منفردة صاحب الفردوس من حديث ابن عمر وكلاهما ضعيف

(٥) حديث أبي هريرة ألا أريك الدنيا جميعا بما فيها قلت بلى يارسول الله فأخذ بيدي وأتى بي واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة ـ الحديث : لم أجد له أصلا

الرُّءُوسُ كَانَتْ تَحْرِصُ كَحِرْصِكُمْ وَتَأْمُلُ كَأَمَلِكُمْ ثُمَّ هِيَ الْيَوْمَ عِظَامٌ بِلاَ جِلْدٍ ثُمَّ هِيَ صَائِرَةٌ رَمَادًا وَهَذِهِ الْعَذِرَاتُ هِيَ أَلْوَانُ أَطْعِمَتِهِمُ اكْتَسَبُوهَا مِنْ حَيْثُ اكْتَسَبُوهَا ثُمَّ قَذَفُوهَا فِي بُطُونِهِمْ فَأَصْبَحَتْ وَالنَّاسُ يَتَحَامُونَهَا وَهَذِهِ الْخِرَقُ الْبَالِيَةُ كَانَتْ رِيَاشَهُمْ وَلِبَاسَهُمْ فَأَصْبَحَتْ وَالرِّيَاحُ تُصَفِّقُهَا وَهَذِهِ الْعِظَامُ عِظَامُ دَوَابِّهِمُ الَّتِي كَانُوا يَنْتَجِعُونَ عَلَيْهَا أَطْرَافَ الْبِلاَدِ فَمَنْ كَانَ بَاكِيًا عَلَى الدُّنْيَا فَلْيَبْكِ » قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا

ويروى أن الله عزوجل ، لما أهبط آدم إلى الأرض ، قال له ابن للخراب ، ولد للفناء وقال داود بن هلال ، مكتوب فى صحف إبراهيم عليه السلام ، يادنياماأهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إنى قذفت فى قلوبهم بغضك والصدود عنك ، وما خلقت خلقا أهون علىّ منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير ، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومى لأحد ، ولا يدوم لك أحد ، وإن بخل بك صاحبك وشح عليك. طوبى للأبرار الذين أطلعونى من قلوبهم على الرضا ، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة . طوبى لهم ، مالهم عندى من الجزاء إذا وفدوا إلىّ من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم ، والملائكة حافون بهم ، حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] «الدُّنْيَا مَوْقُوفَةٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مُنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهَا وَتَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَارَبِّ اجْعَلْنِي لِأَدْنَى أَوْلِيَائِكَ الْيَوْمَ نَصِيبًا فَيَقُولُ اسْكُتِي يَالاَ شَيْءُ إِنِّي لَمْ أَرْضَكِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا أَأَرْضَاكِ لَهُمُ الْيَوْمَ » . وروى فى أخبار آدم عليه السلام ، أنه لما أكل من الشجرة ، تحركت معدته لخروج السفل ، ولم يكن ذلك مجعولا فى شيء من أطعمة الجنة إلا فى هذه الشجرة . فلذلك نهى عن أكلها . قال فجعل يدور فى الجنة ، فأمر الله تعالى ملكا يخاطبه ، فقال له قل له أى شيء تريد ؟ قال آدم ، أريد أن أضع ما فى بطنى من الأذى فقيل للملك قل له فى أى مكان تريد أن تضعه ؟ على الفرش ؟ أم على السرر ؟ أم على الأنهار أم تحت ظلال الأشجار ؟ هل ترى ههنا مكانا يصلح لذلك ؟ اهبط إلى الدنيا

---

(١) حديث الدنيا موقوفة بين السماء والأرض منذ خلقها الله لا ينظر إليها ـ الحديث : تقدم بعضه من رواية موسى بن يسار مرسلا ولم أجد باقيه

وقال صلى الله عليه وسلم (١) « لَيَجِيئَنَّ أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْمَالُهُمْ كَجِبَالِ تِهَامَةَ فَيُؤْمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ » قالوا يارسول الله ، مصلين ؟ قال « نَعَمْ كَانُوا يُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ وَيَأْخُذُونَ هَنَةً مِنَ اللَّيْلِ فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا وَثَبُوا عَلَيْهِ »

وقال صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه (٢) « الْمُؤْمِنُ بَيْنَ مَخَافَتَيْنِ بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَى لَا يَدْرِى مَا اللهُ صَانِعٌ فِيهِ وَبَيْنَ أَجَلٍ قَدْ بَقِيَ لَا يَدْرِى مَا اللهُ قَاضٍ فِيهِ فَلْيَتَزَوَّدِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ وَمِنْ حَيَاتِهِ لِمَوْتِهِ وَمِنْ شَبَابِهِ لِهَرَمِهِ فَإِنَّ الدُّنْيَا خُلِقَتْ لَكُمْ وَأَنْتُمْ خُلِقْتُمْ لِلْآخِرَةِ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ إِلَّا الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ » .

وقال عيسى عليه السلام ، لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى إناء واحد . وروى أن جبريل عليه السلام ، قال لنوح عليه السلام ، ياأطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . وقيل لعيسى عليه السلام ، لو اتخذت بيتا يسكنك ، قال يكفينا خلقان من كان قبلنا

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٣) « احْذَرُوا الدُّنْيَا فَإِنَّهَا أَسْحَرُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ »

وعن الحسن قال (٤) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فقال « هَلْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُذْهِبَ اللهُ عَنْهُ الْعَمَى وَيَجْعَلَهُ بَصِيراً أَلَا إِنَّهُ مَنْ رَغِبَ فِى الدُّنْيَا وَطَالَ أَمَلُهُ فِيهَا أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ وَمَنْ زَهِدَ فِى الدُّنْيَا وَقَصَّرَ فِيهَا أَمَلَهُ أَعْطَاهُ اللهُ عِلْمًا بِغَيْرِ تَعَلُّمٍ وَهُدًى بِغَيْرِ هِدَايَةٍ أَلَا إِنَّهُ سَيَكُونُ بَعْدَكُمْ قَوْمٌ لَا يَسْتَقِيمُ لَهُمْ

---

(١) حديث ليجيئن أقوام يوم القيامة وأعمالهم كجبال تهامة فيؤمر بهم الى النار ـ الحديث : أبو نعيم فى الحلية من حديث سالم مولى أبى حذيفة بسند ضعيف وأبو منصور الديلمى من حديث أنس وهو ضعيف أيضا

(٢) حديث المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى ـ الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفيه انقطاع

(٣) حديث احذروا الدنيا فانها أسحر من هاروت وماروت : ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه من رواية أبى الدرداء الرهاوى مرسلا وقال البيهقى ان بعضهم قال عن أبى الدرداء عن رجل من الصحابة قال الذهبى لايدرى من أبو الدرداء قال وهذا منكر لا أصل له

(٤) حديث الحسن هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ـ الحديث : ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه هكذا مرسلا وفيه ابراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم

الْمُلْكُ إِلاَّ بِالْقَتْلِ وَالتَّجَبُّرِ وَلاَ الْغِنَى إِلاَّ بِالْفَخْرِ وَالْبُخْلِ وَلاَ الْمَحَبَّةُ إِلاَّ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى أَلاَ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ مِنْكُمْ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى وَصَبَرَ عَلَى الْبَغْضَاءِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ لاَ يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلاَّ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى أَعْطَاهُ اللهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صِدِّيقاً » . وروى أن عيسى عليه السلام ، اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما ، فجعل يطلب شيئا يلجأ إليه ، فوقعت عينه على خيمة من بعيد، فأتاها فإذا فيها امرأة ، فحاد عنها ، فإذا هو بكهف فى جبل ، فأتاه ، فإذا فيه أسد . فوضع يده عليه وقال ، إلهى جعلت لكل شيء مأوى ، ولم تجعل لى مأوى . فأوحى الله تعالى إليه ، مأواك فى مستقر رحمتى ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدى ، ولأطعمن فى عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن مناديا ينادى أين الزهاد فى الدنيا زوروا عرس الزاهد فى الدنيا عيسى بن مريم . وقال عيسى بن مريم عليه السلام ، ويل لصاحب الدنيا ، كيف يموت ويتركها وما فيها ، وتغره ويأمنها ، ويثق بها وتخذله . وويل للمغترين ، كيف أرتهم ما يكرهون ، وفارقهم ما يحبون ، وجاءهم ما يوعدون . وويل لمن الدنيا همه ، والخطايا عمله ، كيف يفتضح غدا بذنبه . وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، ياموسى ، مالك ولدار الظالمين ؛ إنها ليست لك بدار ، أخرج منها همك ، وفارقها بعقلك ، فبئست الدار هى ، إلا لعامل يعمل فيها ، فنعمت الدار هى . ياموسى ، إنى مرصد للظالم حتى آخذ منه للمظلوم

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] ، بعث أبا عبيدة بن الجراح ، فجاءه بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة ، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، ثم قال « أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ؟ » قالوا أجل يارسول الله . قال « فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَاللهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا

---

(١) حديث بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبى عبيدة : متفق عليه من حديث عمرو بن عوف البدرى

كَمَا تَنَافَسُوهَا فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » وقال أبو سعيد الخدرى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ أَكْثَرَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ بَرَكَاتِ الْأَرْضِ » فقيل ما بركات الأرض ؟ قال « زَهْرَةُ الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لَا تُشْغِلُوا قُلُوبَكُمْ بِذِكْرِ الدُّنْيَا » فنهى عن ذكرها ، فضلا عن إصابة عينها

وقال عمار بن سعيد : مر عيسى عليه السلام بقرية ، فإذا أهلها موتى فى الأفنية والطرق فقال يامعشر الحواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا . فقالوا ياروح الله ، وددنا أن لو علمنا خبرهم . فسأل الله تعالى ، فأوحى إليه ، إذا كان الليل فنادهم يجيبوك . فلما كان الليل ، أشرف على نشز ، ثم نادى ياأهل القرية ، فأجابه مجيب لبيك ياروح الله . فقال ما حالكم وما قصتكم ؟ قال بتنا فى عافية ، وأصبحنا فى الهاوية . قال وكيف ذاك ؟ قال بحبنا الدنيا ، وطاعتنا أهل المعاصى . قال وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال حب الصبى لأمه إذا أقبلت فرحنا بها ، وإذا أدبرت حزنا وبكينا عليها . قال فما بال أصحابك لم يجيبونى ؟ قال لأنهم ملجمون بلجم من نار ، بأيدى ملائكة غلاظ شداد . قال فكيف أجبتنى أنت من بينهم ؟ قال لأنى كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابنى معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدرى أنجو منها أم أكبكب فيها . فقال المسيح للحواريين ، لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ، ولبس المسوح ، والنوم على المزابل ، كثير مع عافية الدنيا والآخرة

وقال أنس [٣] : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق . فجاء أعرابى بناقة له فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ » وقال عيسى عليه السلام ، من الذي يبنى على موج البحر دارا تلكم الدنيا فلا تتخذوها قرارا . وقيل لعيسى عليه السلام علمنا علما واحدا يحبنا الله عليه . قال ابغضوا الدنيا يحببكم الله تعالى .

---

(١) حديث أبى سعيد انّ أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الارض ـ الحديث : متفق عليه

(٢) حديث لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا : البيهقى فى الشعب من طريق ابن أبى الدنيا من رواية محمد ابن النضر الحارثى مرسلا

(٣) حديث أنس كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء لا تسبق ـ الحديث : وفيه حق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا الا وضعه البخارى

وقال أبو الدرداء (١) ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَهَانَتْ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا وَلَآثَرْتُمُ الآخِرَةَ » ثم قال أبو الدرداء من قبل نفسه ، لو تعلمون ما أعلم ، لخرجتم إلى الصعدات تجأرون وتبكون على أنفسكم ، ولتركتم أموالكم لا حارس لها ، ولا راجع إليها إلا ما لابد لكم منه ، ولكن يغيب عن قلوبكم ذكر الآخرة ، وحضرها الأمل ، فصارت الدنيا أملك بأعمالكم ، وصرتم كالذين لا يعلمون فبعضكم شر من البهائم التي لا تدع هواها مخافة مما في عاقبته . مالكم لا تحابون ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله ، ما فرق بين أهوائكم إلا خبث سرائركم ، ولو اجتمعتم على البر لتحاببتم . مالكم تناصحون في أمر الدنيا ولا تناصحون في أمر الآخرة ، ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبه ويعينه على أمر آخرته . ماهذا إلا من قلة الإيمان في قلوبكم . لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرها كما توقنون بالدنيا ، لآثرتم طلب الآخرة ، لأنها أملك لأموركم . فإن قلتم حب العاجلة غالب ، فإنا نراكم تدعون العاجلة من الدنيا للآجل منها ، تكدون أنفسكم بالمشقة والاحتراف ، في طلب أمر لعلكم لا تدركونه ، فبئس القوم أنتم ، ما حققتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم . فإن كنتم في شك مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتونا لنبين لكم ، ولنريكم من النور ما تطمئن إليه قلوبكم . والله ما أنتم بالمنقوصة عقولكم فنعذركم . إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم ، وتأخذون بالحزم في أموركم . مالكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه ، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم ، حتى يتبين ذلك في وجوهكم ويظهر على ألسنتكم ، وتسمونها المصائب ، وتقيمون فيها المآتم ، وعامتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ، ثم لا يتبين ذلك في وجوهكم ، ولا يتغير حالكم . إني لأرى الله قد تبرأ منكم يلقى بعضكم بعضا بالسرور ، وكلكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره ، مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله . فاصطحبتم على الغل ، ونبتت مراعيكم على الدمن ، وتصافيتم على رفض الأجل

---

(١) حديث أبي الدرداء لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة الطبراني دون قوله ولهانت الخ وزاد ولخرجتم الى الصعدات ـ الحديث : وزاد الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر وما تلذذتم بالنساء على الفرش وأول الحديث متفق عليه من حديث أنس وفي أفراد البخاري من حديث عائشة

ولوددت أن الله تعالى أراحني منكم ، وألحقني بمن أحب رؤيته ، ولو كان حيا لم يصابركم . فإن كان فيكم خير فقد أسمعتكم ، وإن تطلبوا ماعند الله تجدوه يسيرا ، وبالله أستعين على نفسي وعليكم . وقال عيسى عليه السلام ، يامعشر الحواريين ، ارضوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضى أهل الدنيا بدنىء الدين مع سلامة الدنيا . وفى معناه قيل

أرى رجالا بأدنى الدين قد قنعوا وما أراهم رضوا فى العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام ، ياطالب الدنيا لتبر ، تركك الدنيا أبر . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم [1] « لَتَأْتِيَنَّكُمْ بَعْدِي دُنْيَا تَأْكُلُ إِيمَانَكُمْ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، ياموسى لاتركنن إلى حب الدنيا : فلن تأتيني بكبيرة هي أشد منها . ومر موسى عليه السلام برجل وهو يبكى ، ورجع وهو يبكى . فقال موسى ، يارب عبدك يبكى من مخافتك . فقال ياابن عمران ، لو سال دماغه مع دموع عينيه ، ورفع يديه حتى يسقطا ، لم أغفر له وهو يحب الدنيا

الآثار : قال على رضى الله عنه ، مَنْ جمع فيه ست خصال ، لم يدع للجنة مطلبا ، ولا عن النار مهربا . أولها من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواما كانت الدنيا عندهم وديعة ، فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافا . وقال أيضا رحمه الله ، من نافسك فى دينك فنافسه ، ومن نافسك فى دنياك فألقها فى نحره

وقال لقمان عليه السلام لابنه ، يابنى ، إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها الإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل ، لعلك تنجو وما أراك ناجيا . وقال الفضيل ، طالت فكرتى فى هذه الآية (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا [2]) وقال بعض الحكماء ، إنك لن تصبح فى شىء من الدنيا ، إلا وقد كان

---

(١) حديث لتأتينكم بعدى دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب لم أجد له أصلا

(٢) الكهف : ٧ ، ٨

له أهل قبلك ، وسيكون له أهل بعدك وليس لك من الدنيا ، إلا عشاء ليلة وغداء يوم ، فلا تهلك فى أكله ، وصم عن الدنيا ، وأفطر على الآخرة وإن رأس مال الدنيا الهوى ، وربحها النار . وقيل لبعض الرهبان ، كيف ترى الدهر ؟ قال يخلق الأبدان،ويجدد الآمال ويقرب المنية،ويبعد الأمنية.قيل فما حال أهله؟قال من ظفر به تعب،ومن فاته نصب.وفى ذلك قيل

ومن يحمد الدنيا لعيش يسره فسوف لعمرى عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

وقال بعض الحكماء : كانت الدنيا ولم أكن فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، فلا أسكن إليها ، فإن عيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأهلها منها على وجل ، إما بنعمة زائلة أو بلية نازلة ، أو منية قاضية . وقال بعضهم : من عيب الدنيا أنها لا تعطى أحدا ما يستحق لكنها إما أن تزيد وإما أن تنقص . وقال سفيان : أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها ، قد وضعت فى غير أهلها . وقال أبو سليمان الدارانى : من طلب الدنيا على المحبة لها ، لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر . ومن طلب الآخرة على المحبة لها ، لم يعط منها شيئا إلا أراد أكثر . وليس لهذا غاية . وقال رجل لأبى حازم ، أشكو إليك حب الدنيا ، وليست لى بدار . فقال انظر ما آتاكه الله عز وجل منها ، فلا تأخذه إلا من حله ، ولا تضعه إلا فى حقه ، ولا يضرك حب الدنيا . وإنما قال هذا ، لأنه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه ، حتى يتبرم بالدنيا ، ويطلب الخروج منها . وقال يحي بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئا ، فيجيء فى طلبه فيأخذك . وقال الفضيل . لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى ، لكان ينبغى لنا أن نختار خزفا يبقى ، على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفا يفنى ، على ذهب يبقى ! وقال أبو حازم ، إياكم والدنيا ، فإنه بلغنى أنه يوقف العبد يوم القيامة ، إذا كان معظما للدنيا ، فيقال هذا عظم ما حقره الله. وقال ابن مسعود ، ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف ، وماله عارية. فالضيف مرتحل ، والعارية مردودة، وفى ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

وزار رابعة أصحابها ، فذكروا الدنيا ، فأقبلوا على ذمها ، فقالت اسكتوا عن ذكرها ، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ، ألا من أحب شيئا أكثر من ذكره .

وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت ؟ فقال :

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبد آثر الله ربه ... وجاد بدنياه لما يتوقع

وقيل أيضا فى ذلك

أرى طالب الدنيا وإن طال عمره ... ونال من الدنيا سرورا وأنعما

كبان بنى بنيانه فأقامه ... فلما استوى ماقد بناه تهدما

وقيل أيضا فى ذلك

هب الدنيا تساق إليك عفوا ... أليس مصير ذاك إلى انتقال

وما دنياك إلا مثل فىء ... أظلك ثم آذن بالزوال

وقال لقمان لابنه ، يابنى ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا · ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعا . وقال مطرف بن الشخير ، لاتنظر إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ولكن انظر إلى سرعة ظعنهم وسوء منقلبهم . وقال ابن عباس ، إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم ، الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئا فليصبر على معاشرة الكلاب . وفى ذلك قيل

ياخاطب الدنيا إلى نفسها ... تنح عن خطبتها تسلم

إن التى تخطب غدارة ... قريبة العرس من المأتم

وقال أبو الدرداء ، من هوان الدنيا على الله أنه لايعصى إلا فيها ، ولا ينال ماعنده إلا بتركها . وفى ذلك قيل

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو فى ثياب صديق

وقيل أيضا

ياراقد الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

أفنى القرون التى كانت منعمة ... كر الجديدين إقبالا وإدبارا

كم قد أبادت صروف الدهر من ملك ... قد كان فى الدهر نفاعا وضرارا

يامن يعانق دنيا لابقاء لها ... يمسى ويصبح فى دنياه سفارا

هلا تركت من الدنيا معانقة حتى تعانق فى الفردوس أبكارا
إن كنت تبغى جنان الخلد تسكنها فينبغى لك أن لا تأمن النارا

وقال أبو أمامة الباهلى رضى الله عنه ، لما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، أتت إبليس جنوده فقالوا ، قد بعث نبى وأخرجت أمة . قال يحبون الدنيا ؟ قالوا نعم . قال لئن كانوا يحبون الدنيا ما أبالى أن لا يعبدوا الأوثان : وإنما أغدو عليهم وأروح بثلاث ، أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه فى غير حقه ، وإمساكه عن حقه . والشر كله من هذا نبع . وقال رجل لعلى كرم الله وجهه : ياأمير المؤمنين ، صف لنا الدنيا . قال وما أصف لك من دار من صح فيها سقم ، ومن أمن فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن ، فى حلالها الحساب : وفى حرامها العقاب ، ومتشابهها العتاب . وقيل له ذلك مرة أخرى فقال ، أطول أم أقصر ؟ فقيل قصر ، فقال حلالها حساب ، وحرامها عذاب

وقال مالك بن دينار ، اتقوا السحارة ، فإنها تسحر قلوب العلماء ، يعنى الدنيا . وقال أبو سليمان الدارانى ، إذا كانت الآخرة فى القلب ، جاءت الدنيا تزاحمها . فإذا كانت الدنيا فى القلب ، لم تزاحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة ، وهذا تشديد عظيم

ونرجو أن يكون ماذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال ، الدنيا والآخرة يجتمعان فى القلب ، فأيهما غلب كان الآخر تبعا له . وقال مالك بن دينار ، بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مما قاله على كرم الله وجهه ، حيث قال ، الدنيا والآخرة ضرتان ، فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن ، والله لقد أدركت أقواما كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذى تمشون عليه ، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا . وقال رجل للحسن ، ما تقول فى رجل آتاه الله مالا ، فهو يتصدق منه ، ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيش فيه ، يعنى يتنعم . فقال لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدم ذلك ليوم فقره .

وقال الفضيل ، لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علىّ حلالا ، لا أحاسب عليها فى الآخرة لكنت أتقذرها ، كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه . وقيل ، لما قدم عمر رضى الله عنه الشام : فاستقبله أبو عبيدة بن الجراح على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم وسأله

ثم أتى منزله فلم يرفيه إلا سيفه وترسه ورحله ، فقال له عمر رضي الله عنه ، لو اتخذت متاعا فقال ياأمير المؤمنين ، إن هذا يبلغنا المقيل . وقال سفيان ، خذ من الدنيا لبدنك ،وخذمن الآخرة لقلبك ،وقال الحسن ،والله لقدعبدت بنو إسرائيل الأصنام بعدعبادتهم الرحمن بحبهم للدنيا

وقال وهب . قرأت فى بعض الكتب ، الدنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الجهال ، لم يعرفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا . وقال لقمان لابنه ، يابنى ، إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها ، واستقبلت الآخرة فأنت إلى دار تقرب منها ، أقرب من دار تباعد عنها . وقال سعيد بن مسعود ، إذا رأيت العبد تزداد دنياه ، وتنقص آخرته وهو به راض ، فذلك المغبون ، الذى يلعب بوجهه وهو لايشعر

وقال عمرو بن العاص على المنبر ، [1] والله مارأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم . والله مامر برسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث إلا والذى عليه أكثر من الذى له . وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا[1]) من قال ذا ؟ قاله من خلقها ، ومن هو أعلم بها . إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الأشغال ، لايفتح رجل على نفسه باب شغل ، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب . وقال أيضا ، مسكين ابن آدم ، رضى بدار حلالها حساب ، وحرامها عذاب ، إن أخذه من حله حوسب به ، وإن أخذه من حرام عذب به . ابن آدم يستقل ماله ،ولا يستقل عمله . يفرح بمصيبته فى دينه ، ويجزع من مصيبته فى دنياه .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز ،سلام عليك، أمابعد . فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات . فأجابه عمر ، سلام عليك ، كأنك بالدنيا ولم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل . وقال الفضيل بن عياض ، الدخول فى الدنيا هين ، ولكن الخروج منها شديد . وقال بعضهم ، عجبا لمن يعرف أن الموت حق ، كيف يفرح ! وعجبا لمن يعرف أن النار حق كيف يضحك ! وعجبا لمن رأى تقلب الدنيا بأهلها ، كيف يطمئن إليها ! وعجبا لمن يعلم

---

(١) حديث عمرو بن العاص والله مارأيت قوما قط أرغب فيما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيه منكم ـ الحديث : الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

---

(١) لقمان : ٣٣

أن القدر حق ، كيف ينصب ! وقدم على معاوية رضي الله عنه رجل من نجران ، عمره مائتاسنة . فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال سنيات بلاء ، وسنيات رخاء . يوم فيوم وليلة فليلة يولد ولد ، ويهلك هالك . فلولا المولود لباد الخلق ، ولولا الهالك ضاقت الدنيا بمن فيها . فقال له سل ماشئت . قال: عمر مضى فترده، أو أجل حضر فتدفعه . قال لا أملك ذلك . قال لا حاجة لي إليك

وقال داود الطائي رحمه الله : يا ابن آدم ، فرحت ببلوغ أملك ، وإنما بلغته بانقضاء أجلك . ثم سوفت بعملك ، كأن منفعته لغيرك . وقال بشر ، من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه . وقال أبو حازم ، ما في الدنيا شيء يسرك ، إلا وقد ألصق الله إليه شيئا يسوءك . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث ، أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه . وقيل لبعض العباد ، قد نلت الغنى . فقال إنما نال الغنى من عتق من رق الدنيا .

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا ، إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة وقال مالك بن دينار ، اصطلحنا على حب الدنيا ، فلا يأمر بعضنا بعضا ، ولا ينهى بعضنا بعضا ، ولا يدعنا الله على هذا ، فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا . وقال أبو حازم ، يسير الدنيا يشغل عن كثير الآخرة . وقال الحسن ، أهينوا الدنيا ، فوالله ماهي لأحد بأهنأ منها لمن أهانها . وقال أيضا ، إذا أراد الله بعبد خيرا ، أعطاه من الدنيا عطية، ثم يمسك فإذا نفد أعاد عليه . وإذا هان عليه عبد ، بسط له الدنيا بسطا . وكان بعضهم يقول في دعائه يا ممسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنك ، أمسك الدنيا عني ، وقال محمد بن المنكدر ، أرأيت لو أن رجلا صام الدهر لا يفطر ، وقام الليل لا ينام ، وتصدق بماله ، وجاهد في سبيل الله ، واجتنب محارم الله ، غير أنه يؤتى به يوم القيامة ، فيقال إن هذا عظم في عينه ما صغره الله ، وصغر في عينه ما عظمه الله ، كيف ترى يكون حاله ؟ فمن منا ليس هكذا ؟ الدنيا عظيمة عنده ، مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا

وقال أبو حازم ، اشتدت مؤنة الدنيا والآخرة ، فأما مؤنة الآخرة فإنك لا تجد عليها أعوانا ، وأما مؤنة الدنيا ، فإنك لا تضرب بيدك إلى شيء منها ، إلا وجدت فاجرا قد سبقك إليه ،

وقال أبو هريرة، الدنيا موقوفة بين السماء والأرض، كالشن البالي، تنادي ربها منذ خلقها إلى يوم يفنيها، يارب، يارب، لم تبغضني ؟ فيقول لها اسكتي يالاشيء. وقال عبد الله بن المبارك حب الدنيا، والذنوب في القلب قد احتوشته ؟ فمتى يصل الخير إليه ؟ وقال وهب بن منبه من فرح قلبه بشيء من الدنيا، فقد أخطأ الحكمة. ومن جعل شهوته تحت قدميه، فرق الشيطان من ظله. ومن غلب علمه هواه، فهو الغالب. وقيل لبشر، مات فلان. فقال جمع الدنيا وذهب إلى الآخرة ضيع نفسه. قيل له إنه كان يفعل ويفعل، وذكروا أبوابا من البر، فقال وما ينفع هذا وهو يجمع الدنيا ؟

وقال بعضهم، الدنيا تبغض إلينا نفسها، ونحن نحبها. فكيف لو تحببت إلينا. وقيل لحكيم، الدنيا لمن هي ؟ قال لمن تركها. فقيل الآخرة لمن هي ؟ قال لمن طلبها. وقال حكيم، الدنيا دار خراب، وأخرب منها قلب من يعمرها. والجنة دار عمران، وأعمر منها قلب من يطلبها. وقال الجنيد، كان الشافعي، رحمه الله، من المريدين الناطقين بلسان الحق في الدنيا، وعظ أخاله في الله، وخوفه بالله، فقال يا أخي، إن الدنيا دحض مزلة، ودار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر. شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارض برزق الله لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك، فإن عيشك فيء زائل، وجدار مائل. أكثر من عملك، وأقصر من أملك

وقال ابراهيم بن أدهم لرجل : أدرهم في المنام أحب إليك أم دينار في اليقظة ؟ فقال دينار في اليقظة. فقال كذبت، لأن الذي تحبه في الدنيا، كأنك تحبه في المنام. والذي لا تحبه في الآخرة، كأنك لا تحبه في اليقظة. وعن اسماعيل بن عياش قال : كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون إليك عنا ياخنزيرة. فلو وجدوا لها إسما أقبح من هذا لسموها به. وقال كعب، لتحببن إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلها. وقال يحيي بن معاذ الرازي، رحمه الله العقلاء ثلاثة، من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبنى قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه. وقال أيضا، الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لما يلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها. وقال بكر بن عبد الله، من أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا، كان كمطفئ النار بالتبن. وقال بندار، إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلمون في الزهد، فاعلم أنهم في سخرة الشيطان

وقال أيضا من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها ، يعني الحرص ، حتى يصير رمادا . ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها ، فصار سبيكة ذهب ينتفع به . ومن أقبل على الله عز وجل ، أحرقته نيران التوحيد ، فصار جوهرا لا حد لقيمته

وقال علي كرم الله وجهه ، إنما الدنيا ستة أشياء ، مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومركوب ، ومنكوح ، ومشموم . فأشرف المطعومات العسل ، وهو مذقة ذباب . وأشرف المشروبات الماء ، ويستوي فيه البر والفاجر . وأشرف الملبوسات الحرير ، وهو نسج دودة وأشرف المركوبات الفرس ، وعليه يقتل الرجال . وأشرف المنكوحات المرأة ، وهي مبال في مبال . وإن المرأة لتزين أحسن شيء منها ، ويراد أقبح شيء منها . وأشرف المشمومات المسك ، وهو دم

بيان

المواعظ في ذم الدنيا وصفتها

قال بعضهم ، يا أيها الناس اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة ، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها ، وتزينت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة . فكم من عاشق لها قتلت ، ومطمئن إليها خذلت . فانظروا إليها بعين الحقيقة ، فإنها دار كثير بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، وملكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، ودها يموت ، وخيرها يفوت . فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال فلان عليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتدعى لك الأطباء ، ولا يرجى لك الشفاء . ثم يقال فلان أوصى ، ولماله أحصى . ثم يقال قد ثقل لسانه ، فما يكلم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه . وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك هذا ابنك فلان وهذا أخوك فلان ، ومنعت من الكلام فلا تنطق ، وختم على لسانك فلا ينطلق . ثم حل بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك

إخوانك ، وأحضرت أكفانك فغسلوك ، وكفنوك ، فانقطع عوادك ، واستراح حسادك وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتهنا بأعمالك

وقال بعضهم لبعض الملوك ، إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها ، وأعطى حاجته منها ، لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه ، أو على جمعه فتفرقه ، أو تأتى سلطانه فتهدمه من القواعد ، أو تدب إلى جسمه فتسقمه ، أو تفجعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه فالدنيا أحق بالذم ، هي الآخذة ماتعطى . الراجعة فيما تهب . بينا هى تضحك صاحبها ، إذ أضحكت منه غيره . وبينا هى تبكى له ، إذ أبكت عليه . وبينا هى تبسط كفها بالإعطاء ، إذ بسطتها بالاسترداد . فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم ، وتعفره بالتراب غدا . سواء عليها ذهاب ماذهب ، وبقاء مابقى ، تجد فى الباقى من الذاهب خلفا ، وترضى بكل من كل بدلا : وكتب الحسن البصري ، إلى عمر بن عبد العزيز ؛ أما بعد ، فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، وإنما أنزل آدم عليه السلام من الجنة إليها عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى منها فقرها . لها فى كل حين قتيل ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها . هى كالسم يأكله من لا يعرفه ، وفيه حتفه . فكن فيها كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا ، مخافة مايكره طويلا . ويصبر على شدة الدواء ، مخافة طول الداء . فاحذر هذه الدار الغدارة ، الختالة الخداعة ، التى قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها ، وحلت بآمالها ، وسوفت بخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلية ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة . وهى لأزواجها كلهم قالية . فلا الباقى بالماضى معتبر ، ولا الآخر بالأول مزدجر ، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبره عنها مدكر . فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ، ونسى المعاد ، فشغل فيها لبه ، حتى زلت به قدمه ، فعظمت ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألمه ، وحسرات الفوت بغصته . وراغب فيها لم يدرك منها ماطلب ، ولم يروح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، وكن أسر ماتكون فيها ، أحذر ماتكون لها . فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، السار فى أهلها غار ، والنافع فيها غدا ضار . وقد وصل الرخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها إلى فناء ،

فسرورها مشوب بالأحزان ، لا يرجع منها ما ولى وأدبر ، ولا يدرى ما هو آت ؛ فيلتظر . أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وابن آدم فيها على خطر ، إن عقل ونظر . فهو من النعماء على خطر ، ومن البلاء على حذر . فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند الله جل ثناؤه قدر وما نظر إليها منذ خلقها [١] . ولقد عرضت على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، إذ كره أن يخالف على الله أمره ، أو يحب ما أبغضه خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه . فزواها عن الصالحين اختبارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها ، المقتدر عليها ، أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله عز وجل بمحمد صلى الله عليه وسلم ، [٢] حين شد الحجر على بطنه ، ولقد جاءت الرواية عنه عن ربه عز وجل ، أنه قال لموسى عليه السلام ، إذا رأيت الغنى مقبلا ، فقل ذنب عجلت عقوبته . وإذا رأيت الفقر مقبلا ، فقل مرحبا بشعار الصالحين . وإن شئت اقتديت بصاحب الروح والكلمة ، عيسى بن مريم عليه السلام ، فإنه كان يقول ، إدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصوف ، وصلائى فى الشتاء مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ودابتى رجلاى ، وطعامى وفاكهتى ما أنبتت الأرض ، أبيت وليس لى شيء ، وأصبح وليس لى شيء . وليس على الأرض أحد أغنى منى . وقال وهب بن منبه ، لما بعث الله عز وجل موسى وهرون عليهما السلام إلى فرعون ، قال لا يرو عنكما لباسه الذى لبس من الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، ليس ينطق ، ولا يطرف ، ولا يتنفس إلا بإذنى ولا يعجبنكما ما تمتع به منها فإنما هى زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين . فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا ، يعرفه

---

(١) حديث الحسن وكتب به الى عمر بن عبد العزيز عرضت أى الدنيا على نبيك صلى الله عليه وسلم بمفاتيحها وخزائنها ـ الحديث : ابن أبى الدنيا هكذا مرسلا ورواه أحمد والطبرانى متصلا من حديث أبى مويهبة فى أثناء حديث فيه انى قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثم الجنة ـ الحديث : وسنده صحيح وللترمذى من حديث أبى امامة عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا ـ الحديث :

(٢) حديث الحسن مرسلا فى شده الحجر على بطنه : ابن أبى الدنيا أيضا هكذا وللبخارى من حديث أنس رفعنا بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حجرين وقال حديث غريب

فرعون حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما ، لفعلت . ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، فأزوى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائي ، إنى لأذودهم عن نعيمها ، كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وإنى لأجنبهم سلاذها ، كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن منازل الغرة . وما ذاك لهوانهم علىّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالما موفرا . إنما يتزين لى أوليائى بالذل ، والخوف ، والخضوع ، والتقوى تنبت فى قلوبهم ، وتظهر على أجسادهم ، فهى ثيابهم التى يلبسون ، ودثارهم الذى يظهرون ، وضميرهم الذى يستشعرون ، ونجاتهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إياه يأملون ، ومجدهم الذى به يفخرون وسيماهم التى بها يعرفون . فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك . واعلم أنه من أخاف لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة ، ثم أنا الثائر له يوم القيامة .

وخطب على كرم الله وجهه يوما خطبة ، فقال فيها ، اعلموا أنكم ميتون ، ومبعوثون من بعد الموت ، وموقوفون على أعمالكم ، ومجزيون بها . فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها بالبلاء محفوفة ، وبالفناء معروفة ، وبالغدر موصوفة . وكل مافيها إلى زوال ، وهى بين أهلها دول وسجال . لاتدوم أحوالها ، ولا يسلم من شرها نزالها . بينا أهلها منها فى رخاء وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور . أحوال مختلفة ، وتارات منصرفة ، العيش فيها مذموم ، والرخاء فيها لايدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها ، وتقصيهم بحمامها ، وكل حتفه فيها مقدور ، وحظه فيها موفور . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى ممن كان أطول منكم أعمارا ، وأشد منكم بطشا ، وأعمر ديارا ، وأبعد آثارا . فأصبحت أصواتهم هامدة خامدة من بعد طول تقلبها ، وأجسادهم بالية ، وديارهم على عروشها خاوية ، وآثارهم عافية ، واستبدلوا بالقصور المشيدة والسرر والنمارق الممهدة ، الصخور والأحجار المسندة ، فى القبور اللاطئة الملحدة ، فحلها مقترب ، وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين ، وأهل محلة متشاغلين ، لا يستأنسون بالعمران ، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان ، على ما بينهم من قرب المكان والجوار ، ودنو الدار . وكيف يكون بينهم تواصل ، وقد طحنهم بكلكله البلاء ، وأكلتهم الجنادل والثرى ، وأصبحوا

بعد الحياة أمواتا ، وبعد نضارة العيش رفاتا ، فجع بهم الأحباب ، وسكنوا تحت التراب وظعنوا فليس لهم إياب ، هيهات هيهات(كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ [(١)]) فكأن قد صرتم إلى ماصاروا إليه ، من البلا والوحدة فى دار المثوى وارتهنتم فى ذلك المضجع ،وضمكم ذلك المستودع ،فكيف بكم لو عاينتم الأمور، وبعثرت القبور ، وحصل مافى الصدور ، وأوقفتم للتحصيل ، بين يدى الملك الجليل .فطارت القلوب لإشفاقها من سالف الذنوب ، وهتكت عنكم الحجب والأستار ، وظهرت منكم العيوب والأسرار ، هنالك تجزى كل نفس بما كسبت . إن الله عز وجل يقول (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى [(٢)]) وقال تعالى(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ [(٣)]) الآية جعلنا الله وإياكم عاملين بكتابه ، متبعين لأوليائه حتى يحلنا وإياكم دار المقامة من فضله ، إنه حميد مجيد . وقال بعض الحكماء ،الأيام سهام والناس أغراض ، والدهر يرميك كل يوم بسهامه ، ويخترمك بلياليه وأيامه ،حتى يستغرق جميع أجزائك . فكيف بقاء سلامتك ، مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الليالى فى بدنك لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص ، لاستوحشت من كل يوم يأتى عليك واستثقلت ممر الساعات بك . ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار ، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها ، وإنها لأمرُّ من العلقم إذا عجنها الحكيم . وقد أعيت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها ،وما تأتى به من العجائب ، أكثر مما يحيط به الواعظ،اللهم أرشدنا إلى الصواب

وقال بعض الحكماء ، وقد استوصف الدنيا وقدر بقائها فقال ، الدنيا وقتك الذى يرجع إليك فيه طرفك ، لأن ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه ، ومالم يأت فلا علم لك به . والدهر يوم مقبل تنعاه ليلته ، وتطويه ساعاته ، وأحداثه تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان والدهر موكل بتشتيت الجماعات ، وانخرام الشمل ، وتنقل الدول . والأمل طويل ، والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور : وخطب عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال يا أيها الناس ، إنكم خلقتم لأمر إن كنتم تصدقون به فإنكم حمقى ، وإن كنتم تكذبون به فإنكم هلكى . إنما خلقتم للأبد ، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون عباد الله ، إنكم

(١) المؤمنون : ١٠٠ (٢) النجم : ٣١ (٣) الكهف : ٤٩

فى داركم فيها من طعامكم غصص ، ومن شرابكم شرق ، لا تصفو لكم نعمة تسرون بها إلاّ بفراق أخرى تكرهون فراقها فاعملوا لما أنتم صائرون إليه، وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل

وقال على كرم الله وجهه فى خطبته ، أوصيكم بتقوى الله ، والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلية أجسامكم ، وأنتم تريدون تجديدها . فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم فى سفر ، سلكوا طريقا وكأنهم قد قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه . وكم عسى أن يجرى المجرى حتى ينتهى إلى الغاية ، وكم عسى أن يبقى من له يوم فى الدنيا وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها. فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال . عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه

وقال محمد بن الحسين ، لما علم أهل الفضل والعلم والمعرفة والأدب أن الله عز وجل قد أهان الدنيا ، وأنه لم يرضها لأوليائه ، وأنها عنده حقيرة قليلة ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم زهد فيها ، وحذر أصحابه من فتنتها ، أكلوا منها قصدا ، وقدموا فضلا وأخذوا منها ما يكفى ، وتركوا ما يلهى . لبسوا من الثياب ما ستر العورة ، وأكلوا من الطعام أدناه مما سد الجوعة ، ونظروا إلى الدنيا بعين أنها فانية ، وإلى الآخرة أنها باقية ، فتزودوا من الدنيا كزاد الراكب ، فخربوا الدنيا ، وعمروا بها الآخرة . ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم ، فعلموا أنهم سينظرون إليها بأعينهم ، فارتحلوا إليها بقلوبهم ، لما علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم . تعبوا قليلا ، وتنعموا طويلا . كل ذلك بتوفيق مولاهم الكريم ، أحبوا ما أحب لهم وكرهوا ما كره لهم

بيان

صفة الدنيا بالأمثلة

إعلم أن الدنيا سريعة الفناء ، قريبة الانقضاء ، تعد بالبقاء ، ثم تخلف فى الوفاء . تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهى سائرة سيرا عنيفا ، ومرتحلة ارتحالا سريعا . ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها ، فيطمئن إليها . وإنما يحس عند انقضائها

ومثالها الظل ، فإنه متحرك ساكن ، متحرك فى الحقيقة ، ساكن فى الظاهر ، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة ، ولما ذكرت الدنيا عند الحسن البصرى رحمه الله ، أنشد وقال :

أحلام نوم أوكظل زائل إن اللبيب بمثلها لايخدع

وكان الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يتمثل كثيرا ويقول

ياأهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترارا بظل زائل حمق

وقيل إن هذا من قوله

ويقال أن أعرابيا نزل بقوم ، فقدموا إليه طعاما ، فأكل ، ثم قام إلى ظل خيمة لهم فنام هناك ، فاقتلعوا الخيمة ، فأصابته الشمس ، فانتبه فقام وهو يقول

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ولا بد يوما أن ظلك زائل

وكذلك قيل

وإن امرأ دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

مثال آخر للدنيا ، من حيث التغرير بخيالاتها ، ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام ، وأضغاث الأحلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « الدُّنْيَا حُلْمٌ وَأَهْلُهَا عَلَيْهَا مُجَازَوْنَ وَمُعَاقَبُونَ » وقال يونس بن عبيد ، ما شبهت نفسى فى الدنيا إلا كرجل نام ، فرأى فى منامه ما يكره وما يحب . فبينما هو كذلك إذ انتبه . فكذلك الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ليس بأيديهم شيء مما ركنوا إليه ، وفرحوا به .

وقيل لبعض الحكماء ، أى شيء أشبه بالدنيا ، قال أحلام النائم

مثال آخر للدنيا ، فى عداوتها لأهلها ، وإهلاكها لبنيها

اعلم أن طبع الدنيا التلطف فى الاستدراج أولا ، والتوصل إلى الإهلاك آخرا . وهى كامرأة تتزين للخطاب ، حتى إذا نكحتهم ذبحتهم . وقد روى أن عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا ، فرآها فى صورة عجوز هتماء ، عليها من كل زينة ، فقال لها كم تزوجت قالت لا أحصيهم ، قال فكلهم مات عنك أم كلهم طلقك ؟ قالت بل كلهم قتلت . فقال عيسى عليه السلام ، بؤسا لأزواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ! كيف تهلكينهم واحدا بعد واحد ، ولا يكونون منك على حذر !

---

(١) حديث الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون : لم أجد له أصلا

مثال آخر للدنيا ، فى مخالفة ظاهرها لباطنها .

اعلم أن الدنيا مزينة الظواهر ، قبيحة السرائر . وهى شبه عجوز متزينة ، تخدع الناس بظاهرها ، فإذا وقفوا على باطنها ، وكشفوا القناع عن وجهها ، تمثل لهم قبائحها ، فندموا على اتباعها ، وخجلوا من ضعف عقولهم فى الاغترار بظاهرها . وقال العلاء بن زياد ، رأيت فى المنام عجوزا كبيرة ، متعصبة الجلد ، عليها من كل زينة الدنيا ، والناس عكوف عليها معجبون ، ينظرون إليها . فجئت ونظرت وتعجبت من نظرهم إليها ، وإقبالهم عليها . فقلت لها ويلك من أنت ؟ قالت أوما تعرفني؟ قلت لا أدرى من أنت ، قالت أنا الدنيا . قلت أعوذ بالله من شرك . قالت إن أحببت أن تعاذ من شرى فابغض الدرهم . وقال أبو بكر بن عياش ، رأيت الدنيا فى النوم عجوزا مشوهة شمطاء ، تصفق بيديها ، وخلفها خلق يتبعونها يصفقون ويرقصون . فلما كانت بحذائى ، أقبلت علىّ فقالت ، لو ظفرت بك لصنعت بك مثل ما صنعت بهؤلاء . ثم بكى أبو بكر وقال ، رأيت هذا قبل أن أقدم إلى بغداد . وقال الفضيل بن عياض ، قال ابن عباس ، يؤتى بالدنيا يوم القيامة فى صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها فتشرف على الخلائق ، فيقال لهم أتعرفون هذه ؟ فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال هذه الدنيا التى تناحرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم . ثم يقذف بها فى جهنم ، فتنادى أى رب ، أين أتباعى وأشياعى ؟ فيقول الله عز وجل ، ألحقوا بها أتباعها وأشياعها . وقال الفضيل ، بلغنى أن رجلا عرج بروحه ، فإذا امرأة على قارعة الطريق ، عليها من كل زينة من الحلى والثياب ، وإذا لا يمر بها أحد إلا جرحته فإذا هى أدبرت كانت أحسن شيء رآه الناس ، وإذا هى أقبلت كانت أقبح شيء رآه الناس عجوزا شمطاء ، زرقاء عمشاء . قال فقلت أعوذ بالله منك . قالت لا والله ، لا يعيذك الله منى حتى تبغض الدرهم . قال فقلت من أنت ؟ قالت أنا الدنيا

مثال آخر للدنيا وعبور الإنسان بها

اعلم أن الأحوال ثلاثة ، حالة لم تكن فيها شيئا ، وهى ماقبل وجودك إلى الازل . وحالة لاتكون فيها مشاهدا للدنيا ، وهي مابعد موتك إلى الأبد . وحالة متوسطة بين الأبد والأزل ، وهى أيام حياتك فى الدنيا . فانظر إلى مقدار طولها ، وانسبه إلى طرفى الأزل

والأبد، حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير، فى سفر بعيد. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] «مَالِي وَلِلدُّنْيَا وَإِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَرُفِعَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فَقَالَ تَحْتَ ظِلِّهَا سَاعَةً ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن إليها ولم يبال كيف انقضت أيامه، فى ضر وضيق، أو فى سعة ورفاهية. بل لا يبنى لبنة على لبنة توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢]، وما وضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة [٣] ورأى بعض الصحابة يبنى بيتا من جص، فقال أرى الأمر أعجل من هذا، وأنكر ذلك

وإلى هذا أشار عيسى عليه السلام حيث قال، الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وهو مثال واضح، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة، والمهد هو الميل الأول على رأس القنطرة واللحد هو الميل الآخر. وبينهما مسافة محدودة. فمن الناس من قطع نصف القنطرة، ومنهم من قطع ثلثها، ومنهم من قطع ثلثيها، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها. وكيفما كان فلا بد له من العبور. والبناء على القنطرة، وتزيينها بأصناف الزينة، وأنت عابر عليها، غاية الجهل والخذلان

مثال آخر للدنيا فى لين موردها، وخشونة مصدرها

اعلم أن أوائل الدنيا تبدو هينة لينة، يظن الخائض فيها أن حلاوة خفضها كحلاوة الخوض فيها، وهيهات. فإن الخوض فى الدنيا سهل، والخروج منها مع السلامة شديد. وقد كتب على رضى الله عنه، إلى سلمان الفارسى مثالها فقال، مثل الدنيا مثل الحية، لين مسها، ويقتل سمها. فأعرض عما يعجبك منها. لقلة ما يصحبك منها. وضع عنك همومها، بما أيقنت من فراقها وكن أسر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها. فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه مكروه والسلام

---

(١) حديث مالى وللدنيا انما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه والحاكم من حديث ابن مسعود بنحوه ورواه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس

(٢) حديث ما وضع لبنة على لبنة ـ الحديث : ابن حبان فى الثقات والطبرانى فى الأوسط من حديث عائشة بسند ضعيف من سأل عنى أو سره أن ينظر إلى فلينظر إلى أشعث شاحب مشمر لم يضع لبنة على لبنة ـ الحديث

(٣) حديث رأى بعض أصحابه يبنى بيتا من جص فقال أرى الأمر أعجل من هذا : أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال حسن صحيح

مثال آخر للدنيا ، فى تعذر الخلاص من تبعتها بعد الخوض فيها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الدُّنْيَا كَالْمَاشِي فِي الْمَاءِ هَلْ يَسْتَطِيعُ الَّذِي يَمْشِي فِي الْمَاءِ أَنْ لاَ تَبْتَلَّ قَدَمَاهُ » وهذا يعرفك جهالة قوم ظنوا أنهم يخوضون فى نعيم الدنيا بأبدانهم ، وقلوبهم منها مطهرة ، وعلائقها عن بواطنهم منقطعة ، وذلك مكيدة من الشيطان . بل لو أخرجوا مما هم فيه ، لكانوا من أعظم المتفجعين بفراقها . فكما أن المشى على الماء يقتضى بللا لا محالة يلتصق بالقدم ، فكذلك ملابسة الدنيا تقتضى علاقة وظلمة فى القلب . بل علاقة الدنيا مع القلب تمنع حلاوة العبادة . قال عيسى عليه السلام : بحق أقول لكم ، كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ به من شدة الوجع ، كذلك صاحب الدنيا ، لا يلتذ بالعبادة ، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب الدنيا . وبحق أقول لكم ، إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن ، تصعب ويتغير خلقها . كذلك القلوب إذا لم ترقق بذكر الموت ، ونصب العبادة ، تقسو وتغلظ . وبحق أقول لكم ، إن الزق ما لم ينخرق أو يقحل يوشك أن يكون وعاء للعسل . كذلك القلوب ما لم تخرقها الشهوات ، أو يدنسها الطمع أو يقسيها النعيم ، فسوف تكون أوعية للحكمة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّمَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بَلاَءٌ وَفِتْنَةٌ وَإِنَّمَا مَثَلُ عَمَلِ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الْوِعَاءِ إِذَا طَابَ أَعْلاَهُ طَابَ أَسْفَلُهُ وَإِذَا خَبُثَ أَعْلاَهُ خَبُثَ أَسْفَلُهُ »

مثال آخر لما بقى من الدنيا وقلته بالإضافة إلى ما سبق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « مَثَلُ هَذِهِ الدُّنْيَا مَثَلُ ثَوْبٍ شُقَّ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَبَقِيَ مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ فِي آخِرِهِ فَيُوشِكُ ذَلِكَ الْخَيْطُ أَنْ يَنْقَطِعَ »

---

(١) حديث انما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشى فى الماء ـ الحديث : ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من رواية الحسن وقال بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذكره ووصله البيهقى فى الشعب وفى الزهد من رواية الحسن عن أنس

(٢) حديث إنما بقى من الدنيا بلاء وفتنة ـ الحديث : ابن ماجه من حديث معاوية فرقه فى موضعين ورجاله ثقات

(٣) حديث مثل هذه الدنيا كمثل ثوب شق من أوله الى آخره . أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس بسند ضعيف

مثال آخر لتأدية علائق الدنيا بعضها إلى بعض حتى الهلاك

قال عيسى عليه السلام : مثل طالب الدنيا ، مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ، ازداد عطشا حتى يقتله

مثال آخر لمخالفة آخر الدنيا أولها ، ولنضارة أوائلها ، وخبث عواقبها .

اعلم أن شهوات الدنيا فى القلب لذيذة ، كشهوات الأطعمة فى المعدة . وسيجد العبد عند الموت . لشهوات الدنيا فى قلبه من الكراهة والنتن والقبح، مايجده للأطعمة اللذيذة إذا بلغت فى المعدة غايتها . وكما أن الطعام كلما كان ألذ طعما ، وأكثر دسما ، وأظهر حلاوة كان رجيعه أقذر وأشد نتنا ، فكذلك كل شهوة فى القلب هى أشهى وألذ وأقوى، فنتنها وكراهتها والتأذى بها عند الموت أشد . بل هى فى الدنيا مشاهدة . فإن من نهبت داره وأخذ أهله وماله وولده ، فتكون مصيبته وألمه وتفجعه فى كل مافقد ، بقدر لذته به، وحبه له . وحرصه عليه . فكل ماكان عند الوجود أشهى عنده وألذ، فهو عند الفقد أدهى وأمر ولا معنى للموت إلا فقد مافى الدنيا . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم [1] قال للضحاك ابن سفيان الكلابى « أَلَسْتَ تُؤْتَى بِطَعَامِكَ وَقَدْ مُلِّحَ وَقُزِّحَ ثُمَّ تَشْرَبُ عَلَيْهِ اللَّبَنَ وَالْمَاءَ » قال بلى. قال « فَإِلَامَ يَصِيرُ ؟ » قال إلى ماقد علمت يارسول الله . قال « فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ضَرَبَ مَثَلَ الدُّنْيَا بِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ طَعَامُ ابْنِ آدَمَ » . وقال أبى بن كعب [2] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الدُّنْيَا ضُرِبَتْ مَثَلًا لِابْنِ آدَمَ فَانْظُرْ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنِ ابْنِ آدَمَ وَإِنْ قَذَّحَهُ وَمَلَّحَهُ إِلَامَ يَصِيرُ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ الدُّنْيَا لِمَطْعَمِ ابْنِ آدَمَ مَثَلًا وَضَرَبَ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ » وقال الحسن ، قد

---

(١) حديث أنه قال للضحاك بن سفيان الكلابى ألست تؤتى بطعامك وقد ملح وقزح ــ الحديث : وفيه فان الله ضرب مثل الدنيا لما يصير اليه طعام ابن آدم أحمد والطبرانى من حديثه بنحوه وفيه على بن زيد بن جدعان مختلف فيه

(٢) حديث أبى بن كعب ان الدنيا ضربت مثلا لابن آدم الحديث : الطبرانى وابن حبان بلفظ أن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلا ورواه عبد الله بن أحمد فى زياداته بلفظ جعل

(٣) حديث أن الله ضرب الدنيا لمطعم ابن آدم مثلا وضرب مطعم ابن آدم للدنيا مثلا ــ الحديث: الشطر الأول منه غريب والشطر الأخير هو الذى تقدم من حديث الضحاك بن سفيان ان الله ضرب ما يخرج من بنى آدم مثلا للدنيا

رأيتهم يطيبونه بالأفاويه والطيب ، ثم يرمون به حيث رأيتم . وقد قال الله عز وجل ، (فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ [1]) قال ابن عباس ، إلى رجيعه . وقال رجل لابن عمر ، إنى أريد أن أسألك وأستحي . قال فلا تستحي واسأل . قال إذا قضى أحدنا حاجته، فقام ينظر إلى ذلك منه . قال نعم ، إن الملك يقول له انظر إلى مابخلت به ، انظر إلى ماذا صار . وكان بشر بن كعب يقول ، انطلقوا حتى أريكم الدنيا ، فيذهب بهم إلى مزبلة ، فيقول انظروا إلى ثمارهم ، ودجاجهم ، وعسلهم ، وسمنهم

مثال آخر فى نسبة الدنيا إلى الآخرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ بِمَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ »

مثال آخر للدنيا وأهلها، فى اشتغالهم بنعيم الدنيا، وغفلتهم عن الآخرة. وخسرانهم العظيم بسببها

اعلم أن أهل الدنيا مثلهم فى غفلتهم ، مثل قوم ركبوا سفينة ، فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج إلى قضاء الحاجة ،وحذرهم المقام، وخوفهم مرور السفينة واستعجالها فتفرقوا فى نواحي الجزيرة ، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة ،فصادف المكان خاليا فأخذ أوسع الأماكن ، وألينها ، وأوفقها لمراده . وبعضهم توقف فى الجزيرة ، ينظر إلى أنوارها ، وأزهارها العجيبة ، وغياضها الملتفة، ونغمات طيورها الطيبة، وألحانها الموزونة الغريبة ، وصار يلحظ من بريتها أحجارها ،وجواهرها، ومعادنها المختلفة الألوان والأشكال الحسنة المنظر ، العجيبة النقوش، السالبة أعين الناظرين بحسن زبرجدها، وعجائب صورها ثم تنبه لخطر فوات السفينة ، فرجع إليها ، فلم يصادف إلا مكانا ضيقا حرجا ،فاستقر فيه

وبعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار ، وأعجبه حسنها ، ولم تسمح نفسه بإهمالها ، فاستصحب منها جملة، فلم يجد فى السفينة إلا مكانا ضيقا . وزاده ما حمله من الحجارة

---

(١) حديث ما الدنيا فى الآخرة الا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع اليه : مسلم من حديث المستورد بن شداد

---

(١) عبس : ٢٤

ضيقا . وصار ثقيلا عليه ووبالا ، فندم على أخذه ، ولم يقدر على رميه ، ولم يجد مكانا لوضعه فحمله فى السفينة على عنقه ، وهو متأسف على أخذه ، وليس ينفعه التأسف .

وبعضهم تولج الغياض ، ونسى المركب ، وبعد فى متخرجه ومتنزهه منه ، حتى لم يبلغه نداء الملاح ، لاشتغاله بأكل تلك الثمار ، واستشمام تلك الأنوار ، والتفرج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك خائف على نفسه من السباع ، وغير خال من السقطات والنكبات ولا منفك عن شوك ينشب بثيابه ، وغصن يجرح بدنه ، وشوكة تدخل فى رجله ، وصوت هائل يفزع منه ، وعوسج يخرق ثيابه ، ويهتك عورته ، ويمنعه عن الانصراف لو أراده فلما بلغه نداء أهل السفينة ، انصرف مثقلا بما معه ولم يجد فى المركب موضعا ، فبقى فى الشط حتى مات جوعا ، وبعضهم لم يبلغه النداء ، وصارت السفينة ، فمنهم من افترسته السباع ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك ، ومنهم من مات فى الأوحال ، ومنهم من نهشته الحيات ، فتفرقوا كالجيف المنتنة وأما من وصل إلى المركب بثقل ما أخذه من الأزهار والأحجار ، فقد استرقته ، وشغله الحزن بحفظها ، والخوف من فوتها وقد ضيقت عليه مكانه ، فلم يلبث أن ذبلت تلك الأزهار ، وكمدت تلك الألوان والأحجار ، فظهر نتن رائحتها ، فصارت مع كونها مضيقة عليه ، مؤذية له بنتنها ووحشتها ، فلم يجد حيلة إلا أن ألقاها فى البحر هربا منها . وقد أثر فيه ما أكل منها ، فلم ينته إلى الوطن إلا بعد أن ظهرت عليه الأسقام بتلك الروائح ، فبلغ سقيما مدبرا . ومن رجع قريبا ، ما فاته إلا سعة المحل فتأذى بضيق المكان مدة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح . ومن رجع أولا وجد المكان الأوسع ووصل إلى الوطن سالما

فهذا مثال أهل الدنيا فى اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ، ونسيانهم موردهم ومصدرهم وغفلتهم عن عاقبة أمورهم . وما أقبح من يزعم أنه بصير عاقل أن تغره أحجار الأرض وهى الذهب والفضة ، وهشيم النبت ، وهى زينة الدنيا ، وشىء من ذلك لا يصحبه عند الموت ، بل يصير كلا ووبالا عليه ، وهو فى الحال شاغل له بالحزن والخوف عليه . وهذه حال الخلق كلهم ، إلا من عصمه الله عز وجل

مثال آخر لاغترار الخلق بالدنيا وضعف إيمانهم

وقال الحسن رحمه الله (١) : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَلَكُوا مَفَازَةً غَبْرَاءَ حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْرُوا مَا سَلَكُوا مِنْهَا أَكْثَرَ أَوْ مَا بَقِيَ أَنْفَدُوا الزَّادَ وَخَسِرُوا الظَّهْرَ وَبَقُوا بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْمَفَازَةِ وَلاَ زَادَ وَلاَ حُمُولَةَ فَأَيْقَنُوا بِالْهَلَكَةِ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فِي حُلَّةٍ تَقْطُرُ رَأْسُهُ فَقَالُوا هَذَا قَرِيبُ عَهْدٍ بِرِيفٍ وَمَا جَاءَكُمْ هَذَا إِلاَّ مِنْ قَرِيبٍ فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ قَالَ يَاهَؤُلاَءِ فَقَالُوا يَاهَذَا فَقَالَ عَلاَمَ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا عَلَى مَا تَرَى فَقَالَ أَرَأَيْتُمْ إِنْ هَدَيْتُكُمْ إِلَى مَاءٍ رَوَاءٍ وَرِيَاضٍ خُضْرٍ مَا تَعْمَلُونَ ؟ قَالُوا لاَ نَعْصِيكَ شَيْئًا قَالَ عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِاللهِ فَأَعْطَوْهُ عُهُودَهُمْ وَمَوَاثِيقَهُمْ بِاللهِ لاَ يَعْصَوْنَهُ شَيْئًا قَالَ فَأَوْرَدَهُمْ مَاءً رَوَاءً وَرِيَاضًا خُضْرًا فَمَكَثَ فِيهِمْ مَاشَاءَ اللهُ ثُمَّ قَالَ يَاهَؤُلاَءِ قَالُوا يَاهَذَا قَالَ الرَّحِيلَ قَالُوا إِلَى أَيْنَ ؟ قَالَ إِلَى مَاءٍ لَيْسَ كَمَائِكُمْ وَإِلَى رِيَاضٍ لَيْسَتْ كَرِيَاضِكُمْ فَقَالَ أَكْثَرُهُمْ وَاللهِ مَاوَجَدْنَا هَذَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّا لَنْ نَجِدَهُ وَمَا نَصْنَعُ بِعَيْشٍ خَيْرٍ مِنْ هَذَا ؟ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ وَهُمْ أَقَلُّهُمْ أَلَمْ تُعْطُوا هَذَا الرَّجُلَ عُهُودَكُمْ وَمَوَاثِيقَكُمْ بِاللهِ أَنْ لاَ تَعْصُوهُ شَيْئًا وَقَدْ صَدَقَكُمْ فِي أَوَّلِ حَدِيثِهِ فَوَاللهِ لَيَصْدُقَنَّكُمْ فِي آخِرِهِ فَرَاحَ فِيمَنِ اتَّبَعَهُ وَتَخَلَّفَ بَقِيَّتُهُمْ فَبَدَرَهُمْ عَدُوٌّ فَأَصْبَحُوا بَيْنَ أَسِيرٍ وَقَتِيلٍ »

مثال آخر لتنعم الناس بالدنيا ، ثم تفجعهم على فراقها.

اعلم أن مثل الناس فيما أعطوا من الدنيا ، مثل رجل هيأ دارا وزينها ، وهو يدعو إلى داره على الترتيب قوما واحدا بعد واحد . فدخل واحد داره ، فقدم إليه طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، ليشمه ويتركه لمن يلحقه ، لا ليتملكه ويأخذه ، فجهل رسمه .

(١) حديث الحسن بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ـ الحديث : ابن أبي الدنيا هكذا بطوله لأحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان الحديث : وفيه فقال أي أحد الملكين ان مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى مفازة فذكر نحوه أخصر منه وإسناده حسن

وظن أنه قد وهب ذلك منه، فتعلق به قلبه لما ظن أنه له . فلما استرجع منه ضجر وتفجع . ومن كان عالما برسمه ، انتفع به وشكره ، ورده بطيب قلب وانشراح صدر

وكذلك من عرف سنة الله في الدنيا ، علم أنها دار ضيافة ، سبلت على المجتازين لا على المقيمين ، ليتزودوا منها ، وينتفعوا بما فيها كما ينتفع المسافرون بالعوارى ، ولا يصرفون إليها كل قلوبهم ، حتى تعظم مصيبتهم عند فراقها .

فهذه أمثلة الدنيا وآفاتها وغوائلها ، نسأل الله تعالى اللطيف الخبير حسن العون بكرمه وحلمه

بيان

حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

اعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ، ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي ، وما الذي ينبغي أن يجتنب منها ، وما الذي لا يجتنب . فلابد وأن نبين الدنيا المذمومة ، المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين من أحوال قلبك ، فالقريب الداني منها يسمى دنيا ، وهو كل ما قبل الموت . والمتراخي المتأخر يسمى آخرة، وهو ما بعد الموت . فكل مالك فيه حظ ، ونصيب ، وغرض ، وشهوة ، ولذة ، عاجل الحال قبل الوفاة . فهي الدنيا في حقك إلا أن جميع مالك إليه ميل ، وفيه نصيب وحظ ، فليس بمذموم ، بل هو ثلاثة أقسام .

القسم الأول : ما يصحبك في الآخرة ، وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيئان ، العلم ، والعمل فقط . وأعني بالعلم العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله ، وملائكته ، وكتبه، ورسله، وملكوت أرضه وسمائه ، والعلم بشريعة نبيه . وأعني بالعمل ، العبادة الخالصة لوجه الله تعالى . وقد يأنس العالم بالعلم ، حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده ، فيهجر النوم ، والمطعم ، والمنكح في لذته ، لأنه أشهى عنده من جميع ذلك . فقد صار حظا عاجلا في الدنيا ، ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة ، لم نعد هذا من الدنيا أصلا ، بل قلنا إنه من الآخرة

وكذلك العابد ، قد يأنس بعبادته فيستلذها ، بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم

العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم ، ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل · وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوة الصلاة ، والركوع ، والسجود في القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة ، وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه ، من حيث الاشتقاق من الدنو ، ولكننا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك

وقد قال صلى الله عليه وسلم (١) « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة ، وهو من الدنيا والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع ، والسجود ، إنما يكون في الدنيا ، ، فلذلك أضافها إلى الدنيا ، إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الأقصى ، كل ما فيه حظ عاجل ، ولا ثمرة له في الآخرة أصلا ، كالتلذذ بالمعاصي كلها ، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات ، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، والغلمان ، والجواري ، والخيول ، والمواشي ، والقصور ، والدور ، ورفيع الثياب ، ولذائذ الأطعمة . فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة . وفيما يعد فضولا ، أو في محل الحاجة ، نظر طويل ، إذ روى عن عمر رضي الله عنه ، أنه استعمل أبا الدرداء على حمص ، فاتخذ كنيفا أنفق عليه درهمين ، فكتب إليه عمر ، من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عويمر ، قد كان لك في بناء فارس والروم ، ما تكتفي به عن عمران الدنيا حين أراد الله خرابها ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فقد سيرتك إلى دمشق أنت وأهلك . فلم يزل بها حتى مات . فهذا رآه فضولا من الدنيا فتأمل فيه

القسم الثالث ، وهو متوسط بين الطرفين ، كل حظ في العاجل ، معين على أعمال الآخرة . كقدر القوت من الطعام ، والقميص الواحد الخشن ، وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة ، التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم

(١) حديث حبب إلي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة : النسائي والحاكم من حديث أنس دون قوله ثلاث وتقدم في النكاح

الأول ؛ لأنه معين على القسم الأول ، ووسيلة إليه فمها تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل ، لم يكن به متناولا للدنيا ، ولم يصر به من أبناء الدنيا . وإن كان باعثه الحظ العاجل ، دون الاستعانة على التقوى ، التحق بالقسم الثانى ، وصار من جملة الدنيا

ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات ، صفاء القلب ، أعنى طهارته عن الأدناس وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا . والأنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى ، والمواظبة عليه، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر . وهذه الصفات الثلاث هى المنجيات المسعدات بعد الموت . أما طهارة القلب عن شهوات الدنيا، فهى من المنجيات إذ تكون جُنَّة بين العبد وبين عذاب الله ، كما ورد فى الأخبار [1] « أَنَّ أَعْمَالَ الْعَبْدِ تُنَاضِلُ عَنْهُ فَإِذَا جَاءَ الْعَذَابُ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ جَاءَ قِيَامُ اللَّيْلِ يَدْفَعُ عَنْهُ وَإِذَا جَاءَ مِنْ جِهَةِ يَدَيْهِ جَاءَتِ الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ عَنْهُ » الحديث

وأما الأنس والحب فهما من المسعدات ، وهما موصلان العبد إلى لذة اللقاء والمشاهدة ؛ وهذه السعادة تتعجل عقيب الموت ، إلى أن يدخل أوان الرؤية فى الجنة ، فيصير القبر روضة من رياض الجنة . وكيف لا يكون القبر عليه روضة من رياض الجنة ، ولم يكن له إلا محبوب واحد ، وكانت العوائق تعوقه عن دوام الأنس بدوام ذكره ، ومطالعة جماله فارتفعت العوائق ، وأفلت من السجن ، وخلى بينه وبين محبوبه ، فقدم عليه مسرورا سليما من الموانع ، آمنا من العوائق ، وكيف لا يكون محب الدنيا عند الموت معذبا ، ولم يكن له محبوب إلا الدنيا ، وقد غصب منه ، وحيل بينه وبينه ، وسدت عليه طرق الحيلة فى الرجوع إليه . ولذلك قيل

ما حال من كان له واحد ... غيب عنه ذلك الواحد

---

(١) حديث مناضلة أعمال العبد عنه فاذا جاء العذاب من قبل رجليه جاء قيام الليل فدفع عنه ـ الحديث : الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن سمرة بطوله وفيه خالد بن عبد الرحمن المخزومى ضعفه البخارى وأبو حاتم ولأحمد من حديث أسماء بنت أبى بكر اذا دخل الانسان قبره فان كان مؤمنا أحف به عمله الصلاة والصيام ـ الحديث : واسناده صحيح

وليس الموت عدماً . إنما هو فراق لمحاب الدنيا ، وقدوم على الله تعالى . فإذاً سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الصفات الثلاث ، وهى الذكر ، والفكر ، والعمل الذى يفطمه عن شهوات الدنيا ، ويبغض إليه ملاذها ، ويقطعه عنها . وكل ذلك لا يمكن إلا بصحة البدن . وصحة البدن لا تنال إلا بقوت ، وملبس ، ومسكن ، ويحتاج كل واحد إلى أسباب . فالقدر الذى لابد منه من هذه الثلاثة ، إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة ، لم يكن من أبناء الدنيا ، وكانت الدنيا فى حقه مزرعة للآخرة . وإن أخذ ذلك لحظ النفس ، وعلى قصد التنعم ، صار من أبناء الدنيا ، والراغبين فى حظوظها . إلا أن الرغبة فى حظوظ الدنيا تنقسم إلى ما يعرض صاحبه لعذاب الآخرة ، ويسمى ذلك حراما ، وإلى ما يحول بينه وبين الدرجات العلا ، ويعرضه لطول الحساب ، ويسمى ذلك حلالا . والبصير يعلم أن طول الموقف فى عرصات القيامة لأجل المحاسبة أيضا عذاب ، فمن نوقش الحساب عذب[1] ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « حَلاَلُهَا حِسَابٌ وَحَرَامُهَا عَذَابٌ » وقد قال أيضا « حَلاَلُهَا عَذَابٌ » إلا أنه عذاب أخف من عذاب الحرام بل لو لم يكن الحساب ، لكان مايفوت من الدرجات العلى فى الجنة ، وما يرد على القلب من التحسر على تفويتها لحظوظ حقيرة خسيسة لا بقاء لها ، هو أيضا عذاب .. وقس به حالك فى الدنيا ، إذا نظرت إلى أقرانك وقد سبقوك بسعادات دنيوية ، كيف يتقطع قلبك عليها حسرات ، مع علمك بأنها سعادات منصرمة لا بقاء لها ، ومنغصة بكدورات لا صفاء لها . فما حالك فى فوات سعادة لا يحيط الوصف بعظمتها ، وتنقطع الدهور دون غايتها

فكل من تنعم فى الدنيا ولو بسماع صوت من طائر ، أو بالنظر إلى خضرة ، أو شربة ماء بارد ، فإنه ينقص من حظه فى الآخرة أضعافه . وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه[3] « هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِى تُسْأَلُ عَنْهُ » أشار به إلى الماء البارد ، والتعرض لجواب السؤال فيه ذل ، وخوف ، وخطر ، ومشقة ، وانتظار . وكل ذلك من نقصان

---

(١) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب من طريقه موقوفا على على بن أبى طالب - باسناد منقطع بلفظ وحرامها النار ولم أجده مرفوعا

(٣) حديث هذا من النعيم الذى تسئل عنه تقدم فى الاطعمة

الحظ . ولذلك قال عمر رضى الله عنه ، اعزلوا عنى حسابها ، حين كان به عطش ، فعرض عليه ماء بارد بعسل ، فأداره فى كفه ، ثم امتنع عن شربه .

فالدنيا قليلها وكثيرها ، حرامها وحلالها ، ملعونة إلا ماأعان على تقوى الله ، فإن ذلك القدر ليس من الدنيا . وكل من كانت معرفته أقوى وأتقن ، كان حذره من نعيم الدنيا أشد . حتى أن عيسى عليه السلام ، وضع رأسه على حجر لما نام ، ثم رماه ، إذ تمثل له إبليس وقال ، رغبت فى الدنيا . وحتى أن سليمان عليه السلام فى ملكه ، كان يطعم الناس لذائذ الأطعمة ، وهو يأكل خبز الشعير ، فجعل الملك على نفسه بهذا الطريق امتهانا وشدة ، فإن الصبر عن لذائذ الأطعمة ، مع القدرة عليها ووجودها أشد . ولهذا روى أن الله تعالى [١] زوى الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، فكان يطوى أياما ، [٢] وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع . ولهذا سلط الله البلاء والمحن على الأنبياء والأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، كل ذلك نظرا لهم ، وامتنانا عليهم ، ليتوفر من الآخرة حظهم . كما يمنع الوالد الشفيق ولده لذة الفواكه ، ويلزم ألم الفصد والحجامة ، شفقة عليه ، وحبا له ، لابخلا عليه . وقد عرفت بهذا أن كل ماليس لله فهو من الدنيا ، وما هو لله فذلك ليس من الدنيا

فإن قلت فما الذى هو لله ؟

فأقول الأشياء ثلاثة أقسام ، منها مالا يتصور أن يكون لله ، وهو الذى يعبر عنه بالمعاصى والمحظورات ، وأنواع التنعمات فى المباحات ، وهى الدنيا المحضة المذمومة ، فهى الدنيا صورة ومعنى

ومنها ماصورته لله ، ويمكن أن يجعل لغير الله ، وهى ثلاثة ، الفكر ، والذكر ، والكف عن الشهوات . فإن هذه الثلاثة إذا جرت سرا ، ولم يكن عليها باعث سوى أمر الله واليوم الآخر ، فهى لله ، وليست من الدنيا . وإن كان الغرض من الفكر ، طلب العلم للتشرف به ، وطلب القبول بين الخلق بإظهار المعرفة ، أو كان الغرض من ترك الشهوة حفظ المال

---

(١) حديث زوى الله الدنيا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فكان يطوى أياما : محمد بن خفيف فى شرف الفقراء من حديث عمر بن الخطاب قال قلت يارسول الله عجبا لمن بسط الله لهم الدنيا وزواها عنك ـ الحديث : وهو من طريق ابن اسحاق معنعنا وللترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله ـ الحديث : قال الترمذى حسن صحيح

(٢) حديث كان يشد الحجر على بطنه من الجوع تقدم

أو الحمية لصحة البدن . أو الاشتهار بالزهد ، فقد صار هـذا من الدنيا بالمعنى ، وإن كان يظن بصورته أنه لله تعالى . ومنها ما صورته لحظ النفس ، ويمكن أن يكون معناه لله . وذلك كالأكل ، والنكاح ، وكل ما يرتبط به بقاؤه وبقاء ولده . فإن كان القصد حظ النفس ، فهو من الدنيا . وإن كان القصد الاستعانة به على التقوى ، فهو لله بمعناه ، وإن كانت صورته صورة الدنيا . قال صلى الله عليه وسلم[١] « مَنْ طَلَبَ الدُّنيَا حَلالاً مُكَاثِرًا مُفَاخِرًا لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ وَمَنْ طَلَبَهَا اسْتِعْفَافًا عَنِ الْمَسْأَلَةِ وَصِيَانَةً لِنَفْسِهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » فانظر كيف اختلف ذلك بالقصد

فإذاً الدنيا حظ نفسك العاجل ، الذي لا حاجة إليه لأمر الآخرة ، ويعبر عنه بالهوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى[١]) ومجامع الهوى خمسة أمور ، وهي ما جمعه الله تعالى في قوله (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ[٢]) والأعيان التي تحصل منها هذه الخمسة سبعة ، يجمعها قوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[٣]) . فقد عرفت أن كل ما هو لله فليس من الدنيا . وقدر ضرورة القوت ، وما لا بد منه من مسكن وملبس ، هو لله إن قصد به وجه الله . والاستكثار منه تنعم ، وهو لغير الله . وبين التنعم والضرورة درجة يعبر عنها بالحاجة ، ولها طرفان وواسطة . طرف يقرب من حد الضرورة فلا يضر ، فإن الاقتصار على حد الضرورة غير ممكن . وطرف يزاحم جانب التنعم ويقرب منه ، وينبغي أن يحذر منه . وبينهما وسائط متشابهة ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . والحزم في الحذر والتقوى ، والتقرب من حد الضرورة ما أمكن ، اقتداء بالأنبياء والأولياء عليهم السلام ، إذ كانوا يردون أنفسهم إلى حد الضرورة حتى أن أويسا القرني ، كان يظن أهله أنه مجنون ، لشدة تضييقه على نفسه ، فبنوا له بيتاً

---

(٣) حديث من طلب الدنيا حلالا مكاثرا مفاخرا لقي الله وهو عليه غضبان ـ الحديث : أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف

---

(١) النازعات : ٤١ (٢) الحديد : ٢٠ (٣) آل عمران : ١٤

على باب دارهم ، فكان يأتى عليهم السنة ، والسنتان ، والثلاث ، لايرون له وجها . وكان يخرج أول الأذان ، ويأتى إلى منزله بعد العشاء الآخرة . وكان طعامه أن يلتقط النوى ، وكلما أصاب حشفة خبأها لإفطاره ، وإن لم يصب مايقوته من الحشف باع النوى، واشترى بثمنه مايقوته . وكان لباسه مما يلتقط من المزابل من قطع الأكسية ، فيغسلها فى الفرات ويلفق بعضها إلى بعض ، ثم يلبسها . فكان ذلك لباسه . وكان ربما مر الصبيان ، فيرمونه ويظنون أنه مجنون ، فيقول لهم ، ياإخوتاه ، إن كنتم ولا بدأن ترمونى ،فارمونى بأحجار صغار ، فإنى أخاف أن تدموا عقبي ، فيحضر وقت الصلاة ولا أصيب الماء .فهكذا كانت سيرته . ولقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره ، فقال[1] « إِنِّى لَأَجِدُ نَفَسَ الرَّحْمَنِ مِنْ جَانِبِ الْيَمَنِ » إشارة إليه رحمه الله .

ولما ولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال : أيها الناس ، من كان منكم من العراق فليقم . قال فقاموا . فقال اجلسوا إلّا من كان من أهل الكوفة . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من مراد . فجلسوا . فقال اجلسوا إلا من كان من قرن . فجلسوا كلهم إلا رجلا واحدا . فقال له عمر ، أقرنى أنت ؟ فقال نعم . فقال أتعرف أويس بن عامر القرنى ؟ فوصفه له ، فقال نعم ، وماذاك تسأل عنه يا أمير المؤمنين ! والله ما فينا أحمق منه ، ولا أجن منه ، ولا أوحش منه ، ولا أدنى منه . فبكى عمر رضي الله عنه ثم قال ، ماقلت ماقلت إلا لأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] يقول ، يدخل فى شفاعته مثل ربيعة ومضر .فقال هرم بن حيان ، لما سمعت هذا القول من عمر بن الخطاب ، قدمت الكوفة . فلم يكن لى هم إلا أن أطلب أويسا القرنى ، وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالسا على شاطىء الفرات نصف النهار ، يتوضأ ويغسل ثوبه . قال فعرفته بالنعت الذى نعت لى ، فإذا رجل لحيم شديد الأدمة ، محلوق الرأس ، كث اللحية ، متغير جداً ، كريه الوجه ، متهيب المنظر . قال فسلمت عليه ، فرد علىّ السلام ونظر إلىّ . فقلت حياك الله من رجل . ومددت يدى لأصافحه ،

---

(١) حديث إنى لاجد نفس الرحمن من جانب اليمن أشار به الى أويس القرنى تقدم فى قواعد العقائد لم أجد له أصلا

(٢) حديث عمر يدخل الجنة فى شفاعته مثل ربيعة ومضر يريد أويسا ورويناه فى جزء ابن السماك من حديث أبى أمامة يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر واسناده حسن وليس فيه ذكر لأويس بل فى آخره فكان المشيخة يرون ان ذلك الرجل عثمان بن عفان

فأبى أن يصافحني. فقلت رحمك الله يا أويس وغفر لك ، كيف أنت رحمك الله . ثم خنقتني العبرة من حبي إياه ، ورقتي عليه ، إذ رأيت من حاله ما رأيت ، حتى بكيت وبكى . فقال وأنت فحياك الله يا هرم بن حبان ، كيف أنت يا أخي ؟ ومن دلك علي ؟ قال قلت الله . فقال لا إله إلا الله سبحان الله ، إن كان وعد ربنا لمفعولا . قال فعجبت حين عرفني ، ولا والله ما رأيته قبل ذلك ولا رآني . فقلت من أين عرفت اسمي واسم أبي ، وما رأيتك قبل اليوم ؟ قال نبأني العليم الخبير ، وعرفت روحي روحك ، حين كلمت نفسي نفسك ، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضا ، ويتحابون بروح الله وإن لم يلتقوا ، يتعارفون ويتكلمون وإن نأت بهم الدار ، وتفرقت بهم المنازل . قال قلت حدثني رحمك الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بحديث أسمعه منك . قال إني لم أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تكن لي معه صحبة . بأبي وأمي رسول الله . ولكن رأيت رجالا قد صحبوه ، وبلغني من حديثه كما بلغك ، ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب ، أن أكون محدثا ، أو مفتيا ، أو قاضيا . في نفسي شغل عن الناس يا هرم بن حيان . فقلت يا أخي إقرأ علي آية من القرءان أسمعها منك ، وادع لي بدعوات ؛ وأوصني بوصية أحفظها عنك ، فإني أحبك في الله حبا شديدا . قال فقام وأخذ بيدي على شاطىء الفرات ، ثم قال ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثم بكى ، ثم قال ، قال ربي ، والحق قول ربي ، وأصدق الحديث حديثه ، وأصدق الكلام كلامه ، ثم قرأ (وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [1]) حتى انتهى إلى قوله (إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [2]) فشهق شهقة ظننت أنه قد غشي عليه . ثم قال ، يا ابن حيان ، مات أبوك حيان ، ويوشك أن تموت ، فإما إلى جنة وإما إلى نار . ومات أبوك آدم ، وماتت أمك حواء ، ومات نوح ، ومات ابراهيم خليل الرحمن ، ومات موسى نجي الرحمن ، ومات داود خليفة الرحمن ، ومات محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم ، وهو رسول رب العالمين ، ومات أبو بكر خليفة المسلمين ، ومات عمر بن الخطاب أخي وصفيي . ثم قال يا عمراه يا عمراه . قال فقلت رحمك الله إن عمر لم يمت ، قال فقد نعاه إلي ربي ، ونعى إلي نفسي

(١) ، (٢) الدخان : من ٣٨ إلى ٤٢

ثم قال ، أنا وأنت في الموتى كأنه قد كان ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم دعا بدعوات خفيات، ثم قال هذه وصيتي إياك ياهرم بن حيان، كتاب الله، ونهج الصالحين المؤمنين ،فقد نعيت إلى نفسي ونفسك،عليك بذكر الموت ،لا يفارق قلبك طرفة عين ما بقيت وأنذر قومك إذا رجعت إليهم ، وانصح للأمة جميعا . وإياك أن تفارق الجماعة قيد شبر فتفارق دينك وأنت لا تعلم ، فتدخل النار يوم القيامة . ادع لي ولنفسك . ثم قال ، اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك ، وزارني من أجلك ، فعرفني وجهه في الجنة ، وأدخله عليّ في دارك دار السلام ، واحفظه مادام في الدنيا حيثما كان ، وضم عليه ضيعته ، وأرضه من الدنيا باليسير ، وما أعطيته من الدنيا فيسره له تيسيرا ، واجعله لما أعطيته من نعمائك من الشاكرين ، وأجزه عني خير الجزاء . ثم قال استودعك الله ياهرم بن حيان ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، لا أراك بعد اليوم رحمك الله تطلبني ،فإني أكره الشهرة،والوحدة أحب إلي ، إني كثير الهم ، شديد الغم مع هؤلاء الناس مادمت حيا ، فلا تسأل عني ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك ولم ترني فاذكرني ، وادع لي ، فإني سأذكرك وأدعو لك إن شاء الله . انطلق أنت ههنا ، حتى أنطلق أنا ههنا . فحرصت أن أمشي معه ساعة ، فأبى علي وفارقته ، فبكى وأبكاني ، وجعلت أنظر في قفاه ، حتى دخل بعض السكك ، ثم سألت عنه بعد ذلك ، فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء رحمه الله وغفر له

فهكذا كانت سيرة أبناء الآخرة المعرضين عن الدنيا . وقد عرفت مما سبق في بيان الدنيا ، ومن سيرة الأنبياء والأولياء ، أن حد الدنيا كل ما أظلته الخضراء ، وأقلته الغبراء ، إلا ما كان لله عز وجل من ذلك . وضد الدنيا الآخرة ، وهو كل ما أريد به الله تعالى ،مما يؤخذ بقدر الضرورة من الدنيا ، لأجل قوة طاعة الله ، وذلك ليس من الدنيا . ويتبين هذا بمثال . وهو أن الحاج إذا حلف أنه في طريق الحج ، لا يشتغل بغير الحج ، بل يتجرد له ثم اشتغل بحفظ الزاد ، وعلف الجمل وخرز الراوية ، وكل مالا بد للحج منه لم يحنث في يمينه ولم يكن مشغولا بغير الحج . فكذلك البدن مركب النفس ، تقطع به مسافة العمر ، فتعهد البدن بما تبقى به قوته على سلوك الطريق بالعلم والعمل ، هو من الآخرة لا من الدنيا .

نعم إذا قصد تلذذ البدن، وتنعمه بشيء من هذه الأسباب ، كان منحرفاً عن الآخرة ، ويخشى على قلبه القسوة . قال الطنافسي ، كنت على باب بني شيبة في المسجد الحرام سبعة أيام طاويا فسمعت في الليلة الثامنة مناديا وأنا بين اليقظة والنوم ، ألا من أخذ من الدنيا أكثر مما يحتاج إليه أعمى الله عين قلبه . فهذا بيان حقيقة الدنيا في حقك، فاعلم ذلك ترشد إن شاء الله تعالى

بيان

حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، للإنسان فيها حظ ، وله في إصلاحها شغل. فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها ، وليس كذلك

أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها ، فهي الأرض وما عليها . قال الله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [١]) فالأرض فراش للآدميين ، ومهاد ، ومسكن ، ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ، ومطعم، ومشرب، ومنكح ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام: المعادن ، والنبات ، والحيوان . أما النبات ، فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي . وأما المعادن ، فيطلبها للآلات والأواني ، كالنحاس والرصاص ، وللنقد كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد . وأما الحيوان ، فينقسم إلى الإنسان ، والبهائم . أما البهائم ، فيطلب منها لحومها للمآكل، وظهورها للمراكب والزينة، وأما الإنسان فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان ، أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان . ويطلب قلوب الناس ليملكها ، بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه ، إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين . فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا ، وقد جمعها الله تعالى في قوله (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ [٢]) وهذا من الإنس (وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ [٣]) وهذا من الجواهر والمعادن وفيه تنبيه على غيرها من اللآلئ، واليواقيت وغيرها (وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ [٤])وهي

---

(١) الكهف : (٢ و ٣ و ٤) آل عمران : ١٤

البهائم والحيوانات (وَالْحَرْثِ (١)) وهو النبات والزرع

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين ، علاقة مع القلب ، وهو حبه لها وحظه منها ، وانصراف همه إليها حتى يصير قلبه كالعبد ،أو المحب المستهتر بالدنيا ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا ،كالكبر ،والغل ،والحسد والرياء ،والسمعة وسوء الظن ، والمداهنة ، وحب الثناء ، وحب التكاثر والتفاخر ، وهذه هي الدنيا الباطنة وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها،العلاقة الثانية مع البدن ، وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان ، لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها . والخلق إنما نسوا أنفسهم ، ومآبهم ، ومنقلبهم بالدنيا ، لهاتين العلاقتين ، علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل . ولو عرف نفسه ، وعرف ربه ، وعرف حكمة الدنيا وسرها ، علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا ، لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى . وأعني بالدابة البدن . فإنه لا يبقى إلا بمطعم ،ومشرب ،وملبس ،ومسكن . كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف ، وماء ، وجلال

ومثال العبد في الدنيا في نسيانه نفسه ومقصده ،مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق ، ولا يزال يعلف الناقة ، ويتعهدها ، وينظفها ، ويكسوها ألوان الثياب ، ويحمل إليها أنواع الحشيش ،ويبرد لها الماء بالثلج ، حتى تفوته القافلة ، وهو غافل عن الحج وعن مرور القافلة ، وعن بقائه في البادية فريسة للسباع هو وناقته . والحاج البصير لا يهمه من أمر الجمل إلا القدر الذي يقوى به على المشي ، فيتعهده وقلبه إلى الكعبة والحج . وإنما يلتفت إلى الناقة بقدر الضرورة . فكذلك البصير في السفر الآخرة، لا يشتغل بتعهد البدن إلا بالضرورة ، كما لا يدخل بيت الماء إلا لضرورة . ولا فرق بين إدخال الطعام في البطن وبين إخراجه من البطن ، في أن كل واحد منهما ضرورة البدن، ومن همته ما يدخل بطنه فقيمته ما يخرج منها . وأكثر ما شغل الناس عن الله تعالى هو البطن . فإن القوت ضروري وأمر المسكن والملبس أهون . ولو عرفوا سبب الحاجة إلى هذه الأمور ، واقتصروا عليه لم تستغرقهم أشغال الدنيا . وإنما استغرقتهم لجهلهم بالدنيا وحكمتها ،وحظوظهم منها . ولكنهم

(١) آل عمران : ١٤

جهلوا وغفلوا ، وتتابعت أشغال الدنيا عليهم ، واتصل بعضها ببعض ، وتداعت إلى غير نهاية محدودة ، فتاهوا فى كثرة الأشغال ، ونسوا مقاصدها . ونحن نذكر تفاصيل أشغال الدنيا ، وكيفية حدوث الحاجة إليها ، وكيفية غلط الناس فى مقاصدها ، حتى تتضح لك أشغال الدنيا كيف صرفت الخلق عن الله تعالى ، وكيف أنستهم عاقبة أمورهم فنقول :

الأشغال الدنيوية هي الحرف ، والصناعات ، والأعمال التى ترى الخلق منكبين عليها وسبب كثرة الأشغال ، هو أن الإنسان مضطر إلى ثلاث ، القوت ، والمسكن ، والملبس فالقوت للغذاء والبقاء ، والملبس لدفع الحر والبرد ، والمسكن لدفع الحر والبرد ، ولدفع أسباب الهلاك عن الأهل والمال . ولم يخلق الله القوت ، والمسكن ، والملبس ، مصلحا بحيث يستغنى عن صنعة الإنسان فيه . نعم خلق ذلك للبهائم ، فإن النبات يغذى الحيوان من غير طبخ ، والحر والبرد لا يؤثر فى بدنه ، فيستغنى عن البناء ، ويقنع بالصحراء ، ولباسها شعورها وجلودها ، فتستغنى عن اللباس . والإنسان ليس كذلك ، فحدثت الحاجة لذلك إلى خمس صناعات ، هى أصول الصناعات ، وأوائل الأشغال الدنيوية : وهى الفلاحة ، والرعاية ، والاقتناص ، والحياكة ، والبناء . أما البناء فللمسكن . والحياكة وما يكتنفها من أمر الغزل والخياطة ، فللملبس . والفلاحة للمطعم . والرعاية للمواشى . والخيل أيضا للمطعم والمركب . والاقتناص نعنى به تحصيل ما خلقه الله من صيد ، أو معدن ، أو حشيش ، أو حطب فالفلاح يحصل النباتات ، والراعى يحفظ الحيوانات ويستنتجها ، والمقتنص يحصل ما نبت ونتج بنفسه من غير صنع آدمى . وكذلك يأخذ من معادن الأرض ما خلق فيها من غير صنعة آدمى . و نعنى بالاقتناص ذلك ويدخل تحته صناعات وأشغال عدة

ثم هذه الصناعات تفتقر إلى أدوات وآلات ، كالحياكة ، والفلاحة ، والبناء ، والاقتناص والآلات إنما تؤخذ إما من النبات وهو الأخشاب ، أو من المعادن كالحديد والرصاص وغيرهما أو من جلود الحيوانات فحدثت الحاجة إلى ثلاثة أنواع أخر من الصناعات ، النجارة ، والحدادة والخرز : وهؤلاء هم عمال الآلات . ونعنى بالنجار كل عامل فى الخشب كيفما كان . وبالحداد كل عامل فى الحديد وجواهر المعادن حتى النحاس والابرى وغيرهما . وغرضنا ذكر الأجناس فأما آحاد الحرف فكثيرة . وأما الخراز ، فنعنى به كل عامل فى جلود الحيوانات وأجزائها .

فهذه أمهات الصناعات . ثم إن الإنسان خلق بحيث لا يعيش وحده، بل يضطر إلى الاجتماع مع غيره من جنسه وذلك لسببين، أحدهما: حاجته إلى النسل لبقاء جنس الإنسان، ولا يكون ذلك إلا باجتماع الذكر والانثى وعشرتهما . والثانى :التعاون على تهيئة أسباب المطعم والملبس ولتربية الولد . فإن الاجتماع يفضى إلى الولد لامحالة . والواحد لا يشتغل بحفظ الولد وتهيئة أسباب القوت . ثم ليس يكفيه اجتماع مع الأهل والولد فى المنزل ، بل لا يمكنه أن يعيش كذلك مالم تجتمع طائفة كثيرة ،ليتكفل كل واحد بصناعة ، فإن الشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده ، وهو يحتاج إلى آلاتها ، وتحتاج الآلة إلى حداد ونجار ، ويحتاج الطعام إلى طحان وخباز . وكذلك كيف ينفرد بتحصيل الملبس ، وهو يفتقر إلى حراسة القطن، وآلات الحياكة والخياطة وآلات كثيرة . فلذلك امتنع عيش الإنسان وحده ، وحدثت الحاجة إلى الاجتماع . ثم لو اجتمعوا فى صحراء مكشوفة ، لتأذوا بالحر والبرد والمطر واللصوص فافتقروا إلى أبنية محكمة ، ومنازل ينفرد كل أهل بيت به وبما معه من الآلات ، والأثاث ، والمنازل تدفع الحر والبرد والمطر، وتدفع أذى الجيران من اللصوصية وغيرها . لكن المنازل قد تقصدها جماعة من اللصوص خارج المنازل ، فافتقر أهل المنازل إلى التناصر والتعاون ، والتحصن بسور يحيط بجميع المنازل . فحدثت البلاد لهذه الضرورة

ثم مهما اجتمع الناس فى المنازل والبلاد وتعاملوا ، تولدت بينهم خصومات ، إذ تحدث رياسة ، وولاية للزوج على الزوجة ، وولاية للأبوين على الولد لأنه ضعيف يحتاج إلى قوام به ومهما حصلت الولاية على عاقل أفضى إلى الخصومة ، بخلاف الولاية على البهائم ، إذ ليس لها قوة المخاصمة وإن ظلمت . فأما المرأة فتخاصم الزوج، والولد يخاصم الأبوين، هذا فى المنزل وأما أهل البلد أيضا ، فيتعاملون فى الحاجات ، ويتنازعون فيها ، ولو تركوا كذلك لتقاتلوا وهلكوا . وكذلك الرعاة وأرباب الفلاحة ، يتواردون على المراعى ، والأراضى ، والمياه ، وهى لا تفى بأغراضهم ، فيتنازعون لامحالة . ثم قد يعجز بعضهم عن الفلاحة والصناعة ، بعمى ، أو مرض ، أو هرم ، وتعرض عوارض مختلفة، ولو ترك ضائعا لهلك ، ولو وكل تفقده إلى الجميع لتخاذلوا . ولو خص واحد من غير سبب يخصه لكان لا يذعن له . فحدث بالضرورة من هذه العوارض الحاصلة بالاجتماع صناعات أخرى ، فمنها صناعة المساحة ،

التى بها تعرف مقادير الأرض ، لتمكن القسمة بينهم بالعدل . ومنها صناعة الجندية ، لحراسة البلد بالسيف ، ودفع اللصوص عنهم . ومنها صناعة الحكم ، والتوصل لفصل الخصومة . ومنها الحاجة إلى الفقه ، وهو معرفة القانون الذى ينبغى أن يضبط به الخلق ، ويلزموا الوقوف على حدوده ، حتى لا يكثر النزاع ، وهو معرفة حدود الله تعالى فى المعاملات وشروطها . فهذه أمور سياسية لابد منها ، ولا يشتغل بها إلا مخصوصون بصفات مخصوصة من العلم ، والتمييز ، والهداية . وإذا اشتغلوا بها لم يتفرغوا لصناعة أخرى ، ويحتاجون إلى المعاش ، ويحتاج أهل البلد إليهم ، إذ لو اشتغل أهل البلد بالحرب مع الأعداء مثلا ، تعطلت الصناعات . ولو اشتغل أهل الحرب والسلاح بالصناعات لطلب القوت ، تعطلت البلاد عن الحراس ، واستضر الناس . فمست الحاجة إلى أن يصرف إلى معايشهم وأرزاقهم الأموال الضائعة التى لا مالك لها إن كانت . أو تصرف الغنائم إليهم إن كانت العداوة مع الكفار فإن كانوا أهل ديانة وورع ، قنعوا بالقليل من أموال المصالح . وإن أرادوا التوسع ، فتمس الحاجة لا محالة إلى أن يمدهم أهل البلد بأموالهم ، ليمدوهم بالحراسة ، فتحدث الحاجة إلى الخراج . ثم يتولد بسبب الحاجة إلى الخراج الحاجة لصناعات أخر ، إذ يحتاج إلى من يوظف الخراج بالعدل على الفلاحين وأرباب الأموال ، وهم العمال . وإلى من يستوفى منهم بالرفق وهم الجباة والمتخرجون . وإلى من يجمع عنده ليحفظه إلى وقت التفرقة ، وهم الخزان . وإلى من يفرق عليهم بالعدل ، وهو الفارض للعساكر . وهذه الأعمال لو تولاها عدد لا يجمعهم رابطة ، انخرم النظام ، فتحدث منه الحاجة إلى ملك يدبرهم ، وأمير مطاع يعين لكل عمل شخصا ، ويختار لكل واحد ما يليق به ، ويراعى النصفة فى أخذ الخراج وإعطائه ، واستعمال الجند فى الحرب ، وتوزيع أسلحتهم ، وتعيين جهات الحرب ، ونصب الأمير والقائد على كل طائفة منهم ، إلى غير ذلك من صناعات الملك . فيحدث من ذلك بعد الجند الذين هم أهل السلاح ، وبعد الملك الذى يراقبهم بالعين الكالئة ويدبرهم ، الحاجة إلى الكتاب ، والخزان ، والحساب ، والجباة ، والعمال . ثم هؤلاء أيضا يحتاجون إلى معيشة ، ولا يمكنهم الاشتغال بالحرف ، فتحدث الحاجة إلى مال الفرع مع مال الأصل وهو المسمى فرع الخراج . وعند هذا يكون الناس فى الصناعات ثلاث طوائف ،

الفلاحون ، والرعاة ، والمحترفون . والثانية الجندية الحماة بالسيوف . والثالثة المترددون بين الطائفتين فى الأخذ والعطاء ، وهم العمال ، والجباة ، وأمثالهم . فانظر كيف ابتدأ الأمر من حاجة القوت، والملبس ، والمسكن ، وإلى ماذا انتهى . وهكذا أمور الدنيا ، لا يفتح منها باب ، إلا وينفتح بسببه أبواب أخر وهكذا تتناهى إلى غير حد محصور ، وكأنها هاوية لا نهاية لعمقها ، من وقع فى مهواة منها سقط منها إلى أخرى ، وهكذا على التوالى

فهذه هى الحرف والصناعات ، إلا أنها لا تتم إلا بالأموال والآلات، والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به ، وأعلاها الأغذية ، ثم الأمكنة التى يأوى الإنسان إليها وهى الدور ، ثم الأمكنة التى يسعى فيها للتعيش كالحوانيت ، والأسواق، والمزارع ثم الكسوة، ثم أثاث البيت وآلاته. ثم آلات الآلات وقد يكون فى الآلات ماهو حيوان كالكلب آلة الصيد والبقر آلة الحراثة ، والفرس آلة الركوب فى الحرب . ثم يحدث من ذلك حاجة البيع، فإن الفلاح ربما يسكن قرية ليس فيها آلة الفلاحة ، والحداد والنجار يسكنان قرية لا يمكن فيها الزراعة ، فبالضرورة يحتاج الفلاح إليهما ، ويحتاجان إلى الفلاح . فيحتاج أحدهما أن يبذل ما عنده للآخر ، حتى يأخذ منه غرضه ، وذلك بطريق المعاوضة : إلا أن النجار مثلا إذا طلب من الفلاح الغذاء بآلته ، ربما لا يحتاج الفلاح فى ذلك الوقت إلى آلته ، فلا يبيعه والفلاح إذا طلب الآلة من النجار بالطعام ، ربما كان عنده طعام فى ذلك الوقت، فلا يحتاج إليه . فتتعوق الأغراض . فاضطروا إلى حانوت يجمع آلة كل صناعة ، ليترصد بها صاحبها أرباب الحاجات . وإلى أبيات يجمع إليها ما يحمله الفلاحون ، فيشتريه منهم صاحب الأبيات ليترصد به أرباب الحاجات . فظهرت لذلك الأسواق والمخازن ، فيحمل الفلاح الحبوب ، فإذا لم يصادف محتاجا ، باعها بثمن رخيص من الباعة ، فيخزنونها فى انتظار أرباب الحاجات طمعا فى الربح . وكذلك فى جميع الأمتعة والأموال . ثم يحدث لا محالة بين البلاد والقرى تردد ، فيتردد الناس ، يشترون من القرى الأطعمة ، ومن البلاد الآلات وينقلون ذلك ويتعيشون به ، لتنتظم أمور الناس فى البلاد بسببهم ، إذ كل بلد ربما لا توجد فيه كل آلة ، وكل قرية لا يوجد فيها كل طعام . فالبعض يحتاج إلى البعض، فيحوج إلى النقل فيحدث التجار المتكفلون بالنقل ، وباعثهم عليه حرص جمع المال لا محالة ، فيتعبون طول

الليل والنهار فى الأسفار لغرض غيرهم ، ونصيبهم منها جمع المال الذى يأكله لامحالة غيرهم إما قاطع طريق ، وإما سلطان ظالم . ولكن جعل الله تعالى فى غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . بل جميع أمور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وارتفعت هممهم لزهدوا فى الدنيا . ولو فعلوا ذلك ، لبطلت المعايش ولو بطلت لهلكوا ، ولهلك الزهاد أيضا

ثم هذه الأموال التى تنقل لايقدر الإنسان على حملها ، فتحتاج إلى دواب تحملها . وصاحب المال قد لاتكون له دابة ، فتحدث معاملة بينه وبين مالك الدابة تسمى الإجارة . ويصير الكراء نوعا من الاكتساب أيضا . ثم يحدث بسبب البياعات الحاجة إلى النقدين ، فإن من يريد أن يشترى طعاما بثوب ، فمن أين يدرى المقدار الذى يساويه من الطعام كم هو . والمعاملة تجرى فى أجناس مختلفة ، كما يباع ثوب بطعام ، وحيوان بثوب . وهذه أمور لاتتناسب ، فلا بد من حاكم عدل يتوسط بين المتبايعين ، يعدل أحدهما بالآخر ، فيطلب ذلك العدل من أعيان الأموال ، ثم يحتاج إلى مال يطول بقاؤه لأن الحاجة إليه تدوم . وأبقى الأموال المعادن ، فاتخذت النقود من الذهب ، والفضة ، والنحاس . ثم مست الحاجة إلى الضرب ، والنقش ، والتقدير ، فمست الحاجة إلى دار الضرب والصيارفة : وهكذا تتداعى الاشغال والأعمال بعضها إلى بعض ، حتى انتهت إلى ماتراه

فهذه أشغال الخلق ، وهى معاشهم . وشىء من هذه الحرف لا يمكن مباشرته إلا بنوع تعلم وتعب فى الابتداء . وفى الناس من يغفل عن ذلك فى الصبا فلا يشتغل به ، أو يمنعه عنه مانع ، فيبقى عاجزا عن الاكتساب ، لعجزه عن الحرف . فيحتاج إلى أن يأكل مما يسعى فيه غيره ، فيحدث منه حرفتان خسيستان ، اللصوصية ، والكداية . إذ يجمعهما أنهما يأكلان من سعي غيرهما . ثم الناس يحترزون من اللصوص والمكدين ، ويحفظون عنهم أموالهم ، فافتقروا إلى صرف عقولهم فى استنباط الحيل والتدابير أما اللصوص ، فنهم من يطلب أعوانا ، ويكون فى يديه شوكة وقوة ، فيجتمعون ويتكاثرون ، ويقطعون الطريق كالأعراب والأكراد . وأما الضعفاء منهم ، فيفزعون إلى الحيل ، إما بالنقب أو التسلق عند انتهاز فرصة الغفلة ، وإما بأن يكون طرارا أوسلالا ، إلى غير ذلك من أنواع التلصص ، الحادثة بحسب ما تنتجه الأفكار المصروفة إلى استنباطها

وأما المكدى ، فإنه إذا طلب مأسعى فيه غيره ، وقيل له اتعب واعمل كما عمل غيرك فمالك والبطالة ؟ فلا يعطى شيئا . فافتقروا إلى حيلة فى استخراج الأموال ، وتمهيد العذر لأنفسهم فى البطالة ، فاحتالوا للتعلل بالعجز ، إما بالحقيقة ، كجماعة يعمون أولادهم وأنفسهم بالحيلة ، ليعذروا بالعمى فيعطون . وإما بالتعامى ، والتفالج ، والتجانن ، والتمارض ، وإظهار ذلك بأنواع من الحيل ، مع بيان أن تلك محنة أصابت من غير استحقاق ، ليكون ذلك سبب الرحمة

وجماعة يلتمسون أقوالا وأفعالا ، يتعجب الناس منها ، حتى تنبسط قلوبهم عند مشاهدتها فيسخوا برفع اليد عن قليل من المال فى حال التعجب ، ثم قد يندم بعد زوال التعجب ، ولا ينفع الندم . وذلك قد يكون بالتمسخر ، والمحاكاة ، والشعبذة ، والأفعال المضحكة وقد يكون بالأشعار الغريبة ، والكلام المنثور المسجع ، مع حسن الصوت . والشعر الموزون أشد تأثيرا فى النفس ، لاسيما إذا كان فيه تعصب يتعلق بالمذاهب كأشعار مناقب الصحابة وفضائل أهل البيت . أو الذى يحرك داعية العشق من أهل المجانة كصنعة الطبالين فى الأسواق وصنعة ما يشبه العوض وليس بعوض ، كبيع التعويذات والحشيش ، الذى يخيل بائعه أنها أدوية ، فيخدع بذلك الصبيان والجهال ، وكأصحاب القرعة والفأل من المنجمين . ويدخل فى هذا الجنس الوعاظ ، والمكدون على رءوس المنابر ؛ إذا لم يكن وراءهم طائل علمى ، وكان غرضهم استمالة قلوب العوام ، وأخذ أموالهم بأنواع الكدية ، وأنواعها تزيد على ألف نوع وألفين ، وكل ذلك استنبط بدقيق الفكرة لأجل المعيشة

فهذه هى أشغال الخلق وأعمالهم التى أكبوا عليها ، وجرهم إلى ذلك كله الحاجة إلى القوت والكسوة ، ولكنهم نسوا فى أثناء ذلك أنفسهم ، ومقصودهم ، ومنقلبهم ، ومآبهم فتاهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا ، خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم ، واختلفت آراؤهم على عدة أوجه . فطائفة غلبهم الجهل والغفلة ، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم ، فقالوا المقصود أن نعيش أياما فى الدنيا فنجتهد حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل فيأكلون ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا . وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين ، ومن ليس له تنعم فى الدنيا ، ولا قدم فى الدين . فإنه يتعب نهارا ليأكل ليلا ، ويأكل ليلا ليتعب نهارا

وذلك كثير السوانى ، فهو سفر لاينقطع إلا بالموت . وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا الأمر ، وأنه ليس المقصود أن يشق الإنسان بالعمل ولا يتنعم فى الدنيا ، بل السعادة فى أن يقضي وطره من شهوة الدنيا ، وهى شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم ، وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان ، وجمع لذائذ الأطعمة . يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة . فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر . وطائفة ظنوا أن السعادة فى كثرة المال ، والاستغناء بكثرة الكنوز فأسهروا ليلهم ، وأتعبوا نهارهم فى الجمع ، فهم يتعبون فى الأسفار طول الليل والنهار ، ويترددون فى الأعمال الشاقة ، ويكتسبون ويجمعون ، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة ، شحا وبخلا عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم ، وفى ذلك دأبهم وحركتهم ، إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله فى الشهوات واللذات ، فيكون للجامع تعبه ووباله ، وللآكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون . وطائفة ظنوا أن السعادة فى حسن الاسم ، وانطلاق الألسنة بالثناء ، والمدح بالتجمل والمروءة ، فهؤلاء يتعبون فى كسب المعاش ، ويضيقون على أنفسهم فى المطعم والمشرب ، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة ، والدواب النفيسة . ويزخرفون أبواب الدور ، وما يقع عليها أبصار الناس ، حتى يقال إنه غنى ، وإنه ذو ثروة ، ويظنون أن ذلك هى السعادة فهمتهم فى نهارهم وليلهم ، فى تعهد موقع نظر الناس . وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة فى الجاه والكرامة بين الناس ، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة بطلب الولايات ، وتقلد الأعمال السلطانية ، لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم ، وانقادت لهم رعاياهم ، فقد سعدوا سعادة عظيمة وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله ، وعن عبادته ، وعن التفكر فى آخرتهم ومعادهم

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها ، تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . وإنما جرهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة ، والقدر الذى يكفى منها ، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم ارقى منها

فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال ، وعرف غاية المقصود منها ، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل ، إلا وهو عالم بمقصوده ، وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك . وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه ، وفرغ القلب ، وغلب عليه ذكر الآخرة ، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له . وإن تعدى به قدر الضرورة ، كثرت الأشغال ، وتداعى البعض إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية . فتتشعب به الهموم . ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا ، فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا

وتنبه لذلك طائفة ، فأعرضوا عن الدنيا ، فحسدهم الشيطان ، ولم يتركهم ، وأضلهم في الإعراض أيضا ، حتى انقسموا إلى طوائف ، فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة ، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها ، سواء تعبد في الدنيا أو لم يتعبد ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم ، للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند ، فهم يتهجمون على النار ، ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا ،

وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص ، بل لا بد أولا من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب . ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة ، وبعضهم فسد عقله وجن ، وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة ، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية ، فظن أن ما كلفه الشرع محال ، وأن الشرع تلبيس لا أصل له ، فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله ، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد ، لا ينقصه عصيان عاص ، ولا تزيده عبادة متعبد . فعادوا إلى الشهوات ، وسلكوا مسلك الإباحة ، وطووا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم ، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد ،

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة ، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل ، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق . ووراء هذا مذاهب باطلة ، وضلالات هائلة ، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفا وسبعين فرقة . وإنما الناجي منها فرقة واحدة ، وهي السالكة ما كان عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لايترك الدنيا بالكلية . ولايقمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا ، فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات ، فيقمع منها مايخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولايتبع كل شهوة ، ولا يترك كل شهوة . بل يتبع العدل ، ولايترك كل شيء ولا يطلب كل شيء من الدنيا . بل يعلم مقصود كل ماخلق من الدنيا ، ويحفظه على حد مقصوده فيأخذ من القوت مايقوى به البدن على العبادة ، ومن المسكن مايحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن ، أقبل على الله تعالى بكنه همته ، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقى ملازما لسياسة الشهوات، ومراقبا لها ، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى . ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه السلام [1] لما قال « النَّاجِي مِنْهَا وَاحِدَةٌ » قالوا يارسول الله . ومن هم ؟ قال « أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ » فقيل ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » وقد كانوا على النهج القصد ، وعلى السبيل الواضح الذى فصلناه من قبل . فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين . وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية . وما كان لهم فى الأمور تفريط ولا إفراط . بل كان أمرهم بين ذلك قواما . وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين ، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى كما سبق ذكره فى مواضع ، والله أعلم

تم كتاب ذم الدنيا ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

---

(١) حديث افتراق الأمة وفيه الناجى منهم واحدة قالوا ومن هم قال أهل السنة والجماعة ـ الحديث : الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وحسنه تفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار الا ملة واحدة فقالوا من هى يارسول الله قال ماأنا عليه وأصحابى ولابى داود من حديث معاوية وابن ماجه من حديث أنس وعوف بن مالك وهى الجماعة وأسانيدها جياد

فهرست الجزء التاسع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء العاشر

دار الشعب
٩٥ شارع قصر العيني القاهرة ت: ٢١٨١٠



كتاب ذمّ البخل وذمّ حبّ المال

كتاب ذم البخل وذم حب المال

وهو الكتاب السابع من ربع المهلكات
من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مستوجب الحمد برزقه المبسوط ، وكاشف الضر بعد القنوط ، الذى خلق الخلق ووسع الرزق ، وأفاض على العالمين أصناف الأموال ، وابتلاهم فيها بتقلب الأحوال ، ورددهم فيها بين العسر واليسر ، والغنى والفقر ، والطمع واليأس ، والثروة والإفلاس ، والعجز والاستطاعة ، والحرص والقناعة ، والبخل والجود ، والفرح بالموجود ، والأسف على المفقود ، والإيثار والإنفاق ، والتوسع والإملاق ، والتبذير والتقتير ، والرضا بالقليل واستحقار الكثير . كل ذلك ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وينظر أيهم آثر الدنيا على الآخرة بدلا ، وابتغى عن الآخرة عدولا وحولا ، واتخذ الدنيا ذخيرة وخولا

والصلاة على محمد الذى نسخ بملته مللا ، وطوى بشريعته أديانا ونحلا ، وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا سبيل ربهم ذللا ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد . فإن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف ، واسعة الأرجاء والأكناف ولكن الأموال أعظم فتنها ، وأطم محنها . وأعظم فتنة فيها أنه لاغنى لأحد عنها ، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها . فإن فقد المال حصل منه الفقر الذى يكاد أن يكون كفرا وإن وجد حصل منه الطغيان الذى لاتكون عاقبة أمره إلا خسرا ، وبالجملة فهى لاتخلو من الفوائد والآفات . وفوائدها من المنجيات ، وآفاتها من المهلكات ، وتمييز خيرها عن شرها من المعوصات التى لايقوى عليها إلا ذوو البصائر فى الدين ، من العلماء الراسخين دون المترسمين المغترين . وشرح ذلك مهم على الانفراد ، فإن ماذكرناه فى كتاب ذم الدنيا لم يكن نظرا فى المال خاصة ، بل فى الدنيا عامة . إذ الدنيا تتناول كل حظ عاجل ، والمال بعض أجزاء الدنيا ، والجاه بعضها ، واتباع شهوة البطن والفرج بعضها ، وتشفى الغيظ بحكم

الغصب والحسد بعضها ، والكبر وطلب العلو بعضها ، ولها أبعاض كثيرة . ويجمعها كل ما كان للإنسان فيه حظ عاجل : ونظرنا الآن فى هذا الكتاب فى المال وحده ، إذ فيه آفات وغوائل ، وللإنسان من فقده صفة الفقر ، ومن وجوده وصف الغنى ، وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان . ثم للفاقد حالتان ، القناعة ، والحرص ، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللحريص حالتان ، طمع فيما فى أيدى الناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق . والطمع شر الحالتين . وللواجد حالتان ، إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق وإحداهما مذمومة ، والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان ، تبذير ، واقتصاد . والمحمود هو الاقتصاد . وهذه أمور متشابهة ، وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم

ونحن نشرح ذلك فى أربعة عشر فصلا إن شاء الله تعالى . وهو بيان ذم المال ، ثم مدحه ثم تفصيل فوائد المال وآفاته ، ثم ذم الحرص والطمع ، ثم علاج الحرص والطمع ، ثم فضيلة السخاء ، ثم حكايات الأسخياء ، ثم ذم البخل ، ثم حكايات البخلاء ، ثم الإيثار وفضله ، ثم حد السخاء والبخل ، ثم علاج البخل ، ثم مجموع الوظائف فى المال ، ثم ذم الغنى ومدح الفقر إن شاء الله تعالى

بيان

ذم المال وكراهة حبه

قال الله تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [1]) وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [2]) فمن اختار ماله وولده على ما عند الله ، فقد خسر وغبن خسرانا عظيما ، وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا [3]) الآية وقال تعالى (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى [4]) فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وقال تعالى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ [5]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حُبُّ الْمَالِ وَالشَّرَفِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِى الْقَلْبِ كَمَا

(كتاب ذم البخل وحب المال)

١) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل : لم أجده بهذا اللفظ وذكره بعد هذا بلفظ الجاه بدل الشرف

---

(١) المنافقون : ٩ (٢) التغابن : ١٥ (٣) هود : ١٥ (٤) العلق : ٦ ، ٧ (٥) التكاثر : ١

يُنبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَاذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلاَ فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَكْثَرَ إِفْسَادًا فِيهَا مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « هَلَكَ الْمُكْثِرُونَ إِلاَّ مَنْ قَالَ بِهِ فِي عِبَادِ اللهِ هَكَذَا وَهَكَذَا وَقَلِيلٌ مَاهُمْ » [3] وقيل يارسول الله ، أى امتك شر ؟ قال « الْأَغْنِيَاءُ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « سَيَأْتِي بَعْدَكُمْ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ أَطَايِبَ الدُّنْيَا وَأَلْوَانَهَا وَيَرْكَبُونَ فُرَّهَ الْخَيْلِ وَأَلْوَانَهَا وَيَنْكِحُونَ أَجْمَلَ النِّسَاءِ وَأَلْوَانَهَا وَيَلْبَسُونَ أَجْمَلَ الثِّيَابِ وَأَلْوَانَهَا لَهُمْ بُطُونٌ مِنَ الْقَلِيلِ لاَتَشْبَعُ وَأَنْفُسٌ بِالْكَثِيرِ لاَتَقْنَعُ عَاكِفُونَ عَلَى الدُّنْيَا يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ إِلَيْهَا اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِ إِلَهِهِمْ وَرَبًّا دُونَ رَبِّهِمْ إِلَى أَمْرِهَا يَنْتَهُونَ وَلِهَوَاهُمْ يَتَّبِعُونَ . فَعَزِيمَةٌ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ لِمَنْ أَدْرَكَهُ ذَلِكَ الزَّمَانُ مِنْ عَقِبِ عَقِبِكُمْ وَخَلَفِ خَلَفِكُمْ أَنْ لاَيُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ وَلاَ يَعُودَ مَرْضَاهُمْ وَلاَ يَتَّبِعَ جَنَائِزَهُمْ وَلاَ يُوَقِّرَ كَبِيرَهُمْ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى

---

(١) حديث ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم بأكثر فسادا لها من حب المال والجاه فى دين الرجل المسلم: الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث كعب بن مالك وقالا جائعان مكان ضاريان ولم يقولا فى زريبة وقالا الشرف بدل الجاه قال الترمذى حسن صحيح وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد ما ذئبان ضاريان فى زريبة غنم ـ الحديث : وللبزار من حديث أبى هريرة ضاريان جائعان واسناد الطبرانى فيهما ضعيف

(٢) حديث هلك الأكثرون الامن قال به فى عباد الله هكذا وهكذا ـ الحديث.: الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن أبزى بلفظ المكثرون ولم يقل فى عباد الله ورواه أحمد من حديث أبى سعيد بلفظ المكثرون وهو متفق عليه من حديث أبى ذر بلفظهم الأخسرون فقال أبو ذر من هم فقال هم الاكثرون أموالا إلا من قال هكذا ـ الحديث :

(٣) حديث قيل يارسول الله أى أمتك شر قال الاغنياء: غريب لم أجده بهذا اللفظ وللطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث عبد الله بن جعفر شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به يأكلون من الطعام ألوانا وفيه أصرم بن حوشب ضعيف ورواه هناد بن السرى فى الزهد له من رواية عروة بن رويم مرسلا وللبزار من حديث أبى هريرة بسند ضعيف ان من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسامهم

(٤) حديث سيأتى بعدكم قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها وينكحون أجمل النساء وألوانها ـ الحديث بطوله الطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث أبى أمامة سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام ويشربون ألوان الشراب ويلبسون ألوان الثياب يتشدقون فى الكلام أولئك شرار أمتى وسنده ضعيف ولم أجد لباقيه أصلا ،

هَدْمِ الْإِسْلَامِ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « دَعُوا الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا مَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ حَتْفَهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ » [٣] وقال رجل يارسول الله ، مالى لا أحب الموت ؟ فقال « هَلْ مَعَكَ مِنْ مَالٍ ؟ » قال نعم يارسول الله . قال « قَدِّمْ مَالَكَ فَإِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مَعَ مَالِهِ إِنْ قَدَّمَهُ أَحَبَّ أَنْ يَلْحَقَهُ وَإِنْ خَلَّفَهُ أَحَبَّ أَنْ يَتَخَلَّفَ مَعَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَخِلَّاءُ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ وَاحِدٌ يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ وَالثَّانِي إِلَى قَبْرِهِ وَالثَّالِثُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْضِ رُوحِهِ فَهُوَ مَالُهُ وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى قَبْرِهِ فَهُوَ أَهْلُهُ وَالَّذِي يَتْبَعُهُ إِلَى مَحْشَرِهِ فَهُوَ عَمَلُهُ »

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام ، مالك تمشى على الماء ولا نقدر على ذلك ؟ فقال لهم : مامنزلة الدينار والدرهم عندكم ؟ قالوا حسنة . قال لكنهما والمدر عندى سواء .

[٥] وكتب سلمان الفارسى إلى أبى الدرداء رضي الله عنهما ، ياأخى ، إياك أن تجمع من الدنيا مالا تؤدى شكره ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي أَطَاعَ اللهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالُهُ امْضِ فَقَدْ أَدَّيْتَ حَقَّ اللهِ فِيَّ ثُمَّ يُجَاءُ بِصَاحِبِ الدُّنْيَا الَّذِي لَمْ يُطِعِ اللهَ فِيهَا وَمَالُهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ

---

(١) حديث دعوا الدنيا لأهلها من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر : البزار من حديث أنس وفيه هانىء بن المتوكل ضعفه ابن حبان

(٢) حديث يقول العبد مالى مالى ـ الحديث : مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبى هريرة وقد تقدم

(٣) حديث قال رجل يارسول الله مالى لا أحب الموت ـ الحديث : لم أقف عليه

(٤) حديث أخلاء ابن آدم ثلاثة وأحد يتبعه إلى قبض روحه والثانى إلى قبره ـ الحديث : أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث النعمان بن بشير باسناد جيد نحوه ورواه أبو داود الطيالسى وأبو الشيخ فى كتاب الثواب والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس بسند جيد أيضا وفى الكبير من حديث سمرة بن جندب وللشيخين من حديث أنس يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد ـ الحديث :

(٥) حديث كتب سلمان إلى أبى الدرداء وفيه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يجاء بصاحب الدنيا الذى أطاع الله فيها وماله بين يديه ـ الحديث : قلت ليس هو من حديث سلمان إنما هو من حديث أبى الدرداء أنه كتب إلى سلمان كذا رواه البيهقى فى الشعب وقال بدل الدنيا المال وهو منقطع

كُلَّمَا تَكَفَّأَ بِهِ الصِّرَاطُ قَالَ لَهُ مَالَهُ وَيْلَكَ أَلاَ أَدَّيْتَ حَقَّ اللهِ فِيَّ فَمَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَدْعُو بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ » . وكل ماأوردناه فى كتاب الزهد والفقر ، فى ذم الغنى ومدح الفقر ، يرجع جميعه إلى ذم المال ، فلا نطول بتكريره . وكذا كل ماذكرناه فى ذم الدنيا فيتناول ذم المال بحكم العموم ، لأن المال أعظم أركان الدنيا . وإنما نذكر الآن ماورد فى المال خاصة . قال صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ مَاقَدَّمَ ؟ وَقَالَ النَّاسُ مَاخَلَّفَ ؟ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَتَتَّخِذُوا الضَّيْعَةَ فَتُحِبُّوا الدُّنْيَا »

الآثار : روى أن رجلا نال من أبى الدرداء ، وأراه سوأ ، فقال اللهم من فعل بى سوأ فأصح جسمه ، وأطل عمره ، وأكثر ماله . فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء ، مع صحة الجسم وطول العمر ، لأنه لابد وأن يفضى إلى الطغيان . ووضع على كرم الله وجهه درهما على كفه ، ثم قال ، أما إنك مالم تخرج عنى لاتنفعنى . وروي أن عمر رضي الله عنه ، أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها . فقالت ماهذا ؟ قالوا أرسل إليك عمر بن الخطاب قالت غفر الله له . ثم سلت سترا كان لها ، فقطعته وجعلته صررا ، وقسمته فى أهل بيتها ورحمها وأيتامها . ثم رفعت يديها وقالت ، اللهم لايدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا . فكانت أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوقا به

وقال الحسن ، والله ماأعز الدرهم أحد إلا أذله الله . وقيل إن أول ماضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس ، ثم وضعهما على جبهته ، ثم قبلهما وقال ، من أحبكما فهو عبدى حقا . وقال سميط بن عجلان ، إن الدراهم والدنانير أزمة المنافقين ، يقادون بها إلى النار . وقال يحيى بن معاذ ، الدرهم عقرب ، فإن لم تحسن رقيته فلا تأخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه . قيل ومارقيته؟ قال أخذه من حله ، ووضعه فى حقه . وقال العلاء بن زياد ، تمثلت لى الدنيا وعليها من كل زينة ، فقلت أعوذ بالله من شرك . فقالت إن سرك أن يعيذك الله منى ، فأبغض الدرهم والدينار . وذلك لأن الدرهم والدينار هما الدنيا كلها ، إذ يتوصل بهما إلى جميع أصنافها . فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا وفى ذلك قيل

---

(١) حديث إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدم .. الحديث : البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة يبلغ به وقد تقدم فى آداب الصحبة

(٢) حديث لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا : الترمذى والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود بلفظ فترغبوا

إنى وجدت فلاتظنوا غيره ... أن التورع عند هذا الدرهم
فإذا قدرت عليه ثم تركته ... فاعلم بأن تقاك تقوى المسلم

وفى ذلك قيل أيضا

لا يغرنك من المر ... ء قميص رقعه
أو إزار فوق عظم ال ... ساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه ... أثر قد خلعه
أره الدرهم تعرف ... حبه أو ورعه

ويروى عن مسلمة بن عبد الملك ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته فقال ياأمير المؤمنين ، صنعت صنيعا لم يصنعه أحد قبلك . تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار ، وكان له ثلاثة عشر من الولد ، فقال عمر ، أقعدونى ، فأقعدوه . فقال،أما قولك لم أدع لهم دينارا ولا درهما ، فإنى لم أمنعهم حقالهم ، ولم أعطهم حقا لغيرهم . وإنما ولدى أحد رجلين ، إما مطيع لله فالله كافيه ، والله يتولى الصالحين. وإما عاص لله، فلا أبالى على ما وقع

وروى أن محمد بن كعب القرظى أصاب مالا كثيرا ، فقيل له لو ادّخرته لولدك من بعدك قال لا ، ولكنى أدخره لنفسى عند ربى، وأدخر ربى لولدى . وروى أن رجلا قال لأبى عبد ربه ياأخى ، لا تذهب بشر وتترك أولادك بخير ، فأخرج أبو عبد ربه من ماله مائة ألف درهم . وقال يحيى بن معاذ ، مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد فى ماله عند موته . قيل وماهما ؟ قال يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله

بيان

مدح المال والجمع بينه وبين الذم

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيرا فى مواضع من كتابه العزيز ، فقال جل وعز (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) [1] الآية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ

---

(٢) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح :أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح بلفظ نعما ،وقال للمرء)

---

(١) البقرة : ١٨٠

لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ » وكل ماجاء فى ثواب الصدقة والحج ، فهو ثناء على المال ، إذلا يمكن الوصول إليهما إلا به . وقال تعالى (وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [(١)]) وقال تعالى ممتنا على عباده(وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً [(٢)]) وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » وهو ثناء على المال

ولاتقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح ، إلا بأن تعرف حكمة المال ، ومقصوده ، وآفاته ، وغوائله ، حتى ينكشف لك أنه خير من وجه ، وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ، ومذموم من حيث هو شر . فإنه ليس بخير محض ، ولا هو شر محض ، بل هو سبب للأمرين جميعا . وماهذا وصفه فيمدح لامحالة تارة ، ويذم أخرى . ولكن البصير المميز ، يدرك أن المحمود منه غير المذموم . وبيانه بالاستمداد مما ذكرناه فى كتاب الشكر ، من بيان الخيرات ، وتفصيل درجات النعم ، والقدر المقنع فيه ، هو أن مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة ، التي هى النعيم الدائم ، والملك المقيم ، والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس ، إذ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [(٢)] ، من أكرم الناس وأكيسهم فقال « أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً » ، وهذه السعادة لا تنال إلا بثلاث وسائل فى الدنيا ، وهى الفضائل النفسية ، كالعلم ، وحسن الخلق ، والفضائل البدنية ، كالصحة ، والسلامة ، والفضائل الخارجة عن البدن ، كالمال ، وسائر الأسباب . وأعلاها النفسية ، ثم البدنية ، ثم الخارجة ، فالخارجة أخسها . والمال من جملة الخارجات . وأدناها الدراهم والدنانير ، فإنهما خادمان ، ولا خادم لهما ، ومرادان لغيرهما ، ولا يرادان لذاتهما . إذ النفس هى الجوهر النفيس المطلوب سعادتها ، وأنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق لتحصلها صفة فى ذاتها . والبدن يخدم النفس بواسطة الحواس ، والأعضاء . والمطاعم والملابس تخدم البدن ، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن ، ومن المناكح

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا : أبو مسلم الليثى فى سننه والبيهقى فى شعب الايمان من حديث أنس وقد تقدم فى كتاب ذم الغضب

(٢) حديث أكرم الناس وأكيسهم قال أكثرهم للموت ذكرا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ أى المؤمنين أكيس ورواه ابن أبى الدنيا فى الموت بلفظ المصنف واسناده جيد

(١) الكهف : ٨٢ (٢) نوح : ١٢

إبقاء النسل ، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها ، وتزيينها بالعلم والخلق. ومن عرف هذا الترتيب ، فقد عرف قدر المال ، ووجه شرفه ، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس التي هي ضرورة بقاء البدن ، الذي هو ضرورة كمال النفس ، الذي هو خير . ومن عرف فائدة الشيء وغايته ومقصده ، واستعمله لتلك الغاية ، ملتفتا إليها ، غير ناس لها ، فقد أحسن وانتفع ، وكان ما حصل له الغرض محمودا في حقه . فإذاً المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح . ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة ، وهي المقاصد الصادة عن سعادة الآخرة ، وتسد سبيل العلم والعمل . فهو إذاً محمود مذموم . محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود ، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم [١] . فمن أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه ، فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر ، كما ورد به الخبر . ولما كانت الطباع مائلة إلى اتباع الشهوات القاطعة لسبيل الله ، وكان المال مسهلا لها ، وآلة إليها ، عظم الخطر فيما يزيد على قدر الكفاية فاستعاذ الأنبياء من شره ، حتى قال نبينا عليه الصلاة والسلام [٢] « اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافاً » فلم يطلب من الدنيا إلا ما يتمحض خيره وقال « اللَّهُمَّ [٣] أَحْيِنِي مِسْكِيناً وَأَمِتْنِي مِسْكِيناً وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ » واستعاذ ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، فقال (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [١]) وعنى بها هذين الحجرين الذهب والفضة ، إذ رتبة النبوة أجل من أن يخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة ، إذ قد كفى قبل النبوة عبادتها مع الصغر . وإنما معنى عبادتهما حبهما ، والاغترار بهما ، والركون إليهما قال نبينا صلى الله عليه وسلم [٤] « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَتَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ وَلاَ انْتَعَشَ وَإِذَا شِيكَ* فَلاَ انْتَقَشَ » فبين أن محبهما عابد لهما . ومن عبد حجرا فهو عابد صنم . بل كل

---

(١) حديث من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه فقد أخذ حتفه وهو لا يشعر : تقدم قبله بتسعة أحاديث وهو بقية احذروا الدنيا

(٢) حديث اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث اللهم أحيني مسكينا : الترمذي من حديث أنس وابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث أبي سعيد وقد تقدم

(٤) حديث تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة ولم يقل وانتقش وانما علق آخره بلفظ تعس وانتكس ووصل ذلك ابن ماجه والحاكم

---

(١) ابراهيم : ٣٥

---

* أي إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالمنقاش

من كان عبدا لغير الله فهو عابد صنم أى من قطعه ذلك عن الله تعالى ، وعن أداء حقه ، فهو كعابد صنم . وهو شرك ، إلا أن الشرك شركان ، شرك خفي لا يوجب الخلود في النار ، وقلما ينفك عنه المؤمنون ، فإنه أخفى من دبيب النمل ، وشرك جلي ، يوجب الخلود في النار نعوذ بالله من الجميع

بيان

تفصيل آفات المال وفوائده

اعلم أن المال مثل حية فيها سم وترياق . ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه . فمن عرف غوائله وفوائده ، أمكنه أن يحترز من شره ، ويستدر من خيره

أما الفوائد : فهي تنقسم إلى دنيوية ودينية . أما الدنيوية ، فلا حاجة إلى ذكرها ، فإن معرفتها مشهورة ، مشتركة بين أصناف الخلق . ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها

وأما الدينيه ، فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع

النوع الأول : أن ينفقه على نفسه ، إما في عبادة ، أو في الاستعانة على عبادة وأما في العبادة ، فهو كالاستعانة به على الحج والجهاد ، فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال ، وهما من أمهات القربات . والفقير محروم من فضلهما . وأما فيما يقويه على العبادة ، فذلك هو مطعم والملبس ، والمسكن ، والمنكح ، وضرورات المعيشة . فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر ، كان القلب مصروفا إلى تدبيرها ، فلا يتفرغ للدين . وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة فأخذ الكفاية من الدنيا لأجل الاستعانة على الدين ، من الفوائد الدينية . ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة ، فإن ذلك من حظوظ الدنيا فقط

النوع الثاني : مايصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام ، الصدقة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام أما الصدقة ، فلا يخفى ثوابها ، وإنها لتطفيء غضب الرب تعالى ، وقد ذكرنا فضلها فيما تقدم . وأما المروءة ، فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف ، في ضيافة ، وهدية ، وإعانة ، وما يجرى مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة بل الصدقة مايسلم إلى المحتاج . إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ، ويلتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود

إلا من يصطنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضا مما يعظم الثواب فيه فقد وردت أخبار كثيرة فى الهدايا ، والضيافات ، وإطعام الطعام ، من غير اشتراط الفقر والفاقة فى مصارفها . . وأما وقاية العرض ، فنعنى به بذل المال لدفع هجو الشعراء، وثلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ، ودفع شرهم وهو أيضا مع تنجز فائدته فى العاجلة ، من الحظوظ الدينية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَاوَقَى بِهِ الْمَرْءُ عِرْضَهُ كُتِبَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ » وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة ، واحتراز عما يثور من كلامه من العداوة ، التى تحمل فى المكافأة والانتقام على مجاوزة حدود الشريعة

وأما الاستخدام . فهو أن الأعمال التى يحتاج إليها الإنسان لتهيئة أسبابه كثيرة ، ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته ، وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة بالفكر والذكر ، الذى هو أعلى مقامات السالكين . ومن لا مال له فيفتقر إلى أن يتولى بنفسه خدمة نفسه من شراء الطعام ، وطحنه ، وكنس البيت ، حتى نسخ الكتاب الذى يحتاج إليه . وكل ما يتصور أن يقوم به غيرك ، ويحصل به غرضك ، فأنت متعوب إذا اشتغلت به . إذ عليك من العلم والعمل ، والذكر والفكر ، مالا يتصور أن يقوم به غيرك . فتضييع الوقت فى غيره خسران

النوع الثالث : مالا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام، كبناء المساجد والقناطر ، والرباطات ، ودور المرضى ، ونصب الحباب فى الطريق، وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات . وهى من الخيرات المؤبدة ، الدارة بعد الموت ، المستجلبة بركة أدعية الصالحين إلى أوقات متمادية . وناهيك بها خيرا .

فهذه جملة فوائد المال فى الدين، سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال، وحقارة الفقر ، والوصول إلى العز والمجد بين الخلق ، وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء، والوقار والكرامة فى القلوب . فكل ذلك مما يقتضيه المال من الحظوظ الدنيوية

وأما الآفات فدينية ، ودنيوية . أما الدينية فثلاث

الأولى: أن تجر إلى المعاصى ، فإن الشهوات متفاضلة ، والعجز قد يحول بين المرء والمعصية ومن العصمة أن لا يجد . ومهما كان الإنسان آيسا عن نوع من المعصية ، لم تتحرك داعيته.

---

(١) حديث ماوقى المرء عرضه به فهو صدقة : أبو يعلى من حديث جابر وقد تقدم

فإذا استشعر القدرة عليها ، انبعثت داعيته . والمال نوع من القدرة ، يحرك داعية المعاصي وارتكاب الفجور . فإن اقتحم ما اشتهاه هلك . وإن صبر وقع في شدة ، إذ الصبر مع القدرة أشد . وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء

الثانية : أنه يجر إلى التنعم فى المباحات ، وهذا أول الدرجات . فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ، ويلبس الثوب الخشن ، ويترك لذائذ الأطعمة ، كما كان يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فى ملكه ، فأحسن أحواله أن يتنعم بالدنيا ، ويمرن عليها نفسه ، فيصير التنعم مألوفا عنده ، ومحبوبا لا يصبر عنه . ويجره البعض منه إلى البعض ، فإذا اشتد أنسه به ، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ، ويخوض فى المراآة ، والمداهنة ، والكذب ، والنفاق ، وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ، ويتيسر له تنعمه . فإن من كثر ماله كثرت حاجته إلى الناس ومن احتاج إلى الناس فلابد وأن ينافقهم ، ويعصى الله فى طلب رضاهم . فإن سلم الإنسان من الآفة الأولى ، وهى مباشرة الحظوظ ، فلا يسلم عن هذه أصلا . ومن الحاجة إلى الخلق تثور العداوة والصداقة ، وينشأ عنه الحسد ، والحقد ، والرياء ، والكبر ، والكذب ، والنميمة ، والغيبة ، وسائر المعاصى التى تخص القلب واللسان ، ولا يخلو عن التعدى أيضا إلى سائر الجوارح ، وكل ذلك يلزم من شؤم المال ، والحاجة إلى حفظه وإصلاحه.

الثالثة : وهى التى لا ينفك عنها أحد ، وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى . وكل ماشغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى عليه الصلاة والسلام ، فى المال ثلاث آفات . أن يأخذه من غير حله . فقيل إن أخذه من حله ؟ فقال يضعه فى غير حقه . فقيل إن وضعه فى حقه ؟ فقال يشغله إصلاحه عن الله تعالى . وهذا هو الداء العضال . فإن أصل العبادات ومخها وسرها ذكر الله ، والتفكر فى جلاله . وذلك يستدعى قلبا فارغا . وصاحب الضيعة يمسى ويصبح متفكرا فى خصومة الفلاح ومحاسبته ، وفى خصومة الشركاء ومنازعتهم فى الماء والحدود ، وخصومة أعوان السلطان فى الخراج ، وخصومة الأجراء على التقصير فى العمارة ، وخصومة الفلاحين فى خيانتهم وسرقتهم . وصاحب التجارة يكون متفكرا فى خيانة شريكه ، وانفراده بالربح ، وتقصيره فى العمل ، وتضييعه للمال . وكذلك

صاحب المواشى ، وهكذا سائر أصناف الأموال . وأبعدها عن كثرة الشغل النقد المكنوز تحت الأرض ، ولا يزال الفكر مترددا فيما يصرف إليه ، وفى كيفية حفظه ، وفى الخوف مما يعثر عليه ، وفى دفع أطماع الناس عنه . وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها . والذى معه قوت يومه فى سلامة من جميع ذلك .

فهذه جملة الآفات الدنيوية ، سوى مايقاسيه أرباب الأموال فى الدنيا من الخوف ، والحزن ، والغم ، والهم ، والتعب فى دفع الحساد ، وتجشم المصاعب فى حفظ المال وكسبه . فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه ، وصرف الباقى إلى الخيرات . وماعدا ذلك سموم وآفات ، نسأل الله تعالى السلامة وحسن العون بلطفه وكرمه ، إنه على ذلك قدير

بيان

ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس مما فى أيدى الناس

اعلم أن الفقر محمود كما أوردناه فى كتاب الفقر . ولكن ينبغى أن يكون الفقير قانعا منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى مافى أيديهم ، ولا حريصا على اكتساب المال كيف كان . ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم ، والملبس ، والمسكن ؛ ويقتصر على أقله قدرا ، وأخسه نوعا . ويرد أمله إلى يومه ، أو إلى شهره ، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر . فإن تشوق إلى الكثير ، أو طول أمله ، فاته عز القناعة ، وتدنس لامحالة بالطمع وذل الحرص . وجره الحرص والطمع إلى مساوى الأخلاق ، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروآت . وقد جبل الآدمى على الحرص والطمع ، وقلة القناعة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لَابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثاً وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ » [٢] وعن أبى واقد الليثى ، قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوحى إليه ، أتيناه يعلمنا مما أوحى إليه . فجئته ذات يوم فقال « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ إِنَّا أَنْزَلْنَا الْمَالَ لِإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَلَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ

---

(١) حديث لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن عباس وانس

(٢) حديث أبى واقد الليثى ان الله عزوجل يقول إنا أنزلنا المال لاقام الصلاة وإيتاء الزكاة ـ الحديث : أحمد والبيهقى فى الشعب بسند صحيح

وادٍ مِنْ ذَهَبٍ لَأَحَبَّ أَنْ يكُونَ لَهُ ثَانٍ وَلَوْ كَانَ لَهُ الثَّانِي لَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ »[١] وقال أبو موسى الأشعرى ، نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت. وحفظ منها ، إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . ولو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى واديا ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ مَنْهُومُ الْعِلْمِ وَمَنْهُومُ الْمَالِ » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَيَشِبُّ مَعَهُ اثْنَتَانِ الْأَمَلُ وَحُبُّ الْمَالِ » أو كما قال .

ولما كانت هذه جبلة للآدمى مضلة، وغريزة مهلكة، أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة، فقال صلى الله عليه وسلم[٤] « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلاَمِ وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[٥] « مَا مِنْ أَحَدٍ فَقِيرٍ وَلاَ غَنِيٍّ إِلاَّ وَدَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ أُوتِيَ قُوتًا فِي الدُّنْيَا » وقال صلى الله عليه وسلم[٦] « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ »

ونهى عن شدة الحرص والمبالغة فى الطلب ، فقال[٧] « أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » وروى أن موسى عليه السلام سأل ربه تعالى فقال ، أى عبادك أغنى؟ قال أقنعهم بما أعطيته. قال فأيهم أعدل ؟ قال من أنصف من نفسه. وقال ابن مسعود. قال رسول الله

---

(١) حديث أبى موسى نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت وحفظ منها ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم لو أن لابن آدم واديين من مال ـ الحديث : مسلم مع اختلاف دون قوله ان الله يؤيد الدين ورواه بهذه الزيادة الطبرانى وفيه على بن زيد متكلم فيه

(٢) حديث منهومان لا يشبعان ـ الحديث : الطبرانى من حديث ابن مسعود بسند ضعيف

(٣) حديث يهرم ابن آدم ويشب معه اثنتان ـ الحديث : متفق عليه من حديث أنس

(٤) حديث طوبى لمن هدى للاسلام وكان عيشة كفافا وقنع به: الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى من حديث فضالة بن عبيد ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه

(٥) حديث ما من أحد غنى ولا فقير الا ود يوم القيامة أنه كان أوتى فى الدنيا قوتا :ابن ماجه من رواية نفيع ابن الحارث عن أنس ونفيع ضعيف

(٦) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض انما الغنى غنى النفس: متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٧) حديث ألا أيها الناس اجملوا فى الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له: الحاكم من حديث جابر بنحوه وصحح اسناده وقد تقدم فى آداب الكسب والمعاش

صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ » وقال أبو هريرة . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِذَا اشْتَدَّ بِكَ الْجُوعُ فَعَلَيْكَ بِرَغِيفٍ وَكُوزٍ مِنْ مَاءٍ وَعَلَى الدُّنْيَا الدَّمَارُ » وقال ابو هريرة رضي الله عنه، قال رسول لله صلى لله عليه وسلم [٢] « كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ وَكُنْ قَنِعًا تَكُنْ أَشْكَرَ النَّاسِ وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا »

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصارى ، أن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال يارسول الله عظنى وأوجز. فقال [٣] « إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَلَا تُحَدِّثَنَّ بِحَدِيثٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ » وقال عوف بن مالك الأشجعى ، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] تسعة أو ثمانية أو سبعة . فقال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ ؟» فلنا أو ليس قد بايعناك يارسول الله ؟ ثم قال « أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ » فبسطنا أيدينا فبايعناه. فقال قائل منا ، قد بايعناك ، فعلى ماذا نبايعك ؟ قال « أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الْخَمْسَ وَأَنْ تَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا » وأسر كلمة خفية « وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا » قال فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه ، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه

الآثار : قال عمر رضى الله عنه ، إن الطمع فقر . وإن اليأس غنى . وإنه من ييأس عما فى أيدى الناس استغنى عنهم . وقيل لبعض الحكماء ، ما الغنى ؟ قال قلة تمنيك ، ورضاك بما يكفيك . وفى ذلك قيل

---

(١) حديث ابن مسعود ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى القناعة والحاكم مع اختلاف فيه وقد تقدم

(٢) حديث أبى هريرة كن ورعا تكن أعبد الناس ـ الحديث : ابن ماجه وقد تقدم

(٣) حديث أبى أيوب إذا صليت فصل صلاة مودع ولا تحدثن بحديث تعتذر منه واجمع اليأس مما فى أيدى الناس : ابن ماجه وتقدم فى الصلاة وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبى وقاص. وقال صحيح الاسناد

(٤) حديث عوف بن مالك كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال ألا تبايعون ـ الحديث : وفيه ولا تسألوا الناس مسلم من حديثه ولم يقل فقال قائل ولا قال تسمعوا وقال سوط أحدهم وهى عند أبى داود وابن ماجه كما ذكرها المصنف

العيش ساعات تمر وخطوب أيام تكر
اقنع بعيشك ترضه واترك هواك تعيش حر
فلرب حتف ساقه ذهب وياقوت ودر

وكان محمد بن واسع ، يبل الخبز اليابس بالماء ويأكله ، ويقول: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد . وقال سفيان : خير دنياكم مالم تبتلوا به ، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم. وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا وملك ينادى يا ابن آدم ، قليل يكفيك ، خير من كثير يطغيك وقال سميط بن عجلان ، إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر ، فلمَ يدخلك النار ؟ وقيل لحكيم ما مالك؟ قال التجمل في الظاهر ، والقصد في الباطن ، واليأس مما في أيدى الناس

ويروى أن الله عز وجل قال ، يا ابن آدم ، لو كانت الدنيا كلها لك ، لم يكن لك منها إلا القوت . وإذا أنا أعطيتك منها القوت ، وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا إليك محسن وقال ابن مسعود ، إذا طلب أحدكم الحاجة ، فليطلبها طلبا يسيرا ، ولا يأتي الرجل فيقول، إنك وإنك فيقطع ظهره ، فإنما يأتيه ما قسم له من الرزق أو ما رزق . وكتب بعض بنى أمية إلى أبى حازم ، يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه . فكتب إليه قد رفعت حوائجي إلى مولاى ، فما أعطانى منها قبلت ، وما أمسك عنى قنعت

وقيل لبعض الحكماء ، أى شيء أسر للعاقل ؟ وأيما شيء أعون على دفع الحزن ؟ فقال أسرها إليه ما قدم من صالح العمل ، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء. وقال بعض الحكماء ، وجدت أطول الناس غما الحسود ، وأهنأهم عيشا القنوع ، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع. وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالم المفرط وفى ذلك قيل

أرفه ببال فتى أمسى على ثقة إن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها لم يلق فى دهره شيئا يؤرقه

وقد قيل أيضا

حتى متى أنا فى حل وترحال وطول سعى وإدبار وإقبال
ونازح الدار لا أنفك مغتربا عن الأحبة لا يدرون ما حالى

بمشرق الأرض طوراثم مغربها   لايخطر الموت من حرصي على بال
ولو قنعت أتاني الرزق في دعة   إن القنوع الغنى لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه ، ألا أخبركم بما أستحل من مال الله تعالى؟ حلتان لشتائي وقيظي وما يسعني من الظهر لحجي وعمرتي ، وقوتي بعد ذلك كقوت رجل من قريش ، لست بأرفعهم ، ولا بأوضعهم . فو الله ما أدري أيحل ذلك أم لا ؟ كأنه شك في أن هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها . وعاتب أعرابي أخاه على الحرص فقال ياأخي ، أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب أنت ما قد كفيته ، وكأن ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد نقلت عنه . كأنك ياأخي لم تر حريصا محروما ، وزاهدا مرزوقا . وفي ذلك قيل

أراك يزيدك الإثراء حرصا   على الدنيا كأنك لا تموت
فهل لك غاية إن صرت يوما   إليها قلت حسبي قد رضيت

وقال الشعبي ، حكى أن رجلا صاد قنبرة ، فقالت ما تريد أن تصنع بي ؟ قال أذبحك وآكلك . قالت والله ما أشفي من قرم ، ولا أشبع من جوع ، ولكن أعلمك ثلاث خصال ، هي خير لك من أكلي . أما واحدة ، فأعلمك وأنا في يدك ، وأما الثانية ، فإذا صرت على الشجرة ، وأما الثالثة ، فإذا صرت على الجبل . قال هات الأولى . قالت: لا تلهفن على مافاتك . فخلاها ، فلما صارت على الشجرة ، قال هات الثانية ، قالت لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون . ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت . ياشقي ، لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين زنة كل درة عشرون مثقالا . قال فعض على شفته وتلهف وقال ، هات الثالثة . قالت أنت قد نسيت اثنتين ، فكيف أخبرك بالثالثة ، ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك ؟ ولا تصدقن بما لا يكون ؟ أنا لحمي ، ودمي ، وريشي ، لا يكون عشرين مثقالا فكيف يكون في حوصلتي درتان كل واحدة عشرون مثقالا ؟ ثم طارت فذهبت وهذا مثال لفرط طمع الآدمي ، فإنه يعميه عن درك الحق ، حتى يقدر ما لا يكون أنه يكون.

وقال ابن السماك ، إن الرجاء حبل في قلبك ، وقيد في رجلك . فأخرج الرجاء من قلبك يخرج القيد من رجلك وقال أبو محمد اليزيدي ، دخلت على الرشيد، فوجدته ينظر في ورقة

مكتوب فيها بالذهب . فلما رآنى تبسم . فقلت فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال نعم . وجدت هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أمية . فاستحسنتهما . وقد أضفت إليهما ثالثا . وأنشدنى

إذا سد باب عنك من دون حاجة ... فدعه لأخرى ينفتح لك بابها

فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها

ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب ... ركوب المعاصى يجتنبك عقابها

وقال عبد الله بن سلام لكعب ، ما يذهب العلوم من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها ؟ قال الطمع ، وشره النفس ، وطلب الحوائج وقال رجل للفضيل ، فسر لى قول كعب . قال يطمع الرجل فى الشىء يطلبه ، فيذهب عليه دينه . وأما الشره ، فشره النفس فى هذا وفى هذا ، حتى لا تحب أن يفوتها شىء . ويكون لك إلى هذا حاجة ، وإلى هذا حاجة ، فإذا قضاها لك خزم أنفك ، وقادك حيث شاء ، واستمكن منك ، وخضعت له . فمن حبك للدنيا سلمت عليه إذا مررت به ، وعدته إذا مرض ، لم تسلم عليه لله عز وجل ، ولم تعده لله ، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيرا لك من مائة حديث عن فلان عن فلان

قال بعض الحكماء ، من عجيب أمر الإنسان أنه لو نودى بدوام البقاء فى أيام الدنيا لم يكن فى قوى خلقته من الحرص على الجمع ، أكثر مما قد استعمله مع قصر مدة التمتع ، وتوقع الزوال . وقال عبد الواحد بن زيد ، مررت براهب ، فقلت له من أين تأكل ؟ قال من بيدر اللطيف الخبير ، الذى خلق الرحا يأتيها بالطحين . وأومأ بيده إلى رحا أضراسه · فسبحان القدير الخبير

بيان

علاج الحرص والطمع والدواء الذى يكتسب به صفة القناعة

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان ، الصبر ، والعلم ، والعمل ومجموع ذلك خمسة أمور الأول : وهو العمل ، الاقتصاد فى المعيشة ، والرفق فى الإنفاق . فمن أراد عز القناعة ، فينبغى أن يسد عن نفسه أبواب الخروج ما أمكنه ، ويرد نفسه إلى ما لا بد له منه . فمن كثر خرجه ، واتسع إنفاقه ، لم تمكنه القناعة ، بل إن كان وحده ، فينبغى أن يقنع بثوب

واحد خشن ، ويقنع بأى طعام كان ، ويقلل من الأدام ما أمكنه ، ويوطن نفسه عليه . وإن كان له عيال ، فيرد كل واحد إلى هذا القدر فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد ، ويمكن معه الإجمال فى الطلب ، والاقتصاد فى المعيشة . وهو الأصل فى القناعة ، ونعنى به الرفق فى الإنفاق ، وترك الخرق فيه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَاعَالَ مَنِ اقْتَصَدَ » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ » وروى أن رجلا أبصر أبا الدرداء يلتقط حبا من الأرض ، وهو يقول إن من فقهك رفقك فى معيشتك

وقال ابن عباس رضى الله عنهما ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٤] « الْإِقْتِصَادُ وَحُسْنُ السَّمْتِ وَالْهَدْيُ الصَّالِحُ جُزْءٌ مِنْ بِضْعٍ وَعِشْرِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ » وفى الخبر [٥] « التَّدْبِيرُ نِصْفُ الْمَعِيشَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « مَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللَّهُ وَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَبَّهُ اللَّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٧] « إِذَا أَرَدْتَ أَمْراً فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً » والتؤدة فى الإنفاق من أهم الأمور

الثانى : أنه إذا تيسر له فى الحال ما يكفيه ، فلا ينبغى أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ، ويعينه على ذلك قصر الأمل ، والتحقق بأن الرزق الذى قدر له لابد وأن يأتيه

---

(١) حديث ان الله يحب الرفق فى الأمر كله : متفق عليه من حديث عائشة وتقدم

(٢) حديث ماعال من اقتصد : أحمد والطبرانى من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد

(٣) حديث ثلاث منجيات خشية الله فى السر والعلانية والقصد فى الغنى والفقر والعدل فى الرضا والغضب : البزار والطبرانى وأبو نعيم والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف

(٤) حديث ابن عباس الاقتصاد وحسن السمت والهدى الصالح جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير وقال السمت الصالح وقال من خمسة وعشرين ورواه الترمذى وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال التؤدة بدل الهدى الصالح وقال من أربعة

(٥) حديث التدبير نصف المعيشة : رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد ابن عيسى جهله العقيلى ووثقه ابن معين

(٦) حديث من اقتصد أغناه الله ـ الحديث : البزار من حديث طلحة بن عبيد الله دون قوله ومن ذكر الله أحبه الله وشيخه فيه عمران بن هارون البصرى قال الذهبى شيخ لايعرف حاله أتى بخبر منكر أى هذا الحديث ولأحمد وأبى يعلى فى حديث لأبى سعيد ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله

(٧) حديث اذا أردت أمرا فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله فيه فرجا ومخرجا : رواه ابن المبارك فى البر والصلة وقد تقدم

وإن لم يشتد حرصه . فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق . بل ينبغي أن يكون واثقا بوعد الله تعالى ، إذ قال عز وجل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا [1]) وذلك لأن الشيطان يعده الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، ويقول إن لم تحرص على الجمع والادخار ، فربما تمرض ، وربما تعجز ، وتحتاج إلى احتمال الذل في السؤال . فلا يزال طول العمر يتعبه في الطلب ، خوفا من التعب ، ويضحك عليه في احتماله التعب نقدا مع الغفلة عن الله ، لتوهم تعب في ثاني الحال ، وربما لا يكون . وفي مثله قيل

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وقد دخل ابنا خالد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهما [1] « لَا تَيْأَسَا مِنَ الرِّزْقِ مَا تَهَزْهَزَتْ رُؤُسُكُمَا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ تَلِدُهُ أُمُّهُ أَحْمَرَ لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرٌ ثُمَّ يَرْزُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى » ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وهو حزين ، فقال له [2] « لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ مَا يُقَدَّرْ يَكُنْ وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِكَ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعَبْدٍ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَذْهَبَ عَبْدٌ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يَأْتِيَهُ مَا كُتِبَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ » . ولا ينفك الإنسان عن الحرص ، إلا بحسن ثقته بتدبير الله تعالى في تقدير أرزاق العباد ، وأن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله للعبد من حيث لا يحتسب أكثر . قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ [2]) فإذا انسد عليه باب كان ينتظر الرزق منه ، فلا ينبغي أن يضطرب قلبه لأجله ، وقال صلى الله عليه وسلم [4] « أَبَى اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » . وقال سفيان ، اتق الله فما رأيت

---

(١) حديث لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما ـ الحديث : ابن ماجه من حديث حبة وسواء ابني خالد وقد تقدم

(٢) حديث لا تكثر همك ما قدر يكن وما ترزق يأتك . قاله لابن مسعود أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المعافري مرسلا

(٣) حديث ألا أيها الناس أجملوا في الطلب ـ الحديث : تقدم قبل هذا بثلاثة عشر حديثا

(٤) حديث أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب : ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بإسناد واه ورواه ابن الجوزي في الموضوعات

---

(1) هود : ٦ (2) الطلاق : ٢ ، ٣

تقيا محتاجا . أى لايترك التقى فاقدا لضرورته ، بل يلقى الله فى قلوب المسلمين أن يوصلوا إليه رزقه . وقال المفضل الضبي ، قلت لأعرابى ، من أين معاشك ؟ قال نذر الحاج ، قلت فإذا صدروا ؟ فبكى وقال ، لولم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش . وقال أبو حازم رضى الله عنه : وجدت الدنيا شيئين . شيئا منهما هولى ، فلن أعجله قبل وقته ، ولو طلبته بقوة السموات والأرض ، وشيئا منهما هو لغيرى ، فذلك لم أنله فيما مضى ، فلا أرجوه فيما بقى يمنع الذى لغيرى منى ، كما يمنع الذى لى من غيرى . ففى أى هذين أفنى عمرى ، فهذا دواء من جهة المعرفة ، لابد منه لدفع تخويف الشيطان وإنذاره بالفقر

الثالث : أن يعرف مافى القناعة من عز الاستغناء وما فى الحرص والطمع من الذل فإذا تحقق عنده ذلك ، انبعثت رغبته إلى القناعة ، لأنه فى الحرص لا يخلو من تعب ، وفى الطمع لا يخلو من ذل . وليس فى القناعة الا ألم الصبر عن الشهوات والفضول . وهذا ألم لا يطلع عليه أحد إلا الله ، وفيه ثواب الآخرة . وذلك مما يضاف إليه نظر الناس ، وفيه الوبال والمأثم . ثم يفوته عز النفس ، والقدرة على متابعة الحق . فإن من كثر طمعه وحرصه كثرت حاجته إلى الناس ، فلا يمكنه دعوتهم إلى الحق ، ويلزمه المداهنة . وذلك يهلك دينه . ومن لا يؤثر عز النفس على شهوة البطن ، فهو ركيك العقل ، ناقص الإيمان . قال صلى الله عليه وسلم[1] « عزُّ الْمُؤْمِنِ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ » ففى القناعة الحرية والعز . ولذلك قيل ، استغن عمن شئت تكن نظيره . واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره

الرابع : أن يكثر تأمله فى تنعم اليهود ، والنصارى ، وأراذل الناس ، والحمقى من الأكراد ، والأعراب الأجلاف ، ومن لا دين لهم ولا عقل ، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء ، والأولياء ، وإلى سمت الخلفاء الراشدين ، وسائر الصحابة والتابعين . ويستمع أحاديثهم ، ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة

---

(١) حديث عز المؤمن استغناؤه عن الناس : الطبرانى فى الأوسط والحاكم وصحح اسناده وأبو الشيخ فى كتاب الثواب وأبو نعيم فى الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للنبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعى فى مسند الشهاب من قول النبى صلى الله عليه وسلم

أراذل الناس ، أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله ، حتى يهون عليه بذلك الصبر على الضنك ، والقناعة باليسير ، فإنه إن تنعم فى البطن ، فالحمار أكثر أكلا منه . وإن تنعم فى الوقاع ، فالخنزير أعلى رتبة منه : وإن تزين فى الملبس والخيل ، ففى اليهود من هو أعلى زينة منه . وإن قنع بالقليل ، ورضي به ، لم يساهمه فى رتبته إلا الأنبياء والأولياء

الخامس: أن يفهم مافى جمع المال من الخطر ، كما ذكرنا فى آفات المال ، ومافيه من خوف السرقة ، والنهب ، والضياع . وما فى خلو اليد من الأمن والفراغ . ويتأمل ما ذكرناه فى آفات المال ، مع ما يفوته من المدافعة عن باب الجنة إلى خمسمائة عام ، فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه ، ألحق بزمرة الأغنياء ، وأخرج من جريدة الفقراء . ويتم ذلك بأن ينظر أبدا إلى من دونه فى الدنيا لا إلى من فوقه . فإن الشيطان أبدا يصرف نظره فى الدنيا إلى من فوقه فيقول لم تفتر عن الطلب ، وأرباب الأموال يتنعمون فى المطاعم والملابس . ويصرف نظره فى الدين إلى من دونه فيقول ، ولم تضيق على نفسك وتخاف الله ، وفلان أعلم منك وهو لا يخاف الله ، والناس كلهم مشغولون بالتنعم ، فلم تريد أن تتميز عنهم . قال أبو ذر [١] أوصانى خليلى صلوات الله عليه ، أن أنظر إلى من هو دونى ، لا إلى من هو فوقى ، أى فى الدنيا . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْهُ مِمَّنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ »

فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خلق القناعة . وعماد الأمر الصبر وقصر الأمل ، وأن يعلم أن غاية صبره فى الدنيا أيام قلائل ، للتمتع دهرا طويلا ، فيكون كالمريض الذى يصبر على مرارة الدواء ، لشدة طمعه فى انتظار الشفاء

بيان

فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقودا ، فينبغى أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص .

---

(١) حديث أبى ذر أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم أن أنظر الى من هو دونى ولا أنظر لمن هو فوقى أحمد وابن حبان فى أثناء حديث وقد تقدم

(٢) حديث أبى هريرة اذا نظر أحدكم الى من فضله الله عليه فى المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه ممن فضل عليه: متفق عليه وقد تقدم

وإن كان موجودا ، فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء ، واصطناع المعروف، والتباعد عن الشح والبخل . فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصل من أصول النجاة وعنه عبر النبي صلى الله عليه وسلم [1] حيث قال « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ أَغْصَانُهَا مُتَدَلِّيَةٌ إِلَى الْأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْهَا قَادَهُ ذَلِكَ الْغُصْنُ إِلَى الْجَنَّةِ » وقال جابر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ اللهُ تَعَالَى إِنَّ هَذَا دِينٌ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي وَلَنْ يُصْلِحَهُ إِلَّا السَّخَاءُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا اسْتَطَعْتُمْ » وفي رواية « فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ » . وعن عائشة الصديقية رضي الله عنها، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « مَا جَبَلَ اللهُ تَعَالَى وَلِيًّا لَهُ إِلَّا عَلَى حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ »

وعن جابر قال ، قيل يارسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ [4] قال « الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ » وقال عبد الله بن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [5] « خُلُقَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَخُلُقَانِ يُبْغِضُهُمَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَمَّا اللَّذَانِ يُحِبُّهُمَا اللهُ تَعَالَى فَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءُ »

---

(١) حديث السخاء شجرة في الجنة ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة وابن عدى والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة وسيأتي بعده وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم ومن حديث الحسين وأبي سعيد

(٢) حديث جابر مرفوعا حكاية عن جبريل عن الله تعالى ان هذا دين رضيته لنفسي ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق: الدارقطني في المستجاد وقد تقدم

(٣) حديث عائشة ماجعل الله وليا له الا على السخاء وحسن الخلق: الدارقطني في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات وذكره بهذه الزيادة ابن عدى من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جدا

(٤) حديث جابر أي الايمان أفضل قال الصبر والسماحة: أبو يعلى وابن حيان في الضعفاء بلفظ سئل عن الايمان وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور ورواه أحمد من حديث عائشة وعمرو بن عنبسة بلفظ ما الايمان قال الصبر والسماحة وفيه شهر بن حوشب ورواه البيهقي في الزهد بلفظ أي الأعمال أفضل قال الصبر والسماحة وحسن الخلق واسناده صحيح

(٥) حديث عبد الله بن عمرو خلقان يحبهما الله وخلقان يبغضهما الله فاما اللذان يحبهما الله فحسن الخلق والسخا ـ الحديث : أبو منصور الديلمي دون قول في آخره وإذا أراد الله بعبده خيرا وقال فيه الشجاعة بدل حسن الخلق وفيه محمد بن يونس الكديمي كذبه أبو داود وموسى بن هارون وغيرهما ووثقه الخطيب وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفا على عبد الله بن عمرو وروى الديلمي أيضا من حديث أنس إذا أراد الله بعبده خيرا صير حوائج الناس اليه وفيه يحيى ابن شبيب ضعفه ابن حيان

وأما اللذان يبغضهما الله فسوء الخلق والبخل وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله في قضاء حوائج الناس » وروى المقدام بن شريح ، عن أبيه ، عن جده ، [١] قال ، قلت يارسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة . قال « إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام » . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « السخاء شجرة في الجنة فمن كان سخيا أخذ بغصن منها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله الجنة والشح شجرة في النار فمن كان شحيحا أخذ بغصن من أغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار » وقال أبو سعيد الخدري ، قال النبي صلى الله عليه وسلم [٣] « يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فإني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي » وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر » وقال ابن مسعود . قال صلى الله عليه وسلم [٥] « الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير وإن الله تعالى ليباهي بمطعم الطعام الملائكة عليهم السلام »

---

(١) حديث المقدام بن شريح عن أبيه عن جده ان من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام : الطبراني بلفظ بذل السلام وحسن الكلام وفي رواية له يوجب الجنة إطعام الطعام وافشاء السلام وفي رواية له عليك بحسن الكلام وبذل الطعام

(٢) حديث أبي هريرة السخاء شجرة في الجنة ـ الحديث : وفيه والشح شجرة في النار ـ الحديث : الدارقطني في المستجاد وفيه عبد العزيز بن عمران الزهري ضعيف جدا

(٣) حديث أبي سعيد يقول الله تعالى اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم ـ الحديث : ابن حبان في الضعفاء والخرائطي في مكارم الأخلاق والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدي وقال انه مجهول وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار ابن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني والأزدي ورواه الحاكم من حديث علي وقال انه صحيح الاسناد وليس كما قال

(٤) حديث ابن عباس تجافوا عن ذنب السخي فإن الله آخذ بيده كلما عثر : الطبراني في الأوسط والخرائطي في مكارم الاخلاق وقال الخرائطي أقيلوا السخي زلته وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه ورواه الطبراني فيه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه باسناد ضعيف ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني .

(٥) حديث ابن مسعود الرزق الى مطعم الطعام أسرع من السكين إلى ذروة البعير ـ الحديث : لم أجده من حديث ابن مسعود ورواه ابن ماجه من حديث أنس ومن حديث ابن عباس بلفظ

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ وَيُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » . وقال أنس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] لم يسأل على الإسلام شيئا إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله ، فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة . فرجع إلى قومه فقال ، ياقوم أسلموا ، فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقه . وقال ابن عمر ، قال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ لِلّهِ عِبَادًا يَخْتَصُّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ فَمَنْ بَخِلَ بِتِلْكَ الْمَنَافِعِ عَلَى الْعِبَادِ نَقَلَهَا اللهُ تَعَالَى عَنْهُ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِ » . وعن الهلالى قال . أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] بأسرى من بنى العنبر ، فأمر بقتلهم ، وأفرد منهم رجلا . فقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، يارسول الله ، الرب واحد ، والدين واحد ، والذنب واحد فما بال هذا من بينهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « نَزَلَ عَلَيَّ جِبْرِيلُ فَقَالَ اقْتُلْ هٰؤُلَاءِ وَاتْرُكْ هٰذَا فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى شَكَرَ لَهُ سَخَاءً فِيهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةً وَثَمَرَةُ الْمَعْرُوفِ تَعْجِيلُ السَّرَاحِ » وعن نافع ، عن ابن عمر قال ، قال رسول الله

الخير أسرع إلى البيت الذى يغشى وفى حديث ابن عباس يؤكل فيه من الشفرة الى سنام البعير ولأبى الشيخ فى كتاب الثواب من حديث جابر الرزق إلى أهل البيت الذى فيه السخاء الحديث : وكلها ضعيفة

(١) حديث إن الله جواد يحب الجود ويحب معالى الأمور ويكره سفسافها: الخرائطى فى مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز وهذا مرسل وللطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم والبيهقى من حديث سهل بن سعد ان الله كريم يحب الكرم ويحب معالى الأمور وفى الكبير والبيهقى معالى الأخلاق ـ الحديث : وأسناده صحيح وتقدم آخر الحديث فى أخلاق النبوة

(٢) حديث أنس لم يسأل على الاسلام شيئا إلا أعطاه فأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين الحديث : مسلم وتقدم فى أخلاق النبوة

(٣) حديث ابن عمر إن لله عبادا يخصهم بالنعم لمنافع العباد ـ الحديث : الطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتى وفيه لين ووثقه ابن معين يرويه عن أبى عثمان عبدالله ابن زيد الحمصى ضعفه الأزدى

(٤) حديث الهلالى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأسرى من بنى العنبر فأمر بقتلهم وأفرد منهم رجلا الحديث : وفيه فان الله شكر له سخاء فيه لم أجد له أصلا

(٥) حديث إن لكل شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح: لم أقف له على أصل

صلى الله عليه وسلم [١] « طَعَامُ الْجَوَادِ دَوَاءٌ وَطَعَامُ الْبَخِيلِ دَاءٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عِنْدَهُ عَظُمَتْ مَؤُنَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ » فمن لم يحتمل تلك المؤنة ، عرض تلك النعمة للزوال . وقال عيسى عليه السلام، إستكثروا من شيء لا تأكله النار . قيل وما هو ؟ قال المعروف . وقالت عائشة رضي الله عنها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٣] « الْجَنَّةُ دَارُ الأَسْخِيَاءِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] « إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَإِنَّ الْبَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ وَأَدْوَأُ الدَّاءِ الْبُخْلُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « أَصْنَعِ الْمَعْرُوفَ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُهُ وَإِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَهْلِهِ فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ فَقَدْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ مِنْ أَهْلِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « إِنَّ بُدَلاَءَ أُمَّتِي لَمْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِصَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلَكِنْ دَخَلُوهَا بِسَخَاءِ الأَنْفُسِ وَسَلاَمَةِ الصُّدُورِ وَالنُّصْحِ لِلْمُسْلِمِينَ »

---

(١) حديث نافع عن ابن عمر طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء : ابن عدى والدارقطنى فى غرائب مالك وأبو على الصدفى فى عواليه وقال رجاله ثقات أئمة قال ابن القطان وأنهم لمشاهير ثقات إلا مقدام بن داود فان أهل مصر تكلموا فيه

(٢) حديث من عظمت نعمة الله عليه عظمت مؤنة الناس عليه : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بلفظ ماعظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره وفيه أحمد بن مهران قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل ورواه الخرائطي فى مكارم الأخلاق من حديث عمر باسناد منقطع وفيه حليس بن محمد أحد المتروكين ورواه العقيلى من حديث ابن عباس قال ابن عدي يروى من وجوه كلها غير محفوظة

(٣) حديث عائشة الجنة دار الأسخياء : ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى قال الدارقطنى لا يصح ومن طريقه رواه ابن الجوزى فى الموضوعات وقال الذهبي حديث منكر ما آفته سوى حجدر قلت رواه الدارقطني فيه من طريق آخر وفيه محمد بن الوليد الموقرى وهو ضعيف جدا

(٤) حديث أبي هريرة إن السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ـ الحديث : الترمذى وقال غريب ولم يذكر فيه وأدوأ الداء البخل ورواه بهذه الزيادة : الدارقطنى فيه

(٥) حديث اصنع المعروف إلى أهله وإلى من ليس من أهله . الدارقطنى فى المستجاد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن جده مرسلا وتقدم فى آداب المعيشة

(٦) حديث إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام ولكن دخلوها بسماحة الأنفس ـ الحديث : الدارقطنى فى المستجاد وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث أنس وفيه محمد بن عبد العزيز بن المبارك الدينورى أورد ابن عدى له مناكير وفى الميزان أنه ضعيف منكر ـ الحديث : ورواه الخرائطي فى مكارم الأخلاق من حديث أبي سعيد نحوه وفيه صالح المرى متكلم فيه

وقال أبو سعيد الخدرى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِلْمَعْرُوفِ وُجُوهاً مِنْ خَلْقِهِ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الْمَعْرُوفَ وَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ فَعَالَهُ وَوَجَّهَ طُلَّابَ الْمَعْرُوفِ إِلَيْهِمْ وَيَسَّرَ عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَهُ كَمَا يَسَّرَ الْغَيْثَ إِلَى الْبَلْدَةِ الْجَدْبَةِ فَيُحْيِيهَا وَيُحْيِي بِهِ أَهْلَهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ مَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ كُتِبَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا وَقَى بِهِ الرَّجُلُ عِرْضَهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ وَمَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ مِنْ نَفَقَةٍ فَعَلَى اللهِ خَلَفُهَا » وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ وَالدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ وَاللهُ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « كُلُّ مَعْرُوفٍ فَعَلْتَهُ إِلَى غَنِيٍّ أَوْ فَقِيرٍ صَدَقَةٌ »

وروى أن الله تعالى ، أوحى إلى موسى عليه السلام ، لا تقتل السامرى فإنه سخى

وقال جابر ، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم [٥] بعثا ، عليهم قيس بن سعد بن عبادة ، فجهدوا ، فنحر لهم قيس تسع ركائب . فحدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الْجُودَ لَمِنْ شِيمَةِ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَيْتِ »

الآثار : قال على كرم الله وجهه ، إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها ، فإنها لا تفنى . وإذا أدبرت عنك فأنفق منها ، فإنها لا تبقى . وأنشد

---

(١) حديث أبى سعيد إن الله جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف ـ الحديث : الدارقطنى فى المستجاد من رواية أبى هارون العبدى عنه وأبو هارون ضعيف ورواه الحاكم من حديث على وصححه

(٢) حديث كل معروف صدقة وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة ـ الحديث : ابن عدى والدارقطنى فى المستجاد والخرائطى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر وفيه عبد الحميد بن الحسن الهلالى وثقه ابن معين وضعفه الجمهور والجملة الأولى منه عند البخارى من حديث جابر وعند مسلم من حديث حذيفة

(٣) حديث كل معروف صدقة والدال على الخير كفاعله والله يحب إغاثة اللهفان : الدارقطنى فى المستجاد من رواية الحجاج بن ارطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف وقد جاء مفرقا فالجملة الأولى تقدمت قبله والجملة الثانية تقدمت فى العلم من حديث أنس وغيره والجملة الثالثة رواها أبو يعلى من حديث أنس أيضا وفيها زياد النميرى ضعيف

(٤) حديث كل معروف فعلته الى غنى أو فقير صدقة : الدارقطنى فيه من حديث أبى سعيد وجابر والطبرانى والخرائطى كلاهما فى مكارم الاخلاق من حديث ابن مسعود وابن منيع من حديث ابن عمر باسنادين ضعيفين

(٥) حديث جابر بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا عليهم قيس بن سعد بن عبادة فجهدوا فنحر لهم الحديث : وفيه فقال ان الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت الدارقطنى فيه من رواية أبى حمزة الحميرى عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله

لا تبخلن بدنيا وهى مقبلة   فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجودبها   فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن بن على رضى الله عنهم ، عن المروءة ، والنجدة ، والكرم . فقال أما المروءة ، فحفظ الرجل دينه ، وحذره نفسه ، وحسن قيامه بضيفه ، وحسن المنازعة والإقدام فى الكراهية . وأما النجدة ، فالذب عن الجار ، والصبر فى المواطن . وأما الكرم ، فالتبرع بالمعروف قبل السؤال ، والإطعام فى المحل ، والرأفة بالسائل ، مع بذل النائل

ورفع رجل إلى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة ، فقال حاجتك مقضية . فقيل له يا ابن رسول الله ، لو نظرت فى رقعته ، ثم رددت الجواب على قدر ذلك ؟ فقال ، يسألنى الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدىّ حتى اقرأ رقعته . وقال ابن السماك ، عجبت لمن يشترى المماليك بماله ، ولا يشترى الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب ، من سيدكم ؟ فقال من احتمل شتمنا ، وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا . وقال على بن الحسين رضى الله عنهما ، من وصف ببذل ماله لطلابه ، لم يكن سخيا . وإنما السخى من يبتدىء بحقوق الله تعالى فى أهل طاعته ، ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له ، إذا كان يقينه بثواب الله تاما . وقيل للحسن البصرى ، ما السخاء ؟ فقال أن تجود بمالك فى الله عز وجل . قيل فما الحزم ؟ قال أن تمنع مالك فيه . قيل فما الإسراف ؟ قال الإنفاق لحب الرياسة

وقال جعفر الصادق رحمة الله عليه ، لا مال أعون من العقل ، ولا مصيبة أعظم من الجهل ، ولا مظاهرة كالمشاورة . ألا وإن الله عز وجل يقول ، إنى جواد كريم ، لا يجاورنى لئيم . واللؤم من الكفر ، وأهل الكفر فى النار . والجود والكرم من الإيمان ، وأهل الإيمان فى الجنة . وقال حذيفة رضي الله عنه ، رب فاجر فى دينه ، أخرق فى معيشته ، يدخل الجنة بسماحته . وروى أن الأحنف بن قيس رأى رجلا فى يده درهم ، فقال لمن هذا الدرهم ؟ فقال لى . فقال أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك . وفى معناه قيل

أنت للمال إذا أمسكته   فإذا أنفقته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ، فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئا . وقال الأصمعى ، كتب الحسن بن على ، إلى الحسين بن على رضوان الله عليهم

يعتب عليه فى إعطاء الشعراء . فكتب إليه ، خير المال ماوقى به العرض . وقيل لسفيان ابن عيينة ، ماالسخاء ؟ قال السخاء البر بالإخوان ، والجود بالمال . قال وورث أبى خمسين ألف درهم ، فبعث بها صررا إلى إخوانه وقال ، قد كنت أسأل الله تعالى لأخوانى الجنة فى صلاتى ، أفأبخل عليهم بالمال ! وقال الحسن . بذل المجهود فى بذل الموجود ، منتهى الجود

وقيل لبعض الحكماء ، من أحب الناس إليك ؟ قال من كثرت أياديه عندى قيل فإن لم يكن قال من كثرت أيادى عنده . وقال عبد العزيز بن مروان ، إذا الرجل أمكننى من نفسه ، حتى أضع معروفى عنده ، فيده عندى مثل يدى عنده . وقال المهدى لشبيب بن شبة ، كيف رأيت الناس فى دارى ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، إن الرجل منهم ليدخل راجيا ويخرج راضيا . وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر فقال

إن الصنيعة لاتكون صنيعة حتى يصاب بها طريق المصنع

فإذا اصطنعت صنيعة فاعمد بها لله أو لذوى القرابة أودع

فقال عبد الله بن جعفر ، إن هذين البيتين ليبخلان الناس ، ولكن أمطر المعروف مطرا ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلا ، وإن أصاب اللئام كنت له أهلا

حكايات الأسخياء

عن محمد بن المنكدر ، عن أم درة ، وكانت تخدم عائشة رضى الله عنها ، قالت ، إن معاوية بعث إليها بمال فى غرارتين ، ثمانين ومائة ألف درهم . فدعت بطبق ، فجعلت تقسمه بين الناس . فلما أمست ، قالت ياجارية ، هلمى فطورى . فجاءتها بخبز وزيت . فقالت لها أم درة ، مااستطعت فيما قسمت اليوم ، أن تشترى لنا بدرهم لحما نفطر عليه ؟ فقالت لو كنت ذكرتينى لفعلت . وعن أبان بن عثمان قال ، أراد رجل أن يضار عبيد الله بن عباس ، فأتى وجوه قريش فقال ، يقول لكم عبيد الله تغدوا عندى اليوم . فأتوه حتى ملأوا عليه الدار . فقال ماهذا ؟ فأخبر الخبر . فأمر عبيد الله بشراء فاكهة ، وأمر قوما فطبخوا ، وخبزوا وقدمت الفاكهة إليهم ، فلم يفرغوا منها حتى وضعت الموائد ، فأكلوا حتى صدروا . فقال عبيد الله لوكلائه ، أو موجود لنا هذا كل يوم ؟ قالوا نعم . قال فليتغد عندنا هؤلاء فى كل يوم

وقال مصعب بن الزبير ، حج معاوية ، فلما انصرف مر بالمدينة . فقال الحسين بن على

لأخيه الحسن ، لاتلقه ، ولا تسلم عليه . فلما خرج معاوية ، قال الحسن ، إن علينا دينا ، فلابد لنا من إتيانه . فركب فى أثره ولحقه ، فسلم عليه ، وأخبره بدينه . فروا عليه ببختى عليه ثمانون ألف دينار ، وقد أعيا وتخلف عن الإبل ، وقوم يسوقونه . فقال معاوية ماهذا ؟ فذكر له . فقال اصرفوه بما عليه إلى أبى محمد . وعن واقد بن محمد الواقدى قال ، حدثنى أبى أنه رفع رقعة إلى المأمون ، يذكر فيها كثرة الدين ، وقلة صبره عليه . فوقع المأمون على ظهر رقعته ، إنك رجل اجتمع فيك خصلتان ، السخاء ، والحياء . فأما السخاء فهو الذى أطلق مافى يديك ، وأما الحياء فهو الذى عنمك عن تبليغنا ماأنت عليه . وقد أمرت لك بمائة ألف درهم . فإن كنت قد أصبت ، فازدد فى بسط يدك . وإن لم أكن قد أصبت ، لجنايتك على نفسك ، وأنت حدثتنى وكنت على قضاء الرشيد ، عن محمد بن إسحق ، عن الزهرى ، عن أنس ، أن النبى صلى الله عليه وسلم [١] قال للزبير بن العوام « يَازُبَيْرُ اعْلَمْ أَنَّ مَفَاتِيحَ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ بِإِزَاءِ الْعَرْشِ يَبْعَثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ عَبْدٍ بِقَدْرِ نَفَقَتِهِ فَمَنْ كَثَّرَ كَثَّرَ لَهُ وَمَنْ قَلَّلَ قَلَّلَ لَهُ » وأنت أعلم . قال الواقدى ، فو الله لمذاكرة المأمون إياى بالحديث ، أحب إلى من الجائزة ، وهى مائة ألف درهم وسأل رجل الحسن بن على رضى الله عنهما حاجة ، فقال له ياهذا ، حق سؤالك إياى يعظم لدى ، ومعرفتى بما يجب لك تكبر على ، ويدى تعجز عن نيلك بما أنت أهله ، والكثير فى ذات الله تعالى قليل ، وما فى ملكى وفاء لشكرك . فإن قبلت الميسور ، ورفعت عنى مؤنة الاحتمال ، والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك ، فعلت . فقال يا بن رسول الله ، أقبل وأشكر العطية ، وأعذر على المنع فدعا الحسن بوكيله ، وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها . فقال هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم . فأحضر خمسين ألفا . قال فما فعلت بالخمسمائة دينار ؟ قال هى عندى . قال أحضرها . فأحضرها . فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل ، وقال هات من يحملها لك . فأتاه بحمالين ، فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحمالين . فقال له مواليه ، والله ماعندنا درهم فقال أرجو أن يكون لى عند الله أجر عظيم

(١) حديث أنس يازبير أعلم ان مفاتيح أرزاق العباد بإزاء العرش ـ الحديث : وفى أوله قصة مع المأمون الدارقطنى فيه وفى إسناده الواقدى عن محمد بن إسحاق عن الزهرى بالعنعنة ولا يصح

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس وهو عامل بالبصرة . فقالوا إن لنا جاراً صواماً قواماً، يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله ، وقد زوج بنته من ابن أخيه ، وهو فقير ، وليس عنده ما يجهزها به . فقام عبد الله بن عباس ، فأخذ بأيديهم ، وأدخلهم داره ، وفتح صندوقا . فأخرج منه ست بدر . فقال احملوا . فحملوا . فقال ابن عباس ، ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه . ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها ، فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمنا عن عبادة ربه ، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى . ففعل وفعلوا

وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر ، وعبد الحميد بن سعد أميرهم ، فقال ، والله لأعلمن الشيطان أني عدوه . فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار ، ثم عزل عنهم ، فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم فرهنهم بها حليّ نسائه ، وقيمتها خمسمائة ألف ألف . فلما تعذر عليه ارتجاعها ، كتب إليهم ببيعها ، ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته

وكان أبو طاهر بن كثير شيعيا ، فقال له رجل ، بحق علي بن أبي طالب لما وهبت لي نخلتك بموضع كذا وكذا . فقال قد فعلت . وحقه لأعطينك ما يليها وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل

وكان أبو مرثد أحد الكرماء ، فمدحه بعض الشعراء . فقال للشاعر ، والله ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدمني إلى القاضي ، وادّع عليّ بعشرة آلاف درهم ، حتى أقر لك بها ، ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني محبوسا . ففعل ذلك ، فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم ، وأخرج أبو مرثد من الحبس . وكان معن بن زائدة عاملا على العراقين بالبصرة ، فحضر بابه شاعر ، فأقام مدة ، وأراد الدخول على معن . فلم يتهيأ له . فقال يوما لبعض خدام معن ، إذا دخل الأمير البستان فعرفني . فلما دخل الأمير البستان أعلمه . فكتب الشاعر بيتا على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان . وكان معن على رأس الماء . فلما بصر بالخشبة ، أخذها وقرأها ، فإذا مكتوب عليها

أيا جود معن ناج معنا بحاجتي فما لي إلى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعي بالرجل . فقال له كيف قلت ؟ فقاله . فأمر له بعشر بدر فأخذها ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه . فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط

وقرأها ، ودعا بالرجل ، فدفع إليه مائة ألف درهم . فلما أخذها الرجل ، تفكر ، و خاف أن يأخذ منه ماأعطاه ، فخرج . فلما كان فى اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، ودعابالرجل، فطلب فلم يوجد . فقال معن ، حق علىّ أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار

وقال أبو الحسن المدائنى ، خرج الحسن ، والحسين ، وعبد الله بن جعفر حجاجا. ففاتهم أثقالهم . فجاعوا وعطشوا . فمروا بعجوز فى خبائها ، فقالوا هل من شراب ؟ فقالت نعم فأناخوا إليها ، وليس لها إلاشويهة فى كسر الخيمة . فقالت احلبوها ، وامتذقوا لبنها ففعلوا ذلك . ثم قالوا لها ، هل من طعام ؟ قالت لا إلاهـذه الشاة . فليذبحها أحـدكم ، حتى أهيء لكم ما تأكلون . فقام إليها أحدهم ، وذبحها ، وكشطها . ثم هيأت لهم طعاما . فأكلوا ، وأقاموا حتى أبردوا . فلما ارتحلوا ، قالوا لها ، نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه ، فإذا رجعنا سالمين ، فألمى بنا ، فإناصانعون بك خيرا . ثم ارتحلوا . وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة ، فغضب الرجل ، وقال ويلك ، تذبحين شاتى لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين نفر من قريش ! قال ثم بعد مدة ، ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة ، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ، ويتعيشان بثمنه . فمرت العجوز ببعض سكك المـدينة فإذا الحسن بن على جالس على باب داره ، فعرف العجوز ، وهي له منكرة . فبعث غلامه فدعا بالعجوز ، وقال لها ياأمة الله ، أتعرفيني ؟ قالت لا. قال أنا ضيفك يوم كذا وكذا . فقالت العجوز بأبى أنت وأمى أنت هو ؟ قال نعم . ثم أمر الحسن ، فاشتروالها من شياه الصدقة ألف شاة ، وأمر لها معها بألف دينار ، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين. فقال لها الحسين ، بكم وصلك أخي ؟ قالت بألف شاة وألف دينار . فأمر لها الحسين أيضا بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبدالله بن جعفر . فقال لهـا بكم وصلك الحسن والحسين ؟ قالت بألفى شاة وألفى دينار . فأمر لهـا عبـد الله بألفى شاة وألفى دينار ، وقال لها لو بدأت بى لأتعبتهما . فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة ، وأربعة آلاف دينار

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله ، وهو وحده . فقام إليه غلام من ثقيف ، فمشى إلى جانبه . فقال له عبد الله ، ألك حاجة ياغلام ؟ قال صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك ، فقلت أقيك بنفسى ، وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه . فأخـذ

عبد الله بيده ، ومشى معه إلى منزله ، ثم دعا بألف دينار ، فدفعها إلى الغلام ، وقال استنفق هذه ، فنعم ماأدبك أهلك . وحكي أن قوما من العرب ، جاؤا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة ، فنزلوا عند قبره ، وباتوا عنده . وقد كانوا جاؤا من سفر بعيد . فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له ، هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي ؟ وكان السخي الميت قد خلف نجيبا معروفا به ، ولهذا الرجل بعير سمين . فقال له في النوم نعم . فباعه في النوم بعيره بنجيبه . فلما وقع بينهما العقد ، عمد هذا الرجل إلى بعيره ، فنحره في النوم . فانتبه الرجل من نومه ، فإذا الدم يثج من نحر بعيره . فقام الرجل ، فنحره ، وقسم لحمه ، فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ، ثم رحلوا وساروا . فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق ، استقبلهم ركب . فقال رجل منهم ، من فلان بن فلان منكم ؟ باسم ذلك الرجل . فقال أنا . فقال هل بعت من فلان بن فلان شيئا ؟ وذكر الميت صاحب القبر . قال نعم ، بعت منه بعيري بنجيبه في النوم . فقال خذ هذا نجيبه . ثم قال ، هو أبي ، وقد رأيته في النوم ، وهو يقول إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان ، وسماه . وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضر به المرض . فقال ياهذا أعنا على الدهر . فقال الرجل لغلامه ، مابقي معك من النفقة فادفعه إليه . فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم . فذهب لينهض ، فلم يقدر من الضعف فبكي . فقال له الرجل ، مايبكيك ، لعلك استقللت ماأعطيناك ؟ قال لا . ولكن ذكرت ماتأكل الأرض من كرمك فأبكاني . واشترى عبد الله بن عامر ، من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق ، بتسعين ألف درهم . فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله ، مالهؤلاء ؟ قالوا يبكون لدارهم . فقال ياغلام ، ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعا

وقيل بعث هارون الرشيدي إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار . فبلغ ذلك الليث بن سعد ، فأنفذ إليه ألف دينار . فغضب هارون وقال ، أعطيته خمسمائة ، وتعطيه ألفا ، وأنت من رعيتي ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم . وحكي أنه لم تجب عليه الزكاة ، مع أن دخله كل يوم ألف دينار . وحكي أن امرأة سألت الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئا من عسل . فأمر

لها بزق من عسل . فقيل له إنها كانت تقنع بدون هـذا . فقال إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم، حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكينا . وقال الأعمش ، اشتكت شاة عندى ، فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشى ، ويسألنى هل استوفت علفها ؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتى لبد أجلس عليه ، فإذا خرج قال ، خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إلىّ فى علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره ، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ

وقال عبد الملك بن مروان ، لأسماء بن خارجة ، بلغنى عنك خصال ، فحدثنى بها . فقال هى من غيرى أحسن منها منى . فقال عزمت عليك إلا حدثتنى بها . فقال ياأمير المؤمنين مامددت رجلى بين يدى جليس لى قط ، ولا صنعت طعاما قط ، فدعوت عليه قوما ، إلا كانوا أمن على منى عليهم . ولا نصب لى رجل وجهه قط ، يسألنى شيئا ، فاستكثرت شيئا أعطيته إياه . ودخل سعيد بن خالد ، على سليمان بن عبد الملك ، وكان سعيد رجلا جوادا فإذا لم يجد شيئا ، كتب لمن سأله صكا على نفسه ، حتى يخرج عطوه فلما نظر إليه سليمان تمثل بهذا البيت فقال

إنى سمعت مع الصباح مناديا يامن يعين على الفتى المعوان

ثم قال ، ماحاجتك ؟ قال دَينى قال وكم هو ؟ قال ثلاثون ألف دينار . قال لك دَينك ومثله

وقيل مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين ، فقال أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر مناديا فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه برىء . قال فانكسرت درجته بالعشى ، لكثرة من زاره وعاده . وعن أبى إسحاق قال ، صليت الفجر فى مسجد الأشعث بالكوفة ، أطلب غريما لى . فلما صليت ، وضع بين يدى حلة ونعلان . فقلت لست من أهل هذا المسجد . فقالوا إن الأشعث بن قيس الكندى ، قدم البارحة من مكة ، فأمر لكل من صلى فى المسجد بحلة ونعلين . وقال الشيخ أبو سعد الخركوشى النيسابورى رحمه الله ، سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول ، سمعت الشافعى المجاور بمكة يقول ، كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئا ، فولد لبعضهم مولود . قال فجئت إليه ، وقلت

له وُلدلى مولود ، وليس معى شيء . فقام معى ، ودخل على جماعة ، فلم يفتح بشيء . فجاء إلى قبر رجل ، وجلس عنده ، وقال رحمك الله ، كنت تفعل وتصنع ، وإنى درت اليوم على جماعة ، فكلفتهم دفع شيء لمولود ، فلم يتفق لى شيء . قال ثم قام ، وأخرج دينارا ، وقسمه نصفين ، وناولنى نصفه . وقال هذا دين عليك إلى أن يفتح عليك بشيء . قال فأخذته وانصرفت ، فأصلحت مااتفق لى به ، قال فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص فى منامه ، فقال سمعت جميع ما قلت ، وليس لنا إذن فى الجواب ، ولكن أحضر منزلى ، وقل لأولادى يحفروا مكان الكانون ، ويخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار ، فاحملها إلى هذا الرجل . فلما كان من الغد ، تقدم إلى منزل الميت ، وقص عليهم القصة ، فقالوا له اجلس . وحفروا الموضع ، وأخرجوا الدنانير ، وجاؤا بها ، فوضعوها بين يديه . فقال هذا مالكم ، وليس لرؤياى حكم . فقالوا هو يتسخى ميتا ، ولا نتسخى نحن أحياء ! فلما ألحوا عليه ، حمل الدنانير إلى الرجل صاحب المولود ، وذكر له القصة . قال فأخذ منها دينارا ، فكسره نصفين ، فأعطاه النصف الذى أقرضه ، وحمل النصف الآخر ، وقال يكفينى هذا وتصدق به على الفقراء . فقال أبو سعيد ، فلا أدرى أي هؤلاء أسخى .

وروى أن الشافعي رحمه الله ، لما مرض مرض موته بمصر ، قال مروافلانا يغسلنى . فلما توفى ، بلغه ، خبر وفاته ، فحضر وقال ، ائتونى بتذكرته . فأتى بها ، فنظر فيها ، فإذا على الشافعى سبعون ألف درهم دين . فكتبها على نفسه ، وقضاها عنه ، وقال هذا غسلى إياه . أى أرادبه هذا . وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشى ، لما قدمت مصر ، طلبت منزل ذلك الرجل ، فدلونى عليه ، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم ، فرأيت فيهم سيما الخير ، وآثار الفضل . فقلت بلغ أثره فى الخير إليهم ، وظهرت بركته فيهم ، مستدلا بقوله تعالى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا [1]) . وقال الشافعى رحمه الله ، لاأزال أحب حماد بن أبى سليمان ، لشيء بلغنى عنه . أنه كان ذات يوم راكبا حماره ، فحركه ، فانقطع زره . فمر على خياط ، فأراد أن ينزل إليه ليسوى زره . فقال الخياط ، والله لا نزلت . فقام الخياط إليه ،

---

(١) الكهف : ٨٢

فسوى زره . فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير ، فسلمها إلى الخياط ، واعتذر إليه من قلتها . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه

يالهف قلبي على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروآت
إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ماليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال ، أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله ، فقال ياربيع ، أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني . وقال الربيع ، سمعت الحميدي يقول ، قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار ، فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ، ونثرها على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه ، يقبض له قبضة ويعطيه ، حتى صلى الظهر ، ونفض الثوب وليس عليه شيء . وعن أبي ثور قال . أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال . وكان قلما يمسك شيئا من سماحته . فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك . قال فخرج ، ثم قدم علينا ، فسألته عن ذلك المال ، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها ، لمعرفتي بأصلها ، وقد وقف أكثرها . ولكني بنيت بمنى مضربا ، يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيه . وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... يقصر دون مبلغهن مالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل ... ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهلبي ، دخل أبي على المأمون ، فوصله بمائة ألف درهم . فلما قام من عنده تصدق بها . فأخبر بذلك المأمون ، فلما عاد إليه ، عاتبه المأمون في ذلك . فقال ياأمير المؤمنين ، منعُ الموجود سوء ظن بالمعبود . فوصله بمائة ألف أخرى

وقام رجل إلى سعيد بن العاص ، فسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم . فبكى . فقال له سعيد ما يبكيك ؟ قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى

ودخل أبو تمام على ابراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه بها ، فوجده عليلا . فقبل منه المدحة ، وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه ، وقال عسي أن أقوم من مرضي فأكافئه . فأقام شهرين فأوحشه طول المقام ، فكتب إليه يقول :

إن حراما قبول مدحتنا ... وترك ما نرتجي من الصفد

كما الدراهم والدنانير فى البيـ ـع حرام إلا يدا بيـــد

فلما وصل البيتان إلى ابراهيم ، قال لحاجبه : كم أقام بالباب ، قال شهرين . قال أعطه ثلاثين ألفا ، وجئنى بدواة ، فكتب إليه :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أمهلتنا لم نقلل

فخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونقول نحن كأننا لم نفعل

وروى أنه كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم . فخرج عثمان يوما إلى المسجد ، فقال له طلحة ، قد تهيأ مالك فاقبضه . فقال هو لك يا أبا محمد ، معونة لك على مروءتك .

وقالت سعدى بنت عوف ، دخلت على طلحة ، فرأيت منه ثقلا . فقلت له ما لك ؟ فقال اجتمع عندى مال وقد غمنى . فقلت وما يغمك : أدع قومك . فقال يا غلام . علىّ بقومى فقسمه فيهم . فسألت الخادم كم كان ؟ قال أربعمائة ألف . وجاء أعرابى إلى طلحة ، فسأله وتقرب إليه برحم . فقال إن هذه الرحم ما سألنى بها أحد قبلك . إن لى أرضا قد أعطانى بها عثمان ثلثمائة ألف ، فإن شئت فاقبضها ، وإن شئت بعتها من عثمان ، ودفعت إليك الثمن فقال الثمن . فباعها من عثمان ، ودفع إليه الثمن . وقيل بكى علي كرم الله وجهه يوما . فقيل ما يبكيك ؟ فقال لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام ، أخاف أن يكون الله قد أهاننى .

وأتى رجل صديقا له ، فدق عليه الباب ، فقال ما جاء بك ؟ قال علىّ أربعمائة درهم دين . فوزن أربعمائة درهم ، وأخرجها إليه ، وعاد يبكى . فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك ؟ فقال إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله ، حتى احتاج إلى مفاتحتى . فرحم الله من هذه صفاتهم ، وغفر لهم أجمعين

بيان

ذم البخل

قال الله تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [١]) وقال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ [٢]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ

(١) التغابن : ١٦ (٢) آل عمران : ١٨٠

مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ [1]) . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلاَ خَبٌّ وَلاَ خَائِنٌ وَلاَ سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وفي رواية « وَلاَ جَبَّارٌ » وفي رواية « وَلاَ مَنَّانٌ » . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [5] « إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ ثَلاَثَةً الشَّيْخَ الزَّانِي وَالْبَخِيلَ الْمَنَّانَ وَالْمُعِيلَ الْمُخْتَالَ » وقال صلى الله عليه وسلم [6] « مَثَلُ الْمُنْفِقِ وَالْبَخِيلِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ لَدُنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلاَ يُنْفِقُ شَيْئاً إِلاَّ سَبَغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلاَّ قَلَصَتْ وَلَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا حَتَّى أَخَذَتْ بِتَرَاقِيهِ فَهُوَ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَتَّسِعُ » . وقال صلى الله عليه وسلم [7] « خَصْلَتَانِ لاَ تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث إياكم والشح ـ الحديث : مسلم من حديث جابر بلفظ واتقوا الشح فان الشح ـ الحديث : ولأبي داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبدالله بن عمرو إياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا

(٢) حديث إياكم والشح فانه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا محارمهم ودعاهم فقطعوا أرحامهم : الحاكم من حديث أبي هريرة بفك حرماتهم مكان أرحامهم وقال صحيح على شرط مسلم

(٣) حديث لايدخل الجنة بخيل ولاخب ولاخائن ولاسيء الملكة وفي رواية ولامنان : أحمد والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولامنان فهي عند الترمذي وله ولابن ماجه لايدخل الجنة سيء الملكة

(٤) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم في العلم

(٥) حديث إن الله يبغض ثلاثا الشيخ الزاني والبخيل المنان والفقير المختال : الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل المنان وقال فيه الغني الظلوم وقد تقدم وللطبراني في الأوسط من حديث علي ان الله ليبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال وسنده ضعيف

(٦) حديث مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبة من حديد ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٧) حديث خصلتان لاتجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق : الترمذي من حديث أبي سعد وقال غريب

---

(١) النساء : ١٣٧

(١) « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُرَدَّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ . إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَاحِشَ وَلاَ الْمُتَفَحِّشَ وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الشُّحُّ أَمَرَهُمْ بِالْكَذِبِ فَكَذَبُوا وَأَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « شَرُّ مَا فِي الرَّجُلِ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ » . وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكته باكية ، فقالت واشهيداه . فقال صلى الله عليه وسلم (٤) « وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّهُ شَهِيدٌ فَلَعَلَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِيمَا لاَ يَعْنِيهِ أَوْ يَبْخَلُ بِمَا لاَ يَنْقُصُهُ » وقال جبير ابن مطعم ، (٥) بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة ، فخطفت رداءه . فوقف صلى الله عليه وسلم فقال « أَعْطُونِي رِدَائِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاةِ نَعَماً لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلاَ كَذَّاباً وَلاَ جَبَاناً »

وقال عمر رضي الله عنه ، (٦) قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسما . فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم . فقال « إِنَّهُمْ يُخَيِّرُونِي بَيْنَ أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبَخِّلُونِي وَلَسْتُ بِبَاخِلٍ »

---

(١) حديث اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن ـ الحديث : البخاري من حديث سعد وتقدم في الأذكار

(٢) حديث إياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ـ الحديث : الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا قال عوضا عنهما وبالبخل فبخلوا وبالفجور ففجروا وكذا رواه أبو داود مقتصرا على ذكر الشح وقد تقدم قبله بسبعة أحاديث ولمسلم من حديث جابر اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش

(٣) حديث شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع : أبو داود من حديث جابر بسند جيد

(٤) حديث وما يدريك انه شهيد فلعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه : أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وللبيهقي في الشعب من حديث أنس ان أمه قالت لينهك الشهادة وهو عند الترمذي الا أن رجلا قال له أبشر بالجنة

(٥) حديث جبير بن مطعم بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه الناس مقفلة من حنين علقت الأعراب به ـ الحديث : البخاري وتقدم في أخلاق النبوة

(٦) حديث عمر قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما ـ الحديث : وفيه ولست بباخل مسلم

وقال أبو سعيد الخدرى ،[١] دخل رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألاه ثمن بعير . فأعطاهما دينارين . فخرجا من عنده ، فلقيهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأثنيا وقالا معروفا ، وشكرا ماصنع بهما . فدخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما قالا . فقال صلى الله عليه وسلم « لَكِنْ فُلاَنٌ أَعْطَيْتُهُ مَا بَيْنَ عَشَرَةٍ إِلَى مِائَةٍ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَسْأَلُنِي فَيَنْطَلِقُ فِي مَسْأَلَتِهِ مُتَأَبِّطُهَا وَهِيَ نَارٌ » فقال عمر ، فلم تعطيهم ماهو نار ؟ فقال « يَأْبَوْنَ إِلاَّ أَنْ يَسْأَلُونِي وَيَأْبَى اللهُ لِيَ الْبُخْلَ »

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « الْجُودُ مِنْ جُودِ اللهِ تَعَالَى فَجُودُوا يَجُدِ اللهُ لَكُمْ أَلاَ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْجُودَ فَجَعَلَهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ طُوبَى وَشَدَّ أَغْصَانَهَا بِأَغْصَانِ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْهَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ أَلاَ إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَخَلَقَ الْبُخْلَ مِنْ مَقْتِهِ وَجَعَلَ رَأْسَهُ رَاسِخًا فِي أَصْلِ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ وَدَلَّى بَعْضَ أَغْصَانِهَا إِلَى الدُّنْيَا فَمَنْ تَعَلَّقَ بِغُصْنٍ مِنْهَا أَدْخَلَهُ النَّارَ أَلاَ إِنَّ الْبُخْلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْكُفْرُ فِي النَّارِ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « السَّخَاءُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي الْجَنَّةِ فَلاَ يَلِجُ الْجَنَّةَ إِلاَّ سَخِيٌّ وَالْبُخْلُ شَجَرَةٌ تَنْبُتُ فِي النَّارِ فَلاَ يَلِجُ النَّارَ إِلاَّ بَخِيلٌ » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] لوفد بنى لحيان « مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي لِحْيَانَ » قالوا سيدنا جدّ بن قيس ، إلا أنه رجل فيه بخل . فقال صلى الله عليه وسلم « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ

---

(١) حديث أبى سعيد فى الرجلين اللذين أعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارين فلقيهما عمر فأثنيا وقالا معروفا ـ الحديث : وفيه ويأبى الله لى البخل رواه أحمد وأبو يعلى والبزار نحوه ولم يقل أحمد انهما سألاه ثمن بعير ورواه البزار من رواية أبى سعيد عن عمر ورجال أسانيدهم ثقات

(٢) حديث ابن عباس الجود من جود الله فجودوا يجد الله لكم ـ الحديث بطوله ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أقف له على اسناد

(٣) حديث السخاء شجرة تنبت فى الجنة فلا يلج فى الجنة الا سخى ـ الحديث : تقدم دون قوله فلا يلج فى الجنة الى آخره وذكره بهذه الزيادة صاحب الفردس من حديث على ولم يخرجه ولده فى مسنده

(٤) حديث أبى هريرة من سيدكم يابنى لحيان قالوا سيدنا جد بن قيس ـ الحديث : الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ يابنى سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء وأما الرواية التى قال فيها سيدكم عمرو ابن الجموح فرواها الطبرانى فى الصغير من حديث كعب بن مالك باسناد حسن

أَلْبُخْلِ وَلَـكِنْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ أَلْجَمُوحِ » وفى رواية ، أنهم قالوا سيدنا جد بن قيس فقال « بِمَ تُسَوِّدُونَهُ ؟ » قالوا إنه أكثرنا مالا ، وإنا على ذلك لنرى منه البخل . فقال عليه السلام « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ أَلْبُخْلِ لَيْسَ ذَلِكَ سَيِّدَكُمْ » قالوا فمن سيدنا يارسول الله ؟ قال « سَيِّدُكُمْ بِشْرُ بْنُ أَلْبَرَاءِ » . وقال على رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّ اللهَ يَبْغَضُ أَلْبَخِيلَ فِى حَيَاتِهِ السَّخِيَّ عِنْدَ مَوْتِهِ » وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] « السَّخِيُّ الْجَهُولُ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ أَلْعَابِدِ أَلْبَخِيلِ »

وقال أيضا ، قال صلى الله عليه وسلم [٣] « الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِى قَلْبِ عَبْدٍ » وقال أيضا [٤] « خَصْلَتَانِ لاَ يَجْتَمِعَانِ فِى مُؤْمِنٍ ، أَلْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ » وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « لاَ يَنْبَغِى لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ بَخِيلاً وَلاَ جَبَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم [٦] « يَقُولُ قَائِلُكُمْ الشَّحِيحُ أَعْذَرُ مِنَ الظَّالِمِ وَأَيُّ ظُلْمٍ أَظْلَمُ عِنْدَ اللهِ مِنَ الشُّحِّ حَلَفَ اللهُ تَعَالَى بِعِزَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ وَجَلاَلِهِ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ شَحِيحٌ وَلاَ بَخِيلٌ »

وروى أن رسول الله عليه وسلم [٧] كان يطوف بالبيت ، فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول ، بحرمة هذا البيت إلا غفرت لى ذنبى . فقال صلى الله عليه وسلم « وَمَا ذَنْبُكَ ؟ صِفْهُ لِى » فقال هو أعظم من أن أصفه لك . فقال « وَيْحَكَ ذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْأَرَضُونَ ؟ » فقال بل ذنبى أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْجِبَالُ ؟ » قال بل ذنبى أعظم

---

(١) حديث على ان الله ليبغض البخيل فى حياته السخى عندموته ذكره صاحب الفردوس ولم يخرجه ولده فى مسنده ولم أجدله اسنادا

(٢) حديث أبى هريرة السخى الجهول أحب الى الله من العابد البخيل الترمذى بلفظ ولجاهل سخى وبقية حديث ان السخى قريب من الله وقد تقدم

(٣) حديث أبى هريرة لايجتمع الشح والايمان فى قلب عبد النسائى وفى اسناده اختلاف

(٤) حديث خصلتان لايجتمعان فى مؤمن ــ الحديث . الترمذى من حديث أبى سعيد وقد تقدم

(٥) حديث لاينبغى لمؤمن أن يكون جبانا ولا بخيلا لم أره بهذا اللفظ

(٦) حديث يقول قائلكم الشحيح أعذر من الظالم وأى ظلم أظلم من الشح ــ الحديث : وفيه لايدخل الجنة شحيح ولا بخيل لم أجده بتمامه وللترمذى من حديث أبى بكر لايدخل الجنة بخيل وقد تقدم

(٧) حديث كان يطوف بالبيت فاذا رجل متعلق باستار الكعبة وهو يقول بحرمة هذا البيت الاغفرت لى الحديث : فى ذم البخل وفيه قال إليك عنى لاتحرقنى بنارك ــ الحديث بطوله وهو باطل لا أصل له

يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْبِحَارُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ السَّمٰوَاتُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ الْعَرْشُ » قال بل ذنبي أعظم يارسول الله . قال « فَذَنْبُكَ أَعْظَمُ أَمِ اللهُ » قال بل الله أعظم وأعلى قال « وَيْحَكَ فَصِفْ لِي ذَنْبَكَ » قال يارسول الله ، إني رجل ذو ثروة من المال ، وإن السائل ليأتيني يسألني ، فكأنما يستقبلني بشعلة من نار . فقال صلى الله عليه وسلم « إِلَيْكَ عَنِّي لَا تُحْرِقُنِي بِنَارِكَ فَوَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْهِدَايَةِ وَالْكَرَامَةِ لَوْ قُمْتَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ ثُمَّ صَلَّيْتَ أَلْفَيْ أَلْفِ عَامٍ ثُمَّ بَكَيْتَ حَتَّى تَجْرِيَ مِنْ دُمُوعِكَ الْأَنْهَارُ وَتُسْقَى بِهَا الْأَشْجَارُ ثُمَّ مُتَّ وَأَنْتَ لَئِيمٌ لَأَكَبَّكَ اللهُ فِي النَّارِ وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْبُخْلَ كُفْرٌ وَأَنَّ الْكُفْرَ فِي النَّارِ وَيْحَكَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ (وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ [1]) (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [2])

الآثار : قال ابن عباس رضي الله عنهما ، لما خلق الله جنة عدن ، قال لها تزيني . فتزينت ثم قال لها أظهري أنهارك ، فأظهرت عين السلسبيل ، وعين الكافور ، وعين التسنيم . فتفجر منها في الجنان أنهار الخمر ، وأنهار العسل واللبن . ثم قال لها أظهري سررك ، وحجالك وكراسيك ، وحليك ، وحللك ، وحور عينك . فأظهرت . فنظر إليها فقال تكلمي . فقالت طوبى لمن دخلني . فقال الله تعالى ، وعزتي لا أسكنك بخيلا

وقالت أم البنين ، أخت عمر بن عبد العزيز ، أف للبخيل . لو كان البخل قميصا ما لبسته ولو كان طريقا ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء ، لكننا نتصبر . وقال محمد بن المنكدر ، كان يقال إذا أراد الله بقوم شرا أمر عليهم شرارهم ، وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم . وقال علي كرم الله وجهه في خطبته إنه سيأتي على الناس زمان عضوض ، يعض الموسر على ما في يده ، ولم يؤمر بذلك . قال الله تعالى (ولا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ [3]) وقال عبد الله بن عمرو ، الشح أشد من البخل . لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه ، ويشح بما في يده فيحبه والبخيل

---

(1) محمد : ٣٨ (2) التغابن : ١٦ (3) البقرة : ٢٣٧

هو الذى يبخل بما فى يده . وقال الشعبى ، لا أدرى أيهما أبعد غورا فى نار جهنم . البخل أو الكذب وقيل ورد على أنو شروان حكيم الهند ، وفيلسوف الروم . فقال للهندى تكلم . فقال خير الناس من ألفى سخيا ، وعند الغضب وقورا ، وفى القول متأنيا ، وفى الرفعة متواضعا ، وعلى كل ذى رحم مشفقا . وقام الرومى فقال ، من كان بخيلا ورث عدوه ماله ، ومن قل شكره لم ينل النجح ، وأهل الكذب مذمومون ، وأهل النميمة يموتون فقراء ، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه . وقال الضحاك فى قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً [١]) قال البخل . أمسك الله تعالى أيديهم عن النفقة فى سبيل الله ، فهم لا يبصرون الهدى . وقال كعب ، ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان يناديان ، اللهم عجل لممسك تلفا ، وعجل لمنفق خلفا . وقال الأصمعى ، سمعت أعرابيا وقد وصف رجلا فقال ، لقد صغر فلان فى عينى ، لعظم الدنيا فى عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله ، لا أرى أن أعدل بخيلا ، لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه ، خيفة من أن يغبن ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة

وقال على كرم الله وجهه ، والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى (عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ [٢]) وقال الجاحظ ، مابقى من اللذات إلا ثلاث ذم البخلاء ، وأكل القديد ، وحك الجرب . وقال بشر بن الحارث ، البخيل لا غيبة له . قال النبى صلى الله عليه وسلم « إِنَّكَ إِذاً لَبَخِيلٌ » ومدحت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [٢] فقالوا صوامة ، قوامة ، إلا أن فيها بخلا . قال « فَمَا خَيْرُهَا إِذاً »

وقال بشر ، النظر إلى البخيل يقسى القلب ، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين

وقال يحيى بن معاذ ، ما فى القلب للأسخياء إلا حب ، ولو كانوا فجارا ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبرارا . وقال ابن المعتز ، أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه . ولقى يحيى بن زكريا عليهما السلام ابليس فى صورته فقال له يا ابليس أخبرنى بأحب الناس إليك وأبغض الناس إليك . قال أحب

(٢) حديث مدحت امرأة عند النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا صوامة قوامة الا أن فيها بخلا ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان

(١) يس : ٨ (٢) التحريم : ٣

الناس إليّ المؤمن البخيل ، وأبغض الناس إليّ الفاسق السخي . قال لأن البخيل قد كفاني بخله ، والفاسق السخي أتخوف أن يطلع الله عليه في سخائه فيقبله . ثم ولى وهو يقول ، لولا أنك يحي لما أخبرتك

حكايات البخلاء

قيل كان بالبصرة رجل موسر بخيل ، فدعاه بعض جيرانه ، وقدم إليه طباهجة ببيض فأكل منه ، فأكثر . وجعل يشرب الماء ، فانتفخ بطنه ، ونزل به الكرب والموت فجعل يتلوى . فلما جهده الأمر ، وصف حاله للطبيب ، فقال لا بأس عليك ، تقيأ ما أكلت فقال هاه ، أتقيأ طباهجة ببيض ، الموتُ ولا ذلك . وقيل أقبل أعرابي يطلب رجلا ، وبين يديه تين فغطى التين بكسائه . فجلس الأعرابي ، فقال له الرجل ، هل تحسن من القرءان شيئا؟ قال نعم فقرأ (وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ [1]) فقال وأين التين؟ قال هو تحت كسائك

ودعا بعضهم أخاه ، ولم يطعمه شيئا ، فحبسه إلى العصر ، حتى اشتد جوعه ، وأخذه مثل الجنون . فأخذ صاحب البيت العود ، وقال له بحياتي أي صوت تشتهي أن أسمعك؟ قال صوت المقلى

ويحكى أن محمد بن يحي بن خالد بن برمك كان بخيلا قبيح البخل ، فسئل نسيب له كان يعرفه عنه . فقال له قائل ، صف لي مائدته . فقال هي فتر في فتر ، وصحافه منقورة من حب الخشخاش . قيل فمن يحضرها ؟ قال الكرام الكاتبون ، قال فما يأكل معه أحد ؟ قال بلى الذباب : فقال سوأتك بدت ، وأنت خاص به ، وثوبك مخرق . قال أنا والله ما أقدر على إبرة أخيطه بها . ولو ملك محمد بيتا من بغداد إلى النوبة ، مملوأ إبرا ، ثم جاءه جبريل وميكائيل ، ومعهما يعقوب النبي عليه السلام ، يطلبون منه إبرة ، ويسألونه إعارتهم إياها ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر ، ما فعل . ويقال كان مروان بن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلا حتى يقرم إليه ، فإذا قرم إليه ، أرسل غلامه ، فاشترى له رأسا . فأكله فقيل له نراك لا تأكل إلا الرؤس في الصيف والشتاء ، فلم تختار ذلك ؟ قال نعم ، الرأس أعرف سعره ، فآمن خيانة الغلام ، ولا يستطيع أن يغبنني فيه وليس بلحم يطبخه الغلام ،

---
(١) التين : ١

فيقدر أن يأكل منه، إن مس عينا، أو أذنا ، أو خدا ، وقفت على ذلك . وآكل منه ألوانا عينه لونا ، وأذنه لونا ولسانه لونا وغلصمته لونا، ودماغه لونا، وأكفى مؤنة طبخه. فقد اجتمعت لى فيه مرافق

وخرج يوما يريد الخليفة المهدى، فقالت له امرأة من أهله، مالى عليك إن رجعت بالجائزة ؟ فقال إن أعطيت مائة ألف، أعطيتك درهما. فأعطى ستين ألفا، فأعطاها أربعة دوانق. واشترى مرة لحما بدرهم، فدعاه صديق له، فرد اللحم إلى القصاب بنقصان دانق، وقال أكره الإسراف

وكان للأعمش جار ، وكان لا يزال يعرض عليه المنزل ويقول ، لو دخلت فأكلت كسرة وملحا ، فيأبى عليه الأعمش . فعرض عليه ذات يوم ، فوافق جوع الأعمش ، فقال سر بنا . فدخل منزله ، فقرب إليه كسرة وملحا . فجاء سائل ، فقال له رب المنزل ، بورك فيك فأعاد عليه المسألة فقال له بورك فيك. فلما سأل الثالثة ، قال له اذهب وإلا والله خرجت إليك بالعصا ، قال فناداه الأعمش وقال . اذهب ، ويحك ، فلا والله ما رأيت أحدا أصدق مواعيد منه ، هو منذ مدة يدعونى على كسرة وملح ، فلا والله ما زادنى عليهما

بيان

الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات. فأرفع درجات السخاء الإيثار . وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه . وإنما السخاء عبارة عن بذل ما يحتاج إليه لمحتاج ، أو لغير محتاج . والبذل مع الحاجة أشد . وكما أن السخاوة قد تنتهى إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة ، فالبخل قد ينتهى إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة . فكم من بخيل يمسك المال ويمرض ، فلا يتداوى . ويشتهى الشهوة ، فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ولو وجدها مجانا لأكلها . فهذا يبخل على نفسه مع الحاجة . وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ، فإن الأخلاق عطايا ، يضعها الله حيث يشاء

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1]) وقال النبي صلى الله عليه وسلم

---

[1] الحشر : ٩

«أيُّما امرئٍ اشتهى شهوةً فردَّ شهوته وآثرَ على نفسه غُفِرَ له»[1] وقالت عائشة رضي الله عنها ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] ثلاثة أيام متوالية ، حتى فارق الدنيا . ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا[3] . ونزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يديه إلى الطعام كأنه يأكل ، ولا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام . فلما أصبح . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقدْ عجِبَ اللهُ منْ صَنيعِكُمُ اللَّيْلَةَ إلى ضَيْفِكُمْ » ونزلت (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[1]) . فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى سماه الله تعالى عظيما ، فقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ[2])

وقال سهل بن عبد الله التستري ، قال موسى عليه السلام ، يارب ، أرني بعض درجات محمد صلى عليه وسلم وأمته . فقال ياموسى ، إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازله ، جليلة عظيمة ، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقي . قال فكشف له عن ملكوت السموات ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى . فقال يارب ، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟ قال بخلق اختصصته به من بينهم ، وهو الإيثار ياموسى ، لا يأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره ، إلا استحييت من محاسبته ، وبوأته من جنتي حيث يشاء . وقيل خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم

---

(١) حديث أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له: ابن حيان في الضعفاء وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر بسند ضعيف وقد تقدم

(٢) حديث عائشة ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متواليات ولو شئنا لشبعنا ولكنا نؤثر على أنفسنا: البيهقي في الشعب بلفظ ولكنه كان يؤثر على نفسه وأول الحديث عند مسلم بلفظ ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا من خبز بر حتى مضى لسبيله وللشيخين ماشبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة ليال تباعا حتى قبض زاد مسلم من طعام

(٣) حديث نزل به ضيف فلم يجد عند أهله شيئا فدخل عليه رجل من الانصار فذهب به الى أهله الحديث: في نزول قوله تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة متفق عليه من حديث أبي هريرة

---

(١) الحشر : ٩ (٢) القلم : ٤

وفيه غلام أسود يعمل فيه . إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ، ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكله ، وعبدُ الله ينظر إليه . فقال ياغلام ، كم قوتك كل يوم ؟ قال مارأيت . قال فلمَ آثرت به هذا الكلب ؟ قال ماهي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فما أنت صانع اليوم ؟ قال أطوي يومي هذا . فقال عبد الله بن جعفر ، ألام على السخاء ؟ إن هذا الغلام لأسخى مني . فاشترى الحائط والغلامَ ومافيه من الآلات ، فأعتق الغلام ، ووهبه منه .

وقال عمر رضي الله عنه ، أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال إن أخي كان أحوج مني إليه ، فبعث به إليه . فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر ، حتى تداوله سبعة أبيات ، ورجع إلى الأول .

وبات علي كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [1] فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام ، إني آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر . فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختارا كلاهما الحياة ، وأحباها ، فأوحى الله عز وجل إليهما ، أفلا كنتما مثل علي ابن أبي طالب ، آخيت بينه وبين نبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، فبات على فراشه يفديه بنفسه ، ويؤثره بالحياة ؟ اهبطا إلى الأرض ، فاحفظاه من عدوه . فكان جبريل عند رأسه ، وميكائيل عند رجليه . وجبريل عليه السلام يقول ، بخ بخ من مثلك ياابن أبي طالب . والله تعالى يباهي بك الملائكة ، فأنزل الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ [2]) . وعن أبي الحسن الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفسا ، وكانوا في قرية بقرب الري ، ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم . فكسروا الرغفان

---

(١) حديث بات علي على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوحى الله الى جبريل وميكائيل اني آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر ـ الحديث : في نزول قوله تعالى ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله أحمد مختصرا من حديث ابن عباس شرى علي نفسه فلبس ثوب النبي صلى الله عليه وسلم ثم نام مكانه ـ الحديث وليس فيه ذكر جبريل وميكائيل ولم أقف لهذه الزيادة على أصل وفيه أبو بلج مختلف فيه ـ والحديث : منكر

(٢) البقرة : ٢٠٧

وأطفؤا السراج ، وجلسوا للطعام . فلما رفع ، فإذا الطعام بحاله ، ولم يأكل أحد منه شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه . وروى أن شعبة جاءه سائل ، وليس عنده شيء . فنزع خشبة من سقف بيته ، فأعطاه ، ثم اعتذر إليه . وقال حذيفة العدوي ، انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ، ومعي شيء من ماء ، وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ، ومسحت به وجهه . فإذا أنا به . فقلت أسقيك ؟ فأشار إلىّ أن نعم . فإذا رجل يقول آه . فأشار ابن عمى إلىّ أن انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال آه . فأشار هشام انطلق به إليه . فجئته ، فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام ، فإذا هو قد مات . فرجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو قد مات ، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقال عباس بن دهقان ، ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها ، إلا بشر بن الحارث ، فإنه أتاه رجل في مرضه ، فشكا إليه الحاجة ، فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوبا فمات فيه .

وعن بعض الصوفية ، قال كنا بطرسوس ، فاجتمعنا جماعة ، وخرجنا إلى باب الجهاد ، فتبعنا كلب من البلد . فلما بلغنا ظاهر الباب ، إذا نحن بدابة ميتة ، فصعدنا إلى موضع عال ، وقعدنا . فلما نظر الكلب إلى الميتة ، رجع إلى البلد ، ثم عاد بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلبا . فجاء إلى تلك الميتة ، وقعد ناحية ، ووقعت الكلاب فى الميتة . فما زالت تأكلها ، وذلك الكلب قاعد ينظر إليها ، حتى أكلت الميتة . وبقى العظم ، ورجعت الكلاب إلى البلد . فقام ذلك الكلب ، وجاء إلى تلك العظام فأكل مما بقى عليها قليلا ، ثم انصرف

وقد ذكرنا جملة من أخبار الإيثار ، وأحوال الأولياء ، فى كتاب الفقر والزهد فلا حاجة إلى الإعادة ههنا ، وبالله التوفيق ، وعليه التوكل فيما يرضيه عز وجل

بيان

حد السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول قد عرف بشواهد الشرع ، أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حد البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلا ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخيا ، وربما يراه غيره بخيلا وقد يصدر فعل من إنسان ، فيختلف فيه الناس ، فيقول قوم هذا بخل ، ويقول آخرون

ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حبا للمال ، ولأجله يحفظ المال ويمسكه فإن كان يصير بإمساك المال بخيلا ، فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقا لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك ، فما البخل الذى يوجب الهلاك ؟ وما حد السخاء الذى يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها فنقول

قد قال قائلون حد البخل منع الواجب . فكل من أدى ما يجب عليه ، فليس ببخيل وهذا غير كاف . فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب ، والخبز للخباز ، بنقصان حبة أو نصف حبة ، فإنه يعد بخيلا بالاتفاق . وكذلك من يسلم إلى عياله القدر الذى يفرضه القاضى ، ثم يضايقهم فى لقمة ازدادوها عليه ، أو تمرة أكلوها من ماله ، يعد بخيلا . ومن كان بين يديه رغيف ، فحضر من يظن أنه يأكل معه ، فأخفاه عنه ، عد بخيلا

وقال قائلون البخيل هو الذى يستصعب العطية . وهو أيضا قاصر ، فإنه إن أريد به أنه يستصعب كل عطية ، فكم من بخيل لا يستصعب العطية القليلة ، كالحبة وما يقرب منها ، ويستصعب مافوق ذلك . وإن أريد به أنه يستصعب بعض العطايا فما من جواد إلا وقد يستصعب بعض العطايا ، وهو مايستغرق جميع ماله ، أو المال العظيم . فهذا لا يوجب الحكم بالبخل

وكذلك تكلموا فى الجود ، فقيل : الجود عطاء بلامن ، وإسعاف من غير روية

وقيل : الجود عطاء من غير مسألة ، على رؤية التقليل . وقيل : الجود السرور بالسائل والفرح بالعطاء لما أمكن . وقيل ، الجود عطاء على رؤية أن المال لله تعالى ، والعبد لله عز وجل ، فيعطى عبد الله مال الله ؟ على غير رؤية الفقر وقيل . من أعطى البعض ، وأبقى البعض ، فهو صاحب سخاء . ومن بذل الأكثر ، وأبقى لنفسه شيئا . فهو صاحب جود . ومن قاسى الضر ، وآثر غيره بالبلغة ، فهو صاحب إيثار . ومن لم يبذل شيئا ، فهو صاحب بخل

وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة الجود والبخل . بل نقول ، المال خلق لحكمة ومقصود ، وهو صلاحه لحاجات الخلق . ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ماخلق للصرف إليه ، ويمكن بذله بالصرف إلى ما لا يحسن الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ ، ويبذل حيث يجب البذل . فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير ،

وبينهما وسط وهو المحمود ، وينبغى أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ، إذلم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالسخاء . وقد قيل له (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ[1])وقال تعالى(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً[2]) . فالجود وسط بين الإسراف والإقتار ، وبين البسط والقبض . وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب ، ولا يكفى أن يفعل ذلك بجوارحه ، مالم يكن قلبه طيبا به ، غير منازع له فيه . فإن بذل فى محل وجوب البذل ، ونفسه تنازعه ، وهو يصابرها فهو متسخ . وليس بسخى ، بل ينبغى أن لايكون لقلبه علاقة مع المال ، إلا من حيث يراد المال له ، وهو صرفه إلى مايجب صرفه إليه . فإن قلت : فقدسار هذاموقوفا على معرفة الواجب ، فما الذى يجب بذله . فأقول ، إن الواجب قسمان ، واجب بالشرع ، وواجب بالمروءة والعادة . والسخى هو الذى لايمنع واجب الشرع ، ولا واجب المروءة فإن منع واحدا منهما ، فهو بخيل . ولكن الذى يمنع واجب الشرع أبخل . كالذى يمنع أداء الزكاة ، ويمنع عياله وأهله النفقة ، أو يؤديها ولكنه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسخى بالتكلف ، أو الذى يتيمم الخبيث من ماله ، ولا يطيب قلبه أن يعطى من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل . وأما واجب المروءة ، فهو ترك المضايقة والاستقصاء فى المحقرات . فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص فمن كثر ماله ، استقبح منه مالا يستقبح من الفقير من المضايقة . ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله ، وأقاربه ، ومماليكه ، مالايستقبح مع الأجانب . ويستقبح من الجار ، مالا يستقبح مع البعيد . ويستقبح فى الضيافة من المضايقة ، مالا يستقبح فى المعاملة . فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة ، فى ضيافة ، أو معاملة . وبما به المضايقة ، من طعام ، أو ثوب . إذ يستقبح فى الأطعمة مالايستقبح فى غيرها . ويستقبح فى شراء الكفن مثلا ، أو شراء الأضحية ، أو شراء خبز الصدقة ، مالايستقبح فى غيره من المضايقة : وكذلك بمن معه المضايقة ، من صديق ، أو أخ ، أو قريب ، أو زوجة ، أو ولد ، أو أجنبى . وبمن منه المضايقة ، من صبى أو امرأة ، أو شيخ ، أو شاب ، أو عالم ، أو جاهل ، أو موسر ، أو فقير ،

---

(1) الإسراء : ٢٩ (2) الفرقان : ٦٧

فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع ، إما بحكم الشرع ، وإما بحكم المروءة . وذلك لا يمكن التنصيص على مقداره . ولعل حد البخل هو إمساك المال عن غرض ، ذلك الغرض هو أهم من حفظ المال . فإن صيانة الدين أهم من حفظ المال . فمانع الزكاة والنفقة بخيل : وصيانة المروءة أهم من حفظ المال . والمضايق في الدقائق مع من لا تحسن المضايقة معه ، هاتك ستر المروءة لحب المال ، فهو بخيل . ثم تبقى درجة أخرى ، وهو أن يكون الرجل ممن يؤدي الواجب ، ويحفظ المروءة ، ولكن معه مال كثير قد جمعه ، ليس يصرفه إلى الصدقات وإلى المحتاجين . فقد تقابل غرض حفظ المال ، ليكون له عدة على نوائب الزمان . وغرض الثواب ، ليكون رافعا لدرجاته في الآخرة . وإمساك المال عن هذا الغرض بخل عند الأكياس ، وليس ببخل عند عوام الخلق . وذلك لأن نظر العوام مقصور على حظوظ الدنيا ، فيرون إمساكه لدفع نوائب الزمان مهما ، وربما يظهر عند العوام أيضا سمة البخل عليه ، إن كان في جواره محتاج فمنعه وقال ، قد أديت الزكاة الواجبة ، وليس علي غيرها : ويختلف استقباح ذلك باختلاف مقدار ماله ، وباختلاف شدة حاجة المحتاج ، وصلاح دينه ، واستحقاقه فمن أدى واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به ، فقد تبرأ من البخل .

نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ، ما لم يبذل زيادة على ذلك ، لطلب الفضيلة ، ونيل الدرجات فإذا اتسعت نفسه لبذل المال ، حيث لا يوجبه الشرع ، ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد ، بقدر ما تتسع له نفسه من قليل أو كثير . ودرجات ذلك لا تحصر . وبعض الناس أجود من بعض . فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة ، هو الجود . ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ، ولا يكون عن طمع ، ورجاء خدمة ، أو مكافأة أو شكر ، أو ثناء . فإن من طمع في الشكر والثناء ، فهو بياع ، وليس بجواد . فإنه يشتري المدح بماله . والمدح لذيذ ، وهو مقصود في نفسه . والجود هو بذل الشيء من غير عوض هذا هو الحقيقة ، ولا يتصور ذلك إلا من الله تعالى . وأما الآدمي ، فاسم الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض . ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة ، أو اكتساب فضيلة الجود ، وتطهير النفس عن رذالة البخل ، فيسمى جوادا . فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلا ، أو من ملامة الخلق ، أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه ، فكل ذلك

ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهى أعواض معجلة له عليه ، فهو معتاض لا جواد ، كما روى عن بعض المتعبدات ، أنها وقفت على حبان بن هلال ، وهو جالس مع أصحابه ، فقالت هل فيكم من أسأله عن مسألة ؟ فقالوا لها سلى عماشئت ، وأشاروا إلى حبان ابن هلال . فقالت ماالسخاء عندكم ؟ قالوا العطاء ، والبذل ، والإيثار . قالت هذا السخاء فى الدنيا ؟ فما السخاء فى الدين ؟ قالوا أن نعبد الله سبحانه ، سخية بها أنفسنا ، غير مكرهة قالت فتريدون على ذلك أجرا ؟ قالوا نعم ، قالت ولمَ ؟ قالوا لأن الله تعالى وعدنا بالحسنة عشر أمثالها . قالت سبحان الله ، فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرة ، فبأى شىء تسخيتم عليه ؟ قالوا لها فما السخاء عندك يرحمك الله ؟ قالت السخاء عندى ، أن تعبدوا الله متنعمين متلذذين بطاعته ، غير كارهين ، لا تريدون على ذلك أجرا ، حتى يكون مولاكم يفعل بكم مايشاء ألا تستحيون من الله أن يطلع على قلوبكم ، فيعلم منها أنكم تريدون شيئا بشىء ؟ إن هذا فى الدنيا لقبيح . وقالت بعض المتعبدات ، أتحسبون أن السخاء فى الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت السخاء عندى فى المهج . وقال المحاسبى ، السخاء فى الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ، ويسخو قلبك ببذل مهجتك ، وإهراق دمك لله تعالى ، بسماحة من غير إكراه ، ولا تريد بذلك ثوابا عاجلا ولا آجلا . وإن كنت غير مستغن عن الثواب . ولكن يغلب على ظنك حسن كمال السخاء ، بترك الاختيار على الله ، حتى يكون مولاك هو الذى يفعل لك مالا تحسن أن تختاره لنفسك

بيان

علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحب المال سببان : أحدهما حب الشهوات التى لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل . فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ، ربما أنه كان لا يبخل بماله ، إذ القدر الذى يحتاج إليه فى يوم ، أو فى شهر ، أو فى سنة ، قريب . وإن كان قصير الأمل ، ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه ،

فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه السلام [1] « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ » فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر، وقلة الثقة بمجيء الرزق، قوى البخل لامحالة .

السبب الثاني : أن يحب عين المال . فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره ، إذا اقتصر على ماجرت به عادته بنفقته ، وتفضل آلاف ، وهو شيخ بلا ولد ، ومعه أموال كثيرة ، ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ، ولا بمداواة نفسه عند المرض ، بل صار محبا للدنانير ، عاشقا لها ، يلتذ بوجودها في يده ، وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض ، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة . وهذا مرض للقلب عظيم ، عسير العلاج ، لاسيما في كبر السن . وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه . ومثال صاحبه مثال رجل عشق شخصا ، فأحب رسوله لنفسه ، ثم نسي محبوبه ، واشتغل برسوله . فإن الدنانير رسول يبلغ إلى الحاجات . فصارت محبوبة لذلك ، لأن الموصل إلى اللذيذ لذيذ . ثم قد تنسى الحاجات ، ويصير الذهب عنده كأنه محبوب في نفسه ، وهو غاية الضلال . بل من رأى بينه وبين الحجر فرقا فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به . فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة .

فهذه أسباب حب المال وإنما علاج كل علة بمضادة سببها . فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير ، وبالصبر . وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت ، والنظر في موت الأقران ، وطول تعبهم في جمع المال ، وضياعه بعدهم . وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالا ، وحاله أحسن ممن ورث . وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده ، يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر . وأن ولده إن كان تقيا صالحا فالله كافيه ، وإن كان فاسقا فيستعين به على المعصية ، وترجع مظلمته إليه . ويعالج أيضا قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ، ومدح السخاء ، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم

ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ، ونفرة الطبع عنهم ، واستقباحهم له . فإنه مامن بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه .

---

(١) حديث الولد مبخلة زاد في رواية محزنة : ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله محزنة رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبي سعيد والحاكم من حديث الاسود بن خلف واسناده صحيح

فيعلم أنه مستثقل ومستقذر فى قلوب الناس ، مثل سائر البخلاء فى قلبه · ويعالج أيضا قلبه بأن التفكر فى مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق · ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقى يدخره لنفسه فى الآخرة ، بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم . فإذا عرف بنور البصيرة ، أن البذل خير له من الإمساك فى الدنيا والآخرة هاجت رغبته فى البذل إن كان عاقلا . فإن تحركت الشهوة ، فينبغى أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ، ويخوفه ،ويصده عنه . حكى أن أبا الحسن البوشنجى كان ذات يوم فى الخلاء ، فدعا تلميذا له ، وقال انزع عنى القميص وادفعه إلى فلان.فقال هلا صبرت حتى تخرج ؟ قال لم آ من على نفسى أن تتغير ، وكان قد خطر لى بذله

ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفا · كما لا يزول العشق إلا بمفارقه المعشوق، بالسفر عن مستقره ، حتى إذا سافر وفارق تكلفا ، وصبر عنه مدة تسلى عنه قلبه . فكذلك الذى يريد علاج البخل، ينبغى أن يفارق المال تكلفا بأن يبذله . بل لو رماه فى الماء كان أولى به من إمساكه إياه مع الحب له . ومن لطائف الحيل فيه ، أن يخدع نفسه بحسن الاسم والاشتهار بالسخاء ، فيبذل على قصد الرياء ، حتى تسمح نفسه بالبذل طمعا فى حشمة الجود فيكون قد أزال عن نفسه خبث البخل ، واكتسب بها خبث الرياء . ولكن ينعطف بعد ذلك على الرياء ، ويزيله بعلاجه ، ويكون طلب الاسم كالتسلية للنفس عند فطامها عن المال ، كما قد يسلى الصبى عند الفطام عن الثدى باللعب بالعصافير وغيرها. لا ليخلى واللعب ولكن لينفك عن الثدى إليه ، ثم ينقل عنه إلى غيره . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، ينبغى أن يسلط بعضها على بعض ، كما تسلط الشهوة على الغضب ، وتكسر سورته بها . ويسلط الغضب على الشهوة ، وتكسر رعونتها به . إلا أن هذا مفيد فى حق من كان البخل أغلب عليه من حب الجاه والرياء ، فيبدل الأقوى بالأضعف . فإن كان الجاه محبوبا عنده كالمال ، فلا فائدة فيه ، فإنه يقلع من علة ، ويزيد فى أخرى مثلها . إلا أن علامة ذلك أن لا يثقل عليه البذل لأجل الرياء . فبذلك يتبين أن الرياء أغلب عليه . فإن كان البذل يشق عليه مع الرياء ، فينبغى أن يبذل ، فإن ذلك يدل على أن مرض البخل أغلب على قلبه

ومثال دفع هذه الصفات بعضها ببعض ، مايقال إن الميت تستحيل جميع أجزائه دودا ثم يأكل بعض الديدان البعض ، حتى يقل عددها . ثم يأكل بعضها بعضا ، حتى ترجع إلى اثنتين ، قويتين ، عظيمتين . ثم لا تزالان تتقاتلان ، إلى أن تغلب إحداها الأخرى ، فتأكلها ، وتسمن بها . ثم لا تزال تبقى جائعة وحدها ، إلى أن تموت . فكذلك هذه الصفات الخبيثة ، يمكن أن يسلط بعضها على بعض ، حتى يقمعها ، ويجعل الأضعف قوتا للأقوى ، إلى أن لا يبقى إلا واحدة ، ثم تقع العناية بمحوها وإذابتها بالمجاهدة ، وهو منع القوت عنها

ومنع القوت عن الصفات ، أن لا يعمل بمقتضاها ، فإنها تقتضى لا محالة أعمالا ، وإذا خولفت خمدت الصفات وماتت . مثل البخل ، فإنه يقتضي إمساك المال . فإذا منع مقتضاه وبذل المال مع الجهد مرة بعد أخرى ، ماتت صفة البخل ، وصار البذل طبعا ، وسقط التعب فيه . فإن علاج البخل بعلم وعمل . فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل ، وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف . ولكن قد يقوى البخل ، بحيث يعمى ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه . وإذا لم تتحقق المعرفة ، لم تتحرك الرغبة ، فلم يتيسر العمل . فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله ، فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

وكان من عادة بعض شيوخ الصوفية ، في معالجة علة البخل في المريدين ، أن يمنعهم من الاختصاص بزواياهم . وكان إذا توهم في مريد فرحه بزاويته وما فيها ، نقله إلى زاوية غيرها ونقل زاوية غيره إليه ، وأخرجه عن جميع ماملكه . وإذا رآه يلتفت إلى ثوب جديد يلبسه ، أو سجادة يفرح بها ، يأمره بتسليمها إلى غيره ، ويلبسه ثوبا خلقا ، لا يميل إليه قلبه . فبهذا يتجافى القلب عن متاع الدنيا . فمن لم يسلك هذا السبيل ، أنس بالدنيا وأحبها . فإن كان له ألف متاع ، كان له ألف محبوب ولذلك إذا سرق كل واحد منه ، ألمت به مصيبة بقدر حبه له . فإذا مات ، نزل به ألف مصيبة دفعة واحدة ، لأنه كان يحب الكل ، وقد سلب عنه . بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك

حمل إلى بعض الملوك قدح من فيروزج ، مرصع بالجواهر ، لم ير له نظير . ففرح الملك بذلك فرحا شديدا . فقال لبعض الحكماء عنده ، كيف ترى هذا ؟ قال أراه مصيبة أو فقرا قال كيف ؟ قال إن كسر كان مصيبة لا جبر لها ، وإن سرق صرت فقيرا إليه ، ولم تجد مثله

وقد كنت قبل أن يحمل إليك فى أمن من المصيبة والفقر . ثم اتفق يوما أن كسر أوسرق وعظمت مصيبة الملك عليه ، فقال صدق الحكيم ، ليته لم يحمل إلينا . وهذا شأن جميع أسباب الدنيا . فإن الدنيا عدوّة لأعداء الله ، إذ تسوقهم إلى النار . وعدوّة أولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها . وعدوّة الله ، إذ تقطع طريقه على عباده ، وعدوّة نفسها ، فإنها تأكل نفسها ، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس ، والخزائن والحراس لا يمكن تحصيلها إلا بالمال ، وهو بذل الدراهم والدنانير . فالمال يأكل نفسه ويضاد ذاته ، حتى يفنى . ومن عرف آفة المال لم يأنس به ، ولم يفرح به ، ولم يأخذ منه إلا بقدر حاجته . ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل ، لأن ما أمسكه لحاجته فليس ببخل ، وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه ، فيبذله . بل هو كالماء على شط الدجلة . إذ لا يبخل به أحد ، لقناعة الناس منه بمقدار الحاجة

بيان

مجموع الوظائف التى على العبد فى ماله

اعلم أن المال كما وصفناه ، خير من وجه ، وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراقى ويستخرج منها الترياق . ويأخذها الغافل ، فيقتله سمها من حيث لا يدرى . ولا يخلو أحد عن سم المال ، إلا بالمحافظة على خمس وظائف

الأولى : أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ، وأنه لم يحتاج إليه ، حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه

الثانية : أن يراعى جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام كمال السلطان ويجتنب الجهات المكروهة ، القادحة فى المروءة ، كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذى فيه الذلة وهتك المروءة ، وما يجرى مجراه

الثالثة : فى المقدار الذى يكتسبه ، فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب . ومعياره الحاجة ، والحاجة ملبس ، ومسكن ، ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات ، أدنى وأوسط ، وأعلى . وما دام مائلا إلى جانب القلة ومتقربا من حد الضرورة ، كان محقا ،

ويجيء من جملة المحققين . وإن جاوز ذلك ، وقع فى هاوية لا آخر لعمقها . وقد ذكرنا تفصيل هذه الدرجات فى كتاب الزهد

الرابعة :أن يراعى جهة المخرج ، ويقتصد فى الإنفاق ، غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حِله في حقه ، ولا يضعه في غير حقه . فإن الإثم فى الأخذ من غير حقه ، والوضع فى غير حقه سواء

الخامسة: أن يصلح نيته في الأخذ ، والترك ، والإنفاق ، والإمساك . فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة . ويترك مايترك زهدا فيه ، واستحقارا له . إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال . ولذلك قال على رضي الله عنه ، لو أن رجلا أخذ جميع مافى الأرض ، وأراد به وجه الله تعالى ، فهو زاهد . ولو أنه ترك الجميع ، ولم يرد به وجه الله تعالى ، فليس بزاهد .

فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله ، مقصورة على عبادة ، أو مايعين على العبادة فإن أبعد الحركات عن العبادة ، الأكل وقضاء الحاجة . وهما معينان على العبادة .فإذا كان ذلك قصدك بهما ، صار ذلك عبادة فى حقك . وكذلك ينبغى أن تكون نيتك فى كل مايحفظك ، من قميص ، وإزار ، وفراش ، وآنية . لأن كل ذلك مما يحتاج إليه فى الدين . وما فضل من الحاجة ، ينبغى أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ، ولا يمنعه منه عند حاجته . فمن فعل ذلك ، فهو الذى أخذ من حية المال جوهرها وترياقها ، واتقى سمها ، فلا تضره كثرة المال . ولكن لايتأتى ذلك إلا لمن رسخ فى الدين قدمه ، وعظم فيه علمه . والعامي إذا تشبه بالعالم فى الاستكثار من المال ، وزعم أنه يشبه أغنياء الصحابة ، شابه الصبي الذى يرى المعزم الحاذق يأخذ الحية ، ويتصرف فيها ، فيخرج ترياقها ، فيقتدى به ، ويظن أنه أخذها مستحسنا صورتها وشكلها ، ومستلينا جلدها ، فيأخذها اقتداء به ، فتقتله فى الحال . إلا أن قتيل الحية يدرى أنه قتيل ، وقتيل المال قد لايعرف . وقد شبهت الدنيا بالحية . فقيل

هي دنيا كحية تنفث السم وإن كانت المجسة لانت

وكما يستحيل أن يتشبه الأعمى بالبصير ، فى تخطى قلل الجبال ، وأطراف البحار ، والطرق المشوكة ، فمحال أن يتشبه العامي بالعالم الكامل فى تناول المال .

بيــان

ذم الغنى ومدح الفقر

اعلم أن الناس قد اختلفوا فى تفضيل الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر . وقد أوردنا ذلك فى كتاب الفقر والزهد ، وكشفنا عن تحقيق الحق فيه . ولكنا فى هذا الكتاب ، ندل على أن الفقر أفضل وأعلى من الغنى على الجملة ، من غير التفات إلى تفصيل الأحوال . ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبى رضى الله عنه ، فى بعض كتبه ، فى الرد على بعض العلماء من الأغنياء ، حيث احتج بأغنياء الصحابة ، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم . والمحاسبى رحمه الله خبر الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأغوار العبادات ، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه

وقد قال بعد كلام له فى الرد على علماء السوء ، بلغنا أن عيسى بن مريم عليه السلام ، قال ياعلماء السوء ، تصومون ، وتصلون ، وتصدقون ، ولا تفعلون ماتؤمرون ، وتدرسون مالاتعملون . فياسوء ماتحكمون . تتوبون بالقول والأمانى ، وتعملون بالهوى ، وما يغنى عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لاتكونوا كالمنخل ، يخرج منه الدقيق الطيب ، وتبقى فيه النخالة . كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل فى صدوركم . ياعبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لاتنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته ! بحق أقول لكم ، إن قلوبكم تبكى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم . بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم ، فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى الناس أخسر منكم ؟ لو تعلمون ، ويلكم ، حتام تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون فى محل المتحيرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم . مهلا مهلا . ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة متعطلة . ياعبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ، ولا كأحرار كرام ، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم ، فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم تدفعكم من خلفكم

حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم

ثم قال الحارث رحمه الله : إخواني ، فهؤلاء علماء السوء ، شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة ، وأذلوا الدين للدنيا . فهم في العاجل عار وشين ، وفي الآخرة هم الخاسرون ، أو يعفو الكريم بفضله . وبعد :

فإني رأيت الهالك المؤثر للدنيا، سروره ممزوج بالتنغيص، فيتفجر عنه أنواع الهموم، وفنون المعاصي ، وإلى البوار والتلف مصيره . فرح الهالك برجائه ، فلم تبق له دنياه ، ولم يسلم له دينه . خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . فيالها من مصيبة ما أفظعها، ورزية ما أجلها . ألا فراقبوا الله إخواني ، ولا يغرنكم الشيطان وأولياؤه ، من الآنسين بالحجج الداحضة عند الله ، فإنهم يتكالبون على الدنيا ، ثم يطلبون لأنفسهم المعاذير والحجج ، ويزعمون أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت لهم أموال ، فيتزين المغرورون بذكر الصحابة ، ليعذرهم الناس على جمع المال ، ولقد دهاهم الشيطان وما يشعرون .

ويحك أيها المفتون ، إن احتجاجك بمال عبد الرحمن بن عوف ، مكيدة من الشيطان ينطق بها على لسانك فتهلك ، لأنك متى زعمت أن أخيار الصحابة أرادوا المال للتكاثر والشرف ، والزينة ، فقد اغتبت السادة ، ونسبتهم إلى أمر عظيم . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى وأفضل من تركه ، فقد ازدريت محمدا والمرسلين ، ونسبتهم إلى قلة الرغبة والزهد في هذا الخير الذي رغبت فيه أنت وأصحابك ، من جمع المال ، ونسبتهم إلى الجهل إذ لم يجمعوا المال كما جمعت . ومتى زعمت أن جمع المال الحلال أعلى من تركه ، فقد زعمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينصح للأمة إذ نهاهم[1] عن جمع المال ، وقد علم أن جمع المال خير للأمة ، فقد غشهم بزعمك حين نهاهم عن جمع المال ، كذبت ورب السماء على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلقد كان للأمة ناصحا ، وعليهم مشفقا ، وبهم رؤفا . ومتى زعمت أن جمع المال أفضل ، فقد زعمت أن الله عز وجل لم ينظر لعباده ، حين نهاهم عن جمع المال ،

---

(١) حديث النهي عن جمع المال : ابن عدي من حديث ابن مسعود ما أوحى الله الي أن أجمع المال وأكون من التاجرين ــ الحديث : ولأبي نعيم والخطيب في التاريخ والبيهقي في الزهد من حديث الحارث بن سويد في أثناء الحديث لا تجمعوا ما لا تأكلون وكلاهما ضعيف

وقد علم أن جمع المال خير لهم . أو زعمت أن الله تعالى لم يعلم أن الفضل فى الجمع ، فلذلك نهاهم عنه ، وأنت عليم بما فى المال من الخير والفضل ، فلذلك رغبت فى الاستكثار ، كأنك أعلم بموضع الخير والفضل من ربك ، تعالى الله عن جهلك أيها المفتون . تدبر بعقلك ماذهاك به الشيطان ، حين زين لك الاحتجاج بمال الصحابة . ويحك ، ماينفعك الاحتجاج بمال عبد الرحمن بن عوف ، وقد ود عبد الرحمن بن عوف فى القيامة أنه لم يؤت من الدنيا إلا قوتا . ولقد بلغنى أنه لما توفى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، قال أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك . فقال كعب ، سبحان الله ، وما تخافون على عبد الرحمن ، كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا . فبلغ ذلك أباذر ، فخرج مغضبا يريد كعبا ، فمر بعظم لحى بعير ، فأخذه بيده ، ثم انطلق يريد كعبا . فقيل لكعب ، إن أبا ذر يطلبك ، فخرج هاربا ، حتى دخل على عثمان يستغيث به ، وأخبره الخبر وأقبل أبو ذر يقص الأثر فى طلب كعب ، حتى انتهى إلى دار عثمان ، فلما دخل ، قام كعب فجلس خلف عثمان ، هاربا من أبى ذر ، فقال له أبو ذر ، هيه يا ابن اليهودية ، تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ، ولقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوما نحو أحد وأنا معه ، فقال « يَا أَبَا ذَرٍّ » فقلت لبيك يارسول الله ، فقال[1] « الأَكْثَرُونَ هُمُ الأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَقُدَّامِهِ وَخَلْفِهِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ » قلت نعم يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، قال « مَا يَسُرُّنِى أَنَّ لِى مِثْلَ أُحُدٍ أُنْفِقُهُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمُوتُ يَوْمَ أَمُوتُ وَأَتْرُكُ مِنْهُ قِيرَاطَيْنِ » قلت أو قنطارين يارسول الله؟ قال « بَلْ قِيرَاطَانِ » ثم قال « يَا أَبَا ذَرٍّ أَنْتَ تُرِيدُ الأَكْثَرَ وَأَنَا أُرِيدُ الأَقَلَّ » فرسول الله يريد هذا ، وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف ،

---

(١) حديث أبى ذر الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا ـ الحديث : متفق عليه وقد تقدم دون هذه الزيادة التى فى أوله من قول كعب حين مات عبد الرحمن بن عوف كسب طيبا وترك طيبا وانكار أبى ذر عليه فلم أقف على هذه الزيادة الا فى قول الحارث بن أسد المحاسبى بلغنى كما ذكره المصنف وقد رواها أحمد وأبو يعلى أخصر من هذا ولفظ كعب اذا كان قضى عنه حق الله فلا بأس به فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعبا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أحب لو كان هذا الجبل لى ذهبا ـ الحديث : وفيه ابن لهيعة

كذبت وكذب من قال . فلم يرد عليه خوفا حتى خرج ﷺ وبلغنا أن عبدالرحمن بن عوف قدمت عليه عير من اليمن ، فضجت المدينة ضجة واحدة ، فقالت عائشة رضى الله عنها ، ماهذا؟ قيل عير قدمت لعبدالرحمن ، قالت صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فبلغ ذلك عبدالرحمن فسألها ، فقالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] يقول « إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْمُسْلِمِينَ يَدْخُلُونَ سَعْياً وَلَمْ أَرَ أَحَداً مِنَ الأَغْنِيَاءِ يَدْخُلُهَا مَعَهُمْ إِلاَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَأَيْتُهُ يَدْخُلُهَا مَعَهُمْ حَبْوًا » فقال عبدالرحمن ، إن العير وما عليها فى سبيل الله ، وإن أرقاءها أحرار ، لعلى أن أدخلها معهم سعيا .

وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم [٣] قال لعبد الرحمن بن عوف « أَمَا إِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أَغْنِيَاءِ أُمَّتِي وَمَا كِدْتَ أَنْ تَدْخُلَهَا إِلاَّ حَبْواً »

ويحك أيها المفتون ، فما احتجاجك بالمال ، وهذا عبد الرحمن فى فضله ، وتقواه ، وصنائعه المعروف ، وبذله الأموال فى سبيل الله ، مع صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم [٤] ، وبشراه بالجنة أيضا ، يوقف فى عرصات القيامة وأهوالها ، بسبب مال كسبه من حلال للتعفف ، ولصنائع المعروف ، وأنفق منه قصدا ، وأعطى فى سبيل الله سمحا ، منع من السعى إلى الجنة مع الفقراء المهاجرين ، وصار يحبو فى آثارهم حبوا . فما ظنك بأمثالنا الغرقى فى فتن الدنيا

وبعد ، فالعجب كل العجب لك يامفتون ، تتمرغ فى تخاليط الشبهات والسحت ، وتتكالب على أوساخ الناس ، وتتقلب فى الشهوات ، والزينة ، والمباهاة ، وتتقلب فى فتن

---

(٢) حديث عائشة رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين شعثا ـ الحديث : فى أن عبد الرحمن ابن عوف يدخل الجنة حبوا رواه أحمد مختصرا فى كون عبد الرحمن يدخل حبوا دون ذكر فقراء المهاجرين والمسلمين وفيه عمارة بن راذان مختلف فيه ـ الحديث :

(٣) حديث انه قال أما إنك أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى وما كدت أن تدخلها الاحبوا : البزار من حديث أنس بسند ضعيف والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف ياابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيف فيه خالد بن أبى مالك ضعفه الجمهور

(٤) حديث بشر النبى صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف بالجنة . الترمذى والنسائى فى الكبرى من حديث أبو بكر فى الجنة ـ الحديث : وفيه وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة وهو عند الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال البخارى والترمذى وهذا أصح

الدنيا ، ثم تحتج بعبد الرحمن ، وتزعم أنك إن جمعت المال فقد جمعه الصحابة ، كأنك أشبهت السلف وفعلهم . ويحك ! إن هذا من قياس إبليس ، ومن فُتياه لأوليائه

وسأصف لك أحوالك وأحوال السلف ، لتعرف فضائحك ، وفضل الصحابة

ولعمري لقد كان لبعض الصحابة أموال ، أرادوها للتعفف ، والبذل فى سبيل الله ، فكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وأنفقوا قصدا ، وقدموا فضلا ، ولم يمنعوا منها حقا ، ولم يبخلوا بها ، لكنهم جادوا لله بأكثرها ، وجاد بعضهم بجميعها ، وفى الشدة آثروا الله على أنفسهم كثيرا . فبالله أكذلك أنت ؟ والله إنك لبعيد الشبه بالقوم . وبعد

فإن أخيار الصحابة كانوا للمسكنة محبين ، ومن خوف الفقر آمنين ، وبالله فى أرزاقهم واثقين ، وبمقادير الله مسرورين ، وفى البلاء راضين ، وفى الرخاء شاكرين ، وفى الضراء صابرين ، وفى السراء حامدين . وكانوا لله متواضعين ، وعن حب العلو والتكاثر ورعين ، لم ينالوا من الدنيا إلا المباح لهم ، ورضوا بالبلغة منها ، وزجوا الدنيا ، وصبروا على مكارهها ، وتجرعوا مرارتها ، وزهدوا فى نعيمها وزهراتها . فبالله أكذلك أنت ، ولقد بلغنا أنهم كانوا إذا أقبلت الدنيا عليهم حزنوا ، وقالوا ذنب عجلت عقوبته من الله ، وإذا رأوا الفقر مقبلا قالوا مرحبا بشعار الصالحين . وبلغنا أن بعضهم كان إذا أصبح وعند عياله شىء ، أصبح كئيبا حزينا . وإذا لم يكن عندهم شىء ، أصبح فرحا مسرورا . فقيل له إن الناس إذا لم يكن عندهم شىء حزنوا ، وإذا كان عندهم شىء فرحوا ، وأنت لست كذلك . قال إنى إذا أصبحت وليس عند عيالى شىء فرحت ، إذ كان لى برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة . وإذا كان عند عيالى شىء ، إغتممت ، إذ لم يكن لى بآل محمد أسوة . وبلغنا أنهم كانوا إذا سلك بهم سبيل الرخاء حزنوا وأشفقوا ، وقالوا مالنا وللدنيا وما يراد بها فكأنهم على جناح خوف . وإذا سلك بهم سبيل البلاء فرحوا واستبشروا ، وقالوا الآن تعاهدنا ربنا

فهذه أحوال السلف ونعتهم ، وفيهم من الفضل أكثر مما وصفنا . فبالله أكذلك أنت ؟ إنك لبعيد الشبه بالقوم ، وسأصف لك أحوالك أيها المفتون ضدا لأحوالهم

وذلك أنك تطغى عند الغنى ، وتبطر عند الرخاء ، وتمرح عند السراء ، وتغفل عن شكر ذى النعماء ، وتقنط عند الضراء ، وتسخط عند البلاء ، ولا ترضى بالقضاء ،

نعم: وتبغض الفقر، وتأنف من المسكنة، وذلك فخر المرسلين. وأنت تأنف من فخرهم، وأنت تدخر المال وتجمعه خوفا من الفقر، وذلك من سوء الظن بالله عز وجل وقلة اليقين بضمانه. وكفى به إثما وعساك تجمع المال لنعيم الدنيا، وزهرتها، وشهواتها، ولذاتها. ولقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] قال « شِرَارُ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ فَرَبَتْ عَلَيْهِ أَجْسَامُهُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال، ليجيء يوم القيامة قوم يطلبون حسنات لهم، فيقال لهم (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا[1]) وأنت في غفلة، قد حرمت نعيم الآخرة بسبب نعيم الدنيا، فيالها حسرة ومصيبة. نعم وعساك تجمع المال للتكاثر والعلو، والفخر، والزينة في الدنيا، وقد بلغنا أنه من طلب الدنيا للتكاثر أو للتفاخر، لقى الله وهو عليه غضبان. وأنت غير مكترث بما حل بك من غضب ربك، حين أردت التكاثر والعلو. نعم: وعساك المكث في الدنيا أحب إليك من النقلة إلى جوار الله، فأنت تكره لقاء الله، والله للقائك أكره، وأنت في غفلة. وعساك تأسف على مافاتك من عرض الدنيا، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ أَسِفَ عَلَى دُنْيَا فَاتَتْهُ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » وقيل سنة. وأنت تأسف على مافاتك، غير مكترث بقربك من عذاب الله. نعم: ولعلك تخرج من دينك أحيانا لتوفير دنياك، وتفرح بإقبال الدنيا عليك، وترتاح لذلك سرورا بها، وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[2] « مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَسُرَّ بِهَا ذَهَبَ خَوْفُ الْآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ » وبلغنا أن بعض أهل العلم قال، إنك تحاسب على التحزن على مافاتك من الدنيا، وتحاسب بفرحك في الدنيا إذا قدرت عليها. وأنت فرح بدنياك، وقد سلبت الخوف من الله تعالى. وعساك تعنى بأمور دنياك، أضعاف ماتعنى بأمور آخرتك. وعساك ترى مصيبتك في معاصيك، أهون

---

(١) حديث شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم ـ الحديث: تقدم ذكره في أوائل كتاب ذم البخل عند الحديث الرابع منه من أسف على دنيا فاتته اقترب من النار مسيرة سنة

(٢) حديث من أحب الدنيا وسر بها ذهب خوف الآخرة من قلبه: لم أجده إلا بلاغا للحارث بن أسد المحاسبي كما ذكره المصنف عنه

---

(١) الأحقاف: ٢٠

من مصيبتك فى انتقاص دنياك. نعم: وخوفك من ذهاب مالك أكثر من خوفك من الذنوب وعساك تبذل للناس ماجمعت من الأوساخ كلها ، للعلو ، والرفعة فى الدنيا . وعساك ترضى المخلوقين ، مساخطا لله تعالى ، كيما تكرم وتعظم . ويحك ، فكأن احتقار الله تعالى لك فى القيامة ، أهون عليك من احتقار الناس إياك . وعساك تخفى من المخلوقين مساويك ، ولا تكترث باطلاع الله عليك فيها ، فكأن الفضيحة عند الله ، أهون عليك من الفضيحة عند الناس ، فكأن العبيد أعلى عندك قدرا من الله تعالى . الله عن جهلك . فكيف تنطق عند ذوى الألباب ، وهذه المثالب فيك ! أف لك ، متلوثا بالأقذار ،وتحتج بمال الأبرار ! هيهات هيهات ، ماأبعدك عن السلف الأخيار ! والله لقد بلغنى أنهم كانوا فيما أحل لهم ، أزهد منكم فيما حرم عليكم . إن الذى لابأس به عندكم ، كان من الموبقات عندهم ، وكانوا للزلة الصغيرة أشد استعظاما منكم لكبائر المعاصى . فليت أطيب مالك وأحله ، مثل شبهات أموالهم وليتك أشفقت من سيئاتك ، كما أشفقوا على حسناتهم أن لاتقبل . ليت صومك على مثال إفطارهم . وليت اجتهادك فى العبادة على مثل فتورهم ونومهم . وليت جميع حسناتك مثل واحدة من سيئاتهم . وقد بلغنى عن بعض الصحابة أنه قال ، غنيمة الصديقين مافاتهم من الدنيا ، ونهمتهم مازوى عنهم منها . فمن لم يكن كذلك ، فليس معهم فى الدنيا ، ولا معهم فى الآخرة . فسبحان الله ، كم بين الفريقين من التفاوت ! فريق خيار الصحابة فى العلو عند الله ! وفريق أمثالكم فى السفالة ، أو يعفو الله الكريم بفضله . وبعد ، فإنك إن زعمت أنك متأس بالصحابة بجمع المال ، للتعفف والبذل فى سبيل الله ، فتدبر أمرك . ويحك هل تجد من الحلال فى دهرك كما وجدوا فى دهرهم ؟ أو تحسب أنك محتاط فى طلب الحلال كما احتاطوا ؟ لقد بلغنى أن بعض الصحابة قال ، كنا ندع سبعين بابا من الحلال ، مخافة أن نقع فى باب من الحرام . أفتطمع من نفسك فى مثل هذا الاحتياط ؟ لاورب الكعبة ، ماأحسبك كذلك . ويحك ، كن على يقين أن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان ليوقعك بسبب البر فى اكتساب الشبهات ، الممزوجة بالسحت والحرام . وقد بلغنا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] قال « مَنِ اجْتَرَأَ عَلَى الشُّبُهَاتِ أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِي الْحَرَامِ » أيها المغرور ، أما علمت أن خوفك من اقتحام الشبهات ، أعلى وأفضل ، وأعظم لقدرك عند الله ، من اكتساب الشبهات ، وبذلها فى سبيل الله وسبيل البر ؟ بلغنا ذلك عن بعض أهل العلم قال ، لأن تدع درهما واحدا ، مخافة أن لا يكون حلالا ، خير لك من أن تتصدق بألف دينار من شبهة ، لا تدرى أيحل لك أم لا

فإن زعمت أنك أتقى وأورع من أن تتلبس بالشبهات ، وإنما تجمع المال بزعمك من الحلال للبذل فى سبيل الله ، ويحك إن كنت كما زعمت بالغا فى الورع ، فلا تتعرض للحساب فإن خيار الصحابة خافوا المسألة . وبلغنا أن بعض الصحابة قال ، ماسرنى أن أكتسب كل يوم ألف دينار من حلال ، وأنفقها فى طاعة الله ، ولم يشغلنى الكسب عن صلاة الجماعة . قالوا ولمَ ذاك رحمك الله ؟ قال لأنى غنى عن مقام يوم القيامة ، فيقول عبدى من أين اكتسبت ؟ وفى أى شىء أنفقت . فهؤلاء المتقون كانوا فى جدة الإسلام ، والحلال موجود لديهم . تركوا المال وجلا من الحساب ، مخافة أن لا يقوم خير المال بشره وأنت بغاية الأمن ، والحلال فى دهرك مفقود ، تتكالب على الأوساخ ، ثم تزعم أنك تجمع المال من الحلال . ويحك ، أين الحلال فتجمعه . وبعد ، فلو كان الحلال موجودا لديك أما تخاف أن يتغير عند الغنى قلبك ؟ وقد بلغنا أن بعض الصحابة كان يرث المال الحلال ، فيتركه مخافة أن يفسد قلبه . أفتطمع أن يكون قلبك أتقى من قلوب الصحابة ، فلا يزول عن شىء من الحق فى أمرك وأحوالك ؟ لئن ظننت ذلك ، لقد أحسنت الظن بنفسك الأمارة بالسوء

ويحك ، إنى لك ناصح ، أرى لك أن تقنع بالبلغة ، ولا تجمع المال لأعمال البر ، ولا تتعرض للحساب ، فإنه بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] أنه قال « مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ » وقال عليه السلام [٢] « يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ

---

(١) حديث من اجترأ على الشبهات أوشك أن يقع فى الحرام : متفق عليه من حديث النعمان بن بشير نحوه وقد تقدم فى كتاب الحلال والحرام أول الحديث :

(٢) حديث من نوقش الحساب عذب : متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم

(٣) حديث يؤتى بالرجل يوم القيامة وقد جمع مالا من حرام وأنفقه فى حرام فيقال اذهبوا به الى النار : لم أقف له على أصل

فى حَرَامٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقَهُ فى حَرَامٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَرَامٍ وَأَنْفَقَهُ فى حَلاَلٍ فَيُقَالُ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ وَيُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ جَمَعَ مَالاً مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقَهُ فى حَلاَلٍ فَيُقَالُ لَهُ قِفْ لَعَلَّكَ قَصَّرْتَ فى طَلَبِ هَذَا بِشَيْءٍ مِمَّا فَرَضْتُ عَلَيْكَ مِنْ صَلاَةٍ لَمْ تُصَلِّهَا لِوَقْتِهَا وَفَرَّطْتَ فى شَيْءٍ مِنْ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَوُضُوئِهَا فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقْتُ فى حَلاَلٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ اخْتَلْتَ فى هَذَا الْمَالِ فى شَيْءٍ مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ ثَوْبٍ بَاهَيْتَ بِهِ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ لَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ فى شَيْءٍ فَيُقَالُ لَعَلَّكَ مَنَعْتَ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتُكَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِنْ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنِ السَّبِيلِ فَيَقُولُ لاَ يَارَبِّ كَسَبْتُ مِنْ حَلاَلٍ وَأَنْفَقْتُ فى حَلاَلٍ وَلَمْ أُضَيِّعْ شَيْئاً مِمَّا فَرَضْتَ عَلَيَّ وَلَمْ أَخْتَلْ وَلَمْ أُبَاهِ وَلَمْ أُضَيِّعْ حَقَّ أَحَدٍ أَمَرْتَنِى أَنْ أُعْطِيَهُ قَالَ فَيَجِيءُ أُولَئِكَ فَيُخَاصِمُونَهُ فَيَقُولُونَ يَارَبِّ أَعْطَيْتَهُ وَأَغْنَيْتَهُ وَجَعَلْتَهُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَأَمَرْتَهُ أَنْ يُعْطِيَنَا فَإِنْ كَانَ أَعْطَاهُمْ وَمَا ضَيَّعَ مَعَ ذَلِكَ شَيْئاً مِنَ الْفَرَائِضِ وَلَمْ يَخْتَلْ فى شَيْءٍ فَيُقَالُ قِفِ الآنَ هَاتِ شُكْرَ كُلِّ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتُهَا عَلَيْكَ مِنْ أَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ أَوْ لَذَّةٍ فَلاَ يَزَالُ يُسْأَلُ »

ويحك ، فمن ذا الذى يتعرض لهذه المسألة التى كانت لهذا الرجل ، الذى تقلب فى الحلال وقام بالحقوق كلها ، وأدى الفرائض بحدودها ، حوسب هذه المحاسبة . فكيف ترى يكون حال أمثالنا ، الغرقى فى فتن الدنيا ، وتخاليطها ، وشبهاتها ، وشهواتها ، وزينتها ،

ويحك لأجل هذه المسائل ، يخاف المتقون أن يتلبسوا بالدنيا ، فرضوا بالكفاف منها وعملوا بأنواع البر من كسب المال ، فلك ويحك . بهؤلاء الأخيار أسوة . فإن أبيت ذلك وزعمت أنك بالغ فى الورع والتقوى ، ولم تجمع المال إلا من حلال بزعمك للتعفف ، والبذل فى سبيل الله ، ولم تنفق شيئا من الحلال إلا بحق ، ولم يتغير بسبب المال قلبك عما يحب الله ، ولم تسخط الله فى شىء من سرائرك وعلانيتك . ويحك ، فإن كنت كذلك ، ولست كذلك ، فقد ينبغى لك أن ترضى بالبلغة ، وتعتزل ذوى الأموال إذا وقفوا للسؤال ، وتسبق مع الرعيل الأول فى زمرة المصطفى ، لا حبس عليك للمسألة والحساب ،

فإما سلامة، وإما عطب ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] قال « يَدْخُلُ صَعَالِيكُ الْمُهَاجِرِينَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمُ الْجَنَّةَ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ » وقال عليه السلام[٢] « يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ فَيَأْكُلُونَ وَيَتَمَتَّعُونَ وَالآخَرُونَ جُثَاةٌ عَلَى رُكَبِهِمْ فَيَقُولُ قِبَلَكُمْ طَلِبَتِي أَنْتُمْ حُكَّامُ النَّاسِ وَمُلُوكُهُمْ فَأَرُونِي مَاذَا صَنَعْتُمْ فِيمَا أَعْطَيْتُكُمْ »

وبلغنا أن بعض أهل العلم قال ، ماسرنى أن لى حمر النعم ولا أكون فى الرعيل الأول ، مع محمد عليه السلام وحزبه ، ياقوم فاستبقوا السباق مع المخفين ، فى زمرة المرسلين عليهم السلام ، وكونوا وجلين من التخلف والانقطاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجل المتقين[٣] . لقد بلغنى أن بعض الصحابة، وهو أبو بكر رضي الله عنه ، عطش ، فاستسقى فأتى بشربة من ماء وعسل ، فلما ذاقه خنقته العبرة ، ثم بكى وأبكى ، ثم مسح الدموع عن وجهه ، وذهب ليتكلم ، فعاد فى البكاء . فلما أكثر البكاء ، قيل له ، أكل هذا من أجل هذه الشربة ؟ قال نعم . بينا أنا ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما معه أحد فى البيت غيرى فجعل يدفع عن نفسه وهو يقول إليك عنى فقلت له فداك أبى وأمى ما أرى بين يديك أحداً، فمن تخاطب؟ فقال « هَذِهِ الدُّنْيَا تَطَاوَلَتْ إِلَيَّ بِعُنُقِهَا وَرَأْسِهَا فَقَالَتْ لِي يَا مُحَمَّدُ خُذْنِي فَقُلْتُ إِلَيْكِ عَنِّي فَقَالَتْ إِنْ تَنْجُ مِنِّي يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّهُ لاَ يَنْجُو مِنِّي مَنْ بَعْدَكَ » فأخاف أن تكون هذه قد لحقتنى ، تقطعنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ياقوم ، فهؤلاء الأخيار بكوا وجلا أن تقطعهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شربة

---

(١) حديث يدخل صعاليك المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بخمسمائة عام : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى سعيد بلفظ فقراء مكان صعاليك ولهما وللنسائى فى الكبرى من حديث أبى هريرة يدخل الفقراء الجنة ـ الحديث : ولمسلم من حديث عبدالله بن عمران فقراء المهاجرين يسبقون الاغنياء الى الجنة بأربعين خريفا

(٢) حديث يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم فيتمتعون ويأكلون ـ الحديث : لم أر له أصلا

(٣) حديث ان بعض الصحابة عطش فاستسقى فأتى بشربة ماء وعسل ـ الحديث : فى دفع النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا عن نفسه وقوله اليك عنى ـ الحديث : البزار والحاكم من حديث زيد بن أرقم قال كنا عند أبى بكر فدعا بشراب فأتى بماء وعسل ـ الحديث : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيف وقد تقدم قبل هذا فى هذا الكتاب

من حلال ، ويحك أنت فى أنواع من النعم والشهوات ، من مكاسب السحت والشبهات لا تخشى الانقطاع ! أف لك ، ما أعظم جهلك . ويحك ، فإن تخلفت فى القيامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محمد المصطفى ، لتنظرن إلى أهوال جزعت منها الملائكة والأنبياء . ولئن قصرت عن السباق ، فليطولن عليك اللحاق ، ولئن أردت الكثرة ، لتصيرن إلى حساب عسير . ولئن لم تقنع بالقليل ، لتصيرن إلى وقوف طويل ، وصراخ وعويل . ولئن رضيت بأحوال المتخلفين ، لتقطعن عن أصحاب اليمين ، وعن رسول رب العالمين ، ولتبطئن عن نعيم المتنعمين . ولئن خالفت أحوال المتقين ، لتكونن من المحتبسين فى أهوال يوم الدين . فتدبر ويحك ما سمعت . وبعد فإن زعمت أنك فى مثال خيار السلف ، قنع بالقليل ، زاهد فى الحلال ، بذول لمالك ، مؤثر على نفسك ، لا تخشى الفقر ، ولا تدخر شيئاً لغدك ، مبغض للتكاثر والغنى ، راض بالفقر والبلاء ، فرح بالقلة والمسكنة ، مسرور بالذل والضعة ، كاره للعلو والرفعة ، قوى فى أمرك ، لا يتغير عن الرشد قلبك ، قد حاسبت نفسك فى الله ، وأحكمت أمورك كلها على ما وافق رضوان الله ، ولن توقف فى المسألة ، ولن يحاسب مثلك من المتقين ، وإنما تجمع المال الحلال للبذل فى سبيل الله ، ويحك . أيها المغرور ، فتدبر الأمر ، وأمعن النظر . أما علمت أن ترك الاشتغال بالمال ، وفراغ القلب للذكر ، والتذكر ، والتذكار ، والفكر ، والاعتبار ، أسلم للدين ، وأيسر للحساب ، وأخف للمسألة ، وآمن من روعات القيامة ، وأجزل للثواب ، وأعلى لقدرك عند الله أضعافا ؟ بلغنا عن بعض الصحابة أنه قال ، لو أن رجلا فى حجره دنانير يعطيها ، والآخر يذكر الله ، لكان الذاكر أفضل . وسئل بعض أهل العلم ، عن الرجل يجمع المال لأعمال البر ، قال تركه أبر به وبلغنا أن بعض خيار التابعين ، سئل عن رجلين ، أحدهما طلب الدنيا حلالا فأصابها ، فوصل بها رحمه ، وقدم لنفسه . وأما الآخر فإنه جانبها فلم يطلبها ولم يتناولها . فأيهما أفضل ، قال بعيد والله ما بينهما . الذى جانبها أفضل كما بين مشارق الأرض ومغاربها

ويحك . فهذا الفضل لك بترك الدنيا على من طلبها . ولك فى العاجل إن تركت الاشتغال بالمال ، أن ذلك أروح لبدنك ، وأقل لتعبك ، وأنعم لعيشك ، وأرضى لبالك ، وأقل لهمومك . فما عذرك فى جمع المال ، وأنت بترك المال أفضل ممن طلب المال لأعمال البر ؟

نعم : وشغلك بذكر الله أفضل من بذل المال فى سبيل الله ، فاجتمع لك راحة العاجل ، مع السلامة والفضل فى الآجل . وبعد ، فلو كان فى جمع المال فضل عظيم ، لوجب عليك فى مكارم الأخلاق أن تتأسى بنبيك. إذ هداك الله به، وترضى ما اختاره لنفسه من مجانبة الدنيا

ويحك ، تدبر ما سمعت ، وكن على يقين أن السعادة والفوز فى مجانبة الدنيا ، فسر مع لواء المصطفى ، سابقا إلى جنة المأوى ، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] قال « سَادَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِى الْجَنَّةِ مَنْ إِذَا تَغَدَّى لَمْ يَجِدْ عَشَاءً وَإِذَا اسْتَقْرَضَ لَمْ يَجِدْ قَرْضًا وَلَيْسَ لَهُ فَضْلُ كِسْوَةٍ إِلاَّ مَا يُوَارِيهِ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَكْتَسِبَ مَا يُغْنِيهِ يُمْسِى مَعَ ذَلِكَ وَيُصْبِحُ رَاضِياً عَنْ رَبِّهِ » (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً [1]) : ألا يا أخى ، متى جمعت هذا المال بعد هذا البيان ، فإنك مبطل فيما ادعيت أنك للبر والفضل تجمعه . لا ، ولكنك خوفا من الفقر تجمعه ، وللتنعم ، والزينة ، والتكاثر ، والفخر ، والعلو ، والرياء ، والسمعة ، والتعظم والتكرمة تجمعه ، ثم تزعم أنك لأعمال البر تجمع المال ، ويحك ، راقب الله واستحى من دعواك أيها المغرور . ويحك ، إن كنت مفتونا بحب المال والدنيا ، فكن مقرا أن الفضل والخير فى الرضا بالبلغة ، ومجانبة الفضول . نعم : وكن عند جمع المال، زريا على نفسك معترفا بإساءتك، وجلا من الحساب. فذلك أنجى لك، وأقرب إلى الفضل من طلب الحجج لجمع المال

إخوانى : اعلموا أن دهر الصحابة كان الحلال فيه موجوداً ، وكانوا مع ذلك من أورع الناس وأزهدهم فى المباح لهم ، ونحن فى دهر الحلال فيه مفقود ، وكيف لنا من الحلال مبلغ القوت وستر العورة فأما جمع المال فى دهرنا ، فأعاذنا الله وإياكم منه

وبعد ، فأين لنا مثل تقوى الصحابة وورعهم ، ومثل زهدهم واحتياطهم . وأين لنا مثل ضمائرهم وحسن نياتهم . دهينا ورب السماء بأدواء النفوس وأهوائها ، وعن قريب يكون

---

(١) حديث سادات المؤمنين فى الجنة من اذا تغدى لم يجد عشاء ـ الحديث : عزاه صاحب مسند الفردوس للطبرانى من رواية أبى حازم عن أبى هريرة مختصرا بلفظ سادة الفقراء فى الجنة ـ الحديث : ولم أره فى معاجم الطبرانى

---

(١) النساء : ٦٩

الورود . فياسعادة المخفين يوم النشور، وحزن طويل لأهل التكاثر والتخاليط، وقد نصحت لكم إن قبلتم ، والقابلون لهذا قليل ، وفقنا الله وإياكم لكل خير برحمته آمين

هذا آخر كلامه ، وفيه كفاية فى إظهار فضل الفقر على الغنى ، ولامزيد عليه . ويشهد لذلك جميع الأخبار التى أوردناها فى كتاب ذم الدنيا.وفى كتاب الفقر والزهد . ويشهد له أيضا ماروى عن أبى أمامة الباهلى [١] أن ثعلبة بن حاطب قال، يارسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالا. قال « يَاثَعْلَبَةُ قَلِيلٌ تُؤَدِّى شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لاَتُطِيقُهُ » قال يارسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالا . قال « يَاثَعْلَبَةُ أَمَالَكَ فِيَّ أُسْوَةٌ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللهِ تَعَالَى أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ تَسِيرَ مَعِيَ الْجِبَالُ ذَهَباً وَفِضَّةً لَسَارَتْ » قال والذى بعثك بالحق نبيا ، لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا ، لأعطين ، كل ذى حق حقه ، ولا فعلن ولأفعلن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً » فاتخذغنما. فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ، فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى الجماعة ، ويدع ماسواهما . ثم نمت وكثرت ، فتنحى ، حتى ترك الجماعة إلا الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، وطفق يلقى الركبان يوم الجمعة، فيسألهم عن الأخبار فى المدينة . وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فقال « مَافَعَلَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ ؟ » فقيل يارسول الله، اتخذغنما ، فضاقت عليه المدينة .وأخبر بأمره كله فقال « يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قال وأنزل الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ [١]) وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من جهينة ، ورجلا من بنى سليم على الصدقة . وكتب لهما كتابا بأخذ الصدقة ، وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين . وقال « مُرَّا بِثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ ، وَبِفُلاَنٍ » رجل من بنى سليم « وَخُذَا صَدَقَاتِهِمَا » فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال ماهذه إلا جزية،

---

(١) حديث أبى أمامة أن ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا قال ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه ـ الحديث : بطوله الطبرانى بسند ضعيف .

---

(١) التوبة : ١٠٣

ماهذه إلا جزية، ماهذه إلا أخت الجزية ،انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلىّ فانطلقا نحو السليمي، فسمع بهما ، فقام إلى خيار أسنان إبله ، فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها . فلما رأوها ، قالوا لا يجب عليك ذلك : وما نريد نأخذ هذا منك. قال بلى خذوها، نفسي بها طيبة، وإنما هي لتأخذوها. فلما فرغا من صدقاتهما ، رجعا حتى مرّا بثعلبة ،فسألاه الصدقة ،فقال أرونى كتابكما. فنظر فيه ، فقال هذه أخت الجزية : انطلقا حتى أرى رأيى . فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال « يَاوَيْحَ ثَعْلَبَةَ » قبل أن يكلماه ، ودعا للسليمى . فأخبراه بالذى صنع ثعلبة ، وبالذى صنع السليمى . فأنزل الله تعالى فى ثعلبة (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [1]) وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ما أنزل الله فيه ، فخرج حتى أتى ثعلبة ، فقال لا أم لك يا ثعلبة ، قد أنزل الله فيك كذا وكذا . فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال « إِنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ » فجعل يحثو التراب على رأسه· فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هَذَا عَمَلُكَ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي » فلما أبى أن يقبل منه شيئا ، رجع إلى منزله . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فأبى أن يقبلها منه . وجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأبى أن يقبلها منه . وتوفى ثعلبة بعد فى خلافة عثمان

فهذا طغيان المال وشؤمه ، وقد عرفته من هذا الحديث · ولأجل بركة الفقر وشؤم الغنى ، آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر لنفسه ولأهل بيته ، حتى روى عن عمران ابن حصين رضي الله عنه أنه قال ، كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] منزلة وجاه، فقال « يا عِمْرَانُ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا مَنْزِلَةً وَجَاهًا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ

(١) حديث عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الحديث : بطوله وفيه لقد زوجتك سيدا فى الدنيا سيدا فى الآخرة لم أجده من حديث عمران ولأحمد والطبرانى من حديث معقل بن يسار وضأت

[1] التوبة : ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ » فقلت نعم ، بأبي أنت وأمي يارسول الله . فقام وقمت معه ، حتى وقفت بباب منزل فاطمة ، فقرع الباب وقال « السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَأَدْخُلُ ؟ » فقالت ادخل يارسول الله . قال « أَنَا وَمَنْ مَعِيَ ؟ » قالت ومن معك يارسول الله فقال « عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ » فقالت والذى بعثك بالحق نبيا ، ماعلىّ إلا عباءة، فقال « اصْنَعِي بِهَا هَكَذَا وَهَكَذَا » وأشار بيده . فقالت هذا جسدى فقد واريته ، فكيف برأسى ؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال « شُدِّي بِهَا عَلَى رَأْسِكِ » ثم أذنت له فدخل . فقال « السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا بِنْتَاهُ كَيْفَ أَصْبَحْتِ ؟ » قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا على مابى أنى لست أقدر على طعام آكله ، فقد أجهدنى الجوع . فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « لَا تَجْزَعِي يَا بِنْتَاهُ فَوَاللهِ مَاذُقْتُ طَعَامًا مُنْذُ ثَلَاثٍ وَإِنِّي لَأَكْرَمُ عَلَى اللهِ مِنْكِ وَلَوْ سَأَلْتُ رَبِّي لَأَطْعَمَنِي وَلَكِنِّي آثَرْتُ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا » ثم ضرب بيده على منكبها ، وقال لها « أَبْشِرِي فَوَاللهِ إِنَّكِ لَسَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » فقالت ، فأين آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ؟ فقال « آسِيَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَمَرْيَمُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَخَدِيجَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِهَا وَأَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَاءِ عَالَمِكِ إِنَّكُنَّ فِي بُيُوتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا أَذًى فِيهَا وَلَا صَخَبٌ » ثم قال لها « اقْنَعِي بِابْنِ عَمِّكِ فَوَاللهِ لَقَدْ زَوَّجْتُكِ سَيِّدًا فِي الدُّنْيَا سَيِّدًا فِي الْآخِرَةِ »

فانظر الآن إلى حال فاطمة رضى الله عنها ، وهى بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف آثرت الفقر ، وتركت المال . ومن راقب أحوال الأنبياء والأولياء وأقوالهم ، وما ورد من أخبارهم وآثارهم ، لم يشك فى أن فقد المال أفضل من وجوده ، وإن صرف إلى الخيرات ، إذ أقل مافيه مع أداء الحقوق ، والتوقى من الشبهات ، والصرف إلى الخيرات اشتغال الهم بإصلاحه ، وانصرافه عن ذكر الله ، إذ لا ذكر إلا مع الفراغ ، ولا فراغ مع شغل المال

وقد روى عن جرير ، عن ليث قال ، صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام ، فقال أكون معك وأصحبك . فانطلقا ، فانتهيا إلى شط نهر ، فجلسا يتغديان ، ومعهما ثلاثة أرغفة فأكلا رغيفين ، وبقى رغيف ثالث . فقام عيسى عليه السلام إلى النهر ، فشرب ، ثم رجع

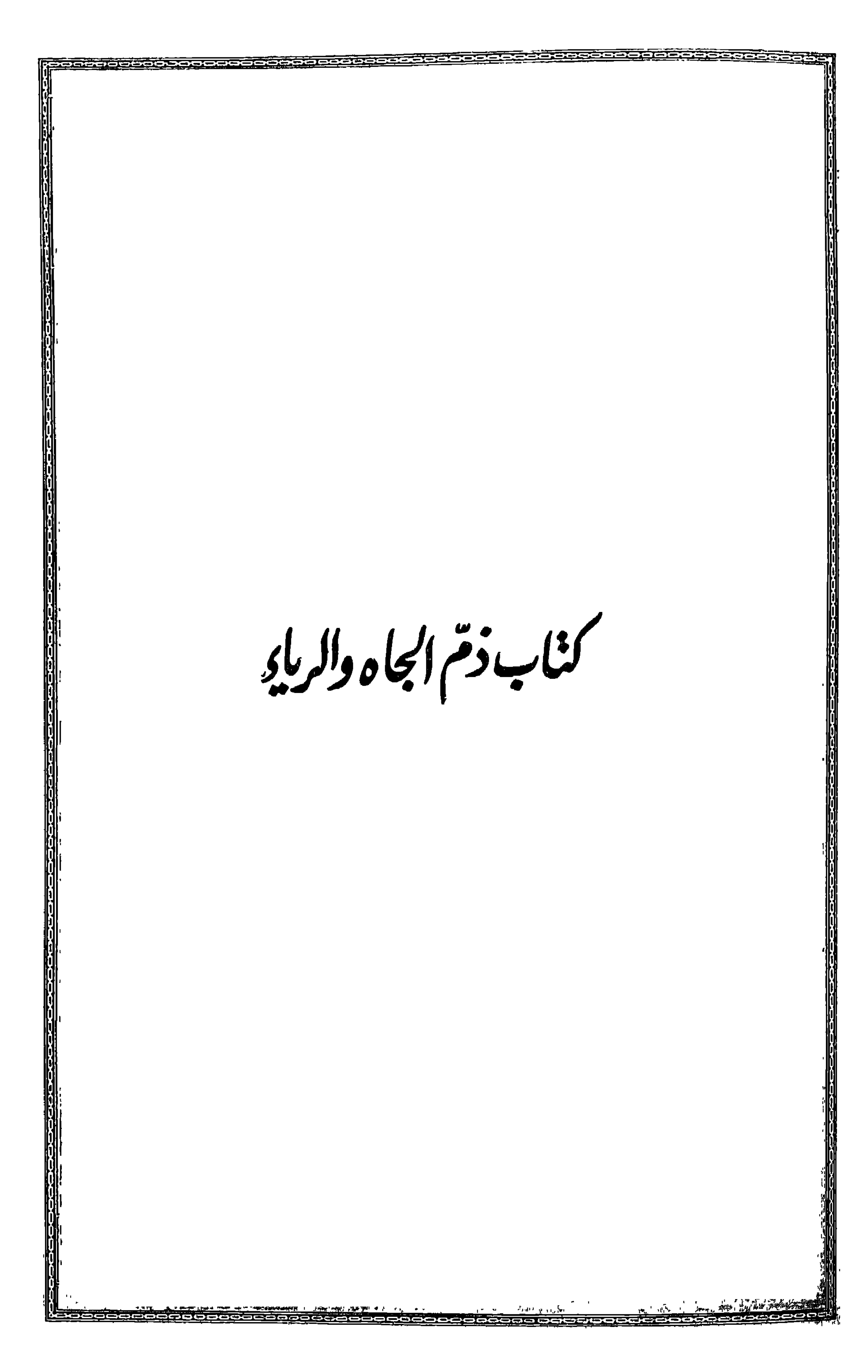
النبى صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال هل لك فى فاطمة تعودها ـ الحديث : وفيه أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتى سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما واسناده صحيح.

فلم يجد الرغيف . فقال للرجل ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى ، قال فانطلق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها ، قال فدعا أحدهما فأتاه ، فذبحه ، فاشتوى منه ، فأكل هو وذاك الرجل ، ثم قال للخشف قم بإذن الله ، فقام فذهب . فقال الرجل أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف ؟ فقال لا أدرى . ثم انتهيا إلى وادى ماء ، فأخذ عيسى بيد الرجل ، فمشيا على الماء ، فلما جاوزا قال له ، أسألك بالذى أراك هذه الآية ، من أخذ الرغيف؟ فقال لا أدرى . فانتهيا إلى مفازة ، فجلسا ، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا ، ثم قال ، كن ذهبا بإذن الله تعالى ، فصار ذهبا . فقسمه ثلاثة أثلاث ، ثم قال ؛ ثلث لى ، وثلث لك ، وثلث لمن أخذ الرغيف . فقال أنا الذى أخذت الرغيف . فقال كله لك . وفارقه عيسى عليه السلام ، فانتهى إليه رجلان فى المفازة ، ومعه المال ، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه . فقال هو بيننا أثلاثا ، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشترى لنا طعاما نأكله . قال فبعثوا أحدهم ، فقال الذى بعث ، لأى شىء أقاسم هؤلاء هذا المال ؟ لكنى أضع فى هذا الطعام سما فأقتلهما ، وآخذ المال وحدى . قال ففعل . وقال ذانك الرجلان ، لأى شىء نجعل لهذا ثلث المال ؟ ولكن إذا رجع قتلناه ، واقتسمنا المال بيننا . قال فلما رجع إليهما قتلاه ، وأكلا الطعام فماتا ، فبقى ذلك المال فى المفازة ، وأولئك الثلاثة عنده قتلى . فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة ، فقال لأصحابه ، هذه الدنيا فاحذروها

وحكى أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ، ليس بأيديهم شىء مما يستمتع به الناس من دنياهم ، قد احتفروا قبورا ، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور ، وكنسوها ، وصلوا عندها ورعوا البقل كما ترعى البهائم . وقد قيض لهم فى ذلك معايش من نبات الأرض . وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم ، فقال له أجب ذا القرنين . فقال مالى إليه حاجة فإن كان له حاجة فليأتنى . فقال ذو القرنين صدق . فأقبل إليه ذو القرنين ، وقال له ، أرسلت إليك لتأتينى فأبيت فها أنا قد جئت . فقال لو كان لى إليك حاجة لأتيتك . فقال له ذو القرنين ، مالى أراكم على حالة لم أر أحدا من الأمم عليها ؟ قال وماذاك ؟ قال ليس لكم دنيا ولا شىء ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بهما ؟ قالوا إنما كرهناهما ، لأن أحدا لم يعط منهما شيئا إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه . فقال ما بالكم قد احتفرتم قبورا ، فإذا أصبحتم

تعاهدتموها ، فكنستموها ، وصليتم عندها قالوا أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا الدنيا ، منعتنا قبورنا من الأمل . قال وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض . أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام ، فاحتلبتموها ، وركبتموها ، فاستمتعتم بها ، قالوا كرهنا أن نجعل بطوننا قبورا لها ورأينا فى نبات الأرض بلاغا . وإنما يكفى ابن آدم أدنى العيش من الطعام . وأيما ما جاوز الحنك من الطعام لم نجد له طعما ، كائنا ما كان من الطعام . ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذى القرنين ، فتناول جمجمة ، فقال ياذا القرنين ، أتدرى من هذا ؟ قال لا ، ومن هو؟ قال ملك من ملوك الأرض ، أعطاه الله سلطانا على أهل الأرض ، فغشم ، وظلم ، وعتا . فلما رأى الله سبحانه ذلك منه ، حسمه بالموت ، فصار كالحجر الملقى . وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته . ثم تناول جمجمة أخرى بالية ، فقال ياذا القرنين ، هل تدرى من هذا ؟ قال لا أدرى ، ومن هو ؟ قال هذا ملك ملكه الله بعده ، قد كان يرى ما يصنع الذى قبله بالناس من الغشم ، والظلم ، والتجبر ، فتواضع وخشع لله عز وجل ، وأمر بالعدل فى أهل مملكته ، فصار كما ترى ، قد أحصى الله عليه عمله ، حتى يجزيه به فى آخرته . ثم أهوى إلى جمجمة ذى القرنين فقال ، وهذه الجمجمة قد كانت كهذين . فانظر ياذا القرنين ما أنت صانع فقال له ذو القرنين ، هل لك فى صحبتى ، فأتخذك أخا ، ووزيرا ، وشريكا فيما آتانى الله من هذا المال ؟ قال ما أصلح أنا وأنت فى مكان ، ولا أن نكون جميعا . قال ذو القرنين ولم ؟ قال من أجل أن الناس كلهم لك عدو ، ولى صديق . قال ولم ؟ قال يعادونك لما فى يديك من الملك والمال والدنيا ، ولا أجد أحدا يعادينى لرفضى لذلك ، ولما عندى من الحاجة وقلة الشيء . قال فانصرف عنه ذو القرنين متعجبا منه ، ومتعظا به . فهذه الحكايات تدلك على آفات الغنى مع ما قدمناه من قبل ، وبالله التوفيق

تم كتاب ذم المال والبخل بحمد الله تعالى وعونه ، ويليه كتاب ذم الجاه والرياء



كتاب ذمّ الجاه والرياء

كتاب ذم الجاه والرياء

وهو الكتاب الثامن من ربع المهلكات
من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علام الغيوب ، المطلع على سرائر القلوب ، المتجاوز عن كبائر الذنوب ، العالم بما تجنه الضمائر من خفايا العيوب ، البصير بسرائر النيات ، وخفايا الطويات ، الذى لا يقبل من الأعمال إلا ما كمل ووفى ، وخلص عن شوائب الرياء والشرك وصفا ؛ فإنه المنفرد بالملكوت ، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك ، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ الَّتِي هِيَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ » ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها سماسرة العلماء ، فضلا عن عامة العباد والأتقياء . وهو من أواخر غوائل النفس ، وبواطن مكايدها . وإنما يبتلى به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة ، فإنهم مهما قهروا أنفسهم ، وجاهدوها ، وفطموها عن الشهوات ، وصانوها عن الشبهات ، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع فى المعاصى الظاهرة الواقعة على الجوارح ، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير ، وإظهار العمل والعلم ، فوجدت مخلصا من مشقة المجاهدة ، إلى لذة القبول عند الخلق ، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم ، فسارعت إلى إظهار الطاعة ، وتوصلت إلى اطلاع الخلق ، ولم تقنع باطلاع الخالق ، وفرحت بحمد الناس ، ولم تقنع بحمد الله وحده ،

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء ﴾

(١) حديث إن أخوف ما أخاف على أمتى الرياء والشهوة الخفية : ابن ماجه والحاكم من حديث شداد بن أوس وقالا الشرك بدل الرياء وفسراه بالرياء قال الحاكم صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه وهو عند ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه عند البيهقى فى الشعب بلفظ المصنف

وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات ، وتوقيه الشبهات ، وتحمله مشاق العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء ، وبالغوا فى التقريظ والإطراء . ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ، ورغبوا فى بركة دعائه ، وحرصوا على اتباع رأيه ، وفاتحوه بالخدمة والسلام ، وأكرموه فى المحافل غاية الإكرام ، وسامحوه فى البيع والمعاملات ، وقدموه فى المجالس ، وآثروه بالمطاعم والملابس ، وتصاغروا له متواضعين ، وانقادوا له فى أغراضه موقرين . فأصابت النفس فى ذلك لذة هى أعظم اللذات ، وشهوة هى أغلب الشهوات ، فاستحقرت فيه ترك المعاصى والهفوات ، واستلانت خشونة المواظبة على العبادات ، لإدراكها فى الباطن لذة اللذات ، وشهوة الشهوات . فهو يظن أن حياته بالله وبعبادته المرضية ، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية ، التي تعمى عن دركها العقول النافذة القوية . ويرى أنه مخلص فى طاعة الله ، ومجتنب لمحارم الله ، والنفس قد أبطنت هذه الشهوة تزيينا للعباد ، وتصنعا للخلق ، وفرحا بما نالت من المنزلة والوقار ، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأجود الأعمال ، وقد أثبتت اسمه فى جريدة المنافقين ، وهو يظن أنه عند الله من المقربين.

وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون ، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون ولذلك قيل . آخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وإذا كان الرياء هو الداء الدفين ، الذى هو أعظم شبكة للشياطين ، وجب شرح القول فى سببه ، وحقيقته ، ودرجاته وأقسامه ، وطرق معالجته ، والحذر منه . ويتضح الغرض منه فى ترتيب الكتاب على شطرين:

الشطر الأول : فى حب الجاه والشهرة . وفيه بيان ذم الشهرة ، وبيان فضيلة الخمول ، وبيان ذم الجاه ، وبيان معنى الجاه وحقيقته ، وبيان السبب فى كونه محبوبا أشد من حب المال ، وبيان أن الجاه كمال وهمى وليس بكمال حقيقى ، وبيان ما يحمد من حب الجاه ومايذم وبيان السبب فى حب المدح والثناء وكراهية الذم ، وبيان العلاج فى حب الجاه ، وبيان علاج حب المدح ، وبيان علاج كراهة الذم ، وبيان اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم . فهى اثنا عشر فصلا ، منها تنشأ معانى الرياء ، فلابد من تقديمها ، والله الموفق للصواب بلطفه ومنه وكرمه .

بيان

ذم الشهرة وانتشار الصيت

اعلم أصلحك الله أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار ، وهو مذموم . بل المحمود الخمول ، إلا من شهره الله تعالى ، لنشر دينه ، من غير تكلف طلب الشهرة منه. قال أنس رضى الله عنه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ » وقال جابر بن عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) « بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الشَّرِّ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ مِنَ السُّوءِ أَنْ يُشِيرَ النَّاسُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » ولقد ذكر الحسن رحمه الله للحديث تأويلا ، ولا بأس به، إذ روى هذا الحديث ، فقيل له يا أبا سعيد ، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع ! فقال إنه لم يعن هذا ، وإنما عنى به المبتدع فى دينه ، والفاسق فى دنياه . وقال على كرم الله وجهه تبذل ولا تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله ، ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب السختيانى ، والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه . وعن خالد بن معدان ، أنه كان إذا كثرت حلقته ، قام مخافة الشهرة . وعن أبى العالية ، أنه كان إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام . ورأى طلحة قوما يمشون معه نحوا من عشرة ، فقال ذباب طمع ، وفراش نار

---

(١) حديث أنس حسب امرئ من الشر إلا من عصمه أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه : البيهقى فى الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث جابر بحسب امرئ من الشر ـ الحديث : مثله وزاد فى آخره ان الله لا ينظر الى صوركم ـ الحديث : هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبى هريرة رواه الطبرانى فى الاوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما ورواه ابن يونس فى تاريخ الغرباء من حديث ابن عمر بلفظ هلاك بالرجل وفيه دينه بالبدعة ودنياه بالفسق واسنادهما ضعيف

وقال سليم بن حنظلة . بينا نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه ، إذ رآه عمر ، فعلاه بالدرة . فقال انظر باأمير المؤمنين ما تصنع . فقال إن هذه ذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع .

وعن الحسن قال . خرج ابن مسعود يوما من منزله ، فاتبعه ناس ، فالتفت إليهم فقال: علام تتبعونى ؟ فو الله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ، ما اتبعنى منكم رجلان . وقال الحسن . إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمق . وخرج الحسن ذات يوم ، فاتبعه قوم . فقال هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن

وروى أن رجلا صحب ابن محيريز فى سفر . فلما فارقه قال أوصنى . فقال إن استطعت أن تَعرف ولا تُعرف ، وتمشى ولا يمشى إليك ، وتسأل ولا تسأل فافعل . وخرج أيوب فى سفر ، فشيعه ناس كثيرون . فقال لولا أنى أعلم أن الله يعلم من قلبى أنى لهذا كاره ، لخشيت المقت من الله عز وجل . وقال معمر : عاتبت أيوب على طول قميصه ، فقال إن الشهرة فيما مضى كانت فى طوله ، وهى اليوم فى تشميره . وقال بعضهم : كنت مع أبى قلابة، إذ دخل عليه رجل عليه أكسية . فقال اياكم وهذا الحمار الناهق. يشير به إلى طالب الشهرة.

وقال الثورى : كانوا يكرهون الشهرة من الثياب الجيدة ، والثياب الرديئة ، إذ الأبصار تمتد إليهما جميعا . وقال رجل لبشر بن الحارث أوصنى ، فقال أخمل ذكرك ، وطيب مطعمك ، وكان حوشب يبكى ويقول : بلغ اسمى مسجد الجامع . وقال بشر : ماأعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال أيضا: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس . رحمة الله عليه وعليهم أجمعين

بيان

فضيلة الخمول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ* لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْأَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ » وقال ابن مسعود: قال النبى صلى الله عليه وسلم

(1) حديث رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك: مسلم من حديث أبى هريرة رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره: وللحاكم رب أشعث أغبر ذي طمرين

*الطمر : الثوب الخلق

[1] « رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ لَوْ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ الْجَنَّةَ وَلَمْ يُعْطِهِ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّ ضَعِيفٍ مُسْتَضْعَفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ وَأَهْلُ النَّارِ كُلُّ مُتَكَبِّرٍ مُسْتَكْبِرٍ جَوَّاظٍ * » وقال أبو هريرة: قال صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ كُلُّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ الَّذِينَ إِذَا اسْتَأْذَنُوا عَلَى الْأُمَرَاءِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ وَإِذَا خَطَبُوا النِّسَاءَ لَمْ يُنْكَحُوا وَإِذَا قَالُوا لَمْ يُنْصَتْ لِقَوْلِهِمْ حَوَائِجُ أَحَدِهِمْ تَتَخَلْخَلُ فِي صَدْرِهِ لَوْ قُسِّمَ نُورُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى النَّاسِ لَوَسِعَهُمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ أَتَى أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَاراً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ دِرْهَماً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْساً لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهُ وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَلَوْ سَأَلَهُ الدُّنْيَا لَمْ يُعْطِهِ إِيَّاهَا وَمَا مَنَعَهَا إِيَّاهُ إِلَّا لِهَوَانِهَا عَلَيْهِ رُبَّ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ »

وروى أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد ، فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال ما يبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [5] يقول « إِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ وَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى يَنْجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ »

تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره وقال صحيح الاسناد ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسند ضعيف رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وهو عند الحاكم نحوه بهذه الزيادة وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه

(١) حديث ابن مسعود رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم اني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئا : ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف

(٢) حديث ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف ـ الحديث : متفق عليه من حديث حارثة بن وهب

(٣) حديث أبي هريرة إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له الذين اذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم ـ الحديث :

(٤) حديث ان من أمتي من لو أتى أحدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ـ الحديث: الطبراني في الأوسط من حديث ثوبان باسناد صحيح دون قوله ولو سأله الدنيا لم يعطه اياها وما منعها إياه لهوانه عليه

(٥) حديث معاذ بن جبل إن اليسير من الرياء شرك وان الله يحب الاتقياء الأخفياء ـ الحديث : الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الاسناد قلت بل ضعيفه فيه عيسى بن عبد الرحمن وهو الزرقي متروك

---

* الجواظ : الكثير اللحم المختال في مشيته .

وقال محمد بن سويد : قحط أهل المدينة، وكان بها رجل صالح لا يؤبه له، لازم لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم . فبينما هم في دعائهم ، إذ جاءهم رجل عليه طمران خلقان ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، ثم بسط يديه ، فقال يارب أقسمت عليك، إلا أمطرت علينا الساعة . فلم يرد يديه ، ولم يقطع دعاءه ، حتى تغشت السماء بالغمام وأمطروا حتى صاح أهل المدينة من مخافة الغرق . فقال يارب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم . وسكن . وتبع الرجل صاحبه الذي استسقى حتى عرف منزله ، ثم بكر عليه ، فخرج إليه ، فقال إني أتيتك في حاجة ، فقال ماهي ؟ قال تخصني بدعوة . قال سبحان الله ! أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة ! ثم قال ماالذي بلغك مارأيت ؟ قال أطعت الله فيما أمرني ونهاني ، فسألت الله فأعطاني .

وقال ابن مسعود كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب ، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض . وقال أبو مامة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ أَغْبَطَ أَوْلِيَائِي عَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ * ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَأَطَاعَهُ فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضاً فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ثُمَّ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ » قال ثم نقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فقال « عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ » وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أحب عباد الله إلى الله الغرباء . قيل ومن الغرباء ؟ قال الفارون بدينهم يجتمعون يوم القيامة إلى المسيح عليه السلام

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى يقول في بعض مايمن به على عبده: ألم أنعم عليك ؟ ألم أسترك ؟ ألم أخمل ذكرك ؟ وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك ، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك وقال الثوري : وجدت قلبي يصلح بمكة والمدينة ، مع قوم غرباء ، أصحاب قوت وعناء .

وقال إبراهيم بن أدهم : ماقرت عيني يوماً في الدنيا قط إلا مرة ، بت ليلة في بعض مساجد قرى الشام ، وكان بي البطن ، فجرني المؤذن برجلي حتى أخرجني من المسجد . وقال الفضيل إن قدرت على أن لا تعرف فافعل . وما عليك أن لا تعرف ؟ وما عليك أن لا يثنى عليك ؟ وما عليك أن تكون مذموما عند الناس إذا كنت محمودا عند الله تعالى .

---

(١) حديث أبي أمامة ان أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف الحاذ ـ الحديث : الترمذي وابن ماجة بإسنادين ضعيفين

* خفيف الحاذ : خفيف الظهر من العيال.

فهذه الآثار والأخبار تعرفك مذمة الشهرة، وفضيلة الخمول. وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة فى القلوب . وحب الجاه هو منشأ كل فساد

فإن قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء، والخلفاء الراشدين، وأئمة العلماء. فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة. فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم: فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء وهم كالغريق الضعيف ، إذا كان معه جماعة من الغرقى ، فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم ، فإنهم يتعلقون به ، فيضعف عنهم ، فيهلك معهم. وأما القوي ، فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به ، فينجيهم و يثاب على ذلك

بيان

ذم حب الجاه

قال الله تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا [1]) جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أن الدار الآخرة للخالى عن الإرادتين جميعاً وقال عز وجل (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [2]) وهذا أيضا متناول بعمومه لحب الجاه ، فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا ، وأكثر زينة من زينتها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مَا ذِئْبَانِ ضَارِيَانِ أُرْسِلاَ فِي زَرِيبَةِ غَنَمٍ بِأَسْرَعَ إِفْسَاداً مِنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ فِي دِينِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ » وقال صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه [3] « إِنَّمَا هَلاَكُ النَّاسِ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَحُبِّ الثَّنَاءِ » نسأل الله العفو والعافية بمنه وكرمه

---

(١) حديث المال والجاه ينبتان النفاق ـ الحديث : تقدم فى أول هذا الباب ولم أجده

(٢) حديث ماذئبان ضاريان أرسلا فى زريبة غنم ـ الحديث : تقدم أيضا هناك

(٣) حديث انما هلاك الناس باتباع الهوى وحب الثناء، لم أره بهذا اللفظ وقد تقدم فى العلم من حديث أنس ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع ـ الحديث : ولأبى منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس بسند ضعيف حب الثناء من الناس يعمى ويصم

(١) القصص : ٨٣ (٢) هود : ١٥ ، ١٦

بيان

معنى الجاه وحقيقته

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها . ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها . وكما أن الغنى هو الذى يملك الدراهم والدنانير ، أى يقدر عليهما ، ليتوصل بهما إلى الأغراض ، والمقاصد ، وقضاء الشهوات ، وسائر حظوظ النفس فكذلك ذو الجاه ، هو الذى يملك قلوب الناس ، أى يقدر على أن يتصرف فيها ، ليستعمل بواسطتها أربابها فى أغراضه ومآربه . وكما أنه يكتسب الأموال بأنواع من الحرف والصناعات فكذلك يكتسب قلوب الخلق بأنواع من المعاملات . ولا تصير القلوب مسخرة إلا بالمعارف والاعتقادات . فكل من اعتقد القلب فيه وصفا من أوصاف الكمال ، انقاد له ، وتسخر له بحسب قوة اعتقاد القلب ، وبحسب درجة ذلك الكمال عنده . وليس يشترط أن يكون الوصف كمالا فى نفسه ، بل يكفى أن يكون كمالا عنده وفى اعتقاده . وقد يعتقد ماليس كمالا كمالا ، ويذعن قلبه للموصوف به ، انقيادا ضروريا بحسب اعتقاده . فإن انقياد القلب حال للقلب ، وأحوال القلوب تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها . وكما أن محب المال يطلب ملك الأرقاء والعبيد ، فطالب الجاه يطلب أن يسترق الأحرار ويستعبدهم ، ويملك رقابهم بملك قلوبهم . بل الرق الذى يطلبه صاحب الجاه أعظم ، لأن المالك يملك العبد قهرا والعبد متأب بطبعه ، ولو خلى ورأيه انسل عن الطاعة . وصاحب الجاه يطلب الطاعة طوعا ويبغى أن تكون له الأحرار عبيدا بالطبع والطوع ، مع الفرح بالعبودية ، والطاعة له فما يطلبه فوق مايطلبه مالك الرق بكثير . فإذاً معنى الجاه قيام المنزلة فى قلوب الناس ، أى اعتقاد القلوب لنعت من نعوت الكمال فيه ، فبقدر مايعتقدون من كماله تذعن له قلوبهم . وبقدر إذعان القلوب تكون قدرته على القلوب . وبقدر قدرته على القلوب يكون فرحه وحبه للجاه

فهذا هو معنى الجاه وحقيقته ، وله ثمرات ، كالمدح والإطراء . فإن المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر مايعتقده ، فيثنى عليه . وكالخدمة والإعانة ، فإنه لا يبخل ببذل نفسه فى طاعته بقدر اعتقاده ، فيكون سخرة له مثل العبد فى أغراضه وكالإيثار ، وترك المنازعة ، والتعظيم

والتوقير بالمفاتحة بالسلام ، وتسليم الصدر فى المحافل ، والتقديم فى جميع المقاصد ، فهذه آثار تصدر عن قيام الجاه فى القلب . ومعنى قيام الجاه فى القلب اشتمال القلوب على اعتقاد صفات الكمال فى الشخص ، إما بعلم ، أو عبادة ، أو حسن خلق ، أو نسب ، أو ولاية ، أو جمال فى صورة ، أو قوة في بدن ، أو شيء مما يعتقده الناس كمالا ، فإن هذه الأوصاف كلها تعظم محله فى القلوب ، فتكون سببا لقيام الجاه ، والله تعالى أعلم

بيان

سبب كون الجاه محبوباً بالطبع حتى لا يخلو عنه قلب إلا بشديد المجاهدة

اعلم أن السبب الذى يقتضى كون الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوبا ، هو بعينه يقتضى كون الجاه محبوبا . بل يقتضى أن يكون أحب من المال ، كما يقتضى أن يكون الذهب أحب من الفضة مهما تساويا فى المقدار . وهو أنك تعلم أن الدراهم والدنانير لا غرض فى أعيانهما ، إذ لا تصلح لمطعم ، ولا مشرب ، ولا منكح ، ، ولا ملبس ، وإنما هى والحصباء بمثابة واحدة . ولكنهما محبوبان لأنهما وسيلة إلى جميع المحاب ، وذريعة إلى قضاء الشهوات فكذلك الجاه ، لأن معنى الجاه ملك القلوب . وكما أن ملك الذهب والفضة يفيد قدرة يتوصل الإنسان بها إلى سائر أغراضه ، فكذلك ملك قلوب الأحرار والقدرة على استسخارها يفيد قدرة على التوصل إلى جميع الأغراض . فالاشتراك فى السبب اقتضى الاشتراك فى المحبة ، وترجيح الجاه على المال اقتضى أن يكون الجاه أحب من المال . ولملك الجاه ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه :

الأول : أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه . فالعالم أو الزاهد الذى تقرر له جاه فى القلوب ، لو قصد اكتساب المال تيسر له . فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ، ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال . وأما الرجل الخسيس ، الذى لا يتصف بصفة كمال ، إذا وجد كنزا ، ولم يكن له جاه يحفظ ماله ، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له . فإذاً الجاه آلة ووسيلة إلى المال . فمن ملك الجاه فقد ملك المال . ومن ملك المال لم يملك الجاه بكل حال . فلذلك صار الجاه أحب

الثانى : هو أن المال معرض للبلوى والتلف ، بأن يسرق ، ويغصب ، ويطمع فيه

الملوك والظلمة ، ويحتاج فيه إلى الحفظة ، والحراس ، والخزائن ، ويتطرق إليه أخطار كثيرة . وأما القلوب إذا ملكت ، فلا تتعرض لهذه الآفات ، فهي على التحقيق خزائن عتيدة ، لا يقدر عليها السراق ، ولا تتناولها أيدى النهاب والغصاب . وأثبت الأموال العقار ، ولا يؤمن فيه الغصب والظلم ، ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ . وأما خزائن القلوب فهي محفوظة محروسة بأنفسها . والجاه فى أمن وأمان من الغصب والسرقة فيها نعم : إنما تغصب القلوب بالتصريف ، وتقبيح الحال ، وتغيير الاعتقاد فيما صدق به من أوصاف الكمال ، وذلك مما يهون دفعه ؟ ولا يتيسر على محاوله فعله

الثالث : أن ملك القلوب يسرى وينمى ويتزايد ، من غير حاجة إلى تعب ومقاساة ، فإن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله ، بعلم أو عمل أو غيره ، أفصحت الألسنة لامحالة بما فيها ، فيصف ما يعتقده لغيره ، ويقتنص ذلك القلب أيضا له . ولهذا المعنى يحب الطبع الصيت وانتشار الذكر ، لأن ذلك إذا استطار فى الأقطار اقتنص القلوب ، ودعاها إلى الإذعان والتعظيم ، فلا يزال يسرى من واحد إلى واحد ويتزايد ، وليس له مرد معين وأما المال ، فمن ملك منه شيئا فهو مالكه ، ولا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة والجاه أبدا فى النماء بنفسه ، ولا مرد لموقعه ، والمال واقف . ولهذا إذا عظم الجاه ، وانتشر الصيت ، وانطلقت الألسنة بالثناء ، استحقرت الأموال فى مقابلته . فهذه مجامع ترجيحات الجاه على المال ، وإذا فصلت كثرت وجوه الترجيح

فإن قلت : فالإشكال قائم فى المال والجاه جميعا ، فلا ينبغى أن يحب الإنسان المال والجاه نعم : القدر الذى يتوصل به إلى جلب الملاذ ودفع المضار معلوم ، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعم ، أو كالمبتلى بمرض أو بعقوبة ، إذا كان لا يتوصل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلا بمال أو جاه ، فحبه للمال والجاه معلوم ، إذ كل مالا يتوصل إلى المحبوب إلا به فهو محبوب ، وفى الطباع أمر عجيب وراء هذا ، وهو حب جمع الأموال ، وكنز الكنوز ، وادخار الذخائر واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات ، حتى لو كان للعبد واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا وكذلك يحب الإنسان اتساع الجاه ، وانتشار الصيت إلى أقاصى البلاد التى يعلم قطعا أنه لا يطؤها ، ولا يشاهد أصحابها ، ليعظموه أو ليبروه بمال ، أو ليعينوه على غرض من أغراضه

ومع اليأس من ذلك فإنه يلتذ به غاية الالتذاذ ؛ وحب ذلك ثابت فى الطبع ويكاد يظن أن ذلك جهل ، فإنه حب لما لا فائدة فيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

فنقول: نعم هذا الحب لا تنفك عنه القلوب ، وله سببان: أحدهما جلى تدركه الكافة ، والآخر خفى ، وهو أعظم السببين ، ولكنه أدقهما وأخفاهما ، وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلا عن الأغبياء ، وذلك لاستمداده من عرق خفى فى النفس ، وطبيعة مستكنة فى الطبع ، لا يكاد يقف عليها إلا الغواصون

فأما السبب الأول : فهو دفع ألم الخوف ، لأن الشفيق بسوء الظن مولع ، والإنسان وإن كان مكفيا فى الحال ، فإنه طويل الأمل ، ويخطر بباله أن المال الذى فيه كفايته ربما يتلف ، فيحتاج إلى غيره . فإذا خطر ذلك بباله ، هاج الخوف من قلبه . ولا يدفع ألم الخوف إلا الأمن الحاصل بوجود مال آخر ، يفزع إليه إن أصابت هذا المال جائحة . فهو أبدا لشفقته على نفسه وحبه للحياة ، يقدر طول الحياة ، ويقدر هجوم الحاجات ، ويقدر إمكان تطرق الآفات إلى الأموال ، ويستشعر الخوف من ذلك ، فيطلب ما يدفع خوفه ، وهو كثرة المال ، حتى إن أصيب بطائفة من ماله استغنى بالآخر .

وهذا خوف لا يوقف له على مقدار مخصوص من المال ، فلذلك لم يكن لمثله موقف إلى أن يملك جميع ما فى الدنيا . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « مَنْهُومَانِ لَا يَشْبَعَانِ مَنْهُومُ الْعِلْمِ وَمَنْهُومُ الْمَالِ » ومثل هذه العلة تطرد فى حبه قيام المنزلة والجاه فى قلوب الأباعد عن وطنه وبلده . فإنه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن ، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه ، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكنا ، ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلا إحالة ظاهرة ، كان للنفس فرح ولذة بقيام الجاه فى قلوبهم ، لما فيه من الأمن من هذا الخوف .

وأما السبب الثانى : وهو الأقوى ، أن الروح أمر ربانى ، به وصفه الله تعالى : إذ قال سبحانه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى[1]) ومعنى كونه ربانيا أنه من أسرار علوم المكاشفة ، ولا رخصة فى إظهاره ، [2] إذ لم يظهره رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث منهومان لا يشبعان ـ الحديث: الطبرانى من حديث أبى مسعود بسند ضعيف والبزار والطبرانى فى الأوسط من حديث ابن عباس بسند لين وقد تقدم

(٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم لم يظهر سر الروح : البخارى من حديث ابن مسعود وقد تقدم

(١) الإسراء : ٨٥

ولكنك قبل معرفة ذلك ، تعلم أن للقلب ميلا إلى صفات بهيمية ، كالأكل والوقاع ، وإلى صفات سبعية ، كالقتل والضرب والإيذاء ، وإلى صفات شيطانية ، كالمكر والخديعة والإغواء ، وإلى صفات ربوبية ، كالكبر والعز والتجبر وطلب الاستعلاء . وذلك لأنه مركب من أصول مختلفة يطول شرحها وتفصيلها ، فهو لما فيه من الأمر الربانى يحب الربوبية بالطبع . ومعنى الربوبية التوحد بالكمال ، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال . فصار الكمال من صفات الإلهية ، فصار محبوبا بالطبع للإنسان . والكمال بالتفرد بالوجود فإن المشاركة فى الوجود نقص لامحالة . فكمال الشمس فى أنها موجودة وحدها ، فلو كان معها شمس أخرى لكان ذلك نقصا فى حقها ، إذ لم تكن منفردة بكمال معنى الشمسية . والمنفرد بالوجود هو الله تعالى ، إذ ليس معه موجود سواه ، فإن ماسواه أثر من آثار قدرته لاقوام له بذاته ، بل هو قائم به . فلم يكن موجودا معه ، لأن المعية توجب المساواة فى الرتبة والمساواة فى الرتبة نقصان فى الكمال . بل الكامل من لانظير له فى رتبته . وكما أن إشراق نور الشمس فى أقطار الآفاق ليس نقصانا فى الشمس ، بل هو من جملة كمالها ، وإنما نقصان الشمس بوجود شمس أخرى تساويها فى الرتبة ، مع الاستغناء عنها ، فكذلك وجود كل مافى العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة ، فيكون تابعا ولا يكون متبعا . فإذاً معنى الربوبية التفرد بالوجود ، وهو الكمال . وكل إنسان فإنه بطبعه محب لأن يكون هو المنفرد بالكمال ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية : مامن إنسان إلا وفى باطنه ماصرح به فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى[1]) ولكنه ليس يجد له مجالا . وهو كما قال . فإن العبودية قهر على النفس ، والربوبية محبوبة بالطبع . وذلك للنسبة الربانية التى أومأ إليها قوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى[2]) ولكن لما عجزت النفس عن درك منتهى الكمال ، لم تسقط شهوتها للكمال ، فهى محبة للكمال ، ومشتهية له ، وملتذة به لذاته لالمعنى آخر وراء الكمال ، وكل موجود فهو محب لذاته ، ولكمال ذاته ، ومبغض للهلاك الذى هو عدم ذاته ، أو عدم صفات الكمال من ذاته . وإنما الكمال بعد أن يسلم التفرد بالوجود ، فى الاستيلاء على كل الموجودات . فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك ، فإن لم يكن منك

(١) النازعات : ٢٤ (٢) الاسراء : ٨٥

فأن تكون مستوليا عليه . فصار الاستيلاء على الكل محبوبا بالطبع ، لأنه نوع كمال . وكل موجود يعرف ذاته ، فإنه يحب ذاته ، ويحب كمال ذاته ويلتذ به . إلا أن الاستيلاء على الشيء بالقدرة على التأثير فيه ، وعلى تغييره بحسب الإرادة ، وكونه مسخرا لك تردده كيف تشاء ، فأحب الإنسان أن يكون له استيلاء على كل الأشياء الموجودة معه . إلا أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير في نفسه ، كذات الله تعالى وصفاته ، وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا يستولى عليه قدرة الخلق ، كالأفلاك ، والكواكب ، وملكوت السموات ونفوس الملائكة ، والجن ، والشياطين ، وكالجبال ، والبحار ، وما تحت الجبال والبحار . وإلى ما يقبل التغيير بقدرة العبد ، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن ، والنبات ، والحيوان ومن جملتها قلوب الناس ، فإنها قابلة للتأثير والتغيير مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات ..

فإذاً انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه ، كالأرضيات ، وإلى ما لا يقدر عليه ، كذات الله تعالى ، والملائكة ، والسموات . أحب الإنسان أن يستولى على السموات بالعلم ، والإحاطة ، والاطلاع على أسرارها ، فإن ذلك نوع استيلاء ، إذ المعلوم المحاط به كالداخل تحت العلم ، والعالم كالمستولى عليه . فلذلك أحب أن يعرف الله تعالى ، والملائكة ، والأفلاك ، والكواكب ، وجميع عجائب السموات ، وجميع عجائب البحار والجبال وغيرها ، لأن ذلك نوع استيلاء عليها ، والاستيلاء نوع كمال . وهذا يضاهى اشتياق من عجز عن صنعة عجيبة ، إلى معرفة طريق الصنعة فيها . كمن يعجز عن وضع الشطرنج فإنه قد يشتهى أن يعرف اللعب به ، وأنه كيف وضع . وكمن يرى صنعة عجيبة في الهندسة ، أو الشعبذة ، أو جر الثقيل أو غيره ، وهو مستشعر في نفسه بعض العجز والقصور عنه ، ولكنه يشتاق إلى معرفة كيفيته ، فهو متألم ببعض العجز ، متلذذ بكمال العلم إن علمه

وأما القسم الثانى : وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها ، فإنه يحب بالطبع أن يستولى عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف يريد ، وهى قسمان : أجساد ، وأرواح

أما الأجساد ، فهى الدراهم ، والدنانير ، والأمتعة ، فيجب أن يكون قادرا عليها ، يفعل فيها ما شاء من الرفع ، والوضع ، والتسليم ، والمنع ، فإن ذلك قدرة ، والقدرة كمال ، والكمال من صفات الربوبية ، والربوبية محبوبة بالطبع . فلذلك أحب الأموال وإن كان لا يحتاج إليها

فى ملبسه ومطعمه ، وفى شهوات نفسه . وكذلك طلب استرقاق العبيد ، واستعباد الأشخاص الأحرار ، ولو بالقهر والغلبة ، حتى يتصرف فى أجسادهم وأشخاصهم بالاستسخار ، وإن لم يملك قلوبهم ، فإنها ربما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوبا لها ، ويقوم القهر منزلته فيها ، فإن الحشمة القهرية أيضا لذيذة لما فيها من القدرة

القسم الثانى : نفوس الآدميين وقلوبهم ، وهي أنفس ما على وجه الأرض . فهو يحب أن يكون له استيلاء وقدرة عليها ، لتكون مسخرة له ، متصرفة تحت إشارته وإرادته ، لما فيه من كمال الاستيلاء ، والتشبه بصفات الربوبية . والقلوب إنما تتسخر بالحب ولا تحب إلا باعتقاد الكمال ، فإن كل كمال محبوب ، لأن الكمال من الصفات الإلهية ، والصفات الإلهية كلها محبوبة بالطبع ، للمعنى الربانى من جملة معانى الإنسان ، وهو الذى لا يبليه الموت فيعدمه ولا يتسلط عليه التراب فيأكله ، فإنه محل الإيمان والمعرفة ، وهو الواصل إلى لقاء الله تعالى والساعى إليه

فإذاً معنى الجاه تسخر القلوب ، ومن تسخرت له القلوب كانت له قدرة واستيلاء عليها ، والقدرة والاستيلاء كمال ، وهو من أوصاف الربوبية . فإذاً محبوب القلب بطبعه الكمال بالعلم والقدرة ، والمال والجاه من أسباب القدرة ، ولا نهاية للمعلومات ، ولا نهاية للمقدورات . وما دام يبقى معلوم أو مقدور فالشوق لا يسكن ، والنقصان لا يزول ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « مَنْهُومَانِ لاَ يَشْبَعَانِ » فإذاً مطلوب القلوب الكمال ، والكمال بالعلم والقدرة ، وتفاوت الدرجات فيه غير محصور ، فسرور كل إنسان ولذته بقدر ما يدركه من الكمال

فهذا هو السبب فى كون العلم ، والمال ، والجاه محبوبا ، وهو أمر وراء كونه محبوبا لأجل التوصل إلى قضاء الشهوات ، فإن هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات بل يحب الإنسان من العلوم ما لا يصلح للتوصل به إلى الأغراض . بل ربما يفوت عليه جملة من الأغراض والشهوات . ولكن الطبع يتقاضى طلب العلم فى جميع العجائب والمشكلات لأن فى العلم استيلاء على المعلوم ، وهو نوع من الكمال الذى هو من صفات الربوبية ، فكان محبوبا بالطبع . إلا أن فى حب كمال العلم والقدرة أغاليط لا بد من بيانها إن شاء الله تعالى

بيان

الكمال الحقيقي والكمال الوهمي الذي لا حقيقة له

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود إلا في العلم والقدرة . ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبس بالكمال الوهمي . وبيانه أن كمال العلم لله تعالى ، وذلك من ثلاثة أوجه :

أحدها : من حيث كثرة المعلومات وسعتها ، فإنه محيط بجميع المعلومات ، فلذلك كلما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى

الثاني : من حيث تعلق العلم بالمعلوم على ماهو به ، وكون المعلوم مكشوفا به كشفا تاما فإن المعلومات مكشوفة لله تعالى بأتم أنواع الكشف على ماهي عليه ، فلذلك مهما كان علم العبد أوضح ، وأيقن ، وأصدق ، وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم ، كان أقرب إلى الله تعالى

الثالث : من حيث بقاء العلم أبد الآباد ، بحيث لا يتغير ولا يزول ، فإن علم الله تعالى باق لا يتصور أن يتغير ، فكذلك مهما كان علم العبد بمعلومات لا يقبل التغير والانقلاب ، كان أقرب إلى الله تعالى

والمعلومات قسمان : متغيرات وأزليات . أما المتغيرات : فمثالها العلم بكون زيد في الدار . فإنه علم له معلوم ، ولكنه يتصور أن يخرج زيد من الدار ، ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان ، فينقلب جهلا ، فيكون نقصانا لا كمالا . فكلما اعتقدت اعتقادا موافقا وتصور أن ينقلب المعتقد فيه عما اعتقدته ، كنت بصدد أن ينقلب كمالك نقصا ، ويعود علمك جهلا . ويلتحق بهذا المثال جميع متغيرات العالم ، كعلمك مثلا بارتفاع جبل ، ومساحة أرض ، وبعدد البلاد ، وتباعد ما بينها من الأميال والفراسخ ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك . وكذلك العلم باللغات ، التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات . فهذه علوم معلوماتها مثل الزئبق ، تتغير من حال إلى حال ، فليس فيه كمال إلا في الحال ولا يبقى كمالا في القلب

القسم الثاني : هو المعلومات الأزلية ، وهو جواز الجائزات ، ووجوب الواجبات ، واستحالة المستحيلات . فإن هذه معلومات أزلية أبدية ، إذ لا يستحيل الواجب قط جائزا ، ولا الجائز محالا ، ولا المحال واجبا . فكل هذه الأقسام داخلة في معرفة الله ، وما يجب له ، وما يستحيل في صفاته ، ويجوز في أفعاله . فالعلم بالله تعالى ، وبصفاته ، وأفعاله ، وحكمته في ملكوت

السموات والأرض ، وترتيب الدنيا والآخرة ، وما يتعلق به ، هو الكمال الحقيق ، الذى يقرب من يتصف به من الله تعالى ، ويبقى كمالا للنفس بعد الموت ، وتكون هذه المعرفة نورا للعارفين بعد الموت ، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا . أى تكون هذه المعرفة رأس مال ، يوصل إلى كشف مالم ينكشف فى الدنيا ، كما أن من معه سراج خفى ، فإنه يجوز أن يصير ذلك سببا لزيادة النور بسراج آخر يقتبس منه ، فيكمل النور بذلك النور الخفى على سبيل الاستتمام. ومن ليس معه أصل السراج ، فلا مطمع له فى ذلك . فمن ليس معه أصل معرفة الله تعالى ، لم يكن له مطمع فى هذا النور ، فيبقى كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، بل كظلمات فى بحر لجى ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب : ظلمات بعضها فوق بعض . فإذاً لاسعادة إلا فى معرفة الله تعالى .

وأما ما عدا ذلك من المعارف فمنها مالا فائدة له أصلا ، كمعرفة الشعر ، وأنساب العرب وغيرهما ، ومنها ماله منفعة فى الإعانة على معرفة الله تعالى ، كمعرفة لغة العرب ، والتفسير والفقه ، والأخبار ، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرءان ، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما فى القرءان من كيفية العبادات ، والأعمال التى تفيد تزكية النفس ، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيد استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1]) وقال عز وجل (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [2]) فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل إلى تحقيق معرفة الله تعالى. وإنما الكمال فى معرفة الله ، ومعرفة صفاته وأفعاله ، وينطوى فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات إذ الموجودات كلها من أفعاله ، فمن عرفها من حيث هى فعل الله تعالى ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة ، فهى من تكملة معرفة الله تعالى . وهذا حكم كمال العلم ، ذكرناه وإن لم يكن لائقا بأحكام الجاه والرياء ، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال

وأما القدرة ، فليس فيها كمال حقيقى للعبد ، بل للعبد علم حقيقى ، وليس له قدرة حقيقية وإنما القدرة الحقيقية لله . ومايحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد ، وقدرته وحركته ،

---

(١) الشمس : ٩ (٢) العنكبوت : ٦٩

فهي حادثة بإحداث الله ، كما قررناه في كتاب الصبر والشكر ، وكتاب التوكل ، وفي مواضع شتى من ربع المنجيات . فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ، ويوصله إلى الله تعالى . فأما كمال القدرة فلا. نعم : له كمال من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال ، وهي وسيلة له إلى كمال العلم ، كسلامة أطرافه ، وقوة يده للبطش ، ورجله للمشي ، وحواسه للإدراك ، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم . وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه ، للتوصل به إلى المطعم والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وذلك إلى قدر معلوم ، فإن لم يستعمله للوصول به إلى معرفة جلال الله ، فلاخير فيه ألبتة إلا من حيث اللذة الحالية ، التي تنقضي على القرب . ومن ظن ذلك كمالا فقد جهل .

فالخلق أكثرهم هالكون في غمرة هذا الجهل. فإنهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى ، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال . فلما اعتقدوا ذلك أحبوه ولما أحبوه طلبوه ، ولما طلبوه شغلوا به ، وتهالكوا عليه ،فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله تعالى ومن ملائكته ، وهو العلم والحرية . أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله تعالى . وأما الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا ، والاستيلاء عليها بالقهر ، تشبها بالملائكة الذين لاتستفزهم الشهوة ، ولا يستهويهم الغضب ، فإن دفع آثار الشهوة والغضب عن النفس من الكمال ، الذي هو من صفات الملائكة .

ومن صفات الكمال لله تعالى استحالة التغير والتأثر عليه ، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد ، كان إلى الله تعالى أقرب ، وبالملائكة أشبه ، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث سوى كمال العلم والقدرة . وإنما لم نورده في أقسام الكمال لأن حقيقته ترجع إلى عدم ونقصان ، فإن التغير نقصان ، إذ هو عبارة عن عدم صفة كائنة وهلاكها ، والهلاك نقص في اللذات وفي صفات الكمال . فإذاً الكمالات ثلاثة ، إن عددنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالا ، ككمال العلم ، وكمال الحرية ، وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيوية . وكمال القدرة للعبد طريق إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته ، إذ قدرته على أعيان الأموال ، وعلى استسخار القلوب والأبدان ، تنقطع بالموت . ومعرفته وحريته لا ينعدمان بالموت ،

بل يبقيان كما لا فيه ، ووسيلة إلى القرب من الله تعالى . فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان ، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالجاه والمال ، وهو الكمال الذى لايسلم ، وإن سلم فلا بقاء له ، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم ، الذى إذا حصل كان أبديا لا انقطاع له . وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلاجرم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا [1]) فالعلم والحرية هى الباقيات الصالحات التى تبقى كمالا فى النفس . والمال والجاه هو الذى ينقضى على القرب وهو كما مثله الله تعالى حيث قال (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ [2]) الآية ، وقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ [3]) إلى قوله (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ [4]) وكل ماتذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل مالا يقطعه الموت فهو الباقيات الصالحات . فقد عرفت بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظني لا أصل له ، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصودا فهو جاهل ، وإليه أشار أبو الطيب بقوله

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله ... مخافة فقر فالذى فعل الفقر

إلا قدر البلغة منهما إلى الكمال الحقيقى . اللهم اجعلنا ممن وفقته للخير وهديته بلطفك

بيان

ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أن معنى الجاه ملك القلوب ، والقدرة عليها ، فحكمه حكم ملك الأموال . فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ماخلق فى الدنيا ، فيمكن أن يتزود منه للآخرة . وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم ، والمشرب ، والملبس ، فلابد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق . والإنسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله ، فيجوز أن يحب الطعام ، أو المال الذى يبتاع به الطعام ، فكذلك

---

(١) الكهف : ٤٦ (٢) يونس : ٢٤ (٣) ، (٤) الكهف : ٤٥

لايخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له فى قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له فى قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له فى قلب أستاذه من المحل مايحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم . وحبه لأن يكون له من المحل فى قلب سلطانه مايحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم . فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال . فلا فرق بينهما . إلا أن التحقيق فى هذا يفضى إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له ، بل ينزل ذلك منزلة حب الإنسان أن يكون له فى داره بيت ماء ، لأنه مضطر إليه لقضاء حاجته . ويود أن لو استغنى عن قضاء الحاجة حتى يستغنى عن بيت الماء . فهذا على التحقيق ليس محبا لبيت الماء . فكل ما يراد للتوصل به إلى محبوب ، فالمحبوب هو المقصود المتوصل إليه . وتدرك التفرقة بمثال آخر ، وهو أن الرجل قد يحب زوجته من حيث إنه يدفع بها فضلة الشهوة كما يدفع ببيت الماء فضلة الطعام . ولو كفى مؤنة الشهوة لكان يهجر زوجته ، كما أنه لو كفى قضاء الحاجة لكان لا يدخل بيت الماء ولا يدور به . وقد يحب الإنسان زوجته لذاتها حب العشاق ، ولو كفى الشهوة لبقى مستصحبا لنكاحها . فهذا هو الحب دون الأول . وكذلك الجاه والمال ، قد يحب كل واحد منهما على هذين الوجهين . فحبهما لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم . وحبهما لأعيانهما فيما يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ، مالم يحمله الحب على مباشرة معصية ، ومايتوصل به إلى اكتساب بكذب وخداع وارتكاب محظور ، ومالم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة . فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين ، وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور كما سيأتى

فإن قلت ، طلبه المنزلة والجاه فى قلب أستاذه ، وخادمه ، ورفيقه ، وسلطانه ، ومن يرتبط به أمره مباح على الإطلاق كيفما كان ، أو يباح إلى حد مخصوص ، على وجه مخصوص ؟

فأقول : يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان منه مباحان ، ووجه محظور

أما الوجه المحظور ، فهو أن يطلب قيام المنزلة فى قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها ، مثل العلم ، والورع ، والنسب ، فيظهر لهم أنه علوى ، أو عالم ، أو ورع ، وهو لا يكون كذلك

فهذا حرام ، لأنه كذب وتلبيس إما بالقول أو بالمعاملة

وأما أحد المباحين : فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها ، كقول يوسف صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه الرب تعالى (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [1]) فإنه طلب المنزلة فى قلبه بكونه حفيظا عليما ، وكان محتاجا إليه ، وكان صادقا فيه

والثانى : أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ، ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم ، فلا تزول منزلته به . فهذا أيضا مباح . لأن حفظ الستر على القبائح جائز . ولا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح . وهذا ليس فيه تلبيس ، بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة فى العلم به . كالذى يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ، ولا يلقى إليه أنه ورع . فإن قوله إنى ورع تلبيس ، وعدم إقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع ، بل يمنع العلم بالشرب .. ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ، ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبس ، إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله ، وهو مراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصا ! فطلب الجاه بهذا الطريق حرام . وكذلك بكل معصية . وذلك يجرى مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق . وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس فى عوض أو فى غيره ، فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير وخداع ، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال

بيان

السبب فى حب المدح والثناء وارتياح النفس به وميل الطبع إليه وبغضها للذم ونفرتها منه

اعلم أن لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب

السبب الأول : وهو الأقوى ، شعور النفس بالكمال : فإنا بينا أن الكمال محبوب ، وكل محبوب فإدراكه لذيذ . فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت ، واهتزت وتلذذت ، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها . فإن الوصف الذى به مدح لا يخلو إما أن يكون جليا ظاهرا ، أو يكون مشكوكا فيه . فإن كان جليا ظاهرا محسوسا ، كانت اللذة به أقل . ولكنه

---

[1] يوسف : ٥٥

لايخلو عن لذة ، كثنائه عليه بأنه طويل القامة ، أبيض اللون . فإن هذا نوع كمال ، ولكن النفس تغفل عنه ، فتخلو عن لذته : فإذا استشعرته لم يخل حدوث الشعور عن حدوث لذة

وإن كان ذلك الوصف مما يتطرق إليه الشك ، فاللذة فيه أعظم : كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع ، أو بالحسن المطلق ، فإن الإنسان ربما يكون شاكا فى كمال حسنه ، وفى كمال علمه ، وكمال ورعه ، ويكون مشتاقا إلى زوال هذا الشك ، بأن يصير مستيقنا لكونه عديم النظير فى هذه الأمور ، إذ تطمئن نفسه إليه . فإذا ذكره غيره ، أورث ذلك طمأنينة وثقة باستشعار ذلك الكمال ، فتعظم لذته وإنما تعظم اللذة بهذه العلة مهما صدر الثناء من بصير بهذه الصفات ، خبير بها ، لايجازف فى القول إلا عن تحقيق . وذلك كفرح التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة ، والذكاء ، وغزارة الفضل ، فإنه فى غاية اللذة . وإن صدر ممن يجازف فى الكلام ، أو لايكون بصيرا بذلك الوصف ، ضعفت اللذة . وبهذه العلة يبغض الذم أيضا ويكرهه ، لأنه يشعره بنقصان نفسه ، والنقصان ضد الكمال المحبوب ، فهو ممقوت والشعور به مؤلم . ولذلك يعظم الألم إذا صدر الذم من بصير موثوق به ، كما ذكرناه فى المدح

السبب الثانى : أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وأنه مريد له ، ومعتقد فيه ، ومسخر تحت مشيئته . وملك القلوب محبوب . والشعور بحصوله لذيذ . وبهذه العلة تعظم اللذة مهما صدر الثناء ممن تتسع قدرته ، وينتفع باقتناص قلبه ، كالملوك والأكابر . ويضعف مهما كان المادح ممن لايؤبه له ، ولا يقدر على شيء . فإن القدرة عليه بملك قلبه قدرة على أمر حقير ، فلا يدل المدح إلا على قدرة قاصرة وبهذه العلة أيضا يكره الذم ، ويتألم به القلب ، وإذا كان من الأكابر كانت نكايته أعظم ، لأن الفائت به أعظم

السبب الثالث : أن ثناء المثنى ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه . لاسيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ، ويعتد بثنائه . وهذا مختص بثناء يقع على الملأ . فلاجرم كلما كان الجمع أكثر ، والمثنى أجدر بأن يلتفت إلى قوله ، كان المدح ألذ ، والذم أشد على النفس

السبب الرابع : أن المدح يدل على حشمة الممدوح ، واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء على الممدوح ، إما عن طوع ، وإما عن قهر ، فإن الحشمة أيضا لذيذة ، لما فيها من القهر والقدرة . وهذه اللذة تحصل وإن كان المادح لايعتقد فى الباطن مامدح به ، ولكن

كونه مضطرا إلى ذكره نوعُ قهر واستيلاء عليه ، فلا جرم تكون لذته بقدر تمنع المادح وقوته ، فتكون لذة ثناء القوى الممتنع عن التواضع بالثناء أشد • فهذه الأسباب الأربعة قد تجمع فى مدح مادح واحد ، فيعظم بها الالتذاذ . وقد تفترق ، فتنقص اللذة بها

أما العلة الأولى ، وهى استشعار الكمال ، فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق فى قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب ، أو سخى ، أو عالم بعلم ، أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التى سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه وبقية اللذات . فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ، ويعلم خلوه عن هذه الصفة ، بطلت اللذة الثانية ، وهو استيلاؤه على قلبه ، وتبقى لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء . فإن لم يكن ذلك عن خوف بل كان بطريق اللعب ، بطلت اللذات كلها ، فلم يكن فيه أصلا لذة لفوات الأسباب الثلاثة

فهذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح ، وتألمها بسبب الذم . وإنما ذكرنا ذلك ليعرف طريق العلاج لحب الجاه ، وحب المحمدة ، وخوف المذمة . فإن ما لا يعرف سببه ، لا يمكن معالجته . إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض . والله الموفق بكرمه ولطفه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى

بيان

علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفا بالتودد إليهم ، والمراآة لأجلهم . ولا يزال فى أقواله وأفعاله ملتفتا إلى ما يعظم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصل الفساد . ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل فى العبادات ، والمراآة بها ، وإلى اقتحام المحظورات ، للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الشرف والمال ، وإفسادهما للدين ، بذئبين ضاريين ، وقال عليه السلام إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل وكل من طلب المنزلة فى قلوب الناس ، فيضطر إلى النفاق معهم ، وإلى التظاهر بخصال

حميدة هو خال عنها . وذلك هو عين النفاق . فحب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب ، فإنه طبع جبل عليه القلب كما جبل على حب المال وعلاجه مركب من علم وعمل

أما العلم : فهو أن يعلم السبب الذى لأجله أحب الجاه ، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس ، وعلى قلوبهم . وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات . بل لو سجدلك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب ، فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له . ويكون حالك كحال من مات قبلك من ذوى الجاه مع المتواضعين له ، فهذا لا ينبغى أن يترك به الدين الذى هو الحياة الأبدية التى لا انقطاع لها ومن فهم الكمال الحقيقى والكمال الوهمى كما سبق ، صغر الجاه فى عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر فى عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ، ويستحقر العاجلة ، ويكون الموت كالحاصل عنده ، ويكون حاله كحال الحسن البصرى حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز . أما بعد : فكأنك بآخر من كتب عليه الموت قد مات ، فانظر كيف مد نظره نحو المستقبل ، وقدره كائنا . وكذلك حال عمر بن عبد العزيز حين كتب فى جوابه : أما بعد ، فكأنك بالدنيا لم تكن ، وكأنك بالآخرة لم تزل . فهؤلاء كان التفاتهم إلى العاقبة ، فكان عملهم لها بالتقوى ، إذ علموا أن العاقبة للمتقين ، فاستحقروا الجاه والمال فى الدنيا . وأبصار أكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة ، لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب . ولذلك قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [١]) وقال عز وجل (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [٢]) فمن هذا حده فينبغى أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر فى الأخطار التى يستهدف لها أرباب الجاه فى الدنيا . فإن كل ذى جاه محسود ومقصود بالإيذاء ، وخائف على الدوام على جاهه ، ومحترز من أن تتغير منزلته فى القلوب . والقلوب أشد تغيرا من القدر فى غليانها . وهى مترددة بين الإقبال والإعراض . فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر ، فإنه لا ثبات له . والاشتغال بمراعاة القلوب ، وحفظ الجاه ، ودفع كيد الحساد ، ومنع أذى الأعداء ،

(١) الأعلى : ١٦ ، ١٧ (٢) القيامة : ٢٠

كل ذلك غموم عاجلة ، ومكدرة للذة الجاه . فلا يفى فى الدنيا مرجوها بمخوفها ، فضلا عما يفوت فى الآخرة . فبهذا ينبغى أن تعالج البصيرة الضعيفة . وأما من نفذت بصيرته ، وقوى إيمانه ، فلا يلتفت إلى الدنيا . فهذا هو العلاج من حيث العلم

وأما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق ، بمباشرة أفعال يلام عليها ، حتى يسقط من أعين الخلق ، وتفارقه لذة القبول ، ويأنس بالخمول ورد الخلق ، ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا هو مذهب الملامتية ، إذ اقتحموا الفواحش فى صورتها ، ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس ، فيسلموا من آفة الجاه . وهذا غير جائز لمن يقتدى به ، فإنه يوهن الدين فى قلوب المسلمين . وأما الذى لا يقتدى به ، فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس ، كما روى أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه ، استدعى طعاما وبقلا ، وأخذ يأكل بشره ، ويعظم اللقمة . فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف فقال الزاهد . الحمد لله الذى صرفك عنى

ومنهم من شرب شرابا حلالا فى قدح لونه لون الخمر ، حتى يظن به أنه يشرب الخمر ، فيسقط من أعين الناس . وهذا فى جوازه نظر من حيث الفقه . إلا أن أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتى به الفقيه، مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه ، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير كما فعل بعضهم ، فإنه عرف بالزهد ، وأقبل الناس عليه ، فدخل حماما ، ولبس ثياب غيره وخرج ، فوقف فى الطريق حتى عرفوه ، فأخذوه وضربوه ، واستردوا منه الثياب ، وقالوا إنه طرار ، وهجروه . وأقوى الطرق فى قطع الجاه الاعتزال عن الناس ، والهجرة إلى موضع الخمول . فإن المعتزل فى بيته . فى البلد الذى هو به مشهود لا يخلو عن حب المنزلة التى ترسخ له فى القلوب بسبب عزلته . فإنه ربما يظن أنه ليس محبا لذلك الجاه ، وهو مغرور . وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها . ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه ، فذموه ، أو نسبوه إلى أمر غير لائق به ، جزعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك ، وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم . وربما يحتاج فى إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ، ولا يبالى به . وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال ، بل هو شر منه ، فإن فتنة الجاه أعظم ،

ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة فى قلوب الناس مادام يطمع فى الناس . فإذا أحرز قوته من كسبه أو من جهة أخرى ، وقطع طمعه عن الناس رأسا ، أصبح الناس كلهم عنده كالأرذال فلا يبالى أكان له منزلة فى قلوبهم أم لم يكن ، كما لا يبالى بما فى قلوب الذين هم منه فى أقصى المشرق ، لأنه لا يراهم ، ولا يطمع فيهم . ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة . فمن قنع استغنى عن الناس ؛ وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ، ولم يكن لقيام منزلته فى القلوب عنده وزن . ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع . ويستعين على جميع ذلك بالأخبار الواردة فى ذم الجاه ومدح الخمول والذل ، مثل قولهم: المؤمن لا يخلو من ذلة ، أو قلة ، أو علة . وينظر فى أحوال السلف، وإيثارهم للذل على العز، ورغبتهم فى ثواب الآخرة رضى الله عنهم أجمعين.

بيان

وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم . فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس ، رجاء للمدح وخوفا من الذم . وذلك من المهلكات فيجب معالجته . وطريقه ملاحظة الأسباب التى لأجلها يحب المدح ويكره الذم .

أما السبب الأول : فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح . فطريقك فيه أن ترجع إلى عقلك ، وتقول لنفسك : هذه الصفة التى يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفا بها، فهى إما صفة تستحق بها المدح ، كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح ، كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية. فإن كانت من الأعراض الدنيوية. فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض، الذى يصير على القرب هشيما تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل. بل العاقل يقول كما قال المتنبى:

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا

فلا ينبغى أن يفرح الإنسان بعروض الدنيا . وإن فرح فلا ينبغى أن يفرح بمدح المادح بها . بل بوجودها . والمدح ليس هو سبب وجودها . وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها ، كالعلم والورع ، فينبغى أن لا يفرح بها ، لأن الخاتمة غير معلومة ، وهذا إنما يقتضى الفرح لأنه يقرب عند الله زلفى . وخطر الخاتمة باق ، ففى الخوف من سوء الخاتمة

شغل عن الفرح بكل مافى الدنيا . بل الدنيا دار أحزان وغموم ، لادار فرح وسرور . ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة ، فينبغى أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى ، لابمدح المادح . فإن اللذة فى استشعار الكمال ، والكمال موجود من فضل الله لامن المدح ، والمدح تابع له ؛ فلا ينبغى أن تفرح بالمدح، والمدح لايزيدك فضلا

وإن كانت الصفة التى مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . ومثالك مثال من يهزأ به إنسان ويقول : سبحان الله ! ماأكثر العطر الذى فى أحشائه ، وما أطيب الروائح التى تفوح منه إذا قضى حاجته وهو يعلم ماتشتمل عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان ثم يفرح بذلك . فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ، ففرحت به ؛ والله مطلع على خبائث باطنك ، وغوائل سريرتك ، وأقذار صفاتك ، كان ذلك من غاية الجهل

فإذاً المادح إن صدق فليكن فرحك بصفتك ، التى هى من فضل الله عليك ، وإن كذب فينبغى أن يغمك ذلك ولا تفرح به

وأما السبب الثانى : وهو دلالة المدح على تسخير قلب المادح، وكونه سببا لتسخير قلب آخر ، فهذا يرجع إلى حب الجاه والمنزلة فى القلوب . وقد سبق وجه معالجته ، وذلك بقطع الطمع عن الناس ، وطلب المنزلة عند الله ، وبأن تعلم أن طلبك المنزلة فى قلوب الناس ، وفرحك به ، يسقط منزلتك عند الله ، فكيف تفرح به !

وأما السبب الثالث : وهو الحشمة التى اضطرت المادح إلى المدح ، فهو أيضا يرجع إلى قدرة عارضة لاثبات لها ، ولا تستحق الفرح . بل ينبغى أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ، كما نقل ذلك عن السلف . لأن آفة المدح على الممدوح عظيمة ، كما ذكرناه فى كتاب آفات اللسان . قال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل فى بطنه . وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت ، فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت ، فأنت والله بئس الرجل : وروى فى بعض الأخبار ، فإن صح فهو قاصم للظهور ، [1] أن رجلا أثنى على رجل خيرا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « لَوْ كَانَ صَاحِبُكَ حَاضِرًا فَرَضِيَ الَّذِي قُلْتَ فَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ النَّارَ » وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث أن رجلا أثنى على رجل خيرا فقال لو كان صاحبك حاضرا فرضى الذى قلت ومات على ذلك دخل النار : لم أجد له أصلا

مرة للمادح[1] « وَيْحَكَ قَصَمْتَ ظَهْرَهُ لَوْ سَمِعَكَ مَا أَفْلَحَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » وقال عليه السلام[2] « أَلاَ لاَ تَمَادَحُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمَادِحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ »

فلهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين على وجل عظيم من المدح وفتنته ، وما يدخل على القلب من السرور العظيم به ، حتى أن بعض الخلفاء الراشدين سأل رجلا عن شيء ، فقال . أنت يا أمير المؤمنين خير منى وأعلم . فغضب وقال : إنى لم آمرك بأن تزكينى . وقيل لبعض الصحابة : لا يزال الناس بخير ما أبقاك الله . فغضب وقال : أنى لأحسبك عراقيا . وقال بعضهم لما مدح . اللهم إن عبدك تقرب إلىّ بمقتك ، فأشهدك على مقته . وإنما كرهوا المدح خيفة أن يفرحوا بمدح الخلق ، وهم ممقوتون عند الخالق ، فكان اشتغال قلوبهم بحالهم عند الله يبغض إليهم مدح الخلق لأن الممدوح هو المقرب عند الله ، والمذموم بالحقيقة هو المبعد من الله الملقى فى النار مع الأشرار . فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار ، فما أعظم جهله إذا فرح بمدح غيره . وإن كان من أهل الجنة ، فلا ينبغى أن يفرح إلا بفضل الله تعالى وثنائه عليه ، إذ ليس أمره بيد الخلق ومهما علم الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم ، وسقط من قلبه حب المدح ، واشتغل بما يهمه من أمر دينه والله الموفق للصواب برحمته

بيان
علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة فى كراهة الذم ، هو ضد العلة فى حب المدح . فعلاجه أيضا يفهم منه . والقول الوجيز فيه ، أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يكون قد صدق فيما قال ، وقصد به النصح والشفقة ، وإما أن يكون صادقا ، ولكن قصده الإيذاء والتعنت وإما أن يكون كاذبا . فإن كان صادقا وقصده النصح ، فلا ينبغى أن تذمه ، وتغضب عليه وتحقد بسببه . بل ينبغى أن تتقلد منته . فإن من أهدى إليك عيوبك ، فقد أرشدك

---

(١) حديث ويحك قطعت ظهره ـ الحديث : قاله للمادح تقدم

(٢) حديث ألا لا تمادحوا وإذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب : تقدم دون قوله ألا لا تمادحوا

إلى المهلك حتى تتقيه . فينبغى أن تفرح به ، وتشتغل بازالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها . فأما اغتمامك بسببه ، وكراهتك له ، وذمك إياه ، فإنه غاية الجهل

وإن كان قصده التعنت ، فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك ، إن كنت جاهلا به ، أو ذكرك عيبك إن كنت غافلا عنه ، أو قبحه فى عينك ، لينبعث حرصك على إزالته إن كنت قد استحسنته . وكل ذلك أسباب سعادتك ، وقد استفدته منه ، فاشتغل بطلب السعادة ، فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة . فمهما قصدت الدخول على ملك ، وثوبك ملوث بالعذرة ، وأنت لا تدرى ، ولو دخلت عليه كذلك لخفت أن يحز رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرة ، فقال لك قائل : أيها الملوث بالعذرة طهر نفسك ، فينبغى أن تفرح به ، لأن تنبيهك بقوله غنيمة . وجميع مساوى الأخلاق مهلكة فى الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبغى أن تغتنمه . وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه ، وهو نعمة منه عليك . فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت ، وتضرر هو به

الحالة الثالثة : أن يفترى عليك بما أنت برئ منه عند الله تعالى ، فينبغى أن لا تكره ذلك ، ولا تشتغل بذمه . بل تتفكر فى ثلاثة أمور

أحدها : أنك إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه ، وما ستره الله من عيوبك أكثر ، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك ، ودفعه عنك بذكر ما أنت برئ عنه

والثانى : أن ذلك كفارات لبقية مساويك وذنوبك ، فكأنه رماك بعيب أنت برىء منه ، وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها . وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته ، وكل من مدحك فقد قطع ظهرك . فما بالك تفرح بقطع الظهر ، وتحزن لهدايا الحسنات التى تقربك إلى الله تعالى ! وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله

وأما الثالث ، فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله ، وأهلك نفسه بافترائه ، وتعرض لعقابه الأليم ، فلا ينبغى أن تغضب عليه مع غضب الله عليه ، فتشمت به الشيطان ، وتقول اللهم أهلكه ، بل ينبغى أن تقول اللهم أصلحه ، اللهم تب عليه ،

اللهم ارحمه ، كما قال صلى الله عليه وسلم [1] « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِى اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِى فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » لما أن كسروا ثنيته ، وشجوا وجهه ، وقتلوا عمه حمزة يوم أحد .

ودعا إبراهيم بن أدهم لمن شج رأسه بالمغفرة ، فقيل له فى ذلك ، فقال علمت أنى مأجور بسببه ، وما نالنى منه إلا الخير ، فلا أرضى أن يكون هو معاقبا بسببى . ومما يهون عليك كراهة المذمة قطع الطمع . فإن من استغنيت عنه مهما ذمك لم يعظم أثر ذلك فى قلبه وأصل الدين القناعة وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه . وما دام الطمع قائما ، كان حب الجاه والمدح فى قلب من طمعت فيه غالبا ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة فى قلبه مصروفة ، ولا ينال ذلك إلا بهدم الدين فلا ينبغى أن يطمع طالب المال والجاه ومحب المدح ومبغض الذم فى سلامة دينه ، فإن ذلك بعيد جدا

بيان

اختلاف أحوال الناس فى المدح والذم

اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذام والمادح

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ، ويشكر المادح ، ويغضب من الذم ، ويحقد على الذام ، ويكافئه أو يحب مكافأته . وهذا حال أكثر الخلق ، وهو غاية درجات المعصية فى هذا الباب

الحالة الثانية : أن يمتعض فى الباطن على الذام ، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ، ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور . وهذا من النقصان ، إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال

الحالة الثالثة : وهى أول درجات الكمال ، أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، فلا تغمه المذمة ، ولا تسره المدحة . وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ، ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه ، بعلاماته . وعلاماته أن لا يجد فى نفسه استثقالا للذام عند تطويله الجلوس عنده ، أكثر مما يجده فى المادح . وأن لا يجد فى نفسه زيادة هزة ونشاط فى قضاء حوائج المادح ، فوق ما يجده فى قضاء حاجة الذام . وأن لا يكون انقطاع الذام عن مجلسه ، أهون عليه

---

(١) حديث اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون قاله لما ضربه قومه : البيهقى فى دلائل النبوة وقد تقدم والحديث فى الصحيح انه صلى الله عليه وسلم قاله حكاية عن نبى من الأنبياء حين ضربه قومه

من انقطاع المادح . وأن لا يكون موت المادح المطرى له ، أشد نكاية فى قلبه من موت الذام وأن لا يكون غمه بمصيبة المادح وما يناله من أعدائه ، أكثر مما يكون بمصيبة الذام . وأن لا تكون زلة المادح ، أخف على قلبه وفى عينه من زلة الذام . فمهما خف الذام على قلبه كما خف المادح ، واستويا من كل وجه ، فقد نال هذه الرتبة . وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب

وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن فى قلوبهم وهم لا يشعرون . حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات . وربما شعر العابد بميل قلبه إلى المادح دون الذام ، والشيطان يحسن له ذلك ويقول : الذام قد عصى الله بمذمتك ، والمادح قد أطاع الله بمدحك ، فكيف تسوى بينهما ! وإنما استثقالك للذام من الدين المحض . وهذا محض التلبيس . فإن العابد لو تفكر ، علم أن فى الناس من ارتكب من كبائر المعاصى أكثر مما ارتكب الذام فى مذمته ثم إنه لا يستثقلهم ولا ينفر عنهم . ويعلم أن المادح الذى مدحه لا يخلو عن مذمة غيره ، ولا يجد فى نفسه نفرة عنه بمذمة غيره كما يجد لمذمة نفسه . والمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره . فإذاً العابد المغرور لنفسه يغضب ، ولهواه يمتعض ثم إن الشيطان يخيل إليه أنه من الدين حتى يعتقد على الله بهواه ، فيزيده ذلك بعداً من الله . ومن لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس ، فأكثر عباداته تعب ضائع ، يفوت عليه الدنيا ، ويخسره فى الآخرة . وفيهم قال الله تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً [1])

الحالة الرابعة : وهى الصدق فى العبادة ، أن يكره المدح ويمقت المادح ، إذ يعلم أنه فتنة عليه ، قاصمة للظهر ، مضرة له فى الدين . ويحب الذام ، إذ يعلم أنه مهد إليه عيبه ، ومرشد له إلى مهمه ، ومهد إليه حسناته . فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « رَأْسُ التَّوَاضُعِ أَنْ تَكْرَهَ أَنْ تُذْكَرَ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وقد روى فى بعض الأخبار ما هو قاصم لظهور أمثالنا إن صح إذ روى أنه صلى الله عليه وسلم [2] قال « وَيْلٌ لِلصَّائِمِ وَوَيْلٌ لِلْقَائِمِ وَوَيْلٌ لِصَاحِبِ

---

(١) حديث رأس التواضع ان يكره أن يذكر بالبر والتقوى: لم أجد له أصلا

(٢) حديث ويل للصائم وويل للقائم وويل لصاحب الصوف ـ الحديث: لم أجده هكذا وذكر صاحب الفردوس من حديث أنس ويل لمن لبس الصوف فخالف فعله قوله ولم يخرجه ولده فى مسنده .

---

(١) الكهف: ١٠٣، ١٠٤

الصُّوفِ إِلاَّ مَنْ » فقيل يارسول الله إلا من ؟ فقال « إِلاَّ مَنْ تَنَزَّهَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا وَأَبْغَضَ الْمِدْحَةَ وَاسْتَحَبَّ الْمَذَمَّةَ » وهذا شديد جدا

وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية : وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل . فأما الحالة الثالثة : وهي التسوية بين المادح والذام ، فلسنا نطمع فيها . ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية ، فإنها لا تفي بها ، لأنها لابد وأن تتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته ، وتتثاقل على إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه . ولا نقدر على أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر ، كما لا نقدر عليه في سريرة القلب . ومن قدر على التسوية بين المادح والذام في ظاهر الفعل ، فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد ، فإنه الكبريت الأحمر يتحدث الناس به ولا يرى ، فكيف بما بعده من المرتبتين

وكل واحدة من هذه الرتب أيضا فيها درجات . أما الدرجات في المدح ، فهو أن من الناس من يتمنى المدحة والثناء وانتشار الصيت ، فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن ، حتى يرائي بالعبادات ، ولا يبالي بمقارفة المحظورات ، لاستمالة قلوب الناس ، واستنطاق ألسنتهم بالمدح : وهذا من الهالكين

ومنهم من يريد ذلك ، ويطلبه بالمباحات ، ولا يطلبه بالعبادات ، ولا يباشر المحظورات . وهذا على شفا جرف هار . فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب ، وحدود الأعمال ، لا يمكنه أن يضبطها . فيوشك أن يقع فيما لا يحل لنيل الحمد . فهو قريب من الهالكين جدا

ومنهم من لا يريد المدحة ، ولا يسعى لطلبها ، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه . فإن لم يقابل ذلك بالمجاهدة ، ولم يتكلف الكراهية ، فهو قريب من أن يستجره فرط السرور إلى الرتبة التي قبلها . وإن جاهد نفسه في ذلك ، وكلف قلبه الكراهية ، وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح ، فهو في خطر المجاهدة ، فتارة تكون اليد له ، وتارة تكون عليه

ومنهم من إذا سمع المدح لم يسر به ، ولم يغتم به ، ولم يؤثر فيه ، وهذا على خير ، وإن كان قد بقي عليه بقية من الإخلاص . ومنهم من يكره المدح إذا سمعه ، ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضب على المادح وينكر عليه . وأقصى درجاته أن يكره ، ويغضب ، ويظهر الغضب وهو صادق فيه . لا أن يظهر الغضب وقلبه محب له ، فإن ذلك عين النفاق ، لأنه يريد أن يظهر من نفسه الإخلاص والصدق ، وهو مفلس عنه . وكذلك بالضد من هذا تتفاوت الأحوال في حق الذام .

وأول درجاته إظهار الغضب ، وآخرها إظهار الفرح . ولا يكون الفرح . وإظهاره إلا ممن فى قلبه حنق وحقد على نفسه لتمردها عليه ، وكثرة عيوبها ، ومواعيدها الكاذبة ، وتلبيساتها الخبيثة ، فيبغضها بغض العدو . والإنسان يفرح عن يذم عدوه . وهذا شخص عدوه نفسه ، فيفرح إذا سمع ذمها ، ويشكر الذام على ذلك ؛ ويعتقد فطنته وذكاءه لما وقف على عيوبها ، فيكون ذلك كالتشفى له من نفسه ، ويكون غنيمة عنده ، إذ صار بالمذمة أوضع فى أعين الناس ، حتى لا يبتلى بفتنة الناس . وإذا سيقت إليه حسنات لم ينصب فيها ، فعساه يكون خيرا لعيوبه التى هو عاجز عن إماطتها . ولو جاهد المريد نفسه طول عمره فى هذه الخصلة الواحدة ، وهو أن يستوى عنده ذامه ومادحه ، لكان له شغل شاغل فيه ، لا يتفرغ معه لغيره . وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة ، هذه إحداها ، ولا يقطع شيئا منها إلا بالمجاهدة الشديدة فى العمر الطويل

الشطر الثانى من الكتاب

فى طلب الجاه والمنزلة بالعبادات

وهو الرياء . وفيه بيان ذم الرياء ، وبيان حقيقة الرياء ، وما يرائى به ، وبيان درجات الرياء وبيان الرياء الخفى ، وبيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ، وبيان دواء الرياء وعلاجه ، وبيان الرخصة فى إظهار الطاعات ، وبيان الرخصة فى كتمان الذنوب ، وبيان ترك الطاعات خوفا من الرياء والآفات ، وبيان ما يصح من نشاط العبد للعبادات بسبب رؤية الخلق ، وبيان ما يجب على المريد أن يلزمه قلبه قبل الطاعة وبعدها ، وهي عشرة فصول ؛ وبالله التوفيق

بيان

ذم الرياء

اعلم أن الرياء حرام ، والمرائى عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار أما الآيات . فقوله تعالى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ [١]) وقوله عز وجل (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ [٢])

---

(١) الماعون ٤ ، ٥ ، ٦ (٢) فاطر : ١٠

قال مجاهـــــد . هم أهـل الرياء . وقال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا [١]) فمدح المخلصين بنفى كل إرادة بسوى وجـه الله . والرياء ضده . وقال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [٢]) نزل [١] ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله .

وأما الأخبار : فقد قال صلى الله عليه وسلم حين سأله رجل فقال يارسول الله ، فيم النجاة؟ فقال « أَنْ لَا يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللهِ يُرِيدُ بِهَا النَّاسَ » [٢] وقال أبو هريرة فى حديث الثلاثة ، المقتول فى سبيل الله ، والمتصـدق بماله ، والقارىء لـكتاب الله ، كما أوردناه فى كتاب الإخلاص . وإن الله عز وجل يقول لـكل واحد منهم كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت ، بل أردت أن يقال فلان قارىء . فأخبر صلى الله عليه وسلم أنهم لم يثابوا ، وأن رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما ، قال النبى صلى الله عليه وسلم [٣] « مَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ » وفى حديث آخر طويل ، [٤] أن الله تعالى يقول للملائكته ، إن هـــذا لم يردنى بعمله ، فاجعلوه فى سجين . وقال صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث نزول قوله تعالى من كان يرجو لقاء ربه الآية فيمن يطلب الآخرة والحمد بعباداته وأعماله: الحاكم من حديث طاوس قال رجل انى أقف الموقف أبتغى وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية هكذا فى نسختى من المستدرك ولعله سقط منه ابن عباس أو أبو هريرة وللبزار من حديث معاذ بسند ضعيف من صام رياء فقد أشرك ـ الحديث : وفيه انه صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية

(٢) حديث أبى هريرة فى الثلاثة المقتول فى سبيل الله والمتصدق بماله والقارئ لكتابه فان الله يقول لـكل واحد منهم كذبت: رواه مسلم وسيأتى فى كتاب الاخلاص

(٣) حديث ابن عمر من راءى راءى الله به ومن سمع سمع الله به: متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث ابن عمر فرواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى الشعب من رواية شيخ يكنى أبا يزيد عنه بلفظ من سمع الناس سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره وفى الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع انه من حديث عبد الله بن عمرو

(٤) حديث ان الله يقول للملائكة ان هذا لم يردنى بعمله فاجعلوه فى سجين: ابن المبارك فى الزهد ومن طريقه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص وأبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلا ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

---

(١) الدهر : ٩ (٢) الـكهف ١١٠

(١) « إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُمُ الشِّرْكُ الأصغرُ » قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال « الرِّياءُ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامةِ إذا جازى العبادَ بأعمالِهِم اذهبُوا إلى الذينَ كُنتُم تُراؤُونَ في الدُّنيا فانظُرُوا هل تجدُونَ عِندَهُمُ الجزاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « استعيذوا باللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ جُبِّ الحُزْنِ » قيل وماهو يارسول الله؟ قال « وادٍ في جهنَّمَ أُعِدَّ لِلقُرَّاءِ المُرائينَ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٣) « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ مَنْ عَمِلَ لي عملاً أشرَكَ فيهِ غيري فهُوَ لهُ كُلُّهُ وأنا منهُ بريءٌ وأنا أغنى الأغنياءِ عنِ الشِّركِ » . وقال عيسى المسيح صلى الله عليه وسلم : إذا كان يوم صوم أحدكم ، فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم . وإذا أعطى بيمينه ، فليخف عن شماله . وإذا صلى فليرخ ستر بابه ، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم (٤) « لا يقبلُ اللهُ عزَّ وجلَّ عملاً فيهِ مثقالُ ذرَّةٍ مِنْ رياءٍ » وقال عمر لمعاذ بن جبل حين رآه يبكي ما يبكيك؟ قال حديث سمعته من صاحب هذا القبر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم (٥) يقول « إنَّ أدنى الرِّياءِ شِرْكٌ »

وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « أخوفُ ما أخافُ عليكُمُ الرِّياءُ والشَّهوةُ الخفيَّةُ » وهي أيضا ترجع إلى خطايا الرياء ودقائقه . وقال صلى الله عليه وسلم (٧) « إنَّ في ظِلِّ العرشِ يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ رجلاً تصدَّقَ بيمينِهِ فكادَ يُخفيها عن شِمالِهِ »

---

(١) حديث ان أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر ـ الحديث : أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود ابن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج

(٢) حديث استعيذوا بالله من جب الحزن قيل وماهو قال واد في جهنم أعد للقراء المرائين : الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي

(٣) حديث يقول الله من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله ـ الحديث : مالك واللفظ له من حديث أبي هريرة دون قوله وأنا منه بريء ومسلم مع تقديم وتأخير دونها أيضا وهي عند ابن ماجه بسند صحيح

(٤) حديث لا يقبل الله عملا فيه مقدار ذرة من رياء : لم أجده هكذا

(٥) حديث معاذ ان أدنى الرياء شرك : الطبراني هكذا والحاكم بلفظ ان اليسير من الرياء شرك وقد تقدم قبل هذه الورقة

(٦) حديث أخوف ما أخاف عليكم الرياء ـ الحديث : تقدم في أول هذا الكتاب

(٧) حديث ان في ظل العرش يوم لا ظل الا ظله رجلا تصدق بيمينه فكاد أن يخفيها عن شماله : متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه في حديث سبعة يظلهم الله في ظله

ولذلك ورد [١] أن فضل عمل السر على عمل الجهر بسبعين ضعفا . وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « إِنَّ الْمُرَائِيَ يُنَادَى عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا فَاجِرُ يَاغَادِرُ يَامُرَائِي ضَلَّ عَمَلُكَ وَحَبِطَ أَجْرُكَ اذْهَبْ فَخُذْ أَجْرَكَ مِمَّنْ كُنْتَ تَعْمَلُ لَهُ » [٣] وقال شداد بن أوس ؛ رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يبكى ، فقلت مايبكيك يارسول الله ؟ قال « إِنِّي تَخَوَّفْتُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ أَمَا إِنَّهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ صَنَماً وَلاَ شَمْسًا وَلاَ قَمَراً وَلاَ حَجَراً وَلٰكِنَّهُمْ يُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِهِمْ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ مَادَتْ بِأَهْلِهَا فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَصَيَّرَهَا أَوْتَاداً لِلْأَرْضِ فَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ مَاخَلَقَ رَبُّنَا خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ فَخَلَقَ اللهُ الْحَدِيدَ فَقَطَعَ الْجِبَالَ ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الْحَدِيدَ ثُمَّ أَمَرَ اللهُ الْمَاءَ بِإِطْفَاءِ النَّارِ وَأَمَرَ الرِّيحَ فَكَدَّرَتِ الْمَاءَ فَاخْتَلَفَتِ الْمَلاَئِكَةُ فَقَالَتْ نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى قَالُوا يَارَبِّ مَاأَشَدُّ مَاخَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَى لَمْ أَخْلُقْ خَلْقاً هُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ حِينَ يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ بِيَمِينِهِ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ فَهٰذَا أَشَدُّ خَلْقٍ خَلَقْتُهُ »

وروى عبد الله بن المبارك ، بإسناده عن رجل ، أنه قال لمعاذ بن جبل : حدثني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فبكى معاذ ، حتى ظننت أنه لايسكت ، ثم سكت . ثم قال ، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال لى « يَامُعَاذُ » قلت لبيك بأبى أنت وأمى يارسول الله . قال « إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثاً إِنْ أَنْتَ حَفِظْتَهُ نَفَعَكَ وَإِنْ أَنْتَ ضَيَّعْتَهُ

---

(١) حديث تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين: ضعفه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء ان الرجل ليعمل العمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفا قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وروى ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص من حديث عائشة بسند ضعيف يفضل الذكر الخفي الذي لاتسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة

(٢) حديث ان المرائي ينادى يوم القيامة يافاجر ياغادر يامرائي ضل عملك وحبط أجرك ـ الحديث : ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسم وزاد ياكافر ياخاسر ولم يقل يامرائي واسناده ضعيف

(٣) حديث شداد بن أوس انى تخوفت على أمتى الشرك ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم نحوه وقد تقدم قريبا

(٤) حديث لما خلق الله الارض مادت بأهلها ـ الحديث : وفيه لم أخلق خلقا هو أشد من ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال غريب

وَلَمْ تَحْفَظْهُ انْقَطَعَتْ حُجَّتُكَ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا مُعَاذُ[1] إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ سَبْعَةَ أَمْلَاكٍ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ فَجَعَلَ لِكُلِّ سَمَاءٍ مِنَ السَّبْعَةِ مَلَكاً بَوَّاباً عَلَيْهَا قَدْ جَلَّلَهَا عِظَماً فَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ حِينِ أَصْبَحَ إِلَى حِينِ أَمْسَى لَهُ نُورٌ كَنُورِ الشَّمْسِ حَتَّى إِذَا صَعِدَتْ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا زَكَّتْهُ فَكَثَّرَتْهُ فَيَقُولُ الْمَلَكُ لِلْحَفَظَةِ اضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا صَاحِبُ الْغِيبَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَ مَنْ اغْتَابَ النَّاسَ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ ثُمَّ تَأْتِي الْحَفَظَةُ بِعَمَلٍ صَالِحٍ مِنْ أَعْمَالِ الْعَبْدِ فَتَمُرُّ بِهِ فَتُزَكِّيهِ وَتُكَثِّرُهُ حَتَّى تَبْلُغَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ هَذَا عَرَضَ الدُّنْيَا أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِهِ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَبْتَهِجُ نُوراً مِنْ صَدَقَةٍ وَصِيَامٍ وَصَلَاةٍ قَدْ أَعْجَبَ الْحَفَظَةَ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ أَنَا مَلَكُ الْكِبْرِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ فِي مَجَالِسِهِمْ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ يَزْهَرُ كَمَا يَزْهَرُ الْكَوْكَبُ الدُّرِّيُّ لَهُ دَوِيٌّ مِنْ تَسْبِيحٍ وَصَلَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ أَنَا صَاحِبُ الْعُجْبِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لَا أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي إِنَّهُ كَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَدْخَلَ الْعُجْبَ فِي عَمَلِهِ قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ حَتَّى يُجَاوِزُوا بِهِ السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ كَأَنَّهُ الْعَرُوسُ الْمَزْفُوفَةُ إِلَى أَهْلِهَا فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ وَاحْمِلُوهُ عَلَى عَاتِقِهِ أَنَا مَلَكُ الْحَسَدِ إِنَّهُ كَانَ يَحْسُدُ النَّاسَ مَنْ يَتَعَلَّمُ

---

(١) حديث معاذ الطويل ان الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والارض فجعل لكل سماء من السبعة ملكا بوابا عليها ـ الحديث : بطوله فى صعود الحفظة بعمل العبد ورد الملائكة له من كل سماء ورد الله تعالى له بعد ذلك عزاه المصنف الى رواية عبد الله بن المبارك باسناده عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه فى الزهد وفى اسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزى فى الموضوعات

وَيَعْمَلُ بِمِثْلِ عَمَلِهِ وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ فَضْلاً مِنَ الْعِبَادَةِ يَحْسُدُهُمْ وَيَقَعُ فِيهِمْ أَمَرَنِي
رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ
وَزَكَاةٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَصِيَامٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ
بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ إِنَّهُ كَانَ لاَ يَرْحَمُ إِنْسَانًا قَطُّ مِنْ عِبَادِ اللهِ
أَصَابَهُ بَلاَءٌ أَوْ ضُرٌّ أَضَرَّ بِهِ بَلْ كَانَ يَشْمَتُ بِهِ أَنَا مَلَكُ الرَّحْمَةِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ
عَمَلَهُ يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ صَوْمٍ
وَصَلاَةٍ وَنَفَقَةٍ وَزَكَاةٍ وَاجْتِهَادٍ وَوَرَعٍ لَهُ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ الرَّعْدِ وَضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ
مَعَهُ ثَلاَثَةُ آلاَفِ مَلَكٍ فَيُجَاوِزُونَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ لَهُمُ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ
بِهَا قِفُوا وَاضْرِبُوا بِهَذَا الْعَمَلِ وَجْهَ صَاحِبِهِ اضْرِبُوا بِهِ جَوَارِحَهُ اقْفِلُوا بِهِ عَلَى قَلْبِهِ إِنِّي
أَحْجُبُ عَنْ رَبِّي كُلَّ عَمَلٍ لَمْ يُرَدْ بِهِ وَجْهَ رَبِّي إِنَّهُ أَرَادَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى إِنَّهُ أَرَادَ
رِفْعَةً عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَذِكْرًا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَصِيتًا فِي الْمَدَائِنِ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ لاَ أَدَعَ عَمَلَهُ
يُجَاوِزُنِي إِلَى غَيْرِي وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ خَالِصًا فَهُوَ رِيَاءٌ وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ عَمَلَ الْمُرَائِي
قَالَ وَتَصْعَدُ الْحَفَظَةُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مِنْ صَلاَةٍ وَزَكَاةٍ وَصِيَامٍ وَحَجٍّ وَعُمْرَةٍ وَخُلُقٍ حَسَنٍ
وَصَمْتٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَتُشَيِّعُهُ مَلاَئِكَةُ السَّمٰوَاتِ حَتَّى يَقْطَعُوا بِهِ الْحُجُبَ كُلَّهَا
إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقِفُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَشْهَدُونَ لَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُخْلِصِ لِلَّهِ قَالَ فَيَقُولُ
اللهُ لَهُمْ أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى نَفْسِهِ إِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِهَذَا الْعَمَلِ
وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي فَتَقُولُ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا وَتَقُولُ السَّمٰوَاتُ
كُلُّهَا عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَلَعْنَتُنَا وَتَلْعَنُهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » قال معاذ .
قلت يارسول الله ، أنت رسول الله ، وأنا معاذ : قال « اقْتَدِ بِي وَإِنْ كَانَ فِي عَمَلِكَ نَقْصٌ
يَا مُعَاذُ حَافِظْ عَلَى لِسَانِكَ مِنَ الْوَقِيعَةِ فِي إِخْوَانِكَ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ وَاحْمِلْ ذُنُوبَكَ
عَلَيْكَ وَلاَ تَحْمِلْهَا عَلَيْهِمْ وَلاَ تُزَكِّ نَفْسَكَ بِذَمِّهِمْ وَلاَ تَرْفَعْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ وَلاَ تُدْخِلْ
عَمَلَ الدُّنْيَا فِي عَمَلِ الآخِرَةِ وَلاَ تَتَكَبَّرْ فِي مَجْلِسِكَ لِكَيْ يَحْذَرَ النَّاسُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ

وَلاَ تُنَاجِ رَجُلاً وَعِنْدَكَ آخَرُ وَلاَ تَتَعَظَّمْ عَلَى النَّاسِ فَيَنْقَطِعَ عَنْكَ خَيْرُ الدُّنْيَا وَلا تُمَزِّقِ النَّاسَ فَتُمَزِّقَكَ كِلاَبُ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي النَّارِ قَالَ تَعَالَى (وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً[1]) أَتَدْرِى مَنْ هُنَّ يَامُعَاذُ ؟ » قلت ماهن بأبى أنت وأمى يارسول الله ؟ قال « كِلاَبٌ فِي النَّارِ تَنْشُطُ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ » قلت بأبى أنت وأمى يارسول الله فمن يطيق هذه الخصال ؟ ومن ينجو منها ؟ قال « يَامُعَاذُ إِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ » قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرءان من معاذ ، للحذر مما فى هذا الحديث.

وأما الآثار : فيروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، رأى رجلا يطأطىء رقبته. فقال ياصاحب الرقبة ، ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب ، إنما الخشوع فى القلوب. ورأى أبو أمامة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده ، فقال أنت أنت لو كان هذا فى بيتك؟ وقال على كرم الله وجهه : للمرائى ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان فى الناس . ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه ، وينقص إذا ذم . وقال رجل لعبادة بن الصامت أقاتل بسيفى فى سبيل الله ، أريد به وجه الله تعالى ومحمدة الناس؟ قال لاشىء لك. فسأله ثلاث مرات ، كل ذلك يقول لاشىء لك ، ثم قال فى الثالثة · إن الله يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، الحديث

وسأل رجل سعيد بن المسيب فقال : إن أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له أتحب أن تمقت ؟ قال لا . قال فإذا عملت لله عملا فأخلصه . وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك . ولا يقولن هذا لله وللرحم ، فإن الله تعالى لاشريك له . وضرب عمر رجلا بالدرة ثم قال له : اقتص منى . فقال لا بل أدعها لله ولك : فقال له عمر : ما صنعت شيئا ، إما أن تدعها لى فاعرف ذلك ، أو تدعها لله وحده . فقال ودعتها لله وحده فقال فنعم اذن . وقال الحسن ، لقد صحبت أقواما إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة. لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه ، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة .. وإن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى فى الطريق ، فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة · ويقال إن المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء : يامرائى ، ياغادر ، ياخاسر ، يافاجر ، اذهب فخذ أجرك ممن عملت له فلا أجر لك عندنا.

(1) النازعات : ٢

وقال الفضيل بن عياض كانوا يراءون بما يعملون ، وصاروا اليوم يراءون بما لا يعملون . وقال عكرمة . إن الله يعطى العبد على نيته مالا يعطيه على عمله ، لأن النية لارياء فيها . وقال الحسن رضى الله عنه . المرائى يريد أن يغلب قدر الله تعالى وهو رجل سوء ، يريد أن يقول الناس هو رجل صالح . وكيف يقولون وقد حل من ربه محل الأردياء !فلابد لقلوب المؤمنين أن تعرفه . وقال قتادة .إذا راءى العبد ، يقول الله تعالى انظروا إلى عبدى يستهزىء بى. وقال مالك بن دينار : القراء ثلاثة . قراء الرحمن، وقراء الدنيا، وقراء الملوك. وإن محمد ابن واسع من قراء الرحمن . وقال الفضيل . من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلىّ .

وقال محمد بن المبارك الصورى أظهر السمت بالليل ، فإنه أشرف من سمتك بالنهار، لأن السمت بالنهار للمخلوقين ، وسمت الليل لرب العالمين . وقال أبو سليمان : التوقى عن العمل أشد من العمل . وقال ابن المبارك . إن كان الرجل ليطوف بالبيت وهو بخراسان . فقيل له وكيف ذلك ؟ قال يحب أن يذكر أنه مجاور بمكة. وقال إبراهيم بن أدهم ما صدق الله من أراد أن يشتهر

بيان

حقيقة الرياء وما يراءى به

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، والسمعة مشتقة من السماع . وإنما الرياء أصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير ، إلا أن الجاه والمنزلة تطلب فى القلب بأعمال سوى العبادات ، وتطلب بالعبادات . واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة فى القلوب بالعبادات وإظهارها . فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله . فالمرائى هو العابد ، والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة فى قلوبهم والمراءى به هو الخصال التى قصد المرائى إظهارها والرياء هو قصده إظهار ذلك . والمراءى به كثير ، وتجمعه خمسة أقسام ، وهى مجامع ما يتزين به العبد للناس : وهو البدن ، والزى ، والقول ، والعمل ، والأتباع والأشياء الخارجة . وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة . إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات ، أهون من الرياء بالطاعات

القسم الأول : الرياء فى الدين بالبدن . وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على أمر الدين ، وغلبة خوف الآخرة ، وليدل بالنحول على قلة الأكل ، وبالصفار على سهر الليل ، وكثرة الاجتهاد ، وعظم الحزن على الدين . وكذلك يرائى بتشعيث الشعر ، ليدل به على استغراق الهم بالدين ، وعدم التفرغ لتسريح الشعر . وهذه الأسباب مهما ظهرت ، استدل الناس بها على هذه الأمور ، فارتاحت النفس لمعرفتهم فلذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة . ويقرب من هذا خفض الصوت ، وإغارة العينين ، وذبول الشفتين ، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم . وأن وقار الشرع هو الذى خفض من صوته ، أو ضعف الجوع هو الذى ضعف من قوته . وعن هذا قال المسيح عليه السلام : إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ، ويرجل شعره ، ويكحل عينيه وكذلك روى عن أبى هريرة . وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء . ولذلك قال ابن مسعود . أصبحوا صياما مدهنين . فهذه مراآة أهل الدين بالبدن فأما أهل الدنيا ، فيراءون بإظهار السمن ، وصفاء اللون واعتدال القامة ، وحسن الوجه ، ونظافة البدن . وقوة الأعضاء وتناسبها

الثانى : الرياء بالهيئة والزى أما الهيئة . فبتشعيث شعر الرأس ، وحلق الشارب ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشميرها إلى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، وتركه مخرقا ، كل ذلك يرائى به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ، ومقتد فيه بعباد الله الصالحين

ومن ذلك لبس المرقعة ، والصلاة على السجادة ، ولبس الثياب الزرق تشبها بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف فى الباطن . ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة ، وإسبال الرداء على العينين ، ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق ، ولتنصرف إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة . ومنه الدراعة والطيلسان ، يلبسه من هو خال عن العلم ، ليوهم أنه من أهل العلم . والمراءون بالزى على طبقات . فمنهم من يطلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد ، فيلبس الثياب المخرقة ، الوسخة ، القصيرة ، الغليظة ، ليرائى بغلظها ، ووسخها ، وقصرها ، وتخرقها ، أنه غير مكترث بالدنيا . ولو كلف أن يلبس ثوبا وسطا نظيفا ، مما كان السلف يلبسه ، لكان عنده بمنزلة الذبح . وذلك لخوفه أن يقول

الناس قد بداله من الزهد ، ورجع عن تلك الطريقة ، ورغب في الدنيا . وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح ، وعند أهل الدنيا من الملوك ، والوزراء ، والتجار . ولو لبسوا الثياب الفاخرة ، ردهم القراء . ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ، أزدرتهم أعين الملوك والأغنياء . فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا ، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة ، والمرقعات المصبوغة ، والفوط الرفيعة فيلبسونها . ولعل قيمة ثوب أحدهم قيمة ثوب أحد الأغنياء ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء . فيلتمسون القبول عند الفريقين . وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ ، لكان عندهم كالذبح ، خوفا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء . ولو كلفوا لبس الديبق ، والكتان الدقيق الأبيض ، والمقصب المعلم ، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم ، لعظم ذلك عليهم ، خوفا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زى أهل الدنيا . وكل طبقة منهم رأى منزلته في زى مخصوص ، فيثقل عليه الانتقال إلى مادونه ، أو إلى مافوقه ، وإن كان مباحا . خيفة من المذمة

وأما أهل الدنيا : فمرا آتهم بالثياب النفيسة ، والمراكب الرفيعة ، وأنواع التوسع والتجمل في الملبس ، والمسكن ، وأثاث البيت ، وفره الخيول . وبالثياب المصبغة ، والطيالسة النفيسة ، وذلك ظاهر بين الناس ، فإنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ، ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ، مالم يبالغوا في الزينة

الثالث الرياء بالقول . ورياء أهل الدين بالوعظ ، والتذكير ، والنطق بالحكمة ، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة ، وإظهارا لغزارة العلم ، ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات ، وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، وترقيق الصوت بقراءة القرءان ، ليدل بذلك على الخوف ، والحزن ، وادعاء حفظ الحديث ، ولقاء الشيوخ ، والدق على من يروى الحديث ببيان خلل في لفظه ، ليعرف أنه بصير بالأحاديث والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح ، لإظهار الفضل فيه . والمجادلة على قصد إفحام الخصم ، ليظهر للناس قوته في علم الدين . والرياء بالقول كثير ، وأنواعه لاتنحصر .

وأما أهل الدنيا، فمرا آتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال، والتفاصح فى العبارات، وحفظ النحو الغريب، للإغراب على أهل الفضل، وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب

الرابع: الرياء بالعمل. كمراآة المصلى بطول القيام، ومد الظهر، وطول السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات، وإظهار الهدوء والسكون، وتسوية القدمين واليدين وكذلك بالصوم، والغزو، والحج، وبالصدقة، وبإطعام الطعام، وبالإخبات فى المشى عند اللقاء، كإرخاء الجفون، وتنكيس الرأس، والوقار فى الكلام. حتى أن المرائى قد يسرع فى المشى إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين، رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفا من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار. فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه، ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه، يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العبّاد والصلحاء. ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته فى الخلوة، مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة فى الخلوة، حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، ويظن أنه يتخلص به عن الرياء، وقد تضاعف به رياؤه، فإنه صار فى خلوته أيضا مرائيا فإنه إنما يحسن مشيته فى الخلوة، ليكون كذلك فى الملأ، لا لخوف من الله وحياء منه. وأما أهل الدنيا فمرا آتهم بالتبختر، والاختيال وتحريك اليدين، وتقريب الخطا، والأخذ بأطراف الذيل، وإدارة العطفين، ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة

الخامس: المراآة بالأصحاب والزائرين والمخالطين كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء. ليقال إن فلانا قد زار فلانا. أو عابدا من العبّاد، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته، ويترددون إليه. أو ملكا من الملوك، أو عاملا من عمال السلطان، ليقال إنهم يتبركون به لعظم رتبته فى الدين. وكالذى يكثر ذكر الشيوخ، ليرى أنه لقى شيوخا كثيرة واستفاد منهم، فيباهى بشيوخه. ومباهته ومراآته تترشح منه عند مخاصمته فيقول لغيره من لقيت من الشيوخ، وأنا قد لقيت فلانا وفلانا، ودرت البلاد، وخدمت الشيوخ، وما يجرى مجراه

فهذه مجامع ما يرائى به المراءون. وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة فى قلوب العباد

ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه. فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه فى قلوب الخلق.

ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة فى ديره أو صومعته ، لتشوش قلبه ، ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته ، بل يشتد لذلك غمه ، ويسعى بكل حيلة فى إزالة ذلك من قلوبهم ، مع قطع طمعه من أموالهم ، ولكنه يحب مجرد الجاه ، فإنه لذيذ كما ذكرناه فى أسبابه ، فإنه نوع قدرة وكمال فى الحال وإن كان سريع الزوال، لا يغتر به إلا الجهال. ولكن أكثر الناس جهال

ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد

ومنهم من يريد انتشار الصيت فى البلاد، لتكثر الرحلة إليه . ومنهم يريد الاشتهار عند الملوك ، لتقبل شفاعته ، وتنجز الحوائج على يده ، فيقوم له بذلك جاه عند العامة

ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام ، وكسب مال ، ولو من الأوقاف وأموال اليتامى ، وغير ذلك من الحرام وهؤلاء شر طبقات المرائين، الذين يراءون بالأسباب التى ذكرناها فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء. فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل

فأقول : فيه تفصيل ، فإن الرياء هو طلب الجاه ، وهو إما أن يكون بالعبادات ، فإن كان بغير العبادات ، فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة فى قلوب العباد. ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات ، وأسباب محظورة ، فكذلك الجاه وكما أن كسب قليل من المال ، وهو ما يحتاج إليه الإنسان محمود ، فكسب قليل من الجاه ، وهو ما يسلم به عن الآفات أيضا محمود وهو الذى طلبه يوسف عليه السلام حيث قال (إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ [1]) وكما أن المال فيه سم ناقع ، ودرياق نافع ، فكذلك الجاه . وكما أن كثير المال يلهى ويطغى ، وينسى ذكر الله والدار الآخرة ، فكذلك كثير الجاه بل أشد . وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام ، فلا نقول أيضا تملك القلوب الكثيرة حرام ، إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز . نعم انصراف الهم إلى سعة الجاه مبدأ الشرور ، كانصراف الهم إلى كثرة المال. ولا يقدر محب الجاه والمال على ترك معاصى القلب واللسان وغيرها

وأما سعة الجاه ، من غير حرص منك على طلبه ، ومن غير اغتمام بزواله إن زال . فلا ضرر فيه ، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجاه الخلفاء الراشدين ، ومن بعدهم من علماء الدين ، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان فى الدين ، ولا يوصف بالتحريم

(١) يوسف : ٥٥

فعلى هذا نقول . تحسين الثوب الذى يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراآة ، وهو ليس بحرام ، لأنه ليس رياء بالعبادة ، بل بالدنيا . وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم . والدليل عليه ما روى عن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أراد أن يخرج يوما إلى الصحابة ، فكان ينظر فى حب الماء ، ويسوى عمامته وشعره . فقالت أو تفعل ذلك يارسول الله؟ قال « نَعَمْ إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَتَزَيَّنَ لِإِخْوَانِهِ إِذَا خَرَجَ إِلَيْهِمْ » نعم . هذا كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبادة ، لأنه كان مأمورا بدعوة الخلق ، وترغيبهم فى الاتباع ، واستمالة قلوبهم . ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا فى اتباعه . فكان يجب عليه أن يظهر لهم محاسن أحواله ، لئلا تزدريه أعينهم . فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر . فكان ذلك قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه فى أعينهم ، حذرا من ذمهم ولومهم ، واسترواحا إلى توقيرهم واحترامهم ، كان قد قصد أمرا مباحا . إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ، ويطلب راحة الأنس بالإخوان . ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم

فإذاً المراآة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة ، وقد تكون طاعة ، وقد تكون مذمومة . وذلك بحسب الغرض المطلوب بها . ولذلك نقول : الرجل إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء ، لا فى معرض العبادة والصدقة ، ولكن ليعتقد الناس أنه سخى ؛ فهذا مراآة ، وليس بحرام . وكذلك أمثاله • أما العبادات ، كالصدقة ، والصلاة ، والصيام والغزو ، والحج ، فللمرائى فيه حالتان : إحداهما أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر ، وهذا يبطل عبادته ، لأن الأعمال بالنيات . وهذا ليس يقصد العبادة . ثم لا يقتصر على إحباط عبادته ، حتى نقول صار كما كان قبل العبادة ، بل يعصى بذلك ويأثم ، كما دلت عليه الأخبار والآيات . والمعنى فيه أمران :

أحدهما : يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر ، لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله ، وأنه من أهل الدين وليس كذلك . والتلبيس فى أمر الدنيا حرام أيضا ، حتى لو قضى دين جماعة ، وخيل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به ، لما فيه من التلبيس وتملك القلوب بالخداع والمكر

(١) حديث عائشة أراد أن يخرج على أصحابه وكان ينظر فى حب الماء ويسوى عمامته وشعره ـ الحديث : ابن عدى فى الكامل وقد تقدم فى الطهارة

والثانى : يتعلق بالله ، وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله ، فهو مستهزىء بالله ولذلك قال قتادة : إذا راءى العبد ، قال الله لملائكته انظروا إليه كيف يستهزىء بى .

ومثاله أن يتمثل بين يدى ملك من الملوك طول النهار ، كما جرت عادة الخدم ؛ وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جوارى الملك ، أو غلام من غلمانه ، فإن هذا استهزاء بالملك ، إذ لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته ؛ بل قصد بذلك عبدا من عبيده . فأى استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراآة عبد ضعيف ، لا يملك له ضرا ولا نفعا ! وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله ؟ وأنه أولى بالتقرب إليه من الله؟ إذ آثره على ملك الملوك ، فجعله مقصود عبادته . وأى استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى ؟ فهذا من كبائر المهلكات . ولهذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) الشرك الأصغر

نعم : بعض درجات الرياء أشد من بعض ، كما سيأتى بيانه فى درجات الرياء إن شاء الله تعالى . ولا يخلو شىء منه عن إثم غليظ أو خفيف ، بحسب ما به المراآة . ولو لم يكن فى الرياء إلا أنه يسجد ويركع لغير الله ، لكان فيه كفاية ، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله ، فقد قصد غير الله . ولعمرى لو عظم غير الله بالسجود لكفر كفرا جليا . إلا أن الرياء هو الكفر الخفى ، لأن المرائى عظم فى قلبه الناس ، فاقتضت تلك العظمة أن يسجد ويركع ، فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه . ومهما زال قصد تعظيم الله بالسجود ، وبقى تعظيم الخلق ، كان ذلك قريبا من الشرك ، إلا أنه قصد تعظيم نفسه فى قلب من عظم عنده ، بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله . فمن هذا كان شركا خفيا لا شركا جليا ، وذلك غاية الجهل . ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان ، وأوهم عنده أن العباد يملكون من ضره ، ونفعه ، ورزقه ، وأجله ، ومصالح حاله ومآله أكثر مما يملكه الله تعالى . فلذلك عدل بوجهه عن الله إليهم ، وأقبل بقلبه عليهم ، ليستميل بذلك قلوبهم . ولو وكله الله تعالى إليهم فى الدنيا والآخرة ، لكان ذلك أقل مكافأة له على صنيعه ، فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم ،

---

(١) حديث سمى الرياء الشرك الأصغر : أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم ورواه الطبرانى من رواية محمود ابن لبيد عن رافع بن خديج فجعله فى مسند رافع وتقدم قريبا والحاكم وصحح اسناده من حديث شداد بن أوس كنا نعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر

لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فكيف يملكون لغيرهم هذا فى الدنيا ! فكيف فى يوم لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ! بل تقول الأنبياء فيه نفسى نفسى . فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ، و نيل القرب عند الله ، ما يرتقبه بطمعه الكاذب فى الدنيا من الناس، فلا ينبغى أن نشك فى أن المرائى بطاعة الله فى سخط الله ، من حيث النقل والقياس جميعا . هذا إذا لم يقصد الأجر . فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعا فى صدقته أو صلاته، فهو الشرك الذى يناقض الإخلاص، وقد ذكرناحكمه فى كتاب الإخلاص ويدل على مانقلناه من الآثار، قول سعيد بن المسيب، وعبادة بن الصامت إنه لا أجر له فيه أصلا

بيان

درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الرياء أشد وأغلظ من بعض . واختلافه باختلاف أركانه وتفاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرياء

الركن الأول : نفس قصد الرياء . وذلك لا يخلو إما أن يكون مجردا دون إرادة عبادة الله تعالى والثواب ، وإما أن يكون مع إرادة الثواب . فإن كان كذلك ، فلا يخلو إما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب، أو أضعف، أو مساوية لإرادة العبادة. فتكون الدرجات أربعا

الأولى : وهى أغلظها ، أن لا يكون مراده الثواب أصلا . كالذى يصلى بين أظهر الناس ولو انفرد لكان لا يصلى . بل ربما يصلى من غير طهارة مع الناس . فهذا جرد قصده إلى الرياء ، فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفا من مذمة الناس، وهو لا يقصد الثواب ، ولو خلا بنفسه لما أداها . فهذه الدرجة العليا من الرياء

الثانية : أن يكون له قصد الثواب أيضا، ولكن قصدا ضعيفا بحيث لو كان فى الخلوة لكان لا يفعله ولا يحمله ذلك القصد على العمل. ولو لم يكن قصد الثواب لكان الرياء يحمله على العمل. فهذا قريب مما قبله ، وما فيه من شائبة قصد ثواب لا يستقل بحمله على العمل ، لا ينفى عنه المقت والإثم

الثالثة : أن يكون له قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل واحد منهما خاليا عن الآخر لم يبعثه على العمل . فلما اجتمعا انبعثت الرغبة . أو كان كل واحد

منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل . فهذا قد أفسد مثل ما أصلح . فترجو أن يسلم رأسا برأس ، لا له ولا عليه . أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب . وظواهر الأخبار تدل على أنه لا يسلم ، وقد تكلمنا عليه فى كتاب الإخلاص

الرابعة : أن يكون اطلاع الناس مرجحا ومقويا لنشاطه ، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة : ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم عليه . فالذى نظنه والعلم عند الله ، أنه لا يحبط أصل الثواب ، ولكنه ينقص منه ، أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ، ويثاب على مقدار قصد الثواب . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الأَغْنِيَاءِ عَنِ الشِّرْكِ » فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان ، أو كان قصد الرياء أرجح

الركن الثانى : المراءى به وهو الطاعات . وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها

القسم الأول : وهو الأغلظ ، الرياء بالأصول . وهو على ثلاث درجات :

الأولى : الرياء بأصل الإيمان ، وهذا أغلظ أبواب الرياء . وصاحبه مخلد فى النار . وهو الذى يظهر كلمتى الشهادة ، وباطنه مشحون بالتكذيب ، ولكنه يرائى بظاهر الإسلام . وهو الذى ذكره الله تعالى فى كتابه فى مواضع شتى ، كقوله عز وجل (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [١]) أى فى دلالتهم بقولهم على ضمائرهم . وقال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا [٢]) الآية وقال تعالى (وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ [٣]) وقال تعالى (يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ [٤]) والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر فى ابتداء الإسلام ، ممن يدخل فى ظاهر الإسلام ابتداء لغرض . وذلك مما يقل فى زماننا . ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطنا ، فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ، ميلا إلى قول الملحدة .

(١) المنافقون : ١ (٢) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ (٣) آل عمران : ١١٩ (٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣

أو يعتقد طى بساط الشرع والأحكام ، ميلا إلى أهل الإباحة . أو يعتقد كفرا أو بدعة، وهو يظهر خلافه . فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين فى النار . وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر

الثانية : الرياء بأصول العبادات ، مع التصديق بأصل الدين . وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير . ومثاله أن يكون مال الرجل فى يد غيره ، فيأمره بإخراج الزكاة خوفا من ذمه ، والله يعلم منه أنه لو كان فى يده لما أخرجها . أو يدخل وقت الصلاة وهو فى جمع ، وعادته ترك الصلاة فى الخلوة . وكذلك يصوم رمضان ، وهو يشتهى خلوة من الخلق ليفطر . وكذلك يحضر الجمعة ، ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها . أو يصل رحمه أو يبر والديه ، لا عن رغبة ، ولكن خوفا من الناس ، أو يغزو ، أو يحج كذلك . فهذا مراء معه أصل الإيمان بالله . يعتقد أنه لا معبود سواه ، ولو كلف أن يعبد غير الله أو يسجد لغيره لم يفعل ، ولكنه يترك العبادات للكسل ، وينشط عند اطلاع الناس . فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته فى محمدتهم أشد من رغبته فى ثواب الله . وهذا غاية الجهل، وما أجدر صاحبه بالمقت ، وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد

الثالثة : أن لا يرائى بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائى بالنوافل والسنن التى لو تركها لا يعصى ، ولكنه يكسل عنها فى الخلوة ، لفتور رغبته فى ثوابها ، ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب . ثم يبعثه الرياء على فعلها . وذلك كحضور الجماعة فى الصلاة ، وعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وغسل الميت . وكالتهجد بالليل وصيام يوم عرفة وعاشوراء ، ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائى جملة ذلك خوفا من المذمة أو طلبا للمحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضا عظيم ، ولكنه دون ما قبله . فإن الذى قبله آثر حمد الخلق على حمد الخالق ، وهذا أيضا قد فعل ذلك . واتقى ذم الخلق دون ذم الخالق ، فكان ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله . وأما هذا فلم يفعل ذلك ، لأنه لم يخف عقابا على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على الشطر من الأول ، وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهو أيضا على ثلاث درجات :

الأولى : أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة ، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ، ولا يطول القراءة ، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود ، وترك الالتفات ، وتمم القعود بين السجدتين . وقد قال ابن مسعود . من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل . أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدمي أحسن الصلاة . ومن جلس بين يدي إنسان متربعا أو متكئا ، فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة ، كان ذلك منه تقديما للغلام على السيد ، واستهانة بالسيد لا محالة . وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة . وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة ، أو من الحب الرديء ، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفا من مذمته

وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق ، لا إكمالا لعبادة الصوم ، خوفا من المذمة . فهذا أيضا من الرياء المحظور ، لأن فيه تقديما للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات . فإن قال المرائي إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة ، فإنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود ، وكثرة الالتفات ، أطلقوا اللسان بالذم والغيبة ، وإنما قصدت صيانتهم عن هذه المعصية ، فيقال له هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس . وليس الأمر كذلك ، فإن ضررك من نقصان صلاتك ، وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك . فلو كان باعثك الدين ، لكان شفقتك على نفسك أكثر . وما أنت في هذا إلا كمن يهدي وصيفة إلى ملك ، لينال منه فضلا وولاية يتقلدها ، فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف ، ولا يبالي به إذا كان الملك وحده ، وإذا كان عنده بعض غلمانه امتنع خوفا من مذمة غلمانه . وذلك محال . بل من يراعي جانب غلام الملك ، ينبغي أن تكون مراقبته للملك أكثر ، نعم للمرائي فيه حالتان : إحداهما . أن يطلب بذلك المنزلة والمحمدة عند الناس ، وذلك حرام قطعا . والثانية أن يقول ليس يحضرني الإخلاص في تحسين الركوع والسجود ، ولو خففت كانت صلاتي عند الله ناقصة ، وآذاني الناس بذمهم وغيبتهم ، فأستفيد بتحسين الهيئة دفع مذمتهم ، ولا أرجوا عليه ثوابا ، فهو خير من أن أترك تحسين الصلاة ، فيفوت الثواب وتحصل المذمة . فهذا فيه أدنى نظر . والصحيح

أن الواجب عليه أن يحسن ويخلص ، فإن لم تحضره النية ، فينبغى أن يستمر على عادته فى الخلوة فليس له أن يدفع الذم بالمراآة بطاعة الله ، فإن ذلك استهزاء كما سبق .

الدرجة الثانية : أن يرائى بفعل مالا نقصان فى تركه ، ولكن فعله فى حكم التكملة والتتمة لعبادته . كالتطويل فى الركوع والسجود ، ومد القيام ، وتحسين الهيئة ، ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى ، وتحسين الاعتدال ، والزيادة فى القراءة على السورة المعتادة وكذلك كثرة الخلوة فى صوم رمضان ، وطول الصمت . وكاختيار الأجود على الجيد فى الزكاة وإعتاق الرقبة الغالية فى الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

الثالثة : أن يرائى بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضا . كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول ، وتوجهه إلى يمين الإمام ، ومايجرى مجراه . وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالى أين وقف ، ومتى يحرم بالصلاة .

فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائى به ، وبعضه أشد من بعض ، والكل مذموم

الركن الثالث : المرائى لأجله . فإن للمرائى مقصودا لا محالة ، وإنما يرائى لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض لا محالة . وله أيضا ثلاث درجات .

الأولى : وهى أشدها وأعظمها ، أن يكون مقصوده التمكن من معصية . كالذى يرائى بعباداته ، ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع عن أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة ، فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الأيتام ، فيأخذها . أو يسلم إليه تفرقة الزكاة ، أو الصدقات ، ليستأثر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها . أو تسلم إليه الأموال التى تنفق فى طريق الحج ، فيختزل بعضها أو كلها أو يتوصل بها إلى استتباع الحجيج ، ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة فى المعاصى . وقد يظهر بعضهم زى التصوف ، وهيئة الخشوع ، وكلام الحكمة ، على سبيل الوعظ والتذكير وإنما قصده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور . وقد يحضرون مجالس العلم والتذكير وحلق القرآن ، يظهرون الرغبة فى سماع العلم والقرآن ، وغرضهم ملاحظة النساء والصبيان أو يخرج إلى الحج ، ومقصوده الظفر بمن فى الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى ، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته ، واتخذوها آلة ومتجرا ، وبضاعة لهم فى فسقهم

ويقرب من هؤلاء وإن كان دونهم ، من هو مقترف جريمة اتهم بها ، وهو مصر عليها ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه ، فيظهر التقوى لنفي التهمة ، كالذي جحد وديعة ، واتهمه الناس بها ، فيتصدق بالمال ، ليقال إنه يتصدق بمال نفسه ، فكيف يستحل مال غيره. وكذلك من ينسب إلى فجور بامرأة أو غلام ، فيدفع التهمة عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى

الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا ، من مال ، أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة . كالذي يظهر الحزن والبكاء ، ويشتغل بالوعظ والتذكير ، لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء . فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة . وكالذي يرغب في أن يتزوج بنت عالم عابد ، فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته. فهذا رياء محظور ، لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ، ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه

الثالثة : أن لا يقصد نيل حظ ، وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ، ولا يعد من الخاصة والزهاد ، ويعتقد أنه من جملة العامة . كالذي يمشي مستعجلا ، فيطلع عليه الناس ، فيحسن المشي ويترك العجلة ، كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار . وكذلك إن سبق إلى الضحك ، أو بدا منه المزاح ، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار ، فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وإظهار الحزن ، ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه . والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير . وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون ، أو يصومون الخميس والإثنين ، أو يتصدقون ، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ، ويلحق بالعوام . ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئا من ذلك . وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء ، أو في الأشهر الحرم ، فلا يشرب خوفا من أن يعلم الناس أنه غير صائم . فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله . أو يدعى إلى طعام فيمتنع ليظن إنه صائم ، وقد لا يصرح بأني صائم ، ولكن يقول لي عذر . وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يرى أنه صائم ، ثم يرى أنه مخلص ليس بمراء ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائيا ، فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته . ثم إن اضطر إلى شرب ، لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذرا ، تصريحا أو تعريضا ، بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم

أو يقول أفطرت تطييبا لقلب فلان . ثم قد لا يذكر ذلك متصلا بشربه ، كي لا يظن به أنه يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ، ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضا ، مثل أن يقول إن فلانا محب للإخوان ، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه ، وقد ألح علىّ اليوم ولم أجد بدا من تطييب قلبه . ومثل أن يقول إن أمي ضعيفة القلب ، مشفقة علىّ ، تظن أني لو صمت يوما مرضت ، فلا تدعني أصوم . فهذا وما يجرى مجراه من آفات الرياء ، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن . أما المخلص ، فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه . فإن لم يكن له رغبة في الصوم ، وقد علم الله ذلك منه ، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله ، فيكون ملبسا . وإن كان له رغبة في الصوم لله ، قنع بعلم الله تعالى ، ولم يشرك فيه غيره . وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به ، وتحريك رغبة الناس فيه . وفيه مكيدة وغرور ، وسيأتي شرح ذلك وشروطه

فهذه درجات الرياء ، ومراتب أصناف المرائين ، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات . وإن من شدته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل ، كما ورد به الخبر ، يزل فيه فحول العلماء ، فضلا عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب ، والله أعلم

بيان

الرياء الخفي الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي فالجلي هو الذي يبعث على العمل ، ويحمل عليه ، ولو قصد الثواب . وهو أجلاه . وأخفى منه قليلا هو ما لا يحمل على العمل بمجرده ، إلا أنه يخفف العمل الذي يريد به وجه الله ، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ، ويثقل عليه ، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له ، وخف عليه ، وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلي لمجرد رياء الضيفان ،

وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ، ولا بالتسهيل والتخفيف أيضا ، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب . ومهما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل ، لم يمكن أن يعرف إلا بالعلامات وأجلى علاماته أن يسر باطلاع الناس على طاعته . فرب عبد يخلص في عمله ، ولا يعتقد

الرياء بل يكرهه ويرده ، ويتمم العمل كذلك ، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك ، وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة . وهذا السرور يدل على رياء خفى ، منه يرشح السرور . ولولا التفات القلب إلى الناس ، لما ظهر سروره عند اطلاع الناس . فلقد كان الرياء مستكنا فى القلب ، استكنان النار فى الحجر ، فأظهر عنه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور . ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ، ولم يقابل ذلك بكراهية ، فيصير ذلك قوتا وغذاء للعرق الخفى من الرياء ؛ حتى يتحرك على نفسه حركة خفية ، فيتقاضى تقاضيا خفيا أن يتكلف سببا يطلع عليه ، بالتعريض والقاء الكلام عرضا وإن كان لايدعو إلى التصريح . وقد يخفى فلا يدعو إلى الأظهار بالنطق تعريضا وتصريحا ولكن بالشمائل ، كاظهار النحول ، والصفار ، وخفض الصوت ، ويبس الشفتين ، وجفاف الريق ، وآثار الدموع ، وغلبة النعاس الدال على طول التهجد . وأخفى من ذلك أن يختفى بحيث لايريد الاطلاع ، ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يبدءوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا فى قضاء حوائجه ، وأن يسامحوه فى البيع والشراء ، وأن يوسعوا له فى المكان . فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، ووجد لذلك استبعادا فى نفسه ، كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التى أخفاها مع أنه لم يطلع عليه . ولولم يكن قد سبق منه تلك الطاعة ، لما كان يستبعد تقصير الناس فى حقه . ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها فى كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله ، ولم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء ، [1] أخفى من دبيب النمل . وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ، ولا يسلم منه إلا الصديقون

وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : إن الله عز وجل يقول للقراء يوم القيامة ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدءون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ وفى الحديث لاأجر لكم ،قداستوفيتم أجوركم. وقال عبدالله بن المبارك روى عن وهب ابن منبه

---

(١) حديث فى الرياء شوائب أخفى من دبيب النمل: أحمد والطبرانى من حديث أبى موسى الأشعرى اتقوا هذا الشرك فانه أخفى من دبيب النمل ورواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى بكر الصديق وضعفه هو والدارقطنى

أنه قال : إن رجلا من السواح قال لأصحابه : إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان . فنخاف أن نكون قد دخل علينا فى أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال فى أموالهم . إن أحدنا إذا لقى أحب أن يعظم لمكان دينه ، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه . فبلغ ذلك ملكهم ، فركب فى موكب من الناس ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس . فقال السائح ماهذا ؟ قيل هذا الملك قد أظلك . فقال للغلام . ائتنى بطعام . فأتاه ببقل ، وزيت ، وقلوب الشجر . فجعل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا . فقال الملك . أين صاحبكم ؟ فقالوا هذا . قال كيف أنت ؟ قال كالناس . وفى حديث آخر بخير . فقال الملك ماعند هذا من خير . فانصرف عنه . فقال السائح الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى ذام . فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى ، يجتهدون لذلك فى مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ، يحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم . كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة ، فيجازيهم الله فى القيامة بإخلاصهم على ملأ من الخلق ، إذ علموا أن الله لايقبل فى القيامة إلا الخالص، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة ، وأنه يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ، ولا يجزى والد عن ولده ويشتغل الصديقون بأنفسهم ، فيقول كل واحد نفسى نفسى ، فضلا عن غيرهم . فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة ، فإنهم يستصحبون مع أنفسهم الذهب المغربى الخالص لعلمهم بأن أرباب البوادى لايروج عندهم الزائف والنبهرج ، والحاجة تشتد فى البادية ، ولا وطن يفزع إليه ، ولا حميم يتمسك به ، فلا ينجى إلا الخالص من النقد . فكذا يشاهد أرباب القلوب يوم القيامة ، والزاد الذى يتزودونه له من التقوى .

فإذاً شوائب الرياء الخفى كثيرة لا تنحصر ومهما أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان أو بهيمة ففيه شعبة من الرياء ، فإنه لماقطع طمعه عن البهائم ، لم يبال حضره البهائم أو الصبيان الرضع أم غابوا ، اطلعوا على حركته أم لم يطلعوا . فلو كان مخلصا قانعا بعلم الله، لاستحقر عقلاء العباد كما استحقر صبيانهم ومجانينهم ، وعلم أن العقلاء لايقدرون له على رزق ، ولا أجل ، ولا زيادة ثواب ونقصان عقاب . كما لايقدر عليه البهائم ، والصبيان ، والمجانين . فإذا لم يجد ذلك ففيه شوب خفى ، ولكن ليس كل شوب محبطا للأجر ، مفسدا للعمل ، بل فيه تفصيل

فإن قلت : فما نرى أحدا ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته ، فالسرور مذموم كله؟ أو بعضه محمود وبعضه مذموم ؟ فنقول أولا : كل سرور فليس بمذموم . بل السرور منقسم إلى محمود ، وإلى مذموم : فأما المحمود ، فأربعة أقسام.

الأول: أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق، علم أن الله أطلعهم ، وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به، ونظره إليه، وإلطافه به، فإنه يستر الطاعة والمعصية ثم الله يستر عليه المعصية ويظهر الطاعة. ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له، لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم. وقد قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا [١] ﴾ فكأنه ظهر له أنه عند الله مقبول ففرح به

الثاني : أن يستدل بإظهار الله الجميل ، وستره القبيح عليه في الدنيا ، أنه كذلك يفعل في الآخرة . إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَا سَتَرَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ » فيكون الأول فرحا بالقبول في الحال ، من غير ملاحظة المستقبل ، وهذا التفات إلى المستقبل .

الثالث : أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة ، فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخرا ، وأجر السر بما قصده أولا . ومن اقتدى به في طاعة فله مثل أجر أعمال المقتدين به ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء . وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور ، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ ، وموجب للسرور لامحالة .

الرابع : أن يحمده المطلعون على طاعته ، فيفرح بطاعتهم لله في مدحهم ، وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقته ويحسده ، أو يذمه ويهزأ به ، أو ينسبه إلى الرياء ولا يحمده عليه . فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله ، وعلامة الإخلاص في هذا النوع أن يكون فرحه بحمدهم غيره ، مثل فرحه بحمدهم إياه

وأما المذموم وهو الخامس : فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس ،

---

(١) حديث ماستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة: مسلم من حديث أبي هريرة

---

(١) يونس : ٥٨

حتى يمدحوه، ويعظموه، ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده، فهذا مكروه والله تعالى أعلم.

بيان

ما يحبط العمل من الرياء الخفي والجلي وما لا يحبط

فنقول فيه: إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء، فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل، أو قبل الفراغ. فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل. إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص، سالماً عن الرياء، فما يطرأ بعده فنرجو أن لا ينعطف عليه أثره، لاسيما إذا لم يتكلف هو إظهاره والتحدث به، ولم يتمن إظهاره وذكره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله، ولم يكن منه إلا مادخل من السرور والارتياح على قلبه. نعم: لو تم العمل على الإخلاص من غير عقد رياء، ولكن ظهرت له بعده رغبة في الإظهار، فتحدث به وأظهره، فهذا مخوف. وفي الآثار والأخبار: مايدل على أنه يحبط. فقد روى عن ابن مسعود أنه سمع رجلا يقول: قرأت البارحة البقرة، فقال ذلك حظه منها. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [1]، أنه قال لرجل قال له صمت الدهر يارسول الله فقال له « مَاصُمْتَ وَلاَ أَفْطَرْتَ » فقال بعضهم إنما قال ذلك لأنه أظهره، وقيل هو إشارة إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان فيحتمل أن يكون ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ابن مسعود، استدلالا على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد الرياء وقصده له، لما أن ظهر منه التحدث به. إذ يبعد أن يكون مايطرأ بعد العمل مبطلا لثواب العمل. بل الأقيس أن يقال إنه مثاب على عمله الذي مضى، ومعاقب على مراآته بطاعة الله بعد الفراغ منها. بخلاف مالو تغير عقده إلى الرياء

---

(١) حديث قال لرجل قال صمت الدهر ماصمت ولاأفطرت: مسلم من حديث أبي قتادة قال عمر يارسول الله كيف بمن يصوم الدهر قال لاصام ولاأفطر. وللطبراني من حديث أسماء بنت يزيد في أثناء حديث فيه فقال رجل اني صائم قال بعض القوم انه لايفطر انه يصوم كل يوم قال النبي صلى الله عليه وسلم لاصام ولاأفطر من صام الابد ولم أجده بلفظ الخطاب

قبل الفراغ من الصلاة ، فإن ذلك قد يبطل الصلاة ، ويحبط العمل . وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من الصلاة مثلا ، وكان قد عقد على الإخلاص ، ولكن ورد فى أثنائها وارد الرياء ، فلا يخلو إما أن يكون مجرد سرور لا يؤثر فى العمل ، وإما أن يكون رياء باعثا على العمل ، فإن كان باعثا على العمل وختم العبادة به، حبط أجره ومثاله أن يكون فى تطوع ، فتجددت له نظارة، أو حضر ملك من الملوك ، وهو يشتهى أن ينظر إليه ، أو يذكر شيئا نسيه من ماله ، وهو يريد أن يطلبه ، ولولا الناس لقطع الصلاة ، فاستتمها خوفا من مذمة الناس ، فقد حبط أجره . وعليه الإعادة إن كان فى فريضة . وقد قال صلى الله عليه وسلم[1] « الْعَمَلُ كَالْوِعَاءِ إِذَا طَابَ آخِرُهُ طَابَ أَوَّلُهُ » أى النظر إلى خاتمته . وروى أنه[2] « من راءى بعمله ساعة ، حبط عمله الذى كان قبله . وهذا منزل على الصلاة فى هذه الصورة لا على الصدقة ، ولا على القراءة . فإن كل جزء من ذلك مفرد ، فما يطرأ يفسد الباقى دون الماضى . والصوم والحج من قبيل الصلاة . وأما إذا كان وارد الرياء بحيث لا يمنعه من قصد الإتمام لأجل الثواب ، كما لو حضر جماعة فى أثناء الصلاة ، ففرح بحضورهم وعقد الرياء ، وقصد تحسين الصلاة لأجل نظرهم ، وكان لولا حضورهم لكان يتمها أيضا ، فهذا رياء قد أثر فى العمل ، وانتهض باعثا على الحركات . فإن غلب حتى انمحق معه الإحساس بقصد العبادة والثواب ، وصار قصد العبادة مغمورا ، فهذا أيضا ينبغى أن يفسد العبادة مهما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه . لأنا نكتفى بالنية السابقة عند الإحرام ، بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبها ويغمرها . ويحتمل أن يقال لا يفسد العبادة نظرا إلى حالة العقد ، وإلى بقاء قصد أصل الثواب وإن ضعف بهجوم قصد هو أغلب منه . ولقد ذهب الحارث المحاسبي رحمه الله تعالى إلى الإحباط فى أمر هو أهون من هذا ، وقال : إذا لم يرد إلا مجرد السرور باطلاع الناس ، يعنى سرورا هو كحب المنزلة والجاه ، قال قد اختلف الناس فى هذا ، فصارت فرقة إلى أنه محبط لأنه نقض العزم الأول ، وركن إلى حمد المخلوقين، ولم يختم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العمل بخاتمته

---

(١) حديث العمل كالوعاء اذا طاب آخره طاب أوله: ابن ماجه من حديث معاوية بن أبى سفيان بلفظ اذا طاب أسفله طاب أعلاه وقد تقدم

(٢) حديث من راءى بعمله ساعة حبط عمله الذى كان قبله: لم أجده بهذا اللفظ وللشيخين من حديث جندب من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به ورواه مسلم من حديث ابن عباس .

ثم قال : ولا أقطع عليه بالحبط وإن لم يتزيد فى العمل ، ولا آمن عليه . وقد كنت أقف فيه لاختلاف الناس ، والأغلب على قلبى أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء . ثم قال : فإن قيل قد قال الحسن رحمه الله تعالى إنهما حالتان ، فإذا كانت الأولى لله لم تضره الثانية ، وقد روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، يارسول الله [1] ، أسر العمل لاأحب أن يطلع عليه ، فيطلع عليه ، فيسرنى . قال « لَكَ أَجْرَانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ » ثم تكلم على الخبر والأثر فقال : أما الحسن فإنه أراد بقوله لايضره أى لايدع العمل ، ولا تضره الخطرة وهو يريد الله . ولم يقل إذا عقد الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره . وأما الحديث فتكلم عليه بكلام طويل ، يرجع حاصله إلى ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه يحتمل أنه أراد ظهور عمله بعد الفراغ ، وليس فى الحديث أنه قبل الفراغ

الثانى : أنه أراد أن يسر به للاقتداء به أو لسرور آخر محمود مما ذكرناه قبل ، لاسرورا بسبب حب المحمدة والمنزلة ، بدليل أنه جعل له به أجرا ، ولا ذاهب من الأمة إلى أن للسرور بالمحمدة أجرا ، وغايته أن يعفى عنه ، فكيف يكون للمخلص أجر وللمرائى أجران !!

والثالث . أنه قال أكثر من يروى الحديث يرويه غير متصل إلى أبى هريرة ، بل أكثرهم يوقفه على أبى صالح . ومنهم من يرفعه . فالحكم بالعمومات الواردة فى الرياء أولى .

هذا ماذكره ، ولم يقطع به ، بل أظهر ميلا إلى الإحباط . والأقيس عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره فى العمل ، بل بقى العمل صادرا عن باعث الدين ، وإنما انضاف إليه السرور بالاطلاع ، فلا يفسد العمل ، لأنه لم ينعدم به أصل نيته ، وبقيت تلك النية باعثة على العمل ، وحاملة على الإتمام . وأما الأخبار التى وردت فى الرياء فهى محمولة على ما إذا لم يرد به إلا الخلق . وأما ماورد فى الشركة فهو محمول على ما إذا كان قصد الرياء مساويا لقصد الثواب ، أو أغلب منه . أما إذا كان ضعيفا بالإضافة إليه ، فلا يحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال . ولا ينبغى أن يفسد الصلاة . ولا يبعد أيضا أن يقال إن الذى أوجب عليه صلاة خالصة لوجه الله ، والخالص مالا يشوبه شىء ، فلا يكون مؤديا للواجب

---

(1) حديث ان رجلا قال أسر العمل لاأحب أن يطلع عليه فيطلع عليه فيسرنى فقال لك أجران ـ الحديث: البيهقى فى شعب الايمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود ورواه الترمذى وابن حبان من رواية ذكوان عن أبى هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فاذا اطلع عليه أعجبه قال له أجر السر والعلانية

مع هذا الشوب والعلم عند الله فيه . وقد ذكرنا فى كتاب الإخلاص كلاما أوفى مما أوردناه الآن ، فليرجع إليه ، فهذ حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة ، إما قبل الفراغ أو بعد الفراغ

القسم الثالث : الذى يقارن حال العقد ، بأن يبتدىء الصلاة على قصد الرياء. فإن استمر عليه حتى سلم ، فلا خلاف فى أنه يقضى ، ولا يعتد بصلاته . وإن ندم عليه فى أثناء ذلك ، واستغفر ورجع قبل التمام ، ففيما يلزمه ثلاثة أوجه . قالت فرقة لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء فليستأنف . وقالت فرقة تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود ، وتفسد أفعاله دون تحريمة الصلاة ، لأن التحريم عقد ، والرياء خاطر فى قلبه لايخرج التحريم عن كونه عقدا . وقالت فرقة لا يلزمه إعادة شىء ، بل يستغفر الله بقلبه ، ويتم العبادة على الإخلاص والنظر إلى خاتمة العبادة ، كما لو ابتدأ بالإخلاص وختم بالرياء لكان يفسد عمله . وشبهوا ذلك بثوب أبيض لطخ بنجاسة عارضة ، فإذا أزيل العارض عاد إلى الأصل. فقالوا إن الصلاة والركوع والسجود لاتكون إلا لله . ولو سجد لغير الله لكان كافرا . ولكن اقترن به عارض الرياء ، ثم زال بالندم والتوبة ، وصار إلى حالة لا يبالى بحمد الناس وذمهم، فتصح صلاته

ومذهب الفريقين الآخرين خارج عن قياس الفقه جدا ، خصوصا من قال يلزمه إعادة الركوع والسجود ، دون الافتتاح ، لأن الركوع والسجود إن لم يصح صارت أفعالا زائدة فى الصلاة ، فتفسد الصلاة . وكذلك قول من يقول لو ختم بالإخلاص صح نظرا إلى الآخر فهو أيضا ضعيف ، لأن الرياء يقدح فى النية ، وأولى الأوقات بمراعاة أحكام النية حالة الافتتاح

فالذى يستقيم على قياس الفقه هو أن يقال . إن كان باعثه مجرد الرياء فى ابتداء العقد دون طلب الثواب وامتثال الأمر ، لم ينعقد افتتاحه ، ولم يصح مابعده . وذلك فيمن إذا خلا بنفسه لم يصل ، ولما رأى الناس تحرم بالصلاة، وكان بحيث لو كان ثوبه نجسا أيضا كان يصلى لأجل الناس، فهذه صلاة لا نية فيها، إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدين ، وههنا لا باعث ولا إجابة

فأما إذا كان بحيث لولا الناس أيضا لكان يصلى ، إلا أنه ظهر له الرغبة فى المحمدة أيضا فاجتمع الباعثان ، فهذا إما أن يكون فى صدقة وقراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم ، أو فى عقد صلاة وحج . فإن كان فى صدقة ، فقد عصى بإجابة باعث الرياء ، وأطاع بإجابة باعث الثواب

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [1]) فله ثواب بقدر قصده الصحيح ، وعقاب بقدر قصده الفاسد ، ولا يحبط أحدهما الآخر

وإن كان فى صلاة تقبل الفساد بتطرق خلل إلى النية ، فلا يخلو إما أن تكون فرضا أو نفلا . فإن كانت نفلا فحكمها أيضا حكم الصدقة . فقد عصى من وجه ، وأطاع من وجه إذ اجتمع فى قلبه الباعثان . ولا يمكن أن يقال صلاته فاسدة ، والاقتداء به باطل . حتى أن من صلى التراويح ، وتبين من قرائن حاله أن قصده الرياء ، بإظهار حسن القراءة ، ولولا اجتماع الناس خلفه ، وخلا فى بيت وحده لما صلى ؛ لا يصح الاقتداء به . فإن المصير إلى هذا بعيد جدا . بل يظن بالمسلم أنه يقصد الثواب أيضا بتطوعه ، فتصح باعتبار ذلك القصد صلاته ، ويصح الاقتداء به ، وإن اقترن به قصد آخر وهو به عاص.

فأما إذا كان فى فرض واجتمع الباعثان ، وكان كل واحد لا يستقل ، وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما ، فهذا لا يسقط الواجب عنه . لأن الإيجاب لم ينتهض باعثا فى حقه بمجرده واستقلاله . وإن كان كل باعث مستقلا ، حتى لو لم يكن باعث الرياء لأدى الفرائض ولو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاة تطوعا لأجل الرياء ، فهذا محل النظر ، وهو محتمل جدا فيحتمل أن يقال إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ، ولم يؤد الواجب الخالص . ويحتمل أن يقال الواجب امتثال الأمر بباعث مستقل بنفسه وقد وجد ، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه . كما لو صلى فى دار مغصوبة ؛ فإنه وإن كان عاصيا بإيقاع الصلاة فى الدار المغصوبة ، فإنه مطيع بأصل الصلاة ومسقط للفرض عن نفسه . وتعارض الاحتمال فى تعارض البواعث فى أصل الصلاة

أما إذا كان الرياء فى المبادرة مثلا دون أصل الصلاة ، مثل من بادر إلى الصلاة فى أول الوقت لحضور جماعة ؛ ولو خلا لأخر إلى وسط الوقت ، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء ، فهذا مما يقطع بصحة صلاته ، وسقوط الفرض به ، لأن باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضه غيره . بل من حيث تعيين الوقت ، فهذا أبعد عن القدح فى النية

هذا فى رياء يكون باعثا على العمل ، وحاملا عليه . وأما مجرد السرور باطلاع الناس

---

(1) الزلزلة : ٧ ، ٨

عليه ، إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر فى العمل ، فبعيد أن يفسد الصلاة

فهذا ما نراه لائقا ، بقانون الفقه . والمسألة غامضة من حيث إن الفقهاء لم يتعرضوا لها فى فن الفقه . والذين خاضوا فيها وتصرفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ، ومقتضى فتاوى الفقهاء فى صحة الصلاة وفسادها ، بل حملهم الحرص على تصفية القلوب وطلب الإخلاص على إفساد العبادات ، بأن الخواطر وما ذكرناه هو الأقصد فيما نراه ، والعلم عند الله عز وجل فيه ، وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو الرحمن الرحيم

بيان

دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات . وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته ، ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا فى شرب الأدوية المرة البشعة . وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم . إذ الصبي يخلق ضعيف العقل والتميز ممتد العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم فيرى الناس يتصنع بعضهم لبعض ، فيغلب عليه حب التصنع بالضرورة ، ويرسخ ذلك فى نفسه وإنما يشعر بكونه مهلكا بعد كمال عقله ، وقد انغرس الرياء فى قلبه وترسخ فيه ، فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ، ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ولكنها تشق أولا وتخف آخرا . وفى علاجه مقامان : أحدهما قلع عروقه وأصوله التى منها انشعابه ، والثانى : دفع ما يخطر منه فى الحال

المقام الأول : فى قلع عروقه واستئصال أصوله . وأصله حب المنزلة والجاه . وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول . وهى لذة المحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما فى أيدى الناس ويشهد للرياء بهذه الأسباب ، وأنها الباعثة للمرائى ، ما روى أبو موسى أن أعرابيا سأل النبي صلى الله عليه وسلم [1] فقال . يارسول الله : الرجل يقاتل حمية . ومعناه أنه يأنف أن يقهر ، أو يذم بأنه مقهور مغلوب . وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانه . وهذا هو طلب لذة الجاه

(١) حديث أبى موسى أن أعرابيا قال يارسول الله الرجل يقاتل حمية ـ الحديث : متفق عليه

والقدر فى القلوب . والرجل يقاتل للذكر . وهذا هو الحمد باللسان. فقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال ابن مسعود . إذا التقى الصفان نزلت الملائكة ، فكتبوا الناس على مراتبهم . فلان يقاتل للذكر. وفلان يقاتل للملك والقتال للملك إشارة إلى الطمع فى الدنيا . وقال عمر رضى الله عنه . يقولون فلان شهيد ، ولعله يكون قد ملأ دفتى راحلته ورقا . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ غَزَا لاَ يَبْغِي إلاَّ عِقَالاً فَلَهُ مَانَوَى » فهذا إشارة إلى الطمع . وقد لا يشتهى الحمد ولا يطمع فيه ، ولكن يحذر من ألم الذم ، كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير ، فإنه يتصدق بالقليل كى لا يبخل . وهو ليس يطمع فى الحمد وقد سبقه غيره . وكالجبان بين الشجعان ، لا يفر من الزحف خوفا من الذم ، وهو لا يطمع فى الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم . وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل ، فيصلى ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل ، وهو لا يطمع فى الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ، ولا يقدر على الصبر على ألم الذم . ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه ، خيفة من أن يذم بالجهل . ويفتى بغير علم ، ويدعى العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذرا من الذم

فهذه الأمور الثلاثة هى التى تحرك المرائى إلى الرياء . وعلاجه ماذكرناه فى الشطر الأول من الكتاب على الجملة . ولكنا نذكر الآن مايخص الرياء . وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ، إما فى الحال، وإما فى المآل . فإن علم أنه لذيذ فى الحال ، ولكنه ضار فى المآل. سهل عليه قطع الرغبة عنه . كمن يعلم أن العسل لذيذ ، ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه . فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم مافيه من المضرة

ومهما عرف العبد مضرة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه فى الحال من التوفيق ، وفى الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من العقاب العظيم ، والمقت الشديد ، والخزى الظاهر ، حيث ينادى على رءوس الخلائق يافاجر ، ياغادر ، يامرائى ، أما استحييت إذ اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا ، وراقبت قلوب العباد ، واستهزأت بطاعة الله

---

(١) حديث من غزا لا يبغى الا عقالا فله مانوى: النسائى وقد تقدم

وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله ، وتزينت لهم بالشين عند الله ، وتقربت إليهم بالبعد من الله ، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله ، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله . أما كان أحد أهون عليك من الله ؟ فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى ، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم فى الدنيا ، بما يفوته فى الآخرة ، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال ، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص ، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ، ويهوى إلى النار . فلو لم يكن فى الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيا فى معرفة ضرره . وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة ، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله فى زمرة النبيين والصديقين ، وقد حط عنهم بسبب الرياء ، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء ، هذا مع ما يتعرض له فى الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق . فإن رضا الناس غاية لا تدرك . فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق . ورضا بعضهم فى سخط بعضهم . ومن طلب رضاهم فى سخط الله سخط الله عليه ، وأسخطهم أيضا عليه . ثم أى غرض له فى مدحهم ، وإيثار ذم الله لأجل حمدهم ، ولا يزيده حمدهم رزقا ولا أجلا ، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة

وأما الطمع فيما فى أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء ، وأن الخلق مضطرون فيه ، ولا رازق إلا الله . ومن طمع فى الخلق لم يخل من الذل والخيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة . فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ، ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطىء ؟ وإذا أصاب فلا تفى لذته بألم منته ومذلته

وأما ذمهم فلم يحذر منه ، ولا يزيده ذمهم شيئا ما لم يكتبه عليه الله ، ولا يعجل أجله ، ولا يؤخر رزقه ، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودا عند الله ، ولا يزيده مقتا إن كان ممقوتا عند الله ؟ فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا . فإذا قرر فى قلبه آفة هذه الأسباب وضررها ، فترت رغبته ، وأقبل على الله قلبه ، فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه ، ويكفيه أن الناس لو علموا ما فى باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص ، لمقتوه . وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ، ويعرفهم أنه مراء وممقوت عند الله .

ولو أخلص لله لكشف الله لهم إخلاصه ، وحببه إليهم ، وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه ، مع أنه لا كمال فى مدحهم . ولا نقصان فى ذمهم ، كما قال شاعر من تميم[1] إن مدحى زين ، وإن ذمى شين . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « كَذَبْتَ ذَاكَ اللهُ الَّذى لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ » إذ لا زين إلا فى مدحه ، ولا شين إلا فى ذمه . فأى خير لك فى مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار ؟ وأى شر لك من ذم الناس ، وأنت عند الله محمود فى زمرة المقربين

فمن أحضر فى قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد ، والمنازل الرفيعة عند الله ، استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة ، مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه ، وانصرف إلى الله قلبه ، وتخلص من مذلة الرياء ، ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ، ينشرح بها صدره ، وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ، ووحشته من الخلق ، واستحقاره للدنيا ، واستعظامه للآخرة ، وسقط محل الخلق من قلبه ، وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص

فهذا وما قدمناه فى الشطر الأول ، هى الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء

وأما الدواء العملى . فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات ، وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله ، واطلاعه على عباداته ، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . وقد روى أن بعض أصحاب أبى حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها ، فقال أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه ، لا تجالسنا بعد هذا . فلم يرخص فى إظهار هذا القدر ، لأن فى ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها . فلا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق فى بداية المجاهدة . وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله ، وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله ، وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد . ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فمن العبد المجاهدة ، ومن الله الهداية . ومن العبد قرع الباب ، ومن الله فتح الباب . والله لا يضيع أجر المحسنين ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما

---

(١) حديث قال شاعر من بنى تميم إن مدحى زين إن ذمى شين فقال كذبت ذاك الله : حم من حديث الأقرع ابن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات الا أنى لا أعرف لابى سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الاقرع ورواه الترمذى من حديث البراء وحسنه بلفظ فقال رجل ان حمدى

المقام الثانى : فى دفع العارض منه فى أثناء العبادة . وذلك لابد من تعلمه أيضا . فإن من جاهد نفسه ، وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة ، وقطع الطمع ، وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين ، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم ، فالشيطان لا يتركه فى أثناء العبادات ، بل يعارضه بخطرات الرياء . ولا تنقطع عنه نزغاته · وهوى النفس وميلها إلا ينمحى بالكلية . فلا بد وأن يتشمر لدفع مايعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة . قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد ، وقد تترادف على التدريج

فالأول : العلم باطلاع الخلق ، ورجاء اطلاعهم · ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس فى حمدهم وحصول المنزلة عندهم · ثم يتلوه هيجان الرغبة فى قبول النفس له ، والركون إليه ، وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول معرفة . والثانى حالة تسمى الشهوة والرغبة . والثالث فعل يسمى العزم وتصميم العقد . وإنما كمال القوة فى دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثانى فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق ، أو رجاء اطلاعهم ، دفع ذلك بأن قال مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا ، والله عالم بحالك ؟ فأى فائدة فى علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ، يذكر ما رسخ فى قلبه من قبل من آفة الرياء ، وتعرضه للمقت عند الله فى القيامة ، وخيبته فى أحوج أوقاته إلى أعماله · فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة فى الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة . إذ يتفكر فى تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوه إلى الإباء والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما

فإذاً لابد فى رد الرياء من ثلاثة أمور . المعرفة ، والكراهة ، والإباء . وقد يشرع العبد فى العبادة على عزم الإخلاص ، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ، ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التى كان الضمير منطويا عليها . وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد ، واستيلاء الحرص عليه ، بحيث لا يبقى فى القلب متسع لغيره ، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء ، وشؤم عاقبته ، إذ لم يبق موضع فى القلب خال عن شهوة الحمد أو خوف الذم . وهو كالذى يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب ، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ، ثم يجرى من الأسباب مايشتد به غضبه ، فينسى سابقة عزمه ، ويمتلىء قلبه غيظا يمنع من تذكر آفة الغضب ، ويشغل قلبه عنه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب ،

وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب . وإليه أشار جابر بقوله . [1] بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت ، فأنسيناها يوم حنين حتى نودى ياأصحاب الشجرة ، فرجعوا . وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف ، فنسيت العهد السابق ،حتى ذكروا ، وأكثر الشهوات التى تهجم فجأة هكذا تكون ، إذ تنسى معرفة مضرته الداخلة فى عقد الإيمان ومهما نسى المعرفة لم تظهر الكراهة. فإن الكراهة ثمرة المعرفة

وقد يتذكر الإنسان ، فيعلم أن الخاطر الذى خطر له هو خاطر الرياء الذى يعرضه لسخط الله ، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته ، فيغلب هواه عقله ، ولا يقدر على ترك لذة الحال فيسوف بالتوبة ، أو يتشاغل عن التفكر فى ذلك لشدة الشهوة ، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق ، وهو يعلم ذلك ولكنه يستمر عليه ، فتكون الحجة عليه أوكد ، إذ قبل داعى الرياء مع علمه بغائلته ،وكونه مذموما عند الله . ولا تنفعه معرفته ، إذا خلت المعرفة عن الكراهة . وقد تحضر المعرفة والكراهة ، ولكن مع ذلك يقبل داعى الرياء ويعمل به ، لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة : وهذا أيضا لا ينتفع بكراهته ، إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل

فإذاً لا فائدة إلا فى اجتماع الثلاث ، وهى المعرفة ، والكراهة والإباء . فالإباء ثمرة الكراهة ، والكراهة ثمرة المعرفة ، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم ، وضعف المعرفة بحسب الغفلة ، وحب الدنيا ، ونسيان الآخرة ، وقلة التفكر فيما عند الله ، وقلة التأمل فى آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة . وبعض ذلك ينتج بعضا ويثمره ، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات ، فهو رأس كل خطيئة ، ومنبع كل ذنب ، لأن حلاوة حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا ، هى التى تغضب القلب وتسلبه ، وتحول بينه وبين التفكر فى العاقبة ، والاستضاءة بنور الكتاب ، والسنة ، وأنوار العلوم . فإن قلت :فمن صادف من نفسه كراهة الرياء ، وحملته الكراهة على الإباء ، ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه ، وحبه له ، ومنازعته إياه ، إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه ، وغير مجيب إليه فهل يكون فى زمرة المرائين؟

---

(١) حديث جابر بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة على أن لا نفر ـ الحديث : مسلم مختصرا دون ذكر يوم حنين فرواه مسلم من حديث العباس .

فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق ، وليس فى طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ، ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزع إليها . و إنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين ، وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر . فإذا فعل ذلك فهو الغاية فى أداء ما كلف به . ويدل على ذلك من الأخبار ماروى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] شكوا إليه وقالوا . تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير ، أو تهوى بنا الريح فى مكان سحيق ، أحب إلينا من أن نتكلم بها . فقال عليه السلام « أَوَ قَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قالوا نعم قال « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له . ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة . والرياء وإن كان عظيما فهو دون الوسوسة فى حق الله تعالى . فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة ، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى

وكذلك يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن عباس أنه قال [2] « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى رَدَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ إِلَى الْوَسْوَسَةِ » وقال أبو حازم : ما كان من نفسك ، وكرهته نفسك لنفسك ، فلا يضرك ماهو من عدوك . وما كان من نفسك ، فرضيته نفسك لنفسك ، فعاتبها عليه . فإذاً وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك ، مهما رددت مرادهما بالإباء والكراهة . والخواطر التى هى العلوم ، والتذكرات ، والتخيلات للأسباب المهيجة للرياء ، هى من الشيطان . والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس . والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل . إلا أن للشيطان ههنا مكيدة ، وهى أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء ، خيل إليه أن صلاح قلبه فى الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته فى الرد والجدال ، حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب . لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله ، فيوجب ذلك نقصانا فى منزلته عند الله

---

(١) حديث شكوى الصحابة مايعرض فى قلوبهم وقوله ذلك صريح الايمان : مسلم من حديث ابن مسعود مختصرا سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال ذلك محض الايمان والنسائى فى اليوم والليلة وابن حبان فى صحيحه ورواه النسائى فيه من حديث عائشة

(٢) حديث ابن عباس الحمد لله الذى رد كيد الشيطان الى الوسوسة : أبو داود والنسائى فى اليوم والليلة بلفظ كيده

والمتخلصون عن الرياء فى دفع خواطر الرياء على أربع مراتب

الأولى : أن يرده على الشيطان فيكذبه ، ولا يقتصر عليه ، بل يشتغل بمجادلته ، ويطيل الجدال معه ، لظنه أن ذلك أسلم لقلبه . وهو على التحقيق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله ، وعن الخير الذى هو بصدده ، وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان فى السلوك

الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان فى السلوك ، فيقتصر على تكذيبه ودفعه ، ولا يشتغل بمجادلته

الثالثة : أن لا يشتغل بتكذيبه أيضا ، لأن ذلك وقفة . وإن قلت بل يكون قد قرر فى عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان ، فيستمر على ما كان عليه مستصحبا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء ، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص ، والاشتغال بالله ، وإخفاء الصدقة والعبادة ، غيظا للشيطان . وذلك هو الذى يغيظ الشيطان ويقمعه ، ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع . يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلانا يذكرك . فقال والله لأغيظن من أمره . قيل ومن أمره ؟ قال الشيطان . اللهم اغفر له . أى لأغيظنه بأن أطيع الله فيه . ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة ، كف عنه خيفة من أن يزيد فى حسناته

وقال إبراهيم التيمى : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم ، فلا يطعه ، وليحدث عند ذلك خيرا . فإذا رآه كذلك تركه . وقال أيضا : إذا رآك الشيطان مترددا طمع فيك وإذا رآك مداوما ملك وقلاك . وضرب الحارث المحاسبي رحمه الله لهذه الأربعة مثالا أحسن فيه فقال : مثالهم كأربعة قصدوا مجلسا من العلم والحديث ، لينالوا به فائدة وفضلا وهداية ورشدا . فحسدهم على ذلك ضال مبتدع ، وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد منهم وصرفه عن ذلك ، ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى . فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة ، فاشتغل معه ليرد ضلاله ، وهو يظن أن ذلك مصلحة له ، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر

تأخره . فلما مر الثانى عليه نهاه واستوقفه فوقف، فدفع فى نحر الضال ، ولم يشتغل بالقتال واستعجل ، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه . ومر به الثالث ، فلم يلتفت إليه ، ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله ، بل استمر على ما كان ، فخاب منه رجاؤه بالكلية . فمر الرابع ، فلم يتوقف له ؛ وأراد أن يغيظه فزاد فى عجلته، وترك التأنى فى المشى . فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير، فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله

فإن قلت : فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته، فهل يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه إنتظاراً لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟

قلنا : اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه : فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان، لأنهم انقطعوا إلى الله ، واشتغلوا بحبه، فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم ، وخنس عنهم ، كما أيس من ضعفاء العباد فى الدعوة إلى الخمر والزنا ، فصارت ملاذ الدنيا عندهم ، وإن كانت مباحة ، كالخمر والخنزير ، فارتحلوا من حبها بالكلية ، فلم يبق للشيطان إليهم سبيل ، فلا حاجة بهم إلى الحذر . وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قل يقينه ، ونقص توكله . فمن أيقن بأن لا شريك لله فى تدبيره فلا يحذر غيره . ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ، ولا يكون إلا ما أراده الله ، فهو الضار والنافع ، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره . فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر

وقالت فرقة من أهل العلم لابد من الحذر من الشيطان . وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر، وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية ، فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غروراً . إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان و نزغاته فكيف يتخلص غيرهم ! وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا . بل فى صفات الله تعالى وأسمائه، وفى تحسين البدع والضلال وغير ذلك . ولا ينجو أحد من الخطر فيه . ولذلك قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ [1]) وقال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) الحج : ٥٢

[1] « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي » [2] مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير. فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور . ولم يؤمنهم ذلك من كيد الشيطان . ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء فى الجنة التى هى دار الأمن والسرور، بعد أن قال الله لهما (إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى [1]) ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة، وأطلق له وراء ذلك ما أراد . فإذا لم يأمن نبى من الأنبياء وهو فى الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان ، فكيف يجوز لغيره أن يأمن فى دار الدنيا ، وهى منبع المحن والفتن ، ومعدن الملاذ والشهوات المنهى عنها ! وقال موسى عليه السلام ، فيما أخبر عنه تعالى (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ [2]) ولذلك حذر الله منه جميع الخلق فقال تعالى (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ [3]) وقال عز وجل (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ [4]) والقرءان من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان. فكيف يدعى الأمن منه ؟ . وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافى الاشتغال بحب الله. فإن من الحب له إمتثال أمره . وقد أمر بالحذر من العدو ، كما أمر بالحذر من الكفار. فقال تعالى (وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ [5]) وقال تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ [6]) فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى . ولذلك قال ابن محيريز : صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك . فأشار إلى الشيطان فكيف وليس فى الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة؛ وفى إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم ؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله. وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية فى ظنهم أن ذلك قادح فى التوكل . فإن أخذ الترس والسلاح ، وجمع الجنود ، وحفر الخندق ، لم يقدح فى توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكيف يقدح

---

(١) حديث انه ليغان على قلبى : تقدم

(٢) حديث ان شيطانه أسلم فلا يأمر الا بخير : تقدم أيضا .

---

[1] طه : ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ . [2] القصص ١٥ (٣ و ٤) الأعراف : ٢٧ [5] النساء : ١٠٢ [6] الانفال : ٦٠

فى التوكل الخوف مما خوف الله به ، والحذر مما أمر بالحذر منه ! . وقد ذكرنا فى كتاب التوكل مايبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية . وقوله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ [1]) لايناقض امتثال التوكل ، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع ، والمحيى ، والمميت هو الله تعالى . فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادى والمضل هو الله ، ويرى الأسباب وسائط مسخرة كما ذكرناه فى التوكل وهذا مااختاره الحارث المحاسبى رحمه الله ، وهو الصحيح الذى يشهد له نور العلم . وما قبله يشبه أن يكون من كلام العبّاد الذين لم يغزر علمهم ، ويظنون أن مايهجم عليهم من الأحوال فى بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام ، وهو بعيد .

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه فى كيفية الحذر . فقال قوم : إذا حذرنا الله تعالى العدوّ ، فلا ينبغى أن يكون شىء أغلب على قلوبنا من ذكره ، والحذر منه ، والترصد له فإنا إن غفلنا عنه لحظة ، فيوشك أن يهلكنا . وقال قوم : إن ذلك يؤدى إلى خلو القلب عن ذكر الله ، واشتغال الهم كله بالشيطان ، وذلك مراد الشيطان منا ، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ، ولا ننسى الشيطان وعداوته ، والحاجة إلى الحذر منه . فنجمع بين الأمرين فإنا إن نسيناه ربما عارض من حيث لا نحتسب ، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله . فالجمع أولى

وقال العلماء المحققون : غلط الفريقان . أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله ، فلا يخفى غلطه . وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر ، فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا ، وهو منتهى ضرر العدو ؟ ثم يؤدى ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى . فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب ، وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به ، فيوشك أن يظفر به ، ولا يقوى على دفعه . فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ، ولا بإدمان ذكره

وأما الفرقة الثانية : فقد شاركت الأولى ، إذ جمعت فى القلب بين ذكر الله والشيطان وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله . وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه ، إبليس وغيره . فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ، ويقرر على نفسه عداوته ، فإذا اعتقد ذلك وصدق به ، وسكن الحذر فيه ، فيشتغل بذكر الله ، ويكب

(1) الأنفال : ٦٠

عليه بكل الهمة ، ولا يخطر بباله أمر الشيطان . فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له : وعند التنبه يشتغل بدفعه . والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغة الشيطان . بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح ، فيلزم نفسه الحذر ، وينام على أن يتنبه فى ذلك الوقت ، فيتنبه فى الليل مرات قبل أوانه ، لما أسكن فى قلبه من الحذر . مع أنه بالنوم غافل عنه . فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه ! ومثل هذا القلب هو الذى يقوى على دفع العدو ، إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى ، وأحيا فيه نور العقل والعلم ، وأماط عنه ظلمة الشهوات

فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده ، وألزموها الحذر ، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ، ودفعوا بالذكر شر العدو ، واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو . فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافى. فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر . والذى جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ، ولكنه تركه جاريا إليها من جانب آخر ، فيطول تعبه ، ولا تجف البئر من الماء القذر . والبصير هو الذى جعل لمجرى الماء القذر سدا ، وملأها بالماء الصافى فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ، ومؤنة ، وزيادة تعب

بيان

الرخصة فى قصد إظهار الطاعات

اعلم أن فى الإسرار للأعمال فائدة الإخلاص ، والنجاة من الرياء . وفى الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس فى الخير . ولكن فيه آفة الرياء . قال الحسن : قد علم المسلمون أن السر أحرز العملين . ولكن فى الإظهار أيضا فائدة . ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية فقال (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ[1])

والإظهار قسمان . أحدهما فى نفس العمل ، والآخر بالتحدث بما عمل

القسم الأول : إظهار نفس العمل ، كالصدقة فى الملأ لترغيب الناس فيها . كما روى عن الأنصارى

---

(١) البقرة : ٢٧١

الذى جاء بالصرة ، فتتابع الناس بالعطية لما رأوه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعمِلَ بِهاَ كاَنَ لَهُ أَجْرُهاَ وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ » (١) ويجرى سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة ، والصيام ، والحج ، والغزو وغيرها ، ولكن الاقتداء فى الصدقة على الطباع أغلب . نعم الغازى إذا هم بالخروج ، فاستعد وشد الرحل قبل القوم ، تحريضا لهم على الحركة ، فذلك أفضل له . لأن الغزو فى أصله من أعمال العلانية لا يمكن إسراره . فالمبادرة إليه ليست من الإعلان ، بل هو تحريض مجرد . وكذلك الرجل قد يرفع صوته فى الصلاة بالليل ، لينبه جيرانه وأهله ، فيقتدى به . فكل عمل لا يمكن إسراره كالحج والجهاد والجمعة ، فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض بشرط أن لا يكون فيه شوائب الرياء

وأما ما يمكن إسراره كالصدقة والصلاة ، فإن كان إظهار الصدقة يؤذى المتصدق عليه ، ويرغب الناس فى الصدقة ، فالسر أفضل . لأن الإيذاء حرام . فإن لم يكن فيه إيذاء ، فقد اختلف الناس فى الأفضل . فقال قوم السر أفضل من العلانية ، وإن كان فى العلانية قدوة وقال قوم السر أفضل من علانية لا قدوة فيها . أما العلانية للقدوة فأفضل من السر . ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء ، وخصهم بمنصب النبوة ولا يجوز أن يظن بهم أنهم حرموا أفضل العملين ، ويدل عليه قوله عليه السلام « لَهُ أَجْرُهاَ وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهاَ » وقد روى فى الحديث (٢) أن عمل السر يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفا . ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السر سبعين ضعفا . وهذا لا وجه للخلاف فيه ، فإنه مهما انفك القلب عن شوائب الرياء ، وتم الإخلاص على وجه

---

(١) حديث من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه : وفى أول قصة مسلم من حديث جرير بن عبد الله البجلى

(٢) حديث ان عمل السر يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفا ويضاعف عمل العلانية اذا استن به على عمل السر سبعين ضعفا : البيهقى فى الشعب من حديث أبى الدرداء مقتصرا على الشطر الأول بنحوه وقال هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين وقد تقدم قبل هذا بنحو ورقتين وله من حديث ابن عمر عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء وقال تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة يفضل أو يضاعف الذكر الخفى الذى لا يسمعه الحفظة على الذى تسمعه بسبعين ضعفا وقال تفرد به معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف

واحد فى الحالتين ، فما يقتدى به أفضل لا محالة . وإنما يخاف من ظهور الرياء ؛ ومهما حصلت شائبة الرياء ، لم ينفعه اقتداء غيره ، وهلك به ، فلا خلاف فى أن السر أفضل منه ولكن على من يظهر العمل وظيفتان

إحداهما : أن يظهره حيث يعلم أنه يقتدى به ، أو يظن ذلك ظنا . ورب رجل يقتدى به أهله دون جيرانه . وربما يقتدى به جيرانه دون أهل السوق . وربما يقتدى به أهل محلته . وإنما العالم المعروف هو الذى يقتدى به الناس كافة . فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نسب إلى الرياء والنفاق ، وذموه ولم يقتدوا به . فليس له الإظهار من غير فائدة . وإنما يصح الإظهار بنية القدوة ، ممن هو فى محل القدوة على من هو فى محل الاقتداء به

والثانية : أن يراقب قلبه . فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفى ، فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء ، وإنما شهوته التجمل بالعمل ، وبكونه يقتدى به . وهذا حال كل من يظهر أعماله ، إلا الأقوياء المخلصين ، وقليل ماهم . فلا ينبغى أن يخدع الضعيف نفسه بذلك فيهلك وهو لا يشعر . فإن الضعيف مثاله مثال الغريق الذى يحسن سباحة ضعيفة ، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم ، فأقبل عليهم حتى تشبثوا به ، فهلكوا وهلك . والغرق بالماء فى الدنيا ألمه ساعة . وليت كان الهلاك بالرياء مثله . لا بل عذابه دائم مدة مديدة . وهذه مزلة أقدام العبّاد والعلماء فإنهم يتشبهون بالأقوياء فى الإظهار ، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص ، فتحبط أجورهم بالرياء . والتفطن لذلك غامض . ومحك ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو قيل له أخف العمل حتى يقتدى الناس بعابد آخر من أقرانك ، ويكون لك فى السر مثل أجر الإعلام . فإن مال قلبه إلى أن يكون هو المقتدى به ، وهو المظهر للعمل ، فباعثه الرياء دون طلب الأجر ، واقتداء الناس به ، ورغبتهم فى الخير . فإنهم قد رغبوا فى الخير بالنظر إلى غيره وأجره قد توفر عليه مع إسراره ، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار ، لولا ملاحظته لأعين الخلق ومراآتهم . فليحذر العبد خدع النفس فإن النفس خدوع ، والشيطان مترصد ، وحب الجاه على القلب غالب . وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الآفات ، فلا ينبغى أن يعدل بالسلامة شيئا . والسلامة فى الإخفاء وفى الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا . فالحذر من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء

القسم الثانى : أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ . وحكمه حكم إظهار العمل نفسه . والخطر فى هذا أشـد ، لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان ، وقد تجرى فى الحكاية زيادة ومبالغة وللنفس لذة فى إظهار الدعاوى عظيمة ، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء ، لم يؤثر فى إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها . فهو من هـذا الوجه أهون . والحكم فيه أن من قوى قلبه ، وتم إخلاصه ، وصغر الناس فى عينه ، واستوى عنده مدحهم وذمهم ، وذكر ذلك عنـد من يرجو الاقتداء به ، والرغبة فى الخير بسببه ، فهو جائز . بل هو مندوب إليه إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات . لأنه ترغيب فى الخير ، والترغيب فى الخير خير

وقد نقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء . قال سعد بن معاذ . ماصليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها ، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسى بغير ماهى قائلة وما هو مقول لها ، وما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول قولا قط إلا علمت أنه حق

وقال عمر رضى الله عنه : ما أبالى أصبحت على عسر أو يسر ، لأنى لا أدرى أيهما خير لى وقال ابن مسعود : ماأصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها . وقال عثمان رضي الله عنه ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست ذكرى بيمينى منـذ بايعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم [1] . وقال شداد بن أوس : ما تـكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمها وأخطمها غير هذه . وكان قد قال لغلامه : ائتنا بالسفرة لنبعث بها حتى ندرك الغداء . وقال أبو سفيان لأهله حين حضره الموت : لا تبكوا على ، فإنى ما أحدثت ذنبا منذ أسلمت . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ماقضى الله فيّ بقضاء قط فسرني أن يكون قضى لى بغيره . وما أصبح لى هوى إلا فى مواقع قدر الله

فهذا كله إظهار لأحوال شريفة ، وفيها غاية المراآة إذا صدرت ممن يرائى بها ، وفيهـا غاية الترغيب إذا صدرت ممن يقتدى به . فذلك على قصد الاقتداء جائز للأقوياء بالشروط التى ذكرناها . فلا ينبغى أن يسد باب إظهار الأعمال ، والطباع مجبولة على حب التشبه والاقتداء . بل إظهار المرائى للعبادة إذا لم يعلم الناس أنه رياء ، فيه خير كثير للناس ، ولكنه شر للمرائى .

---

(١) حديث عثمان قوله ماتغنيت ولاتمنيت ولامسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو يعلى الموصلى فى معجمه باسناد ضعيف من رواية أنس عنه فى أثناء حديث وان عثمان قال يارسول الله فذكره بلفظ منذ بايعتك قال هو ذاك يا عثمان

فكم من مخلص كان سبب إخلاصه الاقتداء بمن هو مراء عند الله . وقد روى أنه كان يجتاز الإنسان فى سكك البصرة عند الصبح ، فيسمع أصوات المصلين بالقرءان من البيوت . فصنف بعضهم كتابا فى دقائق الرياء ، فتركوا ذلك ، وترك الناس الرغبة فيه فكانوا يقولون ليت ذلك الكتاب لم يصنف . فإظهار المرائى فيه خير كثير لغيره إذا لم يعرف رياؤه . [١] وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لاخلاق لهم، كما ورد فى الأخبار . وبعض المرائين ممن يقتدى به منهم ، والله تعالى أعلم

بيان

الرخصة فى كتمان الذنوب وكراهة إطلاع الناس عليه وكراهة ذمهم له

إعلم أن الأصل فى الإخلاص استواء السريرة والعلانية ،كما قال عمر رضى الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية . قال يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية ؟ قال ما إذا اطلع عليك لم تستحى منه . وقال أبو مسلم الخولانى : ماعملت عملا أبالى أن يطلع الناس عليه، إلا إتيانى أهلى ، والبول ، والغائط ، إلا أن هذه درجة عظيمة لا ينالها كل واحد . ولا يخلو الإنسان عن ذنوب بقلبه أو بجوارحه ، وهو يخفيها ، ويكره اطلاع الناس عليها ، لاسيما ماتختلج به الخواطر فى الشهوات والأمانى . والله مطلع على جميع ذلك . فإرادة العبد لإخفائها عن العبيد ربما يظن أنه رياء محظور ، وليس كذلك . بل المحظور أنه يستر ذلك ليرى الناس أنه ورع خائف من الله تعالى ، مع أنه ليس كذلك . فهذا هو ستر المرائى . وأما الصادق الذى لا يرائى ،فله ستر المعاصى ، ويصح قصده فيه ، ويصح اغتمامه باطلاع الناس عليه من ثمانية أوجه

الأول : أن يفرح بستر الله عليه . وإذا افتضح اغتم بهتك الله ستره ، وخاف أن يهتك ستره فى القيامة . إذ ورد فى الخبر [٢] أن من ستر الله عليه فى الدنيا ذنبا ، ستره الله عليه فى الآخرة . وهذا غم ينشأ من قوة الإيمان

---

(١) حديث إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لاخلاق لهم :هما حديثان فالأول متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم فى العلم والثانى رواه النسائى من حديث أنس بسند صحيح وتقدم أيضا

(٢) حديث ان من ستر عليه فى الدنيا يستر عليه فى الآخرة: تقدم قبل هذا بورقة

الثانى : أنه قد علم أن الله تعالى يكره ظهور المعاصى ، ويحب سترها ، كما قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ » فهو وإن عصى الله بالذنب ، فلم يخل قلبه عن محبة ماأحبه الله . وهذا ينشأ من قوة الإيمان بكراهة الله لظهور المعاصى . وأثر الصدق فيه أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضا، ويغتم بسببه

الثالث : أن يكره ذم الناس له به ، من حيث أن ذلك يغمه ، ويشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى . فإن الطبع يتأذى بالذم ، وينازع العقل ، ويشغل عن الطاعة . وبهذه العلة أيضا ينبغى أن يكره الحمد الذى يشغله عن ذكر الله تعالى ، ويستغرق قلبه ، ويصرفه عن الذكر . وهذا أيضا من قوة الإيمان . إذ صدق الرغبة فى فراغ القلب لأجل الطاعة من الإيمان

الرابع : أن يكون ستره ورغبته فيه لكراهته لذم الناس من حيث يتأذى طبعه . فإن الذم مؤلم للقلب ، كما أن الضرب مؤلم للبدن . وخوف تألم القلب بالذم ليس بحرام ، ولا الإنسان به عاص. وإنما يعصى إذا جزعت نفسه من ذم الناس ، ودعته إلى ما لا يجوز حذرا من ذمهم. وليس يجب على الإنسان أن لا يغتم بذم الخلق ولا يتألم به ، نعم : كمال الصدق فى أن تزول عنه رؤيته للخلق ؛ فيستوى عنده ذامه ومادحه ، لعلمه أن الضار والنافع هو الله وأن العباد كلهم عاجزون . وذلك قليل جدا . وأكثر الطباع تتألم بالذم ، لما فيه من الشعور بالنقصان . ورب تألم بالذم محمود ، إذا كان الذام من أهل البصيرة فى الدين ، فإنهم شهداء الله وذمهم يدل على ذم الله تعالى، وعلى نقصان فى الدين . فكيف لا يغتم به! نعم : الغم المذموم هو أن يغتم لفوات الحمد بالورع ، كأنه يحب أن يحمد بالورع . ولا يجوز أن يحب أن يحمد بطاعة الله ، فيكون قد طلب بطاعة الله ثوابا من غيره . فإن وجد ذلك فى نفسه وجب عليه أن يقابله بالكراهة والرد . وأما كراهة الذم بالمعصية من حيث الطبع ، فليس بمذموم . فله الستر حذرا من ذلك . ويتصور أن يكون العبد بحيث لا يحب الحمد ، ولكن يكره الذم . وإنما مراده أن يتركه الناس حمدا وذما . فكم من صابر عن لذة الحمد لا يصبر على ألم الذم ، إذ الحمد يطلب اللذة ، وعدم اللذة لا يؤلم . وأما الذم فإنه مؤلم . فحب الحمد على الطاعة طلب ثواب على الطاعة فى الحال . وأما كراهة الذم على المعصية فلا محذور فيه إلا أمر واحد

---

(١) حديث من ارتكب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله: الحاكم فى المستدرك وقد تقدم

وهو أن يشغله غمه باطلاع الناس على ذنبه عن اطلاع الله . فإن ذلك غاية النقصان فى الدين بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمه له أكثر

الخامس: أن يكره الذم من حيث أن الذام قد عصى الله تعالى به. وهذا من الإيمان، وعلامته أن يكره ذمه لغيره أيضا، فهذا التوجع لا يفرق بينه و بين غيره، بخلاف التوجع من جهة الطبع

السادس : أن يستر ذلك كيلا يقصد بشر إذا عرف ذنبه . وهذا وراء ألم الذم. فإن الذم مؤلم من حيث يشعر القلب بنقصانه وخسته ، وإن كان ممن يؤمن شره . وقد يخاف شر من يطلع على ذنبه بسبب من الأسباب ، فله أن يستر ذلك حذرا منه

السابع : مجرد الحياء ، فإنه نوع ألم وراء ألم الذم والقصد بالشر. وهو خلق كريم يحدث فى أول الصبا مهما أشرق عليه نور العقل ، فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه . وهو وصف محمود ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « اَلْحَيَاءُ خَيْرٌ كُلُّهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « اَلْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « اَلْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْحَيِيَّ الْحَلِيمَ » فالذى يفسق ولا يبالى أن يظهر فسقه للناس ، جمع إلى الفسق التهتك ، والوقاحة ، وفقد الحياء . فهو أشد حالا ممن يستتر ويستحيي . إلا أن الحياء ممتزج بالرياء ، ومشتبه به اشتباها عظيما ، قل من يتفطن له . ويدعى كل مراء أنه مستحي ، وأن سبب تحسينه العبادات هو الحياء من الناس وذلك كذب . بل الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم ، وتهيج عقيبه داعية الرياء وداعية الإخلاص ، ويتصور أن يخلص معه ، ويتصور أن يرائى معه . وبيانه أن الرجل يطلب من صديق له قرضا ، ونفسه لا تسخو بإقراضه ، إلا أنه يستحيي من رده . وعلم أنه لو راسله على لسان غيره لكان لا يستحيي ، ولا يقرض رياء ولا لطلب الثواب . فله عند ذلك أحوال

أحدها : أن يشافهه بالرد الصريح ولا يبالى، فينسب إلى قلة الحياء وهذا فعل من لا حياء له

---

(١) حديث الحياء خير كله: مسلم من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٢) حديث الحياء شعبة من الايمان: متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٣) حديث الحياء لا يأتى إلا بخير: متفق عليه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم

(٤) حديث ان الله يحب الحيي الحليم: الطبرانى من حديث فاطمة والبزار من حديث أبى هريرة ان الله يحب الغنى الحليم المتعفف وفيه ليث بن أبى سليم مختلف فيه

فإن المستحيي إما أن يتعلل أو يقرض . فإن أعطى فيتصور له ثلاثة أحوال. أحدها: أن يمزج الرياء بالحياء ، بأن يهيج الحياء فيقبح عنده الرد، فيهيج خاطر الرياء ويقول ينبغي أن تعطى حتى يثني عليك، ويحمدك ، وينشر اسمك بالسخاء . أو ينبغي أن تعطى حتى لا يذمك ولا ينسبك إلى البخل. فإذا أعطى فقد أعطى بالرياء، وكان المحرك للرياء هو هيجان الحياء

الثاني: أن يتعذر عليه الرد بالحياء. ويبقى في نفسه البخل، فيتعذر الإعطاء. فيهيج داعي الإخلاص ويقول له • إن الصدقة بواحدة ، والقرض بثمان عشرة ، ففيه أجر عظيم ، وإدخال سرور على قلب صديق. وذلك محمود عند الله تعالى. فتسخو النفس بالإعطاء لذلك، فهذا مخلص هيّج الحياء إخلاصه

الثالث : أن لا يكون له رغبة في الثواب ، ولا خوف من مذمته ، ولا حب لمحمدته ، لأنه لو طلبه مراسلة لكان لا يعطيه ، فأعطاه بمحض الحياء ، وهو ما يجده في قلبه من ألم الحياء ولولا الحياء لرده • ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب أو الأراذل ، لكان يرده وإن كثر الحمد والثواب فيه . فهذا مجرد الحياء ، ولا يكون هذا إلا في القبائح ، كالبخل ومقارفة الذنوب . والمرائي يستحي من المباحات أيضا ، حتى أنه يرى مستعجلا في المشي فيعود إلى الهدوّ، أو ضاحكا فيرجع إلى الانقباض ، ويزعم أن ذلك حياء ، وهو عين الرياء. وقد قيل إن بعض الحياء ضعف ، وهو صحيح . والمراد به الحياء مما ليس بقبيح ، كالحياء من وعظ الناس ، وإمامة الناس في الصلاة . وهو في الصبيان والنساء محمود ، وفي العقلاء غير محمود وقد تشاهد معصية من شيخ ، فتستحي من شيبته أن تنكر عليه ، لأن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم . وهذا الحياء حسن . وأحسن منه أن تستحي من الله ، فلا تضيع الأمر بالمعروف، فالقوى يؤثر الحياء من الله على الحياء من الناس ، والضعيف قد لا يقدر عليه . فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها ستر القبائح والذنوب

الثامن : أن يخاف من ظهور ذنبه أن يستجرىء عليه غيره ويقتدي به . وهذه العلة الواحدة فقط هي الجارية في إظهار الطاعة، وهو القدوة ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يقتدى به . وبهذه العلة ينبغي أيضا أن يخفي العاصي أيضا معصيته من أهله وولده، لأنهم يتعلمون منه

ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية. وليس في إظهار الطاعة عذر إلا هذا العذر الواحد ومهما قصد بستر المعصية أن يخيل إلى الناس أنه ورع، كان مرائيا، كما إذا قصد ذلك بإظهار الطاعة

فإن قلت : فهل يجوز للعبد أن يحب حمد الناس له بالصلاح ، وحبهم إياه بسببه ، وقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم[1] . دلني على ما يحبني الله عليه ، ويحبني الناس ، قال « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللهُ وَانْبُذْ إِلَيْهِمْ هَـذَا الْحُطَامَ يُحِبُّوكَ »

فنقول حبك لحب الناس لك قد يكون مباحا ، وقد يكون محمودا ، وقد يكون مذموما فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حب الله لك . فإنه تعالى إذا أحب عبدا حببه في قلوب عباده . والمذموم أن تحب حبهم وحمدهم على حجك ، وغزوك ، وصلاتك ، وعلى طاعة بعينها ، فإن ذلك طلب عوض على طاعة الله عاجل سوى ثواب الله . والمباح أن تحب أن يحبوك لصفات محمودة سوى الطاعات المحمودة المعينة . فحبك ذلك كحبك المال لأن ملك القلوب وسيلة إلى الأغراض كملك الأموال ، فلا فرق بينهما

بيان

ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به . وذلك غلط وموافقة للشيطان . بل الحق فيما يترك من الأعمال ومالا يترك لخوف الآفات ما نذكره

وهو أن الطاعات تنقسم إلى مالالذة في عينه ، كالصلاة ، والصوم ، والحج ، والغزو ، فإنها مقاساة ومجاهدات ، إنما تصير لذيذة من حيث إنها توصل إلى حمد الناس ، وحمد الناس لذيذ ، وذلك عند اطلاع الناس عليه . وإلى ماهو لذيذ ، وهو أكثرمالا يقتصر على البدن ، بل يتعلق بالخلق ، كالخلافة ، والقضاء ، والولايات ، والحسبة ، وإمامة الصلاة ، والتذكير والتدريس ، وإنفاق المال على الخلق ، وغير ذلك مما تعظم الآفة فيه لتعلقه بالخلق ، ولما فيه من اللذة

القسم الأول ، الطاعات اللازمة للبدن التي لاتتعلق بالغير ، ولالذة في عينها كالصوم ، والصلاة ، والحج . فخطرات الرياء فيها ثلاث : إحداها ما يدخل قبل العمل ، فيبعث على الابتداء لرؤية الناس ، وليس معه باعث الدين ، فهذا مما ينبغي أن يترك لأنه معصية لاطاعة فيه.

---

(١) حديث قال رجل دلني على ما يحبني الله عليه ويحبني الناس قال ازهد في الدنيا يحبك الله ـ الحديث : ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بلفظ وازهد فيما في أيدي الناس وقد تقدم

فإنه تدرع بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة . فإن قدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه باعث الرياء ، ويقول لها : ألا تستحيين من مولاك ، لا تسخين بالعمل لأجله ، وتسخين بالعمل لأجل عباده ، حتى يندفع باعث الرياء ، وتسخو النفس بالعمل لله ، عقوبة للنفس على خاطر الرياء ، وكفارة له ، فليشتغل بالعمل

الثانية : أن ينبعث لأجل الله ، ولكن يعترض الرياء مع عقد العبادة وأولها . فلا ينبغى أن يترك العمل ، لأنه وجد باعثا دينيا ، فليشرع فى العمل ، وليجاهد نفسه فى دفع الرياء ، وتحصيل الإخلاص بالمعالجات التى ذكرناها ، من إلزام النفس كراهة الرياء والإباء عن القبول

الثالثة : أن يعقد على الإخلاص ، ثم يطرأ الرياء ودواعيه . فينبغى أن يجاهد فى الدفع ، ولا يترك العمل لكى يرجع إلى عقد الإخلاص . ويرد نفسه إليه قهرا حتى يتمم العمل . لأن الشيطان يدعوك أولا إلى ترك العمل ، فإذا لم تجب واشتغلت ، فيدعوك إلى الرياء . فإذا لم تجب ودفعت ، بقى يقول لك . هذا العمل ليس بخالص ، وأنت مراء ، وتعبك ضائع فأى فائدة لك فى عمل لا إخلاص فيه؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل . فإذا تركته فقد حصّلت غرضه

ومثال من يترك العمل لخوفه أن يكون مرائيا ، كمن سلم إليه مولاه حنطة فيها زؤان وقال خلصها من الزؤان ونقها منه تنقية بالغة ، فيترك أصل العمل ، ويقول أخاف إن اشتغلت به لم تخلص خلاصا صافيا نقيا فترك العمل من أجله ، وهو ترك الإخلاص مع أصل العمل ، فلا معنى له

ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفا على الناس أن يقولوا إنه مراء ، فيعصون الله به فهذا من مكايد الشيطان . لأنه أولا أساء الظن بالمسلمين ، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك ثم إن كان فلا يضره قولهم ، ويفوته ثواب العبادة . وترك العمل خوفا من قولهم إنه مراء هو عين الرياء ، فلولا حبه لحمدتهم ، وخوفه من ذمهم ، فماله ولقولهم قالوا إنه مراء أو قالوا إنه مخلص ؟ وأى فرق بين أن يترك العمل خوفا من أن يقال إنه مراء ، وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر ، بل ترك العمل أشد من ذلك

فهذه كلها مكايد الشيطان على العباد الجهال . ثم كيف يطمع فى أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل ، والشيطان لا يخليه ، بل يقول له الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنه مخلص لا يشتهى الشهرة . فيضطرك بذلك إلى أن تهرب . فإن هربت ودخلت

سربا تحت الأرض ، ألتى فى قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك وهربك منهم ، وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك . فكيف تتخلص منه ؟ بل لانجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء ، وهو أنه ضرر فى الآخرة ، ولانفع فيه فى الدنيا ، لتلزم الكراهة والإباء قلبك وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالى ، وإن نزغ العدو نازغ الطبع ، فإن ذلك لاينقطع . وترك العمل لأجل ذلك يجر إلى البطالة وترك الخيرات

فما دمت تجد باعثا دينيا على العمل ، فلا تترك العمل ، وجاهد خاطر الرياء ، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين ، وهو مطلع على قلبك ولو اطلع الخلق على قلبك وأنك تريد حمدهم لمقتوك . بل إن قدرت على أن تزيد فى العمل حياء من ربك ، وعقوبة لنفسك ، فافعل . فإن قال لك الشيطان أنت مراء ، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف فى قلبك من كراهة الرياء ، وإبائه ، وخوفك منه ، وحيائك من الله تعالى .

وإن لم تجد فى قلبك له كراهية ، ومنه خوفا ، ولم يبق باعث دينى ، بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد ، فمن شرع فى العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب

فإن قلت : فقد نقل عن أقوام ترك العمل مخافة الشهرة . روى أن إبراهيم النخعى دخل عليه إنسان وهو يقرأ ، فأطبق المصحف وترك القراءة ، وقال ، لايرى هذا أنا نقرأ كل ساعة . وقال إبراهيم التيمى : إذا أعجبك الكلام فاسكت . وإذا أعجبك السكوت فتكلم وقال الحسن : إن كان أحدهم ليمر بالأذى مايمنعه من دفعه إلا كراهة الشهرة . وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة . وقد ورد فى ذلك آثار كثيرة

قلنا هذا يعارضه ماورد من إظهار الطاعات ممن لايحصى وإظهار الحسن البصرى هذا الكلام فى معرض الوعظ ، أقرب إلى خوف الشهرة من البكاء ، وإماطة الأذى عن الطريق ثم لم يتركه .

وبالجملة ترك النوافل جائز . والكلام فى الأفضل . والأفضل إنما يقدر عليه الأقوياء دون الضعفاء : فالأفضل أن يتمم العمل ويجتهد فى الإخلاص ، ولايتركه . وأرباب الأعمال قد يعالجون أنفسهم بخلاف الأفضل لشدة الخوف . فالاقتداء ينبغى أن يكون بالأقوياء . وأما إطباق ابراهيم النخعى المصحف ، فيمكن أن يكون لعلمه بأنه سيحتاج إلى ترك القراءة عند دخوله ، واستئنافه بعد خروجه للاشتغال بمكالمته . فرأى أن لايراه فى القراءة

أبعد عن الرياء ، وهو عازم على الترك للاشتغال به حتى يعود إليه بعد ذلك . وأما ترك دفع الأذى فذلك ممن يخاف على نفسه آفة الشهرة ، وإقبال الناس عليه ، وشغلهم اياه عن عبادات هي أكبر من رفع خشبة من الطريق . فيكون ترك ذلك للمحافظة على عبادات هي أكبر منها ، لا بمجرد خوف الرياء . وأما قول التيمى إذا أعجبك الكلام فاسكت ، يجوز أن يكون قد أراد به مباحات الكلام ، كالفصاحة فى الحكايات وغيرها ، فإن ذلك يورث العجب ، وكذلك العجب بالسكوت المباح محذور . فهو عدول عن مباح إلى مباح حذراً من العجب . فأما الكلام الحق المندوب إليه فلم ينص عليه على أن الآفة مما تعظم فى الكلام فهو واقع فى القسم الثانى . وإنما كلامنا فى العبادات الخاصة ببدن العبد مما لا يتعلق بالناس ولا تعظم فيه الآفات . ثم كلام الحسن فى تركهم البكاء وإماطة الأذى لخوف الشهرة ، ربما كان حكاية أحوال الضعفاء الذين لا يعرفون الأفضل ، ولا يدركون هذه الدقائق ، وإنما ذكره تخويفا للناس من آفة الشهرة ، وزجرا عن طلبها .

القسم الثانى : ما يتعلق بالخلق ، وتعظم فيه الآفات والأخطار . وأعظمها الخلافة ، ثم القضاء ، ثم التذكير والتدريس والفتوى ، ثم إنفاق المال .

أما الخلافة والإمارة فهى من أفضل العبادات إذا كان ذلك مع العدل والإخلاص. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « لَيَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ وَحْدَهُ سِتِّينَ عَامًا » فأعظم بعبادة يوازى يوم منها عبادة ستين سنة . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ثَلَاثَةٌ الْإِمَامُ الْمُقْسِطُ » أحدهم . وقال أبو هريرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] « ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ » أحدهم . وقال صلى الله عليه وسلم [4] « أَقْرَبُ النَّاسِ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ » رواه أبو سعيد الخدرى

---

(١) حديث ليوم من امام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاما : الطبرانى والبيهقى من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٢) حديث أول من يدخل الجنة ثلاثة الامام المقسط : مسلم من حديث عياض بن حماد أهل الجنة ثلاث ذو سلطان مقسط ـ الحديث : ولم أر فيه ذكر الاولية

(٣) حديث أبى هريرة ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل : تقدم

(٤) حديث أبى سعيد الخدرى أقرب الناس منى مجلسا يوم القيامة امام عادل : الاصبهانى فى الترغيب والترهيب من رواية عطية العوفى وهو ضعيف عنه وفيه أيضا اسحاق بن ابراهيم الديباجى ضعيف أيضا

فالإمارة والخلافة من أعظم العبادات . ولم يزل المتقون يتركونها ، ويحترزون منها ، ويهربون من تقلدهـا ، وذلك لما فيه من عظم الخطر ، إذ تتحرك بها الصفات الباطنة ، ويغلب على النفس حب الجاه ولذة الاستيلاء ونفاذ الأمر ، وهو أعظم ملاذ الدنيا . فإذا صارت الولاية محبوبة ، كان الوالي ساعيا في حظ نفسه ، ويوشك أن يتبع هواه ، فيمتنع من كل ما يقدح في جاهه وولايته وإن كان حقا . ويقدم على ما يزيد في مكانته وإن كان باطلا وعند ذلك يهلك : ويكون يوم من سلطان جائر شرا من فسق ستين سنة ، بمفهوم الحديث الذي ذكرناه . ولهذا الخطر العظيم كان عمر رضي الله عنه يقول ما يأخذها بما فيها . وكيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم[١] « مَا مِنْ وَالِى عَشَرَةٍ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ أَطْلَقَهُ عَدْلُهُ أَوْ أَوْبَقَهُ جَوْرُهُ » رواه معقل بن يسار . وولاه عمر ولاية ، فقال يا أمير المؤمنين أشر علي ، قال اجلس واكتم عليّ وروى الحسن ، أن رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم[٢] ، فقال للنبي خر لي ، قال « اجْلِسْ » وكذلك حديث عبد الرحمن بن سمرة إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم[٣] « يَا عَبْدَ الرَّحْمٰنِ لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا وَإِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا »

وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عمر . لا تأمر على اثنين ، ثم ولي هو الخلافة فقام بها . فقال له رافع

---

(١) حديث مامن والى عشرة الاجاء يوم القيامة يده مغلولة الى عنقه لا يفكها إلا عدله : أحمد من حديث عبادة ابن الصامت ورواه أحمد والبزار من رواية رجل لم يسم عن سعد بن عبادة وفيهما يزيد بن أبي زياد متكلم فيه ورواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة ورواه البزار والطبراني من حديث بريدة والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وثوبان وله من حديث أبي الدرداء مامن والى ثلاثة إلا لقي الله مغلولة يمينه ـ الحديث : وقد عزى المصنف هذا الحديث لرواية معقل بن يسار والمعروف من حديث معقل بن يسار مامن عبد يسترعيه الله رعية لم يحطها بنصيحة إلا لم يرح رائحة الجنة : متفق عليه

(٢) حديث الحسن ان رجلا ولاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي صلى الله عليه وسلم خر لي قال اجلس الطبراني موصولا من حديث عصمة هو ابن مالك وفيه الفضل بن المختار وأحاديثه منكرة يحدث بالأباطيل قاله أبو حاتم ورواه أيضا من حديث ابن عمر بلفظ الزم بيتك وفيه الغراب بن أبي الغراب ضعفه ابن معين وابن عدي وقال أبو حاتم صدوق

(٣) حديث عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الامارة ـ الحديث : متفق عليه

ألم تقل لى لاتأمر على اثنين ، وأنت قد وليت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فقال بلى وأنا أقول لك ذلك ، فمن لم يعدل فيها فعليه بهلة الله . يعنى لعنة الله . ولعل القايل البصيرة يرى ماورد من فضل الإمارة مع ماورد من النهى عنها متناقضا ، وليس كذلك . بل الحق فيه أن الخواص الأقوياء فى الدين ، لاينبغى أن يمتنعوا من تقلد الولايات . وأن الضعفاء لاينبغى أن يدوروا بها فيهلكوا . وأعنى بالقوى الذى لاتميله الدنيا ، ولا يستفزه الطمع ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهم الذين سقط الخلق عن أعينهم ، وزهدوا فى الدنيا ، وتبرموا بها ، وبمخالطة الخلق ، وقهروا أنفسهم وملكوها ، وقمعوا الشيطان فأيس منهم . فهؤلاء لايحركهم إلا الحق ، ولايسكنهم إلا الحق ، ولو زهقت فيهم أرواحهم . فهم أهل نيل الفضل فى الإمارة والخلافة . ومن علم أنه ليس بهذه الصفة فيحرم عليه الخوض فى الولايات

ومن جرب نفسه فرآها صابرة على الحق، كافة عن الشهوات فى غير الولايات ، ولكن خاف عليها أن تتغير إذا ذاقت لذة الولاية ، وأن تستحلى الجاه ، وتستلذ نفاذ الأمر، فتكره العزل ، فيداهن خيفة من العزل ، فهذا قد اختلف العلماء فى أنه هل يلزمه الهرب من تقلد الولاية . فقال قائلون لايجب ، لأن هذا خوف أمر فى المستقبل ، وهو فى الحال لم يعهد نفسه إلا قوية فى ملازمة الحق وترك لذات النفس . والصحيح أن عليه الاحتراز ، لأن النفس خداعة ، مدعية للحق ، واعدة بالخير . فلو وعدت بالخير جزما لكان يخاف عليها أن تتغير عند الولاية . فكيف إذا أظهرت التردد ؟ والامتناع عن قبول الولاية أهون من العزل بعد الشروع . فالعزل مؤلم . وهو كما قيل: العزل طلاق الرجال. فإذا شرع لاتسمح نفسه بالعزل وتميل نفسه إلى المداهنة وإهمال الحق ، وتهوى به فى قعر جهنم . ولا يستطيع النزوع منه إلى الموت ، إلا أن يعزل قهرا . وكان فيه عذاب عاجل على كل محب الولاية . ومهما مالت النفس إلى طلب الولاية ، وحملت على السؤال والطلب ، فهو إمارة الشر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّا لاَ نُوَلِّي أَمْرَنَا مَنْ سَأَلَنَا » فإذا فهمت اختلاف حكم القوى والضعيف، علمت أن نهى أبى بكر رافعا عن الولاية ، ثم تقلده لها ليس بمتناقض

---

(١) حديث إنا لانولى أمرنا من سألناه : متفق عليه من حديث أبى موسى

وأما القضاء : فهو وإن كان دون الخلافة والإمارة ، فهو فى معناهما . فإن كل ذى ولاية أمير . أى له أمر نافذ . والإمارة محبوبة بالطبع . والثواب فى القضاء عظيم مع اتباع الحق والعقاب فيه أيضا عظيم مع العدول عن الحق . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ » وقال عليه السلام (٢) « مَنِ اسْتُقْضِيَ فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ » فحكمه حكم الإمارة ، ينبغى أن يتركه الضعفاء ، وكل من للدنيا ولذاتها وزن فى عينه . وليتقلده الأقوياء ، الذين لا تأخذهم فى الله لومة لائم . ومهما كان السلاطين ظلمة ، ولم يقدر القاضى على القضاء إلا بمداهنتهم ، وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ، ولأجل المتعلقين بهم ، إذ يعلم أنه لو حكم عليهم بالحق لعزلوه ، أو لم يطيعوه . فليس له أن يتقلد القضاء وإن تقلده فعليه أن يطالبهم بالحقوق ، ولا يكون خوف العزل عذرا مرخصا له فى الإهمال أصلا بل إذا عزل سقطت العهدة عنه ، فينبغى أن يفرح بالعزل إن كان يقضى لله . فإن لم تسمح نفسه بذلك ، فهو إذاً يقضى لاتباع الهوى والشيطان ، فكيف يرتقب عليه ثوابا ، وهو مع الظلمة فى الدرك الأسفل من النار ؟ وأما الوعظ ، والفتوى ، والتدريس ، ورواية الحديث ، وجمع الأسانيد العالية ، وكل ما يتسع بسببه الجاه ، ويعظم به القدر ، فآفته أيضا عظيمة مثل آفة الولايات . وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلا ، وكانوا يقولون حدثنا باب من أبواب الدنيا . ومن قال حدثنا فقد قال أوسعوا لى ودفن بشر كذا وكذا قمطر من الحديث ، وقال يمنعنى من الحديث أنى أشتهى أن أحدث ولو اشتهيت أن لا أحدث لحدثت

والواعظ يجد فى وعظه وتأثر قلوب الناس به ، وتلاحق بكائهم ، وزعقاتهم ، وإقبالهم عليه ، لذة لا توازيها لذة . فإذا غلب ذلك على قلبه ، مال طبعه إلى كل كلام مزخرف يروج عند العوام ، وإن كان باطلا . ويفر عن كل كلام يستثقله العوام : وإن كان حقا . ويصير مصروف الهمة بالكلية إلى ما يحرك قلوب العوام ، ويعظم منزلته فى قلوبهم ؛ فلا يسمع حديثا وحكمة إلا ويكون فرحه به من حيث إنه يصلح لأن يذكره على رأس المنبر . وكان ينبغى أن يكون فرحه به من حيث إنه عرف طريق السعادة ، وطريق سلوك سبيل الدين ، ليعمل به أولا

---

(١) حديث القضاة ثلاثة ــ الحديث : أصحاب السنن من حديث بريدة وتقدم فى العلم وإسناده صحيح

(٢) حديث من استقضى فقد ذبح بغير سكين : أصحاب السنن من حديث أبى هريرة بلفظ من جعل قاضيا وفى رواية من ولى القضاء وإسناده صحيح

ثم يقول : إذا أنعم الله علىّ بهذه النعمة ، ونفعنى بهذه الحكمة ، فأقصّها ليشاركنى فى نفعها إخوانى المسلمون . فهذا أيضا مما يعظم فيه الخوف والفتنة ، فحكمه حكم الولايات . فمن لاباعث له إلا طلب الجاه والمنزلة، والأكل بالدين ،والتفاخر والتكاثر. فينبغى أن يتركه ويخالف الهوى فيه. إلى أن ترتاض نفسه، وتقوى فى الدين همته، ويأمن على نفسه الفتنة. فعندذلك يعود إليه

فإن قلت : مهما حكم بذلك على أهل العلم تعطلت العلوم واندرست ، وعم الجهل كافة الخلق

فنقول : قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] عن طلب الإمارة ، وتوعد عليها ، حتى قال [2] « إِنَّكُمْ تَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ وَإِنَّهَا حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا » وقال [3] « نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ » ومعلوم أن السلطنة والإمارة لو تعطلت لبطل الدين والدنيا جميعا ، وثار القتال بين الخلق ، وزال الأمن ،وخربت البلاد وتعطلت المعايش . فلمَ نهى عنها مع ذلك ؟ وضرب عمر رضى الله عنه أبىّ بن كعب حين رأى قوما يتبعونه، وهو فى ذلك يقول أبىّ سيد المسلمين ،وكان يقرأ عليه القرءان ، فمنع من أن يتبعوه وقال : ذلك فتنة على المتبوع، ومذلة على التابع. وعمر كان بنفسه يخطب ويعظ ولا يمتنع منه

واستأذن رجل عمر أن يعظ الناس إذا فرغ من صلاة الصبح ، فمنعه . فقال أتمنعنى من نصح الناس ؟ فقال أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، أذ رأى فيه مخايل الرغبة فى جاه الوعظ وقبول الخلق . والقضاء والخلافة مما يحتاج الناس إليه فى دينهم ، كالوعظ والتدريس والفتوى . وفى كل واحد منهما فتنة ولذة ، فلا فرق بينهما

فأما قول القائل نهيك عن ذلك يؤدى إلى اندراس العلم ، فهو غلط . إذ نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم [4] عن القضاء لم يؤد إلى تعطيل القضاء . بل الرياسة وحبها يضطر الخلق

---

(١) حديث النهى عن طلب الامارة: وهو حديث عبد الرحمن بن سمرة لاتسل الامارة وقد تقدم قبله بثلاثة أحاديث

(٢) حديث انكم تحرصون على الامارة وانها حسرة يوم القيامة وندامة الامن أخذها بحقها: البخارى من حديث أبى هريرة دون قوله إلامن أخذها بحقها وزاد فى آخره فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة ودون قوله حسرة وهى فى صحيح ابن حبان

(٣) حديث نعمت المرضعة وبئست الفاطمة: البخارى من حديث أبى هريرة وهو بقية الحديث الذى قبله ورواه ابن حبان بلفظ فبئست المرضعة وبئست الفاطمة

(٤) حديث النهى عن القضاء: مسلم من حديث أبى ذر لاتؤمرن على اثنين ولاتلين مال يتيم

إلى طلبها . وكذلك حب الرياسة لايترك العلوم تندرس . بل لوحبس الخلق وقيدوا بالسلاسل والأغلال من طلب العلوم التي فيها القبول والرياسة ، لأفلتوا من الحبس وقطعوا السلاسل وطلبوها . وقد وعد الله أن يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم . فلا تشغل قلبك بأمر الناس ، فإن الله لايضيعهم . وانظر لنفسك . ثم إني أقول مع هذا إذا كان في البلد جماعة يقومون بالوعظ مثلا ، فليس في النهي عنه إلا امتناع بعضهم . وإلا فيعلم أن كلهم لايمتنعون ، ولا يتركون لذة الرياسة . فإن لم يكن في البلد إلا واحد ، وكان وعظه نافعا للناس من حيث حسن كلامه . وحسن سمته في الظاهر ، وتخييله إلى العوام أنه إنما يريد الله بوعظه وأنه تارك للدنيا ومعرض عنها ، فلا نمنعه منه ، ونقول له اشتغل وجاهد نفسك . فإن قال لست أقدر على نفسي ، فنقول اشتغل وجاهد ، لأنا نعلم أنه لو ترك ذلك لهلك الناس كلهم إذ لاقائم به غيره . ولو واظب وغرضه الجاه ، فهو الهالك وحده . وسلامة دين الجميع أحب عندنا من سلامة دينه وحده ، فنجعله فداء للقوم ، ونقول لعل هذا هو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَـذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ »

ثم الواعظ هو الذي يرغب في الآخرة ، ويزهد في الدنيا بكلامه، وبظاهر سيرته . فأما ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار ، من الكلمات المزخرفة ، والألفاظ المسجعة المقرونة بالأشعار ، مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين ، وتخويف للمسلمين ؛ بل فيه الترجية والتجرئة على المعاصي بطيبات النكت ، فيجب إخلاء البلاد منهم، فإنهم نواب الدجال وخلفاء الشيطان وإنما كلامنا في واعظ حسن الوعظ ، جميل الظاهر ، يبطن في نفسه حب القبول ولا يقصد غيره . وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حق علماء السوء ، ما يبين لزوم الحذر من فتن العلم وغوائله . ولهذا قال المسيح عليه السلام : ياعلماء السوء ، تصومون وتصلون ، وتتصدقون ، ولا تفعلون ما تأمرون ، وتدرسون مالا تعملون ، فياسوء ماتحكمون تتوبون بالقول والأماني ، وتعملون بالهوى ، وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم ، وقلوبكم دنسة . بحق أقول لكم ، لاتكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة

---

(١) حديث ان الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم : النسائي وقدتقدم قريبا

كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ، ويبقى الغل فى صدوركم . ياعبيد الدنيا ، كيف يدرك الآخرة من لا تنقضى من الدنيا شهوته ، ولا تنقطع منها رغبته . بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكى من أعمالكم . جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم ، والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم ، أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم . فصلاح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة . فأى ناس أخس منكم ؟ لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين ، وتقيمون فى محلة المتحيرين ، كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم ، مهلا مهلا ويلكم ماذا يغنى عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره ، وجوفه وحش مظلم ؟ كذلك لايغنى عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم ، وأجوافكم منه وحشة معطلة . ياعبيدالدنيا ، لا كعبيداتقياء ، ولا كأحرار كرام . توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ، ثم تكبكم على مناخركم ، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ، ثم يدفعكم العلم من خلفكم ، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى . فيوقفكم على سوآتكم ، ثم يجزيكم بسوء أعمالكم

وقد روى الحارث المحاسبي هذا الحديث فى بعض كتبه ، ثم قال . هؤلاء علماء السوء شياطين الإنس ، وفتنة على الناس ، رغبوا فى عرض الدنيا ورفعتها ، وآثروها على الآخرة وأذلوا الدين للدنيا . فهم فى العاجل عار وشين ، وفى الآخرة هم الخاسرون

فإن قلت : فهذه الآفات ظاهرة ، ولكن ورد فى العلم والوعظ رغائب كثيرة ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى وَاتُّبِعَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنِ اتَّبَعَهُ » إلى غير ذلك من فضائل العلم ، فينبغى أن يقال للعالم اشتغل بالعلم واترك مراآة الخلق كما يقال لمن خالجه الرياء فى الصلاة لا تترك العمل ، ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك

فاعلم أن فضل العلم كبير ؛ وخطره عظيم . كفضل الخلافة والإمارة . ولا تقول لأحد

---

(١) حديث لان يهدى الله بك رجلا واحدا خيرلك من الدنيا ومافيها: متفق عليه من حديث سهل بن سعد بلفظ خيرلك من حمر النعم وقد تقدم فى العلم

(٢) حديث أيما داع دعا الى هدى واتبع عليه كان له أجره وأجر من اتبعه: ابن ماجه من حديث أنس بزيادة فى أوله ولمسلم من حديث أبى هريرة من دعا الى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ـ الحديث:

من عباد الله اترك العلم ، إذ ليس فى نفس العلم آفة . وإنما الآفة فى إظهاره بالتصدى للوعظ والتدريس ورواية الحديث . ولا نقول له أيضا اتركه مادام يجد فى نفسه باعثا دينيا ممزوجا بباعث الرياء ، أما إذا لم يحركه إلا الرياء ، فترك الإظهار أنفع له وأسلم . وكذلك نوافل الصلوات إذا تجرد فيها باعث الرياء وجب تركها . أما إذا خطر له وساوس الرياء فى أثناء الصلاة وهو لها كاره ، فلا يترك الصلاة ، لأن آفة الرياء فى العبادات ضعيفة ، وإنما تعظم فى الولايات ، وفى التصدى للمناصب الكبيرة فى العلم ، وبالجملة فالمراتب ثلاث :

الأولى : الولايات ، والآفات فيها عظيمة . وقد تركها جماعة من السلف خوفا من الآفة .

الثانية : الصوم ، والصلاة ، والحج ، والغزو . وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة ، وذلك لضعف الآفات الداخلة فيها ، والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله بأدنى قوة .

الثالثة : وهى متوسطة بين الرتبتين ، وهو التصدى لمنصب الوعظ والفتوى ، والرواية والتدريس . والآفاتُ فيها أقل مما فى الولايات ، وأكثر مما فى الصلاة . فالصلاة ينبغى أن لا يتركها الضعيف والقوىّ ، ولكن يدفع خاطر الرياء . والولاياتُ ينبغى أن يتركها الضعفاء رأسا دون الأقوياء . ومناصب العلم بينهما . ومن جرب آفات منصب العلم علم أنه بالولاة أشبه ، وأن الحذر منه فى حق الضعيف أسلم ، والله أعلم

وههنا رتبة رابعة ، وهى جمع المال ، وأخذه للتفرقة على المستحقين . فإن فى الإنفاق وإظهار السخاء استجلابا للثناء ، وفى إدخال السرور على قلوب الناس لذة للنفس. والآفاتُ فيها أيضا كثيرة . ولذلك سئل الحسن عن رجل طلب القوت ثم أمسك ، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدق به ، فقال القاعد أفضل . لما يعرفون من قلة السلامة فى الدنيا ، وأن من الزهد تركها قربة إلى الله تعالى . وقال أبو الدرداء ما يسرنى أنى أقمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين دينارا أتصدق بها . أما إنى لا أحرم البيع والشراء ، ولكنى أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله . وقد اختلف العلماء ، فقال قوم إذا طلب الدنيا من الحلال ، وسلم منها ، وتصدق بها ، فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل . وقال قوم : الجلوس فى دوام ذكر الله أفضل ، والأخذ والإعطاء يشغل عن الله.

وقد قال المسيح عليه السلام : ياطالب الدنيا ليبر بها ، تركك لها أبرّ . وقال : أقل مافيه أن يشغله إصلاحه عن ذكر الله ، وذكرُ الله أكبر وأفضل . وهذا فيمن سلم من الآفات

فأما من يتعرض لآفة الرياء ، فتركه لها أبر ، والاشتغال بالذكر لاخلاف فى أنه أفضل وبالجملة مايتعلق بالخلق وللنفس فيه لذة فهو مثار الآفات . والأحب أن يعمل ويدفع الآفات فإن عجز فلينظر ، وليجتهد ، وليستفت قلبه ،وليزن مافيه من الخير بما فيه من الشر ، وليفعل مايدل عليه نور العلم دون مايميل إليه الطبع . وبالجملة مايجده أخف على قلبه فهو فى الأكثر أضر عليه ، لأن النفس لاتشير إلا بالشر ، وقلما تستلذ الخير وتميل إليه ، وإن كان لايبعد ذلك أيضا فى بعض الأحوال . وهذه أمور لايمكن الحكم على تفاصيلها بنفى وإثبات . فهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظر فيه لدينه ، ويدع مايريبه إلى مالايريبه

ثم قد يقع مما ذكرناه غرور للجاهل ،فيمسك المال ولا ينفقه خيفة من الآفة ،وهو عين البخل . ولا خلاف فى أن تفرقة المال فى المباحات فضلا عن الصدقات أفضل من إمساكه وإنما الخلاف فيمن يحتاج إلى الكسب أن الأفضل ترك الكسب والإنفاق ، أو التجرد للذكر وذلك لما فى الكسب من الآفات فأما المال الحاصل من الحلال، فتفرقته أفضل من إمساكه بكل حال

فإن قلت فبأى علامة تعرف العالم والواعظ أنه صادق مخلص فى وعظه غير مريد رياء الناس ؟ . فاعلم أن لذلك علامات

إحداها : أنه لو ظهر من هو أحسن منه وعظا ، أو أغزر منه علما، والناس له أشدّ قبولا فرح به ولم يحسده . نعم:لابأس بالغبطة ، وهو أن يتمنى لنفسه مثل علمه

والأخرى : أن الأكابر إذا حضروا مجلسه ، لم يتغير كلامه . بل بقى كما كان عليه.فينظر إلى الخلق بعين واحدة . والأخرى أن لايحب اتباع الناس له فى الطريق والمشى خلفه فى الأسواق

ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها . وقد روى عن سعيد بن أبى مروان قال كنت جالسا إلى جنب الحسن ، إذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر . فدخل المسجد على برذونه ، فجعل يلتفت فى المسجد ، فلم ير خلفه أحفل من حلقة الحسن ، فتوجه نحوها حتى بلغ قريبا منها ، ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن . فلما رآه الحسن متوجها إليه ، تجافى له عن ناحية مجلسه . قال سعيد : وتجافيت له أيضا

عن ناحية مجلسي ، حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج . فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه ، والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم فما قطع الحسن كلامه قال سعيد : فقلت في نفسي لأبلون الحسن اليوم، ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج إليه أن يزيد في كلامه يتقرب إليه ،أو يحمل الحسن هيبة الحجاج أن ينقص من كلامه .فتكلم الحسن كلاما واحدا ، نحوا مما كان يتكلم به في كل يوم ، حتى انتهى إلى آخر كلامه . فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به ، رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال . صدق الشيخ وبر . فعليكم بهذه المجالس وأشباهها ،فاتخذوها حلقا وعادة ،فإنه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [1] أن مجالس الذكر رياض الجنة. ولولا ما حملناه من أمر الناس ماغلبتمونا على هذه المجالس ، لمعرفتنا بفضلها . قال ثم افتر الحجاج ،فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته . فلما فرغ طفق فقام . فجاء رجل من أهل الشام إلى مجلس الحسن حين قام الحجاج ، فقال عباد الله المسلمين ، ألا تعجبون أني رجل شيخ كبير ، وأني أغزو فأكلف فرسا وبغلا ، وأكلف فسطاطا ،وأن لي ثلثمائة درهم من العطاء ، وأن لي سبع بنات من العيال ! فشكا من حاله حتى رق الحسن له وأصحابه ، والحسن مكب . فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه ، فقال مالهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ،ومال الله دولا ، وقتلوا الناس على الدينار والدرهم . فإذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة ،وعلى البغال السباقة . وإذا أغزى أخاه أغزاه طاويا راجلا . فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده . فقام رجل من أهل الشام كان جالسا إلى الحسن ، فسعى به إلى الحجاج وحكى له كلامه . فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج ، فقالوا أجب الأمير .فقام الحسن ،وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به . فلم يلبث الحسن أن رجع إلى مجلسه وهو يتبسم ، وقلما رأيته فاغرا فاه يضحك ، إنما كان يتبسم . فأقبل حتى قعد في مجلسه ، فعظم الأمانة ، وقال إنما تجالسون بالأمانة ، كأنكم تظنون أن الخيانة ليست إلا في الدينار والدرهم . إن الخيانة أشد الخيانة أن يجالسنا الرجل ، فنطمئن إلى جانبه ، ثم ينطلق فيسعى بنا إلى شرارة من نار

---

(١) حديث ان مجالس الذكر رياض الجنة: تقدم في الأذكار والدعوات

إنى أتيت هذا الرجل ، فقال أقصر عليك من لسانك وقولك : إذا غزا عدو الله كذا وكذا وإذا أغزى أخاه أغزاه كذا ، لاأبالك ، تحرض علينا الناس؟ أما إنا على ذلك لا نتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك . قال فدفعه الله عنى . وركب الحسن حمارا يريد المنزل ، فبينما هو يسير إذ التفت فرأى قوما يتبعونه ، فوقف فقال : هل لكم من حاجة ؟ أو تسألون عن شيء ؟ وإلا فارجعوا ، فما يبقى هذا من قلب العبد . فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن . ومهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ، ولا يتوانسون ولا يتعاونون ، فاعلم أنهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون . اللهم ارحمنا بلطفك ياأرحم الراحمين

بيان

ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح

اعلم أن الرجل قد يبيت مع القوم فى موضع فيقومون للتهجد ، أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه ، وهو ممن يقوم فى بيته ساعة قريبة ، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده ، أو يصلى ، مع أنه كان لا يعتاد الصلاة بالليل أصلا . وكذلك قد يقع فى موضع يصوم فيه أهل الموضع ، فينبعث له نشاط فى الصوم ، ولولا هم لما انبعث هذا النشاط . فهذا ربما يظن أنه رياء ، وأن الواجب ترك الموافقة ، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل ، لأن كل مؤمن راغب فى عبادة الله تعالى ، وفى قيام الليل وصيام النهار . ولكن قد تعوقه العوائق ، ويمنعه الاشتغال ، ويغلبه التمكن من الشهوات . أو تستهويه الغفلة فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة ، أو تندفع العوائق والأشغال فى بعض المواضع فينبعث له النشاط ، فقد يكون الرجل فى منزله ، فتقطعه الأسباب عن التهجد ، مثل تمكنه من النوم على فراش وثير ، أو تمكنه من التمتع بزوجته ، أو المحادثة مع أهله وأقاربه ، أو الاشتغال بأولاده ، أو مطالعة حساب له مع معامليه . فإذا وقع فى منزل غريب ، اندفعت عنه هذه الشواغل التى تفتر رغبته عن الخير ، وحصلت له أسباب باعثة على الخير ، كمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله ، وأعرضوا عن الدنيا ، فإنه ينظر إليهم فينافسهم ، ويشق عليه أن يسبقوه بطاعة الله ، فتتحرك داعيته للدين لا للرياء . أو ربما يفارقه النوم لاستنكاره الموضع ،

أو سبب آخر ، فيغتنم زوال النوم ، وفى منزله ربما يغلبه النوم . وربما ينضاف إليه أنه فى منزله على الدوام ، والنفس لاتسمح بالتهجد دائما ، وتسمح بالتهجد وقتا قليلا ، فيكون ذلك سبب هذا النشاط ، مع اندفاع سائر العوائق . وقد يعسر عليه الصوم فى منزله ومعه أطايب الأطعمة ، ويشق عليه الصبر عنها . فإذا أعوزته تلك الأطعمة لم يشق عليه ، فتنبعث داعية الدين للصوم ، فإن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين . فإذا سلم منها قوى الباعث . فهذا وأمثاله من الأسباب يتصور وقوعه ، ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم . والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل ويقول : لاتعمل فإنك تكون مرائيا ، إذ كنت لاتعمل فى بيتك ، ولا تزد على صلاتك المعتادة

وقد تكون رغبته فى الزيادة لأجل رؤيتهم ، وخوفا من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل لاسيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل ، فإن نفسه لاتسمح بأن يسقط من أعينهم ، فيريد أن يحفظ منزلته . وعند ذلك قد يقول الشيطان : صل فإنك مخلص ؛ ولست تصلى لأجلهم بل لله ، وإنما كنت لاتصلى كل ليلة لكثرة العوائق ، وإنما داعيتك لزوال العوائق لا لاطلاعهم وهذا أمر مشتبه إلا على ذوى البصائر . فإذا عرف أن المحرك هو الرياء ، فلا ينبغى أن يزيد على ما كان يعتاده ولا ركعة واحدة ، لأنه يعصى الله بطلب محمدة الناس بطاعة الله . وإن كان انبعاثه لدفع العوائق ، وتحرك الغبطة والمنافسة بسبب عبادتهم ، فليوافق . وعلامة ذلك أن يعرض على نفسه أنه لو رأى هؤلاء يصلون من حيث لايرونه ، بل من وراء حجاب ، وهو فى ذلك الموضع بعينه هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لايرونه ، فإن سخت نفسه فليصل ، فإن باعثه الحق وإن كان ذلك يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم فليترك ، فإن باعثه الرياء .

وكذلك قد يحضر الإنسان يوم الجمعة فى الجامع من نشاط الصلاة مالايحضره كل يوم ويمكن أن يكون ذلك لحب حمدهم ، ويمكن أن يكون نشاطه بسبب نشاطهم ، وزوال غفلته بسبب إقبالهم على الله تعالى . وقد يتحرك بذلك باعث الدين ، ويقارنه نزوع النفس إلى حب الحمد . فمهما علم أن الغالب على قلبه إرادة الدين ، فلا ينبغى أن يترك العمل بما يجده من حب الحمد ، بل ينبغى أن يرد ذلك على نفسه بالكراهية ، ويشتغل بالعبادة . وكذلك قد يبكى جماعة ، فينظر إليهم ، فيحضره البكاء خوفا من الله تعالى ، لامن الرياء ، ولو سمع

ذلك الكلام وحده لما بكى . ولكن بكاء الناس يؤثر فى ترقيق القلب . وقد لا يحضره البكاء فيتباكى تارة رياء وتارة مع الصدق ، إذ يخشى على نفسه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه ، فيتباكى تكلفا . وذلك محمود ، وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه ، هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا ؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم ، فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغى أن يترك التباكى . قال لقمان عليه السلام لابنه: لا ترى الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر . وكذلك الصيحة ، والتنفس ، والأنين عند القرءان أو الذكر ، أو بعض مجارى الأحوال ، تارة تكون من الصدق ، والحزن والخوف ، والندم ، والتأسف ، وتارة تكون لمشاهدته حزن غيره ، وقساوة قلبه ، فيتكلف التنفس والأنين ويتحازن . وذلك محمود . وقد تقترن به الرغبة فيه لدلالته على أنه كثير الحزن ، ليعرف بذلك . فإن تجردت هذه الداعية فهى الرياء . وإن اقترنت بداعية الحزن ، فإن أباها ولم يقبلها وكرهها سلم بكاؤه وتباكيه . وإن قبل ذلك وركن إليه بقلبه حبط أجره ، وضاع سعيه ، وتعرض لسخط الله تعالى به.

وقد يكون أصل الأنين عن الحزن ، ولكن يمده ويزيد فى رفع الصوت . فتلك الزيادة رياء ، وهو محظور . لأنها فى حكم الابتداء لمجرد الرياء . فقد يهيج من الخوف ما لا يملك العبد معه نفسه ، ولكن يسبقه خاطر الرياء فيقبله ، فيدعو إلى زيادة تحزين للصوت ، أو رفع له أو حفظ الدمعة على الوجه حتى تبصر بعد أن استرسلت لخشية الله ، ولكن يحفظ أثرها على الوجه لأجل الرياء . وكذلك قد يسمع الذكر فتضعف قواه من الخوف فيسقط ، ثم يستحى أن يقال له إنه سقط من غير زوال عقل وحالة شديدة فيزعق ويتواجد تكلفا ، ليرى أنه سقط لكونه مغشيا عليه ، وقد كان ابتداء السقطة عن صدق . وقد يزول عقله ، فيسقط ، ولكن يفيق سريعا ، فتجزع نفسه أن يقال حالته غير ثابتة ، وإنما هى كبرق خاطف ، فيستديم الزعقة والرقص ليرى دوام حاله . وكذلك قد يفيق بعد الضعف ولكن يزول ضعفه سريعا ، فيجزع أن يقال لم تكن غشيته صحيحة ، ولو كان لدام ضعفه . فيستديم إظهار الضعف والأنين ، فيتكىء على غيره ، يرى أنه يضعف عن القيام ، ويتمايل فى المشى ، ويقرب الخطا ليظهر أنه ضعيف عن سرعة المشى . فهذه كلها مكايد الشيطان

ونزغات النفس . فإذا خطرت فعلاجها أن يتذكر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن ، واطلعوا على ضميره لمقتوه ، وأن الله مطلع على ضميره ، وهو له أشد مقتا . كما روى عن ذى النون رحمه الله أنه قام وزعق ، فقام معه شيخ آخر رأى فيه أثر التكلف ، فقال ياشيخ الذى يراك حين تقوم ، فجلس الشيخ . وكل ذلك من أعمال المنافقين . وقد جاء في الخبر « تَعَوَّذُوا [1] بِاللهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ » وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلب غير خاشع

ومن ذلك الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه ، فإن ذلك قد يكون لخاطر خوف ، وتذكر ذنب وتندم عليه : وقد يكون للمراآة . فهذه خواطر ترد على القلب متضادة مترادفة متقاربة ، وهي مع تقاربها متشابهة . فراقب قلبك في كل ما يخطر لك وانظر ماهو ، ومن اين هو . فإن كان لله فأمضه ، واحذر مع ذلك أن يكون قد خفي عليك شيء من الرياء الذى هو كدبيب النمل ، وكن على وجل من عبادتك أهي مقبولة أم لا؟ لخوفك على الإخلاص فيها . واحذر أن يتجدد لك خاطر الركون إلى حمدهم بعد الشروع بالإخلاص فإن ذلك مما يكثر جدا . فإذا خطر لك فتفكر في اطلاع الله عليك ، ومقته لك ، وتذكر ماقاله أحد الثلاثة الذين حاجوا أيوب عليه السلام ، إذ قال ياأيوب : أما علمت أن العبد تضل عنه علانيته التى كان يخادع بها عن نفسه ، ويجزى بسريرته؟ وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أنى أخشاك وأنت لى ماقت . وكان من دعاء علي بن الحسين رضي الله عنهما اللهم إنى أعوذ بك أن تحسن في لامعة العيون علانيتى ، وتقبح لك فيما أخلو سريرتى ، محافظا على رياء الناس من نفسى ، ومضيعا لما أنت مطلع عليه منى ، أبدى للناس أحسن أمرى ، وأفضى إليك بأسوأ عملى ، تقربا إلى الناس بحسناتى ، وفرارا منهم إليك بسيئآتى فيحل بى مقتك ، ويجب على غضبك . أعذنى من ذلك يارب العالمين

وقد قال أحد الثلاثة نفر لأيوب عليه السلام : ياأيوب ، ألم تعلم أن الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلب الحاجات إلى الرحمن ، تسود وجوههم؟

---

(١) حديث تعوذوا بالله من خشوع النفاق: البيهقى في الشعب من حديث أبي بكر الصديق وفيه الحارث بن عبيد الايادى ضعفه أحمد وابن معين

فهذه جمل آفات الرياء، فليراقب العبد قلبه ليقف عليها ، ففي الخبر[1] إن للرياء سبعين بابا ، وقد عرفت أن بعضه أغمض من بعض ، حتى أن بعضه مثل دبيب النمل ، وبعضه أخفى من دبيب النمل . وكيف يدرك ماهو أخفى من دبيب النمل إلا بشدة التفقد والمراقبه. وليته أدرك بعد بذل المجهود . فكيف يطمع في إدراكه من غير تفقد للقلب ، وامتحان للنفس ، وتفتيش عن خدعها ، نسأل الله تعالى العافية عنه وكرمه وإحسانه

بيان

ما ينبغي للمريد أن يلزم نفسه قبل العمل وبعده وفيه

اعلم أن أولى ما يُلزِمُ المريد قلبه في سائر أوقاته ، القناعة بعلم الله في جميع طاعاته ، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو إلا الله . فأما من خاف غيره وارتجاه ، اشتهى اطلاعه على محاسن أحواله . فإن كان في هذه الرتبة فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان ، لما فيه من خطر التعرض للمقت ، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدر عليها غيره ، فإن النفس عند ذلك تكاد تغلي حرصا على الإفشاء ، وتقول مثل هذا العمل العظيم ، أو الخوف العظيم ، أو البكاء العظيم ، لو عرفه الخلق منك لسجدوا لك . فما في الخلق من يقدر على مثله . فكيف ترضى بإخفائه . فيجهل الناس محلك ، وينكرون قدرك ، ويحرمون الاقتداء بك ! ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمه ، ويتذكر في مقابلة عظم عمله عظم ملك الآخرة ونعيم الجنة ، ودوامه أبد الآباد ، وعظم غضب الله ومقته على من طلب بطاعته ثوابا من عباده . ويعلم أن إظهاره لغيره محبب إليه ، وسقوط عند الله ،

---

(١) حديث الرياء سبعون بابا هكذا ذكر المصنف هذا ـ الحديث : هنا وكأنه تصحف عليه أو على من نقله من كلامه انه الرياء بالمثناة وانما هو الربا بالموحدة والمرسوم كتابته بالواو والحديث رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ الربا سبعون حوبا أيسرها ان ينكح الرجل أمه وفي اسناده أبو معشر واسمه نجيح مختلف فيه وروى ابن ماجه أيضا من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الربا ثلاثة وسبعون بابا واسناده صحيح هكذا ذكر ابن ماجه الحديثين في أبواب التجارات وقد روى البزار حديث ابن مسعود بلفظ الربا بضع وسبعون بابا والشرك مثل ذلك وهذه الزيادة قد يستدل بها على انه الرياء بالمثناة لاقترانه مع الشرك والله أعلم

وإحباط للعمل العظيم . فيقول وكيف أتبع مثل هذا العمل بحمد الخلق ، وهم عاجزون لايقدرون لى على رزق ولا أجل ؟ فيلزم ذلك قلبه .

ولا ينبغى أن ييأس عنه ، فيقول إنما يقدرعلى الإخلاص الأقوياء ؛ فأما المخلطون فليس ذلك من شأنهم . فيترك المجاهدة فى الإخلاص . لأن المخلط إلى ذلك أحوج من المتقى ، لأن المتقى إن فسدت نوافله . بقيت فرائضه كاملة تامة .والمخلط لاتخلو فرائضه عن النقصان ، والحاجة إلى الجبران بالنوافل .فإن لم تسلم صار مأخوذا بالفرائض، هلك به. فالمخلط إلى الإخلاص أحوج

وقد روى تميم الدارى عن النبى صلى الله عليه وسلم [١] أنه قال « يُحَاسَبُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنْ نَقَصَ فَرْضُهُ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَ بِهِ فَرْضُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ تَطَوُّعٌ أُخِذَ بِطَرَفَيْهِ فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ » فيأتى المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص ، وعليه ذنوب كثيرة ، فاجتهاده فى جبر الفرائض وتكفير السيئات ، ولا يمكن ذلك إلا بخلوص النوافل . وأما المتقى ، فجهده فى زيادة الدرجات . فإن حبط تطوعه بقى من حسناته مايترجح على السيئات ، فيدخل الجنة . فإذاً ينبغى أن يلزم قلبه خوف اطلاع غير الله عليه ، لتصح نوافله . ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ ، حتى لا يظهره ولا يتحدث به .

وإذا فعل جميع ذلك . فينبغى أن يكون وجلا من عمله ، خائفا أنه ربما داخله من الرياء الخفى مالم يقف عليه ، فيكون شاكا فى قبوله ورده ، مجوزا أن يكون الله قد أحصى عليه من نيته الخفية مامقته بها ، ورد عمله بسببها . ويكون هذا الشك والخوف فى دوام عمله وبعده لافى ابتداء العقد . بل ينبغى أن يكون متيقنا فى الابتداء أنه مخلص ، مايريد بعمله إلا الله ، حتى يصح عمله . فإذا شرع ومضت لحظة يمكن فيها الغفلة والنسيان ، كان الخوف من الغفلة عن شائبة خفية أحبطت عمله ، من رياء أو عجب أولى به . ولكن يكون رجاؤه أغلب من خوفه لأنه استيقن أنه دخل بالإخلاص ، وشك فى أنه هل أفسده برياء ، فيكون رجاء القبول أغلب وبذلك تعظم لذته فى المناجاة والطاعات ، فالإخلاص يقين والرياء شك . وخوفه لذلك الشك جدير بأن يكفر خاطر الرياء إن كان قد سبق وهو غافل عنه . والذى يتقرب إلى الله بالسعى فى حوائج الناس وإفادة العلم ، ينبغى أن يلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور

---

(١) حديث تميم الدارى فى إكمال فريضة الصلاة بالتطوع: أبوداود وابن ماجه وتقدم فى الصلاة

على قلب من قضى حاجته فقط . ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط ، دون شكر ، ومكافأة وحمد ، وثناء من المتعلم والمنعم عليه ، فإن ذلك يحبط الأجر . فمهما توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة ، أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه ، أو ترددا منه في حاجة فقد أخذ أجره ، فلا ثواب له غيره . نعم . إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه ليكون له مثل أجره ، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته ، فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا ينتظره ولا يريده منه ، ولا يستبعده منه لو قطعه . ومع هذا فقد كان العلماء يحذرون هذا ، حتى أن بعضهم وقع في بئر ، فجاء قوم فأدلوا حبلا ليرفعوه ، فحلف عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آية من القرءان ، أو سمع منه حديثا ، خيفة أن يحبط أجره . وقال شقيق البلخي : أهديت لسفيان الثوري ثوبا فرده عليّ . فقلت له يا أبا عبد الله لست أنا ممن يسمع الحديث حتى ترده عليّ . قال علمت ذلك ، ولكن أخوك يسمع مني الحديث فأخاف أن يلين قلبي لأخيك أكثر مما يلين لغيره . وجاء رجل إلى سفيان ببدرة أو بدرتين وكان أبوه صديقا لسفيان ، وكان سفيان يأتيه كثيرا . فقال له يا أبا عبد الله في نفسك من أبي شيء ؟ فقال يرحم الله أباك ، كان وكان ، وأثنى عليه . فقال يا أبا عبد الله ، قد عرفت كيف صار هذا المال إلي ، فأحب أن تأخذ هذه تستعين بها على عيالك . قال فقبل سفيان ذلك . قال فلما خرج قال لولده : يا مبارك ، ألحقه فرده عليّ . فرجع فقال أحب تأخذ مالك . فلم يزل به حتى رده عليه ، وكأنه كانت أخوته مع أبيه في الله تعالى ، فكره أن يأخذ ذلك . قال ولده فلما خرج لم أملك نفسي أن جئت إليه فقلت : ويلك ، أي شيء قلبك هذا حجارة ! عدّ أنه ليس لك عيال ، أما ترحمني ؟ أما ترحم إخوتك ؟ أما ترحم عيالنا ؟ فأكثرت عليه . فقال لي يا مبارك ، تأكلها أنت هنيئا مريئا ، وأسئل عنها أنا . فإذاً يجب على العالم أن يلزم قلبه طلب الثواب من الله في اهتداء الناس به فقط . ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله وطلب ثوابه ، ونيل المنزلة عنده لا عند المعلم وعند الخلق . وربما يظن أن له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلم منه . وهو خطأ . لأن إرادته بطاعته غير الله خسران في الحال والعلم . وربما يفيد وربما لا يفيد . فكيف يخسر في الحال عملا نقدا على توهم علم ! وذلك غير جائز . بل ينبغي أن يتعلم لله ، ويعبد لله ، ويخدم المعلم لله ، لا ليكون له في قلبه منزلة ،

إن كان يريد أن يكون تعلمه طاعة . فإن العباد أمروا أن لا يعبدوا إلا الله، ولا يريدوا بطاعتهم غيره

وكذلك من يخدم أبويه ، لا ينبغي أن يخدمهما لطلب المنزلة عندهما ، إلا من حيث أن رضا الله عنه في رضا الوالدين . ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله عن ريائه، وتسقط منزلته من قلوب الوالدين أيضا

وأما الزاهد المعتزل عن الناس ، فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله. فإن ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به. وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله، وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان ، دخلت عليه في صومعته ، فقلت ياسمعان منذكم أنت في صومعتك ؟ قال منذ سبعين سنة . قلت فما طعامك ؟ قال ياحنيفي ومادعاك إلى هذا ؟ قلت أحببت أن أعلم . قال في كل ليلة حمصة . قلت فما الذي يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة ؟ قال ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت نعم : قال إنهم يأتوني في كل سنة يوما واحدا ، فيزينون صومعتي ، ويطوفون حواها ويعظموني . فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عز تلك الساعة . فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة . فاحتمل ياحنيفي جهد ساعة لعز الأبد . فوقر في قلبي المعرفة . فقال حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى . قال انزل عن الصومعة . فنزلت . فأدلى لي ركوة فيها عشرون حمصة فقال لي : ادخل الدير فقد رأوا ما أدليت إليك . فلما دخلت الدير اجتمع على النصارى فقالوا ياحنيفي ، ما الذي أدلى إليك الشيخ ؟ قلت من قوته . قالوا فما تصنع به ونحن أحق به؟ ثم قالوا ساوم . قلت عشرون دينارا . فأعطوني عشرين دينارا . فرجعت إلى الشيخ ،فقال ياحنيفي ماالذي صنعت ؟ قلت بعته منهم . قال بكم ؟ قلت بعشرين دينارا . قال أخطأت ، لو ساومتهم بعشرين ألف دينار لأعطوك . هذا عز من لاتعبده . فانظر كيف يكون عز من تعبده ! ياحنيفي أقبل على ربك ، ودع الذهاب والجيئة . والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب يكون باعثا في الخلوة ، وقد لا يشعر العبد به . فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه . وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة . فلو تغيروا عن اعتقادهم له لم يجزع ، ولم يضق به ذرعا، إلا كراهة ضعيفة . إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه ،

فإنه لو كان فى عبادة واطلع الناس كلهم عليه ، لم يزده ذلك خشوعا ، ولم يداخله سرور بسبب اطلاعهم عليه . فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه ، ولكن إذاقدر على رده بكراهة العقل والإيمان ، وبادر إلى ذلك ، ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه، فيرجى له أن لايخيب سعيه ، إلا أن يزيد عند مشاهدتهم فى الخشوع والانقباض كى لاينبسطوا إليه ، فذلك لابأس به ، ولكن فيه غرور . إذ النفس قد تكون شهوتها الخفية إظهار الخشوع وتتعلل بطلب الانقباض ، فيطالبها فى دعواها قصد الانقباض بموثق من الله غليظ ، وهو أنه لو علم أن انقباضهم عنه إنما حصل بأن يعدو كثيرا ، أو يضحك كثيرا ، أو يأكل كثيرا فتسمح نفسه بذلك . فإذا لم تسمح وسمحت بالعبادة ، فيشبه أن يكون مرادها المنزلة عندهم ولا ينجو من ذلك إلا من تقرر فى قلبه أنه ليس فى الوجود أحد سوى الله ، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمله ، فلا يلتفت قلبه إلى الخلق إلا خطرات ضعيفة لايشق عليه إزالتها • فإذا كان كذلك لم يتغير بمشاهدة الخلق . ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان ، أحدهما غنى والآخر فقير ، فلا يجد عند إقبال الغنى زيادة هزة فى نفسه لاكرامة ، إلا إذا كان فى الغنىّ زيادة علم أو زيادة ورع ، فيكون مكرما له بذلك الوصف لابالغنى . فمن كان استرواحه إلى مشاهدة الأغنياء أكثر ، فهو مراء أو طماع . وإلا فالنظر إلى الفقراء يزيد فى الرغبة إلى الآخرة ، ويحبب إلى القلب المسكنة . والنظر إلى الأغنياء بخلافه . فكيف استروح بالنظر إلى الغنى أكثر مما يستروح إلى الفقير !

وقد حكى أنه لم ير الأغنياء فى مجلس أذل منهم فيه فى مجلس سفيان الثورى كان يجلسهم وراء الصف ويقدم الفقراء ، حتى كانوا يتمنون أنهم فقراء فى مجلسه . نعم لك زيادة إكرام للغنى إذا كان أقرب إليك أو كان بينك وبينه حق وصداقة سابقة ، ولكن يكون بحيث لو وجدت تلك العلاقة فى فقير ، لكنت لاتقدم الغنى عليه فى إكرام وتوقير ألبتة ، فإن الفقير أكرم على الله من الغنى فإيثارك له لايكون إلا طمعا فى غناه ، ورياء له . ثم إذا سويت بينهما فى المجالسة ، فيخشى عليك أن تظهر الحكمة والخشوع للغنى أكثر مما تظهره للفقير ، وإنما ذلك رياء خفى ، أو طمع خفى . كما قال ابن السماك لجارية له : مالى إذا أتيت بغداد فتحت لى الحكمة ؟ فقالت الطمع يشحذ لسانك . وقد صدقت . فإن اللسان ينطلق عند الغنى بما لا ينطلق به عند الفقير وكذلك يحضر من الخشوع عنده مالا يحضر عند الفقير

ومكايد النفس وخفاياها فى هذا الفن لا تنحصر ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ماسوى الله من قلبك ، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ، ولا ترضى لها بالنار بسبب شهوات منغصة فى أيام متقاربة ، وتكون فى الدنيا كملك من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات ، وساعدته اللذات ، ولكن فى بدنه سقم ، وهو يخاف الهلاك على نفسه فى كل ساعة لو اتسع فى الشهوات . وعلم أنه لو احتمى وجاهد شهوته ، عاش ودام ملكه . فلما عرف ذلك جالس الأطباء ، وحارف الصيادلة ، وعود نفسه شرب الأدوية المرة ، وصبر على بشاعتها وهجر جميع اللذات ، وصبر على مفارقتها . فبدنه كل يوم يزداد نحولا لقلة أكله، ولكن سقمه يزداد كل يوم نقصانا لشدة احتمائه . فهما نازعته نفسه إلى شهوة تفكر فى توالى الأوجاع والآلام عليه ، وأداء ذلك إلى الموت المفرق بينه وبين مملكته ، الموجب لشماتة الأعداء به . ومهما اشتد عليه شرب دواء تفكر فيما يستفيده منه من الشفاء ، الذى هو سبب التمتع بملكه ونعيمه ، فى عيش هنىء ، وبدن صحيح ، وقلب رخى ، وأمر نافذ، فيخف عليه مهاجرة اللذات ، ومصابرة المكروهات . فكذلك المؤمن المريد لملك الآخرة احتمى عن كل مهلك له فى آخرته ، وهى لذات الدنيا وزهرتها ، فاجتزى منها بالقليل، واختار النحول والذبول ، والوحشة ، والحزن، والخوف ، وترك المؤانسة بالخلق ، خوفا من أن يحل عليه غضب من الله فيهلك ، ورجاء أن ينجو من عذابه . فخف ذلك كله عليه عند شدة يقينه ، وإيمانه بعاقبة أمره ؛ وبما أعد له من النعيم المقيم فى رضوان الله أبد الآباد . ثم علم أن الله كريم رحيم ، لم يزل لعباده المريدين لمرضاته عونا ، وبهم رءوفا ، وعليهم عطوفا. ولو شاء لأغناهم عن التعب ، ولكن أراد أن يبلوهم ، ويعرف صدق إرادتهم ، حكمة منه وعدلا ثم إذا تحمل التعب فى بدايته ؛ أقبل الله عليه بالمعونة والتيسير وحط عنه الأعباء ، وسهل عليه الصبر ، وحبب إليه الطاعة ، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه عن سائر اللذات ويقويه على إماتة الشهوات ، ويتولى سياسته وتقويته ، وأمده بمعونته . فإن الكريم لا يضيع سعى الراجى ، ولا يخيب أمل المحب ، وهو الذى يقول . من تقرب إلىّ شبرا تقربت إليه ذارعا : ويقول تعالى . لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي ، وإنى إلى لقائهم أشد شوقا . فليظهر العبد فى البداية جده وصدقه وإخلاصه ، فلا يعوزه من الله تعالى على القرب ماهو اللائق ، بجوده ، وكرمه ، ورأفته ، ورحمته . تم كتاب ذم الجاه والرياء ، والحمد لله وحده



فهرست الجزء العاشر

الصفحة

الصفحة



كتاب الشعب

إحياء علوم الدّين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الحادي عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت ٣١٨١٠



كتاب ذمّ الكبر والعجب

كتاب ذم الكبر والعجب

وهو الكتاب التاسع من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق ، البارىء ، المصوّر، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، العلى الذى لا يضعه عن مجده واضع ، الجبار الذى كل جبار له ذليل خاضع ، وكل متكبر فى جناب عزه مسكين متواضع . فهو القهار الذى لا يدفعه عن مراده دافع ، الغنى الذى ليس له شريك ولا منازع ، القادر الذى بهر أبصارَ الخلائق جلاله وبهاؤه ، وقهر العرش المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه ، وحصر ألسن الأنبياء وصفه وثناؤه ، وارتفع عن حد قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه . فاعترف بالعجز عن وصف كنه جلاله ملائكته وأنبياؤه ، وكسر ظهور الأكاسرة عزه وعلاؤه ، وقصر أيدى القياصرة عظمته وكبرياؤه . فالعظمة إزاره والكبرياء رداؤه ، ومن نازعه فيهما قصمه بداء الموت فأعجزه دواؤه . جل جلاله وتقدست أسماؤه . والصلاة على محمد الذى أنزل عليه النور المنتشر ضياؤه ، حتى أشرقت بنوره أكناف العالم وأرجاؤه ، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباء الله وأولياؤه ، وخيرته وأصفياؤه ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] « قَالَ اللهُ تَعَالَى اْلْكِبْرِيَاءُ رِدَائِى وَالْعَظَمَةُ إِزَارِى فَمَنْ نَازَعَنِى فِيهِمَا قَصَمْتُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم[2] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » فالكبر والعجب داءان مهلكان . والمتكبر

(كتاب ذم الكبر والعجب)

(١) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما قصمته : الحاكم فى المستدرك دون ذكر العظمة وقال صحيح على شرط مسلم وتقدم فى العلم وسيأتى بعد حديثين بلفظ آخر

(٢) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : البزار والطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف وتقدم فيه أيضا .

والمعجب سقيمان مريضان ؛ وهما عند الله ممقوتان بغيضان . وإذا كان القصد في هذا الربع من كتاب إحياء علوم الدين شرح المهلكات ، وجب إيضاح الكبر والعجب فإنهما من قبائح المرديات ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين . شطر في الكبر ، وشطر في العجب

الشطر الأول

من الكتاب في الكبر

وفيه بيان ذم الكبر ، وبيان ذم الاختيال ، وبيان فضيلة التواضع ، وبيان حقيقة التكبر وآفته ، وبيان من يتكبر عليه ودرجات التكبر ، وبيان ما به التكبر ، وبيان البواعث على التكبر ، وبيان أخلاق المتواضعين وما فيه يظهر الكبر ، وبيان علاج الكبر ، وبيان امتحان النفس في خلق الكبر ، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه

بيان

ذم الكبر

قد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه ، وذم كل جبار متكبر ، فقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ[١]) وقال عز وجل (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[٢]) وقال تعالى (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[٣]) وقال تعالى (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ[٤]) وقال تعالى (لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا[٥]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ[٦])

وذم الكبر في القرآن كثير . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ » وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من إيمان : مسلم من حديث ابن مسعود

(١) الاعراف : ١٤٦ (٢) غافر : ٣٥ (٣) ابراهيم : ١٥ (٤) النحل : ٢٣ (٥) الفرقان : ٢١ (٦) غافر : ٦٠

(١) « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلاَ أُبَالِي » وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصفا ، فتواقفا ، فمضى ابن عمرو ، وأقام ابن عمر يبكي . فقالوا ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ فقال هذا ، يعني عبد الله بن عمرو ، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) يقول « مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ أَكَبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) « لاَ يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ » . وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوما للطير ، والإنس ، والجن ، والبهائم اخرجوا . فخرجوا في مائتي ألف من الإنس ، ومائتي ألف من الجن . فرفع حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السموات ، ثم خفض حتى مست أقدامه البحر ، فسمع صوتا : لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخسفت به أبعد مما رفعته

وقال صلى الله عليه وسلم (٤) « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ عُنُقٌ لَهُ أُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَعَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ يَقُولُ وُكِّلْتُ بِثَلاَثَةٍ بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَبِالْمُصَوِّرِينَ » وقال صلى الله عليه وسلم (٥) « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَخِيلٌ وَلاَ جَبَّارٌ وَلاَ سَيِّءُ الْمَلَكَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم (٦) « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَالِي لاَ يَدْخُلُنِي إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَاطُهُمْ وَعَجَزَتُهُمْ

---

(١) حديث أبي هريرة يقول الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود قذفته في النار وقال مسلم عذبته وقال رداؤه وازاره بالغيبة وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضا

(٢) حديث عبد الله بن عمرو من كان في قلبه مثقال حبة من كبر كبه الله في النار على وجهه : أحمد والبيهقي في شعب الايمان من طريقه باسناد صحيح

(٣) حديث لايزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين ـ الحديث : الترمذي وحسنه من حديث سلمة بن الأكوع دون قوله من العذاب

(٤) حديث يخرج من النار عنق له أذنان ـ الحديث : الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح غريب

(٥) حديث لا يدخل الجنة جبار ولا بخيل ولا سيء الملكة : تقدم في أسباب الكسب والمعاش والمعروف خائن مكان جبار

(٦) حديث تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

فقالَ اللهُ لِلجنَّةِ إنَّما أنتِ رَحمتِي أرحمُ بكِ مَنْ أشاءُ مِنْ عِبادِي وَقالَ لِلنَّارِ إنَّما أنتِ عَذابِي أُعذِّبُ بكِ مَنْ أشاءُ وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنكُما مِلْؤُها » وقال صلى الله عليه وسلم[١] « بِئسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجبَّرَ وَاعتدَى وَنَسِيَ الجبَّارَ الأعلَى بِئسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجبَّرَ وَاختالَ وَنَسِيَ الكَبيرَ المُتعالَ بِئسَ العَبْدُ عَبْدٌ غَفَلَ وَسَهَا وَنَسِيَ المَقابِرَ وَالبِلَى بِئسَ عَبْدٌ عَتَا وَبَغَى وَنَسِيَ المُبْدَأَ وَالمُنْتَهَى » وعن ثابت أنه قال[٢] : بلغنا أنه قيل يارسول الله ، ماأعظم كبر فلان ! فقال « أليسَ بَعْدَهُ المَوْتُ ؟ » وقال عبد الله بن عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣] قال « إنَّ نُوحاً عليهِ السَّلامُ لَمَّا حَضَرتهُ الوَفاةُ دَعا ابْنَيْهِ وَقالَ إنِّي آمُرُكُما بِاثنتَيْنِ وَأنهاكُما عَنِ اثنتَيْنِ أنهاكُما عَنِ الشِّرْكِ وَالكِبْرِ وَآمُرُكُما بِلا إلهَ إلاَّ اللهُ فإنَّ السَّمواتِ وَالأَرَضينَ وَما فِيهِنَّ لَوْ وُضِعَتْ فِي كَفَّةِ المِيزانِ وَوُضِعَتْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ فِي الكَفَّةِ الأُخْرَى كانَتْ أرْجَحَ مِنْهُما وَلَوْ أنَّ السَّمواتِ وَالأَرَضينَ وَما فِيهِنَّ كانَتا حَلْقَةً فَوُضِعَتْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ عَلَيْها لَقَصَمَتْها وَآمُرُكُما بِسُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فإنَّها صَلاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِها يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ » . وقال المسيح عليه السلام : طوبى لمن علمه الله كتابه ثم لم يمت جبارا . وقال صلى الله عليه وسلم[٤] « أهْلُ النَّارِ كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ وَأهْلُ الجَنَّةِ الضُّعَفاءُ المُقِلُّونَ »

---

(١) حديث بئس العبد عبد تجبر واعتدى ـ الحديث : الترمذى من حديث أسماء بنت عميس بزيادة فيه مع تقديم وتأخير وقال غريب وليس اسناده بالقوى ورواه الحاكم في المستدرك وصححه ورواه البيهقى فى الشعب من حديث نعيم بن عمار وضعفه

(٢) حديث ثابت بلغنا انه قيل يارسول الله ماأعظم كبر فلان فقال أليس بعده الموت : البيهقى فى الشعب هكذا مرسلا بلفظ تجبر

(٣) حديث عبد الله بن عمرو ان نوحا لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال انى آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين أنهاكما عن الشرك والكبر ـ الحديث : أحمد والبخارى فى كتاب الأدب والحاكم بزيادة فى نقله قال صحيح الاسناد

(٤) حديث أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع : وهذه الزيادة عندهما من حديث عبد الله ابن عمرو وفى الصحيحين من حديث حارثة بن وهب الخزاعى ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر

وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ » قالوا يارسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون ، فما المتفيهقون ؟ قال « الْمُتَكَبِّرُونَ »

وقال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ ذَرًّا فِي مِثْلِ صُوَرِ الرِّجَالِ يَعْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَسُ يَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينِ الْخَبَالِ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ » . وقال أبو هريرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم [(٣)] « يُحْشَرُ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى » وعن محمد بن واسع قال . دخلت على بلال بن أبي بردة ، فقلت له يا بلال إن أباك حدثني عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم [(٤)] أنه قال « إِنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا يُقَالُ لَهُ هَبْهَبُ حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ يُسْكِنَهُ كُلَّ جَبَّارٍ » فإياك يا بلال أن تكون ممن يسكنه . وقال صلى الله عليه وسلم [(٥)] « إِنَّ فِي النَّارِ قَصْرًا يُجْعَلُ فِيهِ الْمُتَكَبِّرُونَ وَيُطْبَقُ عَلَيْهِمْ » وقال صلى الله عليه وسلم [(٦)] « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ »

---

(١) حديث ان أحبكم الينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقا ـ الحديث : أحمد من حديث أبى ثعلبة الخشنى بلفظ الى ومنى وفيه انقطاع ومكحول لم يسمع من أبى ثعلبة وقد تقدم فى رياضة النفس أول الحديث

(٢) حديث يحشر المتكبرون يوم القيامة ذرا فى صور الرجال ـ الحديث : الترمذى من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال حسن غريب

(٣) حديث أبى هريرة يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صور الذر ـ الحديث : البزار هكذا مختصرا دون قوله الجبارون واسناده حسن

(٤) حديث أبى موسى ان فى جهنم واديا يقال له هبهب حق على الله أن يسكنه كل جبار : أبو يعلى والطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد قلت فيه أزهر بن سنان ضعفه ابن معين وابن حبان وأورد له فى الضعفاء هذا الحديث

(٥) حديث ان فى النار قصرا يجعل فيه المتكبرون ويطبق عليهم : البيهقى فى الشعب من حديث أنس وقال توابيت مكان قصرا وقال فيقفل مكان يطبق وفيه أبان بن أبى عياش وهو ضعيف .

(٦) حديث اللهم انى أعوذ بك من نفخة الكبرياء : لم أره بهذ اللفظ وروى أبو داود وابن ماجه من حديث جبير ابن مطعم عن النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء حديث أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزه الموتة ولأصحاب السنن من حديث أبى سعيد الخدرى نحوه تكلم فيه أبو داود وقال الترمذى هو أشهر حديث فى هذا الباب .

وقال(١) «مَنْ فَارَقَ رُوحُهُ جَسَدَهُ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ الْكِبْرُ وَالدَّيْنُ وَالْغُلُولُ»

الآثار . قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لا يحقرن أحد أحدا من المسلمين ، فإن صغير المسلمين عند الله كبير . وقال وهب : لما خلق الله جنة عدن ، نظر إليها فقال : أنت حرام على كل متكبر . وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب بن الزبير على سريره فجاء يوما ومصعب مادّ رجليه ، فلم يقبضهما ، وقعد الأحنف فزحمه بعض الزحمة ، فرأى أثر ذلك في وجهه ، فقال : عجبا لابن آدم يتكبر وقد خرج من مجرى البول مرتين . وقال الحسن : العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين ، ثم يعارض جبار السموات

وقد قيل في (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(١)) هو سبيل الغائط والبول . وقد قال محمد بن الحسين بن علي : ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك ، قل أو كثر . وسئل سلمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة ، فقال الكبر . وقال النعمان بن بشير على المنبر : إن للشيطان مصالي وفخوخا ، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى في غير ذات الله . نسأل الله تعالى العفو والعافية في الدنيا والآخرة بمنه وكرمه

بيان

ذم الاختيال وإظهار آثار الكبر في المشي وجر الثياب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) «لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَى رَجُلٍ يَجُرُّ إِزَارَهُ بَطَرًا» وقال صلى الله عليه وسلم(٣) « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي بُرْدَتِهِ إِذْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ فَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ

---

(١) حديث من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاثة دخل الجنة الكبر والدين والغلول : الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ثوبان وذكر المصنف لهذا الحديث هنا موافق للمشهور في الرواية أنه الكبر بالموحدة والراء لكن ذكر ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني قال إنما هو الكنز بالنون والزاي وكذلك أيضا ذكر ابن مردويه الحديث في تفسير والذين يكنزون الذهب والفضة

(٢) حديث لا ينظر الله إلى من جر إزاره بطرا : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث بينا رجل يتبختر في برديه قد أعجبته نفسه الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

---

(١) الذاريات : ٢١

فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم « من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه يوم القيامة »وقال زيد بن أسلم : دخلت على ابن عمر ، فمر به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد ، فسمعته يقول . أى بنى ارفع إزارك ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يقول « لا ينظر الله إلى من جر إزاره خيلاء »وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] بصق يوما على كفه ، ووضع أصبعه عليه وقال « يقول الله تعالى ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد جمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة » وقال صلى الله عليه وسلم [3] « إذا مشت أمتى المطيطاء وخدمتهم فارس والروم سلط الله بعضهم على بعض »قال ابن الأعرابى . هى مشية فيها اختيال وقال صلى الله عليه وسلم [4] « من تعظم فى نفسه واختال فى مشيته لقى الله وهو عليه غضبان »

الآثار : عن أبى بكر الهذلى قال : بينما نحن مع الحسن ، إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة ، وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه ، وانفرج عنها قباؤه ، وهو يمشى يتبختر . إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال : أف أف ، شامخ بأنفه ، ثانى عطفه ، مصعر خده ، ينظر فى عطفيه . أى حميق أنت ، تنظر فى عطفيك ، فى نعم غير مشكورة ولا مذكورة ، غير المأخوذ بأمر الله فيها ، ولا المؤدى حق الله منها ! والله أن يمشى أحد طبيعته يتخلج تخلج المجنون ، فى كل عضو من أعضائه لله نعمة ، وللشيطان به لفتة . فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه . فقال لا تعتذر إلى وتب إلى ربك . أما سمعت قول الله تعالى

---

(١) حديث ابن عمر لا ينظر الله الى من جر إزاره خيلاء : رواه مسلم مقتصرا على المرفوع دون ذكر مرور عبد الله بن واقد على ابن عمر وهو رواية لمسلم ان المار رجل من بنى ليث غير مسمى

(٢) حديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما على كفه ووضع أصبعه عليها وقال يقول ابن آدم أتعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن جحاش

(٣) حديث اذا مشت أمتى المطيطاء ـ الحديث : الترمذى وابن حبان فى صحيحه من حديث ابن عمر ـ المطيطاء بضم الميم وفتح الطاءين المهملتين بينهما مثناة من تحت مصغرا ولم يستعمل مكبرا

(٤) حديث من تعظم فى نفسه واختال فى مشيه لقى الله وهو عليه غضبان : أحمد والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا[١])

ومر بالحسن شاب عليه بزة له حسنة ، فدعاه فقال له : ابن آدم معجب بشبابه ، محب لشمائله ، كأن القبر قد وارى بدنك ، وكأنك قد لاقيت عملك . ويحك داو قلبك ، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم . وروى أن عمر بن عبد العزيز حج قبل أن يستخلف فنظر إليه طاوس وهو يختال فى مشيته ، فغمز جنبه بأصبعه ثم قال : ليست هذه مشية من فى بطنه خرء . فقال عمر كالمعتذر : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . ورأى محمد بن واسع ولده يختال ، فدعاه وقال : أتدرى من أنت ؟ أما أمك فأشتريها بمائتى درهم ، وأما أبوك فلا أكثر الله فى المسلمين مثله . ورأى ابن عمر رجلا يجر إزاره فقال . إن للشيطان إخوانا كررها مرتين أو ثلاثا . ويروى أن مطرف بن عبد الله ابن الشخير رأى المهلب وهو يتبختر فى جبة خز ، فقال : ياعبد الله ، هذه مشية يبغضها الله ورسوله . فقال له المهلب : أما تعرفنى ؟ فقال بلى أعرفك ، أولك نطفة مذرة . وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة . فمضى المهلب وترك مشيته تلك . وقال مجاهد فى قوله تعالى (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى[٢]) أى يتبختر

وإذ قد ذكرنا ذم الكبر والاختيال ، فلنذكر فضيلة التواضع والله تعالى أعلم

بيان

فضيلة التواضع

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « مَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلَّا عِزّاً وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَكَانِ وَعَلَيْهِ حَكَمَةٌ يُمْسِكَانِهِ بِهَا فَإِنْ هُوَ رَفَعَ نَفْسَهُ جَبَذَاهَا ثُمَّ قَالَا اللَّهُمَّ ضَعْهُ وَإِنْ وَضَعَ

(١) حديث مازاد الله عبدا بعفو الاعزا ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٢) حديث مامن أحد الاومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها ـ الحديث : العقيلى فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة والبيهقى أيضا من حديث ابن عباس وكلاهما ضعيف

(١) لقمان : ١٨ (٢) القيامة : ٣٣

نَفْسَهُ قَالَ اللَّهُمَّ ارْفَعْهُ » وقال صلى الله عليه وسلم [١] « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ وَأَنْفَقَ مَالاً جَمَعَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَرَحِمَ أَهْلَ الذُّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ وَخَالَطَ أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْحِكْمَةِ » وعن أبي سلمة المديني ، عن أبيه ، عن جده قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] عندنا بقباء ، وكان صائما . فأتيناه عند إفطاره بقدح من لبن ، وجعلنا فيه شيئا من عسل . فلما رفعه وذاقه وجد حلاوة العسل ، فقال « مَا هَذَا ؟ » قلنا يارسول الله جعلنا فيه شيئا من عسل . فوضعه وقال « أَمَا إِنِّي لاَ أُحَرِّمُهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللهُ وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفْقَرَهُ اللهُ وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللهِ أَحَبَّهُ اللهُ »

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم [٣] كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون ، فقام سائل على الباب ، وبه زمانة يتكره منها . فأذن له . فلما دخل أجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذه ، ثم قال له « اطْعَمْ » فكأن رجلا من قريش اشمأز منه وتكره فـمامات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها . وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « خَيَّرَنِي رَبِّي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا رَسُولاً أَوْ مَلِكًا نَبِيًّا فَلَمْ أَدْرِ أَيَّهُمَا أَخْتَارُ وَكَانَ صَفِيِّي مِنَ الْمَلاَئِكَةِ جِبْرِيلُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ فَقَالَ تَوَاضَعْ لِرَبِّكَ فَقُلْتُ عَبْدًا رَسُولاً »

---

(١) حديث طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ـ الحديث : البغوي وابن قانع والطبراني من حديث ركب المصري والبزار من حديث أنس وقد تقدم بعضه في العلم وبعضه في آفات اللسان

(٢) حديث أبي سلمة المديني عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عندنا بقباء وكان صائما ـ الحديث : وفيه من تواضع رفعه الله ـ الحديث : رواه البزار من رواية طلحة بن يحيى ابن طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جده طلحة فذكر نحوه دون قوله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ولم يقل بقبا وقال الذهبي في الميزان انه خبر منكر وقد تقدم ورواه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة قالت أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه لبن وعسل ـ الحديث : وفيه أما إني لا أزعم أنه حرام ـ الحديث : وفيه من أكثر ذكر الموت أحبه الله وروى المرفوع منه أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد دون قوله ومن بذر أفقره الله وذكرا فيه قوله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله وتقدم في ذم الدنيا

(٣) حديث السائل الذي كان به زمانة منكرة وأنه صلى الله عليه وسلم أجلسه على فخذه ثم قال اطعم ـ الحديث : لم أجد له أصلا والموجود حديث أكله مع مجذوم رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث جابر وقال الترمذي غريب

(٤) حديث خيرني ربي بين أمرين عبدا رسولا وملكا نبيا ـ الحديث : أبو يعلى من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن عباس وكلا الحديثين ضعيف

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ، ولم يتعاظم على خلقى ، وألزم قلبه خوفى ، وقطع نهاره بذكرى ، وكف نفسه عن الشهوات من أجلى

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « الْكَرَمُ التَّقْوَى وَالشَّرَفُ التَّوَاضُعُ وَالْيَقِينُ الْغِنَى » وقال المسيح عليه السلام : طوبى للمتواضعين فى الدنيا ، هم أصحاب المنابر يوم القيامة . طوبى للمصلحين بين الناس فى الدنيا ، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة . طوبى للمطهرة قلوبهم فى الدنيا ، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة . وقال بعضهم . بلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم[2] قال « إِذَا هَدَى اللهُ عَبْداً لِلْإِسْلَامِ وَحَسَّنَ صُورَتَهُ وَجَعَلَهُ فِى مَوْضِعٍ غَيْرِ شَائِنٍ لَهُ وَرَزَقَهُ مَعَ ذَلِكَ تَوَاضُعًا فَذَلِكَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم[3] « أَرْبَعٌ لَا يُعْطِيهِمُ اللهُ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ : الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ الْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللهِ وَالتَّوَاضُعُ وَالزُّهْدُ فِى الدُّنْيَا » . وقال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[4] « إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ رَفَعَهُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ » وقال صلى الله عليه وسلم[5] « التَّوَاضُعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً فَتَوَاضَعُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ » ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) حديث الكرم التقوى والشرف التواضع واليقين الغنى : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين مرسلا وأسند الحاكم أوله من رواية الحسن عن سمرة وقال صحيح الاسناد

(٢) حديث إذا هدى الله عبدا للاسلام وحسن صورته ــ الحديث : الطبرانى موقوفا على ابن مسعود نحوه وفيه المسعودى مختلف فيه

(٣) حديث أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب الصمت وهو أول العبادة والتوكل على الله والتواضع والزهد فى الدنيا : الطبرانى والحاكم من حديث أنس أربع لا يصبن إلا بعجب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشىء : قال الحاكم صحيح الاسناد قلت فيه العوام بن جويرية قال ابن حبان يروى الموضوعات ثم روى له هذا الحديث

(٤) حديث ابن عباس إذا تواضع العبد رفع الله رأسه إلى السماء السابعة : البيهقى فى الشعب نحوه وفيه زمعة ابن صالح ضعفه الجمهور

(٥) حديث إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ــ الحديث : الأصفهانى فى الترغيب والترهيب من حديث أنس وفيه بشر بن الحسين وهو ضعيف جدا ورواه ابن عدى من حديث ابن عمر وفيه الحسن بن عبد الرحمن الاحتياطى وخارجة بن مصعب وكلاهما ضعيف

(١)كان يطعم ، فجاء رجل أسود به جدرى قد تقشر ، فجعل لايجلس إلى أحد إلا قام من جنبه . فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وقال صلى الله عليه وسلم(٢) «إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَحْمِلَ الرَّجُلُ الشَّيْءَ فِي يَدِهِ يَكُونُ مِهْنَةً لِأَهْلِهِ يَدْفَعُ بِهِ الْكِبْرَ عَنْ نَفْسِهِ» وقال النبي صلى الله عليه وسلم(٣) لأصحابه يوما « مَالِي لَا أَرَى عَلَيْكُمْ حَلَاوَةَ الْعِبَادَةِ ؟ » قالوا وما حلاوة العبادة ؟ قال « التَّوَاضُعُ » قال صلى الله عليه وسلم(٤) « إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْ أُمَّتِي فَتَوَاضَعُوا لَهُمْ وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرُوا عَلَيْهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مَذَلَّةٌ لَهُمْ وَصَغَارٌ »

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته . وقال انتعش رفعك الله . وإذا تكبر وعدا طوره رهصه الله في الأرض ، وقال اخسأ خسأك الله . فهو في نفسه كبير ، وفي أعين الناس حقير ، حتى أنه لأحقر عندهم من الخنزير . وقال جرير ابن عبدالله . أنتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل نائم ، قد استظل بنطع له ، وقد جاوزت الشمس النطع ، فسويته عليه . ثم إن الرجل استيقظ ، فإذا هو سلمان الفارسي . فذكرت له ماصنعت . فقال لي : ياجرير ، تواضع لله في الدنيا ، فإنه من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة . ياجرير ، أتدري ماظلمة النار يوم القيامة ؟ قلت لا قال إنه ظلم الناس بعضهم بعضا في الدنيا . وقالت عائشة رضي الله عنها : إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات التواضع . وقال يوسف بن أسباط : يجزى قليل الورع من كثير العمل، ويجزى قليل التواضع من كثير الاجتهاد ، وقال الفضيل ، وقد سئل عن التواضع ما هو فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبي قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته . وقال ابن المبارك رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك

---

(١) حديث كان يطعم فجاءه رجل أسود به جدري فجعل لايجلس إلى أحد إلا قام من جنبه فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه : لم أجده هكذا والمعروف أكله مع مجذوم رواه أبوداود والترمذى وقال غريب وابن ماجه من حديث جابر كما تقدم

(٢) حديث إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه : غريب

(٣) حديث مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة قالوا وما حلاوة العبادة قال التواضع: غريب أيضا

(٤) حديث إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فان ذلك لهم مذلة وصغار : غريب أيضا

عليه فضل . وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا ، حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل . وقال قتادة : من أعطى مالا ، أو جمالا ، أو ثيابا ، أو علما ، ثم لم يتواضع فيه ، كان عليه وبالا يوم القيامة وقيل أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام ، إذا أنعمت عليك بنعمة فاستقبلها بالاستكانة أتممها عليك، وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله، وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا، ورفع بها درجة فى الآخرة. وما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ؛ ولم يتواضع بها لله ، إلا منعه الله نفعها فى الدنيا ، وفتح له طبقا من النار ، يعذبه إن شاء الله أو يتجاوز عنه . وقيل لعبد الملك بن مروان ، أى الرجل أفضل؟ قال من تواضع عن قدرة ، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة . ودخل ابن السماك على هارون فقال ياأمير المؤمنين ، إن تواضعك فى شرفك أشرف لك من شرفك . فقال ما أحسن ما قلت فقال ياأمير المؤمنين ، إن امرأ آتاه الله جمالا فى خلقته ، وموضعا فى حسبه ، وبسط له فى ذات يده ، فعف فى جماله ، وواسى من ماله ، وتواضع فى حسبه ، كتب فى ديوان الله من خالص أولياء الله . فدعا هارون بدواة وقرطاس وكتبه بيده . وكان سليمان بن داود عليهما السلام إذا أصبح ، تصفح وجوه الأغنياء والأشراف ، حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول مسكين مع مساكين . وقال بعضهم . كما تكره أن يراك الأغنياء فى الثياب الدون فكذلك فاكره أن يراك الفقراء فى الثياب المرتفعة . وروى أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع ، فقال لهم الحسن . أتدرون ما التواضع؟ التواضع أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلما إلا رأيت له عليك فضلا . وقال مجاهد . إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح عليه السلام . شمخت الجبال وتطاولت ، وتواضع الجودى ، فرفعه الله فوق الجبال وجعل قرار السفينة عليه وقال أبو سليمان . إن الله عز وجل اطلع على قلوب الآدميين ، فلم يجد قلبا أشد تواضعا من قلب موسى عليه السلام ، فخصه من بينهم بالكلام .

وقال يونس بن عبيد ، وقد انصرف من عرفات . لم أشك فى الرحمة لولا أنى كنت معهم أنى أخشى أنهم حرموا بسببى . ويقال . أرفع ما يكون المؤمن عند الله ، أوضع ما يكون عند نفسه . وأوضع ما يكون عند الله ، أرفع ما يكون عند نفسه . وقال زياد النمرى : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التى لا تثمر . وقال مالك بن دينار ، لو أن مناديا ينادى بباب المسجد ليخرج شركم

وجلا ، والله ما كان أحد يسبقني إلى الباب ، إلا رجلا بفضل قوة أوسعى . قال فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكا . وقال الفضيل . من أحب الرياسة لم يفلح أبدا

وقال موسى بن القاسم : كانت عندنا زلزلة وريح حمراء ، فذهبت إلى محمد بن مقاتل فقلت يا أبا عبد الله ، أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا . فبكى ثم قال : ليتني لم أكن سبب هلاككم . قال فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال : إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل . وجاء رجل إلى الشبلي رحمه الله فقال له : ما أنت ؟ وكان هذا دأبه وعادته ، فقال : أنا النقطة التي تحت الباء . فقال له الشبلي . أباد الله شاهدك أو تجعل لنفسك موضعا . وقال الشبلي في بعض كلامه : ذلي عطل ذل اليهود . ويقال من يرى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب . وعن أبي الفتح بن شخرف قال : رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام ، فقلت له يا أبا الحسن عظني . فقال لي : ما أحسن التواضع بالأغنياء في مجالس الفقراء ، رغبة منهم في ثواب الله . وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ، ثقة منهم بالله عز وجل . وقال أبو سليمان : لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه

وقال أبو يزيد : مادام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر . فقيل له فتى يكون متواضعا ؟ قال إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عز وجل ، ومعرفته بنفسه . وقال أبو سليمان . لو اجتمع الخلق على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي ما قدروا عليه . وقال عروة بن الورد : التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع . وقال يحيى بن خالد البرمكي . الشريف إذا تنسك تواضع ، والسفيه إذا تنسك تعاظم . وقال يحيى بن معاذ . التكبر على ذوي التكبر عليك بماله تواضع

ويقال التواضع في الخلق كلهم حسن ، وفي الأغنياء أحسن . والتكبر في الخلق كلهم قبيح ، وفي الفقراء أقبح . ويقال لا عز إلا من تذلل لله عز وجل ، ولا رفعة إلا لمن تواضع لله عز وجل ، ولا أمن إلا لمن خاف الله عز وجل ، ولا ربح إلا لمن ابتاع نفسه من الله عز وجل . وقال أبو علي الجوزجاني . النفس معجونة بالكبر ، والحرص ، والحسد ، فمن أراد الله تعالى هلاكه منع منه التواضع ، والنصيحة ، والقناعة . وإذا أراد الله تعالى به خيرا لطف به في ذلك ؛ فإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع ،

مع نصرة الله تعالى . وإذا هاجت نار الحسد فى نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله عز وجل وإذا هاجت فى نفسه نار الحرص أدركتها القناعة ، مع عون الله عز وجل

وعن الجنيد رحمه الله، أنه كان يقول يوم الجمعة فى مجلسه، لولا أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم [1] أنه قال « يَكُونُ فِى آخِرِ الزَّمَانِ زَعِيمُ الْقَوْمِ أَرْذَلَهُمْ » ما تكلمت عليكم وقال الجنيد أيضا : التواضع عند أهل التوحيد تكبر . ولعل مراده أن التواضع يثبت نفسه ثم يضعها ، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئا حتى يضعها أو يرفعها

وعن عمرو بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة ، فرأيت رجلا راكبا بغلة وبين يديه غلمان ، وإذاهم يعنفون الناس . قال ثم عدت بعد حين،فدخلت بغداد،فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حاف حاسر طويل الشعر ، قال فجعلت أنظر إليه وأتأمله ، فقال لى مالك تنظر إلىّ ؟ فقلت له شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة.فقال له أنا ذلك الرجل . فقلت ما فعل الله بك ؟ فقال إنى ترفعت فى موضع يتواضع فيه الناس فوضعنى الله حيث يترفع الناس . وقال المغيرة : كنا نهاب إبراهيم النخعى هيبة الأمير وكان يقول إن زمانا صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء ،وكان عطاء السلمى إذا سمع صوت الرعد قام وقعد ، وأخذه بطنه كأنه امرأة ماخض ، وقال هذا من أجلى يصيبكم ، لومات عطاء لاستراح الناس . وكان بشر الحافى يقول : سلموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم

ودعا رجل لعبد الله بن المبارك فقال: أعطاك الله ما ترجوه . فقال إن الرجاء يكون بعد المعرفة فأين المعرفة ؟ وتفاخرت قريش عند سلمان الفارسي رضي الله عنه يوما ، فقال سلمان : لكننى خلقت من نطفة قذرة ، ثم أعود جيفة منتنة ، ثم آتى الميزان فإن ثقل فأنا كريم ،

---

(١) حديث يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم :الترمذى من حديث أبى هريرة اذا اتخذالفىء دولا الحديث : وفيه كانزعيم القوم أرذلهم ـ الحديث : وقال غريب وله من حديث على بن أبى طالب اذافعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منها وكان زعيم القوم أرذلهم ولأبى نعيم فى الحلية من حديث حذيفة من اقتراب الساعة أثنان وسبعون خصلة فذكرها منها وفيهما فرج بن فضالة ضعيف

وإن خف فأنا لئيم . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وجدنا الكرم في التقوى ، والغنى في اليقين ، والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق

بيان

حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر . فالباطن هو خلق في النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق . وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال . ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذي في النفس ، وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبر عليه . فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه، ومتكبرا به وبه ينفصل الكبر عن العجب كما سيأتي . فإن العجب لا يستدعى غير المعجب . بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا ، إلا أن يكون مع غيره ، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبرا . ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا ، فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه ، أو مثل نفسه ، فلا يتكبر عليه . ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى غيره مثل نفسه لم يتكبر . بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبة ، ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره . فعند هذه الاعتقادات الثلاثة يحصل فيه خلق الكبر ، لا أن هذه الرؤية تنفى الكبر . بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخ فيه ، فيحصل في قلبه اعتداد ، وهزة ، وفرح ، وركون إلى ما اعتقده ، وعز في نفسه بسبب ذلك . فتلك العزة ، والهزة ، والركون إلى العقيدة هو خلق الكبر ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « أَعُوذُ بِكَ مِنْ نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ » وكذلك قال عمر . أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا ، للذي استأذنه أن يعظ بعد صلاة الصبح

---

(١) حديث أعوذ بك من نفخة الكبرياء : تقدم فيه

فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ، وهو الاستعظام ، كبر وانتفخ وتعزز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضا عزة وتعظما ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى (إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ [1]) قال عظمة لم يبلغوها . ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات . ويسمى ذلك تكبرا . فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر من دونه ، وازدراه ، وأقصاه عن نفسه ، وأبعده ، وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ورأى أن حقه أن يقوم ماثلا بين يديه إن اشتد كبره . فإن كان أشد من ذلك استنكف عن استخدامه ، ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه ، ولا لخدمة عتبته . فإن كان دون ذلك فيأنف من مساواته ، وتقدم عليه في مضايق الطرق ، وارتفع عليه في المحافل ، وانتظر أن يبدأه بالسلام ، واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه . وإن حاج أو ناظر أنف أن يرد عليه ، وإن وعظ استنكف من القبول . وإن وعظ عنف في النصح ، وإن رد عليه شيء من قوله غضب ، وإن علم لم يرفق بالمتعلمين ، واستذلهم ، وانتهرهم ، وامتن عليهم ، واستخدمهم وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير ، استجهالا لهم واستحقارا . والأعمال الصادرة من خلق الكبر كثيرة ، وهي أكثر من أن تحصى ، فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة

فهذا هو الكبر ، وآفته عظيمة ، وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلما ينفك عنه العباد ، والزهاد ، والعلماء ، فضلا عن عوام الخلق . وكيف لا تعظم آفته وقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » وإنما صار حجابا دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز . ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز . ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز . ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز . ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز . ولا يقدر على

---

(١) حديث لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم فيه

ترك الحسد وفيه العز . ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز . ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز . ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز . ولا معنى للتطويل ، فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ، ليحفظ به عزه . وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه، خوفا من أن يفوته عزه . فمن هذا لم يدخل الجنة من فى قلبه مثقال حبة منه

والأخلاق الذميمة متلازمة ، والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم ، وقبول الحق ، والانقياد له . وفيه وردت الآيات التى فيها ذم الكبر والمتكبرين. قال الله تعالى (وَٱلْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ [١]) إلى قوله (وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ [٢]) ثم قال (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [٣]) ثم أخبر أن أشد أهل النار عذابا أشدهم عتيا على الله تعالى فقال (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمٰنِ عِتِيًّا [٤]) وقال تعالى (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [٥]) وقال عز وجل (يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ [٦]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٧]) وقال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [٨]) قيل فى التفسير سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم . وفى بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها . ولذلك قال المسيح عليه السلام . إن الزرع ينبت فى السهل ولا ينبت على الصفا . كذلك الحكمة تعمل فى قلب المتواضع ولا تعمل فى قلب المتكبر . ألا ترون أن من شمخ برأسه إلى السقف شجه ، ومن طأطأ أظله وأكنه ؟ فهذا مثل ضربه للمتكبرين وأنهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جحود الحق فى حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال [١] « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ »

---

(١) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس : مسلم من حديث ابن مسعود فى أثناء حديث وقال بطر الحق وغمط الناس ورواه الترمذى فقال من بطر الحق وغمص الناس وقال حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقى فى الشعب من حديث أبى ريحانة هكذا

(١ ، ٢) الانعام : ٩٣ (٣) الزمر : ٧٢ (٤) مريم : ٦٩ (٥) النحل ٢٢ (٦) سبأ : ٣١ (٧) غافر : ٦٠ (٨) الاعراف : ١٤٦

بيان

المتكبر عليه ودرجاته وأقسامه وثمرات الكبر فيه

اعلم أن المتكبر عليه هو الله تعالى ، أو رسله ، أو سائر خلقه . وقد خلق الإنسان ظلوما جهولا . فتارة يتكبر على الخلق ، وتارة يتكبر على الخالق . فإذاً التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام .

الأول : التكبر على الله . وذلك هو أفحش أنواع الكبر ، ولامثار له إلا الجهل المحض والطغيان . مثل ما كان من نمروذ ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء . وكما يحكى عن جماعة من الجهلة ، بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية ، مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى [1]) إذ استنكف أن يكون عبدا لله . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [2]) وقال تعالى (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ [3]) الآية وقال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [4])

القسم الثاني : التكبر على الرسل ، من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس . وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار ، فيبقى فى ظلمة الجهل بكبره ، فيمتنع عن الانقياد وهو ظان أنه محق فيه . وتارة يمتنع مع المعرفة ، ولكن لاتطاوعه نفسه للانقياد للحق ، وللتواضع للرسل ، كما حكى الله عن قولهم (أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا [5]) وقولهم (إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا [6]) (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ [7]) (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا [8]) (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ [9]) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه (أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ [10]) وقال الله تعالى (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ [11]) فتكبر هو على الله وعلى رسله جميعا . قال وهب . قال له موسى عليه السلام آمن ولك ملكك . قال حتى أشاور هامان فشاور هامان ، فقال هامان

(1) النازعات : ٢٤ (2) غافر : ٦٠ (3) النساء ١٧٢ (4) الفرقان : ٦٠ (5) المؤمنون ٤٧ (6) ابراهيم : ١٠
(7) المؤمنون : ٣٤ (8) الفرقان : ٢١ (9) الانعام : ٨ (10) الزخرف : ٥٣ (11) القصص : ٣٩

بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبدا تعبد فاستنكف عن عبودية الله، وعن اتباع موسى عليه السلام

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم (لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [٢]) قال قتادة . عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبى مسعود الثقفى طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ قالوا غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا . فقال تعالى (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ [٣]) وقال الله تعالى (لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [٤]) أى استحقارا لهم واستبعادا لتقدمهم. وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم . [١] كيف نجلس إليك وعندك هولاء ! أشاروا إلى فقراء المسلمين ، فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم ، فأنزل الله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ [٥]) إلى قوله (مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ [٦]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [٧]) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم ، إذ لم يروا الذين ازدروهم ، فقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ قيل يعنون عمارا وبلالا ، وصهيبا ، والمقداد رضي الله عنهم . ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة لجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا . ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف . قال الله تعالى مخبرا عنهم (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ [٨]) وقال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا [٨]) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل ، وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله ، والتواضع لرسوله

القسم الثالث : التكبر على العباد . وذلك بأن يستعظم نفسه ، ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم ، فيزدريهم ويستصغرهم ، ويأنف من من مساواتهم . وهذا وإن كان دون الأول والثانى ، فهو أيضا عظيم من وجهين.

---

(١) حديث قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف نجلس اليك وعندك هؤلاء ـ الحديث : فى نزول قوله تعالى ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ـ مسلم من حديث سعد بن أبى وقاص الا انه قال فقال المشركون وقال ابن ماجه قالت قريش

---

(٢) الزخرف : ٣١ (٣) الزخرف : ٣٢ (٤) الانعام : ٥٣ (٥ ، ٦) الانعام : ٥٢ (٧) الكهف : ٢٨
(٨) البقرة : ٨٩ (٩) النحل : ١٤٠

أحدها : الكبر ، والعز ، والعظمة ، والعلاء ، لا يليق إلا بالملك القادر . فأما العبد المملوك الضعيف ، العاجز ، الذى لا يقدر على شىء ، فمن أين يليق بحاله الكبر ! فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لا تليق إلا بجلاله . ومثاله أن يأخذ الغلام قلنسوة الملك ، فيضعها على رأسه ، ويجلس على سريره . فما أعظم استحقاقه للمقت ! وما أعظم تهدفه للخزى والنكال وما أشد استجراءه على مولاه ! وما أقبح ماتعاطاه . وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى فيهما قصمته . أى أنه خاص صفتى ، ولا يليق إلا بى . والمنازع فيه منازع فى صفة من صفاتى . وإذا كان الكبر على عباده لا يليق إلا به فمن تكبر على عباده فقد جنى عليه ، إذ الذى يسترذل خواص غلمان الملك ، ويستخدمهم ويترفع عليهم ، ويستأثر بما حق الملك أن يستأثر به منهم ، فهو منازع له فى بعض أمره ، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره ، والاستبداد بملكه . فالخلق كلهم عباد الله ، وله العظمة والكبرياء عليهم . فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله فى حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون ، ماهو الفرق بين منازعة الملك فى استصغار بعض عبيده واستخدامهم ، وبين منازعته فى أصل الملك

الوجه الثانى : الذى تعظم به رذيلة الكبر ، إنه يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ، لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله ، وتشمر لجحده . ولذلك ترى المناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر من قبوله ، وتشمر لجحده ، واحتال لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس . وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى فقال (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [١]) فكل من يناظر للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحق إذا ظفر به ، فقد شاركهم فى هذا الخلق

وكذلك يحمل ذلك على الأنفة من قبول الوعظ ، كما قال الله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ [٢]) وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قرأها فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون قام رجل يأمر بالمعروف فقتل ، فقام آخر فقال تقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس

(١) فصلت : ٢٦ (٢) البقرة : ٢٠٦

فقتل المتكبر الذى خالفه ، والذى أمره كبرا . وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثما إذا قيل له اتق الله قال عليك نفسك. وقال صلى الله عليه وسلم [1] لرجل « كُلْ بِيَمِينِكَ » قال لا أستطيع . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لَا اسْتَطَعْتَ » فما منعه إلا كبره. قال فما رفعها بعد ذلك أى اعتلت يده.

فإذاً تكبره على الخلق عظيم ، لأنه سيدعوه إلى التكبر على أمر الله. وإنما ضرب إبليس مثلا لهذا ، وما حكاه من أحواله إلا ليعتبر به ، فإنه قال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ [1])وهذا الكبر بالنسب ،لأنه قال(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ [2]) فحمله ذلك على أن يمتنع من السجود الذى أمره الله تعالى به ؛ وكان مبدؤه الكبر على آدم ، والحسد له . فجره ذلك إلى التكبر على أمر الله تعالى، فكان ذلك سبب هلاكه أبد الآباد . فهذه آفة من آفات الكبر على العباد عظيمة، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين، إذ سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال: يارسول الله، [1] إنى امرؤ قد حبب إلىّ من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لَا وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطِرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ » وفى حديث آخر [2] « مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ » وقوله وغمص الناس ، أى ازدراهم واستحقرهم وهم عباد الله أمثاله ، أو خير منه ، وهذه الآفة الأولى . وسفه الحق هو رده ، وهى الآفة الثانية .

فكل من رأى أنه خير من أخيه ، واحتقر أخاه وازدراه ، ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه ، فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق، ومن أنف من أن يخضع لله تعالى ، ويتواضع لله بطاعته واتباع رسله ، فقد تكبر فيما بينه وبين الله تعالى ورسله



ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال

(١) حديث قال لرجل كل بيمينك قال لا أستطيع فقال لا استطعت ـ الحديث : مسلم من حديث سلمة بن الأكوع

(٢) حديث قول ثابت بن قيس بن شماس انى امرؤ قد حبب الى من الجمال ما ترى ـ الحديث : وفيه الكبر من بطر الحق وغمص الناس مسلم والترمذى وقد تقدم قبله بحديثين

(٣) حديث الكبر من سفه الحق وغمص الناس :تقدم معه

وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي . فالديني هو العلم والعمل . والدنيوي هو النسب، والجمال ، والقوة ، والمال ، وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب

الأول : العلم . وما أسرع الكبر إلى العلماء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « آفَةُ الْعِلْمِ الْخُيَلَاءُ » فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم، ويستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه ، ويستحقر الناس ، وينظر إليهم نظره إلى البهائم ، ويستجهلهم ، ويتوقع أن يبدءوه بالسلام . فإن بدأ واحدا منهم بالسلام ، أورد عليه ببشر ، أو قام له ، أو أجاب له دعوة ، رأى ذلك صنيعة عنده ، ويدا عليه يلزمه شكرها واعتقد أنه أكرمهم ، وفعل بهم مالا يستحقون من مثله، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه ، شكرا له على صنيعه . بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصر فيه استنكره ، كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم، ومعروف لديهم ، واستحقاق حق عليهم . هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما في أمر الآخرة ، فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم. وهذا بأن يسمى جاهلا أولى من أن يسمى عالما. بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه ، وخطر الخاتمة ، وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه ، كما سيأتي في طريق معالجة الكبر بالعلم . وهذا العلم يزيد خوفا ، وتواضعا ، وتخشعا ، ويقتضي أن يرى كل الناس خيرا منه ، لعظم حجة الله عليه بالعلم ، وتقصيره في القيام بشكر نعمة العلم، ولهذا قال أبو الدرداء: من ازداد علما ازداد وجعا. وهو كما قال

فإن قلت فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبرا وأمنا ، فاعلم أن لذلك سببين :

أحدهما : أن يكون اشتغاله بما يسمى علما ، وليس علما حقيقيا. وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه . وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر ، والأمن . قال الله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) فأما وراء ذلك

---

(١) حديث آفة العلم الخيلاء :قلت هكذا ذكره المصنف والمعروف آفة العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسند ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس آفة الجمال الخيلاء وفيه الحسن بن عبد الحميد الكوفي لا يدري من هو حدث عن أبيه بحديث موضوع قاله صاحب الميزان

---

(١) فاطر : ٢٨

كعلم الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ، والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات
فإذا تجرد الإنسان لها حتى امتلأ منها ، امتلأ بها كبرا ونفاقا . وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن
تسمى علوما . بل العلم هو معرفة العبودية ، والربوبية ، وطريق العبادة وهذه تورث التواضع غالبا

السبب الثاني : أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة ، ردىء النفس ، سيء الأخلاق . فإنه لم
يشتغل أولا بتهذيب نفسه ، وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ، ولم يرض نفسه في عبادة ربه ، فبقي خبيث
الجوهر . فإذا خاض في العلم أي علم كان ، صادف العلم من قلبه منزلا خبيثا . فلم يطب ثمره ولم يظهر
في الخير أثره . وقد ضرب وهب لهذا مثلا فقال . العلم كالغيث ينزل من السماء حلوا صافيا ، فتشربه
الأشجار بعروقها ، فتحوله على قدر طعومها ، فيزداد المر مرارة ، والحلو حلاوة فكذلك العلم يحفظه
الرجال ، فتحوله على قدر هممها وأهوائها ، فيزيد المتكبر كبرا ، والمتواضع تواضعا . وهذا لأن من
كانت همته الكبر وهو جاهل ، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به ، فازداد كبرا . وإذا كان الرجل خائفا
مع جهله ، فازداد علما ، علم أن الحجة قد تأكدت عليه ، فيزداد خوفا وإشفاقا ، وذلا وتواضعا .

فالعلم من أعظم ما يتكبر به . ولذلك قال تعالى لنبيه عليه السلام (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[٢]) وقال عز وجل (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ[٣]) ووصف
أولياءه فقال (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ[١]) وكذلك قال صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه
العباس رضي الله عنه[١] « يَكُونُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْءَانَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَقُولُونَ قَدْ قَرَأْنَا
الْقُرْءَانَ فَمَنْ أَقْرَأُ مِنَّا وَمَنْ أَعْلَمُ مِنَّا » ثم التفت إلى أصحابه وقال « أُولَئِكَ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ أُولَئِكَ
هُمْ وَقُودُ النَّارِ » . ولذلك قال عمر رضي الله عنه . لا تكونوا جبابرة العلماء . فلا يفي علمكم بجهلكم
ولذلك استأذن تميم الداري عمر رضي الله عنه في القصص ، فأبى أن يأذن له ، وقال له : إنه الذبح .
واستأذنه رجل كان إمام قوم أنه إذا سلم من صلاته ذكرهم ، فقال . إني أخاف أن تنتفخ حتى
تبلغ الثريا . وصلى حذيفة بقوم ، فلما سلم من صلاته قال . لتلتمسن إماما غيري ، أو لتصلن
وحدانا ، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني . فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم

---

(١) حديث العباس يكون قوم يقرءون القرءان لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرءان فمن أقرأ منا ـ الحديث :
ابن المبارك في الزهد والرقائق

---

(١) الشعراء : ٢١٥ (٢) آل عمران : ١٥٩ (٣)

فكيف يسلم الضعفاء من متأخرى هذه الأمة . فما أعز على بسيط الأرض عالما يستحق أن يقال له عالم، ثم إنه لا يحركه عز العلم وخيلاؤه فإن وجد ذلك فهو صدّيق زمانه، فلا ينبغي أن يفارق بل يكون النظر إليه عبادة، فضلا عن الاستفادة من أنفاسه وأحواله لو عرفنا ذلك ولو في أقصى الصين لسعينا إليه، رجاء أن تشملنا بركته، وتسرى إلينا سيرته وسجيته وهيهات، فأنى يسمح آخر الزمان بمثلهم، فهم أرباب الإقبال وأصحاب الدول، قد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم. بل يعز في زماننا عالم يختلج في نفسه الأسف والحزن على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضا إما معدوم وإما عزيز. ولولا بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله[1] «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ مَنْ تَمَسَّكَ فِيهِ بِعُشْرِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ نَجَا» لكان جديرا بنا أن نقتحم والعياذ بالله تعالى. ورطة اليأس والقنوط، مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا. ومن لنا أيضا بالتمسك بعشر ما كانوا عليه؟ وليتنا تمسكنا بعشر عشره، فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله ويستر علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه كرمه وفضله

الثاني : العمل والعبادة . وليس يخلو عن رذيلة العز، والكبر، واستمالة قلوب الناس الزهاد والعبّاد . ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا . أما في الدنيا، فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم، وتوقيرهم، والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى، وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ، إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء . وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق . وأما في الدين، فهو أن يرى الناس هالكين، ويرى نفسه ناجيا وهو الهالك تحقيقا مهما رأى ذلك . قال صلى الله عليه وسلم[2] « إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ » وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله، مغتر بالله، آمن من مكره، غير خائف من سطوته . وكيف لا يخاف ويكفيه شرا احتقاره لغيره . قال صلى الله عليه وسلم[3] « كَفَى بِالْمَرْءِ شَرًّا أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ » وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله، ويعظمه لعبادته ويستعظمه، ويرجو له ما لا يرجوه لنفسه . فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه . وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم فما أجدرهم إذا أحبوه

---

(١) حديث سيأتي على الناس زمان من تمسك بعشر ما أنتم عليه نجا: أحمد من رواية رجل عن أبي ذر

(٢) حديث اذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم: مسلم من حديث أبي هريرة

(٣) حديث كفى بالمرء شرا أن يحقر أخاه المسلم: مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ امرؤ من الشر

الصلاحه ، أن ينقلهم الله إلى درجته فى العمل، وما أجدره إذا ازدارهم بعينه ، أن ينقله الله إلى حد الإهمال ، كما روي أن رجلا فى بنى اسرائيل كان يقال له خليع بنى اسرائيل، لكثرة فساده مرّ برجل آخر يقال له عابد بنى اسرائيل . وكان على رأس العابد غمامة تظله فلما مر الخليع به ، فقال الخليع فى نفسه أنا خليع بنى اسرائيل، وهذا عابد بنى اسرائيل. فلو جلست إليه لعل الله يرحمنى . فجلس إليه. فقال العابد . أنا عابد بنى اسرائيل ، وهذا خليع بنى اسرائيل ، فكيف يجلس إلىّ ! فأنف منه، وقال له قم عنى فأوحى الله إلى نبى ذلك الزمان ، مرهما فليستأنفا العمل ، فقد غفرت للخليع ، وأحبطت عمل العابد . وفى رواية أخرى، فتحولت الغمامة إلى رأس الخليع . وهذا يعرفك أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبهم ، فالجاهل العاصى إذا تواضع هيبةً لله ، وذل خوفا منه، فقد أطاع الله بقلبه ، فهو أطوع لله من العالم المتكبر ، والعابد المعجب . وكذلك روى أن رجلا فى بنى اسرائيل، أتى عابدا من بنى اسرائيل،[1] فوطىء على رقبته وهو ساجد. فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك فأوحى الله إليه أيها المتألى علىّ ، بل أنت لا يغفر الله لك . وكذلك قال الحسن. وحتى أن صاحب الصوف أشد كبرا من صاحب المطرز الخز. أى أن صاحب الخز يذل لصاحب الصوف ، ويرى الفضل له ، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه . وهذه الآفة أيضا قلما ينفك عنها كثير من العباد وهو أنه لو استخف به مستخف، أو آذاه مؤذ ، استبعد أن يغفر الله له ، ولا يشك فى أنه صار ممقوتا عند الله . ولو آذى مسلما آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار . وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل ، وجمع بين الكبر ، والعجب ، والاغترار بالله . وقد ينتهى الحمق والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدى ويقول : سترون ما يجرى عليه . وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته وأن الله ما أراد به إلا اشفاء غليله ، والانتقام له منه . مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله ، وعرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ، فمنهم من قتلهم ، ومنهم من ضربهم ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم فى الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم فلم يصبه مكروه فى الدنيا ولا فى الآخرة . ثم الجاهل المغرور يظن أنه أكرم على الله من أنبيائه ، وأنه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه به ولعله فى مقت الله بإعجابه وكبره وهو غافل عن هلاك نفسه فهذه عقيدة المغترين

(١) حديث الرجل من بنى اسرائيل الذى وطىء على رقبة عابد من بنى اسرائيل وهو ساجد فقال ارفع فوالله لا يغفر الله لك ـ الحديث : أبو داود والحاكم من حديث أبى هريرة فى قصة العابد الذى قال للعاصى والله لا يغفر الله لك أبدا وهو بغير هذه السياقة وإسناده حسن

وأما الأكياس من العباد ، فيقولون ما كان يقوله عطاء السلمى حين كان تهب ريح أو تقع صاعقة : ما يصيب الناس ما يصيبهم إلا بسببي ، ولو مات عطاء لتخلصوا . وما قاله الآخر بعد انصرافه من عرفات : كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كونى فيهم . فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتقى الله ظاهرا وباطنا ، وهو وجل على نفسه، مزدر لعمله وسعيه، وذاك ربما يضمر من الرياء ، والكبر ، والحسد ، والغل ، ماهو ضحكة للشيطان به ، ثم إنه يمتن على الله بعمله ومن اعتقد جزما أنه فوق أحد من عباد الله ، فقد أحبط بجهله جميع عمله . فإن الجهل أفحش المعاصى وأعظم شيء يبعد العبد عن الله ، وحكمه لنفسه بأنه خير من غيره جهل محض ، وأمن من مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون. ولذلك روى أن رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم[1] فأقبل ذات يوم ، فقالوا يارسول الله هذا الذى ذكرناه لك . فقال « إِنِّى أَرَى فِي وَجْهِهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ » فسلم ووقف على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «أَسْأَلُكَ بِاللهِ حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ أَنْ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَفْضَلُ مِنْكَ ؟ » قال اللهم نعم . فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنور النبوة ما استكن فى قلبه سفعة فى وجهه ، وهذه آفة لا ينفك عنها أحد من العباد إلا من عصمه الله . لكن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات

الدرجة الأولى : أن يكون الكبر مستقرا فى قلبه ، يرى نفسه خيرا من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، ويفعل فعل من يرى غيره خيرا من نفسه . وهذا قد رسخ فى قلبه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها بالكلية

الثانية : أن يظهر ذلك على أفعاله ، بالترفع فى المجالس ، والتقدم على الأقران ، وإظهار الإنكار على من يقصر فى حقه . وأدنى ذلك فى العالم أن يصعر خده للناس كأنه معرض عنهم وفى العابد أن يعبس وجهه ؛ ويقطب جبينه ، كأنه متنزه عن الناس ، مستقذر لهم ، أو غضبان عليهم . وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ، ولا فى الوجه حتى يعبس ، ولا فى الخد حتى يصعر ، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ، ولا فى الذيل حتى يضم ، إنما الورع فى القلوب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « التَّقْوَى هَهُنَا » وأشار إلى صدره . فقد كان رسول الله

---

(١) حديث ان رجلا ذكر بخير للنبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل ذات يوم فقالوا يارسول الله هذا الذى ذكرناه لك . فقال انى أرى فى وجهه سفعة من الشيطان ـ الحديث : أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس

(٢) حديث التقوى ههنا وأشار إلى صدره : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

صلى الله عليه وسلم[1] أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خلقا وأكثرهم بشرا وتبسما وانبساطا ولذلك قال الحارث بن جزء الزبيدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعجبنى من القراء كل طليق مضحاك. فأما الذى تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس، يمن عليك بعلمه، فلا أكثر الله فى المسلمين مثله. ولو كان الله سبحانه وتعالى يرضى ذلك لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[1])

وهؤلاء الذين يظهر أثر الكبر على شمائلهم، فأحوالهم أخف حالا ممن هو فى الرتبة الثالثة، وهو الذى يظهر الكبر على لسانه، حتى يدعوه إلى الدعوى، والمفاخرة، والمباهاة وتزكية النفس، وحكايات الأحوال والمقامات، والتشمر لغلبة الغير فى العلم والعمل

أما العابد فإنه يقول فى معرض التفاخر لغيره من العباد : من هو ؟ وما عمله ؟ ومن أين زهده ؟ فيطول اللسان فيهم بالتنقص، ثم يثنى على نفسه ويقول : إنى لم أفطر منذ كذا وكذا ولا أنام الليل، وأختم القرآن فى كل يوم، وفلان ينام سحرا، ولا يكثر القراءة. وما يجرى مجراه. وقد يزكى نفسه ضمنا فيقول. قصدنى فلان بسوء فهلك ولده، وأخذ ماله، أو مرض أوما يجرى مجراه، يدعى الكرامة لنفسه. وأما مباهاته، فهو أنه لو وقع مع قوم يصلون بالليل، قام وصلى أكثر مما كان يصلى. وإن كانوا يصبرون على الجوع، فيكلف نفسه الصبر ليغلبهم، ويظهر لهم قوته وعجزهم. وكذلك يشتد فى العبادة خوفا من أن يقال غيره أعبد منه، أو أقوى منه فى دين الله . وأما العالم فإنه يتفاخر ويقول. أنا متفنن فى العلوم، ومطلع على الحقائق، ورأيت من الشيوخ فلانا وفلانا. ومن أنت ؟ وما فضلك ومن لقيت ؟ وما الذى سمعت من الحديث ؟ كل ذلك ليصغره ويعظم نفسه. وأما مباهاته فهو أنه يجتهد فى المناظرة أن يغلب ولا يُغلب. ويسهر طول الليل والنهار فى تحصيل علوم يتجمل بها فى المحافل، كالمناظرة، والجدل وتحسين العبارة. وتسجيع الألفاظ. وحفظ العلوم الغريبة ليغرب بها على الأقران، ويتعظم عليهم، ويحفظ الأحاديث ألفاظها وأسانيدها حتى يرد على من أخطأ فيها. فيظهر فضله ونقصان أقرانه، ويفرح مهما أخطأ واحد منهم

(١) حديث كان أكرم الخلق وأتقاهم ـ الحديث : تقدم فى كتاب أخلاق النبوة

ليرد عليه ، ويسوء إذا أصاب وأحسن خيفة من أن يرى أنه أعظم منه

فهذا كله أخلاق الكبر وآثاره التي يثمرها التعزز بالعلم والعمل . وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه ؟ فليت شعري من الذي عرف هذه الأخلاق من نفسه ، وسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ » كيف يستعظم نفسه ، ويتكبر على غيره ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنه من أهل النار . وإنما العظيم من خلا عن هذا . ومن خلا عنه لم يكن فيه تعظم وتكبر . والعالم هو الذي فهم أن الله تعالى قال له إن لك عندنا قدرا مالم تر لنفسك قدرا فإن رأيت لها قدرا فلاقدر لك عندنا . ومن لم يعلم هذا من الدين فاسم العالم عليه كذب ، ومن علمه لزمه أن لا يتكبر ولا يرى لنفسه قدرا . فهذا هو التكبر بالعلم والعمل

الثالث : التكبر بالحسب والنسب . فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب ، وإن كان أرفع منه عملا وعلما وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له أموال وعبيد، ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم . وثمرته على اللسان التفاخر به ، فيقول لغيره يانبطي ، وياهندي ، ويا أرمني ، من أنت ؟ ومن أبوك فأنا فلان بن فلان ، وأين لمثلك أن يكلمني أو ينظر إليّ ؟ ومع مثلي تتكلم ! ومايجرى مجراه وذلك عرق دفين في النفس لاينفك عنه نسيب ، وإن كان صالحا وعاقلا ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال . فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته ، وترشح منه ، كما روى عن أبي ذر أنه قال : قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم [2] فقلت له ياابن السوداء . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ياأبا ذرّ طَفَّ الصَّاعُ طَفَّ الصَّاعُ لَيْسَ لِابْنِ الْبَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ السَّوْدَاءِ فَضْلٌ » فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي ، فانظر كيف نبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى لنفسه فضلا بكونه ابن بيضاء ، وأن ذلك خطأ وجهل . وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه ، إذ عرف أن العز لايقمعه إلا الذل . ومن ذلك ماروى أن رجلين تفاخرا

---

(١) حديث لايدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر : تقدم

(٢) حديث أبي ذر قاولت رجلا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له ياابن السوداء ـ الحديث : ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف ولأحمد من حديثه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى

عند النبي صلى الله عليه وسلم،[١] فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان ، فمن أنت لا أم لك ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « افْتَخَرَ رَجُلَانِ عِنْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ أَحَدُهُمَا أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قُلْ لِلَّذِي افْتَخَرَ بَلِ التِّسْعَةُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢] « لَيَدَعَنَّ قَوْمٌ الْفَخْرَ بِآبَائِهِمْ وَقَدْ صَارُوا فَحْمًا فِي جَهَنَّمَ أَوْ لَيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدُوفُ بِآنَافِهَا الْقَذَرَ »

الرابع : التفاخر بالجمال ، وذلك أكثر ما يجرى بين النساء ؛ ويدعو ذلك إلى التنقص ، والثلب ، والغيبة ، وذكر عيوب الناس . ومن ذلك ما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم ،[٣] فقلت بيدى هكذا ، أى إنها قصيرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قَدِ اغْتَبْتِيهَا » وهذا منشؤه خفاء الكبر ، لأنها لو كانت أيضا قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت بقامتها ، واستقصرت المرأة فى جنب نفسها ، فقالت ما قالت

الخامس : الكبر بالمال . وذلك يجرى بين الملوك فى خزائنهم ، وبين التجار فى بضائعهم ، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى لباسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم . فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين ، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك ، واستخدمت من هو فوقك . ومن أنت ؟ وما معك ؟ وأساس بيتى يساوى أكثر من جميع مالك وأنا أنفق فى اليوم مالا تأكله فى سنة . وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا[١]) حتى أجابه فقال (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا

---

(١) حديث ان رجلين تفاخرا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما للآخر أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أب لك ـ الحديث : عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح ورواه أحمد موقوفا على معاذ بقصة موسى فقط

(٢) حديث ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما فى جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان ـ الحديث : أبو داود والترمذى وحسنه وابن حبان من حديث أبى هريرة

(٣) حديث عائشة دخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بيدى هكذا أى إنها قصيرة ـ الحديث : تقدم فى آفات اللسان

---

(١) الكهف : ٣٤

فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا[1]) وكان ذلك منه تكبرا بالمال والولد . ثم بين الله عاقبة أمره بقوله (يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا[2]) .

ومن ذلك تكبر قارون ، إذ قال تعالى إخبارا عن تكبره (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[3])

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش ، والتكبر به على أهل الضعف

السابع : التكبر بالأتباع ، والأنصار ، والتلامذة ، والغلمان ، وبالعشيرة ، والأقارب ، والبنين ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين

وبالجملة فكل ما هو نعمة ، وأمكن أن يعتقد كمالا ، وإن لم يكن فى نفسه كمالا ، أمكن أن يتكبر به . حتى أن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته فى صنعة المخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به ، وإن لم يكن فعله إلا نكالا . وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب ، وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ، ويتكبر به ، لظنه أن ذلك كمال ، وإن كان مخطئا فيه

فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلى بشيء منه على من لا يدلى به ، أو على من يدلى بما هو دونه فى اعتقاده ، وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى كالعالم الذى يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه ، لظنه أنه هو الأعلم ، ولحسن اعتقاده فى نفسه نسأل الله العون بلطفه ورحمته ، إنه على كل شيء قدير

بيان

البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له

اعلم أن الكبر خلق باطن وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهى ثمرة ونتيجة . وينبغى أن تسمى تكبرا ويخص اسم الكبر بالمعنى الباطن الذى هو استعظام النفس ، ورؤية قدرها فوق قدر الغير . وهذا الباطن له موجب واحد ، وهو العجب الذى يتعلق بالمتكبر كما سيأتى معناه

---

(1) الكهف : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ (2) الكهف : ٤٢ (3) القصص : ٧٩

فإنه إذا أعجب بنفسه ، وبعلمه ، وبعمله ، أو بشيء من أسبابه ، استعظم نفسه وتكبر .

وأما الكبر الظاهر ، فأسبابه ثلاثة . سبب في المتكبر ، وسبب في المتكبر عليه،وسبب فيما يتعلق بغيرهما . أما السبب الذي في المتكبر ، فهو العجب . والذي يتعلق بالمتكبر عليه ، هو الحقدوالحسد . والذي يتعلق بغيرهما ، هو الرياء .فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب ، والحقد ، والحسد ، والرياء أما العجب ،فقد ذكرنا أنه يورث الكبر الباطن، والكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر في الأعمال ، والأقوال والأحوال . وأما الحقد، فإنه يحمل على التكبر من غير عجب ، كالذي يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكن قد غضب عليه بسبب سبق منه، فأورثه الغضب حقدا ،ورسخ في قلبه بغضه. فهو لذلك لا تطاوعه نفسه أن يتواضع له ،وإن كان عنده مستحقا للتواضع .فكم من رذل لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه ،أو بغضه له. ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته ،وعلى الأنفة من قبول نصحه.وعلى أن يجتهد في التقدم عليه وإن علم أنه لا يستحق ذلك ،وعلى أن لا يستحله وإن ظلمه.فلا يعتذر إليه وإن جنى عليه،ولا يسأله عما هو جاهل به . وأما الحسد فإنه أيضا يوجب البغض للمحسود ،وإن لم يكن من جهته إيذاء وسبب يقتضي الغضب والحقد . ويدعو الحسد أيضا إلى جحد الحق ،حتى يمنع من قبول النصيحة وتعلم العلم . فكم من جاهل يشتاق إلى العلم ،وقد بقي في رذيلة الجهل لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده أو أقاربه، حسدا وبغيا عليه ، فهو يعرض عنه ،ويتكبر عليه ،مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه. ولكن الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين ،وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه

وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين، حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه ، وليس بينه وبينه معرفة ، ولا محاسدة ،ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ، ولا يتواضع له في الاستفادة ،خيفة من أن يقول الناس إنه أفضل منه .فيكون باعثه على التكبر عليه الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لكان لا يتكبر عليه .وأما الذي يتكبر بالعجب ، أو الحسد ، أو الحقد ، فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به مهما لم يكن معهما ثالث . وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذبا ، وهو يعلم أنه كاذب . ثم يتكبر به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب، ويترفع عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطريق ،ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير ، وهو عالم

باطنا بأنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر فى باطنه ، لمعرفته بأنه كاذب فى دعوى النسب . ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين . وكأن اسم المتكبر إنما يطلق فى الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبر فى الباطن ، صادر عن العجب ، والنظر إلى الغير بعين الاحتقار . وهو إن سمى متكبرا فلأجل التشبه بأفعال الكبر ، نسأل الله حسن التوفيق . والله تعالى أعلم

بيان

أخلاق المتواضعين ، ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر فى شمائل الرجل ، كصعر فى وجهه ، ونظره شزرا ، وإطراقه رأسه وجلوسه متربعا أو متكئا . وفى أقواله ، حتى فى صوته ونغمته ، وصيغته فى الإيراد . ويظهر فى مشيته وتبختره ، وقيامه وجلوسه ، وحركاته وسكناته . وفى تعاطيه لأفعاله ، وفى سائر تقلباته فى أحواله ، وأقواله ، وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ، ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض . فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال على كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار ، فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام .

وقال أنس[1] لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . ومنها أن لا يمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه . قال أبو الدرداء لا يزال العبد يزداد من الله بُعدا ما مشى خلفه . وكان عبد الرحمن بن عوف لا يعرف من عبيده ، إذ كان لا يتميز عنهم فى صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصرى فمنعهم وقال : ما يبقى هذا من قلب العبد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] فى بعض الأوقات يمشى مع بعض الأصحاب فيأمرهم بالتقدم ، ويمشى فى غمارهم ، إما لتعليم غيره ، أو لينفى عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر

---

(١) حديث أنس لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له الحديث : تقدم فى آداب الصحبة وفى أخلاق النبوة

(٢) حديث كان فى بعض الأوقات يمشى مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى امامة بسند ضعيف جدا انه خرج يمشى إلى البقيع فتبعه أصحابه فوقف فأمرهم أن يتقدموا ومشى خلفهم فسئل عن ذلك فقال انى سمعت خفق نعالكم فأشفقت أن يقع فى نفسى شىء من الكبر وهو منكر فيه جماعة ضعفاء

والعجب [١] كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة ، وأبدله بالخليع ، لأحد هذين المعنيين . ومنها أن لا يزور غيره ، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين . وهو ضد التواضع . روى أن سفيان الثوري قدم الرملة . فبعث إليه إبراهيم بن أدهم أن تعال فحدثنا . فجاء سفيان . فقيل له . يا أبا إسحق ، تبعث إليه بمثل هذا ! فقال أردت أن أنظر كيف تواضعه . ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه ، إلا أن يجلس بين يديه . والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد ، فمس فخذي فخذه ، فنحيت نفسي عنه . فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة ؟ وإني لا أعرف رجلا منكم شرا مني . وقال أنس [٢] كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت . ومنها أن يتوقى من مجالسة المرضى والمعلولين ، ويتحاشى عنهم وهو من الكبر [٣] دخل رجل وعليه جدري قد تقشر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده ناس من أصحابه يأكلون ، فما جلس إلى أحد إلا قام من جنبه ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جنبه . وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوما ، ولا أبرص . ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته . ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا في بيته . والتواضع خلافه . روى أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف ، وكان يكتب ، فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه . قال أفأنبه الغلام ؟ فقال هي أول نومة نامها . فقام وأخذ البطة ، وملأ المصباح زيتا . فقال الضيف قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ! فقال ذهبت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ، ما نقص مني شيء . وخير الناس من كان عند الله متواضعا . ومنها أن لا يأخذ متاعه [٤] ويحمله إلى بيته . وهو خلاف عادة المتواضعين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك . وقال علي كرم الله وجهه . لا ينقص الرجل الكامل

---

(١) حديث اخراجه الثوب الجديد في الصلاة وابداله بالخليع : قلت المعروف نزع الشراك الجديد ورد الشراك الخلق أو نزع الخميصة ولبس الأنبجانية وكلاهما تقدم في الصلاة

(٢) حديث أنس كانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ الحديث : تقدم في آداب المعيشة

(٣) حديث الرجل الذي به جدري واجلاسه إلى جنبه : تقدم قريبا

(٤) حديث حمله متاعه إلى بيته : أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله : وتقدم

من كدّه ما حمل من شيء إلى عياله . وكان أبو عبيدة بن الجراح ، وهو أمير ، يحمل سطلا له من خشب إلى الحمام وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان فقال أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك . وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقا لحما في يده اليسرى ، وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله ، وقال بعضهم . رأيت عليا رضي الله عنه قد اشترى لحما بدرهم . فحمله في ملحفته . فقلت له أحمل عنك يا أمير المؤمنين ؟ فقال لا ، أبو العيال أحق أن يحمل

ومنها اللباس ، إذ يظهر به التكبر والتواضع . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (١) « اَلْبَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ » فقال هارون : سألت معْنا عن البذاذة ، فقال هو الدون من اللباس وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق ، وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم . وعوتب علي كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال : يقتدي به المؤمن ، ويخشع له القلب . وقال عيسى عليه السلام . جودة الثياب خيلاء في القلب . وقال طاوس : إني لأغسل ثوبي هذين ، فأنكر قلبي ماداما نقيين ؛

ويروى أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار ، فيقول ما أجودها لولا خشونة فيها . فلما استخلف ، كان يشترى له الثوب بخمسة دراهم . فيقول ما أجوده لولا لينه . فقيل له أين لباسك ، ومركبك ، وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن لي نفسا ذواقة ، وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلافة ، وهي أرفع الطباق ، تاقت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد . صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ، ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أعطاك ، فلو لبست ، فنكس رأسه مليا ، ثم رفع رأسه فقال ، إن أفضل القصد عند الجدة ، وإن أفضل العفو عند القدرة . وقال صلى الله عليه وسلم (٢) « مَنْ تَرَكَ زِينَةً لِلّهِ وَوَضَعَ ثِيَاباً حَسَنَةً تَوَاضُعاً لِلّهِ وَابْتِغَاءَ لِمَرْضَاتِهِ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يَدَّخِرَ لَهُ عَبْقَرِيَّ الْجَنَّةِ »

---

(١) حديث البذاذة من الايمان : أبو داود وابن ماجه من حديث أبي أمامة بن ثعلبة وقد تقدم

(٢) حديث من ترك زينة لله ووضع ثيابا حسنة تواضعا لله ـ الحديث : أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس من ترك زينة لله ـ الحديث وفي اسناده نظر

فإن قلت : فقد قال عيسى عليه السلام : جودة الثياب خيلاء القلب . وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم [١] عن الجمال فى الثياب ، هل هو من الكبر ؟ فقال « لا وَلكِنَّ مَنْ سَفِهَ الْحَقَّ وَغَمِصَ النَّاسَ » فكيف طريق الجمع بينهما ؟ . فاعلم أن الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر فى حق كل أحد فى كل حال . وهو الذى أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] من حال ثابت ابن قيس ، إذ قال إنى امرؤ حبب إلىّ من الجمال ماترى ، فعرف أن ميله إلى النظافة وجودة الثياب ، لاليتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر وقد يكون ذلك من الكبر . كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ، ولا يبالى إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحب الجمال فى كل شيء ولو فى خلوته ، وحتى فى سنور داره . فذلك ليس من التكبر .

فإذاً انقسمت الأحوال. نزل قول عيسى عليه السلام على بعض الأحوال . على أن قوله خيلاء القلب يعنى قد تورث خيلاء فى القلب . وقول نبينا صلى الله عليه وسلم إنه ليس من الكبر يعنى أن الكبر لايوجبه . ويجوز أن لايوجبه الكبر، ثم يكون هو مورثا للكبر .

وبالجملة فالأحوال تختلف فى مثل هذا، والمحبوب الوسط من اللباس ،الذى لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال صلى الله عليه وسلم [٣] « كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فى غَيْرِ سَرَفٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ [٤] إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » وقال بكر بن عبدالله المزنى : البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية . وإنما خاطب بهذا قوما يطلبون التكبر بثياب أهل الصلاح . وقد قال عيسى عليه السلام : مالكم تأتونى وعليكم ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى . البسوا ثياب الملوك ، وأميتوا قلوبكم بالخشية

---

(١) حديث سئل عن الجمال فى الثياب هل هو من الكبر فقال لا ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث ان ثابت بن قيس قال للنبى صلى الله عليه وسلم انى امرؤ حبب الى الجمال ـ الحديث : اهو الذى قبله سمى فيه السائل وقد تقدم

(٣) حديث كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير اسراف ولا مخيلة :النسائى وابن ماجه من رواية عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده

(٤) حديث ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده :الترمذى وحسنا من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أيضا وقد جعلهما المصنف حديثا واحدا

ومنها أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه . فذلك هو الأصل. وقد أوردنا ما نقل عن السلف من احتمال الأذى في كتاب الغضب والحسد

وبالجملة فجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فيه . فينبغي أن يقتدى به . ومنه ينبغي أن يتعلم . وقد قال أبو سلمة : قلت لأبي سعيد الخدري : ماترى فيما أحدث الناس من الملبس ، والمشرب ، والمركب ، والمطعم ؟ فقال يا ابن أخي ، كل لله ، واشرب لله ، والبس لله . وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة ، فهو معصية وسرف وعالج في بيتك من الخدمة [1] ما كان يعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته . كان يعلف الناضح ، ويعقل البعير ، ويقم البيت ، ويحلب الشاة ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويأكل مع خادمه ، ويطحن عنه إذا أعيا ، ويشتري الشيء من السوق ، ولا يمنعه من الحياء أن يعلقه بيده ، أو يجعله في طرف ثوبه ، وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير ، والكبير والصغير . ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير ، أسود أو أحمر ، حر أو عبد من أهل الصلاة ، ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعى ، وإن كان أشعث أغبر ، ولا يحقر ما دعى إليه ، وإن لم يجد إلا حشف الدقل . لا يرفع غداء لعشاء ، ولا عشاء لغداء . هين المؤنة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة طليق الوجه ، بسام من غير ضحك ، محزون من غير عبوس ، شديد في غير عنف ، متواضع في غير مذلة ، جواد من غير سرف ، رحيم لكل ذي قربى ومسلم ، رقيق القلب ، دائم الإطراق لم يبشم قط من شبع ، ولا يمد يده من طمع . قال أبو سلمة . فدخلت على عائشة رضي الله عنها فحدثتها بما قال أبو سعيد في زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت ما أخطأ منه حرفا ولقد قصر ، إذ ما أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمتلىء قط شبعا ، ولم يبث إلى أحد شكوى ، وإن كانت الفاقة لأحب إليه من اليسار والغنى ، وإن كان ليظل جائعا يلتوى ليلته حتى يصبح ، فما يمنعه ذلك عن صيام يومه ، ولو شاء أن يسأل ربه فيؤتى بكنوز

---

(١) حديث أبي سعيد الخدري وعائشة قال الخدري لأبي سلمة عالج في بيتك من الخدمة ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج في بيته كان يعلف الناضح ـ الحديث : وفيه قال أبو سلمة فدخلت على عائشة فحدثتها بذلك عن أبي سعيد فقالت ما أخطأ ولقد قصر أو ما أخبرك أنه لم يمتلىء قط شبعا الحديث ؛ بطوله لم أقف له على اسناد

الأرض وثمارها ورغد عيشها من مشارق الأرض ومغاربها لفعل . وربما بكيت رحمة له مما أوتى من الجوع ، فأمسح بطنه بيدى ، وأقول نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقوتك ويمنعك من الجوع ؟ فيقول ياعائشة ، إخوانى من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، وقدموا على ربهم ، فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم . فأجدنى استحي إن ترفهت فى معيشتى ، أن يقصر بى دونهم ، فأصبر أياما يسيرة أحب إلى من أن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، وما من شيء أحب إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى . قالت عائشة رضى الله عنها . فو الله ما استكمل بعد ذلك جمعة حتى قبضه الله عز وجل

فما نقل من أحواله صلى الله عليه وسلم يجمع جملة أخلاق المتواضعين . فمن يطلب التواضع فليقتد به . ومن رأى نفسه فوق محله صلى الله عليه وسلم ، ولم يرض لنفسه بما رضى هو به فما أشد جهله . فلقد كان أعظم خلق الله منصبا فى الدنيا والدين ، فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به . ولذلك قال عمر رضى الله عنه : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلن نطلب العز فى غيره ، لما عوتب فى بذاذة هيئته عند دخوله الشام . وقال أبو الدرداء : اعلم أن لله عبادا يقال لهم الأبدال ، خلف من الأنبياء ، هم أوتاد الأرض . فلما انقضت النبوة ، أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولا حسن حلية ، ولكن بصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله ، بصبر من غير تجبن ، وتواضع فى غير مذلة . وهم قوم اصطفاهم الله واستخلصهم لنفسه ، وهم أربعون صديقا ، أو ثلاثون رجلا ، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام . لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه

واعلم ياأخى أنهم لا يلعنون شيئا ، ولا يؤذونه ، ولا يحقرونه ، ولا يتطاولون عليه ، ولا يحسدون أحدا ، ولا يحرصون على الدنيا ، هم أطيب الناس خيرا ، وألينهم عريكة ، وأسخاهم نفسا . علامتهم السخاء ، وسجيتهم البشاشة ، وصفتهم السلامة . ليسوا اليوم فى خشية ، وغدا فى غفلة . ولكن مداومين على حالهم الظاهر ، وهم فيما بينهم وبين ربهم لا تدركهم الرياح العواصف ، ولا الخيل المجراة . قلوبهم تصعد ارتياحا إلى الله ، واشتياقا إليه وقدما فى استباق الخيرات . أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون ،

قال الراوى: فقلت يا أبا الدرداء ، ما سمعت بصفة أشد علىّ من تلك الصفة ، وكيف لى أن أبلغها؟ فقال ما بينك وبين أن تكون فى أوسعها إلا أن تكون تبغض الدنيا . فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلت على حب الآخرة وبقدر حبك للآخرة تزهد فى الدنيا . وبقدر ذلك تبصر ما ينفعك وإذا علم الله من عبد حسن الطلب أفرغ عليه السداد ، واكتنفه بالعصمة. واعلم يا ابن أخى أن ذلك فى كتاب الله تعالى المنزل (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ [١]) قال يحيى بن كثير . فنظرنا فى ذلك ، فما يتلذذ المتلذذون بمثل حب الله وطلب مرضاته . اللهم اجعلنا من محب المحبين لك يارب العالمين ، فإنه لا يصلح لحبك إلا من ارتضيته وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

بيان

الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع له

اعلم أن الكبر من المهلكات . ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه . وإزالته فرض عين . ولا يزول بمجرد التمنى ، بل بالمعالجة ، واستعمال الأدوية القامعة له. وفى معالجته مقامان

أحدهما: استئصال أصله من سنخه ، وقلع شجرته من مغرسها فى القلب

الثانى : دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التى بها يتكبر الإنسان على غيره

المقام الأول : فى استئصال أصله . وعلاجه علمىّ وعملىّ . ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما.

أما العلمى ، فهو أن يعرف نفسه ، ويعرف ربه تعالى. ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر. فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة ، علم أنه أذل من كل ذليل ، وأقل من كل قليل . وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة . وإذا عرف ربه ، علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله

أما معرفته ربه وعظمته ومجده ، فالقول فيه يطول ، وهو منتهى علم المكاشفة

وأما معرفته نفسه ، فهو أيضا يطول ، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع فى إثارة التواضع والمذلة . ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة فى كتاب الله ، فإن فى القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته . وقد قال تعالى (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

[١] النحل : ١٢٨

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [١]) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان ، وإلى آخر أمره ، وإلى وسطه . فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية . أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئا مذكورا ؛ وقد كان فى حيز العدم دهورا ، بل لم يكن لعدمه أول . وأى شىء أخس وأقل من المحو والعدم؟ وقد كان كذلك فى القدم، ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ، ثم من أقذرها ، إذ قد خلقه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم جعله عظما ، ثم كسا العظم لحما . فقد كان هذا بداية وجوده حيث كان شيئا مذكورا . فما صار شيئا مذكورا إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت ، إذ لم يخلق فى ابتدائه كاملا ، بل خلقه جمادا ميتا لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يحس ، ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ، ولا يدرك ولا يعلم . فبدأ بموته قبل حياته ، وبضعفه قبل قوته ، وبجهله قبل علمه ، وبعماه قبل بصره ، وبصممه قبل سمعه ، وبيكمه قبل نطقه ، وبضلالته قبل هداه ، وبفقره قبل غناه ، وبعجزه قبل قدرته ، فهذا معنى قوله (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ [٢]) . ومعنى قوله (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ [٣]) كذلك خلقه أولا . ثم امتن عليه فقال (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ [٤]) وهذا إشارة إلى ما تيسر له فى مدة حياته إلى الموت . وكذلك قال (مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا [٥]) ومعناه أنه أحياه بعد أن كان جمادا ميتا ، ترابا أولا ، ونطفة ثانيا ، وأسمعه بعد ما كان أصم ، وبصره بعد ما كان فاقدا للبصر ، وقواه بعد الضعف ، وعلمه بعد الجهل ، وخلق له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقد لها ، وأغناه بعد الفقر ، وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العرى ، وهداه بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره ، وإلى السبيل كيف يسره وإلى طغيان الإنسان ما أكفره ، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره فقال (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ [٦] وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [٧]) . فانظر إلى نعمة الله عليه ، كيف نقله من تلك الذلة ، والقلة والخسة ، والقذارة ، إلى هذه الرفعة والكرامة ، فصار موجودا بعد العدم ، وحيا بعد الموت

(١ ، ٢ ، ٤) عبس : من ١٧ إلى ٢٢ (٣ ، ٥) الدهر : ١ ، ٢ ، ٣ (٦) يس : ٧٧ (٧) الروم : ٢٠

وغنيا بعد الفقر . فكان في ذاته لاشيء ، وأي شيء أخس من لاشيء ، وأي قلة أقل من العدم المحض ، ثم صار بالله شيئا . وإنما خلقه من التراب الذليل الذي يوطأ بالأقدام ، والنطفة القذرة بعد العدم المحض أيضا ، ليعرفه خسة ذاته ، فيعرف به نفسه . وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ، ويعلم بها عظمته وجلاله ، وأنه لايليق الكبرياء إلا به جل وعلا ، ولذلك امتن عليه فقال (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ[1]) وعرف خسته أولا فقال (أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً[1]) ثم ذكر منته عليه فقال (فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى[2]) ليدوم وجوده بالتناسل ، كما حصل وجوده أولا بالاختراع

فمن كان هذا بدأه ، وهذه أحواله ، فمن أين له البطر والكبرياء ، والفخر والخيلاء ، وهو على التحقيق أخس الأخساء ، وأضعف الضعفاء ! ولكن هذه عادة الخسيس ، إذا رفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم ، وذلك لدلالة خسة أوله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . نعم لو أكمله وفوض إليه أمره ، وأدام له الوجود باختياره ، لجاز أن يطغى ؛ وينسى المبدأ والمنتهى ، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة ، والأسقام العظيمة ، والآفات المختلفة ، والطباع المتضادة من المرة ، والبلغم ، والريح ، والدم ، يهدم البعض من أجزائه البعض شاء أم أبى ، أم سخط ، فيجوع كرها ، ويعطش كرها ويمرض كرها ، ويموت كرها ، لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا خيرا ولا شرا ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ، ويريد أن يذكر الشيء فينساه ، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا يغفل عنه ، ويريد أن يصرف قلبه إلى مايهمه فيجول في أودية الوساوس والأفكار بالاضطرار ، فلا يملك قلبه قلبه ، ولا نفسه نفسه ، ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه ، ويكره الشيء وربما تكون حياته فيه . يستلذ الأطعمة وتهلكه وترديه ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه ، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله ، ويختطف روحه ، ويسلب جميع مايهواه في دنياه . فهو مضطر ذليل ، إن ترك بقي ، وإن اختطف فني . عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ، ولا شيء من غيره فأي شيء أذل منه . لو عرف نفسه وأنى يليق الكبر به لولا جهله . فهذا أوسط أحواله فليتأمله

(1) البلد : ٨ ، ٩ ، ١٠ (٢ ، ٣) القيامة : ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩

وأما آخره ومورده فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [١]) ومعناه أنه يسلب روحه ، وسمعه ، وبصره ، وعلمه ، وقدرته ، وحسه ، وإدراكه وحركته ، فيعود جمادا كما كان أول مرة ، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته ، لا حس فيه ولا حركة . ثم يوضع فى التراب فيصير جيفة منتنة قذرة ، كما كان فى الأول نطفة مذرة ، ثم تبلى أعضاؤه ، وتتفتت أجزاؤه ، وتنخر عظامه ، ويصير رميا رفاتا ، ويأكل الدود أجزاءه فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما ، وبخديه فيقطعهما ، وبسائر أجزائه فيصير روثا فى أجواف الديدان ، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان ، ويستقذره كل إنسان ، ويهرب منه لشدة الإنتان . وأحسن أحواله أن يعود إلى ما كان ، فيصير ترابا يعمل منه الكيزان ، ويعمر منه البنيان ، فيصير مفقودا بعد ما كان موجودا ، وصار كأن لم يغن بالأمس حصيدا ، كما كان فى أول أمره أمدا مديدا . وليته بقى كذلك ، فما أحسنه لو ترك ترابا . لا بل يحييه بعد طول البلى ليقاسى شديد البلاء ، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج إلى أهوال القيامة ، فينظر إلى قيامة قائمة ، وسماء مشققة ممزقة ، وأرض مبدلة ، وجبال مسيرة ونجوم منكدرة ، وشمس منكسفة ، وأحوال مظلمة ، وملائكة غلاظ شداد ، وجهنم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر . ويرى صحائف منشورة ، فيقال له اقرأ كتابك ، فيقول وما هو ؟ فيقال كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها ، وتتكبر بنعيمها ، وتفتخر بأسبابها ، ملكان رقيبان ، يكتبان عليك ما كنت تنطق به أو تعمله ، من قليل وكثير ، ونقير وقطمير ، وأكل وشرب ، وقيام وقعود . قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك . فهلم إلى الحساب ، واستعد للجواب ، أو تساق إلى دار العذاب . فينقطع قلبه فزعا من هول هذا الخطاب ، قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه . فإذا شاهده قال : يا ويلتنا ، ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فهذا آخر أمره ، وهو معنى قوله تعالى (ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [٢]) . فما لمن هذا حاله والتكبر والتعظم ، بل ما له وللفرح فى لحظة واحدة ، فضلا عن البطر والأشر ، فقد ظهر له أول حاله ، ووسطه ، ولو ظهر آخره والعياذ بالله تعالى ربما اختار أن يكون كلبا أو خنزيرا ، ليصير مع البهائم ترابا ، ولا يكون إنسانا

(١-٢) عبس : ٢١، ٢٢ .

يسمع خطابا ، أو يلقى عذابا . وإن كان عند الله مستحقا للنار فالخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع ، إذ أوله التراب ، وآخره التراب ، وهو بمعزل عن الحساب والعذاب . والكلب والخنزير لا يهرب منه الخلق ؛ ولو رأى أهل الدنيا العبد المذنب فى النار لصعقوا من وحشة خلقته ، وقبيح صورته . ولو وجدوا ريحه لماتوا من نتنه ، ولو وقعت قطرة من شرابه الذى يسقى منه فى بحار الدنيا لصارت أنتن من الجيفة . فمن هذا حاله فى العاقبة، إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو ، كيف يفرح ويبطر ، وكيف يتكبر ويتجبر ، وكيف يرى نفسه شيئا حتى يعتقد له فضلا . وأى عبد لم يذنب ذنبا استحق به العقوبة؟ إلا أن يعفو الله الكريم بفضله ، ويجبر الكسر عنه . والرجاء منه ذلك لكرمه وحسن الظن به ، ولا قوة إلا بالله أرأيت من جنى على بعض الملوك فاستحق بجنايته ضرب ألف سوط ، فحبس فى السجن ، وهو ينتظر أن يخرج إلى العرض ، وتقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق ، وليس يدرى أيعفى عنه أم لا ، كيف يكون ذله فى السجن ؟ أفترى أنه يتكبر على من فى السجن ؟ وما من عبد مذنب إلا والدنيا سجنه ، وقد استحق العقوبة من الله تعالى، ولا يدرى كيف يكون آخر أمره. فيكفيه ذلك حزنا، وخوفا، وإشفاقا، ومهانة، وذلا. فهذا هو العلاج العلمى القامع لأصل الكبر

وأما العلاج العملى فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق ، بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، كما وصفناه وحكيناه من أحوال الصالحين ، ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] حتى أنه كان يأكل على الأرض ويقول « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ » وقيل لسلمان لم لا تلبس ثوبا جديدا ؟ فقال : إنما أنا عبد ، فإذا أعتقت يوما لبست جديدا . أشار به إلى العتق فى الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعا، وقيل الصلاة عماد الدين وفى الصلاة أسرار لأجلها كانت عمادا . ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائما، وبالركوع والسجود ، وقد كانت العرب قديما يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه فلا ينحنى لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، حتى قال حكيم بن حزام

---

(١) حديث كان يأكل على الارض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد : تقدم فى آداب المعيشة

بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما[1] ، فبايعه النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ثم فقه وكمل إيمانه بعد ذلك ، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة ، أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم ، ويزول كبرهم ، ويستقر التواضع فى قلوبهم . وبه أمر سائر الخلق فإن الركوع ، والسجود ، والمثول قائما ، هو العمل الذى يقتضيه التواضع . فكذلك من عرف نفسه فلينظر كل ما يتقاضاه الكبر من الأفعال ، فليواظب على نقيضه ، حتى يصير التواضع له خلقا ، فإن القلوب لا تتخلق بالأخلاق المحمودة إلا بالعلم والعمل جميعا ، وذلك لخفاء العلاقة بين القلب والجوارح ، وسر الارتباط الذى بين عالم الملك وعالم الملكوت ، والقلب من عالم الملكوت

المقام الثانى : فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة . وقد ذكرنا فى كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقى هو العلم والعمل . فأما ما عداه مما يفنى بالموت فكمال وهمى . فمن هذا يعسر على العالم أن لا يتكبر ولكنا نذكر طريق العلاج من العلم والعمل فى جميع الأسباب السبعة

الأول : النسب ، فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه بمعرفة أمرين :

أحدهما : أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ، ولذلك قيل

لئن فخرت بآباء ذوى شرف * لقد صدقت ولكن بئس ما ولدوا

فالمتكبر بالنسب إن كان خسيسا فى صفات ذاته ، فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ! بل لو كان الذى ينسب إليه حيا لكان له أن يقول : الفضل لى ، ومن أنت ؟ وإنما أنت دودة خلقت من بولى . أفترى أن الدودة التى خلقت من بول إنسان أشرف من الدودة التى من بول فرس ؟ هيهات ، بل هما متساويان ، والشرف للإنسان لا للدودة

الثانى : أن يعرف نسبه الحقيقى ، فيعرف أباه وجده ، فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وجده البعيد تراب ذليل . وقد عرفه الله تعالى نسبه فقال (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ[1]) فمن أصله التراب المهين الذى يداس بالأقدام ، ثم خمر طينه حتى صار حمأ مسنونا ، كيف يتكبر

---

(١) حديث حكيم بن حزام بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما ـ الحديث : رواه أحمد مقتصرا على هذا وفيه ارسال خفى

---

(١) السجدة : ٧ ، ٨

وأخس الأشياء ما إليه انتسابه، إذ يقال : يا أذل من التراب ، ويا أنتن من الحمأة ، ويا أقذر من المضغة . فإن كان كونه من أبيه أقرب من كونه من التراب ، فنقول افتخر بالقريب دون البعيد فالنطفة والمضغة أقرب إليه من الأب ، فليحقر نفسه بذلك . ثم إن كان ذلك يوجب رفعة لقربه ، فالأب الأعلى من التراب ، فمن أين رفعته ؟ وإذا لم يكن له رفعة ، فمن أين جاءت الرفعة لولده ؟ فإذاً أصله من التراب ، وفصله من النطفة ، فلا أصل له ولا فصل . وهذه غاية خسة النسب . فالأصل يوطأ بالأقدام ، والفصل تغسل منه الأبدان . فهذا هو النسب الحقيقي للإنسان . ومن عرفه لم يتكبر بالنسب ، ويكون مثله بعد هذه المعرفة وانكشاف الغطاء له عن حقيقة أصله ، كرجل لم يزل عند نفسه من بنى هاشم ، وقد أخبره بذلك والداه فلم يزل فيه نخوة الشرف ، فبينما هو كذلك إذا أخبره عدول لا يشك فى قولهم ، أنه ابن هندى حجام يتعاطى القاذورات ، وكشفوا له وجه التلبيس عليه ، فلم يبق له شك فى صدقهم أفترى أن ذلك يبقى شيئاً من كبره ؟ لا بل يصير عند نفسه أحقر الناس وأذلهم . فهو من استشعار الخزى لخسته فى شغل عن أن يتكبر على غيره . فهذا حال البصير إذا تفكر فى أصله وعلم أنه من النطفة ، والمضغة ، والتراب . إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقل التراب ، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها ، لكان يعلم به خسة نفسه لمماسة أعضاء أبيه للتراب والدم . فكيف إذا عرف أنه فى نفسه من التراب والدم والأشياء القذرة التى يتنزه عنها هو فى نفسه .

السبب الثانى : التكبر بالجمال . ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم . ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يقدر عليه تعززه بالجمال ، فإنه وكل به الأقذار فى جميع أجزائه ، الرجيع فى أمعائه ، والبول فى مثانته ، والمخاط فى أنفه ، والبزاق فى فيه ، والوسخ فى أذنيه ، والدم فى عروقه ، والصديد تحت بشرته ، والصنان تحت إبطه ، يغسل الغائط بيده كل يوم دفعة أو دفعتين ، ويتردد كل يوم إلى الخلاء مرة أو مرتين ليخرج من باطنه مالو رآه بعينه لاستقذره ، فضلا عن أن يمسه أو يشمه ، كل ذلك ليعرف قذارته وذله . هذا فى حال توسطه . وفى أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة الصور ، من النطفة ، ودم الحيض وأخرج من مجرى الأقذار ؛ إذ خرج من الصلب ثم من الذكر مجرى البول ، ثم من الرحم مفيض دم الحيض ، ثم خرج من مجرى القذر

قال أنس رحمه الله : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يخطبنا فيقذر إلينا أنفسنا ويقول : خرج أحدكم من مجرى البول مرتين . وكذلك قال طاوس لعمر بن عبد العزيز . ما هذه مشية من فى بطنه خرء . إذ رآه يتبختر، وكان ذلك قبل خلافته وهذا أوله ووسطه . ولو ترك نفسه فى حياته يوما لم يتعهدها بالتنظيف والغسل، لثارت منه الأنتان والأقذار ، وصار أنتن وأقذر من الدواب المهملة التى لا تتعهد نفسها قط

فإذا نظر أنه خلق من أقذار ، وأسكن فى أقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار ، لم يفتخر بجماله الذى هو كخضراء الدمن ، وكلون الأزهار فى البوادى ، فبينما هو كذلك إذا صار هشيما تذروه الرياح . كيف ولو كان جماله باقيا ، وعن هذه القبائح خاليا ، لكان يجب أن لا يتكبر به على القبيح ، إذ لم يكن قبح القبيح إليه فينفيه ، ولا كان جمال الجميل إليه حتى يحمد عليه . كيف ولا بقاء له ، بل هو فى كل حين يتصور أن يزول بمرض ، أو جدرى ، أو قرحة ، أو سبب من الأسباب ، فكم من وجوه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب . فمعرفة هذه الأمور تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها

السبب الثالث : التكبر بالقوة والأيدى . وعلاجه من ذلك أن يعلم ما سلط عليه من العلل والأمراض ، وأنه لو توجع عرق واحد فى يده لصار أعجز من كل عاجز ، وأذل من كل ذليل . وأنه لو سلبه الذباب شيئا لم يستنقذه منه . وأن بقة لو دخلت فى أنفه ، أو نملة دخلت فى أذنه لقتلته . وأن شوكة لو دخلت فى رجله لأعجزته . وأن حمى يوم تحلل من قوته مالا ينجبر فى مدة . فمن لا يطيق شوكة ، ولا يقاوم بقة ، ولا يقدر على أن يدفع عن نفسه ذبابة ، فلا ينبغى أن يفتخر بقوته . ثم إن قوى الإنسان فلا يكون أقوى من حمار ، أو بقرة أو فيل ، أو جمل . وأى افتخار فى صفة يسبقك فيها البهائم

السبب الرابع والخامس الغنى وكثرة المال . وفى معناه كثرة الأتباع والأنصار ، والتكبر بولاية السلاطين ؛ والتمكن من جهتهم . وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان كالجمال والقوة والعلم . وهذا أقبح أنواع الكبر . فإن المتكبر بماله كأنه متكبر بفرسه وداره : ولو مات فرسه وانهدمت داره لعاد ذليلا . والمتكبر بتمكين السلطان وولايته لا بصفة فى نفسه ، بنى أمره على قلب هو أشد غليانا من القدر . فإن تغير عليه كان أذل الخلق ،

وكل متكبر بأمر خارج عن ذاته فهو ظاهر الجهل . كيف والمتكبر بالغنى لو تأمل لرأى فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل . فأف لشرف يسبقك به اليهودى وأف لشرف يأخذه السارق فى لحظة واحدة ، فيعود صاحبه ذليلا مفلسا . فهذه أسباب ليست فى ذاته . وما هو فى ذاته ليس إليه دوام وجوده ، وهو فى الآخرة وبال ونكال فالتفاخر به غاية الجهل . وكل ما ليس إليك فليس لك وشىء من هذه الأمور ليس إليك بل إلى واهبه ، إن أبقاه لك ، وإن استرجعه زال عنك . وما أنت إلا عبد مملوك لا تقدر على شىء . ومن عرف ذلك لا بد وأن يزول كبره . ومثاله أن يفتخر الغافل بقوته ، وجماله وماله ، وحريته ، واستقلاله ، وسعة منازله ، وكثرة خيوله وغلمانه ، إذ شهد عليه شاهدان عدلان عند حاكم منصف ، بأنه رقيق لفلان ، وأن أبويه كانا مملوكين له ، فعلم ذلك وحكم به الحاكم ، فجاء مالكه فأخذه وأخذ جميع ما فى يده ، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبه وينكل به لتفريطه فى أمواله ، وتقصيره فى طلب مالكه ليعرف أن له مالكا ، ثم نظر العبد فرأى نفسه محبوسا فى منزل ، قد أحدقت به الحيات والعقارب والهوام ، وهو فى كل حال على وجل من كل واحدة منها ، وقد بقى لا يملك نفسه ولا ماله ، ولا يعرف طريقا فى الخلاص ألبتة . أفترى من هذا حاله هل يفخر بقدرته ، وثروته ، وقوته ، وكماله ؟ أم تذل نفسه ويخضع ؟ وهذا حال كل عاقل بصير . فإنه يرى نفسه كذلك ، فلا يملك رقبته ، وبدنه وأعضاءه ، وماله ، وهو مع ذلك بين آفات ، وشهوات ، وأمراض ، وأسقام ، هى كالعقارب والحيات ، يخاف منها الهلاك . فمن هذا حاله لا يتكبر بقوته وقدرته ، إذ يعلم أنه لا قدرة له ولا قوة

فهذا طريق علاج التكبر بالأسباب الخارجة ، وهو أهون من علاج التكبر بالعلم والعمل ، فإنهما كمالان فى النفس جديران بأن يفرح بهما ، ولكن التكبر بهما أيضا نوع من الجهل خفى كما سنذكره

السبب السادس : الكبر بالعلم ، وهو أعظم الآفات ، وأغلب الأدواء ، وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة وجهد جهيد . وذلك لأن قدر العلم عظيم عند الله ، عظيم عند الناس . وهو أعظم من قدر المال والجمال وغيرهما . بل لا قدر لهما أصلا إلا إذا كان معهما علم وعمل

ولذلك قال كعب الأحبار : إن للعلم طغيانا كطغيان المال . وكذلك قال عمر رضى الله عنه : العالم إذ زل زل بزلته عالَم . فيعجز العالم عن أن لا يستعظم نفسه بالإضافة إلى الجاهل لكثرة ما نطق الشرع بفضائل العلم . ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين ، أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد ، وأنه يحتمل من الجاهل ما لم يحتمل عشره من العالم . فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم ، فجنايته أفحش ، إذ لم يقض حق نعمة الله عليه فى العلم . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[1] « يُؤْتَى بِالعَالِمِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَا فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا لَكَ ؟ فَيَقُولُ كُنْتُ آمُرُ بِالخَيْرِ وَلَا آتِيهِ وَأَنْهَى عَنِ الشَّرِّ وَآتِيهِ » وقد مثل الله سبحانه وتعالى من يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب فقال عز وجل (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا[1]) أراد به علماء اليهود . وقال فى بلعم بن باعوراء (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا[2]) حتى بلغ (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ[3]) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أوتى بلعم كتابا ، فأخلد إلى شهوات الأرض ، أى سكن حبه إليها ، فمثله بالكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث . أى سواء آتيته الحكمة أو لم أوته لا يدع شهوته

ويكفى العالم هذا الخطر . فأى عالم لم يتبع شهوته ؟ وأى عالم لم يأمر بالخير الذى لا يأتيه؟ فمهما خطر للعالم عظم قدره بالإضافة إلى الجاهل ، فليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده فإن خطره أعظم من خطر غيره ، كما أن قدره أعظم من قدر غيره ، فهذا بذاك . وهو كالملك المخاطر بروحه فى ملكه لكثرة أعدائه . فإنه إذا أخذ وقهر اشتهى أن يكون قد كان فقيرا . فكم من عالم يشتهى فى الآخرة سلامة الجهال والعياذ بالله منه

فهذا الخطر يمنع من التكبر ، فإنه إن كان من أهل النار فالخنزير أفضل منه ، فكيف يتكبر من هذا حاله ! فلا ينبغى أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم

(١) حديث يؤتى بالعالم يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ـ الحديث : متفق عليه من حديث أسامة ابن زيد بلفظ يؤتى بالرجل وتقدم فى العلم

(١) الجمعة : ٥ (٢ ، ٣) الاعراف : ١٧٥ ، ١٧٦

وقد كان بعضهم يقول : ياليتني لم تلدني أمي . ويأخذ الآخر تبنة من الأرض ويقول : ياليتني كنت هذه التبنة . ويقول الآخر : ليتني كنت طيرا أوكل . ويقول الآخر : ليتني لم أك شيئا مذكورا . كل ذلك خوفا من خطر العاقبة . فكانوا يرون أنفسهم أسوأ حالا من الطير ومن التراب ، ومهما أطال فكره فى الخطر الذى هو بصدده زال بالكلية كبره ، ورأى نفسه كأنه شر الخلق ، ومثاله مثال عبد أمره سيده بأمور فشرع فيها ، فترك بعضها وأدخل النقصان فى بعضها ، وشك فى بعضها أنه هل أداها على مايرتضيه سيده أم لا . فأخبره مخبر أن سيده أرسل إليه رسولا يخرجه من كل ماهو فيه عريانا ذليلا، ويلقيه على بابه فى الحر والشمس زمانا طويلا ، حتى إذا ضاق عليه الأمر، وبلغ به المجهود ، أمر برفع حسابه، وفتش عن جميع أعماله قليلها وكثيرها ، ثم أمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم ، لا يروح عنه ساعة وقد علم أن سيده قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك ، وعفا عن بعضهم ؟ وهو لايدرى من أى الفريقين يكون . فإذا تفكر فى ذلك انكسرت نفسه وذل ، وبطل عزه وكبره ، وظهر حزنه وخوفه ، ولم يتكبر على أحد من الخلق ، بل تواضع رجاء أن يكون هو من شفعائه عند نزول العذاب . فكذلك العالم إذا تفكر فيما ضيعه من أوامر ربه ، بجنايات على جوارحه ، وبذنوب فى باطنه من الرياء ، والحقد ، والحسد ، والعجب ، والنفاق وغيره ، وعلم مما هو بصدده من الخطر العظيم ، فارقه كبره لامحالة

الأمر الثانى : أن العالم يعرف أن الكبر لايليق إلا بالله عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتا عند الله بغيضا ، وقد أحب الله منه أن يتواضع ، وقال له إن لك عندى قدرا مالم تر لنفسك قدرا ، فإن رأيت لنفسك قدرا فلا قدر لك عندى . فلا بد وأن يكلف نفسه مايحبه مولاه منه ، وهذا يزيل التكبر عن قلبه ، وإن كان يستيقن أنه لاذنب له مثلا أو تصور ذلك . وبهذا زال التكبر عن الأنبياء عليهم السلام ، إذ علموا أن من نازع الله تعالى فى رداء الكبرياء قصمه . وقد أمرهم الله بأن يصغروا أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم . فهذا أيضا مما يبعثه على التواضع لامحالة

فإن قلت : فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع ، وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد ، وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى ، وكيف يغنيه أن يخطر بباله

خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر ؟

فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر فى خطر الخاتمة . بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه ، إذ يتصور أن يسلم الكافر ، فيختم له بالإيمان ، ويضل هذا العالم ، فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله فى الآخرة ، والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدرى ذلك . فكم من مسلم نظر إلى عمر رضى الله عنه قبل إسلامه ، فاستحقره وازدراه لكفره ، وقد رزقه الله الإسلام ، وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ، ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة . وجميع الفضائل فى الدنيا تراد للعاقبة

فإذاً من حق العبد أن لا يتكبر على أحد . بل إن نظر إلى جاهل قال . هذا عصى الله بجهل ، وأنا عصيته بعلم ، فهو أعذر منى . وإن نظر إلى عالم قال هذا قد علم ما لم أعلم ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال . هذا قد أطاع الله قبلى ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى صغير قال . إنى عصيت الله قبله ، فكيف أكون مثله . وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال . ما يدرينى لعله يختم له بالإسلام ، ويختم لى بما هو عليه الآن ، فليس دوام الهداية إلىّ ، كما لم يكن ابتداؤها إلىّ . فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفى الكبر عن نفسه ، وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال فى سعادة الآخرة والقرب من الله ، لا فيما يظهر فى الدنيا مما لا بقاء له ، ولعمرى هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه . ولكن حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه ، مشغول القلب بخوفه لعاقبته . لا أن يشتغل بخوف غيره . فإن الشفيق بسوء الظن مولع ، وشفقة كل إنسان على نفسه . فإذا حبس جماعة فى جناية ، ووعدوا بأن تضرب رقابهم ، لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر ، إذ شغل كل واحد منهم نفسه عن الالتفات إلى هم غيره ، حتى كأن كل واحد هو وحده فى مصيبته وخطره

فإن قلت . فكيف أبغض المبتدع فى الله ، وأبغض الفاسق ، وقد أمرت ببغضهما ، ثم مع ذلك أتواضع لهما ، والجمع بينهما متناقض .

فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله فى إنكار البدعة والفسق بكبر النفس ، والإدلال بالعلم والورع . فكم من عابد جاهل ، وعالم مغرور ، إذا رأى فاسقا جلس بجنبه أزعجه من عنده ، وتنزه عنه بكبر باطن فى نفسه ، وهو ظان أنه قد غضب لله

كما وقع لعابد بنى إسرائيل مع خليعهم . وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرا والحذر منه ممكن . والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله ، وهو خير . فإن الغضبان أيضا يتكبر على من غضب عليه ، والمتكبر يغضب . وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه ، وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون . والذى يخلصك من هذا ، أن يكون الحاضر على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق ، أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور . أحدها: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ، ليصغر عند ذلك قدرك فى عينك ، والثانى : أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم ، واعتقاد الحق ، والعمل الصالح ، من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك ، فله المنة فيه لا لك ، فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك ، وإذا لم تعجب لم تتكبر ، والثالث ملاحظة إبهام عاقبتك وعاقبته ، أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى ، حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه

فإن قلت : فكيف أغضب مع هذه الأحوال ؟ فأقول تغضب لمولاك وسيدك إذ أمرك أن تغضب له لا لنفسك ، وأنت فى غضبك لا ترى نفسك ناجيا وصاحبك هالكا ، بل يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره فأقول

إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه ، وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه ، وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ، ويغضب عليه ، فإن كان الغلام محبا مطيعا لمولاه ، فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب . وإنما يغضب عليه لمولاه ، ولأنه أمره به ، ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ، ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه ، فيضرب ولده ويغضب عليه ، من غير تكبر عليه . بل هو متواضع له ، يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه ، لأن الولد أعز لا محالة من الغلام ، فإذن ليس من ضرورة الغضب التكبر وعدم التواضع : فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق ، وتظن أنه ربما كان قدرهما فى الآخرة عند الله أعظم ، لما سبق لهما من الحسنى فى الأزل ، ولما سبق لك من سوء القضاء فى الأزل ، وأنت غافل عنه . ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه ، مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك فى الآخرة .

فهكذا يكون بعض العلماء والأكياس، فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره ، مع جهله بالعاقبة ، وذلك غاية الغرور . فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر

السبب السابع : التكبر بالورع والعبادة . وذلك أيضا فتنة عظيمة على العباد وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان ، لما عرفه من فضيلة العلم . وقد قال تعالى (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [1]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي » إلى غير ذلك مما ورد فى فضل العلم. فإن قال العابد: ذلك لعالم عامل بعلمه ، وهذا عالم فاجر ، فيقال له أما عرفت أن الحسنات يذهبن السيئات ، وكما أن العلم يمكن أن يكون حجة على العالم ، فكذلك يمكن أن يكون وسيلة له وكفارة لذنوبه، وكل واحد منهما ممكن . وقد وردت الأخبار بما يشهد لذلك . وإذا كان هذا الأمر غائبا عنه ، لم يجز له أن يحتقر عالما ، بل يجب عليه التواضع له .

فإن قلت : فإن صح هذا فينبغى أن يكون للعالم أن يرى نفسه فوق العابد ، لقوله عليه السلام « فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي »

فاعلم أن ذلك كان ممكنا لو علم العالم عاقبة أمره ، وخاتمة الأمر مشكوك فيها ، فيحتمل أن يموت بحيث يكون حاله عند الله أشد من حال الجاهل الفاسق ، لذنب واحد كان يحسبه هينا وهو عند الله عظيم ، وقد مقته به . وإذا كان هذا ممكنا ، كان على نفسه خائفا . فإذا كان كل واحد من العابد والعالم خائفا على نفسه ، وقد كلف أمر نفسه لا أمر غيره، فينبغى أن يكون الغالب عليه فى حق نفسه الخوف . وفى حق غيره الرجاء . وذلك يمنعه من التكبر بكل حال . فهذا حال العابد مع العالم

فأما مع غير العالم ، فهم منقسمون فى حقه إلى مستورين وإلى مكشوفين . فينبغى أن لا يتكبر

---

(١) حديث فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابى : الترمذى من حديث أبى أمامة وتقدم فى العلم

[1] الزمر : ٩

على المستور فلعله أقل منه ذنوبا ، وأكثر منه عبادة ، وأشد منه حبا لله . وأما المكشوف حاله إن لم يظهر لك من الذنوب إلا ماتزيد عليه ذنوبك فى طول عمرك . فلا ينبغى أن تتكبر عليه . ولا يمكن أن تقول هو أكثر منى ذنبا ، لأن عدد ذنوبك فى طول عمرك ، وذنوب غيرك فى طول العمر لا تقدر على إحصائها حتى تعلم الكثرة . نعم يمكن أن تعلم أن ذنوبه أشد كما لو رأيت منه القتل ، والشرب ، والزنا ، ومع ذلك فلا ينبغى أن تتكبر عليه ، إذ ذنوب القلوب من الكبر ، والحسد ، والرياء ، والغل ، واعتقاد الباطل ، والوسوسة فى صفات الله تعالى ، وتخيل الخطأ فى ذلك كل ذلك شديد عند الله . فربما جرى عليك فى باطنك من خفايا الذنوب ما صرت به عند الله ممقوتا . وقد جرى للفاسق الظاهر الفسق من طاعات القلوب من حب الله ، وإخلاص ، وخوف ، وتعظيم : ما أنت خال عنه . وقد كفر الله بذلك عنه سيئاته ، فينكشف الغطاء يوم القيامة ، فتراه فوق نفسك بدرجات ، فهذا ممكن ، والإمكان البعيد فيما عليك ينبغى أن يكون قريبا عندك إن كنت مشفقا على نفسك . فلا تتفكر فيما هو ممكن لغيرك ، بل فيما هو مخوف فى حقك فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وعذاب غيرك لا يخفف شيئا من عذابك . فإذا تفكرت فى هذا الخطر ، كان عندك شغل شاغل عن التكبر ، وعن أن ترى نفسك فوق غيرك . وقد قال وهب بن منبه : ما تم عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال : فعد تسعة حتى بلغ العاشر فقال : العاشرة وما العاشرة ، بها ساد مجده وبها علا ذكره ، أن يرى الناس كلهم خيرا منه ، وإنما الناس عنده فرقتان فرقة هى أفضل منه وأرفع ، وفرقة هى شر منه وأدنى . فهو يتواضع للفرقتين جميعا بقلبه . إن رأى من هو خير منه سره ذلك ، وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه إلا خائفا من العاقبة . ويقول لعل بر هذا باطن ، فذلك خير له ، ولا أدرى لعل فيه خلقا كريما بينه وبين الله ، فيرحمه الله ويتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال . ويرى ظاهر فذلك شر لى ، فلا يأمن فيما أظهره من الطاعة أن يكون دخلها الآفات فأحبطتها . ثم قال : فحينئذ كمل عقله ، وساد أهل زمانه . فهذا كلامه . وبالجملة فمن جوز أن يكون عند الله شقيا وقد سبق القضاء فى الأزل بشقوته . فماله سبيل إلى أن يتكبر بحال من الأحوال . نعم إذا غلب عليه الخوف رأى كل أحد خيرا من نفسه . وذلك هو الفضيلة ، كما روى أن عابدا آوى إلى جبل

فقيل له فى النوم ائت فلانا الإسكاف فسله أن يدعو لك. فأتاه فسأله عن عمله ، فأخبره أنه يصوم النهار ، ويكتسب فيتصدق ببعضه ، ويطعم عياله ببعضه. فرجع وهو يقول: إن هذا الحسن ، ولكن ليس هذا كالتفرغ لطاعة الله ، فأتى فى النوم ثانيا فقيل له ائت فلانا الإسكاف فقل له ماهذا الصفار الذى بوجهك. فأتاه فسأله فقال له . مارأيت أحدا من الناس إلا وقع لى أنه سينجو وأهلك أنا . فقال العابد بهذه . والذى يدل على فضيلة هذه الخصلة قوله تعالى (يُؤْتُونَ مَا أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ[1]) أى أنهم يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها . وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ[2]) وقال تعالى (إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ[3]) وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام ، مع تقدسهم عن الذنوب ، ومواظبتهم على العبادات ، على الدؤب بالإشفاق فقال تعالى مخبرا عنهم (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ[4]) (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[5]) فمتى زال الإشفاق والحذر مما سبق به القضاء فى الأزل ، وينكشف عند خاتمة الأجل ، غلب الأمن من مكر الله وذلك يوجب الكبر ، وهو سبب الهلاك. فالكبر دليل الأمن ، والأمن مهلك . والتواضع دليل الخوف ، وهو مسعد . فإذن ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخلق ، والنظر إليهم بعين الاستصغار ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال.

فهذه معارف بها يزال داء الكبر عن القلب لا غير . إلا أن النفس بعد هذه المعرفة قد تضمر التواضع وتدعى البراءة من الكبر وهى كاذبة . فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ، ونسيت وعدها فمن هذا لا ينبغى أن يكتفى فى المداواة بمجرد المعرفة ، بل ينبغى أن تكمل بالعمل ، وتجرب بأفعال المتواضعين فى مواقع هيجان الكبر من النفس . وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هى أدلة على استخراج ما فى الباطن ، وإن كانت الامتحانات كثيرة

الامتحان الأول : أن ينظر فى مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شىء من الحق على لسان صاحبه ، فثقل عليه قبوله ، والانقياد له ، والاعتراف به ، والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبرا دفينا ، فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه

---

(١) المؤمنون : ٦٠ (٢) المؤمنون : ٥٧ (٣) الطور : ٢٦ (٤) الأنبياء : ٢٠ (٥) الأنبياء : ٢٨ .

أما من حيث العلم فبأن يذكر نفسه خسة نفسه ، وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلا عنه ، فجزاك الله خيرا كما نبهتنى له ، فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها ينبغى أن يشكر من دله عليها . فإذا واظب على ذلك مرات متوالية ، صار ذلك له طبعا ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله . ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ، ففيه كبر . فإن كان ذلك لا يثقل عليه فى الخلوة ، ويثقل عليه فى الملأ ، فليس فيه كبر ، وإنما فيه رياء ؛ فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطع الطمع عن الناس ، ويذكر القلب بأن منفعته فى كماله فى ذاته ، وعند الله لا عند الخلق ، إلى غير ذلك من أدوية الرياء . وإن ثقل عليه فى الخلوة والملأ جميعا ، ففيه الكبر والرياء جميعا ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثانى ، فليعالج كلا الداءين ، فإنهما جميعا مهلكان

الامتحان الثانى . أن يجتمع مع الأقران والأمثال فى المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشى خلفهم ، ويجلس فى الصدور تحتهم فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفا ، حتى يسقط عنه ثقله . فبذلك يزايله الكبر . وههنا للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس فى صف النعال ، أو يجعل بينه و بين الأقران بعض الأرذال ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضا ، بل ينبغى أن يقدم أقرانه ، ويجلس بينهم بجنبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذى يخرج خبث الكبر من الباطن

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ، ويمر إلى السوق فى حاجة الرفقاء والأقارب فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر . فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق ، والثواب عليها جزيل فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث فى الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه ، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التى تزيل داء الكبر .

الامتحان الرابع . أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلو الطريق فهو كبر . وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء . وكل ذلك من أمراض القلب وعلله المهلكة له إن لم تتدارك . وقد أهمل الناس طب القلوب ، واشتغلوا بطب الأجساد ، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها ، إذ قال تعالى (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [1]) . ويروى عن عبد الله بن سلام ، أنه حمل حزمة حطب ، فقيل له يا أبا يوسف ، قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك . قال أجل ، ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك . فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة ، حتى جربها أهي صادقة أم كاذبة وفي الخبر [1] « مَنْ حَمَلَ الْفَاكِهَةَ أَوِ الشَّيْءَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الْكِبْرِ » .

الامتحان الخامس . أن يلبس ثيابا بذلة ، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء ، وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، له مسح يلبسه بالليل . وقد قال صلى الله عليه وسلم [2] « مَنِ اعْتَقَلَ الْبَعِيرَ وَلَبِسَ الصُّوفَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ الْكِبْرِ » وقال عليه السلام [3] « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكُلُ بِالْأَرْضِ وَأَلْبَسُ الصُّوفَ وَأَعْقِلُ الْبَعِيرَ وَأَلْعَقُ أَصَابِعِي وَأُجِيبُ دَعْوَةَ الْمَمْلُوكِ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » وروي أن أبا موسى الأشعري قيل له إن أقواما يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس .

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر ، فما يختص بالملأ فهو الرياء ، وما يكون في الخلوة فهو الكبر ، فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

---

(١) حديث من حمل الشيء والفاكهة فقد برئ من الكبر : البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة وضعفه بلفظ من حمل بضاعته

(٢) حديث من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برئ من الكبر : البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادة فيه وفي إسناده القاسم العمري ضعيف جداً

(٣) حديث إنما أنا عبد آكل بالأرض وألبس الصوف ـ الحديث : تقدم بعضه ولم أجده بتمامه

(١) الشعراء : ٨٩

بيان

غاية الرياضة فى خلق التواضع

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان وواسطة . فطرفه الذى يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا ، وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة، والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع فى غير مذلة ومن غير تخاسس . فإن كلا طرفى الأمور ذميم ، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها . فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أى وضع شيئا من قدره الذى يستحقه . والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه ، وأجلسه فيه ، ثم تقدم وسوى له نعله ، وغدا إلى باب الدار خلفه. فقد تخاسس وتذلل . وهذا أيضا غير محمود . بل المحمود عند الله العدل . وهو أن يعطى كل ذى حق حقه . فينبغى أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته . فأما تواضعه للسوقى فبالقيام ، والبشر فى الكلام ، والرفق فى السؤال ، وإجابة دعوته ، والسعى فى حاجته ، وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيرا منه ، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره . فلا يحتقره ، ولا يستصغره ، وهو لا يعرف خاتمة أمره .

فإذاً سبيله فى اكتساب التواضع أن يتواضع للأقران ولمن دونهم ، حتى يخف عليه التواضع المحمود فى محاسن العادات ، ليزول به الكبر عنه . فإن خف عليه ذلك فقد حصل له خلق التواضع . وإن كان يثقل عليه وهو يفعل ذلك فهو متكلف لا متواضع . بل الخلق ما يصدر عنه الفعل بسهولة من غير ثقل ، ومن غير روية . فإن خف ذلك وصار بحيث يثقل عليه رعاية قدره ، حتى أحب التملق والتخاسس ، فقد خرج إلى طرف النقصان ، فليرفع نفسه ، إذ ليس للمؤمن من أن تذل نفسه ، إلى أن يعود إلى الوسط الذى هو الصراط المستقيم وذلك غامض فى هذا الخلق وفى سائر الأخلاق . والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر . كما أن الميل إلى طرف التبذير فى المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل . فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان ، وأحدهما أفحش

وكذلك نهاية التكبر ونهاية التنقص والتذلل مذمومان ؛ وأحدهما أقبح من الآخر . والمحمود المطلق هو العدل ، ووضع الأمور مواضعها كما يجب ، وعلى ما يجب ، كما يعرف ذلك بالشرع والعادة . ولنقتصر على هذا القدر من بيان أخلاق الكبر والتواضع

الشطر الثاني من الكتاب

في العجب

وفيه بيان ذم العجب وآفاته ، وبيان حقيقة العجب والإدلال ، وحدهما ، وبيان علاج العجب على الجملة ، وبيان أقسام ما به العجب ، وتفصيل علاجه

بيان

ذم العجب وآفاته

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا [١]) ذكر ذلك في معرض الإنكار . وقال عز وجل (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا [٢]) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا [٣]) وهذا أيضا يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه .

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » وقال لأبي ثعلبة حيث ذكر آخر هذه الأمة فقال [٢] « إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ »

---

(١) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم غير مرة

(٢) حديث أبي ثعلبة اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا واعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك : أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وقد تقدم

---

(١) التوبة : ٢٥ (٢) الحشر : ٢ (٣) الكهف : ١٠٤

وقال ابن مسعود : الهلاك فى اثنتين : القنوط والعجب : وإنما جمع بينهما لأن السعادة لاتنال إلا بالسعي ، والطلب ، والجد ، والتشمر . والقانط لايسعى، ولا يطلب .والمعجب يعتقد أنه قدسعد وقدظفر بمراده فلايسعى .فالموجود لايطلب، والمحال لايطلب .والسعادة موجودة فى اعتقاد المعجب ، حاصلة له ، ومستحيلة فى اعتقاد القانط . فمن ههنا جمع بينهما وقد قال تعالى (فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ [1]) قال ابن جريج . معناه إذا عملت خيرا فلاتقل عملت . وقال زيد بن أسلم : لاتبروها ، أى لاتعتقدوا أنها بارة ، وهو معنى العجب

ووقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يوم أحد بنفسه ، فأكب عليه حتى أصيبت كفه . فكأنه أعجبه فعله العظيم ، إذ فداه بروحه حتى جرح . فتفرس ذلك عمر فيه فقال : مازال يعرف فى طلحة نأو منذ أصيبت أصبعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ،والنأو هو العجب فى اللغة ، إلا أنه لم ينقل فيه أنه أظهره واحتقر مسلما .ولما كان وقت الشورى قال له ابن عباس . أين أنت من طلحة؟قال ذلك رجل فيه نخوة .فإذا كان لايتخلص من العجب أمثالهم ، فكيف يتخلص الضعفاء إن لم يأخذوا حذرهم !

وقال مطرف : لأن أبيت نائما ، وأصبح نادما ، أحب إلى من أن أبيت قائما ، وأصبح معجبا . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَاهُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ الْعُجْبُ الْعُجْبُ » فجعل العجب أكبر الذنوب . وكان بشر بن منصور من الذين إذ رؤا ذكر الله تعالى والدار الآخرة ، لمواظبته على العبادة . فأطال الصلاة يوما ورجل خلفه ينظر . ففطن له بشر ، فلما انصرف عن الصلاة قال له : لايعجبنك مارأيت منى . فإنا بليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدة طويلة ، ثم صار إلى ماصار إليه .

---

(١) حديث وقى طلحة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وأكب عليه حتى أصيبت كفه :البخارى من رواية قيس بن أبى حازم قال رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبى صلى الله عليه وسلم

(٢) حديث لولم تذنبوا لخشيت عليكم ماهو أكبر من ذلك العجب العجب :البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وفيه سلام بن أبى الصهباء قال البخارى منكر الحديث وقال أحمد حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى سعيد بسند ضعيف جدا

---

(١) النجم : ٣٢ .

وقيل لعائشة رضي الله عنها : متى يكون الرجل مسيئا ؟ قالت إذا ظن أنه محسن . وقد قال تعالى (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى [1]) والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هو العجب فظهر بهذا أن العجب مذموم جدا

بيان

آفة العجب

اعلم أن آفات العجب كثيرة . فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى . هذا مع العباد . وأما مع الله تعالى ، فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها فبعض ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها ، لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها . وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه ، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه . بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجح بها ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها . ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعا فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع . وإنما يتفقد من يغلب عليه الإشفاق والخوف دون العجب . والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ويظن أنه عند الله بمكان ، وأن له عند الله منة وحقا بأعماله التي هي نعمة من نعمه ، وعطية من عطاياه . ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها . وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ، ومن الاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه . وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر له ، فيفرح بكونه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره ، فيصر عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ، ولا وعظ واعظ . بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ، ويصر على خطئه . فإن كان رأيه في أمر دنيوي فيحقق فيه ، وإن كان في أمر ديني لاسيما فيما يتعلق بأصول العقائد فيهلك به . ولو اتهم نفسه ولم يثق برأيه ، واستضاء بنور القرآن ، واستعان بعلماء الدين ، وواظب

[1] البقرة : ٢٦٤

على مدارسة العلم ، وتابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلك يوصله إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب . فلذلك كان من المهلكات . ومن أعظم آفاته أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى ، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه، نسأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته

بيان

حقيقة العجب والإدلال وحدهما

اعلم أن العجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة . وللعالم بكمال نفسه في علم، وعمل ومال ، وغيره حالتان : إحداهما: أن يكون خائفا على زواله ، ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله . فهذا ليس بمعجب . والأخرى: أن لا يكون خائفا من زواله، لكن يكون فرحا به من حيث إنه نعمة من الله تعالى عليه ، لا من حيث إضافته إلى نفسه . وهذا أيضا ليس بمعجب. وله حالة ثالثة هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحا به مطمئنا إليه، ويكون فرحه به من حيث إنه كمال ، ونعمة، وخير، ورفعة، لا من حيث إنه عطية من الله تعالى ونعمة منه. فيكون فرحه به من حيث إنه صفته، ومنسوب إليه بأنه له، لا من حيث إنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه . فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله، مهما شاء سلبها عنه ، زال العجب بذلك عن نفسه.

فإذاً العجب هو استعظام النعمة ، والركون إليها ، مع نسيان إضافتها إلى المنعم . فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه ، استبعادا يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق ، سمي هذا إدلالا بالعمل . فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قد يعطي غيره شيئا فيستعظمه ويمن عليه ، فيكون معجبا . فإن استخدمه أو اقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه ، كان مدلا عليه . وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾[2] أي لا تدل بعملك . وفي الخبر[1] « إِنَّ صَلَاةَ الْمُدِلِّ لَا تُرْفَعُ فَوْقَ رَأْسِهِ وَلَأَنْ تَضْحَكَ وَأَنْتَ مُعْتَرِفٌ بِذَنْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَبْكِيَ وَأَنْتَ مُدِلٌّ بِعَمَلِكَ »

---

(١) حديث ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه — الحديث : لم أجد له أصلا

---

(٢) المدثر : ٦

والإدلال وراء العجب ، فلا مدل إلا وهو معجب . ورب معجب لايدل . إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة ، دون توقع جزاء عليه . والإدلال لايتم إلا مع توقع جزاء فإن توقع إجابة دعوته، واستنكر ردها بباطنه، وتعجب منه ،كان مدلا بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ، ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال ، وهو من مقدمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم

بيان

علاج العجب على الجملة

أعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده . وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، فقط . فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد ،كالعبادة والصدقة ، والغزو ، وسياسة الخلق وإصلاحهم ، فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة ، والنسب ، وما لايدخل تحت اختياره ، ولا يراه من نفسه فنقول

الورع والتقوى والعبادة والعمل الذى به يعجب ، إنما يعجب به من حيث إنه فيه ، فهو محله ومجراه . أو من حيث إنه منه وبسببه ، وبقدرته وقوته . فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه ، وهو محله ومجراه ، يجرى فيه وعليه من جهة غيره ، فهذا جهل . لأن المحل مسخر ومجرى لامدخل له فى الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه ! وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه ، وباختياره حصل ، وبقدرته تم ، فينبغى أن يتأمل فى قدرته ، وإرادته ، وأعضائه ، وسائر الأسباب التى بها يتم عمله أنها من أين كانت له ، فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه ، من غير حق سبق له ، ومن غير وسيلة يدلى بها ، فينبغى أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه مالا يستحق ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة . فمهما برز الملك لغلمانه ، ونظر إليهم ، وخلع من جملتهم على واحد منهم ، لالصفة فيه ، ولا لوسيلة ، ولا لجمال ، ولا لخدمة ، فينبغى أن يتعجب المنعم عليه من فضل الملك وحكمه ، وإيثاره من غير استحقاق . وإعجابه بنفسه من أين وماسببه . ولا ينبغى أن يعجب هو بنفسه . نعم يجوز أن يعجب العبد فيقول . الملك حكم عدل

لا يظلم ، ولا يقدم ولا يؤخر إلا لسبب ، فلولا أنه تفطن في صفة من الصفات المحمودة الباطنة ، لما اقتضى الإيثار بالخلعة ، ولما آثرنى بها . فيقال وتلك الصفة أيضا هي من خلعة الملك وعطيته ، التي خصصك بها من غيرك من غير وسيلة . أو هي عطية غيره ؟ فإن كانت من عطية الملك أيضا ، لم يكن لك أن تعجب بها . بل كان كما لو أعطاك فرسا فلم تعجب به ، فأعطاك غلاما فصرت تعجب به وتقول : إنما أعطانى غلاما لأنى صاحب فرس فأما غيرى فلا فرس له. فيقال وهو الذي أعطاك الفرس ، فلا فرق بين أن يعطيك الفرس والغلام معا ، أو يعطيك أحدهما بعد الآخر . فإذا كان الكل منه فينبغي أن يعجبك جوده وفضله لا نفسك

وأما إن كانت تلك الصفة من غيره ، فلا يبعد أن تعجب بتلك الصفة . وهذا يتصور في حق الملوك ، ولا يتصور في حق الجبار القاهر ملك الملوك ، المنفرد باختراع الجميع المنفرد بإيجاد الموصوف والصفة . فإنك إن أعجبت بعبادتك ، وقلت وفقني للعبادة لحبي له ، فيقال ومن خلق الحب في قلبك ؟ فستقول هو . فيقال فالحب والعبادة كلاهما نعمتان من عنده ، ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك ، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده ، إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك ، وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك

فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته ، وعجب العالم بعلمه ، وعجب الجميل بجماله ، وعجب الغنى بغناه ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضا من فضله وجوده . فإن قلت : لا يمكنني أن أجهل أعمالى ، وأنى أنا عملتها ، فإني أنتظر عليها ثوابا ، ولولا أنها عملى لما انتظرت ثوابا ، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع فمن أين لى الثواب . وإن كانت الأعمال منى وبقدرتي فكيف لا أعجب بها

فاعلم أن جوابك من وجهين . أحدهما هو صريح الحق ، والآخر فيه مسامحة . أما صريح الحق فهو أنك وقدرتك ، وإرادتك وحركتك ، وجميع ذلك من خلق الله واختراعه . فما عملت إذ عملت ، وما صليت إذ صليت ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى . فهذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب ، بمشاهدة أوضح من أبصار العين . بل خلقك وخلق أعضاءك ، وخلق فيها القوة والقدرة والصحة ، وخلق لك العقل والعلم ، وخلق لك

الإرادة . ولو أردت أن تنفي شيئاً من هذا عن نفسك لم تقدر عليه . ثم خلق الحركات في أعضائك ، مستبدا باختراعها من غير مشاركة من جهتك معه في الاختراع ، إلا أنه خلقه على ترتيب ، فلم يخلق الحركة ما لم يخلق في العضو قوة ، وفي القلب إرادة . ولم يخلق إرادة مالم يخلق علما بالمراد . ولم يخلق علما مالم يخلق القلب الذي هو محل العلم . فتدريجه في الخلق شيئا بعد شيء هو الذي خيل لك أنك أوجدت عملك ، وقد غلطت . وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عمل هو من خلق الله ، سيأتي تقريره في كتاب الشكر ، فإنه أليق به ، فارجع إليه

ونحن الآن نزيل إشكالك بالجواب الثاني ، الذي فيه مسامحة ما ، وهو أن تحسب أن العمل حصل بقدرتك . فمن أين قدرتك ؟ ولا يتصور العمل إلا بوجودك ، ووجود عملك وإرادتك ، وقدرتك ، وسائر أسباب عملك وكل ذلك من الله تعالى لا منك . فإن كان العمل بالقدرة ، فالقدرة مفتاحه . وهذا المفتاح بيد الله . ومهما لم يعطك المفتاح فلا يمكنك العمل فالعبادات خزائن بها يتوصل إلى السعادات ، ومفاتيحها القدرة ، والإرادة ، والعلم ، وهي بيد الله لا محالة . أرأيت لو رأيت خزائن الدنيا مجموعة في قلعة حصينة ، ومفتاحها بيد خازن ولو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة لم يمكنك أن تنظر إلى دينار مما فيها ولو أعطاك المفتاح لأخذته من قريب ، بأن تبسط يدك إليه فتأخذه فقط . فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلطك عليها ، ومكنك منها ، فمددت يدك وأخذتها ، كان إعجابك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بما إليك من مد اليد وأخذها ؟ فلا تشك في أنك ترى ذلك نعمة من الخازن ، لأن المؤنة في تحريك اليد بأخذ المال قريبة . وإنما الشأن كله في تسليم المفاتيح : فكذلك مهما خلقت القدرة وسلطت الإرادة الجازمة ، وحركت الدواعي والبواعث ، وصرف عنك الموانع والصوارف ، حتى لم يبق صارف إلا دفع ، ولا باعث إلا وكل بك ، فالعمل هين عليك وتحريك البواعث ، وصرف العوائق ، وتهيئة الأسباب ، كلها من الله ، ليس شيء منها إليك فمن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله ، ولا تعجب بجوده وفضله وكرمه في إيثاره إياك على الفساق من عباده ، إذ سلط دواعي الفساد على الفساق ، وصرفها عنك ، وسلط أخدان السوء ودعاة الشر عليهم ، وصرفهم عنك ، ومكنهم من أسباب الشهوات واللذات ، وزواها عنك ، وصرف عنهم بواعث الخير ودواعيه ، وسلطها عليك

حتى تيسر لك الخير ، وتيسر لهم الشر . فعل ذلك كله بك من غير وسيلة سابقة منك ، ولا بجريمة سابقة من الفاسق العاصي . بل آثرك ، وقدمك ، واصطفاك بفضله ، وأبعد العاصي ، وأشقاه بعدله . فما أعجب أعجابك بنفسك إذا عرفت ذلك !

فإذاً لاتنصرف قدرتك إلى المقدور إلا بتسليط الله عليك داعية لاتجد سبيلا إلى مخالفتها فكأنه الذي اضطرك إلى الفعل إن كنت فاعلا تحقيقا فله الشكر والمنة لالك . وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ماتستبين به أنه لافاعل إلا الله ، ولا خالق سواه . والعجب ممن يتعجب إذا رزقه الله عقلا ، وأفقره ممن أفاض عليه المال من غير علم ، فيقول كيف منعني قوت يومي وأنا العاقل الفاضل ! وأفاض على هذا نعيم الدنيا وهو الغافل الجاهل ! حتى يكاد يرى هذا ظلما . ولا يدري المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال جميعا ، لكان ذلك بالظلم أشبه في ظاهر الحال . إذ يقول الجاهل الفقير يارب لم جمعت له بين العقل والغنى وحرمتني منهما ؟ فهلا جمعتهما لي أو هلا رزقتني أحدهما وإلى هذا أشار علي رضي الله عنه حيث قيل له . مابال العقلاء فقراء ؟ فقال : إن عقل الرجل محسوب عليه من رزقه . والعجب أن العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغني أحسن حالا من نفسه . ولو قيل له هل تؤثر جهله وغناه عوضا عن عقلك وفقرك ؟ لامتنع عنه . فإذاً ذلك يدل على أن نعمة الله عليه أكبر ، فلم يتعجب من ذلك؟ والمرأة الحسناء الفقيرة ترى الحلي والجواهر على الذميمة القبيحة ، فتتعجب وتقول : كيف يحرم مثل هذا الجمال من الزينة ؟ ويخصص مثل ذلك القبح ! ولا تدري المغرورة أن الجمال محسوب عليها من رزقها ، وأنها لو خيرت بين الجمال وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال . فإذن نعمة الله عليها أكبر . وقول الحكيم الفقير العاقل بقلبه . يارب لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهال ، كقول من أعطاه الملك فرسا فيقول . أيها الملك لم لاتعطيني الغلام وأنا صاحب فرس ؟ فيقول كنت لاتتعجب من هذا لو لم أعطك الفرس . فهب أني ماأعطيتك فرسا ، أصارت نعمتي عليك وسيلة لك وحجة ، تطلب بها نعمة أخرى . . فهذه أوهام لاتخلو الجهال عنها ومنشأ جميع ذلك الجهل ويزال ذلك بالعلم المحقق بأن العبد ، وعمله ، وأوصافه ، كل ذلك من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق ؛ وهذا ينفي العجب والإدلال ، ويورث الخضوع ، والشكر ،

والخوف من زوال النعمة . ومن عرف هذا لم يتصور أن يعجب بعلمه وعمله ، إذ يعلم أن ذلك من الله تعالى . ولذلك قال داود عليه السلام: يارب ماتأتى ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم . ولا يأتى يوم إلا وإنسان من آل داود صائم . وفى رواية ، ماتمر ساعة من ليل أو نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك ، إما يصلى وإما يصوم وإما يذكرك . فأوحى الله تعالى إليه ياداود، ومن أين لهم ذلك؟ إن ذلك لم يكن إلا بى . ولولا عونى إياك ماقويت، وسأكلك إلى نفسك. قال ابن عباس : إنما أصاب داود ماأصاب من الذنب بعجبه بعمله، إذ أضافه إلى آل داود مدلا به ، حتى وكل إلى نفسه ، فأذنب ذنبا أورثه الحزن والندم . وقال داود يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم ، وإسحق، ويعقوب. فقال :إنى ابتليتهم فصبروا فقال يارب وأنا إن ابتليتنى صبرت . فأدل بالعمل قبل وقته . فقال الله تعالى : فإنى لم أخبرهم بأى شىء أبتليهم ، ولا فى أى شهر ، ولا فى أى يوم . وأنا مخبرك فى سنتك هذه ، وشهرك هذا ، أبتليك غدا بامرأة . فاحذر نفسك . فوقع فيما وقع فيه . وكذلك لما اتكل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] يوم حنين على قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله تعالى عليهم ، وقالوا لانغلب اليوم من قلة ، وكلوا إلى أنفسهم . فقال تعالى (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ [1]) وروى ابن عيينة أن أيوب عليه السلام قال: إلهى إنك ابتليتنى بهذا البلاء ، وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواى. فنودى من غمامة بعشرة آلاف صوت ياأيوب ، أنى لك ذلك ؟ أى من أين لك ذلك . قال : فأخذ رمادا ووضعه على رأسه وقال: منك يارب ، منك يارب . فرجع من نسيانه إلى إضافة ذلك إلى الله تعالى . ولهذا قال الله تعالى (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا [2]) وقال النبى

---

(١) حديث قولهم يوم حنين لانغلب اليوم من قلة: البيهقى فى دلائل النبوة من رواية الربيع بن أنس مرسلا أن رجلا قال يوم حنين لن نغلب اليوم من قلة فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله عز وجل ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ولابن مردويه فى تفسيره من حديث أنس لما التقوا يوم حنين أعجبتهم كثرتهم فقالوا اليوم نقاتل ففروا فيه: الفرج بن فضالة ضعفه الجمهور

(١) التوبة : ٢٥ (٢) النور : ٢٠

صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهم خير الناس(١) « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنْجِيهِ عَمَلُهُ ، قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ » ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا ترابا ، وتبنا ، وطيرا ، مع صفاء أعمالهم وقلوبهم . فكيف يكون لذى بصيرة أن يعجب بعمله ، أو يدل به ، ولا يخاف على نفسه . فإذاً هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب ، شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، بل هو ينظر إلى الكفار والفساق وقد سلبوا نعمة الإيمان والطاعة بغير ذنب أذنبوه من قبل ، فيخاف من ذلك فيقول : إن من لا يبالى أن يحرم من غير جناية ، ويعطى من غير وسيلة ، لا يبالى أن يعود ويسترجع ما وهب ، فكم من مؤمن قد ارتد ومطيع قد فسق وختم له بسوء ؟ وهذا لا يبقى معه عجب بحال . والله تعالى أعلم

بيان

أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أن العجب بالأسباب التي بها يتكبر كما ذكرناه . وقد يعجب بما لا يتكبر به ، كعجبه بالرأى الخطأ الذى يزين له بجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

الأول : أن يعجب ببدنه في جماله ، وهيئته ، وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وحسن صوته . وبالجملة تفصيل خلقته . فيلتفت إلى جمال نفسه ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى . وهو بعرضة الزوال في كل حال . وعلاجه ما ذكرناه في الكبر بالجمال وهو التفكر في أقذار باطنه ، وفي أول أمره ، وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب ، وأنتنت في القبور ، حتى استقذرتها الطباع

الثاني : البطش والقوة ، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً(١)) وكما اتكل عوج على قوته وأعجب بها فاقتلع جبلا ليطبقه على عسكر

---

(١) حديث ما منكم من أحد ينجيه عمله ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(١) فصلت : ١٥

موسى عليه السلام ، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل بنقر هدهد ضعيف المنقار ، حتى صارت في عنقه . وقد يتكل المؤمن أيضا على قوته ، كما روى عن سليمان عليه السلام أنه قال [1] : لأطوفن الليلة على مائة امرأة . ولم يقل إن شاء الله تعالى . فحرم ما أراد من الولد . وكذلك قول داود عليه السلام : إن ابتليتني صبرت . وكان إعجابا منه بالقوة، فلما ابتلي بالمرأة لم يصبر

ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب ، وإلقاء النفس في التهلكة ، والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصد بالسوء . وعلاجه ما ذكرناه ، وهو أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه

الثالث : العجب بالعقل والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وثمرته الاستبداد بالرأي ، وترك المشورة ، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه . ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم ، إعراضا عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل ، واستحقارا لهم وإهانة

وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن ، بحيث يضحك منه . فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره . وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلا ، وإن اتسع علمه . وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ! وأن يتهم عقله . وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم . فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري ، فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه . ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداهنه يثني عليه ، فيزيده عجبا ، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ، ولا يفطن لجهل نفسه فيزداد به عجبا .

الرابع : العجب بالنسب الشريف . كعجب الهاشمية . حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه ، وأنه مغفور له . ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد .

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه ملحق بهم ، فقد جهل . وإن اقتدى بآبائه ، فما كان من أخلاقهم العجب ، بل الخوف والإزراء على النفس ،

---

(١) حديث قال سليمان لأطوفن الليلة بمائة امرأة ـ الحديث : البخاري من حديث أبي هريرة

واستعظام الخلق، ومذمة النفس . ولقد شرفوا بالطاعة ،والعلم ، والخصال الحميدة ،لابالنسب فليتشرف بما شرفوا به . وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر ، وكانوا عند الله شرا من الكلاب ، وأخس من الخنازير . ولذلك قال تعالى (يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى [1]) أي لاتفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا [2]) ثم بين أن الشرف بالتقوى لابالنسب فقال (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [3]) ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم [1] من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل من ينتمي إلى نسبي ولكن قال « أَكْرَمُهُمْ أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْراً وَأَشَدُّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَاداً » وإنما نزلت هذه الآية حين أذن بلال يوم الفتح على الكعبة ، فقال الحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن ! فقال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [4])

وقال النبي صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ » أي كبرها « كُلُّكُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم [2] « يَامَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَا تَأْتِي النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتَأْتُونَ بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ تَقُولُونَ يَامُحَمَّدُ يَامُحَمَّدُ فَأَقُولُ هَكَذَا » أي أعرض عنكم . فبين أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش . ولما نزل قوله تعالى [4] (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [5]) ناداهم بطنا بعد بطن ، حتى قال « يَافَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ يَاصَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حديث لما قيل له من أكرم الناس من أكيس الناس قال أكثرهم للموت ذكرا ـ الحديث : ابن ماجه من حديث ابن عمر دون قوله وأكرم الناس وهو بهذه الزيادة ،عند ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب

(٢) حديث إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ـ الحديث : أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة ورواه الترمذي أيضا من حديث ابن عمر وقال غريب

(٣) حديث يامعشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ـ الحديث : الطبراني من حديث عمران بن حصين إلا أنه قال يامعشر بني هاشم وسنده ضعيف

(٤) حديث لما نزل قوله تعالى : وأنذر عشيرتك الأقربين ناداهم بطنا بعد بطن حتى قال يافاطمة بنت محمد ياصفية بنت عبد المطلب ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عائشة

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) الحجرات : ١٣ (٥) الشعراء : ٢١٤

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْمَلاَ لِأَنْفُسِكُماَ فَإِنِّى لاَ أُغْنِي عَنْكُماَ مِنَ اللهِ شَيْئاً ».

فمن عرف هذه الأمور ، وعلم أن شرفه بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آبائه التواضع ، اقتدى بهم فى التقوى والتواضع . وإلا كان طاعنا فى نسب نفسه بلسان حاله ، مهما انتمى إليهم ولم يشبههم فى التواضع ، والتقوى ، والخوف ، والإشفاق .

فإن قلت : فقد قال صلى الله عليه وسلم[1] بعد قوله لفاطمة وصفية « إِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكُماَ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِلاَّ أَنَّ لَكُمْ رَحِماً سَأَبُلُّهاَ بِبِلاَلِهاَ* » وقال عليه الصلاة والسلام[2] « أَتَرْجُوا سُلَيْمٌ شَفَاعَتِي وَلاَ يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ » فذلك يدل على أنه سيخص قرابته بالشفاعة

فاعلم أن كل مسلم فهو منتظر شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . والنسيب أيضا جدير بأن يرجوها ، لكن بشرط أن يتقى الله أن يغضب عليه . فإنه إن يغضب عليه . فلا يأذن لأحد فى شفاعته ، لأن الذنوب منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن فى الشفاعة له ، وإلى ما يعفى عنه بسبب الشفاعة . كالذنوب عند ملوك الدنيا . فإن كل ذى مكانة عند الملك لا يقدر على الشفاعة فيما اشتد عليه غضب الملك . فمن الذنوب مالا تنجى منه الشفاعة وعنه العبارة بقوله تعالى (وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى[1]) وبقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ[2]) وبقوله (وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ[3]) وبقوله (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ[4])

وإذا انقسمت الذنوب إلى ما يشفع فيه وإلى ما لا يشفع فيه ، وجب الخوف والإشفاق لامحالة ، ولو كان كل ذنب تقبل فيه الشفاعة ، لما أمر قريشا بالطاعة ، ولما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة رضى الله عنها عن المعصية ، ولكان يأذن لها فى اتباع الشهوات لتكمل لذاتها فى الدنيا ، ثم يشفع لها فى الآخرة لتكمل لذاتها فى الآخرة . فالانهماك فى الذنوب وترك التقوى ، اتكالا على رجاء الشفاعة ، يضاهى انهماك المريض فى شهواته ،

---

(١) حديث قوله بعد قوله المتقدم لفاطمة وصفية إلا أن لكما رحما سأبلها ببلالها : مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها

(٢) حديث أيرجوا سليم شفاعتى ولا ترجوها بنو عبد المطلب : الطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الله ابن جعفر وفيه اصيرم بن حوشب عن اسحاق بن واصل وكلاهما ضعيف جدا

---

(١) الأنبياء : ٢٨ (٢) البقرة : ٢٥٥ (٣) سبأ : ٢٣ (٤) المدثر : ٤٨.

* سأبلها ببلالها : أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا

اعتماداً على طبيب حاذق ، قريب ، مشفق ، من أب أو أخ أو غيره ، وذلك جهل . لأن سعى الطبيب وهمته وحذقه ، تنفع فى إزالة بعض الأمراض لا فى كلها . فلا يجوز ترك الحمية مطلقا اعتماداً على مجرد الطب . بل للطبيب أثر على الجملة . ولكن فى الأمراض الخفيفة ، وعند غلبة اعتدال المزاج . فهكذا ينبغى أن تفهم عناية الشفعاء من الأنبياء والصلحاء ، للأقارب والأجانب ، فإنه كذلك قطعا . وذلك لايزيل الخوف والحذر وكيف يزيل وخير الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وقد كانوا يتمنون أن يكونوا بهائم من خوف الآخرة ، مع كمال تقواهم ، وحسن أعمالهم ، وصفاء قلوبهم ، وما سمعوه من وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بالجنة خاصة ، وسائر المسلمين بالشفاعة عامة . ولم يتكلوا عليه ، ولم يفارق الخوف والخشوع قلوبهم . فكيف يعجب بنفسه ، ويتكل على الشفاعة ، من ليس له مثل صحبتهم وسابقتهم !

الخامس : العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم ، دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل وعلاجه أن يتفكر فى مخازيهم ، وما جرى لهم من الظلم على عباد الله ، والفساد فى دين الله ، وأنهم الممقوتون عند الله تعالى . ولو نظر إلى صورهم فى النار ، وأنتانهم وأقذارهم ، لاستنكف منهم ، ولتبرأ من الانتساب إليهم ، ولأنكر على من نسبه إليهم ، استقذارا واستحقارا لهم ولو انكشف له ذلهم فى القيامة ، وقد تعلق الخصماء بهم ، والملائكة آخذون بنواصيهم ، يجرونهم على وجوههم إلى جهنم فى مظالم العباد ، لتبرأ إلى الله منهم ، ولكان انتسابه إلى الكلب والخنزير أحب إليه من الانتساب إليهم . فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم ، أن يشكروا الله تعالى على سلامة دينهم ، ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين فأما العجب بنسبهم فجهل محض .

السادس : العجب بكثرة العدد من الأولاد ، والخدم ، والغلمان ، والعشيرة ، والأقارب والأنصار ، والأتباع . كما قال الكفار (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا [1]) وكما قال المؤمنون يوم حنين ، لانغلب اليوم من قلة « وعلاجه ماذكرناه فى الكبر ، وهو أن يتفكر فى ضعفه وضعفهم ، وأن كلهم عبيد عجزة ، لايملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا . وكم من فئة

(1) سبأ : ٣٥

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. ثم كيف يعجب بهم ،وإنهم سيفترقون عنه إذامات ،فيدفن في قبره ذليلا مهينا وحده ، لا يرافقه أهل ولا ولد ، ولا قريب ، ولا حميم ، ولا عشير ، فيسلمونه إلى البلى ، والحيات ، والعقارب ، والديدان ، ولا يغنون عنه شيئا ،وهو في أحوج أوقاته إليهم . وكذلك يهربون منه يوم القيامة (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ [1]) الآية . فأي خير فيمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك، وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر ، والقيامة ، وعلى الصراط، إلا عملك وفضل الله تعالى فكيف تتكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك ، وموتك وحياتك

السابع : العجب بالمال . كما قال تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا [2])ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] رجلا غنيا جلس بجنبه فقير، فانقبض عنه وجمع ثيابه. فقال عليه السلام «أَخَشِيتَ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَقْرُهُ »وذلك للعجب بالغنى

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وعظم غوائله . وينظر إلى فضيلة الفقراء ، وسبقهم إلى الجنة في القيامة ، وإلى أن المال غاد ورائح ولا أصل له، وإلى أن في اليهود من يزيد عليه في المال ، وإلى قوله عليه الصلاة والسلام [2] « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ لَهُ قَدْ أَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذْ أَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أشار به إلى عقوبة إعجابه بماله ونفسه . وقال أبو ذر: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، [3] فدخل المسجد فقال لي « يَا أَبَا ذَرٍّ ارْفَعْ رَأْسَكَ » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد. ثم قال « ارْفَعْ رَأْسَكَ » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة . فقال لي « يَا أَبَا ذَرٍّ هَذَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنْ قِرَابِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا »

وجميع ما ذكرناه في كتاب الزهد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال ، يبين حقارة

---

(١) حديث رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس لجنبه فقير فانقبض منه ـ الحديث : رواه أحمد في الزهد

(٢) حديث بينا رجل في حلة قد أعجبته نفسه ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم

(٣) حديث أبي ذر كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فقال لي يا أبا ذر ارفع رأسك فرفعت رأسي ـ الحديث : وفيه هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا ابن حبان في صحيحه

---

(١) عبس : ٣٤ (٢) الكهف : ٣٤

الأغنياء ، وشرف الفقراء عند الله تعالى . فكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بثروته؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره فى القيام بحقوق المال ، فى أخذه من حله، ووضعه فى حقه . ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزى والبوار ، فكيف يعجب بماله

الثامن : العجب بالرأى الخطأ . قال الله تعالى (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا[(1)]) وقال تعالى (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا[(2)])وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم[(1)] أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة ، وبذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افترقت فرقا ، فكل معجب برأيه ، وكل حزب بما لديهم فرحون. وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم. والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة، مع ظن كونه حقا

وعلاج هذا العجب أشد من علاج غيره ، لأن صاحب الرأى الخطأ جاهل بخطئه ، ولو عرفه لتركه . ولا يعالج الداء الذى لا يعرف . والجهل داء لا يعرف ، فتعسر مداواته جدا . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ، ويزيله عنه ، إلا إذا كان معجبا برأيه وجهله ، فإنه لا يصغى إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه ، وهو يظنها نعمة. فكيف يمكن علاجه ، وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته فى اعتقاده . وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهما لرأيه أبدا ؛ لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب ، أو سنة ، أو دليل عقلى صحيح ، جامع لشروط الأدلة : ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ، ومكامن الغلط فيها، إلا بقريحة تامة ، وعقل ثاقب ، وجد وتشمر فى الطلب ، وممارسة الكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم ، طول العمر ، ومدارسة للعلوم ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط فى بعض الأمور . والصواب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره فى العلم ، أن لا يخوض فى المذاهب، ولا يصغى إليها ، ولا يسمعها ولكن يعتقد أن الله تعالى واحد لا شريك له ، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأن رسوله صادق فيما أخبر به .

---

(١) حديث انه يغلب على آخر هذه الامة الاعجاب بالرأى :هو حديث أبى ثعلبة المتقدم فاذا رأيت شحا مطاعا وهو متبعا واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك وهو عند أبى داود والترمذى

(١) فاطر : ٨ (٢) الكهف ١٠٤

ويتبع سنة السلف ، ويؤمن بجملة ماجاء به الكتاب والسنة ، من غير بحث وتنقير ،وسؤال عن تفصيل . بل يقول آمنا وصدقنا . ويشتغل بالتقوى ، واجتناب المعاصي ،وأداء الطاعات ، والشفقة على المسلمين ، وسائر الأعمال . فإن خاض في المذاهب والبدع ،والتعصب في العقائد هلك من حيث لايشعر . هذا حق كل من عزم على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم فأما الذي عزم على التجرد للعلم ، فأول مهم له معرفة الدليل وشروطه .وذلك مما يطول الأمر فيه.والوصول إلى اليقين والمعرفة في أكثر المطالب شديد ، لا يقدر عليه إلا الأقوياء المؤيدون بنور الله تعالى ، وهو عزيز الوجود جدا ، فنسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال.

تم كتاب ذم الكبر والعجب ، والحمد لله وحده ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتاب ذمّ الغرور

كتاب ذم الغرور

وهو الكتاب العاشر من ربع المهلكات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بيده مقاليد الأمور ، وبقدرته مفاتيح الخيرات والشرور . مخرج أوليائه من الظلمات إلى النور ، ومورد أعدائه ورطات الغرور . والصلاة على محمد مخرج الخلائق من الديجور . وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يغرهم بالله الغرور ، صلاة تتوالى على ممر الدهور ، ومكرّ الساعات والشهور

أما بعد ، فمفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة . فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة ، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية ، ولا داعى إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة . فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم (كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ [1]) والمغترون قلوبهم (كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ ، يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا . وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [2]).

فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم ، فشرح صدورهم للإسلام والهدى . والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم ، فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء . والمغرور هو الذى لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا ، وبقى فى العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا ، ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

وإذا عرف أن الغرور هو أم الشقاوات ، ومنبع المهلكات ، فلا بد من شرح مداخله

---

(١) النور : ٣٥ (٢) النور : ٤٠

ومجاريه ، وتفصيل مايكثر وقوع الغرور فيه ، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه . فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد ، فأخذ منها حذره ، وبنى على الحزم والبصيرة أمره . ونحن نشرح أجناس مجارى الغرور ، وأصناف المغترين من القضاة والعلماء والصالحين الذين اغتروا بمبادىء الأمور الجميلة ظواهرها ، القبيحة سرائرها . ونشير إلى وجه اغترارهم بها ، وغفلتهم عنها ، فإن ذلك وإن كان أكثر مما يحصى ، ولكن يمكن التنبيه على أمثلة تغنى عن الاستقصا . وفرق المغترين كثيرة ، ولكن يجمعهم أربعة أصناف :

الصنف الأول من العلماء . الصنف الثانى من العبّاد . الصنف الثالث من المتصوفة

الصنف الرابع من أرباب الأموال . والمغتر من كل صنف فرق كثيرة . وجهات غرورهم مختلفة . فمنهم من رأى المنكر معروفا . كالذى يتخذ المساجد ويزخرفها من المال الحرام ومنهم من لم يميز بين مايسعى فيه لنفسه وبين مايسعى فيه لله تعالى ، كالواعظ الذى غرضه القبول والجاه ومنهم من يترك الأهم ويشتغل بغيره ومنهم من يترك الفرض ويشتغل بالنافلة . ومنهم من يترك اللباب ويشتغل بالقشر ، كالذى يكون همه فى الصلاة مقصورا على تصحيح مخارج الحروف . إلى غير ذلك من مداخل لاتتضح إلا بتفصيل الفرق وضرب الأمثلة

ولنبدأ أولا بذكر غرور العلماء ، ولكن بعد بيان ذم الغرور ، وبيان حقيقته وحده .

بيان

ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ [(1)]) وقوله تعالى (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ [(2)]) الآية ، كاف فى ذم الغرور . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [(1)] « حَبَّذَا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَفِطْرُهُمْ كَيْفَ يَغْبِنُونَ سَهَرَ الْحَمْقَى وَاجْتِهَادَهُمْ وَلَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ صَاحِبِ تَقْوَى وَيَقِينٍ أَفْضَلُ

﴿ كتاب ذم الغرور ﴾

(١) حديث حبذا نوم الأكياس وفطرهم ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين من قول أبى الدرداء بنحوه وفيه انقطاع وفى بعض الروايات أبى الورد موضع أبى الدرداء ولم أجده مرفوعا

(١) لقمان : ٣٣ (٢) الحديد : ١٤

مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُغْتَرِّينَ ، وقال صلى الله عليه وسلم[1] « اَلْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَى اللهِ » وكل ماورد فى فضل العلم وذم الجهل فهو دليل على ذم الغرور . لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ماهو به ، والغرور هو جهل ، إلا أن كل جهل ليس بغرور . بل يستدعى الغرور مغرورا فيه مخصوصا ، ومغرورا به وهو الذى يغره . فمهما كان المجهول المعتقد شيئا يوافق الهوى ، وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلا ، سمى الجهل الحاصل به غرورا . فالغرور هو سكون النفس إلى مايوافق الهوى ، ويميل إليه الطبع ، عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير ، إما فى العاجل أو فى الآجل ، عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه . فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم ، واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار ، وغرور العصاة والفساق ،فنورد لها أمثلة لحقيقة الغرور

المثال الأول : غرور الكفار . فمنهم من غرته الحياة الدنيا ، ومنهم من غره بالله الغرور

أما الذين غرتهم الحياة الدنيا ،فهم الذين قالوا . النقد خير من النسيئة ، والدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، فهى إذاً خير ، فلا بد من إيثارها . وقالوا . اليقين خير من الشك ، ولذات الدنيا يقين ، ولذات الآخرة شك ، فلا تترك اليقين بالشك . وهذه أقيسة فاسدة ، تشبه قياس إبليس حيث قال (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ[1]) وإلى هؤلاء الإشارة بقوله تعالى (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ[2]) . وعلاج هذا الغرور إما بتصديق الإيمان ، وإما بالبرهان .

أما التصديق بمجرد الإيمان فهو أن يصدق الله تعالى فى قوله (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ[3]) وفى قوله عز وجل (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ[4]) وقوله (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ[5])

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ـ الحديث : الترمذى وابن ماجه من حديث شداد بن أوس

---

(١) ص : ٧٦ (٢) البقرة : ٨٦ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٦٠ (٥) الأعلى : ١٧

وقوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ [١]) وقوله (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا [٢])

وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] بذلك طوائف من الكفار ، فقلدوه وصدقوه وآمنوا به ، ولم يطالبوه بالبرهان . ومنهم من قال [(٢)] : نشدتك الله أبعثك الله رسولا ؟ فكان يقول نعم . فيصدق . وهذا إيمان العامة ، وهو يخرج من الغرور . وينزل هذا منزلة تصديق الصبي والده في أن حضور المكتب خير من حضور الملعب، مع أنه لا يدرى وجه كونه خيرا

وأما المعرفة بالبيان والبرهان . فهو أن يعرف وجه فساد هذا القياس الذى نظمه فى قلبه الشيطان ، فإن كل مغرور فلغروره سبب . وذلك السبب هو دليل . وكل دليل فهو نوع قياس يقع فى النفس ، ويورث السكون إليه ، وإن كان صاحبه لا يشعر به ، ولا يقدر على نظمه بألفاظ العلماء . فالقياس الذى نظمه الشيطان فيه أصلان . أحدهما : أن الدنيا نقد ، والآخرة نسيئة ، وهذا صحيح . والآخر : قوله إن النقد خير من النسيئة ، وهذا محل التلبيس . فليس الأمر كذلك . بل إن كان النقد مثل النسيئة فى المقدار والمقصود ، فهو خير وإن كان أقل منها فالنسيئة خير . فإن الكافر المغرور يبذل فى تجارته درهما ليأخذ عشرة نسيئة ؛ ولا يقول النقد خير من النسيئة فلا أتركه . وإذا حذره الطبيب الفواكه ولذائذ الأطعمة ترك ذلك فى الحال ، خوفا من ألم المرض في المستقبل . فقد ترك النقد ورضي بالنسيئة . والتجار كلهم يركبون البحار ، ويتعبون فى الأسفار نقدا ؛ لأجل الراحة والربح نسيئة . فإن كان عشرة فى ثانى الحال، خيرا من واحد فى الحال، فانسب لذة الدنيا من حيث مدتها إلى مدة الآخرة. فإن أقصى عمر الإنسان مائة سنة ، وليس هو عشر عشير من جزء من ألف ألف جزء من الآخرة

---

(١) حديث تصديق بعض الكفار بما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيمانهم من غير مطالبة بالبرهان هو مشهور فى السنن من ذلك قصة اسلام الانصار وبيعتهم وهى عند أحمد من حديث جابر وفيه حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرءان فينقلب إلى أهله فيسلمون باسلامه ـ الحديث : وهى عند أحمد باسناد جيد

(٢) حديث قول من قال له نشدتك الله أبعثك رسولا فيقول نعم فيصدق: متفق عليه من حديث أنس فى قصة ضمام بن ثعلبة وقوله للنبى صلى الله عليه وسلم آلله أرسلك للناس كلهم فقال اللهم نعم وفى آخره فقال الرجل آمنت بما جئت به وللطبرانى من حديث ابن عباس فى قصة ضمام قال نشدتك به أهو أرسلك بما أتتنا كتبك وأتتنا رسلك أن نشهد أن لا إله إلا الله وان ندع اللات والعزى قال نعم ـ الحديث ؛

---

(١) آل عمران : ١٨٥ (٢) لقمان : ٣٣

فكأنه ترك واحدا ليأخذ ألف ألف . بل ليأخذ مالا نهاية له ولا حد . وإن نظر من حيث النوع ، رأى لذات الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ولذات الآخرة صافية غير مكدرة فإذاً قد غلط فى قوله النقد خير من النسيئة . فهذا غرور منشؤه قبول لفظ عام مشهور ، أطلق وأريد به خاص ، فغفل به المغرور عن خصوص معناه . فإن من قال النقد خير من النسيئة، أراد به خيرا من نسيئة هى مثله ، وإن لم يصرح به . وعندهذا يفزع الشيطان إلى القياس الآخر ، وهو أن اليقين خير من الشك ، والآخرة شك . وهذا القياس أكثر فسادا من الأول . لأن كلا أصليه باطل . إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثله . وإلا فالتاجر فى تعبه على يقين ، وفى ربحه على شك ، والمتفقه فى اجتهاده على يقين ، وفى إدراكه رتبة العلم على شك . والصياد فى تردده فى المقتنص على يقين ، وفى الظفر بالصيد على شك . وكذا الحزم دأب العقلاء بالاتفاق وكل ذلك ترك لليقين بالشك . ولكن التاجر يقول . إن لم أتجر بقيت جائعا وعظم ضررى ، وإن اتجرت كان تعبي قليلا وربحى كثيرا . وكذلك المريض يشرب الدواء البشع الكريه ، وهو من الشفاء على شك ، ومن مرارة الدواء على يقين . ولكن يقول ضرر مرارة الدواء قليل بالإضافة إلى ماأخافه من المرض والموت . فكذلك من شك فى الآخرة ، فواجب عليه بحكم الحزم أن يقول : أيام الصبر قلائل ، وهو منتهى العمر ، بالإضافة إلى مايقال من أمر الآخرة . فإن كان ماقيل فيه كذبا ، فما يفوتنى إلا التنعم أيام حياتى، وقد كنت فى العدم من الأزل إلى الآن لاأتنعم . فأحسب أنى بقيت فى العدم . وإن كان ماقيل صدقا فأبقى فى النار أبد الآباد ، وهذا لايطاق . ولهذا قال على كرم الله وجهه لبعض الملحدين : إن كان ماقلتهُ حقا فقد تخلصت وتخلصنا . وإن كان ماقلناه حقا فقد تخلصنا وهلكت . وماقال هذا عن شك منه فى الآخرة، ولكن كلم الملحد على قدر عقله ، وبين له أنه وإن لم يكن متيقنا فهو مغرور

وأما الأصل الثانى من كلامه ، وهو أن الآخرة شك ، فهو أيضا خطأ . بل ذلك يقين عند المؤمنين . وليقينه مدركان : أحدهما الإيمان والتصديق تقليدا للأنبياء والعلماء ، وذلك أيضا يزيل الغرور ، وهو مدرك يقين العوام وأكثر الخواص ومثالهم مثال مريض لايعرف دواء علته ، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة من عند آخرهم على أن دواءه النبت الفلانى ، فإنه تطمئن نفس المريض إلى تصديقهم ، ولا يطالبهم بتصحيح

ذلك بالبراهين الطبية . بل يثق بقولهم ويعمل به . ولو بقي سوادىٌّ أو معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه عددا ، وأغزر منه فضلا ، وأعلم منه بالطب ، بل لا علم له بالطب ، فيعلم كذبهم بقولهم ، ولا يعتقد كذبه بقوله ، ولا يغتر في علمه بسببه . ولو اعتمد قوله ، وترك قول الأطباء ، كان معتوها مغرورا . فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة، والمخبرين عنها، والقائلين بأن التقوى هو الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها ، وجدهم خير خلق الله ، وأعلاهم رتبة في البصيرة، والمعرفة، والعقل وهم الأنبياء ، والأولياء ، والحكماء ، والعلماء ، واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم ، وشذ منهم آحاد من البطالين ، غلبت عليهم الشهوة ، ومالت نفوسهم إلى التمتع ، فعظم عليهم ترك الشهوات ، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار ، فجحدوا الآخرة، وكذبوا الأنبياء فكما أن قول الصبي وقول السوادىّ لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء ، فكذلك قول هذا الغبي الذى استرقته الشهوات، لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والأولياء والعلماء. وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة، والغرور يزول به

وأما المدرك الثاني لمعرفة الآخرة ، فهو الوحي للأنبياء ، والإلهام للأولياء . ولا تظنن أن معرفة النبي عليه السلام لأمر الآخرة ولأمور الدين ، تقليد لجبريل عليه السلام بالسماع منه ، كما أن معرفتك تقليد للنبي صلى الله عليه وسلم ، حتى تكون معرفتك مثل معرفته ، وإنما يختلف المقلد فقط ، وهيهات . فإن التقليد ليس بمعرفة . بل هو اعتقاد صحيح. والأنبياء عارفون . ومعنى معرفتهم أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي عليها ، فشاهدوها بالبصيرة الباطنة ، كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر . فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد . وذلك بأن يكشف لهم عن حقيقة الروح ، وأنه من أمر الله تعالى ، وليس المراد بكونه من أمر الله الأمر الذى يقابل النهى ، لأن ذلك الأمر كلام ، والروح ليس بكلام وليس المراد بالأمر الشأن ، حتى يكون المراد به أنه من خلق الله فقط ، لأن ذلك عام في جميع المخلوقات . بل العالم عالمان : عالم الأمر ، وعالم الخلق . ولله الخلق والأمر . فالأجساد ذوات الكمية والمقادير من عالم الخلق ، إذ الخلق عبارة عن التقدير في وضع اللسان . وكل موجود منزه عن الكمية والمقدار فإنه من عالم الأمر . وشرح ذلك سر الروح، ولا رخصة

فى ذكره ، لاستضرار أكثر الخلق بسماعه كسر القدر الذى منع من إفشائه . فمن عرف سر الروح فقد عرف نفسه . وإذا عرف نفسه فقد عرف ربه . وإذا عرف نفسه وربه عرف أنه أمر ربانى بطبعه وفطرته ، وأنه فى العالم الجسمانى غريب ، وأن هبوطه إليه لم يكن بمقتضى طبعه فى ذاته ، بل بأمر عارض غريب من ذاته . وذلك العارض الغريب ورد على آدم صلى الله عليه وسلم ، وعبر عنه بالمعصية : وهى التى حطته عن الجنة التى هى أليق به بمقتضى ذاته ، فإنها فى جوار الرب تعالى ؛ وأنه أمر ربانى ، وحنينه إلى جوار الرب تعالى له طبعى ذاتى ، إلا أن يصرفه عن مقتضى طبعه عوارض العالم الغريب من ذاته ؛ فينسى عند ذلك نفسه وربه . ومهما فعل ذلك فقد ظلم نفسه . إذ قيل له (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ [١]) أى الخارجون عن مقتضى طبعهم ومظنة استحقاقهم . يقال فسقت الرطبة عن كمامها إذا خرجت عن معدنها الفطرى وهذه إشارة إلى أسرار يهتز لاستنشاق روائحها العارفون ، وتشمئز من سماع ألفاظها القاصرون فإنها تضربهم كما تضر رياح الورد بالجعل ، وتبهر أعينهم الضعيفة كما تبهر الشمس أبصار الخفافيش . وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ، ويسمى صاحبه وليا وعارفا . وهى مبادى مقامات الأنبياء ، وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء

ولنرجع إلى الغرض المطلوب فالمقصود أن غرور الشيطان بأن الآخرة شك ، يدفع إما بيقين تقليدى ، وإما ببصيرة ومشاهدة من جهة الباطن . والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيعوا أوامر الله تعالى ، وهجروا الأعمال الصالحة ، ولابسوا الشهوات والمعاصى ، فهم مشاركون للكفار فى هذا الغرور ، لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة . نعم أمرهم أخف لأن أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد ، فيخرجون من النار ولو بعد حين ، ولكنهم أيضا من المغرورين ، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا ، ولكنهم مالوا إلى الدنيا وآثروها ، ومجرد الإيمان لا يكفى للفوز . قال تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ [٢]) وقال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ [٣]) ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحشر : ١٩ (٢) طه : ٨٢ (٣) الاعراف : ٥٦ .

« الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ »[١] وقال تعالى ـ (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ[١]) ـ فوعد المغفرة في جميع كتاب الله تعالى منوط بالإيمان والعمل الصالح جميعا ، لا بالإيمان وحده . فهؤلاء أيضا مغرورون ، أعني المطمئنين إلى الدنيا ، الفرحين بها . المترفين بنعيمها ، المحبين لها ، الكارهين للموت خيفة فوات لذات الدنيا ، دون الكارهين له خيفة لما بعده . فهذا مثال الغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعا . ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفار بالله ، فمثاله قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم إنه لو كان لله من معاد ، فنحن أحق به من غيرنا ، ونحن أوفر حظا فيه وأسعد حالا ، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا[٢]) وجملة أمرهما كما نقل في التفسير ، أن الكافر منهما بنى قصرا بألف دينار ، واشترى بستانا بألف دينار ، وخدما بألف دينار ، وتزوج امرأة على ألف دينار . وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول : اشتريت قصرا يفنى ويخرب ، ألا اشتريت قصرا في الجنة لا يفنى ! واشتريت بستانا يخرب ويفنى ، ألا اشتريت بستانا في الجنة لا يفنى ! وخدما لا يفنون ولا يموتون ! وزوجة من الحور العين لا تموت ! وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول : ماهناك شيء ، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب ، وإن كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا . وكذلك وصف الله تعالى قول العاص بن وائل إذ يقول (لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا[٣]) فقال الله تعالى ردا عليه (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا كَلَّا[٤]) . وروى عن خباب بن الأرت أنه قال[٢] : كان لي على العاص بن وائل دين ، فجئت أتقاضاه ، فلم يقض لي . فقلت إني آخذه في الآخرة . فقال لي : إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولدا أقضيك منه . فأنزل الله تعالى قوله (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا[٥])

---

(١) حديث الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه : متفق عليه من حديث ابن عمر وقد تقدم

(٢) حديث خباب بن الأرت قال كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه ـ الحديث : في نزول قوله تعالى أفرأيت الذي كفر بآياتنا الآية البخاري : مسلم

---

(١) سورة العصر (٢) الكهف : ٣٦ (٣) مريم : ٧٧ (٤) مريم : ٧٨ (٥) مريم : ٧٧

وقال الله تعالى (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى [١])

وهذا كله من الغرور بالله ، وسببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه ، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم فى الدنيا ، فيقيسون عليها نعمة الآخرة . وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم ، فيقيسون عليه عذاب الآخرة كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ [٢]) فقال تعالى جوابا لقولهم (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [٣]) ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر ، فيزدرون بهم ويستحقرونهم فيقولون (أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [٤]) ويقولون (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ [٥])

وترتيب القياس الذى نظمه فى قلوبهم ، أنهم يقولون قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن فهو محب ، وكل محب فإنه يحسن أيضا فى المستقبل ، كما قال الشاعر

لقد أحسن الله فيما مضى * كذلك يحسن فيما بقى

وإنما يقيس المستقبل على الماضى بواسطة الكرامة والحب ، إذ يقول : لولا أنى كريم عند الله ومحبوب ، لما أحسن إلىّ ، والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب ، لا بل تحت ظنه أن إنعامه عليه فى الدنيا إحسان ، فقد اغتر بالله إذ ظن أنه كريم عنده ، بدليل لا يدل على الكرامة ، بل عند ذوى البصائر يدل على الهوان . ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر ، فالذى يحبه يمنعه من اللعب ، ويلزمه المكتب ، ويحبسه فيه ليعلمه الأدب ، ويمنعه من الفواكه وملاذّ الأطعمة التى تضره ، ويسقيه الأدوية التى تنفعه. والذى يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد ، فيلعب ، ولا يدخل المكتب ، ويأكل كل ما يشتهى ، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم ، لأنه مكنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه ، فلم يمنعه ولم يحجر عليه . وذلك محض الغرور وهكذا نعيم الدنيا ولذاتها ، فإنها مهلكات ومبعدات من الله ، [١] فإن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه

---

(١) حديث ان الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحبه ـ الحديث : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه من حديث قتادة بن النعمان

---

(١) فصلت : ٥٠ (٢ ، ٣) المجادلة : ٨ (٤) الانعام : ٥٣ (٥) الاحقاف : ١١

كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب وهو يحبه . هكذا ورد فى الخبر عن سيد البشر

وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته . ورأوا ذلك علامة المقت والإهمال . وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا مرحبا بشعار الصالحين . والمغرور إذا أقبلت عليه الدنيا ظن أنها كرامة من الله ، وإذا صرفت عنه ظن أنها هوان ، كما أخبر الله تعالى عنه إذ قال (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ[1]) فأجاب الله عن ذلك (كَلَّا[2]) أى ليس كما قال ، إنما هو ابتلاء ، نعوذ بالله من شر البلاء ، ونسأل الله التثبيت. فبين أن ذلك غرور . قال الحسن : كذبهما جميعا بقوله (كَلَّا[3]) يقول ليس هذا بإكرامى ولا هذا بهوانى. ولكن الكريم من أكرمته بطاعتى ، غنيا كان أو فقيرا، والمهان من أهنته بمعصيتى ، غنيا كان أو فقيرا .

وهذا الغرور علاجه معرفة دلائل الكرامة والهوان ، إما بالبصيرة أو بالتقليد أما البصيرة فبأن يعرف وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعدا عن الله ، ووجه كون التباعد عنها مقربا إلى الله ، ويدرك ذلك بالإلهام فى منازل العارفين والأولياء ، وشرحه من جملة علوم المكاشفة ، ولا يليق بعلم المعاملة . وأما معرفته بطريق التقليد والتصديق ، فهو أن يؤمن بكتاب الله تعالى ، ويصدق رسوله . وقد قال تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ[4]) وقال تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[5]) وقال تعالى (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ[6]) وفى تفسير قوله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ[7]) أنهم كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة . لنزيد غرورهم وقال تعالى (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا[8]) وقال تعالى (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ[9]) إلى غير ذلك مما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فمن آمن به تخلص من هذا الغرور ، فإن منشأ هذا الغرور

(١ ، ٢ ، ٣) الفجر : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ (٤) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ (٥ ، ٧) القلم : ٤٤ (٦) الأنعام : ٤٤
(٨) آل عمران : ١٧٨ (٩) ابراهيم : ٤٢

الجهل بالله وبصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ، ولا يغتر بأمثال هذه الخيالات الفاسدة وينظر إلى فرعون ، وهامان ، وقارون ، وإلى ملوك الأرض وما جرى لهم ، كيف أحسن الله إليهم ابتداء ، ثم دمرهم تدميرا . فقال تعالى (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ [1]) الآية وقد حذر الله تعالى من مكره واستدراجه فقال (فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ [2]) وقال تعالى (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ [3]) وقال عز وجل (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ [4]) وقال تعالى (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً [5]) فكما لا يجوز للعبد المهمل أن يستدل بإهمال السيد إياه ، وتمكينه من النعم ، على حب السيد ، بل ينبغي أن يحذر أن يكون ذلك مكرا منه وكيدا ، مع أن السيد لم يحذره مكر نفسه ، فبأن يجب ذلك في حق الله تعالى مع تحذيره استدراجه أولى

فإذاً من أمن مكر الله فهو مغتر . ومنشأ هذا الغرور أنه استدل بنعم الدنيا على أنه كريم عند ذلك المنعم ، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان ، ولكن ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى ، فالشيطان بواسطة الهوى يميل بالقلب إلى ما يوافقه ، وهو التصديق بدلالته على الكرامة ، وهذا هو حد الغرور

المثال الثاني : غرور العصاة من المؤمنين ، بقولهم إن الله كريم ، وإنا نرجو عفوه ، واتكالهم على ذلك ، وإهمالهم الأعمال ، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء ، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين ، وأن نعمة الله واسعة ، ورحمته شاملة ، وكرمه عميم . وأين معاصي العباد في بحار رحمته ، وإنا موحدون ومؤمنون ، فنرجوه بوسيلة الإيمان . وربما كان مستند رجائهم التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم ، كاغترار العلوية بنسبهم ، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف ، والتقوى ، والورع ، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم ، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين ، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون . وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى . فقياس الشيطان للعلوية أن من أحب إنسانا أحب أولاده وأن الله قد أحب آباءكم فيحبكم ، فلا تحتاجون إلى الطاعة . وينسى المغرور أن نوحا عليه السلام

---

[1] مريم : ٩٨ [2] الاعراف : ٩٩ [3] النحل : ٥٥ [4] آل عمران : ٥٤ [5] الطارق : ١٥

أراد أن يستصحب ولده معه فى السفينة ، فلم يرد فكان من المغرقين فقال (رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي[١]) فقال تعالى (يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ[٢]) وأن ابراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه . وأن نبينا صلى الله عليه وسلم[١] ، وعلى كل عبد مصطفى استأذن ربه فى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها ، فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ، فجلس يبكى على قبر أمه لرقته لها بسبب القرابة ، حتى أبكى من حوله فهذا أيضا اغترار بالله تعالى . وهذا لأن الله تعالى يحب المطيع ويبغض العاصى . فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصى ، فكذلك لا يحب الولد العاصى بحبه الأب المطيع ولو كان الحب يسرى من الأب إلى الولد لأوشك أن يسرى البغض أيضا . بل الحق أن لا تزر وازرة وزر أخرى . ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه ، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ، ويروى بشرب أبيه ، ويصير عالما بتعلم أبيه ، ويصل إلى الكعبة ويراها بمشى أبيه فالتقوى فرض عين فلا يجزى فيه والد عن ولده شيئا . وكذا العكس . وعند الله جزاء التقوى يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، إلا على سبيل الشفاعة لمن لم يشتد غضب الله عليه ، فيأذن فى الشفاعة له كما سبق فى كتاب الكبر والعجب

فإن قلت فأين الغلط فى قول العصاة والفجار : إن الله كريم ، وإنا نرجو رحمته ومغفرته وقد قال أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى خيرا ، فما هذا إلا كلام صحيح مقبول الظاهر فى القلوب

فاعلم أن الشيطان لا يغوى الإنسان إلا بكلام مقبول الظاهر ، مردود الباطن . ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب . ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كشف عن ذلك فقال[٢] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » وهذا هو التمنى على الله تعالى : غير الشيطان اسمه فسماه رجاء ، حتى خدع به الجهال . وقد شرح الله الرجاء فقال (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ

---

(١) حديث انه صلى الله عليه وسلم استأذن أن يزور قبر أمه ويستغفر لها فأذن له فى الزيارة ولم يؤذن له فى الاستغفار ـ الحديث : مسلم من حديث أبى هريرة

(٢) حديث الكيس من دان نفسه : تقدم قريبا

(١ ، ٢) هود : ٤٥ ، ٤٦

الله أولئك يرجون رحمة الله [١]) يعنى أن الرجاء بهم أليق . وهـذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال . قال الله تعالى (جزاء بما كانوا يعملون [٢]) وقال تعالى (وإنما توفون أجوركم يوم القيامة [٣]) أفترى أن من استؤجر على إصلاح أوان ، وشرط له أجرة عليها ، وكان الشارط كريما يفى بالوعد مهما وعد ، ولا يخلف بل يزيد ، فجاء الأجير وكسر الأوانى ، وأفسد جميعها ، ثم جلس ينتظر الأجر ، ويزعم أن المستأجر كريم أفتراه العقلاء فى انتظاره متمنيا مغرورا ، أو راجيا؟ وهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغرة قيل للحسن : قوم يقولون نرجو الله ويضيعون العمل . فقال هيهات !هيهات ! تلك أمانيهم يترجحون فيها . من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه . وقال مسلم بن يسار :لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاى. فقال له رجل : إنا لنرجو الله. فقال مسلم: هيهات! هيهات! من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا هرب منه . وكما أن الذى يرجو فى الدنيا ولدا وهو بعد لم ينكح ، أو نكح ولم يجامع ، أو جامع ولم ينزل ، فهو معتوه . فكذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، أو آمن ولم يعمل صالحا ، أو عمل ولم يترك المعاصى ، فهو مغرور . فكما أنه إذا نكح ، ووطىء ، وأنزل ، بقى مترددا فى الولد ، يخاف ويرجو فضل الله فى خلق الولد ودفع الآفات عن الرحم وعن الأم إلى أن يتم فهو كيس ، فكذلك إذا آمن ، وعمل الصالحات، وترك السيئات ، وبقى مترددا بين الخوف والرجاء ، يخاف أن لا يقبل منه ، وأن لا يدوم عليه وأن يختم له بالسوء ، ويرجو من الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموت ، حتى يموت على التوحيد ، ويحرص قلبه عن الميل إلى الشهوات بقية عمره حتى لا يميل إلى المعاصى فهو كيس ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله . وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا . ولتعلمن نبأه بعد حين . وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم (ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون [٤]) أى علمنا أنه كما لا يولد إلا بوقاع ونكاح ، ولا ينبت زرع إلا بحراثة وبث بذر فكذلك لا يحصل فى الآخرة ثواب وأجر إلا بعمل صالح ، فارجعنا نعمل صالحا ، فقد علمنا الآن صدقك فى قولك ، وأن ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها

---

(١) البقرة : ٢١٨ (٢) الواقعة : ٢٤ (٣) آل عمران : ١٨٥ (٤) الملك : ٨

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ[1]) أي ألم نسمعكم سنة الله في عباده، وأنه توفى كل نفس ما كسبت ، وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، فما الذي غركم بالله بعد أن سمعتم وعقلتم ؟ (قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ[2])

فإن قلت : فأين مظنة الرجاء وموضعه المحمود ؟ فاعلم أنه محمود في موضعين :

أحدهما : في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة ، فقال له الشيطان وأنى تقبل توبتك ؟ فيقنطه من رحمة الله تعالى ، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء ، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعا ، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده ، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب . قال الله تعالى (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ[3]) أمرهم بالإنابة . وقال تعالى (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى[4]) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور . كما أن من ضاق عليه وقت الجمعة وهو في السوق ، فخطر له أن يسعى إلى الجمعة ، فقال له الشيطان إنك لا تدرك الجمعة فأقم على موضعك ، فكذب الشيطان ومر يعدو ، وهو يرجو أن يدرك الجمعة فهو راج . وإن استمر على التجارة ، وأخذ يرجو تأخير الإمام للصلاة لأجله إلى وسط الوقت ، أو لأجل غيره ، أو لسبب من الأسباب التي لا يعرفها ، فهو مغرور

الثاني : أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ، ويقتصر على الفرائض : فيرجي نفسه نعيم الله تعالى ، وما وعد به الصالحين ، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة ، فيقبل على الفضائل ، ويتذكر قوله تعالى (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ[5]) إلى قوله (أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[6])

فالرجاء الأول : يقمع القنوط المانع من التوبة ، والرجاء الثاني : يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمر . فكل توقع حث على توبة أو على تشمر في العبادة فهو رجاء ، وكل رجاء أوجب فتورا في العبادة وركونا إلى البطالة فهو غرة . كما إذا خطر له أن يترك الذنب

(١ و ٢) الملك : ٩ ، ١٠ ، ١١ (٣) الزمر : ٥٣ ، ٥٤ (٤) طه : ٨٢ (٥ و ٦) المؤمنون

ويشتغل بالعمل ، فيقول له الشيطان مالك ولإيذاء نفسك وتعذيبها ، ولك رب كريم ؛ غفور رحيم ، فيفتر بذلك عن التوبة والعبادة ، فهو غرة وعند هذا واجب على العبد أن يستعمل الخوف ، فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه ، ويقول ..إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب . وإنه مع أنه كريم ، خلد الكفار فى النار أبد الآباد ، مع أنه لم يضره كفرهم : بل سلط العذاب ، والمحن ،والأمراض ، والعلل . والفقر ، والجوع ، على جملة من عباده فى الدنيا ، وهو قادر على إزالتها . فمن هذه سنته فى عباده ، وقد خوّفنى عقابه ، فكيف لا أخافه ! وكيف أغتر به . فالخوف والرجاء قائدان وسائقان ، يبعثان الناس على العمل . فما لا يبعث على العمل فهو تمن وغرور . ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا ، وسبب إعراضهم عن الله تعالى ، وإهمالهم السعى للآخرة ، فذلك غرور . فقد أخبر صلى الله عليه وسلم [1] وذكر أن الغرور سيغلب على قلوب آخر هذه الأمة وقد كان ما وعد به صلى الله عليه وسلم . فقد كان الناس فى الأعصار الأول يواظبون على العبادات ، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار فى طاعة الله ، يبالغون فى التقوى والحذر من الشبهات والشهوات ، ويبكون على أنفسهم فى الخلوات . وأما الآن، فترى الخلق آمنين ، مسرورين ، مطمئنين غير خائفين ، مع إكبابهم على المعاصى ، وانهماكهم فى الدنيا ، وإعراضهم عن الله تعالى ، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله ، راجون لعفوه ومغفرته ، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء ، والصحابة ، والسلف الصالحون . فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى ، وينال بالهوينى ، فعلام إذا كان بكاء أولئك ، وخوفهم ، وحزنهم ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور فى كتاب الخوف والرجاء . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] ، فيما رواه معقل ابن يسار « يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَخْلَقُ فِيهِ الْقُرْءَانُ فِي

---

(١) حديث إن الغرور يغلب على آخر هذه الامة: تقدم فى آخر ذم الكبر والعجب وهو حديث أبى ثعلبة فى إعجاب كل ذى رأى برأيه ـ

(٢) حديث معقل بن يسار يأتى على الناس زمان يخلق فيه القرءان فى قلوب الرجال ـ الحديث : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس نحوه بسند فيه جهالة ولم أره من حديث معقل

قُلُوب الرِّجَال كَمَا تَخْلَقُ الثِّيَابُ عَلَى الأَبْدَان أَمْرُهُمْ كُلُّهُ يَكُونُ طَمَعاً لاَ خَوْفَ مَعَهُ إِنْ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ يُتَقَبَّلُ مِنِّي وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ يُغْفَرُ لِي » فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف لجهلهم بتخويفات القرءان وما فيه . ومثله أخبر عن النصارى إذ قال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا [1]) ومعناه أنهم ورثوا الكتاب أى هم علماء ، ويأخذون عرض هذا الأدنى أى شهواتهم من الدنيا ، حراما كان أو حلالا . وقد قال تعالى (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ [2]) (ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ [3]) والقرءان من أوله إلى آخره تحذير وتخويف لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حزنه ، ويعظم خوفه إن كان مؤمنا بما فيه . وترى الناس يهذونه هذّا يخرجون الحروف من مخارجها ، ويتناظرون على خفضها ، ورفعها ، ونصبها وكأنهم يقرءون شعرا من أشعار العرب ، لا يهمهم الإلتفات إلى معانيه ، والعمل بما فيه وهل فى العالم غرور يزيد على هذا ه فهذه أمثلة الغرور بالله ، وبيان الفرق بين الرجاء والغرور

ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص ، إلا أن معاصيهم أكثر ، وهم يتوقعون المغفرة ، ويظنون أنهم ترجح كفة حسناتهم ، مع أن ما فى كفة السيئات أكثر وهذا غاية الجهل . فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام ، ويكون مايتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه . ولعل ماتصدق به من أموال المسلمين ، وهو يتكل عليه ويظن أن أكل ألف درهم حرام ، يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال وماهو إلا كمن وضع عشرة دراهم فى كفة ميزان ، وفى الكفة الأخرى ألفا ، وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة . وذلك غاية جهله . نعم ؛ ومنهم من يظن ان طاعاته أكثر من معاصيه ، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها ، كالذى يستغفر الله بلسانه ، أو يسبح الله فى اليوم مائة مرة ، ثم يغتاب المسلمين ، ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد . ويكون نظره إلى عدد سبحته أنه استغفر الله مائة مرة ، وغفل عن هذيانه طول نهاره ، الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه

---

(1) الأعراف : ٦٩ (2) الرحمن : ٤٦ (3) ابراهيم : ١٤

مائة مرة أو ألف مرة ، وقد كتبه الكرام الكاتبون ، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة فقال(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[1]) فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات ، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين ، والكذابين ، والنمامين ، والمنافقين يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه ، إلى غير ذلك من آفات اللسان . وذلك محض الغرور ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه ، لكان عند ذلك يكف لسانه حتى عن جملة من مهماته ، وما نطق به في فتراته كان يعده ويحسبه ويوازنه بتسبيحاته ، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه . فيا عجبا لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفا على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ ، ولا يحتاط خوفا من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه . ما هذه إلا مصيبة عظيمة لمن تفكر فيها . فقد دفعنا إلى أمر إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين ، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين ، فما هذه أعمال من يصدق بما جاء به القرءان ، وإنا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران فسبحان من صدنا عن التنبه واليقين مع هذا البيان ، وما أجدر من يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب أن يخشى ويتقى ، ولا يغتر به اتكالا على أباطيل المنى وتعاليل الشيطان والهوى ، والله أعلم

بيان

أصناف المغترين وأقسام فرق كل صنف وهم أربعة أصناف

الصنف الأول : أهل العلم والمغترون منهم فرق . ففرقة أحكموا العلوم الشرعية والعقلية ، وتعمقوا فيها ، واشتغلوا بها ، وأهملوا تفقد الجوارح ، وحفظها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم ، وظنوا أنهم عند الله بمكان ، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله مثلهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله . وهم مغرورون . فإنهم لو نظروا بعين البصيرة ، علموا أن العلم علمان علم معاملة ، وعلم مكاشفة ، وهو العلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة علم المعرفة : فأما العلم

[1] ق : ١٨

بالمعاملة ، كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة ، وكيفية علاجها والفرار منها ، فهى علوم لاتراد إلا للعمل ، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة . وكل علم يراد للعمل فلاقيمة له دون العمل : فمثال هذا كمريض به علة لايزيلها إلا دواء مركب من أخلاط كثيرة ، لايعرفها إلا حذاق الأطباء ، فيسعى فى طلب الطبيب، بعد أن هاجر عن وطنه ، حتى عثر على طبيب حاذق ، فعلمه الدواء ، وفصل له الأخلاط وأنواعها ، ومقاديرها ، ومعادنها التى منها تجتلب، وعلمه كيفية دق كل واحد منها وكيف خلطه ، وعجنه ، فتعلم ذلك ، وكتب منه نسخة حسنة بخط حسن ، ورجع إلى بيته وهو يكررها ويعلمها المرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها . أفترى أن ذلك يغنى عنه من مرضه شيئا ؟ هيهات ! هيهات ! لو كتب منه ألف نسخة ، وعلمه ألف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة ألف مرة ، لم يغنه ذلك من مرضه شيئا ، إلا أن يزن الذهب ، ويشترى الدواء، ويخلطه كما تعلم ، ويشربه ، ويصبر على مرارته ، ويكون شربه فى وقته، وبعد تقديم الاحتماء وجميع شروطه . وإذا فعل جميع ذلك ، فهو على خطر من شفائه ، فكيف إذا لم يشربه أصلا؟ فمهما ظن أن ذلك يكفيه ويشفيه ، فقد ظهر غروره

وهكذا الفقيه الذى أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم علم المعاصى ولم يجتنبها ، وأحكم علم الأخلاق المذمومة وما زكى نفسه منها ، وأحكم علم الأخلاق المحمودة ولم يتصف بها ، فهو مغرور . إذ قال تعالى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [1]) ولم يقل قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها وكتب علم ذلك وعلمه الناس

وعند هذا يقول له الشيطان : لايغرنك هذا المثال ، فإن العلم بالدواء لايزيل المرض . وإنما مطلبك القرب من الله وثوابه ، والعلم يجلب الثواب . ويتلو عليه الأخبار الواردة فى فضل العلم . فإن كان المسكين معتوها مغرورا ، وافق ذلك مراده وهواه ، فاطمأن إليه وأهمل العمل . وإن كان كيسا ، فيقول للشيطان : أتذكرنى فضائل العلم ، وتنسينى ماورد فى العالم الفاجر الذى لايعمل بعلمه ؟ كقوله تعالى (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ [2]) وكقوله تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً [3]) فأى خزى

(١) الشمس : ٩ (٢) الأعراف : ١٧٧ (٣) الجمعة : ٥

أعظم من التمثيل بالكلب والحمار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَنِ ازْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدًى لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْداً » وقال أيضا [٢] « يُلْقَى الْعَالِمُ فِى النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِى النَّارِ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِى الرَّحَى » وكقوله عليه الصلاة والسلام [٣] « شَرُّ النَّاسِ الْعُلَمَاءُ السُّوءُ » وقول أبى الدرداء : ويل للذى لا يعلم مرة ، ولو شاء الله لعلمه · وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات . أى أن العلم حجة عليه ، إذ يقال له . ماذا عملت فيما علمت ؟ وكيف قضيت شكر الله ؟ وقال صلى الله عليه وسلم [٤] « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ » . فهذا وأمثاله مما أوردناه فى كتاب العلم ، فى باب علامة علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . إلا أن هذا فيما لا يوافق هوى العالم الفاجر . وما ورد فى فضل العلم يوافقه . فيميل الشيطان قلبه إلى ما يهواه ، وذلك عين الغرور . فإنه إن نظر بالبصيرة ، فمثاله ما ذكرناه . وإن نظر بعين الإيمان ، فالذى أخبره بفضيلة العلم هو الذى أخبره بذم العلماء السوء . وأن حالهم عند الله أشد من حال الجهال ، فبعد ذلك اعتقاده أنه على خير مع تأكد حجة الله عليه غاية الغرور .

وأما الذى يدعى علوم المكاشفة ، كالعلم بالله ، وبصفاته ، وأسمائه ، وهو مع ذلك يهمل العمل ، ويضيع أمر الله وحدوده ، فغروره أشد . ومثاله مثال من أراد خدمة ملك ، فعرف الملك ، وعرف أخلاقه ، وأوصافه ، ولونه ، وشكله ، وطوله ، وعرضه ، وعادته ومجلسه ، ولم يتعرف ما يحبه ويكرهه ، وما يغضب عليه وما يرضى به ، أو عرف ذلك إلا أنه قصد خدمته وهو ملابس لجميع ما يغضب به وعليه ، وعاطل عن جميع ما يحبه من زى ، وهيئة ، وكلام ، وحركة ، وسكون ، فورد على الملك وهو يريد التقرب منه ، والاختصاص به ، متلطخا بجميع ما يكرهه الملك ، عاطلا عن جميع ما يحبه ، متوسلا إليه بمعرفته له ولنسبه ، واسمه ، وبلده ، وصورته ، وشكله ، وعادته فى سياسة غلمانه ، ومعاملة رعيته . فهذا مغرور جدا . إذ لو ترك جميع ما عرفه ، واشتغل بمعرفته فقط ، ومعرفة ما يكرهه ويحبه ،

---

(١) حديث من ازداد علما ولم يزدد هدى ــ الحديث : تقدم فى العلم

(٢) حديث يلقى العالم فى النار فتندلق أقتابه ــ الحديث : تقدم غير مرة

(٣) حديث شر الناس علماء السوء : تقدم فى العلم

(٤) حديث أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله تعالى بعلمه : تقدم فيه

لكان ذلك أقرب إلى نيله المراد من قربه والاختصاص به . بل تقصيره فى التقوى ، واتباعه للشهوات ، يدل على أنه لم ينكشف له من معرفة الله إلا الأسامى دون المعانى . إذ لو عرف الله حق معرفته ، لخشيه واتقاه . فلا يتصور أن يعرف الأسد عاقل ثم لا يتقيه ولا يخافه وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : خفنى كما تخاف السبع الضارى . نعم من يعرف من الأسد لونه ، وشكله ، واسمه ، قد لا يخافه ، وكأنه ما عرف الأسد. فمن عرف الله تعالى عرف من صفاته أنه يهلك العالمين ولا يبالى ، ويعلم أنه مسخر فى قدرة من لو أهلك مثله آلافا مؤلفة ، وأبد عليهم العذاب أبد الآباد ، لم يؤثر ذلك فيه أثرا ، ولم تأخذه عليه رقة ، ولا اعتراه عليه جزع . ولذلك قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ [1]) وفاتحة الزبور : رأس الحكمة خشية الله. وقال ابن مسعود : كفى بخشية الله علما ، وكفى بالاغترار بالله جهلا . واستفتى الحسن عن مسألة فأجاب ، فقيل له . إن فقهاءنا لا يقولون ذلك . فقال : وهل رأيت فقيها قط ؟ الفقيه القائم ليله ، الصائم نهاره ، الزاهد فى الدنيا . وقال مرة . الفقيه لا يدارى ولا يمارى ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلت منه حمد الله ، وإن ردت عليه حمد الله. فإذاً الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه ، وعلم من صفاته ما أحبه وما كرهه، وهو العالم . ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين . وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل ، فواظبوا على الطاعات الظاهرة ، وتركوا المعاصى إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا عنها الصفات المذمومة عند الله ، من الكبر ، والحسد ، والرياء ، وطلب الرياسة والعلاء ، وإرادة السوء للأقران والنظراء ، وطلب الشهرة فى البلاد والعباد وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم ، فهو مكب عليها ، غير متحرز عنها . ولا يلتفت إلى قوله صلى الله عليه وسلم [1] « أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ » وإلى قوله عليه السلام [2] « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » وإلى قوله عليه الصلاة

---

(١) حديث أدنى الرياء شرك : تقدم فى ذم الجاه والرياء

(٢) حديث لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر : تقدم غير مرة

---

(١) فاطر : ٢٨

والسلام [1] « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وإلى قوله عليه الصلاة والسلام [2] « حُبُّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ يُنْبِتَانِ النِّفَاقَ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الْبَقْلَ » إلى غير ذلك من الأخبار التى أوردناها فى جميع ربع المهلكات فى الأخلاق المذمومة . فهؤلاء زينوا ظواهرهم ، وأهملوا بواطنهم ، ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم [3] « إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب . والقلب هو الأصل ، إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومثال هؤلاء كبئر الحش ، ظاهرها جص ، وباطنها نتن : أو كقبور الموتى ، ظاهرها مزين ، وباطنها جيفة . أو كبيت مظلم باطنه وضع سراج على سطحه ، فاستنار ظاهره ، وباطنه مظلم . أو كرجل قصد الملك ضيافته إلى داره ، فجصص باب داره ، وترك المزابل فى صدر داره . ولا يخفى أن ذلك غرور . بل أقرب مثال إليه رجل زرع زرعا فنبت، ونبت معه حشيش يفسده . فأمر بتنقية الزرع عن الحشيش بقلعه من أصله . فأخذ يجز رؤسه وأطرافه ، فلا تزال تقوى أصوله فتنبت، لأن مغارس المعاصى هى الأخلاق الذميمة فى القلب فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة . بل هو كمريض ظهر به الجرب ، وقد أمر بالطلاء وشرب الدواء، فالطلاء ليزيل ما على ظاهره والدواء ليقطع مادته من باطنه ، فقنع بالطلاء وترك الدواء ، وبقى يتناول مايزيد فى المادة ، فلا يزال يطلى الظاهر والجرب دائم به ، يتفجر من المادة التى فى الباطن

وفرقة أخرى علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم فى العلم . فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم . ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر ، والرياسة ، وطلب العلو ، والشرف ، قالوا ماهذا كبر ، وإنما هو طلب عز الدين ، وإظهار شرف العلم ، ونصرة دين الله ، وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين ،

---

(١) حديث الحسد يأكل الحسنات ـ الحديث : تقدم فى العلم وغيره .

(٢) حديث حب المال والشرف ينبتان النفاق فى القلب ـ الحديث : تقدم

(٣) حديث إن الله لاينظر إلى صوركم ـ الحديث : تقدم

وإنى لو لبست الدون من الثياب ، وجلست فى الدون من المجالس ، لشمت بى أعداء الدين ، وفرحوا بذلك ، وكان ذلى ذلا على الإسلام . ونسى المغرور أن عدوّه الذى حذّره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أن النبي صلى الله عليه وسلم بماذا نصر الدين ، وبماذا أرغم الكافرين . ونسى ماروى عن الصحابة من التواضع ، والتبذل ، والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضى الله عنه فى بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام ، فلا نطلب العز فى غيره . ثم هذا المغرور يطلب عز الدين بالثياب الرقيقة من القصب ، والديبقى ، والإبريسم المحرم ، والخيول ، والمراكب ، ويزعم أنه يطلب به عز العلم وشرف الدين . وكذلك مهما أطلق اللسان بالحسد فى أقرانه أو فيمن رد عليه شيئا من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، ولكن قال إنما هذا غضب للحق ، ورد على المبطل فى عدوانه وظلمه ، ولم يظن بنفسه الحسد . حتى يعتقد أنه لو طعن فى غيره من أهل العلم ، أو منع غيره من رياسة وزوحم فيها ، هل كان غضبه وعداوته مثل غضبه الآن . فيكون غضبه لله ، أم لا يغضب مهما طعن فى عالم آخر ومنع ، بل ربما يفرح به فيكون غضبه لنفسه ، وحسده لأقرانه ، من خبث باطنه ؟ وهكذا يرائى بأعماله وعلومه ، وإذا خطر له خاطر الرياء قال هيهات ، إنما غرضى من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى ليهتدوا إلى دين الله تعالى ، فيتخلصوا من عقاب الله تعالى . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الخلق بغيره ، كما يفرح باقتدائهم به . فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم ، فإنه لا يفرق بين أن يحصل شفاؤهم على يده أو على يد طبيب آخر . وربما يذكر هذا له ، فلا يخليه الشيطان أيضا ويقول . إنما ذلك لأنهم إذا اهتدوا بى كان الأجر لى ، والثواب لى . فإنما فرحى بثواب الله ، لا بقبول الخلق قولى . هذا ما يظنه بنفسه ، والله مطلع من ضميره على أنه لو أخبره نبى بأن ثوابه فى الخمول وإخفاء العلم ، أكثر من ثوابه فى الإظهار ، وحبس مع ذلك فى سجن ، وقيد بالسلاسل ، لاحتال فى هدم السجن وحل السلاسل ، حتى يرجع إلى موضعه الذى به تظهر رياسته ، من تدريس أو وعظ أو غيره . وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ، ويثنى عليه ، ويتواضع له ، وإذا خطر له أن التواضع للسلاطين الظلمة حرام ، قال له الشيطان :

هيهات، إنما ذلك عند الطمع فى مالهم. فأما أنت ففرضك أن تشفع للمسلمين، وتدفع الضرر عنهم وتدفع شر أعدائك عن نفسك. والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان، فصار يشفعه فى كل مسلم، حتى دفع الضرر عن جميع المسلمين، ثقل ذلك عليه ولو قدر على أن يقبح حاله عند السلطان بالطعن فيه، والكذب عليه لفعل

وكذلك قد ينتهى غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنه حرام، قال له الشيطان: هذا مال لا مالك له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم وبك قوام الدين، أفلا يحل لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغتر بهذا التلبيس فى ثلاثة أمور

أحدها: فى أنه مال لا مالك له، فإنه يعرف أنه يأخذ الخراج من المسلمين وأهل السواد، والذين أخذ منهم أحياء، وأولادهم وورثتهم أحياء. وغاية الأمر وقوع الخلط فى أموالهم. ومن غصب مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها، فلا خلاف فى أنه مال حرام. ولا يقال هو مال لا مالك له، ويجب أن يقسم بين العشرة، ويرد إلى كل واحد عشرة، وإن كان مال كل واحد قد اختلط بالآخر

الثانى: فى قوله. إنك من مصالح المسلمين، وبك قوام الدين، ولعل الذين فسد دينهم واستحلوا أموال السلاطين، ورغبوا فى طلب الدنيا، والإقبال على الرياسة، والإعراض عن الآخرة بسببه، أكثر من الذين زهدوا فى الدنيا ورفضوها، وأقبلوا على الله. فهو على التحقيق دجال الدين، وقوام مذهب الشياطين لا إمام الدين إذ الإمام هو الذى يقتدى به فى الإعراض عن الدنيا، والإقبال على الله، كالأنبياء عليهم السلام، والصحابة، وعلماء السلف. والدجال هو الذى يقتدى به فى الإعراض عن الله، والإقبال على الدنيا. فلعل موت هذا أنفع للمسلمين من حياته. وهو يزعم أنه قوام الدين. ومثله كما قال المسيح عليه السلام للعالم السوء. إنه كصخرة وقعت فى فم الوادى، فلا هى تشرب الماء، ولا هى تترك الماء يخلص إلى الزرع. وأصناف غرور أهل العلم فى هذه الأعصار المتأخرة خارجة عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير

وفرقة أخرى. أحكموا العلم، وطهروا الجوارح، وزينوها بالطاعات، واجتنبوا ظواهر المعاصى، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب، من الرياء، والحسد، والحقد،

والكبر ، وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم فى التبرى منها ، وقلعوا من القلوب منابتها الجلية القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ، إذ بقيت فى زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ، مادق وغمض مدركه ، فلم يفطنوا لها وأهملوها . وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه ، وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على مالم يخرج رأسه بعد من تحت الأرض ، وظن أن الكل قد ظهر وبرز ، وكان قد نبت من أصول الحشيش شعب لطاف ، فانبسطت تحت التراب ، فأهملها وهو يظن أنه قد قلعها ، فإذا هو بها فى غفلته وقد نبتت وقويت ، وأفسدت أصول الزرع من حيث لايدرى . فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ، ويذهل عن المراقبة للخفايا، والتفقد للدفائن فتراه يسهر ليله ونهاره فى جمع العلوم وترتيبها ، وتحسين ألفاظها ، وجمع التصانيف فيها وهو يرى أن باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته ، ولعل باعثه الخفى هو طلب الذكر وانتشار الصيت فى الأطراف ، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق ، وانطلاق الألسنة عليه بالثناء ، والمدح بالزهد والورع والعلم ، والتقديم له فى المهمات ، وإيثاره فى الأغراض ، والاجتماع حوله للاستفادة ، والتلذذ بحسن الإصغاء عند حسن اللفظ والإيراد ، والتمتع بتحريك الرءوس إلى كلامه ، والبكاء عليه ، والتعجب منه ، والفرح بكثرة الأصحاب ، والأتباع ، والمستفيدين ، والسرور بالتخصص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران والأشكال للجمع بين العلم ، والورع ، وظاهر الزهد ، والتمكن به من إطلاق لسان الطعن فى الكافة المقبلين على الدنيا ، لا عن تفجع بمصيبة الدين، ولكن عن إدلال بالتمييز، واعتداد بالتخصيص

ولعل هذا المسكين المغرور ، حياته فى الباطن بما انتظم له من أمر ، وإمارة ، وعز ، وانقياد ، وتوقير ، وحسن ثناء ، فلو تغيرت عليه القلوب، واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يظهر من أعماله ، فعساه يتشوش عليه قلبه ، وتختلط أوراده ووظائفه ، وعساه يعتذر بكل حيلة لنفسه ، وربما يحتاج إلى أن يكذب فى تغطية عيبه ، وعساه يؤثر بالكرامة والمراعاة من اعتقد فيه الزهد والورع ، وإن كان قد اعتقد فيه فوق قدره . وينبو قلبه عمن عرف حد فضله وورعه ، وإن كان ذلك على وفق حاله . وعساه يؤثر بعض أصحابه على بعض، وهو يرى أنه يؤثره لتقدمه فى الفضل والورع . وإنما ذلك لأنه أطوع له ، واتبع لمراده ، وأكثر

ثناء عليه ، وأشد إصغاء إليه ، وأحرص على خدمته . ولعلهم يستفيدون منه ، ويرغبون في العلم ، وهو يظن أن قبولهم له لإخلاصه وصدقه ، وقيامه بحق علمه ، فيحمد الله تعالى على ما يسّر على لسانه من منافع خلقه ، ويرى أن ذلك مكفر لذنوبه ، ولم يتفقد مع نفسه تصحيح النية فيه ، وعساه لو وعد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول ، والعزلة ، وإخفاء العلم لم يرغب فيه ، لفقده في العزلة ، ولا ختفاء لذة القبول وعزة الرياسة.

ولعل مثل هذا هو المراد بقول الشيطان : من زعم من بني آدم أنه بعلمه امتنع مني ، فبجهله وقع في حبائلي . وعساه يصنف ويجتهد فيه ، ظانا أنه يجمع علم الله لينتفع به ، وإنما يريد به استطارة اسمه بحسن التصنيف . فلو ادعى مدع تصنيفه ، ومحا عنه اسمه ، ونسبه إلى نفسه ، ثقل عليه ذلك ، مع علمه بأن ثواب الاستفادة من التصنيف إنما يرجع إلى المصنف ، والله يعلم بأنه هو المصنف لا من ادعاه . ولعله في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه إما صريحا بالدعاوى الطويلة العريضة ، وإما ضمنا بالطعن في غيره ، ليستبين من طعنه في غيره أنه أفضل ممن طعن فيه ، وأعظم منه علما . ولقد كان في غنية عن الطعن فيه ولعله يحكي من الكلام المزيف ما يزيد تزييفه ، فيعزيه إلى قائله ، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه ، فينقله بعينه كالسارق له ، أو يغيره أدنى تغيير ، كالذي يسرق قميصا فيتخذه قباء حتى لا يعرف أنه مسروق . ولعله يجتهد في تزيين ألفاظه ، وتسجيعه وتحسين نظمه ، كيلا ينسب إلى الركاكة ، ويرى أن غرضه ترويج الحكمة وتحسينها وتزيينها ، ليكون أقرب إلى نفع الناس ، وعساه غافلا عما روي أن بعض الحكماء وضع ثلثمائة مصحف في الحكمة ، فأوحى الله إلى نبي زمانه قل له قد ملأت الأرض نفاقا ، وإني لا أقبل من نفاقك شيئا

ولعل جماعة من هذا الصنف من المغترين إذا اجتمعوا ، ظن كل واحد بنفسه السلامة عن عيوب القلب وخفاياه ، فلو افترقوا واتبع كل واحد منهم فرقة من أصحابه ، نظر كل واحد إلى كثرة من يتبعه ، وأنه أكثر تبعا أو غيره ، فيفرح إن كان أتباعه أكثر ، وإن علم أن غيره أحق بكثرة الأتباع منه . ثم إذا تفرقوا واشتغلوا بالإفادة تغايروا وتحاسدوا

ولعل من يختلف إلى واحد منهم إذا انقطع عنه إلى غيره ، ثقل على قلبه ، ووجد في نفسه نفرة منه ، فبعد ذلك لا يهتز باطنه لإكرامه ، ولا يتشمر لقضاء حوائجه كما كان يتشمر

من قبل ، ولا يحرص على الثناء عليه كما أثنى ، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة ، ولعل التحيز منه إلى فئة أخرى كان أنفع له في دينه، لآفة من الآفات كانت تلحقه في هذه الفئة، وسلامته عنها في تلك الفئة ، ومع ذلك لا تزول النفرة عن قلبه

ولعل واحدا منهم إذا تحركت فيه مبادي الحسد لم يقدر على إظهاره ، فيتعلل بالطعن في دينه وفي ورعه ليحمل غضبه على ذلك ويقول : إنما غضبت لدين الله لا لنفسي. ومهما ذكرت عيوبه بين يديه ربما فرح له ، وإن أثنى عليه ربما ساءه وكرهه. وربما قطب وجهه إذا ذكرت عيوبه ، يظهر أنه كاره لغيبة المسلمين ، وسر قلبه راض به ، ومريد له ، والله مطلع عليه في ذلك

فهذا وأمثاله من خفايا القلوب لا يفطن له إلا الأكياس ، ولا يتنزه عنه إلا الأقوياء ولا مطمع فيه لأمثالنا من الضعفاء إلا أن أقل الدرجات أن يعرف الإنسان عيوب نفسه ، ويسوءه ذلك ويكرهه ، ويحرص على إصلاحه . فإذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ومن سرته حسنته. وساءته سيئته ، فهو مرجو الحال ، وأمره أقرب من المغرور المزكي لنفسه ، الممتن على الله بعمله وعلمه ، الظان أنه من خيار خلقه ، فنعوذ بالله من الغفلة والاغترار ومن المعرفة بخفايا العيوب مع الإهمال . هذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة ، ولكن قصروا في العمل بالعلم . ولنذكر الآن غرور الذين قنعوا من العلوم بما لم يهمهم وتركوا المهم وهم به مغترون · إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم ، وإما لاقتصارهم عليه

فمنهم فرقة اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات ،وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد ، وخصصوا اسم الفقه بها ، وسموه الفقه وعلم المذهب ، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة ، فلم يتفقدوا الجوارح ، ولم يحرسوا اللسان عن الغيبة ، ولا البطن عن الحرام ، ولا الرِّجْلَ عن المشي إلى السلاطين ، وكذا سائر الجوارح . ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر ، والحسد ، والرياء وسائر المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين : أحدهما من حيث العمل ، والآخر من حيث العلم

أما العمل فقد ذكرنا وجه الغرور فيه ، وأن مثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء ، واشتغل بتكراره وتعليمه. لا بل مثالهم مثال من به علة البواسير والبرسام وهو مشرف على الهلاك ، ومحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعلم دواء

الاستحاضة ، وبتكرار ذلك ليلا ونهارا ، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض ، ولكن يقول . ربما تقع علة الاستحاضة لامرأة وتسألني عن ذلك . وذلك غاية الغرور. فكذلك المتفقه المسكين ، قد يسلط عليه حب الدنيا ، واتباع الشهوات ، والحسد ، والكبر ، والرياء ، وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافى ، فيلقى الله وهو عليه غضبان ، فترك ذلك كله وأشتغل بعلم السلم ، والإجارة ، والظهار ، واللعان ، والجراحات ، والديات ، والدعاوى ، والبينات ، وبكتاب الحيض ، وهو لا يحتاج إلى شىء من ذلك قط فى عمره لنفسه ، وإذا احتاج غيره كان فى المفتين كثرة ، فيشتغل بذلك ويحرص عليه لما فيه من الجاه ، والرياسة ، والمال ، وقد دهاه الشيطان وما يشعر ، إذ يظن المغرور بنفسه أنه مشغول بفرض دينه ، وليس يدرى أن الاشتغال بفرض الكفاية قبل الفراغ من فرض العين معصية : وهذا لو كانت نيته صحيحة كما قال ، وقد كان قصد بالفقه وجه الله تعالى . فإنه وإن قصد وجه الله فهو باشتغاله به معرض عن فرض عينه فى جوارحه وقلبه ، فهذا غروره من حيث العمل

وأما غروره من حيث العلم ، فحيث اقتصر على علم الفتاوى ، وظن أنه علم الدين ، وترك علم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وربما طعن . فى المحدثين ، وقال إنهم نقلة أخبار ، وحملة أسفار لا يفقهون ، وترك أيضا علم تهذيب الأخلاق ، وترك الفقه عن الله تعالى بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذى يورث الخوف ، والهيبة ، والخشوع ، ويحمل على التقوى . فتراه آمنا من الله ، مغترا به ، متكلا على أنه لا بد وأن يرحمه ، فإنه قوام دينه وإنه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطل الحلال والحرام . فقد ترك العلوم التى هى أهم ، وهو غافل مغرور . وسبب غروره ماسمع فى الشرع من تعظيم الفقه ، ولم يدر أن ذلك الفقه هو الفقه عن الله ، ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ، ليستشعر القلب الخوف ويلازم التقوى ، إذ قال تعالى (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ [1]) والذى يحصل به الإنذار غير هذا العلم . فإن مقصود هذا العلم حفظ الأموال بشروط المعاملات ، وحفظ الأبدان بالأموال وبدفع القتل والجراحات

(١) التوبة : ١٢٢

والمال فى طريق الله آلة ، والبدن مركب. وإنما العلم المهم هو معرفة سلوك الطريق، وقطع عقبات القلب التى هي الصفات المذمومة ، فهى الحجاب بين العبد وبين الله تعالى . وإذا مات ملوثا بتلك الصفات كان محجوبا عن الله . فمثاله فى الاقتصار على علم الفقه ، مثال من اقتصر من سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ، ولا شك فى أنه لو لم يكن لتعطل الحج ، ولكن المقتصر عليه ليس من الحج فى شىء ، ولا بسبيله . وقد ذكرنا شرح ذلك فى كتاب العلم . ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيات ، ولم يهمه إلا تعلم طريق المجادلة ، والإلزام ، وإفحام الخصوم ، ودفع الحق ، لأجل الغلبة والمباهاة ، فهو طول الليل والنهار فى التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ، والتفقد لعيوب الأقران والتلقف لأنواع التسبيبات المؤذية ، وهؤلاء هم سباع الإنس ،طبعهم الإيذاء، وهمهم السفه ولا يقصدون العلم إلا لضرورة مايلزمهم لمباهاة الأقران ، فكل علم لايحتاجون إليه فى المباهاة كعلم القلب ، وعلم سلوك الطريق إلى الله تعالى ، بمحو الصفات المذمومة، وتبديلها بالمحمودة ، فإنهم يستحقرونه ،ويسمونه التزويق وكلام الوعاظ .وإنما التحقيق عندهم معرفة تفاصيل العربدة التى تجرى بين المتصارعين فى الجدل . وهؤلاء قد جمعوا ماجمعه الذين من قبلهم فى علم الفتاوى ، لكن زادوا إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات أيضا ؛ بل جميع دقائق الجدل فى الفقه بدعة لم يعرفها السلف . وأما أدلة الأحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهو كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفهم معانيهما . وأما حيل الجدل من الكسر ، والقلب ، وفساد الوضع والتركيب والتعدية ، فإنما أبدعت لإظهار الغلبة والإفحام ، وإقامة سوق الجدل بها . فغرور هؤلاء أشد كثيرا وأقبح من غرور من قبلهم

وفرقة أخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة فى الأهواء ، والرد على المخالفين ، وتتبع مناقضاتهم ، واستكثروا من معرفة المقالات المختلفة ، واشتغلوا بتعلم الطرق فى مناظرة أولئك وإفحامهم ، وافترقوا فى ذلك فرقا كثيرة ، واعتقدوا أنه لايكون لعبد عمل إلا بإيمان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم ، وما سموه أدلة عقائدهم ، وظنوا أنه لا أحد أعرف

بالله وبصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ، ولم يتعلم علمهم . ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها . ثم هم فرقتان : ضالة ومحقة ،فالضالة هى التى تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هى التى تدعو إلى السنة ، والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة فلغفلتها عن ضلالها ، وظنها بنفسها النجاة . وهم فرق كثيرة ، يكفر بعضهم بعضا . وإنما أتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها ، ولم تحكم أولا شروط الأدلة ومنهاجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلا ، والدليل شبهة

وأما الفرقة المحقة ، فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور ، وأفضل القربات فى دين الله ، وزعمت أنه لا يتم لأحد دينه مالم يفحص ويبحث ، وأن من صدق الله ورسوله من غير بحث وتحرير دليل فليس بمؤمن ، أو ليس كامل الإيمان، ولا مقرب عند الله . فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها فى تعلم الجدل ، والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم، حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة ، وأحدهم يظن أن اشتغاله بالجدل أولى وأقرب عند الله وأفضل ،ولكنه لالتذاذه بالغلبة ، والإفحام ، ولذة الرياسة ، وعز الإنتماء إلى الذب عن دين الله تعالى ، عميت بصيرته فلم يلتفت إلى القرن الأوّل . فإن النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بأنهم خير الخلق ، وأنهم قد أدركوا كثيرا من أهل البدع والهوى ، فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضا للخصومات والمجادلات ،وما اشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم .بل لم يتكلموا فيه إلا من حيث رأوا حاجة ، وتوسموا مخايل قبول ، فذكروا بقدر الحاجة مايدل الضال على ضلالته وإذا رأوا مصرا على ضلالة هجروه وأعرضوا عنه ، وأبغضوه فى الله ، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر . بل قالوا إن الحق هو الدعوة إلى السنة ، ومن السنة ترك الجدل فى الدعوة إلى السنة . إذ روى أبو إمامة الباهلى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « مَاضَلَّ قَوْمٌ قَطُّ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ » [2] وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون ، فغضب عليهم حتى كأنه فقىء فى وجهه حب

---

(١) حديث ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الأأوتوا الجدل: تقدم فى العلم وفى آفات اللسان

(٢) حديث خرج يوما على أصحابه وهم يجادلون ويختصمون فغضب حتى كأنه فقىء فى وجهه حب الرمان الحديث : تقدم

الرمان من الغضب ، فقال « أَلِهَذَا بُعِثْتُمْ أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ انْظُرُوا إِلَى مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا وَمَا نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فقد زجرهم عن ذلك ، وكانوا أولى خلق الله بالحجاج والجدال . ثم إنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بعث إلى كافة أهل الملل ، فلم يقعد معهم فى مجلس مجادلة لإلزام، وإفحام ، وتحقيق حجة ودفع سؤال، وإيراد إلزام . فما جادلهم إلا بتلاوة القرءان المنزل عليهم . ولم يزد فى المجادلة عليه لان ذلك يشوش القلب ، ويستخرج منها الإشكالات والشبه ثم لا يقدر على محوها من قلوبهم . وما كان يعجز عن مجادلتهم بالتقسيمات ودقائق الأقيسة ، وأن يعلم أصحابه كيفية الجدل والإلزام . ولكن الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا ، وقالوا لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتهم ، ولو نجونا وهلكوا لم يضرنا هلاكهم ، وليس علينا فى المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهود ، والنصارى ، وأهل الملل ، وماضيعوا العمر بتحرير مجادلاتهم ، فما لنا نضيع العمر ولا نصرفه إلى ماينفعنا فى يوم فقرنا وفاقتنا ؟ ولم نخوض فيما لا نأمن على أنفسنا الخطأ فى تفاصيله ؟ ثم نرى أن المبتدع ليس يترك بدعته بجداله. بل يزيده التعصب والخصومة تشددا فى بدعته .فاشتغالى بمخاصمة نفسى ومجادلتها ، ومجاهدتها لتترك الدنيا للآخرة أولى . هذا لو كنت لم أنه عن الجدل والخصومة ، فكيف وقد نهيت عنه! وكيف أدعو إلى السنة بترك السنة ! فالأولى أن أتفقد نفسى ، وأنظر من صفاتها مايبغضه الله تعالى وما يحبه ، لأتنزه عما يبغضه وأتمسك بما يحبه

وفرقة أخرى اشتغلوا بالوعظ والتذكير . وأعلاهم رتبة من يتكلم فى أخلاق النفس وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والزهد ، واليقين والإخلاص ، والصدق ونظائره ، وهم مغرورون ، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ، ودعوا الخلق إليها ، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات ، وهم منفكون عنها عند الله ، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين . وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب ، ويظنون أنهم ماتبحروا فى علم المحبة إلا وهم محبون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الاخلاص إلا وهم مخلصون ، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلا وهم عنها منزهون . ولولا أنه مقرب عند الله لما عرفه معنى القرب ،والبعد ، وعلم السلوك

إلى الله ، وكيفية قطع المنازل فى طريق الله . فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين وهو آمن من الله تعالى، ويرى أنه من الراجين وهو من المغترين المضيعين ، ويرى أنه من الراضين بقضاء الله وهو من الساخطين ، ويرى أنه من المتوكلين على الله وهو من المتكلين على العز ، والجاه ، والمال ؛ والأسباب ، ويرى أنه من المخلصين وهو من المرائين . بل يصف الإخلاص فيترك الإخلاص فى الوصف ، ويصف الرياء ويذكره وهو يرائى بذكره ، ليعتقد فيه أنه لولا أنه مخلص لما اهتدى إلى دقائق الرياء ، ويصف الزهد فى الدنيا لشدة حرصه على الدنيا وقوة رغبته فيها . فهو يظهر الدعاء إلى الله وهو منه فار ، ويخوف بالله تعالى وهو منه آمن ، ويذكر بالله تعالى وهو له ناس ، ويقرب إلى الله وهو منه متباعد ، ويحث على الإخلاص وهو غير مخلص ، ويذم الصفات المذمومة وهو بها متصف ، ويصرف الناس عن الخلق وهو على الخلق أشد حرصا ، لو منع عن مجلسه الذى يدعو الناس فيه إلى الله لضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ويزعم أن غرضه إصلاح الخلق . ولو ظهر من أقرانه من أقبل الخلق عليه ، وصلحوا على يديه ، لمات غما وحسدا . ولو أثنى أحد من المترددين إليه على بعض أقرانه لكان أبغض خلق الله إليه . فهؤلاء أعظم الناس غرة ، وأبعدهم عن التنبه والرجوع إلى السداد ، لأن المرغب فى الأخلاق المحمودة ، والمنفر عن المذمومة ، هو العلم بغوائلها وفوائدها ، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه ، وشغله حب دعوة الخلق عن العمل به ، فبعد ذلك بماذا يعالج ، وكيف سبيل تخويفه؟ وإنما المخوف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف

نعم : إن ظن نفسه أنه موصوف بهذه الصفات المحمودة ، يمكن أن يدل على طريق الامتحان والتجربة ، وهو أن يدعى مثلا حب الله ، فما الذى تركه من محاب نفسه لأجله ؟ ويدعى الخوف ، فما الذى امتنع منه بالخوف ؟ ويدعى الزهد ، فما الذى تركه مع القدرة عليه لوجه الله تعالى ؟ ويدعى الأنس بالله ، فمتى طابت له الخلوة ؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق لا بل يرى قلبه يمتلىء بالحلاوة إذا أحدق به المريدون . وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى . فهل رأيت محبا يستوحش من محبوبه ، ويستروح منه إلى غيره ؟

فالأكياس يمتحنون أنفسهم بهذه الصفات ، ويطالبونها بالحقيقة ، ولا يقنعون منها

بالتزويق ، بل بموثق من الله غليظ . والمغترون يحسنون بأنفسهم الظنون ، وإذا كشف الغطاء عنهم فى الآخرة يفتضحون ، بل يطرحون فى النار فتندلق أقتابهم ،فيدور بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى ، كما ورد به الخبر، لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونه، وينهون عن الشر ويأتونه

وإنما وقع الغرور لهؤلاء من حيث إنهم يصادفون فى قلوبهم شيئا ضعيفا من أصول هذه المعانى ، وهو حب الله ، والخوف منه ، والرضا بفعله ، ثم قدروا مع ذلك على وصف المنازل العالية فى هذه المعانى ، فظنوا أنهم ماقدروا على وصف ذلك ، وما رزقهم الله علمه ، وما نفع الناس بكلامهم فيها ، إلا لاتصافهم بها . وذهب عليهم أن القبول للكلام ، والكلام للمعرفة ، وجريان اللسان والمعرفة للعلم ، وأن كل ذلك غير الاتصاف بالصفة . فلم يفارق آحاد المسلمين فى الاتصاف بصفة الحب والخوف ، بل فى القدرة على الوصف . بل ربما زاد أمنه ، وقل خوفه ، وظهر إلى الخلق ميله ، وضعف فى قلبه حب الله تعالى . وإنما مثاله مثال مريض يصف المرض ، ويصف دواءه بفصاحته ويصف الصحة والشفاء ، وغيره من المرضى لايقدر على وصف الصحة والشفاء ، وأسبابه ودرجاته وأصنافه ، فهو لايفارقهم فى صفة المرض والاتصاف به ، وإنما يفارقهم فى الوصف والعلم بالطب فظنه عند علمه بحقيقة الصحة أنه صحيح غاية الجهل . فكذلك العلم بالخوف ، والحب ، والتوكل ، والزهد ، وسائر هذه الصفات ، غير الاتصاف بحقائقها . ومن التبس عليه وصف الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور . فهذه حالة الوعاظ الذين لاعيب فى كلامهم ، بل منهاج وعظهم منهاج وعظ القرءان والأخبار ، ووعظ الحسن البصرى وأمثاله رحمة الله عليهم

وفرقة أخرى منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ أهل هذا الزمان كافة ، إلا من عصمه الله على الندور فى بعض أطراف البلاد إن كان ، ولسنا نعرفه ،فاشتغلوا بالطامات والشطح ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، طلبا للإغراب وطائفة شغفوا بطيارات النكت ، وتسجيع الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم بالإسجاع ، والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق ، وغرضهم أن تكثر فى مجالسهم الزعقات والتواجد ولو على أغراض فاسدة . فهؤلاء شياطين الإنس ، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل . فإن الأولين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء

فإنهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ، فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصى ، ورغبة فى الدنيا ، لاسيما إذا كان الواعظ متزينا بالثياب ، والخيل ، والمراكب ، فإنه تشهد هيئته من فرقه إلى قدمه بشدة حرصه على الدنيا ، فما يفسده هذا المغرور أكثر مما يصلحه ، بل لا يصلح أصلا ، ويضل خلقا كثيرا . ولا يخفى وجه كونه مغرورا

وفرقة أخرى منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم فى ذم الدنيا ، فهم يحفظون الكلمات على وجهها ، ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها . فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم فى المحاريب ، وبعضهم فى الأسواق مع الجلساء . وكل منهم يظن أنه إذا تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم ، فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفورا له ، وأمن عقاب الله ، من غير أن يحفظ ظاهره وباطنه عن الآثام ، ولكنه يظن أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

وفرقة أخرى . استغرقوا أوقاتهم فى علم الحديث ، أعنى فى سماعه ، وجمع الروايات الكثيرة منه ، وطلب الأسانيد الغريبة العالية . فهمة أحدهم أن يدور فى البلاد ويرى الشيوخ ليقول أنا أروى عن فلان ، ولقد رأيت فلانا ، ومعى من الأسناد ما ليس مع غيرى وغرورهم من وجوه

منها أنهم كحملة الأسفار ، فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معانى السنة ، فعلمهم قاصر وليس معهم إلا النقل ، ويظنون أن ذلك يكفيهم . ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها ، وقد يفهمون بعضها أيضا ولا يعملون به

ومنها أنهم يتركون العلم الذى هو فرض عين ، وهو معرفة علاج القلب ، ويشتغلون بتكثير الأسانيد ، وطلب العالى منها ، ولا حاجة بهم إلى شىء من ذلك

ومنها وهو الذى أكب عليه أهل الزمان ، أنهم أيضا لا يقيمون بشرط السماع ، فإن السماع بمجرده وإن لم تكن له فائدة ، ولكنه مهم فى نفسه للوصول إلى إثبات الحديث ، إذ التفهم بعد الإثبات ، والعمل بعد التفهم . فالأول السماع ، ثم التفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر . وهؤلاء اقتصروا من الجملة على السماع ، ثم تركوا حقيقة السماع ، فترى الصبى يحضر فى مجلس الشيخ ، والحديث يقرأ ، والشيخ ينام والصبى يلعب ، ثم يكتب اسم الصبى فى السماع ، فإذا كبر تصدى ليسمع منه . والبالغ الذى يحضر ربما يغفل ولا يسمع ،

ولا يصغى، ولا يضبط، وربما يشتغل بحديث أو نسخ . والشيخ الذى يقرأ عليه لو صحف وغيّر مايقرأ عليه لم يشعر به ، ولم يعرفه وكل ذلك جهل وغرور إذ الأصل فى الحديث أن يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيحفظه كما سمعه ، ويرويه كما حفظه. فتكون الرواية عن الحفظ ، والحفظ عن السماع ، فإن عجزت عن سماعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سمعته من الصحابة أو التابعين ، وصار سماعك عن الراوى كسماع من سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أن تصغى لتسمع . فتحفظ وتروى كما حفظت ، وتحفظ كما سمعت بحيث لاتغير منه حرفا . ولو غير غيرك منه حرفا وأخطأ علمت خطأه

ولحفظك طريقان : أحدهما أن تحفظ بالقلب ، وتستديمه بالذكر والتكرار ، كما تحفظ ماجرى على سمعك فى مجارى الأحوال . والثانى أن تكتب كما تسمع وتصحح المكتوب وتحفظه ، حتى لاتصل إليه يد من يغيره ، ويكون حفظك للكتاب معك وفى خزانتك فإنه لو امتدت إليه يد غيرك ربما غيره . فإذا لم تحفظه لم تشعر بتغييره . فيكون محفوظا بقلبك أو بكتابك ، فيكون كتابك مذكرا لما سمعته ، وتأمن فيه من التغيير والتحريف . فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب ، وجرى على سمعك صوت غفل ، وفارقت المجلس، ثم رأيت نسخة لذلك الشيخ ، وجوزت أن يكون مافيه مغيرا ، أو يفارق حرف منه للنسخة التى سمعتها لم يجز لك أن تقول سمعت هذا الكتاب . فإنك لاتدرى لعلك لم تسمع مافيه ، بل سمعت شيئا يخالف مافيه ولو فى كلمة . فإذا لم يكن معك حفظ بقلبك ، ولا نسخة صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها ، فمن أين تعلم أنك سمعت ذلك ؟ وقد قال الله تعالى (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ[1]) وقول الشيوخ كلهم فى هذا الزمان: إنا سمعنا مافى هذا الكتاب، إذا لم يوجد الشرط الذى ذكرناه ، فهو كذب صريح . وأقل شروط السماع أن يجرى الجميع على السمع، مع نوع من الحفظ يشعر معه بالتغيير . ولو جاز أن يكتب سماع الصبى ، والغافل، والنائم ، والذى ينسخ . لجاز أن يكتب سماع المجنون ، والصبى فى المهد . ثم إذا بلغ الصبى ، وأفاق المجنون ، يسمع عليه . ولا خلاف فى عدم جوازه . ولو جاز ذلك لجاز أن يكتب سماع الجنين فى البطن فإن كان لا يكتب سماع الصبى فى المهد ، لأنه لا يفهم ولا يحفظ ، فالصبى الذى يلعب ،

(١) الاسراء : ٣٦

والغافل، والمشغول بالنسخ عن السماع ليس يفهم ولا يحفظ . وإن استجرأ جاهل فقال يكتب سماع الصبي في المهد ، فليكتب سماع الجنين في البطن ؛ فإن فرق بينهما بأن الجنين لا يسمع الصوت ، وهذا يسمع الصوت ، فما ينفع هذا وهو إنما ينقل الحديث دون الصوت؟ فليقتصر إذ صار شيخا على أن يقول : سمعت بعد بلوغي أني في صباي حضرت مجلسا يروى فيه حديث، كان يقرع سمعي صوته ، ولا أدرى ماهو . فلا خلاف في أن الرواية كذلك لا تصح . وما زاد عليه فهو كذب صريح . ولو جاز إثبات سماع التركى الذى لا يفهم العربية لأنه سمع صوتا غفلا ، لجاز إثبات سماع صبى في المهد ، وذلك غاية الجهل . ومن أين يؤخذ هذا ؟ وهل للسماع مستند إلا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا » وكيف يؤدى كما سمع من لا يدرى ماسمع؟

فهذا أفحش أنواع الغرور . وقد بلي بهذا أهل الزمان . ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخا إلا الذين سمعوه في الصبا على هذا الوجه مع الغفلة . إلا أن للمحدثين في ذلك جاها وقبولا ، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك ، فيقل من يجتمع لذلك في حلقهم ، فينقص جاههم ، وتقل أيضا أحاديثهم التي قد سمعوها بهذا الشرط ، بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا فاصطلحوا على أنه ليس يشترط إلا أن يقرع سمعه دمدمة ، وإن كان لا يدرى ما يجرى . وصحة السماع لا تعرف من قول المحدثين ، لأنه ليس من علمهم ، بل من علم علماء الأصول بالفقه وما ذكرناه مقطوع به في قوانين أصول الفقه . فهذا غرور هؤلاء . ولو سمعوا على الشرط لكانوا أيضا مغرورين في اقتصارهم على النقل ، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد وإعراضهم عن مهمات الدين ، ومعرفة معانى الأخبار . بل الذى يقصد من الحديث سلوك طريق الآخرة ، ربما يكفيه الحديث الواحد عمره ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه حضر

---

(١) حديث نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ـ الحديث : أصحاب السنن وابن حبان من حديث زيد بن ثابت والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود قال الترمذي حديث حسن صحيح وابن ماجه فقط من حديث جبير بن مطعم وأنس

مجلس السماع ، فكان أول حديث روى قوله عليه الصلاة والسلام [1] « مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَالاَ يَعْنِيهِ » فقام وقال : يكفينى هذا حتى أفرغ منه ثم أسمع غيره . فهكذا يكون سماع الأكياس الذين يحذرون الغرور .

وفرقه أخرى اشتغلوا بعلم النحو ، واللغة ، والشعر ، وغريب اللغة ، واغتروا به ، وزعموا أنهم قد غفر لهم ، وأنهم من علماء الأمة . إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو . فأفنى هؤلاء أعمارهم فى دقائق النحو ، وفى صناعة الشعر ، وفى غريب اللغة . ومثالهم كمن يفنى جميع العمر فى تعلم الخط ، وتصحيح الحروف وتحسينها ، ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة ، فلابد من تعلمها وتصحيحها . ولو عقل لعلم أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط ، بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان ، والباقى زيادة على الكفاية . وكذلك الأديب لو عقل لعرف أن لغة العرب كلغة الترك ، والمضيع عمره فى معرفة لغة العرب كالمضيع له فى معرفة لغة الترك والهند . وإنما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها ، فيكفى من اللغة علم الغريبين فى الأحاديث والكتاب ، ومن النحو ما يتعلق بالحديث والكتاب . فأما التعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فهو فضول مستغنى عنه . ثم لو اقتصر عليه ، وأعرض عن معرفة معانى الشريعة والعمل بها ، فهذا أيضا مغرور . بل مثاله مثال من ضيع عمره فى تصحيح مخارج الحروف فى القرءان ، واقتصر عليه ، وهو غرور ، إذ المقصود من الحروف المعانى ، وإنما الحروف ظروف وأدوات . ومن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين ليزول ما به من الصفراء ، وضيع أوقاته فى تحسين القدح الذى يشرب فيه السكنجبين ، فهو من الجهال المغرورين . فكذلك غرور أهل النحو ، واللغة ، والأدب ، والقراآت ، والتدقيق فى مخارج الحروف ، مهما تعمقوا فيها ، وتجردوا لها ، وعرجوا عليها أكثر مما يحتاج إليه فى تعلم العلوم التى هى فرض عين . فاللب الأقصى هو العمل . والذى فوقه هو معرفة العمل ، وهو كالقشر للعمل ، وكاللب بالإضافة إلى ما فوقه وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية . وهو قشر بطريق

---

(١) حديث من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه الترمذى : وقال غريب وابن ماجه من حديث أبى هريرة وهو عند مالك من رواية على بن الحسين مرسلا وقد تقدم

الإضافة إلى المعرفة ، ولب بالإضافة إلى مافوقه . وما فوقه هو العلم باللغة والنحو . وفوق ذلك وهو القشر الأعلى، العلم بمخارج الحروف. والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل ، فلم يعرج عليها إلا بقدر حاجته ، فتجاوز إلى ماوراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل ، فطالب بحقيقة العمل قلبه وجوارحه ، ورجى عمره فى حمل النفس عليه ، وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات ، فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع ، وسائر العلوم خدم له ، ووسائل إليه ، وقشور له ، ومنازل بالإضافة إليه وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب ، سواء كان فى المنزل القريب أو فى المنزل البعيد

وهذه العلوم لما كانت متعلقة بعلوم الشرع، اغترّ بها أربابها . فأما علم الطب، والحساب والصناعات ، وما يعلم أنه ليس من علوم الشرع ، فلا يعتقد أصحابها أنهم ينالون المغفرة بها من حيث إنها علوم فكان الغرور بها أقل من الغرور بعلوم الشرع . لأن العلوم الشرعية مشتركة فى أنها محمودة ، كما يشارك القشر اللب فى كونه محمودا . ولكن المحمود منه لعينه هو المنتهى ، والثانى محمود للوصول به إلى المقصود الأقصى : فمن اتخذ القشر مقصودا ، وعرج عليه ، فقد اغترّ به . وفرقة أخرى :عظم غرورهم فى فن الفقه، فظنوا أن حكم العبد بينه وبين الله يتبع حكمه فى مجلس القضاء ، فوضعوا الحيل فى دفع الحقوق ،وأساؤا تأويل الألفاظ المبهمة ، واغتروا بالظواهر وأخطؤا فيها . وهذا من قبيل الخطأ فى الفتوى والغرور فيه . والخطأ فى الفتاوى مما يكثر ، ولكن هذا نوع عم الكافة إلا الأكياس منهم ، فنشير إلى أمثلة . فمن ذلك فتواهم بأن المرأة متى أبرأت من الصداق برىء الزوج بينه وبين الله تعالى . وذلك خطأ . بل الزوج قد يسىء إلى الزوجة بحيث يضيق عليها الأمور بسوء الخلق ، فتضطر إلى طلب الخلاص ، فتبرىء الزوج لتتخلص منه ، فهو إبراء لاعن طيبة نفس . وقد قال تعالى (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا [1])وطيبة النفس غير طيبة القلب . فقد يريد الإنسان بقلبه مالاتطيب به نفسه . فإنه يريد الحجامة بقلبه ، ولكن تكرهها نفسه . وإنما طيبة النفس أن تسمح نفسها بالإبراء لاعن ضرورة تقابله ، حتى إذا رددت بين ضررين اختارت أهونهما . فهذه مصادرة على التحقيق بإكراه

(١) النساء : ٤

الباطن . نعم :القاضى فى الدنيا لايطلع على القلوب والأغراض ، فينظر إلى الإبراء الظاهر وأنها لم تكره بسبب ظاهر . والإكراه الباطن ليس يطلع الخلق عليه ولكن مهما تصدى القاضى الأكبر فى صعيد القيامة للقضاء ، لم يكن هذا محسوبا ولا مفيدا فى تحصيل الإبراء.

ولذلك لايحل أن يؤخذ مال إنسان إلا بطيب نفس منه . فلو طلب من الإنسان مالا على ملأ من الناس ، فاستحيا من الناس أن لا يعطيه ، وكان يود أن يكون سؤاله فى خلوة حتى لايعطيه ، ولكن خاف ألم مذمة الناس ، وخاف ألم تسليم المال ، وردد نفسه بينهما فاختار أهون الألمين وهو ألم التسليم فسلمه ، فلا فرق بين هذا وبين المصادرة . إذ معنى المصادرة إيلام البدن بالصوت ، حتى يصير ذلك أقوى من ألم القلب ببذل المال ، فيختار أهون الألمين . والسؤال فى مظنة الحياء والرياء ضرب للقلب بالسوط. ولافرق بين ضرب الباطن وضرب الظاهر عند الله تعالى ، فإن الباطن عند الله تعالى ظاهر . وإنما حاكم الدنيا هو الذى يحكم بالملك بظاهر قوله وهبت ، لأنه لايمكنه الوقوف على مافى القلب

وكذلك من يعطى اتقاء لشر لسانه ، أو لشر سعايته ، فهو حرام عليه

وكذلك كل مال يؤخذ على هذا الوجه فهو حرام . ألا ترى ماجاء فى قصة داود عليه السلام حيث قال بعد أن غفر له : يارب ، كيف لى بخصمى فأمر بالاستحلال منه ، وكان ميتا ، فأمر بندائه فى صخرة بيت المقدس ، فنادى ياأوريا ، فأجابه لبيك يانبى الله ، أخرجتنى من الجنة ، فماذا تريد ؟ فقال إنى أسأت إليك فى أمر فهبه لى . قال قد فعلت ذلك يانبى الله . فانصرف وقد ركن إلى ذلك ، فقال له جبريل عليه السلام : هل ذكرت له مافعلت؟ قال لا قال فارجع فبين له . فرجع فناداه فقال : لبيك يانبى الله ، فقال إنى أذنبت إليك ذنبا ، قال ألم أهبه لك ؟ قال ألا تسألنى ماذلك الذنب ؟ قال ماهو يانبى الله ؟ قال كذا وكذا ، وذكر شأن المرأة . فانقطع الجواب . فقال ياأوريا ، ألا تجيبنى ؟قال يانبي الله ماهكذا يفعل الأنبياء حتى أقف معك بين يدى الله . فاستقبل داود البكاء والصراخ من الرأس ، حتى وعده الله أن يستوهبه منه فى الآخرة . فهذا ينبهك أن الهبة من غير طيبة قلب لاتفيد ، وأن طيبة القلب لاتحصل إلا بالمعرفة . فكذلك طيبة القلب لاتكون فى الإبراء والهبة وغيرهما ، إلا إذا خلى الإنسان واختياره ، حتى تنبعث الدواعى من ذات نفسه ، لاأن تضطر بواعثه

إلى الحركة بالحيل والإلزام . ومن ذلك هبة الرجل مال الزكاة في آخر الحول من زوجته واتهابه مالها ، لإسقاط الزكاة . فالفقيه يقول سقطت الزكاة . فإن أراد به أن مطالبة السلطان والساعي سقطت عنه ، فقد صدق . فإن مطمح نظرهم ظاهر الملك وقد زال . وإن ظن أنه يسلم في القيامة، ويكون كمن لم يملك المال ، أو كمن باع لحاجته إلى البيع لا على هذا القصد، فما أعظم جهله بفقه الدين وسر الزكاة ! فإن سر الزكاة تطهير القلب عن رذيلة البخل ، فإن البخل مهلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ شُحٌّ مُطَاعٌ » وإنما صار شحه مطاعا بما فعله، وقبله لم يكن مطاعا ، فقد تم هلاكه بما يظن أن فيه خلاصه ، فإن الله مطلع على قلبه ، وحبه المال، وحرصه عليه ، وأنه بلغ من حرصه على المال أن استنبط الحيل ، حتى يسد على نفسه طريق الخلاص من البخل بالجهل والغرور . ومن ذلك إباحة الله مال المصالح للفقيه وغيره بقدر الحاجة . والفقهاء المغرورون لا يميزون بين الأماني والفضول والشهوات، وبين الحاجات. بل كل ما لا تتم رعونتهم إلا به يرونه حاجة ، وهو محض الغرور . بل الدنيا خلقت لحاجة العباد إليها في العبادة ، وسلوك طريق الآخرة فكل ما تناوله العبد للاستعانة به على الدين والعبادة فهو حاجته. وما عدا ذلك، فهو فضوله وشهوته. ولو ذهبنا نصف غرور الفقهاء في أمثال هذا لملأنا فيه مجلدات. والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تعرف الأجناس دون الاستيعاب فإن ذلك يطول

الصنف الثاني : أرباب العبادة والعمل . والمغرورون منهم فرق كثيرة . فمنهم من غروره في الصلاة، ومنهم من غروره في تلاوة القرآن ، ومنهم في الحج، ومنهم في الغزو ، ومنهم في الزهد وكذلك كل مشغول بمنهج من مناهج العمل فليس خاليا عن غرور إلا الأكياس وقليل ما هم

فمنهم فرقة : أهملوا الفرائض ، واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ، ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وربما أكل الحرام المحض . ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام ، لكان أشبه بسيرة الصحابة : إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية ، مع ظهور احتمال النجاسة . وكان مع هذا يدع

---

(١) حديث ثلاث مهلكات ـ الحديث : تقدم غير مرة .

أبوابا من الحلال ، مخافة من الوقوع فى الحرام . ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف فى صب الماء ، وذلك منهى عنه [1] وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها وإن لم يخرجها أيضا عن وقتها فهو مغرور ، لما فاته من فضيلة أوّل الوقت . وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه فى الماء . وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذى هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه ، إلا أن الشيطان يصد الخلق عن الله بطريق سنّى ، ولا يقدر على صد العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة ، فيبعدهم عن الله بمثل ذلك

وفرقة أخرى : غلب عليها الوسوسة فى نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة بل ، يشوش عليه حتى تفوته الجماعة ، ويخرج الصلاة عن الوقت . وإن تم تكبيره فيكون فى قلبه بعد تردد فى صحة نيته ، وقد يوسوسون فى التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الإحتياط فيه . يفعلون ذلك فى أول الصلاة ، ثم يغفلون فى جميع الصلاة ، فلا يحضرون قلوبهم ، ويغترون بذلك ، ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم فى تصحيح النية فى أوّل الصلاة ، وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط ، فهم على خير عند ربهم.

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها ، فلا يزال يحتاط فى التشديدات ، والفرق بين الضاد والظاء ، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته ، لا يهمه غيره ، ولا يتفكر فيما سواه ، ذاهلا عن معنى القرءان والاتعاظ به ، وصرف الفهم إلى أسراره وهذا من أقبح أنواع الغرور . فإنه لم يكلف الخلق فى تلاوة القرءان من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم فى الكلام ، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان ، وأمر أن يؤديها على وجهها ، فأخذ يؤدى الرسالة ويتأنق فى مخارج الحروف ، ويكررها ويعيدها مرة بعد أخرى ، وهو فى ذلك غافل عن مقصود الرسالة ، ومراعاة حرمة المجلس ، فما أحراه بأن تقام عليه السياسة ، ويرد إلى دار المجانين ، ويحكم عليه بفقد العقل . وفرقة أخرى : اغتروا بقراءة القرءان فيهذونه هذّا ، وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرة ، ولسان أحدهم يجرى به ، وقلبه يتردد فى أودية الأمانى إذ لا يتفكر فى معانى القرءان لينزجر بزواجره ، ويتعظ بمواعظه ، ويقف عند أوامره

---

(١) حديث النهى عن الاسراف فى الوضوء : الترمذى وضعفه وابن ماجه من حديث أبى بن كعب ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان ـ الحديث : وتقدم فى عجائب القلب

ونواهيه ، ويعتبر بمواضع الإعتبار فيه ، إلى غير ذلك مما ذكرناه فى كتاب تلاوة القرءان من مقاصد التلاوة . فهو مغرور ، يظن أن المقصود من إنزال القرءان الهمهمة به مع الغفلة عنه . ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاه ومالكه كتابا ، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهى ، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به ولكن إقتصر على حفظه ، فهو مستمر على خلاف ماأمره به مولاه ، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مائة مرة . فهو مستحق للعقوبة . ومهما ظن أن ذلك هو المراد منه ، فهو مغرور

نعم : تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى ، بل لحفظه ، وحفظه يراد لمعناه ، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ، ويغتر باستلذاذه ، ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه ، وإنما هى لذته فى صوته . ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ، ذلك الإلتذاذ . فهو مغرور ، إذا لم يتفقد قلبه ، فيعرفه أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه ، أو بصوته . وفرقة أخرى . اغتروا بالصوم ، وربما صاموا الدهر ، أو صاموا الأيام الشريفة ، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة ، وخواطرهم عن الرياء ، وبطونهم عن الحرام عند الإفطار ، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير ، فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور

وفرقة أخرى : اغتروا بالحج ، فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون ، واسترضاء الوالدين ، وطلب الزاد الحلال . وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ، ويضيعون فى الطريق الصلاة والفرائض ، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ، ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون فى الطريق من الرفث والخصام . وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء فى الطريق ، وهو يطلب به السمعة والرياء ، فيعصى الله تعالى فى كسب الحرام أولا ، وفى إنفاقه بالرياء ثانيا . فلا هو أخذه من حله ، ولا هو وضعه فى حقه . ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق ، وذميم الصفات ، لم يقدم تطهيره على حضوره ، وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه ، فهو مغرور

وفرقة أخرى أخذت فى طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ينكر على الناس ، ويأمرهم بالخير ، وينسى نفسه . وإذا أمرهم بالخير عنف ، وطلب الرياسة والعزة .

وإذا باشر منكرا ورد عليه غضب وقال : أنا المحتسب ، فكيف تنكر على او قد يجمع الناس إلى مسجده ، ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه ، وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه . بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ، ولو جاء غيره وأذن فى وقت غيبته قامت عليه القيامة ، وقال لم آخذ حقى ، وزوحمت على مرتبتى . وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ، ويظن أنه على خير ، وإنما غرضه أن يقال إنه إمام المسجد ، فلو تقدم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه .

وفرقة أخرى: جاوروا بمكة أو المدينة ، واغتروا بمكة ، ولم يراقبوا قلوبهم ، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم ، فقلوبهم معلقة ببلادهم ، ملتفتة إلى قول من يعرفه إن فلانا مجاور بذلك وتراه يتحدث ويقول : قد جاورت بمكة كذا كذا سنة . وإذا سمع أن ذلك قبيح ، ترك صريح التحدى ، وأحب أن يعرفه الناس بذلك . ثم إنه قد يجاور ، ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس ، وإذا جمع من ذلك شيئا شح به وأمسكه ، ولم تسمح نفسه بلقمة يتصدق بها على فقير ، فيظهر فيه الرياء ، والبخل ، والطمع ، وجملة من المهلكات كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة . ولكن حب المحمدة ، وأن يقال إنه من المجاورين ، ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل . فهو أيضا مغرور . وما من عمل من الأعمال ، وعبادة من العبادات ، إلا وفيها آفات . فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمد عليها ، فهو مغرور . ولا يعرف شرح ذلك إلا من جملة كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف مداخل الغرور فى الصلاة من كتاب الصلاة ، وفى الحج من كتاب الحج ، والزكاة والتلاوة وسائر القربات من الكتب التى رتبناها فيها وإنما الغرض الآن الإشارة إلى مجامع ماسبق فى الكتب . وفرقة أخرى : زهدت فى المال ، وقنعت من اللباس والطعام بالدون ، ومن المسكن بالمساجد ، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد . وهو مع ذلك راغب فى الرياسة والجاه ، إما بالعلم أو بالوعظ ، أو بمجرد الزهد ، فقد ترك أهون الأمرين ، وباء بأعظم المهلكين . فإن الجاه أعظم من المال ، ولو ترك الجاه وأخذ المال كان إلى السلامة أقرب . فهذا مغرور ، إذ ظن أنه من الزهاد فى الدنيا ، وهو لم يفهم معنى الدنيا ، ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة ، وأن الراغب فيها لابد وأن يكون منافقا ، وحسودا ، ومتكبرا ، ومرائيا ومتصفا بجميع خبائث الأخلاق . نعم : وقد يترك

الرياسة ، ويؤثر الخلوة والعزلة ، وهو مع ذلك مغرور ، إذ يتطاول بذلك على الأغنياء ، ويخشن معهم الكلام ، وينظر إليهم بعين الاستحقار ، ، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، ويعجب بعمله ، ويتصف بجملة من خبائث القلوب وهو لايدرى . وربما يعطى المال فلايأخذه ، خيفة من أن يقال بطل زهده . ولو قيل له إنه حلال نخذه فى الظاهر ورده فى الخفية ، لم تسمح به نفسه ، خوفا من ذم الناس . فهو راغب فى حمد الناس ، وهو من ألذ أبواب الدنيا ، ويرى نفسه أنه زاهد فى الدنيا ، وهو مغرور . ومع ذلك فربما لايخلو من توقير الأغنياء ، وتقديمهم على الفقراء ، والميل إلى المريدين له ، والمثنين عليه ، والنفرة عن المائلين إلى غيره من الزهاد . وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان ، نعوذ بالله منه

وفى العباد من يشدّد على نفسه فى أعمال الجوارح ، حتى ربما يصلى فى اليوم والليلة مثلا ألف ركعة ، ويختم القرءان ، وهو فى جميع ذلك لايخطر له مراعاة القلب وتفقده وتطهيره من الرياء ، والكبر ، والعجب ، وسائر المهلكات ، فلا يدرى أن ذلك مهلك وإن علم ذلك فلايظن بنفسه ذلك ، وإن ظن بنفسه ذلك توهم أنه مغفور له لعمله الظاهر ، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب وإن توهم فيظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته ، وهيهات . وذرة من ذى تقوى ، وخلق واحد من أخلاق الأكياس ، أفضل من أمثال الجبال عملا بالجوارح . ثم لايخلو هذا المغرور مع سوء خلقه مع الناس ؛ وخشونته ، وتلوث باطنه ، عن الرياء وحب الثناء . فإذا قيل له أنت من أوتاد الأرض ، وأولياء الله وأحبابه فرح المغرور ، بذلك ، وصدق به ، وزاده ذلك غرورا ، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضيا عند الله ، ولا يدرى أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه

وفرقة أخرى : حرصت على النوافل ، ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى ، وبصلاة الليل ، وأمثال هذه النوافل ، ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها فى أول الوقت وينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه [1] « مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ » وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور . بل قد يتعين على الإنسان فرضان ، أحدهما يفوت والآخر لايفوت ،

---

(١) حديث ماتقرب المتقربون الى بمثل أداء ماافترضت عليهم : البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ ماتقرب الى عبدى

أو فضلان ، أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه، كان مغرورا ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى . فإن المعصية ظاهرة ، والطاعة ظاهرة . وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفايات ، وتقديم فرض كفاية لاقائم به على ماقام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مادونه ، وتقديم مايفوت على مالا يفوت . وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد ، إذ سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال « أُمَّكَ » قال ثم من ؟ قال «أُمَّكَ » قال ثم من؟ قال « أُمَّكَ » قال ثم من ؟ قال « أَبَاكَ » قال ثم من ؟ قال « أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ » فينبغى أن يبدأ فى الصلة بالأقرب . فإن استويا فبالأحوج ، فإن استويا فبالأتقى والأورع

وكذلك من لايفى ماله بنفقة الوالدين والحج ، فربما يحج وهو مغرور . بل ينبغى أن يقدم حقهما على الحج . وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة ، فالجمعة تفوت ، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية، وإن كان هو طاعة فى نفسه : وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة ، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك ، فالنجاسة محذورة ، وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لاتنحصر . ومن ترك الترتيب فى جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور فى غاية الغموض ، لأن المغرور فيه فى طاعة ، إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية ، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها

ومن جملته الاشتغال بالمذهب والخلاف من الفقه ، في حق من بقى عليه شغل من الطاعات والمعاصى الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بالجوارح ، والمتعلقة بالقلب ، لأن مقصود الفقه معرفة مايحتاج إليه غيره فى حوائجه ، فمعرفة مايحتاج هو إليه فى قلبه أولى به . إلا أن حب الرياسة

---

(١) حديث من أبر قال أمك ـ الحديث : الترمذى والحاكم وصححه من حديث زيد بن حكيم عن أبيه عن جده وقد تقدم فى آداب الصحبة

والجاه ، ولذة المباهاة وقهر الأقران والتقدم عليهم ، يعمى عليه ، حتى يغتر به مع نفسه ، ويظن أنه مشغول بهمّ دينه

الصنف الثالث :المتصوفة . وما أغلب الغرور عليهم ! والمغترون منهم فرق كثيرة

ففرقة منهم وهم متصوفة أهل الزمان إلاّ من عصمه الله ، اغتروا بالزى والهيئة والمنطق فساعدوا الصادقين من الصوفية فى زيهم وهيئتهم ، وفى ألفاظهم ، وفى آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم ، وفى أحوالهم الظاهرة فى السماع ، والرقص ، والطهارة ، والصلاة ، والجلوس على السجادات مع إطراق الرأس ، وإدخاله فى الجيب كالمتفكر ، وفى تنفس الصعداء ، وفى خفض الصوت فى الحديث إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات ، فلما تكلفوا هذه الأمور ، وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط فى المجاهدة ، والرياضة ، ومراقبة القلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية ، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف . ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم فى الصوفية . كيف ولم يحوموا قط حولها ، ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها ، بل يتكالبون على الحرام ، والشبهات وأموال السلاطين ، ويتنافسون فى الرغيف والفلس ، والحبة ، ويتحاسدون على النقير والقطمير ، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه فى شيء من غرضه ، وهؤلاء غرورهم ظاهر . ومثالهم مثال امرأة عجوز ، سمعت أن الشجعان والأبطال من المقاتلين ثبتت أسماؤهم فى الديوان ، ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة ، فتاقت نفسها إلى أن يقطع لها مملكة ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفرا ، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا وتعودت إيراد تلك الأبيات بنغماتهم حتى تيسرت عليها ، وتعلمت كيفية تبخترهم فى الميدان وكيف تحريكهم الأيدى ، وتلقفت جميع شمائلهم فى الزى ، والمنطق ، والحركات ، والسكنات ثم توجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها فى ديوان الشجعان . فلما وصلت إلى المعسكر أنفذت إلى ديوان العرض ، وأمر بأن تجرد عن المغفر والدرع وينظر ماتحته ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ، ليعرف قدر عنائها فى الشجاعة . فلما جردت عن المغفر والدرع ، فإذا هى عجوزة ضعيفة زمنة ، لاتطيق حمل الدرع والمغفر ، فقيل لها : أجئت للاستهزاء بالملك ، وللاستخفاف بأهل حضرته والتلبيس عليهم ؟ خذوها فألقوها قدام الفيل لسخفها . فألقيت

إلى الفيل . فهكذا يكون حال المدعين للتصوف فى القيامة ، إذا كشف عنهم الغطاء ، وعرضوا على القاضى الأكبر ، الذى لا ينظر إلى الزى والمرقع ، بل إلى سر القلب

وفرقة أخرى زادت على هؤلاء فى الغرور ، إذ شق عليها الاقتداء بهم فى بذاذة الثياب ، والرضا بالدون ، فأرادت أن تتظاهر بالتصوف ، ولم تجد بدا من التزين بزيهم ، فتركوا الحرير والإبريسم ، وطلبوا المرقعات النفيسة ، والفوط الرقيقة ، والسجادات المصبغة ، ولبسوا من الثياب ماهو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم ، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعا ، ونسى أنهم إنما لونوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد . فأما تقطيع الفوط الرقيقه قطعة قطعة ، وخياطة المرقعات منها ، فمن أين يشبه ما اعتادوه ؟ فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين ، فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة ويطلبون رغد العيش ؛ ويأكلون أموال السلاطين ، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلا عن الباطنة ، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير . وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق ، إذ يهلك من يقتدى بهم ، ومن لا يقتدى بهم تفسد عقيدته فى أهل التصوف كافة ، ويظن أن جميعهم كانوا من جنسه ، فيطول اللسان فى الصادقين منهم ، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم

وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ، ومشاهدة الحق ، ومجاوزة المقامات والأحوال ؛ والملازمة فى عين الشهود ، والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامى والألفاظ ، لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ، ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين ، وأصناف العلماء بعين الإزراء فضلا عن العوام ، حتى أن الفلاح ليترك فلاحته ، والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياما معدودة ، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة ، فيرددها كأنه يتكلم عن الوحى ، ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول فى العباد إنهم أجراء متعبون ويقول فى العلماء إنهم بالحديث عن الله محجوبون ، ويدعى لنفسه أنه الواصل إلى الحق ، وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى

الجاهلين ، لم يحكم قط علما ، ولم يهذب خلقا ، ولم يرتب عملا ، ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه

وفرقة أخرى وقعت فى الإباحة ، وطووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام ، وسووا بين الحلال والحرام . فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملى ، فلم أتعب نفسى ؟ وبعضهم يقول قد كلف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا ، وذلك محال ، فقد كلفوا مالا يمكن ، وإنما يغتر به من لم يجرب ، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما ، بل إنما كلفوا قلع مادتهما ، بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع . وبعضهم يقول : الأعمال بالجوارح لاوزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب ، وقلوبنا والهة بحب الله ، وواصلة إلى معرفة الله ، وإنما نخوض فى الدنيا بأبداننا ، وقلوبنا عاكفة فى الحضرة الربوبية ، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب . ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام ، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية ، وأن الشهوات لاتصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم السلام ، إذ كانت تصدهم عن طريق الله خطيئة واحدة ، حتى كانوا يبكون عليها وينوحون سنين متوالية . وأصناف غرور أهل الاباحة من المتشبهين بالصوفية لاتحصى . وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم ، ومن غير اقتداء بشيخ متقن فى الدين والعلم ، صالح للاقتداء به ، وإحصاء أصنافهم يطول . وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء ، واجتنبت الأعمال ، وطلبت الحلال ، واشتغلت بتفقد القلب ، وصار أحدهم يدعى المقامات من الزهد ، والتوكل ، والرضا ، والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات ، وشروطها وعلاماتها ، وآفاتها . فنهم من يدعى الوجد والحب لله تعالى ، ويزعم أنه واله بالله ، ولعله قد تخيل فى الله خيالات هى بدعة أو كفر ، فيدعى حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لايخلو عن مقارفة مايكره الله عز وجل ، وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله ، وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى ، وليس يدرى أن كل ذلك يناقض الحب

وبعضهم ربما يميل إلى القناعة والتوكل ، فيخوض البوادى من غير زاد ، ليصحح دعوى

التوكل ، وليس يدرى أن ذلك بدعة لم تنقل عن السلف والصحابة ،وقد كانوا أعرف بالتوكل منه ، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح وترك الزاد ، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد . وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب، واثق به . وما من مقام من المقامات المنجيات إلا وفيه غرور ، وقد اغتر به قوم . وقد ذكرنا مداخل الآفات فى ربع المنجيات من الكتاب ، فلا يمكن إعادتها

وفرقة أخرى ضيقت على نفسها فى أمر القوت، حتى طلبت منه الحلال الخالص ،وأهملوا تفقد القلب والجوارح فى غير هذه الخصلة الواحدة . ومنهم من أهمل الحلال فى مطعمه، وملبسه، ومسكنه ، وأخذ يتعمق فى غير ذلك ، وليس يدرى المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبده بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصى . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور

وفرقة أخرى ادعوا حسن الخلق ، والتواضع ، والسماحة ، فتصدوا لخدمة الصوفيه ، فجمعوا قوما وتكلفوا بخدمتهم،واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال .وإنما غرضهم التكبر، وهم يظهرون الخدمة والتواضع .وغرضهم الارتفاع ،وهم يظهرون أن غرضهم الإرفاق وغرضهم الاستتباع ، وهم يظهرون أن غرضهم الخدمة والتبعية . ثم إنهم يجمعون من الحرام والشبهات، وينفقون عليهم ،لتكثر أتباعهم ، وينشر بالخدمة اسمهم . وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ينفق عليهم وبعضهم يأخذها لينفق فى طريق الحج على الصوفية،ويزعم أن غرضه البر والإنفاق. وباعث جميعهم الرياء والسمعة . وآية ذلك إهمالهم لجميع أوامر الله تعالى عليهم ظاهرا وباطنا، ورضاهم بأخذ الحرام والإنفاق منه . ومثال من ينفق الحرام فى طريق الحج لإرادة الخير، كمن يعمر مساجد الله فيطينها بالعذرة ، ويزعم أن قصده العمارة

وفرقة أخرى اشتغلوا بالمجاهدة ، وتهذيب الأخلاق ، وتطهير النفس من عيوبها ، وصاروا يتعمقون فيها ، فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علما وحرفة ،فهم فى جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس ، واستنباط دقيق الكلام فى آفاتها فيقولون هذا فى النفس عيب ، والغفلة عن كونه عيبا عيب ، والالتفات إلى كونه عيبا عيب ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات فى تلفيقها . ومن جعل طول عمره فى التفتيش

عن عيوب وتحرير علم علاجها ، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج، فذلك لا يغنيه . وفرقة أخرى جاوزوا هذه الرتبة . وابتدؤا سلوك الطريق، وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشمموا من مبادئ المعرفة رائحة تعجبوا منها ، وفرحوا بها، وأعجبتهم غرابتها ، فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها ، والتفكر فيها وفي كيفية انفتاح بابها عليهم ، وانسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور ، لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية . فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها ، قصرت خطاه ، وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا ، فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار ، لم يكن قد رأى قبل ذلك مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك

وفرقة أخرى جاوزوا هؤلاء ، ولم يلتفتوا إلى مايفيض عليهم من الأنوار في الطريق، ولا إلى ماتيسر لهم من العطايا الجزيلة ، ولم يعرجوا على الفرح بها ، والالتفات إليها ، جادين في السير حتى قاربوا ، فوصلوا إلى حد القربة إلى لله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله ، فوقفوا وغلطوا ، فإن لله تعالى سبعين حجابا من نور ، لا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل. وإليه الإشارة بقول ابراهيم عليه السلام ، إذ قال الله تعالى إخبارا عنه (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي [1]) وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة ، فإنه كان يراها في الصغر ، ويعلم أنها ليست آلهة ، وهي كثيرة وليست واحدا. والجهال يعلمون أن الكوكب ليس بإله . فمثل ابراهيم عليه السلام لا يغره الكوكب الذي لا يغر السوادية . ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حجب الله عز وجل ، وهي على طريق السالكين . ولا يتصور الوصول إلى الله تعالى إلا بالوصول إلى هذه الحجب ، وهي حجب من نور بعضها أكبر من بعض، وأصغر النيرات الكوكب ، فاستعير له لفظه ، وأعظمها الشمس ، وبينهما رتبة القمر . فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السموات ، حيث قال تعالى (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ [2]) يصل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل ، ثم كان يكشف له أن وراءه أمرا ، فيترقى إليه ويقول قد وصلت، فيكشف له ما وراءه

(١) الأنعام : ٧٦ (٢) الأنعام : ٧٥ .

حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذى لاوصول إلا بعده ، فقال هذا أكبر .. فلما ظهر له أنه مع عظمه غير خال عن الهوى فى حضيض النقص ، والانحطاط عن ذروة الكمال قال لاأحب الآفلين ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض

وسالك هذه الطريق قد يغتر فى الوقوف على بعض هذه الحجب ، وقد يغتر بالحجاب الأول وأول الحجب بين الله وبين العبد هو نفسه . فإنه أيضا أمر ربانى ، وهو نور من أنوار الله تعالى ، أعنى سر القلب الذى تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى أنه ليتسع لجملة العالم ويحيط به ، وتتجلى فيه صورة الكل . وعند ذلك يشرق نوره إشراقا عظيما ، إذ يظهر فيه الوجود كله على ماهو عليه ، وهو فى أول الأمر محجوب بمشكاة هى كالساتر له ، فإذا تجلى نوره ، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله عليه ، وربما التفت صاحب القلب إلى القلب ، فيرى من جماله الفائق مايدهشه ، وربما يسبق لسانه فى هذه الدهشة فيقول : أنا الحق . فإن لم يتضح له ماوراء ذلك اغتر به ، ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية ، ولم يصل بعد إلى القمر فضلا عن الشمس . فهو مغرور . وهذا محل الالتباس . إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون مايتراءى فى المرآة بالمرآة فيظن أنه لون المرآة ، وكما يلتبس مافى الزجاج بالزجاج ، كما قيل

رق الزجاج ورقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح ، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه ؛ فغلطوا فيه ، كمن يرى كوكبا فى مرآة أو فى ماء ، فيظن أن الكوكب فى المرآة أو فى الماء ، فيمد يده إليه ليأخذه وهو مغرور

وأنواع الغرور فى طريق السلوك إلى الله تعالى لاتحصى فى مجلدات ، ولاتستقصى إلا بعد شرح جميع علوم المكاشفة ، وذلك مما لارخصة فى ذكره . ولعل القدر الذى ذكرناه أيضا كان الأولى تركه ، إذ السالك لهذا الطريق لايحتاج إلى أن يسمعه من غيره ، والذى لم يسلكه لاينتفع بسماعه ، بل ربما يستضر به ، إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع مالا يفهم . ولكن فيه فائدة وهو إخراجه من الغرور الذى هو فيه . بل ربما يصدق بأن الأمر أعظم مما يظنه ومما يتخيله

بذهنه المختصر ،وخياله القاصر، وجدله المزخرف ،ويصدق أيضا بما يحكى له من المكاشفات التي أخبر عنها أولياء الله. ومن عظم غروره ربما أصر مكذبا بما يسمعه الآن، كما يكذب بما سمعه من قبل

الصنف الرابع أرباب الأموال . والمغترون منهم فرق

ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد ،والمدارس،والرباطات،والقناطر،ومايظهر للناس كافة ، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ، ليتخلد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم . وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد اغتروا فيه من وجهين :

أحدهما :أنهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم ، والنهب ،والرشا ، والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها ، وتعرضوا لسخطه في إنفاقها ، وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها . فإذاً قد عصوا الله بكسبها ، فالواجب عليهم التوبة والرجوع إلى الله ، وردها إلى ملاكها ، إما بأعيانها وإما برد بدلها عند العجز . فإن عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها إلى الورثة ، فإن لم يبق للمظلوم وارث ، فالواجب صرفها إلى أهم المصالح ،وربما يكون الأهم التفرقة على المساكين ، وهم لا يفعلون ذلك ، خيفة من أن يظهر ذلك للناس . فيبنون الأبنية بالآجر ، وغرضهم من بنائها الرياء وجلب الثناء ، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم المكتوبة فيها ، لا لبقاء الخير

والوجه الثاني : أنهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق على الأبنية ، ولو كلف واحد منهم أن ينفق دينارا ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه ، لشق عليه ذلك ولم تسمح به نفسه ، والله مطلع عليه ، كتب اسمه أو لم يكتب . ولولا أنه يريد به وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك

وفرقة أخرى ربما اكتسبت المال من الحلال ، وأنفقت على المساجد . وهي أيضا مغرورة من وجهين . أحدهما : الرياء وطلب الثناء ، فإنه ربما يكون في جواره أو بلده فقراء ، وصرف المال إليهم أهم ، وأفضل،وأولى،من الصرف إلى بناء المساجد وزينتها وإنما يخف عليهم الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس

والثاني أنه يصرف إلى [1] زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش ، التي هي منهي عنها ،

---

(١) حديث النهي عن زخرفة المساجد وتزيينها بالنقوش : البخاري من قول عمر بن الخطاب أكن الناس ولا تحمر ولا تصفر

وشاغلة قلوب المصلين، ومختطفة أبصارهم ، والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب ، وذلك يفسد قلوب المصلين، ويحبط ثوابهم بذلك ، ووبال ذلك كله يرجع إليه ، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات ، ويعد ذلك وسيلة إلى الله تعالى ، وهو مع ذلك قد تعرض لسخط الله تعالى، وهو يظن أنه مطيع له، وممتثل لأمره، وقد شوش قلوب عباد الله بما زخرفه من المسجد ، وربما شوقهم به إلى زخارف الدنيا ، فيشتهون مثل ذلك فى بيوتهم ، ويشتغلون بطلبه ووبال ذلك كله فى رقبته ، إذ المسجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى .

قال مالك بن دينار : أتى رجلان مسجدا فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلى لا يدخل بيت الله . فكتبه الملكان عند الله صديقا . فهكذا ينبغى أن تعظم المساجد . وهو أن يرى تلويث المسجد بدخوله فيه بنفسه جناية على المسجد لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منة على الله تعالى . وقال الحواريون للمسيح عليه السلام : أنظر إلى هذا المسجد ما أحسنه ! فقال أمتى أمتى ، بحق أقول لكم ، لا يترك الله من هذا المسجد حجرا قائما على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله . إن الله لا يعبأ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التى تعجبكم شيئا . وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة ، بها يعمر الله الأرض ، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « إِذَا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وَحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فَالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ » وقال الحسن : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم [٢] لما أراد أن يبنى مسجد المدينة ، أتاه جبريل عليه السلام ، فقال له ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء ، لا تزخرفه ولا تنقشه . فغرور هذا من حيث إنه رأى المنكر معروفا واتكل عليه

وفرقة أخرى ينفقون الأموال فى الصدقات على الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافل الجامعة ، ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ، ويكرهون التصدق فى السر

---

(٢) حديث اذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم فالدمار عليكم : ابن المبارك فى الزهد وأبو بكر بن أبى داود فى كتاب المصاحف موقوفا على أبى الدرداء

(٣) حديث الحسن مرسلا لما أراد أن يبنى مسجد المدينة أتاه جبريل فقال ابنه سبعة أذرع طولا فى السماء ولا تزخرفه ولا تنقشه : لم أجده

ويرون إخفاء الفقير لما يأخذه منهم جناية عليهم وكفرانا . وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج ، فيحجون مرة بعد أخرى ، وربما تركوا جيرانهم جياعا . ولذلك قال ابن مسعود : في آخر الزمان يكثر الحاج بلا سبب ، يهون عليهم السفر ، ويبسط لهم في الرزق ، ويرجعون محرومين مسلوبين ، يهوى بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار ، وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه

وقال أبو نصر التمار : إن رجلا جاء يودع بشر بن الحارث ، وقال قد عزمت على الحج ، فتأمرني بشيء ؟ فقال له كم أعددت للنفقة ؟ فقال ألفي درهم . قال بشر : فأي شيء تبتغي بحجك ، تزهدا ، أو اشتياقا إلى البيت ، أو ابتغاء مرضاة الله ؟ قال ابتغاء مرضاة الله . قال فإن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك ، وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقين من مرضات الله تعالى ، أتفعل ذلك ؟ قال نعم . قال اذهب فأعطها عشرة أنفس . مدين يقضي دينه ، وفقير يرم شعثه ، ومعيل يغني عياله ، ومربي يتيم يفرحه . وإن قوى قلبك تعطيها واحدا فافعل فإن إدخالك السرور على قلب المسلم ، وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام . قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك . فقال يا أبا نصر ، سفري أقوى في قلبي . فتبسم بشر رحمه الله وأقبل عليه وقال له . المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات ، اقتضت النفس أن تقضي به وطرا ، فأظهرت الأعمال الصالحات وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين

وفرقة أخرى من أرباب الأموال اشتغلوا بها ، يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل ، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة ، كصيام النهار ، وقيام الليل وختم القرءان ، وهم مغرورون . لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم ، فهو يحتاج إلى قمعه بإخراج المال . فقد اشتغل بطلب فضائل هو مستغن عنها . ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية ، وقد أشرف على الهلاك ، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن به الصفراء ومن قتلته الحية متى يحتاج إلى السكنجبين ! ولذلك قيل لبشر : إن فلانا الغني كثير الصوم والصلاة . فقال : المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره . وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه ، ومن صلاته لنفسه مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء .

وفرقة أخرى غلبهم البخل ، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط . ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الردىء ، الذى يرغبون عنه ، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد فى حاجاتهم ، أو من يحتاجون إليه فى المستقبل للاستسخار فى خدمة ، أو من لهم فيه على الجملة غرض . أو يسلمون ذلك إلى من يعينه واحد من الأكابر ممن يستظهر بحشمه ، لينال بذلك عنده منزلة ، فيقوم بحاجاته . وكل ذلك مفسدات للنية ، ومحبطات للعمل ، وصاحبه مغرور ، ويظن أنه مطيع لله تعالى وهو فاجر ، إذ طلب بعبادة الله عوضا من غيره . فهذا وأمثاله من غرور أصحاب الأموال أيضا لا يحصى . وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور

وفرقة أخرى من عوام الخلق وأرباب الأموال والفقراء ، اغتروا بحضور مجالس الذكر واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم ، واتخذوا ذلك عادة ، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل ودون الاتعاظ أجرا ، وهم مغرورون . لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغبا فى الخير . فإن لم يهيج الرغبة فلا خير فيه . والرغبة محمودة لأنها تبعث على العمل . فإن ضعفت عن الحمل على العمل فلا خير فيها . وما يراد لغيره فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له . وربما يغتر بما يسمعه من الواعظ من فضل حضور المجلس ، وفضل البكاء ، وربما تدخله رقة كرقة النساء فيبكى ولا عزم ، وربما يسمع كلاما مخوفا فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول : ياسلام سلم ، أو نعوذ بالله ، أو سبحان الله ، ويظن أنه قد أتى بالخير كله ، وهو مغرور . وإنما مثاله مثال المريض الذى يحضر مجالس الأطباء فيسمع مايجرى ، أو الجائع الذى يحضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف ، وذلك لا يغنى عنه من مرضه وجوعه شيئا . فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها لا يغنى من الله شيئا . فكل وعظ لم يغير منك صفة تغيرا يغير أفعالك ، حتى تقبل على الله تعالى إقبالا قويا أو ضعيفا وتعرض عن الدنيا ، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك . فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغرورا

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ، ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس ، إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات

فأقول الإنسان إذا فترت همته فى شيء أظهر اليأس منه ، واستعظم الأمر ، واستوعر الطريق . وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل ، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق

فى الوصول إلى الغرض ، حتى أن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق فى جو السماء مع بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه. وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه . وإذا أراد أن يقتنص الوحوش المطلقة فى البرارى والصحارى اقتنصها . وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها . وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعى ويعبث بها أخذها ، واستخرج الدرياق من أجوافها . وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه . وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك، وهو مستقر على الأرض . وكل ذلك باستنباط الحيل، وإعداد الآلات . فسخر الفرس للركوب ، والكلب للصيد ، وسخر البازى لاقتناص الطيور ، وهيأ الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمى . كل ذلك لأن همه أمر دنياه ، وذلك معين له على دنياه . فلو أهمه أمر آخرته ، فليس عليه إلا شغل واحد. وهو تقويم قلبه. فعجز عن تقويم قلبه وتخادل وقال هذا محال ، ومن الذى يقدر عليه وليس وذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم الواحد، بل هو كما يقال

لو صح منك الهوى أرشدت للحيل

فهذا شىء لم يعجز عنه السلف الصالحون ، ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيضا من صدقت إرادته، وقويت همته، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق فى استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها

فإن قلت : قد قرَّبْتَ الأمر فيه ، مع أنك أكثرت فى ذكر مداخل الغرور ، فبم ينجو العبد من الغرور؟ . فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل ، والعلم ، والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لا بد منها . أما العقل ، فأعنى به الفطرة الغريزية ، والنور الأصلى الذى به يدرك الإنسان حقائق الأشياء . فالفطنة والكيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة . والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور. فصفاء العقل، وذكاء الفهم، لا بد منه فى أصل الفطرة فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن نعم إذا حصل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « تَبَارَكَ اللهُ الَّذِى قَسَمَ الْعَقْلَ بَيْنَ عِبَادِهِ .

---

(١) حديث تبارك الذى قسم العقل بين عباده ـ الحديث : الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من رواية طاوس مرسلا وفى أوله قصة وإسناده ضعيف ورواه بنحوه من حديث أبى حميد وهو ضعيف أيضا

أشتاتاً إنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَسْتَوِى عَمَلُهُمَا وَبِرُّهُمَا وَصَوْمُهُمَا وَصَلَاتُهُمَا وَلَكِنَّهُمَا يَتَفَاوَتَانِ فِي الْعَقْلِ كَالذَّرَّةِ فِي جَنْبِ أُحُدٍ وَمَا قَسَمَ اللهُ لِخَلْقِهِ حَظًّا هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْيَقِينِ »

وعن أبى الدرداء ، أنه قيل يارسول الله [1] أرأيت الرجل يصوم النهار ، ويقوم الليل ويحج ، ويعتمر ، ويتصدق ، ويغزو فى سبيل الله ، ويعود المريض ، ويشيع الجنائز ، ويعين الضعيف ، ولا يعلم منزلته عند الله يوم القيامة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا يُجْزَى عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ » وقال أنس : أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا خيرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [2] « كَيْفَ عَقْلُهُ ؟ » قالوا يارسول الله تقول من عبادته وفضله وخلقه . فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ فَإِنَّ الْأَحْمَقَ يُصِيبُ بِحُمْقِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا يُقَرَّبُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »

وقال أبو الدرداء : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ، فإذا قالوا حسن ، قال « أَرْجُوهُ » وإن قالوا غير ذلك قال « لَنْ يَبْلُغَ » وذكر له شدة عبادة رجل فقال « كَيْفَ عَقْلُهُ » ؟ قالوا ليس بشىء . قال « لَنْ يَبْلُغَ صَاحِبُكُمْ حَيْثُ تَظُنُّونَ » فالذكاء صحيح ، وغريزة العقل نعمة من الله تعالى فى أصل الفطرة ، . فإن فاتت ببلادة وحماقة فلا تدرك لها

الثانى المعرفة : وأعنى بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة . فيعرف نفسه بالعبودية والذل ، وبكونه غريبا فى هذا العالم ، وأجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ، وإنما الموافق له طبعا هو معرفة الله تعالى ، والنظر إلى وجهه فقط ، فلا يتصور أن يعرف هذا مالم يعرف نفسه ، ولم يعرف ربه فليستعن على هذا بما ذكرناه فى كتاب المحبة ، وفى كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب التفكر ، وكتاب الشكر ،

---

(١) حديث أبى الدرداء أرأيت الرجل يصوم النهار ويقوم الليل ـ الحديث : وفيه انما يجزى على قدر عقله الخطيب فى التاريخ وفى أسماء من روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعفه ولم أره من حديث أبى الدرداء

(٢) حديث أنس أثنى على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال كيف عقله ـ الحديث : داود بن المحبر فى كتاب العقل وهو ضعيف وتقدم فى العلم

(٣) حديث أبى الدرداء كان اذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله ـ الحديث : الترمذى الحكيم فى النوادر وابن عدى ومن طريقه البيهقى فى الشعب وضعفه

إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ، وإلى وصف جلال الله . ويحصل به التنبه على الجلة، وكمال المعرفة وراءه، فإن هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب فى هذا الكتاب إلا فى علوم المعاملة

وأما معرفة الدنيا والآخرة ، فيستعين عليها بما ذكرناه فى كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت ، ليتبين له أن لا نسبة للدنيا إلى الآخرة . فإذا عرف نفسه وربه ، وعرف الدنيا والآخرة ، ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها . ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى ، وينفعه فى الآخرة . وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه ، صحت نيته فى الأمور كلها . فإن أكل مثلا ، أو اشتغل بقضاء الحاجة، كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، وصحت نيته ، واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض ، والنزوع إلى الدنيا ، والجاه ، والمال ، فإن ذلك هو المفسد للنية . وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة ، وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى : فلا يمكنه الخلاص من الغرور .

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه ، الصادرة عن كمال عقله ، فيحتاج إلى المعنى الثالث : وهو العلم، أعنى العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلم بما يقرّبه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله . وجميع ذلك قد أودعناه كتب إحياء علوم الدين ، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها ، وآفاتها فيتقيها ، ومن ربع العادات أسرار المعايش وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع ، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه . ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعة فى طريق الله، فإن المانع من الله الصفات المذمومة فى الخلق ، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه . ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التى لابد وأن توضع خلفا عن المذمومة بعد محوها . فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التى أشرنا إليها من الغرور . وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ، ويسقط حب الدنيا منه ، حتى تقوى به الإرادة ، وتصح به النية . ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التى ذكرناها

فإن قلت : فإذا فعل جميع ذلك ، فما الذى يخاف عليه ؟ فأقول يخاف عليه أن يخدعه الشيطان ، ويدعوه إلى نصح الخلق ، ونشر العلم ، ودعوة الناس إلى ما عرفه من دين الله .

فإن المريد المخلص إذا فرغ من تهذيب نفسه وأخلاقه ، وراقب القلب حتى صفاه من جميع المكدرات ، واستوى على الصراط المستقيم ، وصغرت الدنيا فى عينه فتركها ، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت إليهم ، ولم يبق إلا هم واحد ، وهو الله تعالى ، والتلذذ بذكره ومناجاته ، والشوق إلى لقائه ، وقد عجز الشيطان عن إغوائه ، إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعه ، فيأتيه من جهة الدين ، ويدعوه إلى الرحمة على خلق الله ، والشفقة على دينهم ، والنصح لهم ، والدعاء إلى الله . فينظر العبد برحمته إلى العبيدفيراهم حيارى فى أمرهم ، سكارى فى دينهم ، صما عميا ، قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون وفقدوا الطبيب ، وأشرفوا على العطب ، فغلب على قلبه الرحمة لهم ، وقد كان عنده حقيقة المعرفة بما يهديهم ويبين لهم ضلالهم ، ويرشدهم إلى سعادتهم ، وهو يقدر على ذكرها من غير تعب ، ومؤنة ، ولزوم غرامة ، فكان مثله كمثل رجل كان به داء عظيم لا يطاق ألمه. وقد كان لذلك يسهر ليله ويقلق نهاره ، لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يتحرك ، ولا يتصرف ، لشدة ضربان الألم ، فوجد له دواء عفوا صفوا من غير ثمن ، ولا تعب ، ولا مرارة فى تناوله فاستعمله فبرىء وصح ، فطاب نومه بالليل بعد طول سهره ، وهدأ بالنهار بعد شدة القلق ، وطاب عيشه بعد نهاية الكدر ، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام ، ثم نظر إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلة بعينها ، وقد طال سهرهم ، واشتد قلقهم ، وارتفع إلى السماء أنينهم ، فتذكر أن دواءهم هو الذى يعرفه ، ويقدر على شفائهم بأسهل ما يكون ، وفى أرجى زمان ، فأخذته الرحمة والرأفة ، ولم يجد فسحة من نفسه فى التراخى عن الاشتغال بعلاجهم

فكذلك العبد المخلص بعد أن اهتدى إلى الطريق ، وشفى من أمراض القلوب ، شاهد الخلق وقد مرضت قلوبهم ، وأعضل داؤهم ، وقرب هلاكهم وإشفاؤهم ، وسهل عليه دواؤهم فانبعث من ذات نفسه عزم جازم فى الاشتغال بنصحهم ، وحرضه الشيطان على ذلك رجاء أن يجد مجالا للفتنة . فلما اشتغل بذلك وجد الشيطان مجالا للفتنة ، فدعاه إلى الرياسة دعاء خفيا أخفى من دبيب النمل لا يشعر به المريد فلم يزل ذلك الدبيب فى قلبه حتى دعاه إلى التصنع والتزين للخلق ، بتحسين الألفاظ ، والنغمات ، والحركات ، والتصنع فى الزى والهيئة فأقبل الناس إليه يعظمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك ، إذ رأوه شافيا

لأدوائهم بمحض الشفقة والرحمة من غير طمع ، فصار أحب إليهم من آبائهم، وأمهاتهم وأقاربهم ، فآثروه بأبدانهم وأموالهم ، وصاروا له خولا كالعبيد والخدم ، فخدموه وقدموه في المحافل ، وحكموه على الملوك والسلاطين . فعند ذلك انتشر الطبع ، وارتاحت النفس ، وذاقت لذة يالها من لذة ، أصابت من الدنيا شهوة يستحقر معها كل شهوة ، فكان قد ترك الدنيا فوقع في أعظم لذاتها ، فعند ذلك وجد الشيطان فرصة ، وامتدت إلى قلبه يده ، فهو يستعمله في كل مايحفظ عليه تلك اللذة

وأمارة انتشار الطبع ، وركون النفس إلى الشيطان ، أنه لو أخطأ فرُدّ عليه بين يدى الخلق غضب . فإذا أنكر على نفسه ما وجده من الغضب ، بادر الشيطان فخيل إليه أن ذلك غضب لله ، لأنه إذا لم يحسن اعتقاد المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله . فوقع في الغرور . فربما أخرجه ذلك إلى الوقيعة فيمن رد عليه ، فوقع في الغيبة المحظورة بعد تركه الحلال المتسع ، ووقع في الكبر الذى هو تمرد عن قبول الحق والشكر عليه ، بعد أن كان يحذر من طوارق الخطرات . وكذلك إذا سبقه الضحك ، أو فتر عن بعض الأوراد، جزعت النفس أن يطلع عليه فيسقط قبوله ، فأتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء ، وربما زاد في الأعمال والأوراد لأجل ذلك ، والشيطان يخيل إليه إنك إنما تفعل ذلك كيلا يفتر رأيهم عن طريق الله، فيتركون الطريق بتركه ،وإنما ذلك خدعة وغرور . بل هو جزع من النفس خيفة فوت الرياسة ولذلك لاتجزع نفسه من اطلاع الناس على مثل ذلك من أقرانه ، بل ربما يحب ذلك ويستبشر به، ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوب إلى قبوله ،وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه ، شق ذلك عليه . ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذت الرياسة ، لكان يغتنم ذلك . إذ مثاله أن يرى الرجل جماعة من إخوانه قد وقعوا في بئر ، وتغطي رأس البئر بحجر كبير ، فعجزوا عن الرقى من البئر بسببه ، فرق قلبه لإخوانه. فجاء ليرفع الحجر من رأس البئر ، فشق عليه ، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسر عليه ، أو كفاه ذلك ونحاه بنفسه ، فيعظم بذلك فرحه لا محالة ، إذ غرضه خلاص إخوانه من البئر . فإن كان غرض الناصح خلاص إخوانه المسلمين من النار ، فإذا ظهر من أعانه أو كفاه ذلك لم يثقل عليه . أرأيت لو اهتدوا جميعهم من أنفسهم ، أكان ينبغي أنه يثقل ذلك عليه

إن كان غرضه هدايتهم؟ فإذا اهتدوا بغيره فلم يثقل عليه؟ ومهما وجد ذلك في نفسه دعاه الشيطان إلى جميع كبائر القلوب، وفواحش الجوارح، وأهلكه، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهدى، ومن اعوجاج النفس بعد الاستواء.

فإن قلت: فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس

فأقول: إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى، وكان يود لو وجد من يعينه، أو لو اهتدوا بأنفسهم، وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم؛ فاستوى عنده حمدهم وذمهم، فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظر إليهم كما ينظر إلى السادات وإلى البهائم. أما إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم، ويرى كلهم خيرا منه لجهله بالخاتمة. وأما إلى البهائم، فمن حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم، فإنه لا يبالي كيف تراه البهائم فلا يتزين لها ولا يتصنع. بل راعي الماشية إنما غرضه رعاية الماشية، ودفع الذئب عنها دون نظر الماشية إليه. فما لم ير سائر الناس كالماشية التي لا يلتفت إلى نظرها، ولا يبالي بها، لا يسلم من الاشتغال بإصلاحهم. نعم ربما: يصلحهم ولكن يفسد نفسه بإصلاحهم فيكون كالسراج يضيء لغيره ويحترق في نفسه

فإن قلت: فلو ترك الوعاظ الوعظ إلا عند نيل هذه الدرجة لخلت الدنيا عن الوعظ وخربت القلوب

فأقول: قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ» ولو لم يحب الناس الدنيا لهلك العالم، وبطلت المعايش، وهلكت القلوب والأبدان جميعا. إلا أنه صلى الله عليه وسلم علم أن حب الدنيا مهلك، وأن ذكر كونه مهلكا لا ينزع الحب من قلوب الأكثرين، لا الأقلين الذين لا تخرب الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح، وذكر ما في حب الدنيا من الخطر، ولم يترك ذكره خوفا من أن يترك نفسه بالشهوات المهلكة التي سلطها الله على عباده، ليسوقهم بها إلى جهنم، تصديقا لقوله تعالى (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[2]) فكذلك لا تزال ألسنة الوعاظ مطلقة

---

(١) حديث حب الدنيا رأس كل خطيئة: البيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلا وقد تقدم في كتاب ذم الدنيا

(٢) السجدة: ١٣

لحب الرياسة ، ولا يدعونها بقول من يقول إن الوعظ لحب الرياسة حرام . كما لا يدع الخلق الشرب ، والزنا ، والسرقة ، والرياء ، والظلم ، وسائر المعاصى ، بقول الله تعالى ورسوله إن ذلك حرام . فانظر لنفسك . وكن فارغ القلب من حديث الناس ، فإن الله تعالى يصلح خلقا كثيرا بإفساد شخص واحد وأشخاص ، ولولا دفع الله الناس ، بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، وإن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم . فإنما يخشى أن يفسد طريق الاتعاظ فأما أن تخرس ألسنة الوعاظ ، ووراءهم باعث الرياسة وحب الدنيا ، فلا يكون ذلك أبدا

فإن قلت : فإن علم المريد هذه المكيدة من الشيطان ، فاشتغل بنفسه وترك النصح ؛ او نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه ، فما الذى يخاف عليه ؟ وما الذى بقى بين يديه من الأخطار وحبائل الأغترار ؟ . فاعلم أنه بقى عليه أعظمه ، وهو أن الشيطان يقول له : قد أعجزتنى ، وأفلت منى بذكائك وكمال عقلك ، وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك : فما أصبرك ، وما أعظم عند الله قدرك ومحلك ، إذ قواك على قهرى ، ومكنك من التفطن لجميع مداخل غرورى . فيصغى إليه ويصدقه ، ويعجب بنفسه فى فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور ، وهو المهلك الأكبر ، فالعجب أعظم من كل ذنب . ولذلك قال الشيطان . ياابن آدم ، إذا ظننت أنك بعلمك تخلصت منى ، فبجهلك قد وقعت فى حبائلى

فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أن ذلك من الله تعالى لا منه ؛ وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل ، فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى ، فما الذى يخاف عليه بعد نفى العجب

فأقول : يخاف عليه الغرور بفضل الله ، والثقة بكرمه ، والأمن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة فى المستقبل ، ولا يخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط ، دون أن يقارنه الخوف من مكره . ومن أمن مكر الله فهو خاسر جدا

بل سبيله أن يكون مشاهدا جملة ذلك من فضل الله ، ثم خائفا على نفسه أن يكون قد سدت عليه صفة من صفات قلبه ، من حب دنيا ، ورياء ، وسوء خلق ، والتفات إلى عز

وهو غافل عنه . ويكون خائفا أن يسلب حاله فى كل طرفة عين ، غير آمن من مكر الله ، ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لامحيص عنه ، وخوف لانجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء فى وقت النزع ، وكان قد بقى له نفس ، فقال : أفلت منى يافلان ، فقال لا بعد . ولذلك قيل. الناس كلهم هلكى إلا العالمون. والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

فإذاً المغرور هالك ، والمخلص الفار من الغرور على خطر . فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبدا ، فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها

تم كتاب ذم الغرور ، وبه تم ربع المهلكات

ويتلوه فى أول ربع المنجيات كتاب التوبة ، والحمد لله أولا وآخرا ، وصلى الله على من لا نبي بعده ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم



كتاب التوبة

كتاب التوبة

وهو الأول من ربع المنجيات

من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى بتحميده يستفتح كل كتاب ، وبذكره يصدر كل خطاب ، وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب ، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب ، وضرب بينهم و بين السعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه ، صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب ، وتمهد لنا عند الله زلنى وحسن مآب

أما بعد . فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو أن أذنب الآدمى واجترم فهى سنشنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر عمر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات ، والوجود والعدم . ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ماسبق منه وتقدم . فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم . بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين . فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان

فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان ،واصطحب فيه سجيتان. وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان . فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان. والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان

فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان ، فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما ، لا يخلصه إلا إحدى النارين ، نار الندم أو نار جهنم . فالإحراق بالنار ضرورى فى تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والمبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار

وإذا كانت التوبة موقعها من الدين هذا الموقع ، وجب تقديمها فى صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها ، وشروطها ، وسببها ، وعلامتها ، وثمرتها ، والآفات المانعة منها ،والأدوية الميسرة لها . ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان .

الركن الأول : فى نفس التوبة ، وبيان حدها ،وحقيقتها ، وأنها واجبة على الفور ،وعلى جميع الأشخاص ، وفى جميع الأحوال ، وأنها إذا صحت كانت مقبولة

الركن الثانى : فيما عنه التوبة ، وهو الذنوب ، وبيان انقسامها إلى صغائر وكبائر ،وما يتعلق بالعباد ، وما يتعلق بحق الله تعالى ، وبيان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، وبيان الأسباب التى بها تعظم الصغائر

الركن الثالث : فى بيان شروط التوبة ودوامها ، وكيفية تدارك ما مضى من المظالم ، وكيفية تكفير الذنوب ، وبيان أقسام التائبين فى دوام التوبة

الركن الرابع : فى السبب الباعث على التوبة ، وكيفية العلاج فى حل عقدة الإصرار من المذنبين

ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل

الركن الأول فى نفس التوبة

بيان

حقيقة التوبة وحدها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل فالعلم الأول ، والحال الثاني ، والفعل الثالث . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله في الملك والملكوت

أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب . فإذا عرف ذلك معرفة محققة ، بيقين غالب على قلبه ، ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب . فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم . فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندما . فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال ، وبالماضي ، وبالاستقبال . أما تعلقه بالحال ، فبالترك للذنب الذي كان ملابسا . وأما بالاستقبال ، فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر . وأما بالماضي ، فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات ، وأعنى بهذا العلم الإيمان واليقين . فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب في قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك

فالعلم والندم ، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال ، والتلافي للماضي ، ثلاثة معان مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا مايطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر . وبهذا الاعتبار

قال عليه الصلاة والسلام [١] « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه. فيكون الندم محفوفا بطرفيه ، أعنى ثمرته ومثمره . وبهذا الاعتبار قيل فى حد التوبة أنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطا . فإن هذا يعرض لمجرد الألم . ولذلك قيل هو نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب . وباعتبار معنى الترك قيل فى حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة . ولا يتم ذلك إلا بالخلوة ، والصمت، وأكل الحلال . وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة

والأقاويل فى حدود التوبة لا تنحصر . وإذا فهمت هذه المعانى الثلاثة، وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ماقيل فى حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها . وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة

بيان

وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار [٢] والآيات ، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته ، وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد فى خطوه ، فيفتقر إلى أن يسمع فى كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله ، وربما يعوزه ذلك فيتحير . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر ، وخطاه قاصرة . ومن سعيد شرح الله صدره للإسلام ، فهو على نور من ربه ، فيتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصة ، وقطع عقبات متعبة . ويشرق فى قلبه نور القرآن ونور الإيمان . وهو لشدة نور باطنه

---

(١) حديث الندم توبة : ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح اسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين

(٢) حديث الأخبار الدالة على وجوب التوبة : مسلم من حديث الأغر المزنى يا أيها الناس توبوا الى الله الحديث: ولابن ماجه من حديث جابر يا أيها الناس توبوا الى ربكم قبل أن تموتوا ــ الحديث : وسنده ضعيف

يجتزىء بأدنى بيان ، فكأنه يكاد زيته يضيء ولو لم تمسه نار . فإذا مسته نار فهو نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول فى كل واقعة

فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة ، فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهى ، ثم إلى الوجوب مامعناه ، ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة ، فلا يشك فى ثبوته لها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب فى الوصول إلى سعادة الأبد ، والنجاة من هلاك الأبد ، فإنه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشىء وتركه ؛ لم يكن لوصفه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالإيجاب حديث محض . فإن مالا غرض لنا آجلا وعاجلا فى فعله وتركه ، فلا معنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أو لم يوجبه . فإذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد ، وعلم أن لاسعادة فى دار البقاء إلا فى لقاء الله تعالى ، وأن كل محجوب عنه يشقى لامحالة ، محول بينه وبين مايشتهى ، محترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات ، والأنس بهذا العالم الفانى ، والإكباب على حب مالابد من فراقه قطعا ، وعلم أنه لا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم ، والإقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره ، وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته ، وعلم أن الذنوب التى هى إعراض عن الله ، واتباع لمحاب الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته ، سبب كونه محجوبا مبعدا عن الله تعالى . فلا يشك فى أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب . وإنما يتم الانصراف بالعلم ، والندم ، والعزم فإنه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ، ولم يتوجع بسبب سلوكه فى طريق البعد . وما لم يتوجع فلا يرجع . ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك فى أن المعانى الثلاثة ضرورية فى الوصول إلى المحبوب . وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ، ففى التقليد والاتباع له مجال رحب ، يتوصل به إلى النجاة من الهلاك ، فليلاحظ فيه قول الله ، وقول رسوله ، وقول السلف الصالحين . فقد قال الله تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [1]) وهذا أمر على العموم . وقال الله تعالى

(١) النور : ٣١

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا[(1)]) الآية، ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خاليا عن الشوائب مأخوذ من النصح. ويدل على فضل التوبة قوله تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[(2)]). وقال عليه السلام[(1)] «التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[(2)] «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ فَطَلَبَهَا حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ أَوْ مَاشَاءَ اللهُ قَالَ أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ عَلَيْهَا زَادُهُ وَشَرَابُهُ فَاللهُ تَعَالَى أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ» وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه، إذ أراد شكر الله، أنا ربك وأنت عبدي.

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام، هنأته الملائكة، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام. فقالا يا آدم، قرت عينك بتوبة الله عليك. فقال آدم عليه السلام: ياجبريل، فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه ياآدم، ورثت ذريتك التعب والنصب، وورثتهم التوبة. فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه، لأني قريب مجيب ياآدم، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين، ودعاؤهم مستجاب. والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها، إذ معناه العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل

---

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له: ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني دون الأول وأما الشطر الأول فروى ابن أبي الدنيا في التوبة وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف ان الله يحب الشاب التائب ولعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وأبو يعلى بسند ضعيف من حديث علي ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب

(٢) حديث لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزول في أرض فلاة دوية مهلكة ـ الحديث: متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاد مسلم في حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بدون هذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبي هريرة مختصرا

---

(١) التحريم: ٨ (٢) التحريم ٨

فى وجوب الإيمان، ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة: ولا خلاف فى وجوبها

ومن معانيها ترك المعاصى فى الحال ، والعزم على تركها فى الاستقبال ، وتدارك ماسبق من التقصير فى سابق الأحوال، وذلك لايشك فى وجوبه وأما التندم على ماسبق ،والتحزن عليه ، فواجب . وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافى . فكيف لايكون واجبا ! بل هو نوع ألم يحصل لامحالة ، عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع فى سخط الله

فإن قلت : تألم القلب أمر ضرورى لايدخل تحت الاختيار ،فكيف يوصف بالوجوب؟

فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب . وله سبيل إلى تحصيل سببه . وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب ، لابمعنى أن العلم يخلقه العبد ويحدثه فى نفسه ، فإن ذلك محال . بل العلم ، والندم ، والفعل ، والإرادة ،والقدرة ،والقادر ،الكل من خلق الله وفعله ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] هذا هو الحق عند ذوى البصائر . وما سوى هذا ضلال

فإن قلت: أفليس للعبد اختيار فى الفعل والترك؟ قلنا نعم : وذلك لايناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى . بل الاختيار أيضا من خلق الله . والعبد مضطر فى الاختيار الذى له . فإن الله إذا خلق اليد الصحيحة ، وخلق الطعام اللذيذ ، وخلق الشهوة للطعام فى المعدة،وخلق العلم فى القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة ، وخلق الخواطر المتعارضة فى أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة ، وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا،ثم خلق العلم بأنه لامانع ، ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول . فانجزام الإرادة بعد تردد الخواطر المتعارضة ، وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ، ولابد من حصوله عند تمام أسبابه . فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله تعالى إياها ، تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة . إذ بعد تمام الإرادة والقدرة، يكون حصول الفعل ضروريا، فتحصل الحركة ، فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة ،وهما أيضا من خلق الله . وانجزام الإرادة يحصل بعد صدق الشهوة ، والعلم بعدم الموانع ، وهما أيضا من خلق الله تعالى . ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة

(1) الصافات : ٩٦

مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ، ومالم يخلق فيها حياة ، وما لم يخلق إرادة مجزومة .
ولا يخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا فى النفس ولا ينبعث هذا الميل انبعاثا تاما
مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس ، إما فى الحال أو فى المآل . ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر
ترجع إلى حركة وإرادة وعلم . فالعلم والميل الطبيعى أبدا يستتبع الإرادة الجازمة ، والقدرة
والإرادة أبدا تستردف الحركة ، وهكذا الترتيب فى كل فعل . والكل من اختراع الله
تعالى . ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض . فلذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض ، كما
لا تخلق الإرادة إلا بعد العلم ، ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ، ولا تخلق الحياة إلا بعد الجسم .
فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة ، لا أن الحياة تتولد من الجسم . ويكون خلق
الحياة شرطا لخلق العلم ، لا أن العلم يتولد من الحياة . ولكن لا يستعد المحل لقبول العلم
إلا إذا كان حيا ، ويكون خلق العلم شرطا لجزم الإرادة ، لا أن العلم يولد الإرادة . ولكن
لا يقبل الإرادة إلا جسم حي عالم . ولا يدخل فى الوجود إلا ممكن ، وللإمكان ترتيب
لا يقبل التغيير ، لأن تغييره محال . فمهما وجد شرط الوصف استعد المحل به لقبول الوصف ،
فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهى والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد . ولما كان
للاستعداد بسبب الشروط ترتيب ، كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب . والعبد
مجرى هذه الحوادث المرتبة ، وهى مرتبة فى قضاء الله تعالى الذى هو واحد كلمح البصر
ترتيبا كليا لا يتغير . وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها . وعنه العبارة بقوله تعالى
(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ [1]) وعن القضاء الكلى الأزلى العبارة بقوله تعالى (وَمَا أَمْرُنَا
إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ [2]) وأما العباد فإنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر .
ومن جملة القدر خلق حركة فى يد الكاتب ، بعد خلق صفة مخصوصة فى يده تسمى القدرة
وبعد خلق ميل قوى جازم فى نفسه يسمى القصد ، وبعد علم بما إليه ميله يسمى الإدراك والمعرفة

فإذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر
التقدير ، سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا ياأيها
الرجل ، قد تحركت ، ورميت ، وكتبت . ونودى من وراء حجاب الغيب وسرادقات الملكوت

(١) القمر : ٤٩ (٢) القمر : ٥٠

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى [١]) وما قتلت إذ قتلت ، ولـكن (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ [٢]) وعند هذا تتحير عقول القاعدين فى بحبوحة عالم الشهادة ، فمن قائل إنه جبر محض ، ومن قائل إنه اختراع صرف ، ومن متوسط مائل إلى أنه كسب . ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت ، لظهر لهم أن كل واحد صادق من وجه ، وأن القصور شامل لجميعهم ، فلم يدرك واحد منهم كنه هـذا الأمر ، ولم يحط علمه بجوانبه . وتمام علمه ينال بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول . وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل فى حيز الارتضاء . ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات وعلم كيفية تسلسلها ، ووجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبب الأسباب ، انكشف له سر القدر وعلم علما يقينا أن لا خالق إلا الله ، ولا مبدع سواه

فإن قلت : قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر ، والاختراع ، والكسب ، أنه صادق من وجه ، وهو مع صدقه قاصر ، وهذا تناقض ، فكيف يمكن فهم ذلك ؟ وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟

فاعلم أن جماعة من العميان قد سمعوا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى الفيل ، وما كانوا قط شاهدوا صورته ، ولا سمعوا اسمه . فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذى نقدر عليه . فطلبوه ، فلما وصلوا إليه لمسوه . فوقع يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ، ووقع يد بعضهم على أذنه . فقالوا قد عرفناه . فلما انصرفوا سألهم بقية العميان ، فاختلف أجوبتهم . فقال الذى لمس الرجل : إن الفيل ما هو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر ، إلا أنه ألين منها . وقال الذى لمس الناب : ليس كما يقول ، بل هو صلب لا لين فيه ، وأملس لا خشونة فيه ، وليس فى غلظ الأسطوانة أصلا ، بل هو مثل عمود : وقال الذى لمس الأذن : لعمرى هو لين وفيه خشونة . فصدق أحدهما فيه . ولـكن قال . ما هو مثل عمود ، ولا هو مثل اسطوانة ، وإنما هو مثل جلد عريض غليظ . فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه ، إذ أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة الفيل ،

(١) الانفال : ١٧ (٢) التوبة : ١٤

ولم يخرج واحد فى خبره عن وصف الفيل. ولكنهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكنه صورة الفيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به ، فإنه مثال أكثر ما اختلفت الناس فيه ، وإن كان هذا كلاما يناطح علوم المكاشفة ويحرك أمواجها ، وليس ذلك من غرضنا، فلنرجع إلى ما كنا بصدده

وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة ، العلم ،والندم ، والترك ، وأن الندم داخل فى الوجوب ، لكونه واقعا فى جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد ، وإرادته ، وقدرته المتخللة بينها ، وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله

بيان

أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه . إذ معرفة كون المعاصى مهلكات من نفس الايمان ، وهو واجب على الفور . والمتفصى عن وجوبه هو الذى عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه . فإن هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التى لا تتعلق بعمل ، بل هي من علوم المعاملة . وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصى عن عهدته مالم يصر باعثا عليه . فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان . وهو المراد بقوله عليه السلام[1] « لايَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ » وما أراد به نفى الايمان الذى يرجع إلى علوم المكاشفة، كالعلم بالله، ووحدانيته ، وصفاته ، وكتبه ، ورسله ، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصى . وإنما أراد به نفى الايمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى . موجبا للمقت. كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيبا وغير مصدق به ، بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك . فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلا . فالعاصى بالضرورة ناقص الايمان . وليس الايمان بابا واحدا ، بل هو نيف وسبعون بابا ، أعلاها شهادة ان لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثاله قول القائل ،

---

(١) حديث لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن : متفق عليه من حديث أبى هريرة .

ليس الإنسان موجودا واحدا ، بل هو نيف وسبعون موجودا ، أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشارب، مقلوم الأظفار ، نقى البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها

وهذا مثال مطابق : فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذى ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة ، لا أصل الروح . وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت ، فتزايله الروح الضعيفة ، المنفردة ، التى تخلف عنها الأعضاء التى تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصر فى الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة ، المحركة للإيمان فى مقدمة قدوم ملك الموت ووروده . فكل إيمان لم يثبت فى اليقين أصله ، ولم تنتشر فى الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا ما يسقى بالطاعات على توالى الأيام والساعات ، حتى رسخ وثبت . وقول العاصى للمطيع إنى مؤمن كما أنك مؤمن ، كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة . وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الإسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك ، وتتناثر أوراقك ، وينكشف غرورك بالمشاركة فى اسم الشجرة، مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار

وهذا أمر يظهر عند الخاتمة . وإنما انقطع نياط العارفين خوفا من دواعى الموت ومقدماته الهائلة ، التى لا يثبت عليها إلا الأقلون . فالعاصى إذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصيته ، كالصحيح المنهمك فى الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحته . وإن الموت غالبا لا يقع فجأة ، فيقال له . الصحيح يخاف المرض ، ثم إذا مرض خاف الموت . وكذلك العاصى يخاف سوء الخاتمة ، ثم إذا ختم له بالسوء والعياذ بالله وجب الخلود فى النار فالمعاصى للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان ، فلا تزال تجتمع فى الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها ، إلى أن يفسد المزاج ، فيمرض دفعة ، ثم يموت دفعة . فكذلك المعاصى

فإذاً كان الخائف من الهلاك فى هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم ،وما يضره من المأكولات فى كل حال وعلى الفور ، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك . وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ،ويرجع عن تناوله بإبطاله وإخراجه عن المعدة ، على سبيل الفور والمبادرة ، تلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية ، فتناول سموم الدين وهى الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ، مادام يبقى للتدارك مهلة وهو العمر ، فإن المخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية ، التى فيها النعيم المقيم ، والملك العظيم ، وفى فواتها نار الجحيم ،والعذاب المقيم الذى تتصرم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدته ، إذ ليس لمدته آخر ألبتة . فالبدار البدار إلى التوبة ، قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ، ولا ينفع بعده الإحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وتحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين ، ويدخل تحت عموم قوله تعالى(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [1]) ولا يغرنك لفظ الإيمان فتقول . المراد بالآية الكافر ، إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا ، وأن الزانى لا يزنى حين يزنى وهو مؤمن .فالمحجوب عن الإيمان الذى هو شعب وفروع سيحجب فى الخاتمة عن الايمان الذي هو أصل . كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التى هي حروف وفروع ، سيساق إلى الموت المعدم للروح التى هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الأصل ، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا فى شيء واحد، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعى وجود الأصل ، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع . فبقاء الأصل بالفرع ، ووجود الفرع بالأصل ،فعلوم المكاشفة وعلوم المعاملة متلازمة كتلازم الفرع والأصل ، فلا يستغنى أحدهما عن الآخر. وإن كان أحدهما فى رتبة الأصل والآخر فى رتبة التابع .وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها

---

(١) يس : ٨ ، ٩ ، ١٠

فإن هى لم تعمل عملها الذى تراد له ،قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ،ولذلك يزاد فى عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر ،كما أوردنا من الأخبار فى كتاب العلم

بيان

أن وجوب التوبة عام فى الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا ، إذ قال تعالى (وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [١]) فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه ، إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله ، المقرب إلى الشيطان . ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ، ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة ، والغضب ، وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان ، إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين . وأصله إنما يتم عند مراهقة البلوغ ، ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة ، فإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان ، فالتطارد بينهما كالتطارد بين الليل والنهار ، والنور والظلمة . ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تكمل فى الصبا والشباب قبل كمال العقل ، فقد سبق جند الشيطان ، واستولى على المكان ، ووقع للقلب به أنس ، وألف لامحالة مقتضيات الشهوات بالعادة . وغلب ذلك عليه ، ويعسر عليه النزوع عنه . ثم يلوح العقل الذى هو حزب الله وجنده ،ومنقذ أوليائه من أيدى أعدائه شيئا فشيئا على التدريج ، فإن لم يقو ولم يكمل ، سلمت مملكة القلب للشيطان ، وأنجز اللعين موعده حيث قال (لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً [٢]) وإن كمل العقل وقوى ، كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ، ومفارقة العادات ، ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات . ولا معنى للتوبة إلا هذا، وهو الرجوع عن طريق،دليله الشهوة،وخفيره الشيطان ، إلى طريق الله تعالى . وليس فى الوجود آدمى إلا وشهوته سابقة على عقله،وغريزته التى هى عدة الشيطان متقدمة على غريزته التى هى عدة الملائكة ، فكان الرجوع عما سبق

---

(١) النور : ٣١ (٢) الاسراء : ٦٢

إليه على مساعدة الشهوات ضروريا فى حق كل إنسان ، نبيا كان أو غبيا ، فلا تظنن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام . وقد قيل .

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها سجية نفس كل غانية هند

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس الإنس ، لا يمكن فرض خلافه مالم تتبدل السنة الإلهية التى لا مطمع فى تبديلها . فإذاً كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره .

فإذا بلغ مسلما تبعا لأبويه ، غافلا عن حقيقة إسلامه ، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام ، فإنه لا يغنى عنه إسلام أبويه شيئا مالم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف ، بالرجوع إلى قالب حدود الله فى المنع والإطلاق ، والانفكاك ، والاسترسال ، وهو من أشق أبواب التوبة ، وفيه هلك الأكثرون ، إذ عجزوا عنه . وكل هذا رجوع وتوبة .

فدل أن التوبة فرض عين فى حق كل شخص ، لا يتصور أن يستغنى عنها أحد من البشر ، كما لم يستغن آدم . فخلقة الولد لا تتسع لما لم يتسع له خلقة الوالد أصلا

وأما بيان وجوبها على الدوام ، وفى كل حال ، فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بجوارحه . إذ لم يخلو عنه الأنبياء ، كما ورد فى القرءان والأخبار من خطايا الأنبياء ، وتوبتهم ، وبكائهم على خطاياهم . فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب . فإن خلا فى بعض الأحوال عن الهم ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله . فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله ، وصفاته ، وأفعاله . وكل ذلك نقص ، وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده ، والمراد بالتوبة الرجوع . ولا يتصور الخلو فى حق الآدمى عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون فى المقادير . فأما الأصل فلا بد منه . ولهذا قال عليه السلام [1] « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً »

---

(١) حديث انه ليغان على قلبي فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة : مسلم من حديث الأغر المزنى الا أنه قال فى اليوم مائة مرة وكذا عند أبى داود وللبخارى من حديث أبى هريرة انى لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة وفى رواية البيهقى فى الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم فى الأذكار والدعوات

الحديث.ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال(لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ [١]) وإذا كان هذا حاله ، فكيف حال غيره ؟

فإن قلت: لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من الهموم والخواطر نقص ، وأن الكمال في الخلو عنه ، وأن القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال ، وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع ، والرجوع توبة ، ولكن هذه فضائل لا فرائض ،وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال،والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة؛ إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع .فما المراد بقولك التوبة واجبة في كل حال ؟

فاعلم أنه قد سبق أن الإنسان لا يخلو في مبدإ خلقته من اتباع الشهوات أصلا . وليس معنى التوبة تركها فقط ، بل تمام التوبة بتدارك ما مضى . وكل شهوة اتبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه ،كما يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة . فإن تراكمت ظلمة الشهوات صار رينا ، كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثا،كما قال تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [٢]) فإذا تراكم الرين صار طبعا ، فيطبع على قلبه ، كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه ، غاص في جرم الحديد وأفسده،وصار لا يقبل الصقل بعده ، وصار كالمطبوع من الخبث . ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل ، بل لابد من محو تلك الأريان التي انطبعت في القلب . كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان . وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات ،فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات . فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام [١] « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا »

فإذا لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه ،بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات. هذا في قلب حصل أولا صفاؤه وجلاؤه، ثم أظلم بأسباب عارضة.

---

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها :الترمذي من حديث أبي ذر بزيادة في أوله وآخره وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس

---

(١) الفتح : ٢ (٢) التطفيف : ١٤

فأما التصقيل الأول ففيه يطول الصقل ، إذ ليس شغل الصقل فى إزالة الصدإ عن المرآة كشغله فى عمل أصل المرآة. فهذه أشغال طويلة لاتنقطع أصلا. وكل ذلك يرجع إلى التوبة

فأما قولك: إن هذا لايسمى واجبا ، بل هو فضل وطلب كمال ، فأعلم أن الواجب له معنيان أحدهما: مايدخل فى فتوى الشرع ، ويشترك فيه كافة الخلق ، وهو القدر الذى لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرب العالم ، فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حق تقاته لتركوا المعايش ، ورفضوا الدنيا بالكلية . ثم يؤدى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية ، فإنه مهما فسدت المعايش لم يتفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة ، والحراثة ، والخبز ، يستغرق جميع العمر من كل واحد فيما يحتاج إليه ، فجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار

والواجب الثانى :هو الذى لابد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين ، والمقام المحمود بين الصديقين . والتوبة عن جميع ماذكرناه واجبة فى الوصول إليه . كما يقال الطهارة واجبة فى صلاة التطوع ، أى لمن يريدها ، فإنه لايتوصل إليها إلا بها . فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع ، فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها . كما يقال العين ، والأذن ، واليد ، والرجل ، شرط فى وجود الإنسان . يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنسانا كاملا ينتفع بإنسانيته ، ويتوصل بها إلى درجات العلا فى الدنيا . فأما من قنع بأصل الحياة ، ورضى أن يكون كلحم على وضم ، وكخرقة مطروحة ، فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين ، ويد ، ورجل . فأصل الواجبات الداخلة فى فتوى العامة لايوصل إلا إلى أصل النجاة . وأصل النجاة كأصل الحياة ، وماوراء أصل النجاة من السعادات التى بها تنتهى الحياة ، يجرى مجرى الأعضاء والآلات التى بها تتهيأ الحياة ، وفيه سعى الأنبياء ، والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل ، وعليه كان حرصهم ، وحواليه كان تطوافهم ، ولأجله كان رفضهم لملاذ الدنيا بالكلية ، حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا فى منامه ، فجاء إليه الشيطان وقال : أما كنت تركت الدنيا للآخرة ؟ فقال نعم وما الذى حدث ؟ فقال توسدك لهذا الحجر تنعم فى الدنيا ، فلم لاتضع رأسك على الأرض ؟ فرمى عيسى عليه السلام بالحجر ، ووضع رأسه على الأرض . وكان رميه للحجر توبة عن ذلك التنعم . أفترى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لايسمى واجبا فى فتاوى العامة ؟

أفترى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم [١] ، لما شغله الثوب الذى كان عليه علم فى صلاته حتى نزعه ، [٢] وشغله شراك نعله الذى جدده حتى أعاد الشراك الخلق ، لم يعلم أن ذلك ليس واجبا فى شرعه الذى شرعه لكافة عباده ؟ فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه ؟ وهل كان ذلك إلا لأنه رآه مؤثرا فى قلبه أثرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذى قد وعد به ؟

أفترى أن الصديق رضي الله عنه بعد أن شرب اللبن ، وعلم أنه على غير وجهه، أدخل أصبعه فى حلقه ليخرجه ، حتى كاد يخرج معه روحه ، ما علم من الفقه هذا القدر ، وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ، ولا يجب فى فتوى الفقه إخراجه فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه ؟ وهل كان ذلك إلا لسر وقر فى صدره ، عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر ؛ وأن خطر طريق الآخرة لا يعرفه إلا الصديقون ؟

فتأمل أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله ، وبطريق الله ؛ وبمكر الله، وبمكامن الغرور بالله . وإياك مرة واحدة أن تغرك الحياة الدنيا ، وإياك ثم إياك ألف ألف مرة أن يغرك بالله الغرور . فهذه أسرار من استنشق مبادى روائحها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للعبد السالك فى طريق الله تعالى ، فى كل نفس من أنفاسه ، ولو عمر عمر نوح ، وأن ذلك واجب على الفور من غير مهلة . ولقد صدق أبو سليمان الدارانى حيث قال : لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على تفويت ما مضى منه فى غير الطاعة ، لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات . فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله ! وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة ؛ وضاعت منه بغير فائدة ، بكى عليها لا محالة . وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه ، كان بكاؤه منها أشد . وكل ساعة من العمر ، بل كل نفس جوهرة نفيسة ، لا خلف لها ، ولا بدل منها ، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد ، وتنقذك من شقاوة الأبد . وأى جوهر أنفس من هذا ؟ فإذا ضيعتها فى الغفلة ، فقد خسرت خسرانا مبينا . وإن صرفتها إلى معصية، فقد هلكت هلاكا فاحشا . فإن كنت لا تبكى على هذه المصيبة ، فذلك لجهلك . ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة ،

---

(١) حديث نزعه صلى الله عليه وسلم الذى كان عليه فى الصلاة : تقدم فى الصلاة أيضا

(٢) حديث نزعه الشراك الجديد واعادة الشراك الخلق : تقدم فى الصلاة أيضا

لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة . فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته ، والناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا . فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ، ولكل مصاب مصيبته . وقد رفع الناس عن التدارك

قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد ، أعلمه أنه قد بقى من عمرك ساعة ، وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين . فيبدو للعبد من الأسف والحسرة مالو كانت له الدنيا بحذافيرها لخرج منها ، على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ، ليستعتب فيها ويتدارك تفريطه ، فلا يجد إليه سبيلا . وهو أول مايظهر من معانى قوله تعالى (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ [1]) وإليه الإشارة بقوله تعالى (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا [2]) فقيل الأجل القريب الذى يطلبه : معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد : ياملك الموت ، أخرنى يوما أعتذر فيه إلى ربى وأتوب ، وأتزود صالحا لنفسى فيقول : فنيت الأيام فلا يوم . فيقول : فأخرنى ساعة . فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة ، فيتغرغر بروحه ، وتتردد أنفاسه فى شر أسفه ، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك ، وحسرة الندامة على تضييع العمر ، فيضطرب أصل إيمانه فى صدمات تلك الأحوال . فإذا زهقت نفسه ، فإن كان سبقت له من الله الحسنى ، خرجت روحه على التوحيد ، فذلك حسن الخاتمة . وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله ، خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة . ولمثل هذا يقال (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [3]) وقوله (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ [4]) ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » ولذلك قال لقمان لابنه : يا بنى لا تؤخر التوبة ، فإن الموت يأتى بغتة . ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف ، كان بين خطرين عظيمين . أحدهما : أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى ، حتى يصير رينا وطبعا ،

(1) سبأ : ٥٤ (2) المنافقون : ١٠ ، ١١ (3) النساء : ١٨ (4) النساء : ١٧

فلا يقبل المحو . الثانى :أن يعاجله المرض أو الموت ، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد فى الخبر [١] « إِنَّ أَكْثَرَ صِيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مِنَ التَّسْوِيفِ » فما هلك من هلك إلا بالتسويف . فيكون تسويده القلب نقدا ، وجلاؤه بالطاعة نسيئة ، إلى أن يختطفه الموت فيأتى الله بقلب غير سليم . ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم . فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده ، والعمر أمانة الله عنده . وكذا سائر أسباب الطاعة . فمن خان فى الأمانة ولم يتدارك خيانته ، فأمره مخطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام. أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدى ، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا ، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وأنظر إلىّ كيف تلقانى . والثانى :عند خروج روحه يقول : عبدى ، ماذا صنعت فى أمانتى عندك؟ هل حفظتها حتى تلقانى على العهد ، فألقاك على الوفاء ؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب ؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ [١]) وبقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ [٢])

بيان

أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهى مقبولة لا محالة

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول ، لم تشك فى أن كل توبة صحيحة فهى مقبولة. فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرءان ، علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله، ومتنعم فى الآخرة فى جوار الله تعالى ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى وعلموا أن القلب خلق سليما فى الأصل ، وكل مولود يولد على الفطرة ، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها . وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصى مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون .

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسويف : لم أجد له أصلا

(١) البقرة : ٤٠ (٢) المؤمنون : ٨

وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه. فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره . وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب، وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة. فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ، ويطهره ، ويزكيه . وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول ، كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول. فإنما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له . وهو المسمى فلاحا في قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [١])

ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من المشاهدة بالبصر ، أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا ، يستعار لأحدهما لفظ الظلمة ، كما يستعار للجهل ، ويستعار للآخر لفظ النور ، كما يستعار للعلم ، وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا ، لا يتصور الجمع بينهما . فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ، ولم يعلق به إلا أسماؤه ، وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين ، بل عن حقيقة نفسه ، وصفات نفسه . ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل . وأعني به قلبه. إذ بقلبه يعرف غير قلبه. فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه!

فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل ، كمن يتوهم أن الشمس تطلع والظلام لا يزول ، والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول . إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى تصير طبعا ورينا على القلب . فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب . نعم :قد يقول باللسان تبت، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظف الثوب أصلا ، مالم يغير صفة الثوب باستعمال مايضاد الوصف المتمكن به . فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد ، بل هو الغالب على كافة الخلق المقبلين على الدنيا ، المعرضين عن الله بالكلية . فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة . ولكنا نعضد جناحه بنقل الآيات ، والأخبار ، والآثار . فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به. وقد قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ [٢]) وقال تعالى (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ [٣]) إلى غير ذلك من الآيات

---

(١) الشمس : ٩ (٢) الشورى : ٢٥ (٣) غافر : ٣

وقال صلى الله عليه وسلم « لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ » الحديث والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالتَّوْبَةِ لِمُسِيءِ اللَّيْلِ إِلَى النَّهَارِ وَلِمُسِيءِ النَّهَارِ إِلَى اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » وبسط اليد كناية عن طلب التوبة . والطالب وراء القابل ، فرب قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل . وقال صلى الله عليه وسلم [2] « لَوْ عَمِلْتُمُ الْخَطَايَا حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ ثُمَّ نَدِمْتُمْ لَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ » وقال أيضا [3] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ » فقيل كيف ذلك يارسول الله ؟ قال « يَكُونُ نَصْبَ عَيْنِهِ تَائِبًا مِنْهُ فَارًّا حَتَّى يَدْخُلَ الْجَنَّةَ » وقال صلى الله عليه وسلم [4] « كَفَّارَةُ الذَّنْبِ النَّدَامَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ »

ويروى [5] أن حبشيا قال يارسول الله ، إني كنت أعمل الفواحش ، فهل لي من توبة؟ قال نعم . فولى ثم رجع فقال : يارسول الله ، أ كان يراني وأنا أعملها ؟ قال نعم . فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه . ويروى [6] أن الله عز وجل لما لعن ابليس، سأله النظرة

---

(١) حديث ان الله يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ـ الحديث: مسلم من حديث أبي موسى بلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ـ الحديث :وفي رواية للطبراني لمسيء الليل أن يتوب بالنهار ـ الحديث :

(٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم :ابن ماجه من حديث أبي هريرة واسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبتم

(٣) حديث ان العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة ـ الحديث : ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة ان العبد ليذنب الذنب فاذا ذكره أحزنه فاذا نظر الله اليه أنه أحزنه غفر له ـ الحديث : وفيه صالح المري وهو رجل صالح لكنه مضعف في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة من حديث ابن عمر ان الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي

(٤) حديث كفارة الذنب الندامة :أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو ابن مالك اليشكري ضعيف

(٥) حديث ان حبشيا قال يارسول الله اني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم ـ الحديث :لم أجد له أصلا

(٦) حديث ان الله لما لعن ابليس سأله النظرة فأنظره الى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح ـ الحديث : أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد ان الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده المصنف بصيغة ويروى كذا ولم يعزه الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا

فأنظره إلى يوم القيامة . فقال : وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى . وعزتى وجلالى لا حجبت عنه التوبة مادام الروح فيه . وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ كَمَا يُذْهِبُ الْمَاءُ الْوَسَخَ » والأخبار فى هذا لا تحصى

وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب : أنزل قوله تعالى (فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا [1]) فى الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل : قال الله تعالى : بشر المذنبين بأنهم ان تابوا قبلت منهم . وحذر الصديقين أنى إن وضعت عليهم عدلى عذبتهم وقال طلق بن حبيب . إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : من ذكر خطيئة ألم بها ، فوجل منها قلبه ، محيت عنه فى أم الكتاب ويروى أن نبيا من أنبياء بنى اسرائيل أذنب ، فأوحى الله تعالى إليه ، وعزتى لئن عدت لأعذبنك . فقال يارب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، وعزتك إن لم تعصمنى لأعودن . فعصمه الله تعالى . وقال بعضهم . إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادما حتى يدخل الجنة . فيقول إبليس . ليتنى لم أوقعه فى الذنب . وقال حبيب بن ثابت . تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة ، فيمر بالذنب فيقول : أما إنى قد كنت مشفقا منه ، قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به ، هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه ، فرأى عينيه تذرفان . فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب ، كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة ، فإن عليه ملكا موكلا به لا يغلق ، فاعمل ولا تيأس .

وقال عبد الرحمن بن أبى القاسم . تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر ، وقول الله تعالى (إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ [2]) فقال إنى لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالا . ولقد بلغنى أن توبة المسلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام . لا أحدثكم إلا عن نبى مرسل ، أو كتاب منزل . إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين ، سقط عنه أسرع من طرفة عين . وقال عمر رضى الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

---

(١) حديث ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ : لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذى وتقدم قريبا

(١) الاسراء : ٢٥ (٢) الانفال ٣٨

بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لى . قيل ومتى ؟ قال إذا تاب على . وقال آخر : أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم المغفرة . أى المغفرة من لوازم التوبة وتوابعها لامحالة

ويروى أنه كان فى بنى إسرائيل شاب عبَدَ الله تعالى عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة . ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته ، فساءه ذلك ، فقال : إلهى أطعتك عشرين سنة ، ثم عصيتك عشرين سنة . فإن رجعت إليك أتقبلنى ؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا . أحببتنا فأحببناك ، وتركتنا فتركناك ، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك

وقال ذو النون المصرى رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب روامق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندما وحزنا : فجنوا من غير جنون ، وتبلدوا من غير عىّ ولا بكم ، وأنهم هم البلغاء الفصحاء ، العارفون بالله ورسوله ، ثم شربوا بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ، ثم تولهت قلوبهم فى الملكوت : وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت : واستظلوا تحت رواق الندم ، وقرؤا صحيفة الخطايا ، فأورثوا أنفسهم الجزع ، حتى وصلوا إلى علو الزهد بسلم الورع ، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا ، واستلانوا خشونة المضجع ، حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة ، وسرحت أرواحهم فى العلا ، حتى أناخوا فى رياض النعيم ، وخاضوا فى بحر الحياة ، وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى ، حتى نزلوا بفناء العلم ، واستقوا من غدير الحكمة ، وركبوا سفينة الفطنة ، وأقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة ، حتى وصلوا إلى رياض الراحة، ومعدن العز والكرامة . فهذا القدر كاف فى بيان أن كل توبة صحيحة مقبوله لا محالة

فإن قلت: أفتقول ماقالته المعتزلة ، من أن قبول التوبة واجب على الله

فأقول: لا أعنى بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله ، إلا مايريده القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ . وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش . وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش . وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس فى شىء من ذلك ما يريده المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكفرة للمعصية ، والحسنة ماحية للسيئة ، كما خلق الماء مزيلا للعطش ، والقدرة متسعة بخلافه لو سبقت به المشيئة ، فلا واجب على الله تعالى . ولكن ماسبقت به إرادته

الأزلية فواجب كونه لامحالة . فإن قلت : فما من تائب إلا وهو شاك فى قبول توبته والشارب للماء لا يشك فى زوال عطشه ، فلم يشك فيه

فأقول :شكه فى القبول كشكه فى وجود شرائط الصحة . فإن للتوبة أركانا وشروطا دقيقة كما سيأتى ، وليس يتحقق وجود جميع شروطها ، كالذى يشك فى دواء شربه للإسهال فى أنه هل يسهل ، وذلك لشكه فى حصول شروط الإسهال فى الدواء ، باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه ، وجودة عقاقيره وأدويته . فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة ، وموجب للشك فى قبولها لامحالة ، على ما سيأتى فى شروطها إن شاء الله تعالى

الركن الثانى

فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها

اعلم أن التوبة ترك الذنب . ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة ، كان مالا يتوصل إليها إلا به واجبا . فمعرفة الذنوب إذاً واجبة . والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى ، فى ترك أو فعل . وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا . ولكنا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامها ، والله الموفق للصواب برحمته

بيان

أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد

اعلم أن للإنسان أوصافا وأخلاقا كثيرة ، على ماعرف شرحه فى كتاب عجائب القلب وغوائله . ولكن تنحصر مثارات الذنوب فى أربع صفات : صفات ربوبية ، وصفات شيطانية ، وصفات بهيمية ، وصفات سبعية . وذلك لأن طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة ، فاقتضى كل واحد من الأخلاط فى المعجون منه أثرا من الآثار ، كما يقتضى السكر والخل ، والزعفران ، فى السكنجبين آثارا مختلفة

فأما ما يقتضى النزوع إلى الصفات الربوبية ، فمثل الكبر ، والفخر ، والجبرية ، وحب

المدح ، والثناء ، والعز ، والغنى ، وحب دوام البقاء ، وطلب الاستعلاء على الكافة ، حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى . وهذا يتشعب منه جملة من كبائر الذنوب ، غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبا ، وهى المهلكات العظيمة ، التى هى كالأمهات لأكثر المعاصى ، كما استقصيناه فى ربع المهلكات

الثانية : هى الصفة الشيطانية ، التى منها يتشعب الحسد ، والبغى ، والحيلة ، والخداع والأمر بالفساد والمنكر . وفيه يدخل الغش ، والنفاق ، والدعوة إلى البدع والضلال

الثالثة : الصفة البهيمية ، ومنها يتشعب الشره ، والكلب ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج . ومنه يتشعب الزنا ، واللواط ، والسرقة وأكل مال الأيتام ، وجمع الحطام لأجل الشهوات

الرابعة : الصفة السبعية ، ومنها يتشعب الغضب ، والحقد ، والتهجم على الناس بالضرب والشتم ، والقتل ، واستهلاك الأموال . ويتفرع عنها جمل من الذنوب .

وهذه الصفات لها تدريج فى الفطرة ، فالصفة البهيمية هى التى تغلب أولا ، ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا ، ثم إذا اجتمعا استعملا العقل فى الخداع ، والمكر ، والحيلة ، وهى الصفة الشيطانية ، ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية ، وهى الفخر ، والعز ، والعلو ، وطلب الكبرياء ، وقصد الاستيلاء على جميع الخلق .

فهذه أمهات للذنوب ومنابعها . ثم تتفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها فى القلب خاصة كالكفر ، والبدعة ، والنفاق ، وإضمار السوء للناس . وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن . ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح — قسمة ثانية : —

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى ، وإلى ما يتعلق بحقوق العباد . فما يتعلق بالعبد خاصة كترك الصلاة ، والصوم ، والواجبات الخاصة به . وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة ، وقتله النفس ، وغصبه الأموال ، وشتمه الأعراض . وكل متناول من حق الغير فإما نفس ، أو طرف ، أو مال ، أو عرض ، أو دين ، أو جاه . وتناول الدين بالإغواء ، والدعاء إلى البدعة ، والترغيب فى المعاصى ، وتهييج أسباب الجراءة على الله تعالى كما يفعله بعض الوعاظ بتغليب جانب الرجاء على جانب الخوف ، وما يتعلق بالعباد ، فالأمر فيه أغلظ

وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركا ، فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء فى الخبر [1] « الدَّوَاوِينُ ثَلَاثَةٌ دِيوَانٌ يُغْفَرُ وَدِيوَانٌ لَا يُغْفَرُ وَدِيوَانٌ لَا يُتْرَكُ فَالدِّيوَانُ الَّذِى يُغْفَرُ ذُنُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِى لَا يُغْفَرُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَى وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِى لَا يُتْرَكُ فَمَظَالِمُ الْعِبَادِ » أى لابد وأن يطالب بها حتى يعفى عنها ـ قسمة ثالثة :ـ

اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر . وقد كثر اختلاف الناس فيها . فقال قائلون لا صغيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهى كبيرة وهذا ضعيف . إذ قال تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا [1]) وقال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ [2]) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ يُكَفِّرْنَ مَا بَيْنَهُنَّ إِنِ اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ » وفى لفظ آخر « كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه [3] عبد الله بن عمرو بن العاص « الْكَبَائِرُ الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ »

واختلف الصحابة والتابعون فى عدد الكبائر ، من أربع ، إلى سبع ، إلى تسع ، إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك . فقال ابن مسعود . هن أربع : وقال ابن عمر : هن سبع . وقال عبد الله بن عمرو . هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول : هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع . وقال مرة . كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره : كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر . وقال بعض السلف . كل ما أوجب عليه الحد فى الدنيا فهو كبيرة . وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها ، كليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها . اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ [3]) فكل ما نهى الله عنه

---

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر ـ الحديث : أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة ابن موسى الدقيق ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبرانى

(٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن ان اجتنبت الكبائر : مسلم من حديث أبى هريرة

(٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس : رواه البخارى

---

(1) النساء : ٣١ (2) النجم : ٣٢ (3) النساء : ٣١

فى هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب المكى . الكبائر سبع عشرة ، جمعتها من جملة الأخبار (١) . وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس ،وابن مسعود،وابن عمر

---

(١) الأخبار الواردة فى الكبائر حكى المصنف عن أبى طالب المكى أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة مااجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والاصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين الغموس والسحر وشرب الخمر والمسكر وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا والزنا واللواط والقتل والسرقة والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى وسأذكر ماورد منها مرفوعا وقد تقدم أربعة منها فى حديث عبد الله بن عمرو وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يارسول الله وماهى قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أوقال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أوقال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزانى حليلة جارك وللطبرانى من حديث سلمة بن قيس إنما هى أربع لاتشركوا بالله شيئا ولاتقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولاتزنوا ولاتسرقوا وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولاتزنوا ولاتسرقوا وفى الاوسط للطبرانى من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفا على عبد الله بن عمرو أعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبزار من حديث ابن عباس باسناد حسن ان رجلا قال يارسول الله ماالكبائر قال الشرك بالله والاياس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع الفحل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائى وغيرهما وله من حديث أبى هريرة الكبائر أولهن الاشراك بالله وفيه والانتقال إلى الاعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمتى ضعيف وللطبرانى فى الكبير من حديث سهل بن أبى حثمة فى الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الاعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الاشعرى ضعفه الدارقطنى وللحاكم من حديث عبيد ابن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبرانى من حديث واثلة ان من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على ما لم أقل وله أيضا من حديثه ان من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبى داود من حديث سعيد ابن زيد من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق وفى الصحيحين من حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم مر على قبرين فقال انهما ليعذبان ومايعذبان فى كبير وانه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة وأما الآخر فكان لايستتر من بوله ــ الحديث : ولأحمد فى هذه القصة من حديث أبى بكرة أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس ــ الحديث : ولأبى داود والترمذى من حديث

وغيرهم ، أربعة فى القلب ، وهى الشرك بالله ، والإصرار على معصيته ، والقنوط من رحمته ، والأمن من مكره . وأربع فى اللسان ، وهى شهادة الزور ، وقذف المحصن واليمين الغموس ، وهى التى يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا ، وقيل هى التى يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلا ولو سواكا من أراك ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى النار ، والسحر ، وهو كل كلام يغير الإنسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة

وثلاث فى البطن ، وهى شرب الخمر والمسكر من كل شراب ، وأكل مال اليتيم ظلما ، وأكل الربا وهو يعلم . واثنتان فى الفرج ، وهما الزنا واللواط .

واثنتان فى اليدين ، وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين ، وهو الفرار من الزحف ، الواحد من اثنين ، والعشرة من العشرين . وواحدة فى جميع الجسد ، وهى عقوق الوالدين ، قال وجملة عقوقهما أن يقسما عليه فى حق فلا يبر قسمهما . وإن سألاه حاجة فلا يعطيهما . وإن يسباه فيضربهما . ويجوعان فلا يطعمهما

هذا ماقاله وهو قريب ، ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء ، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه . فإنه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر ، وهى جناية على الأموال

انس عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرءان أو آية أوتيها رجل ثم نسيها سكت عليه أبو داود واستغربه البخارى والترمذى وروى ابن أبى شيبة فى التوبة من حديث ابن عباس لا صغيرة مع اصرار وفيه أبو شيبة الخراسانى والحديث منكر يعرف به (وأما الموقوفات) فروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الاشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله وروى البيهقى فيه عن ابن عباس قال الكبائر الاشراك بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التى حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين الغموس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكتمان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متعمدا وأشياء مما فرضها الله ونقض العهد وقطيعة الرحم وروى ابن أبى الدنيا فى التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح مختلف فيه وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس عن أنس قوله لا صغيرة مع الاصرار واسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون الا أن بعضها لا يصح اسناده كما تقدم وانما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ماورد فى المرفوع وماورد فى الموقوف وللبيهقى فى الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هى إلى السبعين أقرب وروى البيهقى أيضا فيه عن ابن عباس قال كل ما نهى الله عنه كبيرة والله أعلم

ولم يذكر فى كبائر النفوس إلا القتل . فأما فقء العين ، وقطع اليدين ،وغيرذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب ، فلم يتعرض له . وضرب اليتيم وتعذيبه ، وقطع أطرافه لاشك فى أنه أكبر من أكل ماله . كيف وفى الخبر « مِنَ الْكَبَائِرِ [1] السَّبَّتَانِ بِالسَّبَّةِ وَمِنَ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ » وهذا زائد على قذف المحصن. وقال [2] أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة . إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر

وقالت طائفة كل عمد كبيرة ، وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة : وكشف الغطاء عن هذا:أن نظر الناظر فى السرقة أهى كبيرة أم لا ،لا يصح،مالم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها . كقول القائل : السرقة حرام أم لا ، لامطمع فى تعريفه إلا بعد تقرر معنى الحرام أولا ثم البحث عن وجوده فى السرقة . فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ،ليس له موضوع خاص فى اللغة ولا فى الشرع . وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات ، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه ، وصغير بالإضافة إلى مافوقه . فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزنا . وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله. نعم للإنسان أن يطلق على ماتوعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة . ونعني بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة . وله أن يطلق على ماأوجب الحد عليه مصيرا إلى أن ماعجل عليه فى الدنيا عقوبة واجبة عظيما ،وله أن يطلق على ماورد فى نص الكتاب النهى عنه ، فيقول تخصيصه بالذكر فى القرءان يدل على عظمه ،ثم يكون عظيما وكبيرة لامحالة بالإضافة . إذ منصوصات القرءان أيضا تتفاوت درجاتها

فهذه الإطلاقات لاحرج فيها . ومانقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ،

---

(١) حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم : عزاه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لأحمد وأبى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق كما تقدم

(٢) حديث أبى سعيد الخدرى وغيره من الصحابة انكم تعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبزار بسند صحيح وقال من الموبقات بدل الكبائر ورواه البخارى من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد

ولا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات . نعم من المهمات أن تعلم معنى قول الله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَاتُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ [١]) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصَّلَوَاتُ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِلَّا الْكَبَائِرَ » فإن هذا إثبات حكم الكبائر

والحق فى ذلك أن الذنوب منقسمة فى نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها ، وإلى ما يعلم أنها معدودة فى الصغائر ، وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه : فالطمع فى معرفة حد حاصر ، أو عدد جامع مانع ، طلب لما لا يمكن . فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول إنى أردت بالكبائر عشرا ، أو خمسا ، ويفصلها . فإن لم يرد هذا ، بل ورد فى بعض الألفاظ [١] ثلاث من الكبائر ، وفى بعضها [٢] سبع من الكبائر . ثم ورد أن السبتين بالسبة الواحدة من الكبائر ، وهو خارج عن السبع والثلاث ، علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر . فكيف يطمع فى عدد مالم يعده الشرع ! وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل ، كما أبهم ليلة القدر ليعظم جد الناس فى طلبها . نعم لنا سبيل كلى يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فنعرفها بالظن والتقريب ونعرف أيضا أكبر الكبائر . فأما أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته

وبيانه أنا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعا ، أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى ، وسعادة لقائه . وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وكتبه ورسله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [٢]) أى ليكونوا عبيدا لى . ولا يكون العبد عبدا مالم يعرف ربه بالربوبية ، ونفسه بالعبودية . ولا بد أن يعرف نفسه وربه . فهذا هو المقصود الأقصى ببعثة الأنبياء . ولكن لا يتم هذا إلا فى الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه السلام [٣] « الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ »

---

(١) حديث ثلاث من الكبائر : الشيخان من حديث أبى بكرة ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا ــ الحديث : وقد تقدم

(٢) حديث سبع من الكبائر : طب فى الاوسط من حديث أبى سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله فى الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر ــ الحديث : ثم عدهن سبعا وتقدم عن الصحيحين حديث أبى هريرة اجتنبوا السبع الموبقات

(٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة : لم أجده بهذا اللفظ مرفوعا وروى العقيلى فى الضعفاء وأبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته ــ الحديث : وإسناده ضعيف

---

(١) النساء : ٣١ (٢) الذاريات : ٥٦

فصـــار حفظ الدنيا أيضا مقصودا تابعا للدين ، لأنه وسيلة إليه . والمتعلق من الدنيا بالآخرة شيئآن: النفوس والأموال . فكل مايسد باب معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر ، ويليه مايسد باب حياة النفوس ، ويليه مايسد باب المعايش التي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب

لحفظ المعرفة على القلوب ، والحياة على الأبدان ، والأموال على الأشخاص ، ضرورى فى مقصود الشرائع كلها . وهذه ثلاثة أمور لايتصور أن تختلف فيها الملل . فلا يجوز أن الله تعالى يبعث نبيا يريد ببعثه إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ، ثم يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله ، أو يأمرهم بإهلاك النفوس وإهلاك الأموال . فحصل من هـذا أن الكبائر على ثلاث مراتب

الأولى : مايمنع من معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وهو الكفر . فلا كبيرة فوق الكفر . إذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل . والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته ، وبعده بقدر جهله . ويتلو الجهل الذى يسمى كفرا ، الأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمته . فإن هذا أيضا عين الجهل . فمن عرف الله لم يتصور أن يكون آمنا ، ولا أن يكون آيسا . ويتلو هذه الرتبة البدع كلها ، المتعلقة بذات الله ، وصفاته ، وأفعاله . وبعضها أشد من بعض . وتفاوتها على حسب تفاوت الجهل بها ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه ، وبأفعاله ، وشرائعه ، وبأوامره ، ونواهيه ومراتب ذلك لاتنحصر وهى تنقسم إلى مايعلم أنها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة فى القرءان وإلى مايعلم أنه لايدخل ، وإلى مايشك فيه . وطلب دفع الشك فى القسم المتوسط طمع فى غير مطمع

المرتبة الثانية : النفوس . إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة ، وتحصل المعرفة بالله . فقتل النفس لامحالة من الكبائر ، وإن كان دون الكفر . لأن ذلك يصدم عين المقصود ، وهذا يصدم وسيلة المقصود . إذ حياة الدنيا لاتراد إلا للآخرة ، والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى

ويتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف ، وكل مايفضى إلى الهلاك ، حتى الضرب ، وبعضها أكبر من بعض . ويقع فى هذه الرتبة تحريم الزنا واللواط ، لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور فى قضاء الشهوات انقطع النسل ، ودفع الموجود قريب من قطع الوجود . وأما الزنا فإنه لايفوت أصل الوجود ، ولكن يشوش الأنساب ، ويبطل التوارث والتناصر

وجملة من الأمور التى لا ينتظم العيش إلا بها . بل كيف يتم النظام مع إباحة الزنا ، ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختص بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح . وينبغى أن يكون الزنا فى الرتبة دون القتل ، لأنه ليس يفوت دوام الوجود ، ولا يمنع أصله ، ولكنه يفوت تمييز الأنساب ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل . وينبغى أن يكون أشد من اللواط ، لأن الشهوة داعية إليه من الجانبين ، فيكثر وقوعه ، ويعظم أثر الضرر بكثرته

المرتبة الثالثة : الأموال . فإنها معايش الخلق ، فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا ، حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما . بل ينبغى أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس . إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها ، وإن أكلت أمكن تغريمها . فليس يعظم الأمر فيها نعم : إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له ؛ فينبغى أن يكون ذلك من الكبائر وذلك بأربع طرق

أحدها : الخفية ، وهى السرقة . فإنه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف يتدارك ؟

الثانى : أكل مال اليتيم . وهذا أيضا من الخفية . وأعنى به فى حق الولى والقيم . فإنه مؤتمن فيه ، وليس له خصم سوى اليتيم ، وهو صغير لا يعرفه . فتعظيم الأمر فيه واجب ، بخلاف الغصب فإنه ظاهر يعرف ، وبخلاف الخيانة فى الوديعة ، فإن المودع خصم فيه ينتصف لنفسه .

الثالث : تفويتها بشهادة الزور

الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين الغموس . فإن هذه طرق لا يمكن فيها التدارك . ولا يجوز أن تختلف الشرائع فى تحريمها أصلا ، وبعضها أشد من بعض ، وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس .

وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر ؛ وإن لم يوجب الشرع الحد فى بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها ، وعظم فى مصالح الدنيا تأثيرها

وأما أكل الربا . فليس فيه إلا أكل مال الغير بالتراضى ، مع الإخلال بشرط وضعه الشرع . ولا يبعد أن تختلف الشرائع فى مثله . وإذا لم يجعل الغصب الذى هو أكل مال الغير بغير رضاه ، وبغير رضا الشرع من الكبائر ، فأكل الربا أكل برضا المالك ، ولكن

دون رضا الشرع . وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه فقد عظم أيضا الظلم بالغصب وغيره وعظم الخيانة . والمصير إلى أن أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر. وذلك واقع فى مظنة الشك . وأكثر ميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر ، بل ينبغى أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا فى الدين

فيبقى مما ذكره أبو طالب المكى ، القذف ،والشرب ، والسحر ، والفرار من الزحف ، وحقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل ، فهو جدير بأن يكون من الكبائر . وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا . لأن العقل محفوظ ، كما أن النفس محفوظة بل لا خير في النفس دون العقل . فإزالة العقل من الكبائر . ولكن هذا لا يجرى فى قطرة من الخمر ، فلا شك فى أنه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة ، وإنما هو شربُ ماء نجس . والقطرة وحدها فى محل الشك . وإيجاب الشرع الحدّ به يدل على تعظيم أمره ، فيعد ذلك من الكبائر بالشرع ، وليس فى قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع فى أنه كبيرة وجب الاتباع ، وإلا فللتوقف فيه مجال

وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض ، والأعراض دون الأموال فى الرتبة . ولتناولها مراتب : وأعظمها التناول بالقذف ، بالإضافة إلى فاحشة الزنا ، وقد عظم الشرع أمره . وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يعدون كل ما يجب به الحد كبيرة ، فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس ، وهو الذى نريده بالكبيرة الآن . ولكن من حيث أنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع ، فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته . بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزنى ، فله أن يشهد ، ويجلد المشهود عليه بمجرد شهادته . فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا فى مصالح الدنيا ، وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة فى رتبة الحاجات . فإذاً هذا أيضا يلحق بالكبائر فى حق من عرف حكم الشرع . فأما من ظن أن له أن يشهد وحده ، أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره ، فلا ينبغى أن يجعل فى حقه من الكبائر

وأما السحر ، فإن كان فيه كفر فكبيرة ، وإلا فعظمته بحسب الضرر الذى يتولد منه من هلاك نفس ، أو مرض ، أو غيره

وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف . وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا ، وضربهم ، والظلم لهم بغصب أموالهم، وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلائهم من أوطانهم، ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة ، وهو أكبر ماقيل فيه، فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ، ولكن الحديث يدل على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر

فإذا رجع حاصل الأمر إلى أنا نعني بالكبيرة مالا تكفره الصلوات الخمس بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ماعلم أنه لاتكفره قطعا ، وإلى ما ينبغي أن تكفره ، وإلى ما يتوقف فيه والمتوقف فيه بعضه مظنون للنفي والإثبات ، وبعضه مشكوك فيه ، وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة . وإذاً لامطمع فيه ، فطلب رفع الشك فيه محال

فإن قلت: فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها. فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده

فاعلم أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام ، لأن دار التكليف هي دار الدنيا . والكبيرة على الخصوص لاحكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة . بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها ، كالسرقة والزنا وغيرهما . وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والإبهام أليق به حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ [1]) ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة . كمن يتمكن من امرأة ، ومن مواقعتها ، فيكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع ، أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه . فهذا معنى تكفيره . فإن كان عنينا ، أولم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز، أو كان قادرا ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من لا يشتهي الخمر بطبعه ، ولو أبيح له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي

---

(١) النساء : ٣١

من مقدماته ، كسماع الملاهى والأوتار . نعم: من يشتهى الخمر وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر ، ويطلقها فى السماع ، فمجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع

فكل هذه أحكام أخروية ، ويجوز أن يبقى بعضها فى محل الشك، وتكون من المتشابهات ، فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ، ولم يرد النص بعد ، ولا حد جامع ، بل ورد بألفاظ مختلفات . فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « الصَّلَاةُ إِلَى الصَّلَاةِ كَفَّارَةٌ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ كَفَّارَةٌ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ إِشْرَاكٌ بِاللَّهِ وَتَرْكُ السُّنَّةِ وَنَكْثُ الصَّفْقَةِ » قيل ماترك السنة ؟ قيل الخروج عن الجماعة، ونكث الصفقة أن يبايع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقاتله . فهذا وأمثاله من الألفاظ لا يحيط بالعدد كله ولا يدل على حد جامع ، فيبقى لامحالة مبهما

فإن قلت الشهادة لاتقبل إلا ممن يجتنب الكبائر ، والورع عن الصغائر ليس شرطا فى قبول الشهادة ، وهذا من أحكام الدنيا ، فاعلم أنا لا نخصص رد الشهادة بالكبائر . فلا خلاف فى أن من يسمع الملاهى ، ويلبس الديباج ، ويتختم بخاتم الذهب، ويشرب فى أوانى الذهب والفضة ، لاتقبل شهادته ، ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر . وقال الشافعى رضى الله عنه: إذا شرب الحنفى النبيذ حددته ، ولم أرد شهادته . فقد جعله كبيرة بإيجاب الحد ، ولم يرد به الشهادة . فدل على أن الشهادة نفيا وإثباتا لاتدور على الصغائر والكبائر . بل كل الذنوب تقدح فى العدالة، إلا مالا يخلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجارى العادات ، كالغيبة، والتجسس، وسوء الظن ، والكذب فى بعض الأقوال ، وسماع الغيبة ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأكل الشبهات ، وسب الولد والغلام ، وضربهما بحكم الغضب زائدا على المصلحة ، وإكرام السلاطين الظلمة ، ومصادقة الفجار ، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين . فهذه ذنوب لايتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعتزل الناس ، ويتجرد لأمور الآخرة ، ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على سمته مع المخالطة بعد ذلك . ولو لم يقبل إلا قول مثله لعز وجوده ، وبطلت الأحكام .

---

(١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشراك بالله وترك السنة ونكث الصفقة ـ الحديث : الحاكم من حديث أبى هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد

والشهادات . وليس لبس الحرير ، وسماع الملاهى ، واللعب بالنرد ، ومجالسة أهل الشرب فى وقت الشرب ؛ والخلوة بالأجنبيات ، وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل . فإلى مثل هذا المنهاج ينبغى أن ينظر فى قبول الشهادة وردها ، لا إلى الكبيرة والصغيرة

ثم آحاد هذه الصغائر التى لا ترد الشهادة بها لو واظب عليها لأثر فى رد الشهادة . كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة . وكذلك مجالسة الفجار ومصادقتهم . والصغيرة تكبر بالمواظبة ، كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج ، والترنم بالغناء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر

بيان

كيفية توزع الدرجات والدركات فى الآخرة على الحسنات والسيئات فى الدنيا

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة ، والآخرة من عالم الغيب والملكوت . وأعنى بالدنيا حالتك قبل الموت ، وبالآخرة حالتك بعد الموت . فدنياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الدانى منها دنيا ، والمتأخر آخرة . ونحن الآن نتكلم من الدنيا فى الآخرة فإنا الآن نتكلم فى الدنيا وهو عالم الملك ، وغرضنا شرح الآخرة وهى عالم الملكوت . ولا يتصور شرح عالم الملكوت فى عالم الملك إلا بضرب الأمثال . ولذلك قال تعالى (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [1]) وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا » وما سيكون فى اليقظة لا يتبين لك فى النوم ، إلا الأمثال المحجوبة إلى التعبير ، فكذلك ما سيكون فى يقظة الآخرة لا يتبين فى نوم الدنيا إلا فى كثرة الأمثال . وأعنى بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير .

ويكفيك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة . فقد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال : رأيت كأن فى يدى خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال إنك مؤذن تؤذن فى رمضان

---

(١) حديث الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا : لم أجده مرفوعا وانما يعزى الى على بن أبي طالب

(١) العنكبوت : ٤٣

قبل طلوع الفجر . قال صدقت . وجاء رجل آخر فقال : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون . فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها ، فإنها أمك سبيت فى صغرك ، لأن الزيتون أصل الزيت ، فهو يرد إلى الأصل . فنظر فإذا جاريته كانت أمه ، وقد سبيت فى صغره . وقال له آخر : رأيت كأنى أقلد الدر فى أعناق الخنازير . فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها ، فكان كما قال

والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال . وإنما نعنى بالمثل أداء المعنى فى صورة إن نظر إلى معناه وجد صادقا . وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا . فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا ، فإنه لم يختم به قط . وإن نظر إلى معناه وجد صادقا ، إذ صدر منه روح الختم ، ومعناه ، وهو المنع الذى يراد الختم له . وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال ، لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، وقدر عقولهم أنهم فى النوم ، والنائم لا يكشف له عن شىء إلا بمثل ، فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » وهو من المثال الذى لا يعقله إلا العالمون. فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثال ، لجهله بالتفسير الذى يسمى تأويلا ، كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة فى النوم تعبيرا ، فيثبت لله تعالى يدا وأصبعا ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا

وكذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم (٢) « إِنَّ اللّٰهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة ، فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا

ومن ههنا زل من زل فى صفات إلهية ، حتى فى الكلام ، وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات ، والقول فيه يطول

وكذلك قد يرد فى أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها الملحد ، بجمود نظره على ظاهر المثال وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم (٣) «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُذْبَحُ » فيثور الملحد الأحمق ويكذب ، ويستدل به على كذب الأنبياء

---

(١) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن : تقدم

(٢) حديث ان الله خلق آدم على صورته : تقدم

(٣) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كبش أملح فيذبح : متفق عليه من حديث أبى سعيد

ويقول : ياسبحان الله ، الموت عرض ، والكبش جسم ، فكيف ينقلب العرض جسما وهل هذا إلا محال ! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمق عن معرفة أسراره فقال (وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [١]) ولا يدرى المسكين أن من قال : رأيت فى منامى أنه جىء بكبش ، وقيل هذا هو الوباء الذى فى البلد ، وذبح ، فقال المعبر : صدقت ، والأمر كما رأيت ، وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط ، لأن المذبوح وقع اليأس منه ، فإذن المعبر صادق فى تصديقه ، وهو صادق فى رؤيته . وترجع حقيقة ذلك إلى أن الموكل بالرؤيا ، وهو الذى يطلع الأرواح عند النوم على ما فى اللوح المحفوظ ، عرفه بما فى اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال ، فكان مثاله صادقا ، وكان معناه صحيحا

فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس فى الدنيا ، وهى بالإضافة إلى الآخرة نوم ، فيوصلون المعانى إلى أفهامهم بالأمثلة ، حكمة من الله ، ولطفا بعباده ، وتيسيرا لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل . فقوله يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح ، مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت ، وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة ، وثبوت المعانى فيها بواسطتها . ولذلك عبر القرآن بقوله (كُنْ فَيَكُونُ [٢]) عن نهاية القدرة ، وعبر صلى الله عليه وسلم ، بقوله « قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمٰنِ » عن سرعة التقليب وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض

فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ، لا يمكن إلا بضرب المثال ، فلتفهم من المثل الذى نضربه معناه لا صورته ، فنقول :

الناس فى الآخرة ينقسمون أصنافا وتتفاوت درجاتهم ودركاتهم فى السعادة والشقاوة تفاوتا لا يدخل تحت الحصر ، كما تفاوتوا فى سعادة الدنيا وشقاوتها . ولا تفارق الآخرة فى هذا المعنى أصلا ألبتة ، فإن مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له ، وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبديل لها ، إلا أنا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدرجات ، فلا نعجز عن إحصاء الأجناس فنقول :

الناس ينقسمون فى الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام : هالكين ، ومعذبين ، وناجين

---

(١) العنكبوت : ٤٣ (٢) يس : ٨٢

وفائزين . ومثاله فى الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم ، فيقتل بعضهم فهم الهالكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المعذبون ، ويخلى بعضهم فهم الناجون ، ويخلع على بعضهم فهم الفائزون . فإن كان الملك عادلا ، لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق ، فلا يقتل إلا جاحداً لاستحقاق الملك ؛ معانداً له فى أصل الدولة . ولا يعذب إلا من قصر فى خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته . ولا يخلى إلا معترفا له برتبة الملك ، لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلع عليه . ولا يخلع إلا على من أبلى عمره فى الخدمة والنصرة ، ثم ينبغى أن تكون خلع الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم فى الخدمة ، وإهلاك الهالكين إما تحقيقا بحز الرقبة ، أو تنكيلا بالمثلة ، بحسب درجاتهم فى المعاندة ، وتعذيب المعذبين فى الخفة ، والشدة ، وطول المدة وقصرها ، واتحاد أنواعها واختلافها ، بحسب درجات تقصيرهم

فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر . فكذلك فافهم أن الناس فى الآخرة هكذا يتفاوتون . فمن هالك ، ومن معذب مدة ، ومن ناج يحل فى دار السلامة ، ومن فائز . والفائزون ينقسمون إلى من يحلون فى جنات عدن ، أو جنات المأوى أو جنات الفردوس . والمعذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا ، وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة [1] ، وذلك آخر من يخرج من النار كما ورد فى الخبر . وكذلك الهالكون الآيسون من رحمة الله تتفاوت دركاتهم . وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصى ، فلنذكر كيفية توزعها عليها

الرتبة الأولى : وهى رتبة الهالكين . ونعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله تعالى ، إذ الذى قتله الملك فى المثال الذى ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه ، فلا تغفل عن معانى المثال . وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمعرضين ، المتجردين للدنيا ، المكذبين بالله ورسله وكتبه . فإن السعادة الأخروية فى القرب من الله والنظر إلى وجهه ، وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها بالإيمان والتصديق . والجاحدون هم المنكرون ، والمكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبد الآباد ، وهم الذين يكذبون برب العالمين ،

---

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة : الترمذى الحكيم فى نوادر الاصول من حديث أبى هريرة بسند ضعيف فى حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت الى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة

وبأنبيائه المرسلين ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لامحالة ، وكل محجوب عن محبوبه فحول بينه وبين مايشتهيه لامحالة ، فهو لامحالة يكون محترقا نار جهنم بنار الفراق. ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا من نار جهنم ، ولا رجاؤنا للحور العين ، وإنما مطلبنا اللقاء ، ومهربنا من الحجاب فقط . وقالوا : من يعبدالله بعوض فهو لئيم ، كأن يعبده لطلب جنته ، أو لخوف ناره. بل العارف يعبده لذاته ، فلا يطلب إلا ذاته فقط . فأما الحور العين والفواكه ، فقد لايشتهيها . وأما النار ، فقد لايتقيها . إذ نار الفراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام . فإن نار الفراق نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة . ونار جهنم لاشغل لها إلا مع الأجسام ، وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد ، ولذلك قيل

وفى فؤاد المحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغى أن تنكر هذا فى عالم الآخرة ، إذ له نظير مشاهد فى عالم الدنيا، فقد رؤى من غلب عليه الوجد فغدا على النار ، وعلى أصول القصب الجارحة للقدم ، وهو لايحس به لفرط غلبة ما فى قلبه . وترى الغضبان يستولى عليه الغضب فى القتال ، فتصيبه جراحات وهو لايشعر بها فى الحال ، لأن الغضب نار فى القلب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « اَلْغَضَبُ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ » واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد ، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه ، فليس الهلاك من النار والسيف ، إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين . يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن فى الأجسام . فالذى يفرق بين القلب وبين محبوبه الذى يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام ، فهو أشد إيلاما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب . ولا يبعد أن لايدرك من لاقلب له شدة هذا الألم ، ويستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم . فالصبى لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان ، وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان ، لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ، ولم يعد ذاك ألما ، وقال . العدو فى الميدان مع الصولجان ، أحب إلىّ من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه . بل من تغلبه شهوة البطن ، لو خير بين الهريسة والحلواء ، وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ، ويفرح به الأصدقاء ، لآثر الهريسة والحلواء

---

(١) حديث الغضب قطعة من النار : الترمذى من حديث أبى سعيد نحوه وقد تقدم

وهذا كله لفقد المعنى الذى بوجوده يصير الجاه محبوبا ، ووجود المعنى الذى بوجوده يصير الطعام لذيذا . وذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ، ولم تظهر فيه صفات الملائكة التى لا يناسبها ولا يلذها إلى القرب من رب العالمين ، ولا يؤلها إلا البعد والحجاب . وكما لا يكون الذوق إلا فى اللسان، والسمع إلا فى الآذان ، فلا تكون هذه الصفة إلا فى القلب . فمن لا قلب له ليس له هذا الحس ، كمن لا سمع له ولا بصر ، ليس له لذة الألحان ، وحسن الصور والألوان . وليس لكل إنسان قلب . ولو كان لما صح قوله تعالى (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ[1]) فجعل من لم يتذكر بالقرءان مفلسا من القلب . ولست أعنى بالقلب هذا الذى تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذى هو من عالم الأمر ، وهو اللحم الذى هو من عالم الخلق عرشه ، والصدر كرسيه ، وسائر الأعضاء عالمه ومملكته ولله الخلق والأمر جميعا . ولكن ذلك السر الذى قال الله تعالى فيه (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى[2]) هو الأمير والملك ؛ لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا ، وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التى إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه

وعند ذلك يشم العبد مبادى روائح المعنى المطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » ونظر بعين الرحمة إلى الحاملين له على ظاهر لفظه ، وإلى المتعسفين فى طريق تأويله وإن كانت رحمته للحاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتعسفين فى التأويل لأن الرحمة على قدر المصيبة ، ومصيبة أولئك أكثر ، وإن اشتركوا فى مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر . فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وهى حكمته يختص بها من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا

ولنعد إلى الغرض ، فقد أرخينا الطول وطولنا النفس ، فى أمر هو أعلى من علوم المعاملات التى نقصدها فى هذا الكتاب . فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر ، فلذلك لم نوردها .

---

(١) ق : ٣٧ (٢) الاسراء : ٨٥

الرتبة الثانية : رتبة المعذبين . وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ، ولكن قصر فى الوفاء بمقتضاه فإن رأس الإيمان هو التوحيد ، وهو أن لا يعبد إلا الله . ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه ، فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة . بل معنى قولك لا إله إلا الله ، معنى قوله تعالى (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ [1]) وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا [2]) ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشعر ، وأحد من السيف ، مثل الصراط الموصوف فى الآخرة ، فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو فى أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو فى فعل قليل ، وذلك قادح فى كمال التوحيد ، بقدر ميله عن الصراط المستقيم . فذلك يقتضى لا محالة نقصانا فى درجات القرب . ومع كل نقصان ناران : نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنم كما وصفها القرءان . فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته ، وتفاوته بحسب طول المدة ، إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضعفه ، والثانى كثرة اتباع الهوى وقلته

وإذ لا يخلو بشر فى غالب الأمر عن واحد من الأمرين ، قال الله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا [3]) ولذلك قال الخائفون من السلف . إنما خوفنا لأنا تيقنا أنا على النار واردون ، وشككنا فى النجاة . ولما روى الحسن الخبر الوارد [1] فيمن يخرج من النار بعد ألف عام ، وأنه ينادى يا حنان يا منان قال الحسن : ياليتنى كنت ذلك الرجل

واعلم أن فى الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة ، وأن الاختلاف فى المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة ، حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ، ولا يكون له فيها لبث . وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة ، من اليوم ، والأسبوع ، والشهر ، وسائر المدد . وإن الاختلاف بالشدة لا نهاية

---

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى ياحنان يامنان : أحمد وأبو يعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

---

(١) الأنعام : ٩١ (٢) فصلت : ٣٠ (٣) مريم : ٧١ ، ٧٢

لأعلاه ، وأدناه التعذيب بالمناقشة فى الحساب ، كما أن الملك قد يعذب بعض المقصرين فى الأعمال بالمناقشة فى الحساب ؛ ثم يعفو . وقد يضرب بالسياط، وقد يعذب بنوع آخر من العذاب

ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث فى غير المدة والشدة ، وهو اختلاف الأنواع . إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط ، كمن يعذب بأخذ المال ، وقتل الولد واستباحة الحريم ، وتعذيب الأقارب ، والضرب ، وقطع اللسان ، واليد ، والأنف ، والأذن وغيره . فهذه الاختلافات ثابتة فى عذاب الآخرة ، دل عليها قواطع الشرع . وهى بحسب اختلاف قوة الإيمان وضعفه ، وكثرة الطاعات وقلتها ، وكثرة السيئات وقلتها

أما شدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها . وأما كثرته فبكثرتها . وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات . وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرءان بنور الإيمان ، وهو المعنيُّ بقوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [1]) وبقوله تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ [2]) وبقوله تعالى (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [3]) وبقوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [4]) إلى غير ذلك مما ورد فى الكتاب والسنة ، من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال . وكل ذلك بعدل لا ظلم فيه . وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم [1] « سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي » وقال تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [5]) فإذاً هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات ، معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظناً، ومستنده ظواهر الأخبار ونوع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار .

فنقول كل من أحكم أصل الإيمان ، واجتنب جميع الكبائر ، وأحسن جميع الفرائض ، أعنى الأركان الخمسة ، ولم يكن منه إلا صغائر متفرقة لم يصر عليها ، فيشبه أن يكون عذابه المناقشة فى الحساب فقط . فإنه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته . إذ ورد فى الأخبار أن الصلوات الخمس ، والجمعة وصوم رمضان ، كفارات لما بينهن . وكذلك اجتناب الكبائر

---

(١) حديث سبقت رحمتي غضبي : مسلم من حديث أبى هريرة

---

(١) فصلت : ٤٦ (٢) غافر : ١٧ (٣) النجم : ٣٩ (٤) الزلزال : ٧ ، ٨ (٥) النساء : ٤٠

بحكم نص القرءان مكفر للصغائر . وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب . وكل من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان ، وبعد الفراغ من الحساب ، في عيشة راضية . نعم : إلتحاقه بأصحاب اليمين ، أو بالمقربين ، ونزوله في جنات عدن ، أو في الفردس الأعلى ، فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان : تقليدي كإيمان العوام ، يصدقون بما يستمعون ويستمرون عليه ، وإيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله ، حتى ينكشف فيه الوجود كله على ماهو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره ، إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله . فهذا الصنف هم المقربون النازلون في الفردوس الأعلى ، وهم على غاية القرب من الملإ الأعلى ، وهم أيضا على أصناف : فمنهم السابقون ، ومنهم من دونهم . وتفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى : ودرجات العارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر ، إذ الإحاطة بكنه جلال الله غير ممكنة ، وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق ، وإنما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم ، وبقدر ماسبق لهم من الله تعالى في الأزل . فالطريق إلى الله تعالى لا نهاية لمنازله فالسالكون سبيل الله لا نهاية لدرجاتهم

وأما المؤمن إيمانا تقليديا من أصحاب اليمين . ودرجته دون درجة المقربين . وهم أيضا على درجات : فالأعلى من درجات أصحاب اليمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقربين هذا حال من اجتنب كل الكبائر . وأدى الفرائض كلها ، أعني الأركان الخمسة ، التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج

فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر ، أو أهمل بعض أركان الاسلام . فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل ، التحق بمن لم يرتكب . لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المغسول كالذي لم يتوسخ أصلا

وإن مات قبل التوبة ، فهذا أمر مخطر عند الموت ، إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لتزلزل إيمانه ، فيختم له بسوء الخاتمة ، لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال . والعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة . وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان ، إلا أن يعفو الله ، عذابا يزيد على عذاب المناقشة

فى الحساب . وتكون كثرة العقاب من حيث المدة ، بحسب كثرة مدة الإصرار . ومن حيث الشدة ، بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع ، بحسب اختلاف أصناف السيئات . وعند انقضاء مدة العذاب ، ينزل البله المقلدون فى درجات أصحاب اليمين ، والعارفون المستبصرون فى أعلى عليين . ففى الخبر [١] « آخِرُ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ يُعْطَى مِثْلَ الدُّنْيَا كُلِّهَا عَشَرَةَ أَضْعَافٍ » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين ، أو عشرة بعشرين ، فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال . بل هذا كقول القائل : أخذ منه جملا وأعطاه عشرة أمثاله ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير ، فأعطاه مائة دينار . فإن لم يفهم من المثل إلا المثل فى الوزن والثقل ، فلا تكون مائة دينار لو وضعت فى كفة الميزان ، والجمل فى الكفة الأخرى ، عشر عشيره . بل هو موازنة معانى الأجسام وأرواحها ، دون أشخاصها وهيا كلها ، فإن الجمل لا يقصد لثقله ، وطوله وعرضه ، ومساحته ، ، بل لماليته . فروحه المالية ، وجسمه اللحم والدم ، ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانية ، لا بالموازنة الجسمانية . وهذا صادق عند من يعرف روح المالية من الذهب والفضة . بل لو أعطاه جوهرة وزنها مثقال ، وقيمتها مائة دينار ، وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا . ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون . فإن روح الجوهرية لا تدرك بمجرد البصر ، بل بفطنة أخرى وراء البصر . فلذلك يكذب به الصبي ، بل القروى والبدوى ، ويقول ما هذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ، ووزن الجمل ألف ألف مثقال ؛ فقد كذب فى قوله إنى أعطيته عشرة أمثاله . والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال ، وأن يحصل فى قلبه النور الذى يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال ، فعند ذلك ينكشف له الصدق . والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم [٢] « الْجَنَّةُ فِي السَّمٰوَاتِ » كما ورد فى الأخبار ، والسموات من الدنيا ،

---

(١) حديث ان آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف : متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث كون الجنة فى السموات : خ من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فيه فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن .

فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا فى الدنيا ! وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة . وكذلك تفهيم البدوى .

وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوى والقروى فى تفهم تلك الموازنة ، فالعارف مرحوم إذا بلى بالبليد الأبله فى تفهيم هذه الموازنة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (١) « ارْحَمُوا ثَلاَثَةً عَالِماً بَيْنَ الْجُهَّالِ وَغَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ وَعَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ، ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم ، وامتحان ، وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلى ، وهو المعنى بقوله عليه السلام (٢) « الْبَلاَءُ مُوَكَّلٌ بِالأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الأَوْلِيَاءِ ثُمَّ الأَمْثَلِ فَالأَمْثَلِ »

فلا تظنن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام ، وهو الذى ينزل بالبدن، فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم ، إذ بلى بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ، ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال (٣) « رَحِمَ اللهُ أَخِي مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » فإذاً لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين، ولا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين . ولذلك قلما ينفك الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلاء ، بالإخراج من البلاد ، والسعاية بهم إلى السلاطين ، والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين . وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين ، كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من المبذرين المضيعين

فإذا عرفت هذه الدقائق ، فآمن بقوله عليه السلام إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات ، وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط ، فتكون حمارا برجلين، لأن الحمار يشاركك فى الحواس الخمس، وإنما أنت مفارق للحمار بسر إلهى،

---

(١) حديث ارحموا ثلاثة عالما بين الجهال ـ الحديث : ابن حبان فى الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس الا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البخترى واسمه وهب بن وهب أحد الكذابين

(٢) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الاولياء ثم الأمثل فالأمثل : الترمذى وصححه والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبى وقاص وقال قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء وللطبرانى من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ـ الحديث

(٣) حديث رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر : البخارى من حديث ابن مسعود

عرض على السموات، والأرض ، والجبال ، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس ، لا يصادف إلا فى عالم ذلك السر الذى فارقت به الحمار وسائر البهائم . فمن ذهل عن ذلك ،وعطله وأهمله،وقنع بدرجة البهائم ،ولم يجاوز المحسوسات فهو الذى أهلك نفسه بتعطيلها ، ونسيها بالإعراض عنها ، فلا تكونوا كالذين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم : فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسى الله إذ ليس ذات الله مدركا فى هذا العالم بالحواس الخمس . وكل من نسى الله أنساه الله لامحالة نفسه ،ونزل إلى رتبة البهائم ، وترك الترقى إلا الأفق الأعلى ، وخان فى الأمانة التى أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافرا لأنعمه ومتعرضا لنقمته . إلا أنه أسوأ حالا من البهيمة ،فإن البهيمة تتخلص بالموت وأما هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها ، فإليه مرجع الأمانة ومصيرها : وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة ، وإنما هبطت إلى هذا القالب الفانى وغربت فيه ، وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها ، وتعود إلى بارئها وخالقها ، إما مظلمة منكسفة وإما زاهرة مشرقة . والزاهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية،والمظلمة أيضا راجعة إلى الحضرة ، إذ المرجع والمصير للكل إليه ، إلا أنها ناكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين . ولذلك قال تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ [1]) فبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون ، قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم وانتكست رءوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل ، وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه، ولم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال ، والنزول إلى منازل الجهال

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار ، ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر . ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لاإله إلا الله ، فإن اللسان من عالم الملك والشهادة ، فلا ينفع إلا فى عالم الملك ، فيدفع السيف عن رقبته ، وأيدى الغانمين عن ماله . ومدة الرقبة والمال مدة الحياة . فحيث لاتبقى رقبة ولا مال ، لاينفع القول باللسان . وإنما ينفع الصدق فى التوحيد . وكمال التوحيد أن لايرى الأمور كلها إلا من الله وعلامته أن لايغضب على أحد من الخلق بما يجرى عليه ، إذ لايرى الوسائط ، وإنما يرى

(١) السجده : ١٢

مسبب الأسباب كما سيأتى تحقيقه فى التوكل . وهذا التوحيد متفاوت . فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، ومنهم من له مثقال ، ومنهم من له مقدار خردلة وذرة . فمن فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، فهو أول من يخرج من النار . وفى الخبر يقال [1] « أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ » وآخر من يخرج من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال و بين طبقة الذرة . والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل ، كما ذكرنا فى الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود . وأكثر مايدخل الموحدين النار مظالم العباد . فديوان العباد هو الديوان الذى لا يترك . فأما بقية السيئات فيتسارع العفو والتكفير إليها . فنى الأثر أن العبد ليوقف بين يدى الله تعالى ، وله من الحسنات أمثال الجبال ، لو سلمت له لكان من أهل الجنة ، فيقوم أصحاب المظالم ، فيكون قد سب عرض هذا ، وأخذ مال هذا ، وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة ، فتقول الملائكة : يا ربنا هذا قد فنيت حسناته ، وبقى طالبون كثير . فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته ، وصكوا له صكا إلى النار

وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص ، فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم ، إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به . وقد حكى عن ابن الجلاء ، أن بعض إخوانه اغتابه ، ثم أرسل إليه يستحله ، فقال : لا أفعل ، ليس فى صحيفتى حسنة أفضل منها ، فكيف أمحوها ؟ وقال هو وغيره : ذنوب إخوانى من حسناتى ، أريد أن أزين بها صحيفتى

فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد فى المعاد فى درجات السعادة والشقاوة . وكل ذلك حكم بظاهر أسباب ، يضاهى حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج ، وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين . فإن ذلك ظن يصيب فى أكثر الأحوال . ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب ، وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه . وذلك من أسرار الله تعالى الخفية فى أرواح الأحياء ، وغموض الأسباب التى رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم . إذ ليس فى قوة البشر الوقوف على كنهها ، فكذلك النجاة والفوز فى الآخرة

---

(١) حديث آخرجوا من النار من فى قلبه مثقال دينار من إيمان ـ الحديث تقدم

لهما أسباب خفية ، ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها . يعبر عن ذلك السبب الخفى المفضى إلى النجاة بالعفو والرضا ، وعما يفضى إلى الهلاك بالغضب والانتقام . ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية ، التى لا يطلع الخلق عليها . فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصى وإن كثرت سيئاته الظاهرة ، والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة . فإن الاعتماد على التقوى ، والتقوى فى القلب : وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه ، فكيف غيره ! ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفى فيه يقتضى العفو ، ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى . ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ، ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ، ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ [1]) ولا قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ [2]) وكل ذلك صحيح ، فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذى يرى . وكل نفس بما كسبت رهينة . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم ، تحقيقا لقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [3])

وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه ، إذ قد يرى البعيد قريبا ، والكبير صغيرا . ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها ، وإنما الشأن فى انفتاح بصيرة القلب ، وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى [4])

الرتبة الثالثة : رتبة الناجين . وأعنى بالنجاة السلامة فقط ، دون السعادة والفوز . وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ، ولم يقصروا فيعذبوا . ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار ، والمعتوهين ، والذين لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا على البله وعدم المعرفة ، فلم يكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، فلا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ولا من أهل النار ، بل ينزلون فى منزلة بين المنزلتين ،

---

(١) فصلت : ٤٦ (٢) النساء : ٤٠ (٣) الرعد : ١١ (٤) النجم : ١١

ومقام بين المقامين، عبر الشرع عنه بالأعراف[1] وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار، ومن أنوار الاعتبار . فأما الحكم على العين، كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم، فهذا مظنون وليس بمستيقن والاطلاع عليه تحقيقا فى عالم النبوة، ويبعد أن ترتقى إليه رتبة الأولياء والعلماء، والأخبار فى حق الصبيان أيضا متعارضة، حتى قالت عائشة رضى الله عنها[2] لما مات بعض الصبيان : عصفور من عصافير الجنة، فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « وَمَا يُدْرِيكِ ؟ » فإذاً الاشكال والاشتباه أغلب فى هذا المقام

الرتبة الرابعة: رتبة الفائزين . وهم العارفون دون المقلدين . وهم المقربون السابقون . فإن

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف: البزار من حديث أبى سعيد الخدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا فى سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار ــ الحديث : وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبرانى من رواية أبى معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن المدنى عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيح السندى ضعيف ويحيى بن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت سيئاتهم عن الجنة ــ الحديث : وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبى عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال فى الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر ــ الحديث : هذا كذب موضوع وفيه جماعة من الكذابين

(٢) حديث عائشة انها قالت لما مات بعض الصبيان عصفور من عصافير الجنة فأنكر ذلك وقال مايدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار فى حق الصبيان متعارضة * قلت روى البخارى من حديث سمرة بن جندب فى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فابراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة فقيل يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وللطبرانى من حديثه سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجى قاضى البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائى من حديث الأسود بن سريع كنا فى غزاة لنا ــ الحديث : فى قتل الذرية وفيه ألا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة ــ الحديث : واسناده صحيح وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة كل مولود يولد على الفطرة ــ الحديث : وفى رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبى داود فى آخر الحديث فقالوا يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفى الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث ثابت بن الحارث الأنصارى كانت يهود اذا هلك لهم صبى صغير قالوا هو صديق فقال النبى صلى الله عليه وسلم كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ــ الحديث : وفيه عبد الله بن لهيعة ولأبى داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموؤدة فى النار وله من حديث عائشة قلت يارسول الله ذرارى المؤمنين

المقلد وإن كان له فوز على الجملة بمقام فى الجنة، فهو من أصحاب اليمين. وهؤلاء هم المقربون. وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان. والقدر الممكن ذكره ما فصله القرءان، فليس بعد بيان الله بيان والذى لا يمكن التعبير عنه فى هذا العالم. فهو الذى أجمله قوله تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [1]) وقوله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والعارفون مطلبهم تلك الحالة التى لا يتصور أن تخطر على قلب بشر فى هذا العالم. وأما الحور، والقصور، والفاكهة واللبن، والعسل والخمر، والحلى والأساور، فإنهم لا يحرصون عليها، ولو أعطوها لم يقنعوا بها. ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم، فهى غاية السعادات، ونهاية اللذات ولذلك قيل لرابعة العدوية رحمة الله عليها : كيف رغبتك فى الجنة؟ فقالت الجار ثم الدار. فهؤلاء قوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزينتها، بل عن كل شىء سواه، حتى عن أنفسهم. ومثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه، المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه، فإنه فى حال الاستغراق غافل عن نفسه، لا يحس بما يصيبه فى بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فنى عن نفسه. ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره، وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه، ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى يلتفت إليه، لا نفسه ولا غير نفسه. وهذه الحالة هى التى توصل فى الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر فى هذا العالم على قلب بشر، كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكمه، إلا أن يرفع الحجاب عن سمعه وبصره فعند ذلك يدرك حاله، ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته، فالدنيا حجاب على التحقيق، وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة، وأن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون

فهذا القدر كاف فى بيان توزع الدرجات على الحسنات، والله الموفق بلطفه

فقال مع آبائهم فقلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذرارى المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبرانى من حديث خديجة قلت يا رسول الله أين أطفالى منك قال فى الجنة. قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأين أطفالى قبلك قال فى النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين واسناده منقطع بين عبد الله ابن الحارث وخديجة وفى الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة فى أولاد المشركين هم من آبائهم وفى رواية هم منهم

[1] السجدة : ١٧

بيان

ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب : منها الإصرار والمواظبة . ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ، ولا كبيرة مع استغفار . فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « خَيْرُ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ » والأشياء تستبان بأضدادها . وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره فى إظلام القلب

إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات . وقلما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة . فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة . ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ، ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره

ومنها أن يستصغر الذنب . فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه ، وكراهيته له . وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب . والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات . ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة ، فإن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة . وقد جاء فى الخبر [2] « الْمُؤْمِنُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجَبَلِ فَوْقَهُ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ وَالْمُنَافِقُ يَرَى ذَنْبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَأَطَارَهُ »

وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا . وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله . فإذا نظر إلى عظم من عصى به ، رأى الصغيرة كبيرة . وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه ، لا تنظر إلى قلة الهدية ؛ وانظر إلى عظم مهديها . ولا تنظر إلى صغر الخطيئة ، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها . وبهذا الاعتبار

---

(١) حديث خير الاعمال أدومها وان قل : متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم

(٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه — الحديث : البخارى من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبى صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا

قال بعض العارفين . لاصغيرة ، بل كل مخالفةفهى كبيرة :وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين . وإنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر ، كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات . إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر . وبهذا السبب يعظم من العالم مالايعظم من الجاهل، ويتجاوزعن العامى فى أمور لايتجاوز فى أمثالها عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

ومنها السرور بالصغيرة ، والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة . فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه . حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه . كما يقول . أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر فى مناظرته أما رأيتنى كيف فضحته ؟ وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته ؟ وكيف استخففت به ؟ وكيف لبست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ؟ وكيف خدعته ؟ وكيف غبنته فى ماله ؟ وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها ، وظفر الشيطان به فى الحمل عليها ،فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى . فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه ، حتى يتخلص من ألم شربه ،لايرجى شفاؤه

ومنها أن يتهاون بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وإمهاله إياه ، ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتا ليزداد بالإمهال إثما . فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به .فيكون ذلك لأمنه من مكر الله ، وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى(وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ [1])

ومنها أن يأتى الذنب ويظهره ، بأن يذكره بعد إتيانه . أو يأتيه فى مشهد غيره . فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه ،وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه،أو أشهده

وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يتبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقى فى الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا

(١) المجادلة : ٨

فعله . فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته ، فغلظت به . فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه ، وتهيئة الأسباب له ، صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر . وفى الخبر [١] « كُلُّ النَّاسِ مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ يَبِيتُ أَحَدُهُمْ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَيُصْبِحُ فَيَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ وَيَتَحَدَّثُ بِذَنْبِهِ » وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر . فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم : لاتذنب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين . ولذلك قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ [(١)]) وقال بعض السلف : ماانتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ، ثم يهونها عليه

ومنها أن يكون المذنب عالما يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الإبريسم ، وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى الأعراض وتعديه باللسان فى المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة . فهذه ذنوب يتبع العالم عليها ، فيموت العالم ويبقى شره مستطيرا فى العالم آمادا متطاولة . فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه . وفى الخبر [٢] « مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » قال تعالى (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ [(٢)]) والآثار مايلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع ، يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق . وقال بعضهم . مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها . وفى الإسرائيليات أن عالما كان يضل الناس بالبدعة ، ثم أدركته توبة ، فعمل فى الإصلاح دهرا . فأوحى الله تعالى إلى نبيهم . قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟ . فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر ، فعليهم وظيفتان إحداها : ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه . وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب ، فكذلك

---

(١) حديث كل الناس معافى إلا المجاهرين ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ كل أمتى وقد تقدم

(٢) حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ـ الحديث : مسلم من حديث جرير بن عبدالله وقد تقدم فى آداب الكسب

---

(١) التوبة : ٦٧ (٢) يس : ١٢

يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا . فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا، وقنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق ،فيتبع عليه ويقتدى به العلماء والعوام. فيكون له مثل ثوابهم . وإن مال إلى التجمل ، مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الحطام من الحرام . ويكون هو السبب في جميع ذلك . فحركات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها، إما بالربح ، وإما بالخسران: وهذا القدر كاف فى تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها

الركن الثالث

فى تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا. وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه . ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمـــام . ولتمامها علامة، ولدوامها شروط. فلا بد من بيانها، أما العلم فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى . وأما الندم : فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب. وعلامته طول الحسرة، والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر. فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته، طال عليه مصيبته وبكاؤه. وأى عزيز أعز عليه من نفسه، وأى عقوبة أشد من النار، وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصى وأى مخبر أصدق من الله ورسوله! ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا، أن مرض ولده المريض لا يبرأ، وأنه سيموت منه؛ لطال فى الحال حزنه . فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى، والتعرض بها للنار. فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى . فعلامة صحة الندم رقة القلب ، وغزارة الدمع. وفى الخبر[1] « جَالِسُوا التَّوَّابِينَ فَإِنَّهُمْ أَرَقُّ أَفْئِدَةً »

ومن علامته أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها ،فيستبدل بالميل كراهية ، وبالرغبة نفرة . وفى الاسرائيليات أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد ، بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ولم ير قبول توبته فقـال : وعزتى وجلالى ، لو شفع فيه أهل السموات والأرض ماقبلت توبته ؛وحلاوة ذلك الذنب الذى

---

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة : لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعظة إلى قلوبهم أسرع وهم الى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمعة وأرق قلبا

تاب منه فى قلبه . فإن قلت فالذنوب هى أعمال مشتهاة بالطبع ، فكيف يجد مرارتها فأقول :من تناول عسلا كان فيه سم ، ولم يدركه بالذوق،واستلذه،ثم مرض وطال مرضه وألمه ،وتناثر شعره.وفلجت أعضاؤه ،فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم ،وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة ، فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟فإن قلت لا ،فهو جحد المشاهدة والضرورة . بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا ، لشبهه به : فوجد أن التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعامه بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل ، وعمله عمل السم. ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الإيمان . ولما عز مثل هذا الإيمان عزت التوبة ، والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى ،متهاونا بالذنوب، مصرا عليها. فهذا شرط تمام الندم. وينبغى أن يدوم إلى الموت . وينبغى أن يجد هذه المرارة فى جميع الذنوب ، وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل ، كما يجد متناول السم فى العسل النفرة من الماء البارد ،مهما علم أن فيه مثل ذلك السم ، إذ لم يكن ضرره من العسل بل مما فيه . ولم يكن ضرر التائب من سرقته وزناه من حيث إنه سرقة وزنا ، بل من حيث إنه مخالفة أمر الله تعالى ،وذلك جار فى كل ذنب

وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك ، فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له،وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال وله تعلق بالماضى، وهو تدارك ما فرط. وبالمستقبل،وهو دوام الطاعة،ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى ، أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ،ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ،وشهرا شهرا ،ويوما يوما، ونفسا نفسا. وينظر إلى الطاعات ما الذى قصر فيه منها، وإلى المعاصى ما الذى قارفه منها .فإن كان قد ترك صلاة، أو صلاها فى ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية .فيقضيها عن آخرها. فإن شك فى عدد ما فاته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ،ويقضى الباقى . وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد . وأما الصوم ، فإن كان قد تركه فى سفر ولم يقضه ، أو أفطر عمدا ، أو نسى النية بالليل ولم يقض ، فيتعرف بمجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ،ويشتغل بقضائه . وأما الزكاة ؛ فيحسب جميع ماله ، وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ ،فإن الزكاة واجبة فى مال الصبى : فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته .فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه، بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية ، أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى،فيقضى

جميع ذلك، فإن ذلك لا يجزيه أصلا. وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول، ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج، فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج، والآن قد أفلس فعليه الخروج . فإن لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد . فإن لم يكن له كسب ولا مال ، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا. قال عليه السلام (١) « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحُجَّ فَلْيَمُتْ إِنْ شَاءَ يَهُودِيًّا وَإِنْ شَاءَ نَصْرَانِيًّا » والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصي، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه، وبصره ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها. فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم، وقعود في مسجد مع الجنابة ، ومس مصحف بغير وضوء، واعتقاد بدعة، وشرب خمر وسماع ملاهٍ، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها. فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذا من قوله صلى الله عليه وسلم (٢) « اتَّقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا » بل من قوله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ (١)) فيكفر سماع الملاهي بسماع القرءان وبمجالس الذكر. ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة. ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرءان منه، وكثرة تقبيله ، وبأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا. ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال، وهو أطيب منه وأحب إليه. وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة . فإن المرض يعالج بضده. فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة. وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق

---

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت ان شاء يهوديا ـ الحديث : : تقدم في الحج

(٢) حديث اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها : الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبعضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس

---

(١) هود : ١٤١

المحو ، فالرجاء فيه أصدق، والثقة بها أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات، وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها. فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم. قال صلى الله عليه وسلم[١] « مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوبٌ لا يُكَفِّرُهَا إِلَّا الْهُمُومُ » وفي لفظ آخر « إِلَّا الْهَمُّ بِطَلَبِ الْمَعِيشَةِ » وفي حديث عائشة رضي الله عنها[٢] « إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْدِ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ أَعْمَالٌ تُكَفِّرُهَا أَدْخَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الْهُمُومَ فَتَكُونُ كَفَّارَةً لِذُنُوبِهِ » ويقال إن الهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرفه، هو ظلمة الذنوب والهم بها. وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع : فإن قلت: هم الإنسان غالبا بماله وولده وجاهه، وهو خطيئة، فكيف يكون كفارة؟

فاعلم أن الحب له خطيئة، والحرمان عنه كفارة. ولو تمتع به لتمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام، دخل على يوسف عليه السلام في السجن، فقال له: كيف تركت الشيخ الكئيب؟ فقال قد حزن عليك حزن مائة ثكلى، قال فما له عند الله؟ قال أجر مائة شهيد فإذن الهموم أيضا مكفرات حقوق الله. فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد ففيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا . فما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتحسر، وترك مثله في المستقبل، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها. فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله. ويكفر قتل النفوس بإعتاق الرقاب لأن ذلك إحياء، إذ العبد مفقود لنفسه، موجود لسيده. والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه. فيقابل الإعدام بالإيجاد. وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع، حيث كفر القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجه ولم يكفه، ما لم يخرج عن مظالم العباد. ومظالم العباد إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو القلوب. أعني به الإيذاء

---

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها الا الهموم وفي لفظ آخر الا الهم في طلب المعيشة : طس وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف وتقدم في النكاح

(٢) حديث اذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله عليه الغموم : تقدم أيضا في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن

المحض . أما النفوس، فإن جرى عليه قتل خطأ. فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق، إما منه أو من عاقلته. وهو في عهدة ذلك قبل الوصول: وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص. فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم، ويحكمه في روحه، فإن شاء عفا عنه، وإن شاء قتله. ولا تسقط عهدته إلا بهذا. ولا يجوز له الإخفاء. وليس هذا كما لو زنى، أو شرب، أو سرق، أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى. بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب. فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين. فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد، وقع موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما روى (١) أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني. فرده. فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إني قد زنيت. فرده الثانية. فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة، ثم أمر به فرجم. فكان الناس فيه فريقين. فقائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته. وقائل يقول ما توبة أصدق من توبته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِّمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ » (٢) وجاءت الغامدية فقالت يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني. فردها. فلما كان من الغد قالت يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزا. فوالله إني لحبلى. فقال صلى الله عليه وسلم « أَمَّا الآنَ فَاذْهَبِي حَتَّى تَضَعِي » فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة. فقالت هذا قد ولدته. قال « اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطُمِيهِ » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز، فقالت يا نبي الله، قد فطمته. وقد أكل الطعام. فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها. فأقبل خالد ابن الوليد بحجر، فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجهه، فسبها. فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال « مَهْلاً يَا خَالِدُ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت.

وأما القصاص وحد القذف: فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان المتناول مالا تناوله

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة ـ الحديث: مسلم من حديث بريدة بن الحصيب

(٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم لقد تابت توبة ـ الحديث : مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله

بغصب، أو خيانة، أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس، كترويج زائف، أو ستر عيب من المبيع، أو نقص أجرة أجير، أو منع أجرته، فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حد بلوغه، بل من أول مدة وجوده. فإن ما يجب فى مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعد البلوغ، إن كان الولى قد قصر فيه. فإن لم يفعل كان ظالما مطالبا به، إذ يستوى فى الحقوق المالية الصبي والبالغ. وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته. قبل أن يحاسب فى القيامة: وليناقش قبل أن يناقش. فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا طال فى الآخرة حسابه. فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحدا واحدا، وليطف فى نواحى العالم وليطلبهم، وليستحلهم، أو ليؤد حقوقهم. وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم. ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه. فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات، حتى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته وتوضع فى موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنه إن لم تف بها حسناته حمّل من سيآت أرباب المظالم؛ فيهلك بسيآت غيره

فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم. وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم. فكيف وذلك مما لا يعرف، وربما يكون الأجل قريبا فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق، أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات. هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته. أما أمواله الحاضرة. فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا. وما لا يعرف له مالكا فعليه أن يتصدق به. فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام. وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوءهم أو يعيبهم فى الغيبة. فيطلب كل من تعرض له بلسانه، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله، وليستحل واحدا واحدا منهم. ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضا فى القيامة. وأما من وجده وأحله بطيب قلب منه، فذلك كفارته. وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له. فالاستحلال المبهم لا يكفى. وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالإحلال، وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته، أو يحمله من سيئاته. فإن كان فى جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته، كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه، يعظم أذاه مهما شوفه به، فقد انسد عليه طريق

الاستحلال،فليس له إلاأن يستحل منها ، ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات، كما يجبر مظلمة الميت والغائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنايته، وعرفه المجنى عليه،فلم تسمح نفسه بالاستحلال، بقيت المظلمة عليه.فإن هذا حقه. فعليه أن يتلطف به ،ويسعى فى مهماته وأغراضه،ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه،فإن الإنسان عبد الإحسان ،وكل من نفر بسيئة مال بحسنة.فإذا طاب قلبه بكثرة توددهو تلطفه،سمحت نفسه بالإحلال بإ ..أبى إلا الإصرار،فيكون تلطفه به واعتذاره إليه من جملة حسناته.التى يمكن أن يجبر بها فى القيامة جنايته .وليكن قدرسعيه فى فرحه ،وسرور قلبه بتودده وتلطفه، كقدر سعيه فى أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر،أوزاد عليه.أخذ ذلك منه عوضا فى القيامة بحكم الله به عليه . كمن أتلف فى الدنيا مالا،فجاء بمثله،فامتنع من له المال من القبول وعن الإبراء،فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبى.فكذلك يحكم فى صعيد القيامة أحكم الحاكمين،وأعدل المقسطين : وفى المتفق عليه من الصحيحين،عن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال [1] « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ قَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ حَكَماً بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ » وفى رواية « فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا » وفى رواية « فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي وَإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ »

---

(١) حديث أبى سعيد الخدرى المتفق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الارض ـ الحديث : هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبى سعيد

فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرة . فلا بد للتائب من تكثير الحسنات ، هذا حكم القصد المتعلق بالماضي

وأما العزم المرتبط بالاستقبال ، فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ، ويعاهده بعهد وثيق ، أن لا يعود إلى تلك الذنوب ، ولا إلى أمثالها . كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلا . فيعزم عزما جزما أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه . فإن هذا العزم يتأكد في الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال . ولكن لا يكون تائبا ما لم يتأكد عزمه في الحال . ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول أمره إلا بالعزلة ، والصمت وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوت حلال . فإن كان له مال موروث حلال ، أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية ، فليقتصر عليه . فإن رأس المعاصي أكل الحرام . فكيف يكون تائبا مع الإصرار عليه ! . ولا يكتفي بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات والملبوسات . وقد قال بعضهم : من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار ، لم يبتل بها وقال آخر : من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا

ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما ، أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل . وما يحرم عليه ، حتى يمكنه الاستقامة . وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة ، إلا أن يتوب عن بعض الذنوب ، كالذي يتوب عن الشرب والزنا والغصب مثلا ، وليست هذه توبة مطلقة . وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لا تصح . وقال قائلون : تصح . ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل . بل نقول لمن قال لا تصح إن عنيت به أن تركه بعض الذنوب لا يفيد أصلا ، بل وجوده كعدمه . فما أعظم خطأك : فإنا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب ، وقلتها سبب لقلته . ونقول لمن قال تصح ، إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولا يوصل إلى النجاة أو الفوز ، فهذا أيضا خطأ . بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر . ولسنا نتكلم في خفايا أسرار عفو الله

فإن قال من ذهب إلى أنها لا تصح : إني أردت به أن التوبة عبارة عن الندم ، وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية ، لا لكونها سرقة . ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجعه لأجل المعصية ، فإن العلة شاملة لهما ، إذ من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين ، لأن توجعه بفوات محبوبه ، سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجع العبد بفوات محبوبه ، وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا ، فكيف يتوجع على البعض دون البعض ، فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية . فلا يتصور أن

يكون على بعض المعاصى دون البعض، ولو جاز هذا الجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدنين دون الآخر، فإن استحال ذلك من حيث إن المعصية فى الخمرين واحد، وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصى آلات للمعصية، والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة، فإذاً معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة، وتلك الرتبة لا تنال إلا بالندم، ولا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات فهو كالملك المرتب على الإيجاب والقبول فإنه إذا لم يتم الإيجاب والقبول تقول إن العقد لا يصح، لم تترتب عليه الثمرة وهو أى الملك. وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه، وثمرة الندم تكفير ما سبق فترك السرقة لا يكفر السرقة، بل الندم عليها. ولا يتصوّر الندم إلا لكونها معصية وذلك يعم جميع المعاصى

وهو كلام مفهوم واقع، يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء فنقول التوبة عن بعض الذنوب لا تخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر، أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة. أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر، فأمر ممكن. لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله، وأجلب لسخط الله ومقته. والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه. كالذى يجنى على أهل الملك وحرمه، ويجنى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل، مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده فى الشرع. فقد كثر التائبون فى الأعصار الخالية، ولم يكن أحد منهم معصوما. فلا تستدعى التوبة العصمة. والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيرا شديدا، ويحذره السكر تحذيرا أخف منه، على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا، فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر. فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعا بحكم شهوته، ندم على أكل العسل دون السكر ، الثانى: أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن. لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله. كالذى يتوب عن القتل، والنهب، والظلم ومظالم العباد، لعلمه أن ديوان العباد لا يترك، وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه. فهذا أيضا ممكن، كما فى تفاوت الكبائر والصغائر. لأن الكبائر أيضا متفاوتة فى أنفسها وفى اعتقاد مرتكبها. ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التى لا تتعلق بالعباد، كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور، وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصى وهو لا يدرى. فبحسب ترجح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف، يوجب ذلك تركا فى المستقبل وندما على الماضى. الثالث: أن يتوب عن صغيرة أو صغائر، وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة.

كالذى يتوب عن الغيبة، او عن النظر إلى غير المحرم، أو ما يجرى مجراه، وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه، ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ، ولكن تكون لذة نفسه فى تلك المعصية أقوى من ألم قلبه فى الخوف منها ، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة، وأسباب توجب قوة الشهوة، فيكون الندم موجودا، ولكن لا يكون مليا بتحريك العزم ، ولا قويا عليه. فإن سلم عن شهوة أقوى منه ، بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف، قهر الخوف الشهوة وغلبها، وأوجب ذلك ترك المعصية. وقد تشتد ضراوة الفاسق بالخمر ، فلا يقدر على الصبر عنه، وتكون له ضراوة مّا بالغيبة ، وثلب الناس ، والنظر إلى غير المحرم، وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية. فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك، بل يقول هذا الفاسق فى نفسه: إن قهرنى الشيطان بواسطة غلبة الشهوة فى بعض المعاصى، فلا ينبغى أن أخلع العذار وأرخى العنان بالكلية، بل أجاهده فى بعض المعاصى، فعسانى أغلبه، فيكون قهرى له فى البعض كفارة لبعض ذنوبى. ولو لم يتصور هذا لما تُصور من الفاسق أن يصلى ويصوم، ولقيل له إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصح، وإن كانت لله فاترك الفسق لله، فإن أمر الله فيه واحد، فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب الى الله تعالى، ما لم تتقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول. لله تعالى علىّ أمران، ولى على المخالفة فيهما عقوبتان. وأنا ملى فى أحدهما بقهر الشيطان، عاجز عنه فى الآخر، فأنا أقهره فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتى فيه أن يكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى . فكيف لا يتصور هذا، وهو حال كل مسلم ؟ إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ، ولا سبب له إلا هذا . وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة فى بعض الذنوب ممكن وجودها . والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم ، والندم يورث العزم . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « النَّدَمُ تَوْبَةٌ » ولم يشترط الندم على كل ذنب . وقال « التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ » ولم يقل التائب من الذنوب كلها

وبهذه المعانى تبين سقوط قول القائل : إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة، لأنها متماثلة فى حق الشهوة ، وفى حق التعرض إلى سخط الله تعالى، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون النبيذ، لتفاوتهما فى اقتضاء السخط. ويتوب عن الكثير دون القليل، لأن لكثرة الذنوب تأثيرا فى كثرة العقوبة، فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه، ويترك بعض شهوته لله تعالى. كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة ، فإنه قد يتناول قليلها، ولكن لا يستكثر منها . فقد يحصل من

هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ما تاب عنه مخالفا لما بقى عليه. إما فى شدة المعصية وأما فى غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت فى اعتقاد التائب، تصور اختلاف حاله فى الخوف والندم؛ فيتصور اختلاف حاله فى الترك، فندمه على ذلك الذنب، ووفاؤه بعزمه على الترك، يلحقه بمن لم يذنب، وإن لم يكن قد أطاع الله فى جميع الأوامر والنواهى . فإن قلت هل تصح توبة العنين من الزنا الذى قارفه قبل طريان العنة ؟ فأقول لا. لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله. وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه. ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكانت حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فإنى أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه، وماحيا عنه سيئته إذ لا خلاف فى أنه لو تاب قبل طريان العنة، ومات عقيب التوبة، كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة. وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده . فإذاً لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم فى حق العنين هذا المبلغ، إلا أنه لا يعرفه من نفسه. فإن كل من لا يشتهى شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف. والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه. بل الظاهر أنه يقبله . والحقيقة فى هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تنمحى عن القلب بشيئين: أحدهما حرقة الندم، والآخر شدة المجاهدة بالترك فى المستقبل وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة. ولولا هذا لقلنا إن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة، يجاهد نفسه فى عين تلك الشهوة مرات كثيرة. وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلا . فإن قلت : إذا فرضنا تائبين، أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب ؛ والآخر بقى فى نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها. فأيهما أفضل؟

فاعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه. فقال أحمد بن أبى الحوارى وأصحاب أبى سليمان الدارانى: إن المجاهد أفضل، لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة: ذلك الآخر أفضل، لأنه لو فتر فى توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذى هو فى عرضة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة. والحق فيه أن الذى انقطع نزوع نفسه له حالتان

إحداهما : أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور فى نفس الشهوة فقط، فالمجاهد أفضل من هذا. إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه، واستيلاء دينه على شهوته، فهو دليل قاطع على قوة اليقين،

وعلى قوة الدين . وأعنى بقوة الدين قوة الإرادة التى تنبعث بإشارة اليقين، وتقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين . فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعا. وقول القائل إن هذا أسلم ، إذ لو فتر لا يعود إلى الذنب، فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ . وهو كقول القائل . العنين أفضل من الفحل ، لأنه فى أمن من خطر الشهوة والصبى أفضل من البالغ، لأنه أسلم . والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه، لأن المفلس لا عدو له، والملك ربما يغلب مرة وإن غلب مرات. وهذا كلام رجل سليم القلب، قاصر النظر على الظواهر، غير عالم بأن العز فى الأخطار، وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار. بل هو كقول القائل: الصياد الذى ليس له فرس ولا كلب ، أفضل فى صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس ، لأنه آمن من أن يجمح به فرسه ، فتنكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض، وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه. وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالما بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد

الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين ، وصدق المجاهدة السابقة. إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة ، حتى تأدبت بأدب الشرع ، فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين. وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها . فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسى لهيجان الشهوة وقمعها. وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد فإن الجهاد ليس مقصودا لعينه . بل المقصود قطع ضراوة العدو ، حتى لا يستجرك إلى شهواته ، وإن عجز عن استجرارك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين. فإذا قهرته وحصلت المقصود، فقد ظفرت ومادمت فى المجاهدة ، فأنت بعد فى طلب الظفر. ومثاله كمثال من قهر العدو واسترقه، بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد فى صف القتال، ولا يدرى كيف يسلم. ومثاله أيضا مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس ، فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح، بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ولقد زل فى هذا فريق ، فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق . وظن آخرون أن قمع الشهوات وإماتتها بالكلية مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فعجز عنه، فقال هذا محال، فكذب بالشرع ، وسلك سبيل الإباحة، واسترسل فى اتباع الشهوات. وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك فى كتاب رياضة النفس

من ربع المهلكات . فإن قلت: فما قولك فى تائبين، أحدهما نسى الذنب ولم يشتغل بالتفكر فيه ، والآخر جعله نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه، فأيهما أفضل؟

فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه. فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك. وقال آخر: حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك. وكل واحد من المذهبين عندنا حق ، ولكن بالإضافة إلى حالين. وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا ، فإن عادة كل واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط، ولا يهمه حال غيره، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا نقصان بالإضافة إلى الهمة والإرادة والجد، حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه، لا يهمه أمر غيره . إذ طريقه إلى الله نفسه، ومنازله أحواله . وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم. فالطرق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة فى القرب والبعد، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، مع الاشتراك فى أصل الهداية . فأقول : تصوّر الذنب وذكره والتفجع عليه، كمال فى حق المبتدىء . لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه، فلا تقوى إرادته وانبعاثه لسلوك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله . فهو بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان. فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق. بل سالك الطريق ينبغى أن لا يعرج على غير السلوك. فإن ظهر له مبادى الوصول ، وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب ، استغرقه ذلك، ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله ، وهو الكمال، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهر حاجز، طال تعب المسافر فى عبوره مدة ، من حيث إنه كان قد خرب جسره من قبل . فلو جلس على شاطىء النهر بعد عبوره ، يبكى متأسفا على تخريبه الجسر ، كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع . نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل، بأن كان ليلا فتعذر السلوك ، أو كان على طريقه أنهار وهو يخاف على نفسه أن يعبر بها ، فليطل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ، ليتأكد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله . فإن حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله ، فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه . وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق، والمقصد، والعائق، وطريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه فى كتاب العلم، وفى ربع المهلكات . بل نقول شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر فى النعيم فى الآخرة لتزيد رغبته . ولكن إن كان شابا ، فلا ينبغى أن يطيل فكره فى كل ماله نظير فى الدنيا كالحور والقصور . فإن ذلك الفكر ربما يحرك رغبته ، فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة . بل ينبغى أن

يتفكر فى لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط . فذلك لا نظير له فى الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة . فالمبتدى أيضا قد يستضر به . فيكون النسيان أفضل له عند ذلك

ولا يصدنك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فإن قياسك نفسك على الأنبياء قياس فى غاية الاعوجاج، لأنهم قد ينزلون فى أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بأممهم ، فإنهم ما بعثوا إلا لإرشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع أممهم بمشاهدته ، وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم . فلقد كان فى الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها، وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهيلا للأمر على المريد . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[1] « أَمَا إِنِّى لاَ أَنْسَى وَلَكِنِّى أُنَسَّى لِأَشْرَعَ » وفى لفظ « إِنَّمَا أَسْهُو لِأَسُنَّ » . ولا تعجب من هذا ، فإن الأمم فى كنف شفقة الأنبياء كالصبيان فى كنف شفقة الآباء، وكالمواشى فى كنف الرعاة . أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبى ، كيف ينزل إلى درجة نطق الصبى، كما قال صلى الله عليه وسلم[2] للحسن « كِخْ كِخْ » لما أخذ تمرة من تمر الصدقة ووضعها فى فيه . وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه التمرة فإنها حرام . ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ، ترك الفصاحة ونزل إلى لكنته . بل الذى يعلم شاة أو طائرا ، يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبهيمة والطائر ، تلطفا فى تعليمه . فإياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق ، فإنها مزلة أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

---

(١) حديث أما إنى لا أنسى ولكن أنسى لأشرع : ذكره مالك بلاغا بغير اسناد وقال ابن عبد البر لا يوجد فى الموطأ إلا مرسلا لا اسناد له وكذا قال حمزة الكنانى إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الانماطى وقد طال بحثى عنه وسؤالى عنه للائمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا

(٢) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمرة من الصدقة ووضعها فى فيه : البخارى من حديث أبى هريرة وتقدم فى كتاب الحلال والحرام



فهرست الجزء الحادى عشر



فهرست الجزء الحادى عشر

صفحة

صفحة



كتاب الشعب

إحياء علوم الدين

للإمام أبي حامد الغزالي

الجزء الثاني عشر

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني القاهرة ت. ٣١٨١٠



بيان

أقسام العباد فى دوام التوبة

اعلم أن التائبين فى التوبة على أربع طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره . فيتدارك مافرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك البشر عنها فى العادات مهما لم يكن فى رتبة النبوة · فهذا هو الاستقامة على التوبة . وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات . واسم هذه التوبة التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة ، التى ترجع إلى ربها راضية مرضية . وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ الْمُسْتَهْتَرُونَ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَضَعَ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَوْزَارَهُمْ فَوَرَدُوا الْقِيَامَةَ خِفَافًا » فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم.

وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ، ففتر نزاعها ، ولم يشغله عن السلوك صرعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ، ولكنه ملى بمجاهدتها وردها .

ثم تتفاوت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف المدة، وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته، يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ، ومن ممهل طال جهاده وصبره . وتمادت استقامته وكثرت حسناته ، وحال هذا أعلى وأفضل ، إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة ، حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذى ارتكبه العاصى أن يتمكن منه عشر مرات ، مع صدق الشهوة ، ثم يصبر عنه ، ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى . واشتراط هذا بعيد ، وإن كان لا ينكر عظم أثره لو فرض . ولكن لا ينبغى للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق ، فتهيج الشهوة ، وتحضر الأسباب حتى يتمكن ، ثم يطمع فى الانكفاف ، فإنه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره ، فيقدم على المعصية ، وينقض توبته . بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له ، حتى

(١) حديث سبق المفردون المستهترون بذكر الله الحديث : الترمذى من حديث أبى هريرة وحسنه وقد تقدم

يسد طرقها على نفسه ،ويسعى مع ذلك فى كسر شهوته بما يقدر عليه،فبه تسلم توبته فى الابتداء

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات ،وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد وتجريد قصد ، ولكن يبتلي بها فى مجارى أحواله ، من غير أن يقدم عزما على الإقدام عليها . ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف ، وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التى تعرضه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هى النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ماتستهدف له من الأحوال الذميمة ، لاعن تصميم عزم وتخمين رأى وقصد . وهذه أيضا رتبة عالية ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى . وهى أغلب أحوال التائبين . لأن الشر معجون بطينة الآدمى قلما ينفك عنه . وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح كفة الحسنات . فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات ، فذلك فى غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى ، إذ قال تعالى (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ [١])

فكل إلمام يقع بصغيرة ، لاعن توطين نفسه عليه ،فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ [٢]) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه عنه علىّ كرم الله وجهه [١] « خِيَارُكُمْ كُلُّ مُفْتَنٍ تَوَّابٍ » وفى خبر آخر [٢] « الْمُؤْمِنُ كَالسُّنْبُلَةِ يَفِيءُ أَحْيَانًا وَيَمِيلُ أَحْيَانًا » وفى الخبر [٣] « لَا بُدَّ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ ذَنْبٍ يَأْتِيهِ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ » أى الحين بعد الحين

---

(١) حديث على خياركم كل مفتن تواب :البيهقى فى الشعب بسند ضعيف

(٢) حديث المؤمن كالسنبلة تفىء أحيانا وتميل أحيانا : أبو يعلى وابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس والطبرانى من حديث عمار بن ياسر والبيهقى فى الشعب من حديث الحسن مرسلا وكلها ضعيفة وقالوا تقدم بدل تفىء وفى الأمثال للرامهرمزى إسناد جيد لحديث أنس

(٣) حديث لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبرانى : والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة

---

(١) النجم : ٣٢ (٢) آل عمران : ١٣٥

فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ، ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين . ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين ، كالطبيب الذى يؤيس الصحيح عن دوام الصحة ، بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى ، من غير مداومة واستمرار . وكالفقيه الذى يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء ، بفتوره عن التكرار والتعليق فى أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه بل الفقيه فى الدين هو الذى لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات ، بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات . قال النبى صلى الله عليه وسلم[1] « كُلُّ بَنِى آدَمَ خَطَّاءُونَ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ » وقال أيضا[2] « الْمُؤْمِنُ وَاهٍ رَاقِعٌ * فَخَيْرُهُمْ مَنْ مَاتَ عَلَى رَقْعِهِ » أى واه بالذنوب ، راقع بالتوبة والندم . وقال تعالى (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ[1]) فما وصفهم بعدم السيئة أصلا

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة . وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها ، وكفاه شرها . هذا أمنيته فى حال قضاء الشهوة . وعند الفراغ يتندم ويقول : ليتنى لم أفعله ، وسأتوب عنه ، وأجاهد نفسى فى قهرها . لكنه تسول نفسه ، ويسوف توبته مرة بعد أخرى ، ويوما بعد يوم . فهذه النفس هى التى تسمى النفس المسولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً[2]) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو : فعسى الله أن يتوب عليه . وعاقبته مخطرة من حيث

---

(١) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون : الترمذى واستغربه والحاكم وصحح إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل المستغفرون * قلت فيه على بن مسعدة ضعفه البخارى

(١) حديث المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه : الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالا فسعيد بدل فخيرهم

* راقع : أى يهى دينه بمعصيته ويرقعه بتوبته من رقعت الثوب إذا رقعته

(١) القصص : ٥٤ (٢) التوبة : ١٠٢

تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره فى المشيئة : فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره ، وامتن عليه بالتوبة ، التحق بالسابقين . وإن غلبته شقوته ، وقهرته شهوته ، فيخشى أن يحق عليه فى الخاتمة ماسبق عليه من القول فى الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم ، دل تعذره على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من الجاهلين ، فيضعف الرجاء فى حقه . وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل ، دل على أنه سبق له فى الأزل أن يكون من جملة العالمين . فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودركاتها بالحسنات والسيئات؛ بحكم تقدير مسبب الأسباب ، كارتباط المرض والصحة بتناول الأغذية والأدوية وارتباط حصول فقه النفس ، الذى به تستحق المناصب العلية فى الدنيا ، بترك الكسل ، والمواظبة على تفقيه النفس . فكما لا يصلح لمنصب الرياسة ، والقضاء ، والتقدم بالعلم ، إلا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ، ولا للقرب من رب العالمين ، إلا قلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير . هكذا سبق فى الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [1]) فمهما وقع العبد فى ذنب ، فصار الذنب نقدا والتوبة نسيئة ، كان هذا من علامات الخذلان . قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَلَا يَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا »

فإذاً الخوف من الخاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة ماقبله . إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به ، فليراقب الأنفاس ، وإلا وقع فى المحذور ، ودامت الحسرات حين لا ينفع التحسر

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله . بل ينهمك انهماك

---

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث سهل بن سعد دون قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبى هريرة أن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبى هريرة أن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

---

(١) الشمس : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠

الغافل فى اتباع شهواته . فهذا من جملة المصرين . وهذه النفس هى النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير . ويخاف على هذا سوء الخاتمة ، وأمره فى مشيئة الله . فإن ختم له بالسوء شقى شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين . ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا نطلع عليه ، كما لا يستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيتفق أن يجده ، وأن يجلس فى البيت ليجعله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار ، وطلب المال بالتجارة وركوب البحار . وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال ، كطلب الكنوز فى المواضع الخربة ، وطلب العلوم من تعليم الملائكة . وليت من اجتهد تعلم ، وليت من اتجر استغنى ، وليت من صام وصلى غفر له . فالناس كلهم محرومون إلا العالمون ، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون ، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم

وكما أن من خرب بيته وضيع ماله ، وترك نفسه وعياله جياعا ، يزعم أنه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزا يجده تحت الأرض فى بيته الخرب ، يعد عند ذوى البصائر من الحمقى والمغرورين ، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل فى قدرة الله تعالى وفضله ، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة ، مصر على الذنوب ، غير سالك سبيل المغفرة ، يعدّ عند أرباب القلوب من المتوهين

والعجب من عقل هذا المعتوه ، وترويجه حماقته فى صيغة حسنة ، إذ يقول . إن الله كريم ، وجنته ليست تضيق على مثلى ، ومعصيتى ليست تضره . ثم تراه يركب البحار ، ويقتحم الأوعار فى طلب الدينار ، وإذا قيل له إن الله كريم ، ودنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك ، فاجلس فى بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ، ويقول . ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وإنما ينال ذلك بالكسب ، هكذا قدره مسبب الأسباب ، وأجرى به سنته ، ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل

لمافيهما جميعا. وأنه قد أخبر إذ قال (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّمَا سَعَى [١]) فكيف يعتقد أنه كريم فى الآخرة وليس بكريم فى الدنيا. وكيف يقول. ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ، ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد فى الآخرة ، وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد فى غالب الأمر فى الدنيا. وينسى قوله تعالى (وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [٢])

فنعوذ بالله من العمى والضلال. فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس ،وانغماس فى ظلمات الجهل: وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوارُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً [٣])أى أبصرنا أنك صدقت إذ قلت (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى [٤]) فارجعنا نسعى. وعندذلك لا يمكن من الانقلاب ،ويحق عليه العذاب:فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب

بيان

ما ينبغى أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب

إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة ، والندم ، والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده ، كما ذكرنا طريقه. فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة ، فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغى أن يترك الواجب الثانى ، وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها ،فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا ،فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب ، وإما باللسان،وإما بالجوارح . ولتكن الحسنة فى محل السيئة ، وفيما يتعلق بأسبابها

فأما بالقلب ، فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى فى سؤال المغفرة والعفو ،ويتذلل تذلل العبد الآبق ، ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم . فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد . وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين ، والعزم على الطاعات

---

(١)،(٤) النجم : ٣٩ (٢) الذاريات : ٢٢ (٣) السجدة : ١٢

وأما باللسان، فبالاعتراف بالظلم والاستغفار، فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوأ فاغفر لي ذنوبي . وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار ، كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار

وأما بالجوارح ، فبالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات . وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا . أربعة من أعمال القلوب ، وهي التوبة أو العزم على التوبة ، وحب الإقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له . وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله بعدهما سبعين مرة ، وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم يوما . وفي بعض الآثار [1] : تسبغ الوضوء ، وتدخل المسجد وتصلي ركعتين . وفي بعض الأخبار [2] : تصلي أربع ركعات . وفي الخبر [3] « إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تُكَفِّرْهَا السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةُ بِالْعَلاَنِيَةِ » ولذلك قيل : صدقة السر تكفر ذنوب الليل ، وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار .

وفي الخبر الصحيح ، [4] أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، إني عالجت امرأة

---

(١) أثران من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين: أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في الكبرى للنسائي مرفوعا وموقوفا فلعل المصنف عبر بالأثر لارادة الموقوف فذكرته احتياطا وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي

(٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات : إبن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة ـ الحديث : وفيه فلما رآها جلس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدبة فقام نادما فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفي النهار الآية وأسناده جيد

(٣) حديث إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها السر بالسر والعلانية بالعلانية: البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر ـ الحديث :

(٤) حديث أن رجلا قال يارسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس ـ الحديث: في نزول إن الحسنات يذهبن السيئات متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ما صليت معنا صلاة الغداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم ـ الحديث :

فأصبت منها كل شيء إلا المسيس . فاقض عليّ بحكم الله تعالى . فقال صلى الله عليه وسلم « أوَ ماصلّيتَ معنا صلاةَ الغداة » قال بلى . فقال صلى الله عليه وسلم « إنَّ الحسناتِ يُذهِبنَ السيئاتِ » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة . إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصّلواتُ الخمسُ كفّاراتٌ لِما بينهنَّ إلاّ الكبائرَ »

فعلى الأحوال كلها، ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم، ويجمع سيئاته، ويجتهد في دفعها بالحسنات.

فإن قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الإصرار ، وفي الخبر [1] « المستغفرُ منَ الذنبِ وهوَ مُصرٌّ عليهِ كالمستهزِئ بآياتِ اللهِ » وكان بعضهم يقول: أستغفر الله من قولي أستغفر الله . وقيل : الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير

فاعلم : أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر، ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ [1]) فكان بعض الصحابة [2] يقول : كان لنا أمانان، ذهب أحدهما. وهو كون الرسول فينا ، وبقي الاستغفار معنا . فإن ذهب هلكنا فنقول :

الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ، هو الاستغفار بمجرد اللسان ، من غير أن يكون للقلب فيه شركة . كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة . أستغفر الله . وكما يقول إذا سمع صفة النار . نعوذ بالله منها . من غير أن يتأثر به قلبه . وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ، ولا جدوى له . فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى ، وابتهاله في سؤال المغفرة ، عن صدق إرادة وخلوص نية ورغبة ، فهذه حسنة في نفسها ، فتصلح

---

(١) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزئ بآيات الله :ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزئ بربه وسنده ضعيف

(٢) حديث بعض الصحابة في قوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفعه الترمذي من حديثه أنزل الله علي أمانين ـ الحديث: وصححه وابن مردويه في تفسيره من قول ابن عباس

---

(١) الانفال : ٣٣

لأن تدفع بها السيئة . وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة فى فضل الاستغفار . حتى قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب . وللتوبة والاستغفار درجات . وأوائلها لاتخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها . ولذلك قال سهل . لابد للعبد فى كل حال من مولاه. فأحسن أحواله أن يرجع إليه فى كل شيء : فإن عصى قال يارب استر علىّ . فإذا فرغ من المعصية قال يارب تب علىّ . فإذا تاب قال يارب ارزقنى العصمة . وإذا عمل قال يارب تقبل منى .

وسئل أيضا عن الاستغفار الذى يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ، ثم الإنابة ، ثم التوبة. فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب. والتوبة إقباله على مولاه، بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذى هو فيه ، ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر . فعند ذلك يغفر له ، ويكون عنده مأواه ، ثم التنقل إلى الانفراد ، ثم الثبات ، ثم البيان ، ثم الفكر ، ثم المعرفة ، ثم المناجاة ، ثم المصافاة ، ثم الموالاة ثم محادثة السر ، وهو الخلة . ولا يستقر هذا فى قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده ، والتوكل صاحبه. ثم ينظر الله إليه ، فيرفعه إلى العرش ، فيكون مقامه مقام حملة العرش

وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التَّائِبُ حَبِيبُ اللهِ » فقال . إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ماذكر فى قوله تعالى (التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ [١]) الآية ـ وقال الحبيب هو الذى لايدخل فيما يكرهه حبيبه

والمقصود أن للتوبة ثمرتين . إحداهما تكفير السيئات ، حتى يصير كمن لاذنب له والثانية نيل الدرجات ، حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له . ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة . فالاستغفار بالقلب ، والتدارك بالحسنات ، وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات: فليس يخلو عن الفائدة أصلا . فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها . بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لاريب فيها، أن قول الله تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [٢]) صدق

---

(١) حديث ماأصر من استغفر ـ الحديث :تقدم فى الدعوات

---

(١) التوبة : ١١٢ (٢) الزلزلة : ٧

وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح فى الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات . وذلك بالضرورة محال . بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تنفيها كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل تعللا بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول : أى غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المتوهمة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة

فإذاً التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا . بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة . إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم ، أو فضول كلام . بل هو خير من السكوت عنه. فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه . وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى فى بعض الأحوال يجرى بالذكر والقرءان وقلبى غافل،فقال: اشكر الله إذا استعمل جارحة من جوارحك فى الخير ، وعوّده الذكر ،ولم يستعمله فى الشر ولم يعوده الفضول . وما ذكره حق . فإن تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع ، يدفع جملة من المعاصى . فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى مانوعدفقال : استغفر الله . ومن تعود الفضول،سبق لسانه إلى قول : ما أحمقك، وما أقبح كذبك ! ومن تعود الاستعاذة إذا حُدِّث بظهور مبادىء الشر من شرير ، قال بحكم سبق اللسان . نعوذ بالله ، وإذا تعود الفضول قال :لعنه الله . فيعصى فى إحدى الكلمتين ويسلم فى الأخرى . وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معانى قوله تعالى (إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [1]) ومعانى قوله تعالى (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [2]) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار فى الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول ،هذا تضعيف فى الدنيا لأدنى الطاعات : وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون

(١) التوبة: ١٢٠ (٢) النساء : ٤٠

فإياك وأن تلمح فى الطاعات مجرد الآفات ، فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روجها الشيطان بلعنته على المغرورين ، وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر ، وأهل التفطن للخفايا والسرائر . فأى خير فى ذكرنا باللسان مع غفلة القلب . فانقسم الخلق فى هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات

أما السابق : فقال صدقت يا ملعون ، ولكن هى كلمة حق أردت بها باطلا . فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين ، فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب . فكان كالذى داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه

وأما الظالم المغرور ، فاستشعر فى نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدقيقة، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب ، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر ، فأسعف الشيطان ، وتدلى بحبل غروره ، فتمت بينهما المشاركة والموافقة . كما قيل : وافق شن طبقه ، وافقه فاعتنقه.

وأما المقتصد ، فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب فى العمل ، وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب . ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول، فاستمر عليه ، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان فى اعتياد الخير

فكان السابق كالحائك الذى ذمت حياكته فتركها وأصبح كاتبا . والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلا وأصبح كناسا . والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال : لا أنكر مذمة الحياكة، ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس. فإذا عجزت عن الكتابة فلا أترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية. استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير. فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه . فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد

فهكذا ينبغى أن تفهم ذم ما يذم ،وحمد ما يحمد ، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين. فإن هذه أمور تثبت بالإضافة ، فلا ينبغى أن تؤخذ من غير إضافة . بل ينبغى أن لا تستحقر ذرات الطاعات والمعاصى. ولذلك قال جعفر الصادق: إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئا ، فلعل رضاه فيه .

وغضبه فى معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئا ، فلعل غضبه فيه . وخبأ ولايته فى عباده ؛ فلا تحقروا منهم أحدا ، فلعله ولىّ الله تعالى . وزاد وخبأ إجابته فى دعائه ، فلاتتركوا الدعاء ، فربما كانت الإجابة فيه

الركن الرابع

فى دواء التوبه ، وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار

اعلم أن الناس قسمان :

شاب لاصبوة له ، نشأ على الخير واجتناب الشر ، وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « تَعَجَّبَ رَبُّكَ مِنْ شَابٍّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ * » وهذا عزيز نادر

والقسم الثانى :هو الذى لايخلو عن مقارفة الذنوب . ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين . وغرضنا أن نبين العلاج فى حل عقدة الإصرار ، ونذكر الدواء فيه .

فاعلم أن شفاء التوبة لايحصل إلا بالدواء . ولا يقف على الدواء من لايقف على الداء إذلامعنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ، ورفعه ، وإبطاله . ولا يبطل الشيء إلا بضده : ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة . ولا يضاد الغفلة إلا العلم ، ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا . قال تعالى (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ [1]) فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم، ومرارة الصبر. وكما يجمع السكنجبين بين حلاوة السكر وحموضة الخل ، ويقصد بكل منهما غرض آخر فى العلاج بمجموعهما ، فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء ، فهكذا ينبغى أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار .

فإذاً لهذا الدواء أصلان : أحدهما العلم ، والآخر الصبر . ولابد من بيانهما

فإن قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لابد من علم مخصوص ؟ . فاعلم أن العلوم

---

(١) حديث يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة :أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة

* ليست له صبوة : اى ميل إلى هوى

(١) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩

بجملتها أدوية لأمراض القلوب . ولكن لكل مرض علم يخصه . كما أن علم الطب نافع فى علاج الأمراض بالجملة ، ولكن يخص كل علة علم مخصوص . فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ، ليكون أقرب إلى الفهم فنقول :

يحتاج المريض إلى التصديق بأمور :

الأول : أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار ، على مارتبه مسبب الأسباب ، وهذا هو الإيمان بأصل الطب . فإن من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ، ويحق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه ، الإيمان بأصل الشرع وهو أن للسعادة فى الآخرة سببا هو الطاعة ، وللشقاوة سببا هو المعصية . وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان .

الثانى : أنه لا بد أن يعتقد المريض فى طبيب معين أنه عالم بالطب ، حاذق فيه ، صادق فيما يعبر عنه ، لا يلبّس ولا يكذب . فإن إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرده دون هذا الإيمان . ووزانه مما نحن فيه ، العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق ، لا كذب فيه ولا خلف

الثالث: أنه لا بد أن يصغى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب المضرة على الجملة ، حتى يغلب عليه الخوف فى ترك الاحتماء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتماء . ووزانه من الدين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب فى التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى ، والتصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك ، من غير شك واسترابة ، حتى ينبعث به الخوف المقوى على الصبر ، الذى هو الركن الآخر فى العلاج

الرابع : أن يصغى إلى الطبيب فيما يخص مرضه ، وفيما يلزمه فى نفسه الاحتماء عنه ، ليعرّفه أولا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله ، ومأكوله ومشروبه . فليس على كل مريض الاحتماء عن كل شىء ، ولا ينفعه كل دواء . بل لكل علة خاصة علم خاص ، وعلاج خاص . ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يبتلى بكل شهوة ، وارتكاب كل ذنب ، بل لكل مؤمن ذنب مخصوص ، أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته فى الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ، ثم إلى العلم بآفاتها وقدر ضررها ، ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ، ثم إلى العلم

بكيفية تكفير ما سبق منها . فهذه علوم يختص بها أطباء الدين . وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب ، وهو العالم . وإن كان لا يدرى أن ما يرتكبه ذنب ، فعلى العالم أن يعرفه ذلك . وذلك بأن يتكفل كل عالم بإقليم أو بلدة ، أو محلة : أو مسجد ، أو مشهد فيعلم أهله دينهم ، ويميز مايضرهم عما ينفعهم ، وما يشقيهم عما يسعدهم . ولا ينبغى أن يصبر إلى أن يُسأل عنه . بل ينبغى أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه . فإنهم ورثة الأنبياء ، والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم ، بل كانوا ينادونهم فى مجامعهم ، ويدورون على أبواب دورهم فى الابتداء ، ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم ، فإن مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم . كما أن الذى ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه ، لا يعرف برصه مالم يُعرِّفه غيره. وهذا فرض عين على العلماء كافة

وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا فى كل قرية وفى كل محلة فقيها متدينا ، يعلم الناس دينهم فإن الخلق لا يولدون إلا جهالا ، فلابد من تبليغ الدعوة إليهم فى الأصل والفرع . والدنيا دار المرضى إذ ليس فى بطن الأرض إلا ميت ، ولا على ظهرها إلا سقيم . ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان . والعلماء أطباء ، والسلاطين قوّام دار المرضى . فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم ، يسلم إلى السلطان ليكف شره ، كما يُسلم الطبيب المريض الذى لا يحتمى ، أو الذى غلب عليه الجنون ، إلى القيّم ليقيده بالسلاسل والأغلال ، ويكف شره عن نفسه وعن سائر الناس . وإنما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل:

إحداها : أن المريض به لا يدرى أنه مريض

والثانية : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم . بخلاف مرض البدن ، فإن عاقبته موت مشاهد ، تنفر الطباع منه . وما بعد الموت غير مشاهد . وعاقبة الذنوب موت القلب ، وهو غير مشاهد فى هذا العالم ، فقلت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك تراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ، ويجتهد فى علاج مرض البدن من غير اتكال

والثالثة : وهو الداء العضال فقد الطبيب . فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار مرضا شديدا عجزوا عن علاجه ، وصارت لهم سلوة فى عموم المرض حتى لا يظهر نقصانهم فاضطروا إلى إغواء الخلق ، والإشارة عليهم بما يزيدهم مرضا . لأن الداء المهلك هو حب الدنيا

وقـــد غلب هـذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير الخلق منه ، استنكافا من أن يقال لهم . فما بالكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ، فبهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء ، وانقطع الدواء ، وهلك الخلق لفقد الأطباء . بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء ، فليتهم إذ لم ينصحوا لم يغشوا ، وإذ لم يُصلحوا لم يُفسدوا . وليتهم سكتوا ومانطقوا . فإنهم إذا تكلموا لم يهمهم فى مواعظهم إلا مايرغب العوام ، ويستميل قلوبهم. ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء ، وتغليب أسباب الرجاء ، وذكر دلائل الرحمة ، لأن ذلك ألذ فى الأسماع ، وأخف على الطباع . فتنصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا مزيد جراءة على المعاصى ، ومزيد ثقة بفضل الله. ومهما كان الطبيب جاهلا أو خائنا أهلك بالدواء حيث يضعه فى غير موضعه ، فالرجاء والخوف دواآن ، ولـكن لشخصين متضادى العلة أما الذى غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية ، وكلف نفسه مالا تطيق ، وضيق العيش على نفسه بالكلية ، فتكسر سورة إسرافه فى الخوف بذكر أسباب الرجاء ، ليعود إلى الاعتدال .

وكذلك المصر على الذنوب ، المشتهى للتوبة ، الممتنع عنها بحكم القنوط واليأس استعظاما لذنوبه التى سبقت ، يعالج أيضا بأسباب الرجاء ، حتى يطمع فى قبول التوبة فيتوب

فأما معالجة المغرور المسترسل فى المعاصى بذكر أسباب الرجاء ، فيضاهى معالجة المحرور بالعسل طلبا للشفاء . وذلك من دأب الجهال والأغبياء . فإذاً فساد الأطباء هى المعضلة الزباء التى لاتقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فاذكر الطريق الذى ينبغى أن يسلكه الواعظ فى طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه . نعم نشير إلى الأنواع النافعة فى حل عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذنوب . وهى أربعة أنواع

الأول : أن يذكر مافى القرءان من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار . مثل قوله صلى الله عليه وسلم [1] « مَامِنْ يَوْمٍ طَلَعَ فَجْرُهُ وَلَا لَيْلَةٍ

---

(١) حديث مامن يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ـ الحديث : غريب لم أجده هكذا وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف ان لله ملكا ينادى فى كل ليلة أبناء الاربعين زرع قد دنا حصاده ـ الحديث : وفيه ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم اذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا ـ الحديث :

غَابَ شَفَقُهَا إِلَّا وَمَلَكَانِ يَتَجَاوَبَانِ بِأَرْبَعَةِ أَصْوَاتٍ يَقُولُ أَحَدُهُمَا يَا لَيْتَ هَذَا الْخَلْقَ لَمْ يُخْلَقُوا وَيَقُولُ الآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ خُلِقُوا عَلِمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا فَيَقُولُ الآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا لِمَاذَا خُلِقُوا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا » وفى بعض الروايات « لَيْتَهُمْ تَجَالَسُوا فَتَذَاكَرُوا مَا عَلِمُوا وَيَقُولُ الآخَرُ يَا لَيْتَهُمْ إِذْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا عَلِمُوا تَابُوا مِمَّا عَمِلُوا »

وقال بعض السلف . إذا أذنب العبد ، أمر صاحب اليمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات . فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه . وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف . ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا . فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كفا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه . ولو خلقتماه لرحمتماه . ولعله يتوب إلىّ فأغفر له . ولعله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات . فذلك معنى قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ [1])

وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه [1] « الطَّابِعُ مُعَلَّقٌ بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ فَإِذَا انْتُهِكَتِ الْحُرُمَاتُ وَاسْتُحِلَّتِ الْمَحَارِمُ أَرْسَلَ اللَّهُ الطَّابِعَ فَيَطْبَعُ عَلَى الْقُلُوبِ بِمَا فِيهَا » وفى حديث مجاهد [2] « الْقَلْبُ مِثْلُ الْكَفِّ الْمَفْتُوحَةِ كُلَّمَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا انْقَبَضَتْ أُصْبُعٌ حَتَّى تَنْقَبِضَ الْأَصَابِعُ كُلُّهَا فَيُسَدَّ عَلَى الْقَلْبِ فَذَلِكَ هُوَ الطَّبْعُ » وقال الحسن . إن بين العبد وبين الله حدا من المعاصى معلوما ، إذا بلغه العبد طبع الله على قلبه ، فلم يوفقه بعدها لخير

والأخبار والآثار فى ذم المعاصى ومدح التائبين لا تحصى . فينبغى أن يستكثر الواعظ منها إن كان وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم [3] ، فإنه ما خلف دينارا ولا درهما ، إنما

---

(١) حديث عمر الطابع معلق بقائمة من قوائم العرش فاذا انتهكت الحرمات ـ الحديث : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر

(٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف المفتوحة قلت هكذا قال المصنف وفى حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد رويناه فى شعب الايمان للبيهقى من قول حذيفة

(٣) حديث انه صلى الله عليه وسلم ما خلف دينارا ولا درهما انما خلف العلم والحكمة : البخارى من حديث عمرو بن الحارث قال ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة ما ترك دينارا ولا درهما ولا شاة ولا بعيرا وفى حديث أبى الدرداء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم ـ الحديث : وقد تقدم فى العلم

---

(1) فاطر : ٤١

خلف العلم والحكمة ، وورثه كل عالم بقدر ما أصابه

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين ، وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم . فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق . مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه ، ومالقيه من الإخراج من الجنة ، حتى روي أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده ، وبدت عورته ، فاستحيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه ، فجاءه جبريل عليه السلام ، فأخذ التاج عن رأسه ، وحل الإكليل عن جبينه . ونودي من فوق العرش . اهبطا من جواري فإنه لايجاورني من عصاني . قال فالتفت آدم إلى حواء باكيا وقال : هذا أول شؤم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب

وروي أن سليمان بن داود عليهما السلام ، لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما ، وقيل لأن المرأة سألته أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل . وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه ، فسلب ملكه أربعين يوما ، فهرب تائها على وجهه . فكان يسأل بكفه فلا يطعم . فإذا قال أطعموني فإني سليمان ابن داود شج ، وطرد ، وضرب ، وحكي أنه استطعم من بيت لامرأته فطردته وبصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فصبته على رأسه ، إلى أن أخرج الله الخاتم من بطن الحوت ، فلبسه بعد انقضاء الأربعين أيام العقوبة . قال فجاءت الطيور فعكفت على رأسه ، وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله . فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه . فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبل ، ولا أحمدكم في عذركم الآن . إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروي في الإسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه ، فراودته نفسه وطالبته بها ، فجاهدها واستعصم . قال فنبأه الله ببركة تقواه ، فكان نبيا في بني اسرائيل . وفي قصص موسى عليه السلام ، أنه قال للخضر عليه السلام . بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ قال بترك المعاصي لأجل الله تعالى

وروي أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام ، فنظر إلى قميصه نظرة ، وكان جديدا ، فكأنه أعجبه . قال فوضعته الريح . فقال لمَ فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نطيعك إذا أطعت الله

وروي أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام ، أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك

يوسف ؟ قال لا . قال لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت عليه الذئب ولم ترجنى ؟ ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له ؟ وتدرى لم رددته عليك ؟ قال لا . قال لأنك رجوتنى وقلت (عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً[1]) وبما قلت (اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا[2]) وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك (اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ[3]) قال الله تعالى (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ[4]) . وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر . ولم يرد بها القرءان والأخبار ورود الأسمار ، بل الغرض بها الاعتبار والاستبصار ، لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم فى الذنوب الصغار ، فكيف يتجاوز عن غيرهم فى الذنوب الكبار ! نعم كانت سعادتهم فى أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة . والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ، ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغى أن يكثر جنسه على أسماع المصرين ، فإنه نافع فى تحريك دواعى التوبة

النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل مايصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته . فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة ، ويخاف من عقوبة الله فى الدنيا أكثر لفرط جهله . فينبغى أن يخوف به . فإن الذنوب كلها يتعجل فى الدنيا شؤمها فى غالب الأمر . كما حكي فى قصة داود وسليمان عليهما السلام . حتى أنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه . وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه . قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ » وقال ابن مسعود . إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام [2] « مَنْ قَارَفَ ذَنْباً فَارَقَهُ عَقْلٌ لاَ يَعُودُ إِلَيْهِ أَبَداً » وقال بعض السلف : ليست اللعنة سوادا فى الوجه ، ونقصا فى المال ، إنما اللعنة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت فى مثله

---

(١) حديث ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه : ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده واللفظ له الا أنه قال الرجل بدل العبد من حديث ثوبان ؛

(٢) حديث من قارف ذنبا فارقه عقل لا يعود اليه أبدا : تقدم

---

(١) يوسف : ٨٣ (٢) يوسف : ٨٧ (٣ ، ٤) يوسف : ٤٢

او شر منه ، وهو كما قال . لان اللعنة هي الطرد والإبعاد . فإذا لم يوفق للخير، ويسر له الشر فقد أبعد . والحرمان عن رزق التوفيق أعظم حرمان . وكل ذنب فإنه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف ، فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء المنكرين للذنوب، ومن مجالسة الصالحين . بل يمقته الله تعالى ليمقته الصالحون . وحكي عن بعض العارفين أنه كان يمشي فى الوحل جامعا ثيابه ، محترزا عن زلقة رجله ، حتى زلقت رجله وسقط . فقام وهو يمشي فى وسط الوحل ويبكي ويقول : هذا مثل العبد لايزال يتوقى الذنوب ويجانبها، حتى يقع فى ذنب وذنبين، فعندها يخوض فى الذنوب خوضا . وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر . ولذلك قال الفضيل : ماأنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان ، فذنوبك ورثتك ذلك . وقال بعضهم : إني لأعرف عقوبة ذنبي فى سوء خلق حماري . وقال آخر : أعرف العقوبة حتى فى فأر بيتي . وقال بعض صوفية الشام : نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه ، فوقفت أنظر إليه ، فمر بي ابن الجلاء الدمشقي ، فأخذ بيدي فاستحييت منه . فقلت ياأباعبد الله ، سبحان الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة ، وهذه الصنعة المحكمة ، كيف خلقت للنار . فغمز يدي وقال : لتجدن عقوبتها بعد حين . قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة ، وقال أبو سليمان الداراني : الاحتلام عقوبة . وقال : لايفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه . وفى الخبر [1] « مَاأَنْكَرْتُمْ مِنْ زَمَانِكُمْ فَبِمَا غَيَّرْتُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ » وفى الخبر [2] « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى إِنَّ أَدْنَى مَاأَصْنَعُ بِالْعَبْدِ إِذَا آثَرَ شَهْوَتَهُ عَلَى طَاعَتِي أَنْ أَحْرِمَهُ لَذِيذَ مُنَاجَاتِي »

وحكي عن أبي عمرو بن علوان فى قصة يطول ذكرها ، قال فيها : كنت قائما ذات يوم أصلي ، فخامر قلبي هوى طاولته بفكرتي ، حتى تولد منه شهوة الرجال . فوقعت إلى الأرض ، واسود جسدي كله ، فاستترت فى البيت ، فلم أخرج ثلاثة أيام . وكنت أعالج غسله فى الحمام بالصابون ، فلا يزداد إلا اسودادا ، حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيد، وكان

---

(١) حديث ماأنكرتم من زمانكم فبماأنكرتم من أعمالكم : البيهقي فى الزهد من حديث أبي الدرداء وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبد الله بن هاني * قلت هو متهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل

(٢) حديث يقول الله ان أدنى ماأصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي : غريب لم أجده

قد وجه إلىّ فاشخصني من الرقة . فلما أتيته قال لى : أما استحييت من الله تعالى ؟ كنت قائما بين يديه ، فساورت نفسك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدى الله تعالى ؟ فلولا أنى دعوت الله لك ، وتبت إليه عنك ، للقيت الله بذلك اللون . قال فعجبت كيف علم بذلك وهو ببغداد وأنا بالرقة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنبا إلا ويسود وجه قلبه . فإن كان سعيدا أظهر السواد على ظاهره لينزجر . وإن كان شقيا أخفى عنه حتى ينهمك ويستوجب النار . والأخبار كثيرة فى آفات الذنوب فى الدنيا ، من الفقر ، والمرض وغيره . بل من شؤم الذنب فى الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته . فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ، ويحرم جميل الرزق ، حتى يتضاعف شقاؤه . وإن أصابته نعمة كانت استدراجا له ، ويحرم جميل الشكر ، حتى يعاقب على كفرانه . وأما المطيع ، فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة فى حقه جزاء على طاعته ، ويوفق لشكرها . وكل بلية كفارة لذنوبه ، وزيادة فى درجاته

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب ، كالخمر ، والزنا ، والسرقة ، والقتل ، والغيبة ، والكبر ، والحسد . وكل ذلك مما لا يمكن حصره . وذكره مع غير أهله وضع الدواء فى غير موضعه . بل ينبغى أن يكون العالم كالطبيب الحاذق ، فيستدل أولا بالنبض ، والسحنة ، ووجوه الحركات ، على العلل الباطنة . ويشتغل بعلاجها ، فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات ، وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، [1] حيث قال له واحد : أوصنى يارسول الله ولا تكثر علىَّ . قال « لَا تَغْضَبْ » [2] وقال له آخر : أوصنى يارسول الله ، فقال عليه السلام « عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِمَّا فِى أَيْدِى النَّاسِ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْغِنَى وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الْفَقْرُ الْحَاضِرُ وَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ » وقال رجل لمحمد بن واسع : أوصنى . فقال : أوصيك أن تكون ملكا فى الدنيا والآخرة . قال وكيف لى بذلك ؟ قال الزم الزهد فى الدنيا . فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم فى السائل الأول مخايل الغضب فنهاه عنه . وفى السائل الآخر مخايل الطمع فى الناس وطول الأمل . وتخيل محمد بن واسع فى السائل مخايل الحرص على الدنيا . وقال رجل لمعاذ

---

(١) حديث قال رجل أوصنى ولا تكثر على قال لا تغضب : تقدم

(٢) حديث قال له آخر أوصنى قال عليك باليأس ـ الحديث : ابن ماجه والحاكم وقد تقدم

أوصنى . فقال : كن رحيماً أكن لك بالجنة زعيماً . فكأنه تفرس فيه آثار الفظاظة والغلظة وقال رجل لإبراهيم بن أدهم . أوصنى . فقـال : إياك والناس ، وعليك بالناس ، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس كل الناس بالناس . ذهب الناس ، وبقى النسناس ، وما أراهم بالناس ، بل غمسوا فى ماء الياس . فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة .وأخبر عما كان هو الغالب على حاله فى وقته ، وكان الغالب أذاه بالناس . والكلام على قدر حال السائل ، أولى من أن يكون بحسب حال القائل : وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضى الله عنها أن اكتبي لى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى . فكتبت إليه من عائشة إلى معاوية ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] « مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ سَخَطَ اللهِ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ » والسلام عليك ،فانظر إلى فقهها كيف تعرضت للآفة التى تكون الولاة بصددها ، وهى مراعاة الناس وطلب مرضاتهم . وكتبت إليه مرة أخرى أما بعد ، فاتق الله ، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس ، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا والسلام

فإذاً على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية، وتوسم الأحوال اللائقة ، ليكون اشتغاله بالمهم . فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة. والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان

فإن قلت . فإن كان الواعظ يتكلم فى جمع ، أو سأله من لا يدرى باطن حاله أن يعظه ، فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه فى ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق فى الحاجة إليه إما على العموم ، وإما على الأكثر . فإن فى علوم الشرع أغذية وأدوية ، فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ماروي أن رجلا قال لأبى سعيد الخدرى . أوصنى . قال عليك بتقوى الله عز وجل ، فإنها رأس كل خير . وعليك بالجهاد ، فإنه رهبانية الإسلام . وعليك بالقرءان فإنه نور لك فى أهل الأرض ،وذكر لك فى أهل السماء . وعليك بالصمت إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصنى . فقال . أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه . يابنى زاحم العلماء بركبتيك ، ولا تجادلهم فيمقتوك ،

---

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس ـ الحديث : الترمذى والحاكم وفى مسند الترمذى من لم يسم

وخذ من الدنيا بلاغك ، وأنفق فضول كسبك لآخرتك ، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا ، وعلى أعناق الرجال كلاًّ ، وصم صوما يكسر شهوتك ، ولا تصم صوما يضر بصلاتك ، فإن الصلاة أفضل من الصوم ، ولا تجالس السفيه ، ولا تخالط ذا الوجهين وقال أيضا لابنه . يابنى ، لاتضحك من غير عجب ، ولا تمش فى غير أرب ، ولا تسأل عما لايعنيك ، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك ، فإن مالك ماقدمت ومال غيرك ماتركت يابنى ، إن من يرحم يرحم ، ومن يصمت يسلم ، ومن يقل الخير يغنم ، ومن يقل الشر يأثم ومن لايملك لسانه يندم . وقال رجل لأبى حازم أوصنى .فقال كل مالو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فالزمه . وكل مالو جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه، وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصنى . فقال : كن بسّاما ولا تكن غضّابا . وكن نفّاعا ولا تكن ضرّارا : وانزع عن اللجاجة ، ولا تمش فى غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، ولا تعير الخطائين بخطاياهم ، وابك على خطيئتك يابن عمران. وقال رجل لمحمد بن كرام أوصنى. فقال: اجتهد فى رضا خالقك بقدر ماتجتهد فى رضا نفسك . وقال رجل لحامد اللفاف أوصنى .فقال: اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف أن تدنسه الآفات . قال وماغلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا مالابد منه ، وترك كثرة الكلام إلا فيما لابد منه ، وترك مخالطة الناس إلا فيما لابد منه .وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى . أما بعد ،نخف مماخوفك الله ، واحذر مما حذّرك الله ، وخذ مما فى يديك لما بين يديك ، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه ، فكتب إليه أما بعد ، فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ، ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب . واعلم أن من حاسب نفسه ربح ،ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر فى العواقب نجا ، ومن أطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف أمن ،ومن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم . فإذا زللت فارجع ، وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل ، وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله :أمابعد ، فإن الدنيادار عقوبة، ولها يجمع من لاعقل له ، وبها يغتر من لاعلم عنده . فكن فيها ياأمير المؤمنين كالمداوى جرحه ،يصبر على شدة الدواء لما يخاف من عاقبة الداء

وكتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إلى عدى بن أرطاة : أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله ، وعدوة أعداء الله فأما أولياؤه فغمتهم . وأما أعداؤه فغرتهم .

وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد ، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لاتأتى إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم ، باقيا عليك . واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين والسلام

فهكذا ينبغى أن يكون وعظ العامة ، ووعظ من لايدرى خصوص واقعته . فهذه المواعظ مثل الأغذية التى يشترك الكافة فى الانتفاع بها . ولأجل فقد مثل هؤلاء الوعاظ انحسم باب الاتعاظ ، وغلبت المعاصى ، واستسرى الفساد ، وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا ، وينشدون أبياتا ، ويتكلفون ذكر ماليس فى سعة علمهم ، ويتشبهون بحال غيرهم . فسقط عن قلوب العامة وقارهم ، ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب . بل القائل متصلف ، والمستمع متكلف ، وكل واحد منهما مُدْبِرٌ ومتخلف . فإذن كان طلب الطبيب أول علاج المرضى ، وطلب العلماء أول علاج العاصين . فهذا أحد أركان العلاج وأصوله

الأصل الثانى : الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله مايضره . وإنما يتناول ذلك إما لغفلته عن مضرته ، وإما لشدة غلبة شهوته . فله سببان . فما ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة . وطريق علاجها قد ذكرناه فى كتاب رياضة النفس

وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضراوته لمأكول مضر ، فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ، ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ، ثم يتسلى عنه بما يقرب منه فى صورته ولا يكثر ضرره ، ثم يصبر بقوة الخوف على الألم الذى يناله فى تركه ؛ فلابد على كل حال من مرارة الصبر . فكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى . كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة ، فصار لايقدر على حفظ عينه ، ولا حفظ قلبه ، أو حفظ جوارحه فى السعي وراء شهوته . فينبغى أن يستشعر ضرر ذنبه ، بأن يستقرى المخوفات التى جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب المهيجة لشهوته . ومهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى والنظر إليه ، وعلاجه الهرب والعزلة . ومن داخل تناول لذائذ الأطعمة ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم . وكل ذلك لايتم إلا بصبر ،

ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة وافتكار ، أو عن سماع وتقليد . فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل ، مصروف إلى السماع ، ثم التفكر فيه لتمام الفهم . وينبعث من تمامه لا محالة خوفه وإذا قوي الخوف تيسر بمعونته الصبر ، وانبعثت الدواعي لطلب العلاج ، وتوفيق الله وتيسيره من وراء ذلك . فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء ، واستشعر الخوف فاتقى وانتظر الثواب ، وصدق بالحسنى ، فسييسره الله تعالى لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسييسره الله للعسرى ، فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى . وما على الأنبياء إلا شرح طرق الهدى ، وإنما لله الآخرة والأولى

فإن قلت : فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان ، لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف ، والخوف لا يكون إلا بالعلم ، والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان ، فكأن من أصر على الذنب لم يصر عليه إلا لأنه غير مؤمن ، فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان ، بل يكون لضعف الإيمان . إذ كل مؤمن مصدق بأن المعصية سبب البعد من الله تعالى ، وسبب العقاب في الآخرة . ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور . أحدها . أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر ، والنفس جبلت متأثرة بالحاضر ، فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر

الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة ، وهي في الحال آخذة بالمخنق . وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والألف ، والعادة طبيعة خامسة ، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النفس . ولذلك قال تعالى (كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [1]) وقال عز وجل (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [2]) وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » وقوله صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ النَّارَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لاَ يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا فَحَفَّهَا

---

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر اليها ـ الحديث : أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة

---

(١) القيامة : ٢٠ (٢) الاعلى : ١٦

بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا وَخَلَقَ الْجَنَّةَ فَقَالَ لِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا فَحَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ » . فإذاً كون الشهوة مرهقة فى الحال، وكون العقاب متأخراً إلى المآل، سببان ظاهران فى الاسترسال، مع حصول أصل الإيمان. فليس كل من يشرب فى مرضه ماء الثلج لشدة عطشه ، مكذبا بأصل الطب ، ولا مكذبا بأن ذلك مضر فى حقه . ولكن الشهوة تغلبه وألم الصبر عنه ناجز ، فيهون عليه الألم المنتظر .

الثالث : أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو فى الغالب عازم على التوبة، وتكفير السيئات بالحسنات . وقد وعد بأن ذلك يجبره . إلا أن طول الأمل غالب على الطباع ، فلا يزال يسوّف التوبة والتكفير . فمن حيث رجاؤه التوفيق للتوبة ، ربما يقدم عليه مع الإيمان

الرابع : أنه مامن مؤمن موقن ، إلا وهو معتقد أن الذنوب لاتوجب العقوبة إيجابا لا يمكن العفو عنها . فهو يذنب وينتظر العفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى

فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب ، مع بقاء أصل الإيمان . نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح فى أصل إيمانه ، وهو كونه شاكا فى صدق الرسل ، وهذا هو الكفر . كالذى يحذره الطبيب عن تناول مايضره فى المرض . فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب ، فيكذبه أو يشك فيه ، فلا يبالى به . فهذا هو الكفر

فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه فى السبب الأول ، وهو تأخر العقاب ، أن كل ماهو آت آت ، وأن غدا للناظرين قريب ، وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك نعله ، فما يدريه لعل الساعة قريب . والمتأخر إذا وقع صار ناجزا . ويذكر نفسه أنه أبدا فى دنياه يتعب فى الحال لخوف أمر فى الاستقبال. إذ يركب البحار ، ويقاسى الأسفار ، لأجل الربح الذى يظن أنه قد يحتاج إليه فى ثانى الحال . بل لو مرض فأخبره طبيب نصرانى بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت ، وكان الماء البارد ألذ الأشياء عنده تركه ، مع أن الموت ألمه لحظة إذا لم يخف مابعده ، ومفارقته للدنيا لا بد منها . فكم نسبة وجوده فى الدنيا إلى عدمه أزلا وأبدا ؟ فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذه بقول ذمى لم تقم معجزة على طبه ، فيقول . كيف يليق

بعقلى أن يكون قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات عندى ، دون قول نصرانى يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبّه ، ولا يشهد له إلا عوام الخلق ؟ وكيف يكون عذاب النار عندى أخف من عذاب المرض ، وكل يوم فى الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا !

وبهذا التفكر بعينه يعالج اللذة الغالبة عليه ، ويكلف نفسه تركها ، ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتى أيام العمر وهى أيام قلائل ، فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد ! وإذا كنت لا أطيق ألم الصبر ، فكيف أطيق ألم النار ! وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتنغصها وامتزاج صفوها بكدرها ، فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ! . وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر فى أن أكثر صياح أهل النار من التسويف ، لأن المسوّف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وإن بقى فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم . فليت شعرى هل عجز فى الحال إلا لغلبة الشهوة ؟ والشهوة ليست تفارقه غدا بل تتضاعف ، إذ تتأكد بالاعتياد . فليست الشهوة التى أكدها الإنسان بالعادة كالتى لم يؤكدها . وعن هذا هلك المسوّفون ، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين ولا يظنون أن الأيام متشابهة فى أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ، وما مثال المسوّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة ، فقال : أؤخرها سنة ثم أعود إليها ، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه . فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف . فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو فى نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع ، وهو انتظار عفو الله تعالى ، فعلاجه ما سبق . وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء . منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز فى أرض خربة . فإن إمكان العفو عن الذنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة فى بلده ، وترك ذخائر أمواله فى صحن داره ، وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل ، وقال : أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم الناهب ، حتى لا يتفرغ إلى دارى ، أو إذا انتهى إلى دارى مات على باب الدار ، فإن الموت ممكن ، والغفلة ممكنة ، وقد حكى فى الأسمار أن مثل ذلك وقع ، فأنا أنتظر من فضل الله مثله . فمنتظر هذا منتظرٌ أمر ممكن ، ولكنه فى غاية الحماقة والجهل ، إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر . وعلاجه الأسباب التى تعرفه صدق الرسل . وذلك يطول ، ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله

فيقال له : ماقاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدقه ممكن ؟ أو تقول أعلم أنه محال ، كما أعلم استحالة كون شخص واحد فى مكانين فى حالة واحدة ؟ فإن قال أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه ، وكأنه لاوجود لمثل هذا فى العقلاء . وإن قال أنا شاك فيه فيقال : لو أخبرك شخص واحد مجهول ، عند تركك طعامك فى البيت لحظة ، أنه ولغت فيه حية ، وألقت سمها فيه ، وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ؟ وإن كان ألذ الأطعمة ؟ فيقول أتركه لامحالة ، لأنى أقول إن كذب فلا يفوتنى إلا هذا الطعام ، والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب ، وإن صدق فتفوتنى الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله ، كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم ، مع ماظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء ، والعلماء ، والحكماء ، بل جميع أصناف العقلاء ، ولست أعنى بهم جهال العوام بل ذوى الألباب ، عن صدق رجل واحد مجهول ، لعل له غرضا فيما يقول ! فليس فى العقلاء إلا من صدّق باليوم الآخر ؛ وأثبت ثوابا وعقابا ، وإن اختلفوا فى كيفيته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد. وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة : فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد . بل لو قدّرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقدّرنا طائرا يلتقط فى كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها ، لفنيت الذرة ، ولم ينقص أبد الآباد شيئا . فكيف يفتر رأى العاقل فى الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا ، لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ! ولذلك قال أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعرى

قال المنجم والطبيب كلاهما لاتبعث الأموات قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسار عليكما

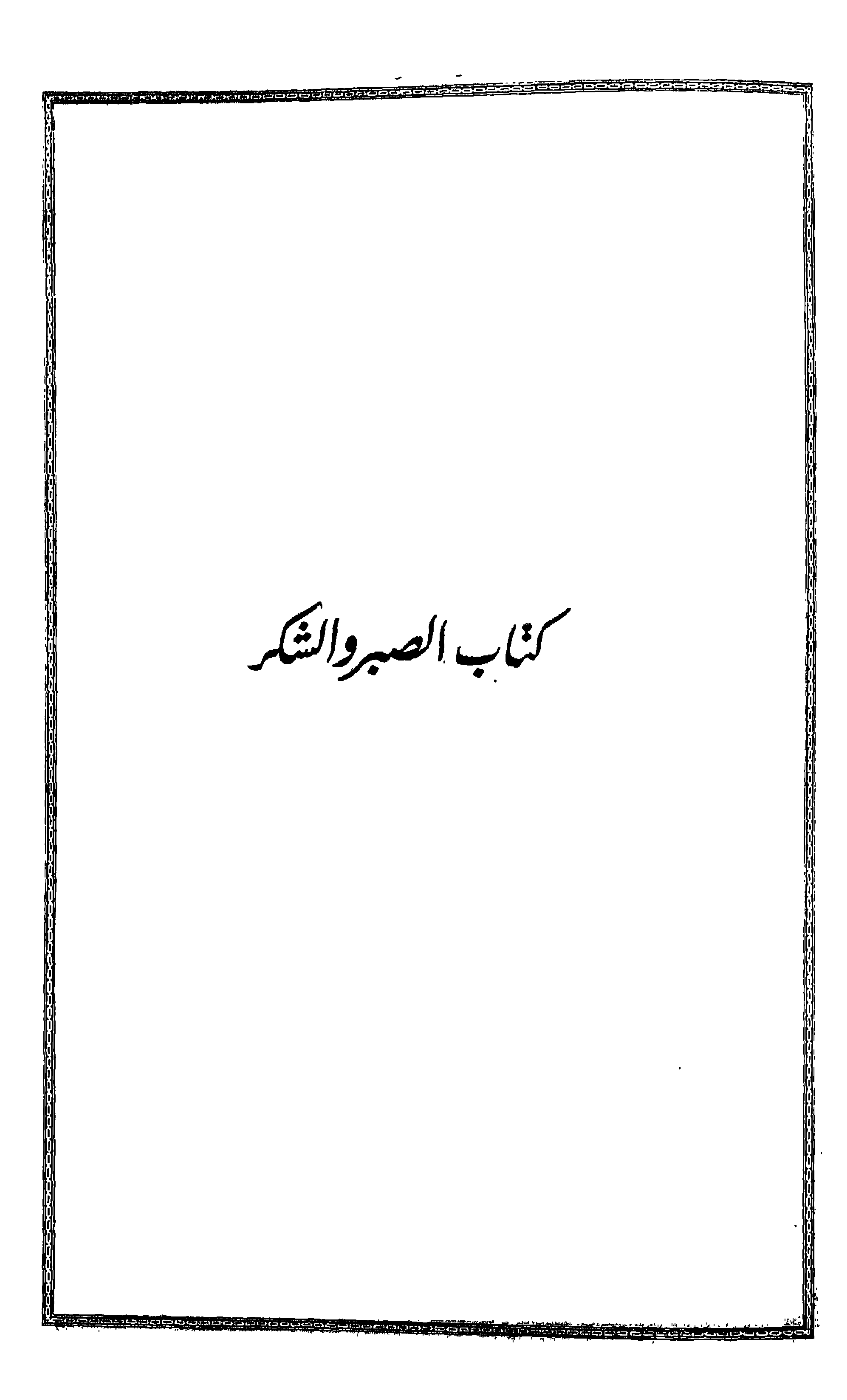
ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكا : إن صح ماقلت فقد تخلصنا جميعا ، وإلا فقد تخلصتُ وهلكتَ . أى العاقل يسلك طريق الأمن فى جميع الأحوال . فإن قلت . هذه الأمور جلية ، ولكنها ليست تنال إلا بالفكر ، فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستثقلته ، وما علاج القلوب لردها إلى الفكر ، لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المانع من الفكر أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر فى عقاب الآخرة وأهوالها ، وشدائدها ، وحسرات العاصين فى الحرمان عن النعيم المقيم . وهذا فكر لدّاغ مؤلم للقلب ، فينفر القلب عنه ، ويتلذذ بالفكر فى أمور الدنيا على سبيل التفرج والاستراحة

والثانى: أن الفكر شغل فى الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله فى كل حالة من أحواله، ونفس من أنفاسه، شهوة قد تسلطت عليه واسترقته. فصار عقله مسخرا لشهوته، فهو مشغول بتدبير حيلته، وصارت لذته فى طلب الحيلة فيه أو فى مباشرة قضاء الشهوة ؟ والفكر يمنعه من ذلك . وأما علاج هذين المانعين ، فهو أن يقول لقلبه : ما أشد غباوتك فى الاحتراز من الفكر فى الموت وما بعده ، تألما بذكره ، مع استحقار ألم مواقعته. فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع ، وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ، ومتألم به !

وأما الثانى . وهو كون الفكر مفوتا للذات الدنيا ، فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم . فإنها لا آخر لها ، ولا كدورة فيها . ولذات الدنيا سريعة الدثور ، وهى مشوبة بالمكدرات . فما فيها لذة صافية عن كدر . وكيف وفى التوبة عن المعاصى والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى ، واستراحة بمعرفته ، وطاعته ، وطول الأنس به ! ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة ، وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا . فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ! نعم هذه اللذة لا تكون فى ابتداء التوبة ، ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة ، وقد صار الخير ديدنا ، كما كان الشر ديدنا . فالنفس قابلة ما عودتها تتعود ، والخير عادة ، والشر لجاجة

فإذاً هذه الأفكار هي المهيجة للخوف المهيج لقوة الصبر عن اللذات . ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ ، وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تتفق لا تدخل فى الحصر ، فيصير الفكر موافقا للطبع ، فيميل القلب إليه . ويعبر عن السبب الذى أوقع الموافقة بين الطبع والفكر الذى هو سبب الخير بالتوفيق . إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة وبين المعنى الذى هو طاعة نافعة فى الآخرة . وقد روي فى حديث طويل ، أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه : ياأمير المؤمنين ، أخبرنا عن الكفر على ماذا بُني فقال عليّ رضي الله عنه : بني على أربع دعائم . على الجفاء ، والعمى ، والغفلة ، والشك . فمن جفا احتقر الحق ، وجهر بالباطل . ومقت العلماء . ومن عمي نسي الذكر . ومن غفل حاد عن الرشد . ومن شك غرته الأماني: فأخذته الحسرة والندامة، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكر . وهذا القدر فى التوبة كاف . وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة. فلا بد من بيان الصبر ، فنذكره فى كتاب مفرد إن شاء الله تعالى



كتاب الصبر والشكر

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثانى من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المنفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء ، والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء ، وعلى أصحابه سادة الأصفياء ، وعلى آله قادة البررة الأتقياء ، صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء

أما بعد : فإن الإيمان نصفان . نصف صبر ونصف شكر ، كما وردت به الآثار ، وشهدت له الأخبار [١] . وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى ، واسمان من أسمائه الحسنى ، إذ سمى نفسه صبورا وشكورا . فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ، ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن . ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان . وكيف يتصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان ، ومن به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان ، وعن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان . ونحن نوضح كلا الشطرين فى كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى .

الشطر الأول

فى الصبر

وفيه بيان فضيلة الصبر ، وبيان حده وحقيقته ، وبيان كونه نصف الإيمان ، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلقاته ، وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف ، وبيان مظان الحاجة إلى الصبر ، وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه . فهى سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى

(كتاب الصبر والشكر)

(١) حديث الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن أنس ويزيد ضعيف

بيان

فضيلة الصبر

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرءان في نيف وسبعين موضعا. وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له. فقال عزّ من قائل (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا [1]) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا [2]) وقال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [3]) وقال تعالى (أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا [4]) وقال تعالى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [5]) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر. ولأجل كون الصوم من الصبر، وأنه نصف الصبر، قال الله تعالى: الصوم لي وأنا أجزي به. فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات. ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى (وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [6]) وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ [7]) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى (أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [8]) فالهدى، والرحمة، والصلوات، مجموعة للصابرين. واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأما الأخبار. فقد قال صلى الله عليه وسلم [1] « الصَّبْرُ نِصْفُ الْإِيمَانِ » على ما سيأتي وجه كونه نصفا. وقال صلى الله عليه وسلم [2] « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمُ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ وَمَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْهُمَا لَمْ يُبَالِ بِمَا فَاتَهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَصِيَامِ النَّهَارِ وَلَأَنْ تَصْبِرُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يُوَافِيَنِي كُلُّ امْرِئٍ مِنْكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِ جَمِيعِكُمْ

---

(١) حديث الصبر نصف الايمان : أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم

(٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ـ الحديث بطوله تقدم في العلم مختصرا ولم أجده هكذا بطوله

---

(١) السجدة : ٢٤ (٢) الأعراف : ١٣٧ (٣) النحل : ٩٦ (٤) القصص : ٥٤ (٥) الزمر : ١٠ (٦) الانفال ٤٦

(٧) آل عمران : ١٢٥ (٨) البقرة : ١٥٧

وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ تُفْتَحَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا بَعْدِي فَيُنْكِرُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَيُنْكِرُكُمْ أَهْلُ السَّمَاءِ عِنْدَ ذَلِكَ فَمَنْ صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ظَفِرَ بِكَمَالِ ثَوَابِهِ» ثم قرأ قوله تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ [1]) الآية

وروى [1] جابر أنه سئل صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال «الصَّبْرُ وَالسَّمَاحَةُ» وقال أيضا [2] «الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ» [3] وسئل مرة ما الإيمان؟ فقال «الصَّبْرُ» وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم «الْحَجُّ عَرَفَةُ» معناه معظم الحج عرفة. وقال أيضا صلى الله عليه وسلم [4] «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أُكْرِهَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ»

وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام، تخلق بأخلاقي، وإن من أخلاقي أني أنا الصبور. [5] وفي حديث عطاء عن ابن عباس، لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ» فسكتوا. فقال عمر نعم يارسول. قال «وَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ» قالوا نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء. فقال صلى الله عليه وسلم «مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ» وقال صلى الله عليه وسلم [6] «فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ» وقال المسيح عليه السلام: إنكم لاتدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [7] «لَوْ كَانَ الصَّبْرُ رَجُلاً لَكَانَ كَرِيماً وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» والأخبار في هذا لاتحصى

---

(١) حديث جابر سئل عن الايمان فقال الصبر والسماحة: الطبراني في مكارم الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد ابن عمير عن أبيه عن جده

(٢) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة: غريب لم أجده

(٣) حديث سئل مرة عن الايمان فقال الصبر: أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف

(٤) حديث الحج عرفة: تقدم في الحج

(٥) حديث أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس: لاأصل له مرفوعا وانما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس

(٦) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الانصار فقال أمؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر نعم يارسول الله الحديث: الطبراني في الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء

(٧) حديث في الصبر على ماتكره خير كثير: الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم

(٨) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما: الطبراني من حديث عائشة وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلي

---

(١) النحل: ٩٦

وأما الآثار ، فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: عليك بالصبر . واعلم أن الصبر صبران ، أحدهما أفضل من الآخر. الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى .واعلم أن الصبر ملاك الإيمان ، وذلك بأن التقوى أفضل البر ، والتقوى بالصبر . وقال عليّ كرم الله وجهه : بني الإيمان على أربع دعائم اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل . وقال أيضا : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له

وكان عمر رضي الله عنه يقول : نعم العدلان ، ونعمت العلاوة للصابرين . يعني بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى . والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى(وَأُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ [1])

وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ [2]) بكي وقال : واعجباه ! أعطى وأثنى.أي هو المعطي للصبر وهو المثني

وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم ، والرضا بالقدر . هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل . وأما من حيث النظر بعين الاعتبار ، فلا تفهم إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعنـــــاه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه ، وبالله التوفيق :

بيـــان

حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل السالكين . وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور : معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف هي الأصول ، وهي تورث الأحوال . والأحوال تثمر الأعمال . فالمعارف كالأشجـار ، والأحوال كالأغصان ، والأعمال كالثمار . وهذا مطرد في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل ، كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والإسلام في كتاب قواعد العقائد . وكذلك الصبر ، لا يتم إلا بمعرفة سابقة ، وبحالة قائمة

---

(١) البقرة : ١٥٧ (٢) ص : ٤٤

فالصبر على التحقيق عبارة عنها . والعمل هو كالثمرة يصدر عنها . ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة ، والإنس ، والبهائم ، فإن الصبر خاصية الإنس. ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة . أما في البهائم فلنقصانها ، وأما في الملائكة فلكمالها

وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها ، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها ، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام . فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية ، والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى تحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر ألبتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما ، لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما . وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم . ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده ، أكرم بني آدم ، ورفع درجتهم عن درجة البهائم ، فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين ، أحدهما يهديه ، والآخر يقويه . فتميز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ، ومعرفة رسوله ، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب . وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف . فالبهيمة لا معرفة لها ، ولا هداية إلى مصلحة العواقب ، بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط . فلذلك لا تطلب إلا اللذيذ . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر . فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه . فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه . فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ، ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها . وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة . فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى . وذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد . كما أن نور

الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لا ينحصر . فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الإنسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا . ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى . فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة . فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة ، فقد نصر حزب الله ، والتحق بالصابرين . وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها ، التحق باتباع الشياطين . فإذاً ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر. وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة . وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ، ومضادتها لأسباب السعادات فى الدنيا والآخرة . فإذا قوى يقينه ،أعنى المعرفة التى تسمى إيمانا ، وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى ، قوى ثبات باعث الدين . وإذا قوى ثباته ، تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة . فلا يتم ترك الشهوة إلا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة . وقوة المعرفة والإيمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها . وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى وتسخيره إياهما . وهما من الكرام الكاتبين . وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين الذى هو أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسلماً له ، فهو إذاً صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال . وللعبد طوران فى الغفلة والفكر ، وفى الاسترسال والمجاهدة . فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه ، فيكتب إعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن، فيكتب إقباله له حسنة . وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه ، فهو به مسىء إليه ، فيثبت عليه سيئة . وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فيثبت له به حسنة . وإنما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما . فلذلك سميا كراما كاتبين . أما الكرام ، فلانتفاع العبد بكرمهما، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة. وأما الكاتبون ، فلإثباتهما الحسنات

والسيآت. وإنما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب، ومطوية عن سر القلب ، حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم ، فإنهما ، وكتبتهما ، وخطهما ، وصحائفهما ، وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت ، لا من عالم الشهادة . وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار فى هذا العالم . ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين : مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى . وأعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم [1] « مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ » وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ [1]) وفيها يقال (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [2]) أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق ، فلا يكون وحده . بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق . وفيها يساق المتقون إلى الجنة ، والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا . والهول الأول هو هول القيامة الصغرى . ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض مثلا ، فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها . بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه ، لا بزلزلة مسكن غيره . فحصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب . وحظك الخاص من التراب بدنك فقط . فأما بدن غيرك فليس بحظك . والأرض التى أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان . وإنما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه . وإلا فالهواء أبدا متزلزل وأنت لا تخشاه . إذ ليس يتزلزل به بدنك . فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر حواسك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك . فإذا انهدم بالموت أركان بدنك ، فقد زلزلت الأرض زلزالها . فإذا انفصلت

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته : ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف

[1] الانعام : ٩٣ [2] الاسراء : ١٤

العظام من اللحوم ، فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فإذا رمت العظام ، فقد نسفت الجبال نسفا . فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا . فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدرت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا . فإذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا . فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك ، فقد عطلت العشار تعطيلا . فإذ فارقت الروح الجسد ، فقد حملت الأرض فدت ، حتى ألقت ما فيها وتخلت

ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال . ولكنى أقول : بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ؟ والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة ، وهو حصته منها . فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره . ومن انشق رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذ السماء عبارة عما يلى جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ؟

فهذه هى القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر . وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، وتمت الأهوال

واعلم أن هذه الصغرى وإن طولنا فى وصفها ، فإنا لم نذكر عشر عشير أوصافها . وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى . فإن للإنسان ولادتين : إحداها الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو فى الرحم فى قرار مكين إلى قدر معلوم ، وله فى سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار ، من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم . فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى ، كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم ، بل أوسع وأعظم . فقس الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى . بل أعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين .

وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ [١])

فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة، وموقن بالملك والملكوت: والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين . وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يامسكين، وكلنا ذلك المسكين ،وبين يديك هذه الأهوال . فإن كنت لاتؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال ، أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ؟ أو ماسمعت قول سيد الأنبياء [١] « كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا » أوما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم [٢] « اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَى مُحَمَّدٍ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ » أوماتستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين،الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون ؟ فياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن . أفيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ؟ أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون ؟ أم يحسبون أن الموت سافروا من عندهم فهم معدومون ؟ كلا . إن كل لما جميع لدينا محضرون . ولكن ماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، وذلك لأنا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لايبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . ولنرجع إلى الغرض ، فإن هـــذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين . ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين، إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الإقبال على الاستفادة منهما ، والسيئة فى الإعراض عنهما ،وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة،فلا يتصور منهما إقبال وإعراض

---

(١) حديث كفى بالموت واعظا : البيهقى فى الشعب من حديث عائشة وفيه الربيع بن بدر ضعيف ورواه الطبرانى من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقى فى الزهد

(٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت : الترمذى وقال غريب والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بلفظ اللهم أعنى على سكرات الموت

---

(١) الواقعة : ٦١

وهما لا يكتبان إلا الإقبال والإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض . ولعمرى إنه قد تظهر مبادىء إشراق نور الهداية عند سن التمييز ، رتنمو على التدريج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس . ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا . فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ، ولا يعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ماينشر فى الآخرة . بل على القيم العدل ، والولي البر الشفيق ، إن كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، أن يكتب على الصبي سيئته وحسنته على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب . فكل وليّ هذا سمته فى حق الصبي ، فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها فى حق الصبي ، فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة ، فيكون مع النبيين ، والمقربين ، والصديقين . وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِى الْجَنَّةِ » وأشار إلى أصبعيه الكريمتين صلى الله عليه وسلم

بيان

كون الصبر نصف الإيمان

اعلم أن الإيمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يخص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعا . وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب . ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها ، كان الإيمان نيفا وسبعين بابا . واختلافُ هذه الإطلاقات ذكرناه فى كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين ، وعلى مقتضى إطلاقين :

أحدهما : أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا ، فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين ، والآخر الصبر . والمراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى

---

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين : البخاري من حديث سهل بن سعد وتقدم

عبده إلى أصول الدين . والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين . إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة ، والطاعة نافعة . ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى والكسل . فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « مِنْ أَقَلِّ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » الحديث إلى آخره

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف . وعند ذلك ينقسم جميع مايلاقيه العبد إلى ماينفعه فى الدنيا والآخرة . أو يضره فيهما . وله بالإضافة إلى مايضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر . فيكون الشكر أحد شطرى الإيمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه : الإيمان نصفان نصف صبر ، ونصف شكر . وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة لطلب اللذيذ ، والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار « الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا . فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان . فهكذا ينبغى أن تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ، ونسبتها إلى الإيمان . والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان ، فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة

بيان

الأسامى التى تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدنى ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة ، إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد ، والمرض العظيم ، والجراحات الهائلة . وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع . ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر ، وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج ، سمى عفة

وإن كان عن احتمال مكروه ، اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب وغيرها . وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ،ويضاده الجبن . وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر . وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما . وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره . فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر . ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال « هُوَ الصَّبْرُ » لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال [1] « الْحَجُّ عَرَفَةُ » وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ [1]) أى المصيبة ، (وَالضَّرَّاءِ [2]) أى الفقر ، (وَحِينَ الْبَأْسِ [3]) أي المحاربة (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ [4])

فإذاً هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها . ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها ، من حيث رأى الأسامى مختلفة . والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله ، يلحظ المعانى أولا ، فيطلع على حقائقها ، ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى . فالمعانى هى الأصول ، والألفاظ هي التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابد وأن يزل . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [5]) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات ، نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه

---

(١) حديث الحج عرفة : أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يعمر وتقدم فى الحج

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) البقرة : ١٧٧ (٥) الملك : ٢٢

بيان

أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها :أن يقهر داعى الهوى فلا تبق له قوة المنازعة . ويتوصل إليه بدوام الصبر . وعند هذا يقال . من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون. فلا جرم هم الصديقون المقربون ، الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم ، واستووا على الصراط القويم ، واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادى المنادى يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعى إلى ربك راضية مرضية

الحالة الثانية : أن تغلب دواعى الهوى ، وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ، فيسلم نفسه إلى جند الشياطين، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة . وهؤلاء هم الغافلون .وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم ، وغلبت عليهم شقوتهم، فحكموا أعداء الله فى قلوبهم التى هى سر من أسرار الله تعالى ، وأمر من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ[١]) وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ،فخسرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ[٢]) وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط والغرور بالأمانى ، وهو غاية الحمق . كما قال صلى الله عليه وسلم[١] « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنها قد تعذرت علىّ ، فلست أطمع فيها . أو لم يكن مشتاقا إلى التوبة ، ولكن قال : إن الله غفور رحيم كريم ، فلا حاجة به إلى توبتى. وهذا المسكين قد صار عقله رقيقا لشهوته، فلا يستعمل عقله إلا فى استنباط دقائق الحيل التى بها يتوصل إلى قضاء شهوته . فقد صار

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه ـ الحديث : تقدم فى ذم الغرور

---

(١) السجدة : ١٣ (٢) النجم : ٢٩

عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدى الكفار، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير، وحفظ الخمور وحملها ، ومحله عند الله تعالى محل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ، ويجعله أسيرا عندهم . لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر ما كان حقه أن لا يستسخر ، وسلط ما حقه أن لا يتسلط عليه . وإنما استحق المسلم أن يكون متسلطا لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكافر أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل بالدين وباعث الشياطين . وحق المسلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه . فمهما سخر المعنى الشريف الذى هو من حزب الله وجند الملائكة ، للمعنى الخسيس الذى هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله تعالى ، كان كمن أرق مسلما لكافر، بل هو كمن قصد الملك المنعمَ عليه،فأخذ أعزّ أولاده وسلمه إلى أبغض أعدائه. فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته ، وَاستيجابه لنقمته ، لأن الهوى أبغض إلهٍ عُبِدَ في الأرض عند الله تعالى ،والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض

الحالة الثالثة :أن يكون الحرب سجالا بين الجندين فتارة له اليد عليها ، وتارة لها عليه . وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم . هذا باعتبار القوة والضعف

ويتطرق إليه أيضا ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه . فإنه إما أن يغلب جميع الشهوات ،أو لا يغلب شيئا منها ، أو يغلب بعضها دون بعض . وتنزيل قوله تعالى (خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً [1]) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقا يشبهون بالأنعام ، بل هم أضل سبيلا . إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التى بها تجاهد مقتضى الشهوات . وهذا قد خلق ذلك له وعطله ، فهو الناقص حقا ، المدْبِر يقينا . ولذلك قيل

ولم أر فى عيوب الناس عيبا   كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضا باعتبار اليسر والعسر .إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد ،وتعب شديد ، ويسمى ذلك تصبرا ،وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ، ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى،وقوي

---

[1] التوبة : ١٠٢

التصديق بما في العاقبة من الحسنى ، تيسر الصبر . ولذلك قال تعالى (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى [1])ومثال هذه القسمة قدرةالمصارع على غيره . فإن الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة ، بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء ولا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد ، وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى . فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت ، وتسلط باعث الدين واستولى ، وتيسر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا . فالرضا أعلى من الصبر . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « اعْبُدِ اللَّهَ عَلَى الرِّضَا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَفِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ » وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة ، وهذه درجة التائبين : وثانيها الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين . وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا ؛ كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر . وكأن هذا الانقسام يجرى في صبر خاص، وهو الصبر على المصائب والبلايا

واعلم أن الصبر أيضا ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ، و نفل ،ومكروه،ومحرم.فالصبر عن المحظورات فرض . وعلى المكاره نفل . والصبر على الأذى المحظور محظور . كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا ، وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة ، فتهيج غيرته ، فيصبر عن إظهار الغيرة ، ويسكت على مايجرى على أهله ، فهذا الصبر محرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع . فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أن جميعه محمود . بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة

---

(١) حديث اعبدالله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ماتكره خير كثير : الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم

---

(١) الليل : ٥

بيان

مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال

اعلم أن جميع مايلق العبد في هذه الحياة لايخلو من نوعين: أحدهما: هو الذي يوافق هواه، والآخر: هو الذي لايوافقه بل يكرهه. وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما. وهو في جميع الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين، أو عن كليهما. فهو إذاً لايستغني قط عن الصبر

النوع الأول: مايوافق الهوى، وهو الصحة، والسلامة، والمال، والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار. وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور. فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها، والانهماك في ملاذها المباحة منها، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان. فإن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى. حتى قال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق.

وقال سهل: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء. ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا. ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر. ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال، والزوج، والولد، فقال تعالى (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ [1]) وقال عز وجل (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [2]) وقال صلى الله عليه وسلم [1] « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ » [2] ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه، نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال « صَدَقَ اللهُ »، (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [3])، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ ابْنِي يَتَعَثَّرُ لَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ أَخَذْتُهُ » ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها، ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده، وعسى أن يسترجع على القرب. وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم، واللذة، واللهو، واللعب. وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق

---

(١) حديث الولد مجبنة مبخلة محزنة: أبو يعلى الموصلي من حديث أبي سعيد وتقدم

(٢) حديث لما نظر الى ابنه الحسن يتعثر في قميصه نزل عن المنبر ـ الحديث: أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسين والحسين وقال الترمذي حسن غريب

---

(١) المنافقين : ٩ (٢) التغابن ١٤ (٣) التغابن : ١٥

وفى بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق . وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر ، فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى . وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة . ومن العصمة أن لا تقدر . والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك ، أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك . والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها . فلهذا عظمت فتنة السراء

النوع الثانى : مالا يوافق الهوى والطبع . وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد ، كالطاعات والمعاصى ، أو لا يرتبط باختياره ، كالمصائب والنوائب ، أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته ، كالتشفى من المؤذى بالانتقام منه . فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما يرتبط باختياره ، وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية . وهما ضربان .

الضرب الأول : الطاعة . والعبد يحتاج إلى الصبر عليها . فالصبر على الطاعة شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية ، وتشتهى الربوبية . ولذلك قال بعض العارفين : مامن نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى [1]) ولكن فرعون وجد له مجالا وقبولا فأظهره ، إذ استخف قومه فأطاعوه . ومامن أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده ، وخادمه ، وأتباعه ، وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعا من إظهاره . فإن استشاطته وغيظه عند تقصيرهم فى خدمته ، واستبعاده ذلك ، ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ، ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء ، فإذاً العبودية شاقة على النفس مطلقا . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال .

الأولى . قبل الطاعة ، وذلك فى تصحيح النية ، والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعى الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية ، والإخلاص ، وآفات الرياء ، ومكايد النفس وقد نبه عليه ، صلوات الله عليه إذ قال [2] « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَانَوَى » وقال تعالى

---

(١) حديث انما الاعمال بالنيات : متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم

(١) النازعات : ٣٢

(وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [١]) ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ [٢])

الحالة الثانية : حالة العمل ، كي لا يغفل عن الله فى أثناء عمله ، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير . فيلازم الصبر عن دواعى الفتور إلى الفراغ . وهذا أيضا من شدائد الصبر . ولعله المراد بقوله تعالى (نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا [٣]) أى صبروا إلى تمام العمل

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء . والصبر عن النظر إليه بعين العجب ، وعن كل مايبطل عمله ويحبط أثره . كما قال تعالى (وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ [٤]) وكما قال تعالى (لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى [٥]) فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل . وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى فى قوله (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى [٦]) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر

الضرب الثانى المعاصى ، فما أحوج العبد إلى الصبر عنها . وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصى فى قوله تعالى (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ [٧]) وقال صلى الله عليه وسلم [(١)] « الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ هَوَاهُ » والمعاصى مقتضى باعث الهوى وأشد أنواع الصبر عن المعاصى الصبر عن المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة . فإن العادة طبيعة خامسة . فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ، فلا يقوى باعث الدين على قمعها . ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله ، كان الصبر عنه أثقل على النفس . كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، وأنواع المزح المؤذى للقلوب ، وضروب الكلمات التى

---

(١) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه : ابن ماجه بالشطر الأول والنسائى فى الكبرى بالشطر الثانى كلاهما من حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين وقد تقدما

---

(١) البينة : ٥ (٢) هود : ١١ (٣) العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩ (٤) محمد : ٣٣ (٥) البقرة : ٢٦٤ (٦ ، ٧) النحل : ٩٠

يقصد بها الإزراء والاستحقار ، وذكر الموتى ،والقدح فيهم،وفى علومهم،وسيرهم،ومناصبهم فإن ذلك فى ظاهره غيبة ، وفى باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان . إحداهما نفى الغير ، والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التى هى فى طبعه ، وهى ضد ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين ، وتيسر تحريك اللسان، ومصير ذلك معتادا فى المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهى أكبر الموبقات ، حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها ، وعموم الأنس بها . فترى الإنسان يلبس حريرا مثلا ، فيستبعد غاية الاستبعاد ، ويطلق لسانه طول النهار فى أعراض الناس ، ولا يستنكر ذلك ، مع ما ورد فى الخبر [1] من أن الغيبة أشد من الزنا . ومن لم يملك لسانه فى المحاورات ،ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب عليه العزلة والانفراد ، فلا ينجيه غيره . فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة . وتختلف شدة الصبر فى آحاد المعاصى باختلاف داعية تلك المعصية فى قوتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس . فلا جرم يبقى حديث النفس فى العزلة ، ولا يمكن الصبر عنه أصلا ، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر فى الدين يستغرقه . كمن أصبح وهمومه هم واحد،وإلا فإن لم يستعمل الفكر فى شىء معين لم يتصور فتور الوسواس عنه

القسم الثانى :ما لا يرتبط هجومه باختياره ، وله اختيار فى دفعه ،كما لو أوذى بفعل أو قول، وجنى عليه فى نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجبا ، وتارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم . ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى . وقال تعالى (وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ [1]) [2] وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين . هذه قسمة ما أريد به وجه الله . فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فاحمرت وجنتاه ثم قال « يَرْحَمُ اللَّهُ أَخِي مُوسَىٰ لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ » وقال تعالى (وَدَعْ أَذَاهُمْ

---

(١) حديث ان الغيبة أشد من الزنا : تقدم فى آفات اللسان

(٢) حديث قسمه مرة مالا وقول بعض الاعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ـ الحديث : متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم

---

(١) ابراهيم : ١٢

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ[1]) وقال تعالى (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً[2]) وقال تعالى (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ[3]) الآية، وقال تعالى (وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[4]) أى تصبروا عن المكافأة . ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم فى القصاص وغيره ، فقال تعالى (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ[5])

وقال صلى الله عليه وسلم[1] « صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » ورأيت فى الإنجيل : قال عيسى بن مريم عليه السلام : لقد قيل لكم من قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف . وأنا أقول لكم . لاتقاوموا الشر بالشر . بل من ضرب خدك الأيمن فحول إليه الخد الأيسر . ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك . ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر معه ميلين . وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، لأنه يتعاون فيه باعث الدين وباعث الشهوة والغضب جميعا

القسم الثالث : مالايدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره كالمصائب . مثل موت الأعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين ، وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء . فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما الصبر فى القرءان على ثلاثة أوجه . صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل ، على ما قبلها وهى من الفرائض ، لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين ، فإن ذلك شديد على النفس . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[2] « أَسْأَلُكَ مِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيَّ بِهِ مَصَائِبَ الدُّنْيَا » فهذا صبر مستنده حسن اليقين

---

(١) حديث صل من قطعك ـ الحديث : تقدم

(٢) حديث أسألك من اليقين ماتهون به على مصائب الدنيا : الترمذى والنسائى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وحسنه الترمذى وقد تقدم فى الدعوات

(١) الاحزاب : ٤٨ (٢) المزمل : ١٠ (٣) : الحجر ٩٧ (٤) آل عمران : ١٨٦ (٥) النحل : ١٢٦

وقال أبو سليمان . والله ما نصبر على ما نحب ، فكيف نصبر على ما نكره ! وقال النبي صلى الله عليه وسلم[١] « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال صلى الله عليه وسلم[٢] « انْتِظَارُ الْفَرَجِ بِالصَّبْرِ عِبَادَةٌ » وقال صلى الله عليه وسلم[٣] « مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى » (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[١]) « اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ » . وقال أنس . حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم[٤] أن الله عز وجل قال . « يَا جِبْرِيلُ مَا جَزَاءُ مَنْ سُلِبَتْ كَرِيمَتَيْهِ قَالَ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا قَالَ تَعَالَى جَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي » وقال صلى الله عليه وسلم[٥] « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ فَإِذَا أَبْرَأْتُهُ أَبْرَأْتُهُ وَلَا ذَنْبَ لَهُ وَإِنْ تَوَفَّيْتُهُ فَإِلَى رَحْمَتِي » .

---

(١) حديث قال الله اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث : ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف

(٢) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة : القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد الماليني فى مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم فى الدعوات

(٣) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ـ الحديث : مسلم من حديث أم سلمة

(٤) حديث أنس إن الله قال ياجبريل ما جزاء من سلبت كريمتيه ـ الحديث : الطبرانى فى الأوسط من رواية أبى ظلال القسملى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ ان الله عز وجل قال اذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة رواه ابن عدى وأبو يعلى بلفظ اذا أخذت كريمتي عبدى لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يارسول الله وان كانت واحدة قال وان كانت واحدة وفيه سعيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف

(٥) حديث يقول الله اذا ابتليت عبدى ببلاء فصبر ولم يشكني الى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ـ الحديث : مالك فى الموطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موقوفا على أبى هريرة

---

(١) البقرة : ١٥٦

وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاء الحزين الذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا أنزعه عنه أبدا . وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله فى خطبته . ماأنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر ، إلا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه . وقرأ (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ [(١)])

وسئل فضيل عن الصبر فقال . هو الرضا بقضاء الله . قيل وكيف ذلك ؟ قال الراضى لايتمنى فوق منزلته . وقيل حُبس الشبلى رحمه الله فى المارستان ، فدخل عليه جماعة فقال من أنتم ؟ قالوا أحباؤك جاؤك زائرين . فأخذ يرميهم بالحجارة . فأخذوا يهربون فقال : لو كنتم أحبائى لصبرتم على بلائى . وكان بعض العارفين فى جيبه رقعة يخرجها كل ساعة ويطالعها وكان فيها (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا [(٢)])

ويقال إن امرأة فتح الموصلى عثرت ، فانقطع ظفرها ، فضحكت . فقيل لها أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه . وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم [(١)] « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ » . ويروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما وفى كمه صرة ، فافتقدها فإذا هي قد أخذت من كمه . فقال بارك الله له فيها ، لعله أحوج إليها منى . وروي عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبى حذيفة فى القتلى وبه رمق . فقلت له أسقيك ماء ، فقال . جُرَّنى قليلا إلى العدو ، واجعل الماء فى الترس ، فإنى صائم ، فإن عشت إلى الليل شربته ، فهكذا كان صبر سالكى طريق الآخرة على بلاء الله تعالى . فإن قلت فبماذا تنال درجة الصبر فى المصائب ، وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطر شاء أم أبى ، فإن كان المراد به أن لاتكون فى نفسه كراهية المصيبة ، فذلك غير داخل فى الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ،

---

(١) حديث من اجلال الله ومعرفة حقه أن لاتشكو وجعك ولاتذكر مصيبتك : لم أجده مرفوعا وانما رواه ابن أبى الدنيا فى المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لاتتحدث بمصيبتك ولابوجعك ولاتزكى نفسك

---

(١) الزمر : ١٠ (٢) الطور : ٤٨

وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة في الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس ، والفرش ،والمطعم. وهذه الأمور داخلة تحت اختياره ، فينبغي أن يجتنب جميعها ، ويظهر الرضا بقضاءالله تعالى ، ويبقى مستمرا على عادته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، كما روي[1] عن الرميصاء أم سليم رحمهاالله أنهاقالت توفي ابن لي ، وزوجي أبو طلحة غائب . فقمت فسجيته في ناحية البيت . فقدم أبو طلحة : فقمت فهيأت له إفطاره ، فجعل يأكل . فقال كيف الصبي؟ قلت بأحسن حال بحمد الله ومنّه،فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة .ثم تصنعتُ له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك ، حتى أصاب مني حاجته . ثم قلت . ألا تعجب من جيراننا ؟ قال مالهم ؟ قلت أعيروا عارية ، فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ! فقال بئس ماصنعوا . فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى ، وإن الله قد قبضه إليه . فحمد الله واسترجع .ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال . « اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا فِي لَيْلَتِهِمَا » قال الراوي . فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة ،كلهم قد قرءوا القرءان ،وروى جابر أنه عليه السلام قال «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ »وقد قيل . الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره . ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ، ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء ، ولأن البكاء توجع القلب على الميت ، فإن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت .ولذلك لما مات ابراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه ، فقيل له أما نهيتنا عن هذا فقال « إِنَّ هَذِهِ رَحْمَةٌ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا . فالمقدم على الحجامة والفصد راض به ، وهو متألم بسببه لامحالة ، وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه . وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى، وكتب ابن أبي نجيح يعزي بعض الخلفاء : إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه ، من عظّم حق الله تعالى عنده فيما أبقاه له

واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك ، والباقي بعدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه . فإذاً مهما دفع الكراهة

---

(١) حديث الرميصاء أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فقمت فسجيته في ناحية البيت ـ الحديث: طب ومن طريقه ابو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف

بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب ، نال درجة الصابرين . نعم من كمال الصبر كتمان المرض، والفقر، وسائر المصائب . وقد قيل . من كنوز البر كتمان المصائب والأوجاع والصدقة

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال. فإن الذي كُفي الشهوات كلها ، واعتزل وحده ، لا يستغني عن الصبر على العزلة والانفراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا . فإن اختلاج الخواطر لا يسكن . وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له ، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضييع زمان. وآلة العبد قلبه ، وبضاعته عمره . فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنساً بالله تعالى ، أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ، ليستفيد بالمعرفة محبة الله تعالى فهو مغبون . هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه. ولا يكون ذلك غالبا . بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات ، إذ لا يزال ينازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره ، أو من يتوهم أنه ينازعه ويخالف أمره أو غرضه بظهور أمارة له منه . بل يقدر المخالفة من أخلص الناس في حبه، حتى في أهله وولده، ويتوهم مخالفتهم له ، ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم ، وجوابهم ، عما يتعللون به في مخالفته . ولا يزال في شغل دائم ، فللشيطان جندان. جند يطير وجند يسير، والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار ، والشهوة عبارة عن حركة جنده السيار . وهذا لأن الشيطان خلق من النار ، وخلق الإنسان من صلصال كالفخار . والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون ، والنار طبيعتها الحركة. فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك . بل لا تزال تتحرك بطبعها . وقد كلف الملعون المخلوق من النار أن يطمئن عن حركته ، ساجدا لما خلق الله من الطين ، فأبى واستكبر واستعصى ، وعبر عن سبب استعصائه بأن قال (خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) . فإذاً حيث لم يسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه ، فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده . ومهما كف عن القلب وسواسه وعدوانه ، وطيرانه وجولانه، فقد أظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالإذعان سجود منه . فهو روح السجود . وإنما وضع الجبهة على الأرض قالبه ، وعلامته الدالة عليه

بالاصطلاح . ولو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح ، لتصور ذلك . كما أن الانبطاح بين يدى المعظم المحترم يرى استخفافا بالعادة .

فلا ينبغى أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر ، وقالب الروح عن الروح ،وقشر اللب عن اللب ، فتكون ممن قيده عالم الشهادة بالكلية عن عالم الغيب . وتحقق أن الشيطان من المنظرين ، فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين ، إلا أن تصبح وهمومك هم واحد ؛ فتشغل قلبك بالله وحده ، فلا يجد الملعون مجالا فيك . فعند ذلك تكون من عباد الله المخلصين ، الداخلين فى الاستثناء عن سلطنة هذا اللعين .

ولا تظنن أنه يخلو عنه قلب فارغ . بل هو سيال يجرى من ابن آدم مجرى الدم. وسيلانه مثل الهواء فى القدح . فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره ، فقد طمعت فى غير مطمع . بل بقدر مايخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة . فكذلك القلب المشغول بفكر مهم فى الدين، يخلو عن جولان الشيطان . وإلا فمن غفل عن الله تعالى ولو فى لحظة ، فليس له فى تلك اللحظة قرين إلا الشيطان . ولذلك قال تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) [1] وقال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْغِضُ الشَّابَّ الْفَارِغَ »وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه ، كان ظاهره فارغا ، ولم يبق قلبه فارغا . بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ . ثم تزدوج أفراخه أيضا ، وتبيض مرة أخرى وتفرخ . وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات ،لأن طبعه من النار . وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده ، فلا يزال تتوالد النار من النار ، ولا تنقطع البتة . بل تسرى شيئا فشيئا على الاتصال . فالشهوة فى نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار،وكما لا تبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب ،فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة

فإذاً إذا تأملت ، علمت أن أعدى عدوك شهوتك ، وهى صفة نفسك . ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج،حين كان يصلب ، وقد سئل عن التصوف ما هو فقال : هي نفسك

---

(١) حديث إن الله يبغض الشاب الفارغ : لم أجده

---

[1] الزخرف : ٣٦

إن لم تشغلها شغلتك . فإذاً حقيقة الصبر وكماله الصبرُ عن كل حركة مذمومة .وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك. وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت، نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه

بيان

دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء. فالصبر وإن كان شاقا أو ممتنعا ، فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل . فالعلم والعمل هما الأخلاط التى منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها . ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر . وكما أن أقسام الصبر مختلفة ، فأقسام العلل المانعة منه مختلفة . وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج . إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها . واستيفاء ذلك مما يطول ، ولكنا نعرف الطريق فى بعض الأمثلة فنقول :

إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا ، وقد غلبت عليه الشهوة ، بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه ، إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ، ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول . قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى . وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر ، فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر . فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الشهوة . فأما باعث الشهوة ، فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

أحدها : أن ننظر إلى مادة قوتها ، وهى الأغذية الطيبة المحركة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها . فلا بد من قطعها بالصوم الدائم ، مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ، ضعيف فى جنسه ، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة

الثانى : قطع أسبابه المهيجة فى الحال . فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة . إذ النظر يحرك القلب ، والقلب يحرك الشهوة . وهذا يحصل بالعزلة ، والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة ، والفرار منها بالكلية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) « النَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ » وهو سهم يسدده الملعون ولا ترس يمنع منه إلاّ تغميض الأجفان ، أو الهرب من صوب رميه . فإنه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور . فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه

الثالث : تسلية النفس بالمباح من الجنس الذى تشتهيه . وذلك بالنكاح فإن كل مايشتهيه الطبع ففى المباحات من جنسه مايغنى عن المحظورات منه . وهذا هو العلاج الأنفع فى حق الأكثر . فإن قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يقمع الشهوة فى حق أكثر الرجال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم (٢) « عَلَيْكُمْ بِالْبَاءَةِ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّ الصَّوْمَ لَهُ وِجَاءٌ » ، فهذه ثلاثة أسباب. فالعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهى قطع العلف عن البهيمة الجموح ، وعن الكلب الضارى ، ليضعف فتسقط قوته. والثانى يضاهى تغييب اللحم عن الكلب ، وتغييب الشعير عن البهيمة ، حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث : يضاهى تسليتها بشىء قليل مما يميل إليه طبعها ، حتى يبقى معها من القوة ماتصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين ، فإنما تكون بطريقين :

أحدهما : إطماعه فى فوائد المجاهدة وثمراتها فى الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره فى الأخبار التى أوردناها فى فضل الصبر ، وفى حسن عواقبه فى الدنيا والآخرة وفى الأثر أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته مالا يبقى معه إلا مدة الحياة ، وحصل له مايبقى بعد موته أبد الدهر . ومن أسلم خسيسا فى نفيس ، فلا ينبغى أن يحزن لفوات الخسيس فى الحال. وهذا من باب المعارف ، وهو من الإيمان. فتارة يضعف ، وتارة يقوى . فإن قوي قوي باعث الدين ، وهيجه تهييجا شديدا . وإن ضعف ضعّفه ، وإنما قوة الإيمان يعبر عنها باليقين ، وهو المحرك لعزيمة الصبر . وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر

والثانى : أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا ، قليلا قليلا ، حتى يدرك لذة الظفر بها ، فيستجرىء عليها ، وتقوى منّته فى مصارعتها. فإن الاعتياد والممارسة للأعمال

---

(١) حديث النظرة سهم مسموم من سهام ابليس : تقدم غير مرة

(٢) حديث عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم ـ الحديث : تقدم فى النكاح

الشاقة، تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال. ولذلك تزيد قوة الحمالين، والفلاحين والمقاتلين. وبالجملة فقوة المارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين، والعطارين، والفقهاء، والصالحين. وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة

فالعلاج الأول يضاهي إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة، ووعده بأنواع الكرامة، كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال (وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ[1]) والثاني يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة، بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به، ويستجرىء عليه، وتقوى فيه منته. فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين. ولا يقوى على الشهوة وإن ضعفت. ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر. ولا يمكن استيفاؤه. وإنما أشدها كف الباطن عن حديث النفس. وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له، بأن قمع الشهوات الظاهرة، وآثر العزلة، وجلس للمراقبة والذكر والفكر فإن الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له ألبتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا، بالفرار عن الأهل، والولد، والمال، والجاه، والرفقاء، والأصدقاء. ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت، وبعد القناعة به. ثم كل ذلك لا يكفي مالم تصر الهموم هما واحدا، وهو الله تعالى. ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك مالم يكن له مجال في الفكر، وسير بالباطن في ملكوت السموات والأرض، وعجائب صنع الله تعالى، وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك مجاذبة الشيطان ووسواسه. وإن لم يكن له سير بالباطن، فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة المترتبة في كل لحظة من القراءة، والأذكار، والصلوات. ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور. فإن الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة. ثم إذا فعل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يخلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد، فتشغله عن الفكر والذكر من مرض، وخوف، وإيذاء من إنسان، وطغيان من مخالط، إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة، فهذا أحد الأنواع الشاغلة

---

(١) الشعراء: ٤٢

وأما النوع الثانى : فهو ضرورى أشد ضرورة من الأول ، وهو أشتغاله بالمطعم ، والملبس ، وأسباب المعاش ، فإن تهيئة ذلك أيضا تحوج إلى شغل ، إن تولاه بنفسه ، وإن تولاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممن يتولاه . ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات ، إن لم تهجم به ملمة أو واقعة . وفى تلك الأوقات يصفو القلب ، ويتيسر له الفكر ؛ وينكشف فيه من أسرار الله تعالى ، فى ملكوت السموات والأرض ، ما لا يقدر على عشر عشيره فى زمان طويل ، لو كان مشغول القلب بالعلائق . والانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات التى يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد

فأما مقادير ما ينكشف . ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى فى الأحوال والأعمال ، فذلك يجرى مجرى الصيد ، وهو بحسب الرزق . فقد يقل الجهد ويجل الصيد ، وقد يطول الجهد ويقل الحظ . والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن ، فإنها توازى أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد . نعم اختيار العبد فى أن يتعرض لتلك الجذبة ، بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا . فإن المجذوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين . وكل مهموم بالدنيا فهو منجذب إليها . فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِى أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية ، إذ قال الله تعالى (وَفِى السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ[1]) وهذا من أعلى أنواع الرزق . والأمور السماوية غائبة عنا ، فلا ندرى متى ييسر الله تعالى أسباب الرزق . فما علينا إلا تفريغ المحل ، والانتظار لنزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذى يصلح الأرض ، وينقيها من الحشيش ، ويبث البذر فيها ، وكل ذلك لا ينفعه إلا بمطر . ولا يدرى متى يقدر الله أسباب المطر ، إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه لا يخلى سنة عن مطر . فكذلك قلما تخلو سنة ، وشهر ، ويوم ، عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات

فينبغى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات ، وبذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، وعرضه لمهاب رياح الرحمة . كما يقوى انتظار الأمطار فى أوقات الربيع ، وعند ظهور الغيم ، فيقوى انتظار تلك النفحات فى الأوقات الشريفة ، وعند اجتماع الهمم

---

(١) الذاريات : ٢٢

وتساعد القلوب ، كما في يوم عرفة . ويوم الجمعة . وأيام رمضان . فإن الهمم والأنفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لاستدرار رحمته ،حتى تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدرار أمطار المكاشفات ولطائف المعارف من خزائن الملكوت . أشد مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء ، واستجرار الغيوم من أقطار الجبال والبحار . بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك ، وإنما أنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك فصار ذلك حجابا بينك وبينها ، فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب ، فتشرق أنوار المعارف من باطن القلب . وإظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل وأقرب من استرسال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها . ولكونه حاضرا في القلب ، ومنسيا بالشغل عنه ، سمى الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكرا فقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [١]) وقال تعالى (وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ [٢]) وقال تعالى (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [٣]) فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس والشواغل ، وهو آخر درجات الصبر . وإنما الصبر عن العلائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله . السير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن ، وهجران الخلق في حب الحق شديد . والسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ، ثم شدة هجران الخلق . وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه ، فإن لذة الرياسة ، والغلبة ، والاستعلاء ، والاستتباع ، أغلب اللذات في الدنيا على نفوس العقلاء . وكيف لا تكون أغلب اللذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية ، والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب ، لما فيه من المناسبة لأمور الربوبية . وعنه العبارة بقوله تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [٤])

وليس القلب مذموما على حبه ذلك ، وإنما هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللعين ، المبعد عن عالم الأمر ، إذ حسده على كونه من عالم الأمر ، فأضله وأغواه . وكيف يكون مذموما عليه وهو يطلب سعادة الآخرة ! فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه ، وعزا لا ذل فيه وأمنا لا خوف فيه ، وغنى لا فقر فيه ، وكمالا لا نقصان فيه ، وهذه كلها من أوصاف الربوبية

(١) الحجر : ٩ (٢) ابراهيم : ٥٢ (٣) القمر : ١٧ (٤) الإسراء : ٨٥

وليس مذموما على طلب ذلك . بل حق كل عبد أن يطلب مُلكا عظيما لا آخر له : وطالب الملك طالب للعلوّ ، والعز ، والكمال لامحالة . ولكن الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام ، وملحوق بسرعة الانصرام ، ولكنه عاجل ، وهو فى الدنيا ، وملك مخلد دائم ، لايشوبه كدر ولا ألم ، ولا يقطعه قاطع ، ولكنه آجل . وقد خلق الإنسان عجولا راغبا فى العاجلة . فجاء الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التى فى طبعه ، فاستغواه بالعاجلة ، وزين له الحاضرة ، وتوسل إليه بواسطة الحمق ، فوعده بالغرور فى الآخرة ، ومنّاه مع ملك الدنيا ملك الآخرة ، كما قال صلى الله عليه وسلم « وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ » فانخدع المخذول بغروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملكها على قدر إمكانه ولم يتدل الموفق بحبل غروره ، إذ علم مداخل مكره ، فأعرض عن العاجلة . فعبّر عن المخذولين بقوله تعالى (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ [١]) وقال تعالى (إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا [٢]) وقال تعالى (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ [٣])

ولما استطار مكر الشيطان فى كافة الخلق ، أرسل الله الملائكة إلى الرسل ، وأوحوا إليهم ماتم على الخلق من إهلاك العدوّ وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقى عن الملك المجازى ، الذى لاأصل له إن سلم ، ولادوام له أصلا ، فنادوا فيهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ [٤])

فالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان ، وصحف موسى وإبراهيم ، وكل كتاب منزل ، ماأنزل إلا لدعوة الخلق إلى الملك الدائم المخلد . والمراد منهم أن يكونوا ملوكا فى الدنيا ، ملوكا فى الآخرة . أما ملك الدنيا فالزهد فيها ، والقناعة باليسير منها . وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاءً لافناء فيه ، وعزا لاذل فيه ، وقرة عين أخفيت فى هذا العالم ، لاتعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك الدنيا ، لعلمه بأن ملك الآخرة يفوت به ، إذ الدنيا والآخرة ضرتان . ولعلمه بأن الدنيا لاتسلم له أيضا

---

(١) القيامة : ٢٠ (٢) الدهر : ٢٧ (٣) النجم : ٢٩، ٣٠ (٤) التوبة

ولو كانت تسلم له الكان يحسده أيضا . ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المنازعات والمكدرات ، وطول الهموم في التدبيرات . وكذا سائر أسباب الجاه . ثم مهما تسلم وتتم الأسباب ينقضي العمر (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ [1]) فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ [2]) . والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا ، حسده الشيطان عليه ، فصده عنه . ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه ، فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان . وهذا ملك بالاستحقاق . إذ به يصير صاحبه حرا . وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه ، فيكون مسخرا مثل البهيمة ، مملوكا يستجره زمام الشهوة آخذا بمخنقه إلى حيث يريد ويهوى . فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأنه يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا . ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا ، منكوسا في الآخرة ؟ ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد : هل من حاجة ؟ قال كيف اطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك ! فقال كيف ؟ قال من أنت عبده فهو عبد لي فقال كيف ذلك ؟ قال أنت عبد شهوتك ، وغضبك ، وفرجك ، وبطنك ، وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدلي . فهذا إذا هو الملك في الدنيا . وهو الذي يسوق إلى الملك في الآخرة فالمخدوعون بغرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا . والذين وفقوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا

فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ، ومدخل الغلط في ذلك ، وكيفية تعمية الشيطان وتلبيسه ، يسهل عليك النزوع عن الملك والجاه والإعراض عنه والصبر عند فواته . إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجو به ملكا في الآخرة . ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه ، فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف ، بل لابد وأن يضيف إليه العمل . وعمله في ثلاثة أمور :

أحدها : أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه ، فيعسر عليه الصبر مع

---

[1] يونس : ٢٤ [2] الكهف : ٤٥

الأسباب . كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله فى سعة الأرض ، إذ قال تعالى.(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا[1])

الثانى : أن يكلف نفسه فى أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده . فيبدل التكلف بالتبذل ، وزى الحشمة بزى التواضع . وكذلك كل هيئة ، وحال ، وفعل ، فى مسكن ، وملبس ، ومطعم ، وقيام ، وقعود كان يعتاده ، وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغى أن يبدلها بنقائضها ، حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضده . فلا معنى للمعالجة إلا المضادة

الثالث : أن يراعي فى ذلك التلطف والتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل ، فإن الطبع نفور ، ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج فيترك البعض ويسلى نفسه بالبعض . ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقنع بالبقية ، وهكذا يفعل شيئا فشيئا ، إلى أن يقمع تلك الصفات التى رسخت فيه . وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللهِ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى » وإليه الإشارة بقوله عليه السلام [2] « لَا تُشَادُّوا هَذَا الدِّينَ فَإِنَّ مَنْ يُشَادُّهُ يَغْلِبْهُ »

فإذاً ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس ، وعن الشهوة ، وعن الجاه ، أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة فى كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، فاتخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر فى جميع الأقسام التى فصلناها من قبل . فإن تفصيل الآحاد يطول . ومن راعى التدريج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر دونه ، كما كان يشق عليه الصبر معه ، فتنعكس أموره ، فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا ، وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه . وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق . وله نظير فى العادات فإن الصبي يحمل على التعلم فى الابتداء قهرا ، فيشق عليه الصبر عن اللعب ، والصبر مع العلم حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم ، انقلب الأمر ، فصار يشق عليه الصبر عن العلم ،

(١) حديث ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ـ الحديث : أحمد من حديث أنس والبيهقى من حديث جابر وتقدم فى الاوراد

(٢) حديث لاتشادوا هذا الدين فانه من شاده يغلبه : تقدم فيه

(١) النساء : ٩٧

والصبر على اللعب . وإلى هذا يشير ماحكي عن بعض العارفين أنه سأل الشبلى عن الصبر ،أيه أشد ؟ فقال : الصبر فى الله تعالى . فقال لا . فقال الصبر لله . فقال لا .فقال الصبر مع الله . فقال لا . فقال فإيش ؟ قال الصبر عن الله . فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه تتلف . وقد قيل فى معنى قوله تعالى(اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا [1]) اصبروا فى الله وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله . وقيل الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل فى معناه

والصبر عنك فذموم عواقبه ... والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقيل أيضا

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

هذا آخر ماأردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره

الشطر الثانى

من الكتاب فى الشكر وله ثلاثة أركان

الأول : فى فضيلة الشكر وحقيقته ، وأقسامه وأحكامه الثانى : فى حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة . الثالث : فى بيان الأفضل من الشكر والصبر

الركن الأول

فى نفس الشكر

بيان

فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر فى كتابه مع أنه قال (وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ [2]) فقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ [3]) وقال الله تعالى (مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ [4]) وقال تعالى (وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ [5])

(1) آل عمران : ٢٠٠ (2) العنكبوت : ٤٥ (3) البقرة : ١٥٢ (4) النساء : ١٤٧ (5) آل عمران : ١٤٥

وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ [١]) قيل هو طريق الشكر ، ولعلو رتبة الشكر ، طعن اللعين فى الخلق فقال (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [٢]) وقال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [٣]) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [٤]) واستثنى فى خمسة أشياء فى الإغناء ، والإجابة ، والرزق ، والمغفرة ، والتوبة فقال تعالى (فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ [٥]) وقال (فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ [٦]) وقال (يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [٧]) وقال (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [٨]) وقال (وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ [٩]) وهو خلق من أخلاق الربوبية ، إذ قال تعالى (وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ [١٠]) وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة ، فقال تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ [١١]) وقال (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٢]) . وأما الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] « الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ »

وروي عن [٢] عطاء أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها ، فقلت أخبرينا بأعجب ما رأيتِ من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجبا ؟ أتاني ليلة فدخل معي فى فراشي ، أو قالت فى لحافي ، حتى مس جلدي جلده ، ثم قال « يَا ابْنَةَ أَبِي بَكْرٍ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي » قالت قلت إني أحب قربك لكني أوثر هواك . فأذنت له ، فقام إلى قربة ماء ، فتوضأ فلم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي ، فبكى حتى سالت

---

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنه وفى اسناده اختلاف

(٢) حديث عطاء دخلت على عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجبا ـ الحديث : فى بكائه فى صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن طريقه ابن الجوزي فى الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان فى صحيحه من رواية عبد الملك ابن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجبا وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على آخر ـ الحديث :

---

(١) الأعراف : ١٦ (٢) الأعراف : ١٧ (٣) سبأ : ١٣ (٤) ابراهيم : ٧ (٥) التوبة : ٢٨ (٦) الأنعام : ٤١
(٧) البقرة : ٢١٢ (٨) النساء : ٤٨ (٩) التوبة : ١٥ (١٠) التغابن : ١٧ (١١) الزمر : ٧٤ (١٢) يونس : ١٠

دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة . فقلت يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال « أفلا أكونُ عبْداً شكُورًا ولِمَ لاأفعَلُ ذلكَ وقدْ أنزَلَ اللهُ تعالَى عَلَيَّ » (إنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ [1]) الآية . وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لاينقطع أبدا . وإلى هذا السر يشير ماروي أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير ، فتعجب منه . فأنطقه الله تعالى فقال : منذ سمعت قوله تعالى (وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ [2]) فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيره من النار ، فأجاره . ثم رآه بعد مدة على مثل ذلك .فقال لم تبكي الآن ؟ فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور . وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة .ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعا . وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال [1] « يُنادَى يوْمَ القِيامَةِ لِيَقُمِ الحمَّادُونَ فتَقُومُ زُمْرَةٌ فيُنصَبُ لهُمْ لِواءٌ فيَدْخُلونَ الجنَّةَ » قيل ومن الحمادون ؟ قال « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ تعَالَى علَى كُلِّ حالٍ » وفي لفظ آخر « الَّذِينَ يَشْكُرُونَ اللهَ علَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « الحَمْدُ رِدَاءُ الرَّحْمٰنِ » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . إني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ، في كلام طويل . وأوحى الله تعالى إليه أيضا في صفة الصابرين : إن دارهم دار السلام ، إذا دخلوها ألهمتهم الشكر ، وهو خير الكلام ، وعند الشكر أستزيدهم ، بالنظر إلى أزيدهم . ولما نزل في الكنوز مانزل قال عمر رضي الله عنه : أي المال نتخذ؟فقال عليه السلام [3] « لِيَتَّخِذْ أحَدُكُمْ لِسَاناً ذَاكِرًا وَقَلْباً شاكِرًا » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلا عن المال .وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان

---

(١) حديث ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون ـ الحديث: الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى الى الجنة الحمادون ـ الحديث :وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور

(٢) حديث الحمد رداء الرحمن : لم أجده أصلا وفي الصحيح من حديث أبي هريرة الكبر رداؤه ـ الحديث: وتقدم في العلم

(٣) حديث عمر ليتخذ أحدكم لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا ـ الحديث : تقدم في النكاح

---

(١) البقرة : ١٧٤ (٢) البقرة : ٢٤

بيان

حد الشكر وحقيقته

أعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين . وهو أيضا ينتظم من علم وحال وعمل . فالعلم هو الأصل ، فيورث الحال . والحال يورث العمل . فأما العلم ، فهو معرفة النعمة من المنعم . والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه . والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان . ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر . فإن كل ماقيل فى حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه

فالأصل الأول : العلم . وهو علم بثلاثة أمور . بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة فى حقه وبذات المنعم ، ووجود صفاته التى بها يتم الإنعام ، ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لا بد من نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة . فهذه الأمور لا بد من معرفتها . هذا فى حق غير الله تعالى . فأما فى حق الله تعالى ، فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله ، وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته . وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس . إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى فى معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتا مقدسة ، فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد ، وما عداه غير مقدس ، وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل مافى العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة فى الرتبة الثالثة ، إذ ينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل . وعن هذا عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال [1] « مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ وَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَلَهُ عِشْرُونَ حَسَنَةً وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَلَهُ ثَلَاثُونَ حَسَنَةً » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ » وقال [3] « لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَذْكَارِ يُضَاعَفُ مَا يُضَاعَفُ الْحَمْدُ لِلَّهِ »

---

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات ـ الحديث : تقدم فى الدعوات

(٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله : الترمذى وحسنه والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر

(٣) حديث ليس شىء من الأذكار يضاعف مايضعف الحمد لله : لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن إبراهيم النخعى يقال إن الحمد أكثر الكلام تضعيفا

ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات، من غير حصول معانيها في القلب. فسبحان الله كلمة تدل على التقديس. ولا إله إلا الله، كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق. فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين

واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال . فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشىء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك وإيصاله إليه ، فهو إشراك به فى النعمة ، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه . بل منه بوجه ، ومن غيره بوجه : فيتوزع فرحه عليهما ، فلا يكون موحدا فى حق الملك . نعم لا ينقص من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذى كتبه بقلمه ، وبالكاغد الذى كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما ، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما ، بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك. وقد يعلم أن الوكيل الموصل والخازن أيضا مضطران من جهة الملك فى الإيصال ، وأنه لو رد الأمر إليه ، ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته ، لما سلم إليه شيئا . فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل ، كنظره إلى القلم والكاغد ، فلا يورث ذلك شركا فى توحيده من إضافة النعمة إلى الملك . وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله ، علم أن الشمس ، والقمر، والنجوم مسخرات بأمره ، كالقلم مثل فى يد الكاتب . وأن الحيوانات التى لها اختيار مسخرات فى نفس اختيارها . فإن الله تعالى هو المسلط للدواعى عليها لتفعل شاءت أم أبت. كالخازن المضطر الذى لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ، ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما فى يده . فكل من وصل اليك نعمة من الله تعالى على يده ، فهو مضطر ، إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعى ، وألقى فى نفسه أن خيره فى الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك ؛ وأن غرضه المقصود عنده فى الحال والمآل لا يحصل إلا به . وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد ، لا يجد سبيلا إلى تركه . فهو إذاً إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك . ولو لم يكن غرضه فى العطاء لما أعطاك . ولو لم يعلم أن منفعته فى منفعتك لما نفعك. فهو إذاً إنما يطلب نفع نفسه بنفعك ، فليس منعما عليك . بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها . وإنما الذى أنعم عليك هو الذى سخره لك ، وألقى فى قلبه من الاعتقادات والإرادات

ماصار به مضطرا إلى الايصال إليك . فإن عرفت الأمور كذلك ، فقدعرفت الله تعالى وعرفت فعله ، وكنت موحدا ، وقدرت على شكره . بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرا . ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته : إلهى خلقت آدم بيدك ، وفعلت وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال الله عز وجل . اعلم أن كل ذلك منى ، فكانت معرفته شكرا . فإذاً لاتشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه . فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده ، بل وبغيره . فبنقصان معرفتك ينقص حالك فى الفرح ، وبنقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل

الأصل الثانى :الحال المستمدة من أصل المعرفة ، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع . وهو أيضا فى نفسه شكر على تجرده ، كما أن المعرفة شكر . ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام . ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه ، فنضرب لك مثلا فنقول . الملك الذى يريد الخروج إلى سفر، فأنعم بفرس على إنسان ، يتصور أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه .

أحدها :أن يفرح بالفرس من حيث أنه فرس ، وأنه مال ينتفع به ، ومركوب يوافق غرضه ، وأنه جواد نفيس . وهذا فرح من لاحظ له فى الملك ، بل غرضه الفرس فقط . ولو وجده فى صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك الفرح

الوجه الثانى: أن يفرح به لامن حيث أنه فرس ، بل من حيث يستدل به على عناية الملك به ، وشفقته عليه ، واهتمامه بجانبه - حتى لو وجد هذا الفرس فى صحراء ، أوأعطاه غير الملك ، لكان لا يفرح به أصلا ، لاستغنائه عن الفرس أصلا ، أواستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحل فى قلب الملك . الوجه الثالث :أن يفرح به ليركبه ، ليخرج في خدمة الملك ، ويتحمل مشقة السفر لينال بخدمته رتبة القرب منه . وربما يرتقى إلى درجة الوزارة ، من حيث أنه ليس يقنع بأن يكون محله فى قلب الملك أن يعطيه فرسا ، ويعتنى به هذا القدر من العناية . بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشىء من ماله على أحد إلا بواسطته ثم أنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا ، بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه ، حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة ، وبين الوزارة دون القرب ، لاختار القرب .

فهذه ثلاث درجات . فالأولى: لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا ، لأن نظر صاحبها مقصور على الفرس ، ففرحه بالفرس لا بالمعطى . وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيذة وموافقة لغرضه ، فهو بعيد عن معنى الشكر • والثانية داخلة فى معنى الشكر من حيث إنه فرح بالمنعم ، ولكن لا من حيث ذاته ، بل من حيث معرفة عنايته التى تستحثه على الإنعام فى المستقبل . وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه، خوفا من عقابه ، ورجاءً لثوابه . وإنما الشكر التام فى الفرح الثالث : وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى ، من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى ، والنزول فى جواره ، والنظر إلى وجهه على الدوام . فهذا هو الرتبة العليا . وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ، ويعينه عليها . ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله ، لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيذة ، كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهملج ، بل من حيث إنه يحمله فى صحبة الملك ، حتى تدوم مشاهدته له ، وقربه منه • ولذلك قال الشبلى رحمه الله . الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة . وقال الخواص رحمه الله شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب

وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن ، والفرج ، ومدركات الحواس من الألوان والأصوات ، وخلا عن لذة القلب . فإن القلب لا يلتذ فى حال الصحة إلا بذكر الله تعالى . ومعرفته ، ولقائه . وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات، كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين ، وكما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة، ويستحلى الأشياء المرة، كما قيل

ومن يك ذا فم مرّ مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

فإذاً هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى . فإن لم تكن إبل فمعزى . فإن لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب . فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس ، ومن يريد الفرس للملك . وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه، وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه

الأصل الثالث :العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق بالقلب ، وباللسان . وبالجوارح . أما بالقلب ، فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح ، فاستعمال نعم الله تعالى فى

طاعته ، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته . حتى أن شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم . وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه . فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء . والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى ، وهو مأمور به . فقد قال صلى الله عليه وسلم [١] لرجل « كَيْفَ أَصْبَحْتَ ؟» قال بخير . فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة : بخير أحمد الله وأشكره . فقال صلى الله عليه وسلم « هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ مِنْكَ »

وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ، ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا . وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق . وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر ، أو يشكو ، أو يسكت . فالشكر طاعة . والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين . وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك ، وبيده كل شيء ، إلي عبد مملوك لا يقدر على شيء ! فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء ، وأفضى به الضعف إلى الشكوى ، أن تكون شكواه إلى الله تعالى . فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز . والشكوى إلى غيره ذل . وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح . قال الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ [١]) وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ [٢]) فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روي أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر . الكبر الكبر . فقال يا أمير المؤمنين ، لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك . فقال تكلم . فقال . لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة . أما الرغبة ، فقد أوصلها إلينا فضلك . وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك . وإنما نحن وفد الشكر ، جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر ،

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت فقال بخير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذى أردت منك : الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله اليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في الموطأ موقوفا على عمر باسناد صحيح

(١) العنكبوت ١٧ . (٢) الاعراف : ١٩٤ .

المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال ، إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه ، نظر إلى مجرد عمل اللسان . وقول القائل : إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، جامع لأكثر معاني الشكر ، لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار : شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيليا إشارة الى أن المعرفة من معاني الشكر فقط . وقول الجنيدي . الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة ، إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص . وهؤلاء أقوالهم تعرب على أحوالهم . فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق . ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم ، اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم . أو يتكلمون بما يرونه لائقا بحال السائل ، اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه ، وإعراضا عما لا يحتاج إليه . فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم ، وأنه لو عرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها . بل لا يظن ذلك بعاقل أصلا ، إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ ، في أن إسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني ، أم يتناول بعضها مقصودا ، وبقية المعاني تكون من توابعه ولوازمه . ولسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات ، فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء ، والله الموفق برحمته

بيان

طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر . فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ، ويظهر كرمهم عند الناس ، فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم . أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم ، وذلك تكثير سوادهم ، وسبب لزيادة جاههم . فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك . وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين . أحدهما : أن الله تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض ، مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة ، وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء والإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين

يديه ركعاسجدا . فشكرنا إياه بمالاحظ له فيه ، يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا ،أو نسجد أو نركع ، إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ، ولاحظ لله تعالى في أفعالنا كلها . الوجه الثاني : أن كل ماتتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا . إذ جوارحنا ، وقدرتنا ، وإرادتنا ، وداعيتنا ،وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته . فكيف نشكر نعمة بنعمة ! ولو أعطانا الملك مركوبا ،فأخذنا مركوبا آخر لهوركبناه ،أو أعطانا الملك مركوبا آخر ، لم يكن الثاني شكرا للأول منا ، بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول . ثم لايمكن شكرا لشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدى إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين . ولسنا نشك في الأمرين جميعا . والشرع قد ورد به . فكيف السبيل إلى الجمع ؟ فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام ، وكذلك لموسى عليه السلام ، فقال : يارب كيف أشكرك ؟ وأنا لاأستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك؟ وفي لفظ آخر . وشكري لك نعمة أخرى منك توجب علي الشكر لك . فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني . وفي خبر آخر : إذا عرفت أن النعمة مني رضيت منك بذلك شكرا . فإن قلت : فقد فهمت السؤال ، وفهمي قاصر عن إدراك معنى ماأوحي إليهم ، فإني أعلم استحالة الشكر لله تعالى . فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه . فإن هذا العلم أيضا نعمة منه . فكيف صار شكرا ؟ وكأن الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر . وأن قبول الخلعة الثانية من الملك شكرا للخلعة الأولى . والفهم قاصر عن درك السر فيه .فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم : أن هذا قرع باب من المعارف، وهي أعلى من علوم المعاملة . ولكنا نشير منها إلى ملامح ونقول . ههنا نظران : نظر بعين التوحيد المحض ، وهذا النظر يعرفك قطعا أنه الشاكر ، وأنه المشكور ،وأنه المحب ، وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ،وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبدا . لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام. ومثل هذا الغير لاوجود له ، بل هو محال أن يوجد . إذ الموجود المحقق هو القائم بنفسه . وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود . بل هو قائم بغيره ، فهو موجود بغيره . فإن

اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره ، لم يكن له وجود ألبتة . وإنما الموجود هو القائم بنفسه . والقائم بنفسه هو الذى لو قدر عدم غيره بقي موجودا . فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره ، فهو قيوم . ولا قيوم إلا واحد . ولا يتصور أن يكون غير ذلك فإذاً ليس فى الوجود غير الحي القيوم ، وهو الواحد الصمد . فإذا نظرت من هذا المقام ، عرفت أن الكل منه مصدره ، وإليه مرجعه . فهو الشاكر ،وهو المشكور. وهو المحب وهو المحبوب . ومن ههنا نظر حبيب بن أبى حبيب حيث قال (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ[1]) فقال . واعجباه ! أعطى وأثنى. إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى . فهو المثنى وهو المثنى عليه . ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهنى حيث قرىء بين يديه (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[2]) فقال : لعمرى يحبهم ، ودعه يحبهم ، فبحق يحبهم لأنه إنما يحب نفسه . أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب . وهذه رتبة عالية لاتفهمها إلا بمثال على حد عقلك . فلا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه ، فقدأحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنعته ، فقد أحب نفسه . والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده ، فقد أحب نفسه . وكل مافى الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله وصنعته . فإن أحبه فما أحب إلا نفسه . وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ماأحب . وهذا كله نظر بعين التوحيد . وتعبر الصوفية عن هذه الحالة بفناء النفس . أي فني عن نفسه وعن غير الله ، فلم ير إلا الله تعالى . فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول . كيف فنى وطول ظله أربعة أذرع! ولعله يأكل فى كل يوم أرطالا من الخبز ؟ فيضحك عليهم الجهال ، لجهلهم بمعانى كلامهم وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين .وإليه الإشارة بقوله تعالى(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ[3]) ثم بين أن ضحك العارفين عليهم غدا أعظم ، إذقال تعالى (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ[4]) وكذلك أمة نوح عليه السلام ، كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة (قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ[5])

(١) ص : ٤٤ (٢) المائدة : ٥٤ (٣ ، ٤) المطففين : ٢٩ ، ٣٥ (٥) هود : ٣٨

فهذا أحد النظرين. النظر الثانى: نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه. وهؤلاء قسمان: قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم، وأنكروا أن يكون لهم رب يعبد. وهؤلاء هم العميان المنكوسون وعماهم فى كلتا العينين، لأنهم نفوا ما هو الثابت تحقيقا، وهو القيوم الذى هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت، وكل قائم فقائم به. ولم يقتصروا على هذا حتى أثبتوا أنفسهم. ولو عرفوا لعلموا أنهم من حيث هم لاثبات لهم، ولا وجود لهم. وإنما وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا. وفرق بين الموجود وبين الموجد. وليس فى الوجود إلا موجود واحد، وموجد. فالموجود حق، والموجد باطل من حيث هو هو. والموجود قائم وقيوم، والموجد هالك وفان. وإذا كان (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [1]) فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثانى: ليس بهم عمى، ولكن بهم عور. لأنهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحق، فلا ينكرونه. والعين الأخرى إن تم عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحق. فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى. وهذا مشرك تحقيقا، كما أن الذى قبله جاحد تحقيقا. فإن جاوز حد العمى إلى العمش، أدرك تفاوتا بين الموجودين، فأثبت عبدا وربا. فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر داخل فى حد التوحيد. ثم إن كحل بصره بما يزيد فى أنواره فيقل عمشه. وبقدر ما يزيد فى بصره يظهر له نقصان ما أثبته سوى الله تعالى. فإن بقى فى سلوكه كذلك فلا يزال يفضى به النقصان إلى المحو، فينمحى عن رؤية ما سوى الله، فلا يرى إلا الله. فيكون قد بلغ كمال التوحيد. وحيث أدرك نقصا فى وجود ما سوى الله تعالى دخل فى أوائل التوحيد. وبينهما درجات لا تحصى. فبهذا تتفاوت درجات الموحدين. وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هى الكحل الذى به يحصل أنوار الأبصار. والأنبياء هم الكحالون. وقد جاؤا داعين إلى التوحيد المحض، وترجمته قول لا إله إلا الله. ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق. والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلون. والجاحدون والمشركون أيضا قليلون. وهم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد. إذ عبدة الأوثان قالوا (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى [2]) فكانوا داخلين فى أوائل أبواب التوحيد دخولا ضعيفا. والمتوسطون

(1) الرحمن: ٢٦ (٢) الزمر: ٣

هم الأكثرون ، وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال،فتلوح له حقائق التوحيد،ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت،وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا،ولكن لا يدوم والدوام فيه عزيز

لكل إلى شأو العلا حركات ولكن عزيز فى الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب ، فقيل له (وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ [١]) قال فى سجوده « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ وَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « أَعُوذُ بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ » كلام عن مشاهدة فعل الله فقط .فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله . ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال ، وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات ، فقال « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ » وهما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا فى التوحيد ، فاقترب ورقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال « وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ » وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفه ، ولكنه رأى نفسه فارا منه إليه ، ومستعيذا ومثنيا ، ففنى عن مشاهدة نفسه ، إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال « لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » فقوله صلى الله عليه وسلم « لا أُحْصِي » خبر عن فناء نفسه ، وخروج عن مشاهدتها . وقوله « أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ » بيان أنه المثنى والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ،وأن « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [٢] » فكان أول مقاماته نهاية مقامات الموحدين ، وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل . فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق ، حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة الى أخرى إلا ويرى الأولى بعدا بالإضافة الى الثانية . فكان يستغفر الله من الأولى . ويرى ذلك نقصا فى سلوكه وتقصيرا فى مقامه

---

(١) حديث قال فى سجوده أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك ـ الحديث : مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ـ الحديث .

---

(١) العلق : ١٩ (٢) القصص : ٨٨

وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم [١] « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً » فكأن ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما ، بعضها فوق البعض ، أولها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ، ولكن كان نقصانا بالإضافة إلى آخرها . فكان استغفاره لذلك [٢] ولما قالت عائشة رضي الله عنها . أليس قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء في السجود ، وما هذا الجهد الشديد ؟ قال « أفلا أكون عبداً شكوراً » معناه أفلا أكون طالبا للمزيد في المقامات ، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ [١]) . وإذا تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان، ولنرجع إلى مايليق بعلوم المعاملة فنقول : الأنبياء عليهم السلام بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه . ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة ، وعقبات شديدة . وإنما الشرع كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة ، وقطع تلك العقبات. وعندذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر ، فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر ، والشاكر ،والمشكور . ولا يعرف ذلك إلا بمثال فأقول . يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوبا ، وملبوسا ، ونقدا ، لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ، ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان . إحداهما : أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ، ويكون له عناية في خدمته ، والثانية :أن لايكون للملك حظ في العبد ، ولا حاجة به إليه ، بل حضوره لا يزيد في ملكه ،لأنه لايقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء . وغيبته لاتنقص من ملكه.فيكون قصد من الإنعام عليه بالمركوب والزاد ، أن يحظى العبد بالقرب منه ،وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه، لا لينتفع الملك به وبانتفاعه . فمنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لا في المنزلة الأولى . فإن الأولى محال على الله تعالى ، والثانية غير محال

(١) حديث انه ليغان على قلبي ـ الحديث : تقدم في التوبة وقبله في الدعوات

(٢) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء ـ الحديث :رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها المتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبة

(١) ابراهيم : ٧

ثم اعلم أن العبد لايكون شاكراً فى الحالة الأولى، بمجرد الركوب والوصول الى حضرته، مالم يقم بخدمته التى أرادها الملك منه. وأما فى الحالة الثانية: فلا يحتاج الى الخدمة أصلا. ومع ذلك يتصوّر أن يكون شاكرا وكافرا. ويكون شكره بأن يستعمل ماأنفذه اليه مولاه فيما أحبه لأجله لا لأجل نفسه. وكفره أن لايستعمل ذلك فيه، بأن يعطله، أو يستعمله فيما يزيد فى بعده منه، فمهما لبث العبد الثوب، وركب الفرس، ولم ينفق الزاد إلا فى الطريق، فقد شكره مولاه، إذ استعمل نعمته فى محبته، أي فيما أحبه لعبده لا لنفسه. وإن ركبه واستدبر حضرته، وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته، أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لالنفسه. وإن جلس ولم يركب، لافى طلب القرب ولا فى طلب البعد، فقد كفر أيضا نعمته، إذ أهملها وعطلها، وإن كان هذا دون مالو بعد منه. فكذلك خلق الله سبحانه الخلق، وهم فى ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات، لتكمل بها أبدانهم، فيبعدون بها عن حضرته، وإنما سعادتهم فى القرب منه. فأعدّ لهم من النعم مايقدرون على استعماله فى نيل درجة القرب، وعن بعدهم وقربهم عبر الله تعالى إذ قال (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا [1]) الآية

فإذاً نعم الله تعالى آلات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين، خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب، والله تعالى غنى عنه قرب أم بعد، والعبد فيها بين أن يستعملها فى الطاعة، فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه، وبين أن يستعملها فى معصيته، فقد كفر لاقتحامه مايكرهه مولاه ولا يرضاه له. فإن الله لايرضى لعباده الكفر والمعصية، وإن عطلها ولم يستعملها فى طاعة ولا معصية، فهو أيضا كفران للنعمة بالتضييع، وكل ماخلق فى الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة، ونيل القرب من الله تعالى، فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله فى الأسباب التى استعملها فى الطاعة، وكل كسلان ترك الاستعمال، أو عاص استعملها فى طريق البعد، فهو كافر جار فى غير محبة الله تعالى، فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة، ولكن لاتشملهما المحبة والكراهة، بل رب مراد محبوب، ورب مراد مكروه، ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذى منع من إفشائه، وقد انحل بهذا

(١) التين: ٤، ٥، ٦

الإشكال الأول . وهو أنه إذا لم يكن للمشكور حظ فكيف يكون الشكر .

وبهذا أيضاً ينحل الثانى . فإنا لم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله فى جهة محبة الله . فإذا انصرفت النعمة فى جهة المحبة بفعل الله ، فقد حصل المراد . وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أثنى عليك ، وثناؤه نعمة أخرى منه إليك . فهو الذى أعطى ، وهو الذى أثنى . وصار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثانى إلى جهة محبته . فله الشكر على كل حال ، وأنت موصوف بأنك شاكر ، بمعنى أنك محل المعنى الذى الشكر عبارة عنه ، لا بمعنى أنك موجد له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم ، لا بمعنى أنك خالق للعلم وموجده ولكن بمعنى أنك محل له ، وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك . فوصفك بأنك شاكر إثبات شيئية إليك ، وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً . وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظاناً لنفسك شيئاً من ذاتك . فأما باعتبار النظر إلى الذى جعل الأشياء أشياء ، فأنت شيء إذ جعلك شيئاً . فإن قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقاً . وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال [1] « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » لما قيل له : يارسول الله ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل ؟

فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى . ومحل أفعاله ، وإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض . وقوله « اعْمَلُوا » وإن كان جارياً على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو فعل من أفعاله . وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع ، وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى . والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة . وانبعاث الداعية أيضاً من أفعال الله تعالى . وهو سبب لحركة الأعضاء ، وهى أيضاً من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض . أى الأول شرط للثانى ، كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض ، إذ لا يخلق العرض قبله . وخلق الحياة شرط لخلق العلم . وخلق العلم شرط لخلق الإرادة . والكل من أفعال الله تعالى ، وبعضها سبب للبعض . أى هو شرط ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستعد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ، ولا يستعد لقبول العلم إلا ذو حياة ؛ ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم . فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى ، لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره ، بل ممهد شرط الحصول لغيره . وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذى ذكرناه

---

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له : متفق عليه من حديث على وعمران بن حصين

فإن قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا فأنتم معاقبون مذمومون على العصيان ، وما إلينا شيء فكيف نذم ؟ وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا . والاعتقاد سبب لهيجان الخوف . وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافى عن دار الغرور . وذلك سبب للوصول إلى جوار الله، والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها . فمن سبق له فى الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب ،حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة . ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له . ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن سماع كلام الله تعالى ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام العلماء ، فإذا لم يسمع لم يعلم . وإذا لم يعلم لم يخف . وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا . وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا بقى فى حزب الشيطان ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . فإذا عرفت هذا تعجبت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل . فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب، وهو تسليط العلم والخوف عليه . وما من مخذول إلا وهو مقود إلى النار بسلاسل، وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه . فالمتقون يساقون إلى الجنة قهرا ، والمجرمون يقادون إلى النار قهرا . ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ، ولا قادر إلا الملك الجبار . وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك ، سمعوا عند ذلك نداء المنادى (لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ)[1] ولقد كان الملك لله الواحد القهار كل يوم، لا ذلك اليوم على الخصوص . ولكن الغافلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم . فهو نبأ عما يتجدد للغافلين من كشف الأحوال ، حيث لا ينفعهم الكشف . فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى ، فإنه أصل أسباب الهلاك

بيان

تمييز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه . إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى فى محابه ، ومعنى الكفر نقيض ذلك ، إما بترك الاستعمال

---

(١) غافر : ١٦

أو باستعمالها فى مكارهه . ولتمييز مايحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان . أحدهما : السمع ، ومستنده الآيات والأخبار ، والثانى : بصيرة القلب ، وهو النظر بعين الاعتبار . وهذا الأخير عسير ، وهو لأجل ذلك عزيز . فلذلك أرسل الله تعالى الرسل ،وسهل بهم الطريق على الخلق . ومعرفة ذلك تنبنى على معرفة جميع أحكام الشرع فى أفعال العباد . فمن لايطلع على أحكام الشرع فى جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا .

وأما الثانى : وهو النظر بعين الاعتبار ، فهو إدراك حكمة الله تعالى فى كل موجود خلقه . إذ ماخلق شيئا فى العالم إلا وفيه حكمة ، وتحت الحكمة مقصود ، وذلك المقصود هو المحبوب . وتلك الحكمة منقسمة إلى جلية وخفية . أما الجلية ، فكالعلم بأن الحكمة فى خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار ، فيكون النهار معاشا ، والليل لباسا فتتيسر الحركة عند الإبصار ، والسكون عند الاستتار . فهذا من جملة حكم الشمس ، لاكل الحكم فيها . بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة . وكذلك معرفة الحكمة فى الغيم ونزول الأمطار ، وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ، ومرعى للأنعام . وقد انطوى القرءان على جملة من الحكم الجلية التى تحملها أفهام الخلق ، دون الدقيق الذى يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا[١]) الآية

وأما الحكمة فى سائر الكواكب ، السيارة منها والثوابت ، فخفية لايطلع عليها كافة الخلق . والقدر الذى يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء ، لتستلذ العين بالنظر إليها ، وأشار إليه قوله تعالى (إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ[٢]) . فجميع أجزاء العالم ، سماؤه وكواكبه ، ورياحه ، وبحاره ، وجباله ، ومعادنه ، ونباته ، وحيواناته ، وأعضاء حيواناته لاتخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة ، من حكمة واحدة ، إلى عشرة ، إلى ألف ، إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى مايعرف حكمتها ، كالعلم بأن العين للإبصار لاللبطش ، واليد للبطش لاللمشى ، والرجل للمشى لاللشم . فأما الأعضاء الباطنة من الأمعاء ، والمرارة والكبد ، والكلية ، وآحاد العروق ، والأعصاب ، والعضلات ، وما فيها من التجاويف ، والالتفاف ، والاشتباك ، والانحراف ، والدقة ، والغلظ ، وسائر الصفات ، فلا يعرف

---

(١) عبس : من ٢٥ إلى ٢٨ (٢) الصفات : ٦

الحكمة فيها سائر الناس . والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما فى علم الله تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً [1]) . فإذاً كل من استعمل شيئا فى جهة غير الجهة التى خلق لها ، ولا على الوجه الذي أريد به ، فقد كفر فيه نعمة الله تعالى . فمن ضرب غيره بيده ، فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه . لا ليهلك بها غيره . ومن نظر إلى وجه غير المحرم ، فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس ، إذ الإبصار يتم بهما ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه فى دينه ودنياه ، ويتقى بهما ما يضره فيهما ، فقد استعملهما فى غير ما أريدتا به . وهذا لأن المراد من خلق الخلق ، وخلق الدنيا وأسبابها ، أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به فى الدنيا ، والتجافى عن غرور الدنيا . ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ، ولا يتم الغذاء إلا بالأرض ، والماء ، والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض ، وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا . فكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله تعالى هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة فلذلك قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ [2]) الآية

فكل من استعمل شيئا فى غير طاعة الله ، فقد كفر نعمة الله فى جميع الأسباب التى لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية . ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التى ليست فى غاية الخفاء ، حتى تعتبر بها ، وتعلم طريقة الشكر والكفران على النعم فنقول :

من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير . وبهما قوام الدنيا ، وهما حجران لا منفعة فى أعيانهما ، ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة فى مطعمه ، وملبسه ، وسائر حاجاته . وقد يعجز عما يحتاج إليه ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك الزعفران ، مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ، ومن يملك الجمل ربما يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد فى مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله . بكل مقدار من الزعفران . ولا مناسبة بين الزعفران والجمل ، حتى يقال يعطى منه مثله فى الوزن أو الصورة . وكذا من يشترى دارا بثياب ، أو عبدا بخف ، أو دقيقا

(١) الأسراء : ٨٥ (٢) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧

بحمار ، فهذه الأشياء لاتناسب فيها ، فلا يدرى أن الجمل كم يسوى بالزعفران ؛ فتتعذر المعاملات جدا . فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينها ، يحكم فيها بحكم عدل ، فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته . حتى إذا تقررت المنازل ، وترتبت الرتب ، علم بعد ذلك المساوى من غير المساوى ، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال ، حتى تقدر الأموال بهما ، فيقال هذا الجمل يسوى مائة دينار ، وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة ، فهما من حيث إنهما مساويان بشيء واحد إذاً متساويان . وإنما أمكن التعديل بالنقدين ، إذ لاغرض فى أعيانهما . ولو كان فى أعيانهما غرض ، ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض فى حق صاحب الغرض ترجيحا ، ولم يقتض ذلك فى حق من لاغرض له ، فلا ينتظم الأمر . فإذاً خلقهما الله تعالى لتتداولهما الأيدى ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل . ولحكمة أخرى ، وهى التوسل بهما إلى سائر الأشياء ، لأنهما عزيزان فى أنفسهما ، ولا غرض فى أعيانهما . ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام فى الثوب ، لأن غرضه فى دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو صورته كأنه ليس بشيء ، وهو معناه كأنه كل الأشياء . والشيء إنما تستوى نسبته إلى المختلفات ، إذا لم تكن له صورة خاصة يفيدها بخصوصها . كالمرآة لالون لها . وتحكى كل لون . فكذلك النقد لاغرض فيه ، وهو وسيلة إلى كل غرض . وكالحرف لامعنى له فى نفسه ؛ وتظهر به المعانى فى غيره . فهذه هى الحكمة الثانية . وفيهما أيضا حكم يطول ذكرها . فكل من عمل فيهما عملا لايليق بالحكم ، بل يخالف الغرض المقصود بالحكم ، فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما . فإذاً من كنزهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين فى سجن يمتنع عليه الحكم بسببه . لأنه إذا كنز فقد ضيع الحكم ، ولا يحصل الغرض المقصود به ، وما خلقت الدراهم والدنانير لزيد خاصة ولا لعمرو خاصة ، إذ لاغرض للآحاد فى أعيانهما ، فإنهما حجران ، وإنما خلقا لتتداولهما الأيدى ، فيكونا حاكمين بين الناس ، وعلامة معرفة للمقادير ، مقومة للمراتب . فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية ، المكتوبة على صفحات الموجودات

بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة، أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الذى عجزوا عن إدراكه ، فقال تعالى (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [1]) . وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آنية من ذهب أو فضة ، فقد كفر النعمة ، وكان أسوأ حالا ممن كنز . لأن مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد فى الحياكة، والمكس، والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس : والحبس أهون منه . وذلك أن الخزف ، والرصاص ، والنحاس، تنوب مناب الذهب والفضة فى حفظ المائعات عن أن تتبدد . وإنما الأوانى لحفظ المائعات. ولا يكفى الخزف والحديد فى المقصود الذى أريد به النقود . فمن لم ينكشف له هذا ، انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له [1] « مَنْ شَرِبَ فِي آنِيَةٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَكَأَنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ »

وكل من عامل معاملة الربا على الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم ، لأنهما خلقا لغيرهما لا لنفسهما ، إذ لا غرض فى عينهما . فإذا اتجر فى عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة ، إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم . ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشترى به طعاما ودابة ، إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب ، فهو معذور فى بيعه بنقد آخر ليحصل النقد ، فيتوصل به إلى مقصوده ، فإنهما وسيلتان إلى الغير لا غرض فى أعيانهما . وموقعهما فى الأموال كموقع الحرف من الكلام ، كما قال النحويون: إن الحرف هو الذى جاء لمعنى فى غيره . وكموقع المرآة من الألوان فأما من معه نقد ، فلو جاز له أن يبيعه بالنقد ، فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله ، فيبقى النقد مقيدا عنده، وينزل منزلة المكنوز . وتقييد الحاكم والبريد الموصل إلى الغير ظلم ، كما أن حبسه ظلم . فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار ، وهو ظلم

فإن قلت فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ؟ ولم جاز بيع الدرهم بمثله ؟ فاعلم أن أحد

---

(١) حديث من شرب فى آنية من ذهب أو فضة فكأنما يجرجر فى بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة لم يصرح المصنف بكونه حديثا .

---

(١) التوبة : ٣٤

النقدين يخالف الآخر فى مقصود التوصل . إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدراهم تتفرق فى الحاجات قليلا قليلا . ففى المنع منه مايشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم يماثله فجائز ، من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر ، فإنه عبث يجرى مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ، فلا نمنع مما لا تتشوق النفس إليه ، إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر . وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الردىء ، فلا ينتظم العقد . وإن طلب زيادة فى الردىء فذلك مما قد يقصده ، فلا جرم نمنعه منه ، ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء ، لأن الجودة والرداءة ينبغى أن ينظر إليهما فيما يقصد فى عينه . وما لا غرض فى عينه فلا ينبغى أن ينظر إلى مضافات دقيقة فى صفاته . وإنما الذى ظلم هو الذى ضرب النقود مختلفة فى الجودة والرداءة ، حتى صارت مقصودة فى أعيانها ، وحقها أن لا تقصد

وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة ، فإنما لم يجز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد للإحسان ، فى القرض وهو مكرمة مندوحة عنه ، لتبقى صورة المسامحة ، فيكون له حمد وأجر . والمعاوضة لا حمد فيها ولا أجر . فهو أيضا ظلم ، لأنه إضاعة خصوص المسامحة وإخراجها فى معرض المعاوضة . وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها ، أو يتداوى بها فلا ينبغى أن تصرف عن جهتها . فإن فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها فى الأيدى ، ويؤخر عنها الأكل الذى أريدت له فما خلق الله الطعام إلا ليؤكل . والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ، ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها . إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجا ؟ ولم يجعله بضاعة تجارة ؟ وإن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغن عنه . ولهذا ورد فى الشرع لعن المحتكر ، وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه فى كتاب آداب الكسب

نعم بائع البر بالتمر معذور ، إذ أحدهما لا يسد مسد الآخر فى الغرض ، وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ، ولكنه عابث ، فلا يحتاج إلى منع ، لأن النفوس لا تسمح به

إلا عند التفاوت في الجودة ، ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ، ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات ، والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ، ويخالفه في وجوه التنعم ، أسقط الشرع غرض التنعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا ، وقد انكشف لنا هذا بعد الإعراض عن فن الفقه ، فلنلحق هذا بفن الفقهيات ، فإنه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافيات

وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون المكيلات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول . ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه ، إذ خصصه بالأقوات . ولكن كل معنى يرعاه الشرع فلا بد أن يضبط بحد ، وتحديد هذا كان ممكنا بالقوت ، وكان ممكنا بالمطعوم ، فرأى الشرع التحديد بجنس المطعوم أحرى لكل ما هو ضرورة البقاء . وتحديدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم . ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتحير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص . فمعنى المعنى بكمال قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، فيكون الحد ضروريا . فلذلك قال الله تعالى (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [1]) ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع . وإنما تختلف في وجوه التحديد ، كما يحد شرع عيسى بن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر ، وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر ، لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس ، كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية

فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم النقدين . فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال . فكل ما خلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها . ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا [2]) ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات ، وملاعب الشياطين . بل لا يتذكر إلا أولوا الألباب . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « لَوْلَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ عَلَى قُلُوبِ

---

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا الى ملكوت السماء : تقدم في الصوم

(١) الطلاق : ١ (٢) البقرة : ٢٦٩ .

بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » . وإذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك وسكونك ، ونطقك وسكوتك . وكل فعل صادر منك فإنه إما شكر وإما كفر . إذ لا يتصور أن ينفك عنهما . وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة ، وبعضه بالحظر . وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى فقد كفرت نعمة اليدين ، إذ خلق الله لك اليدين ، وجعل إحداهما أقوى من الأخرى ، فاستحق الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل. وتفضيل الناقص عدول عن العدل ، والله لا يأمر إلا بالعدل . ثم أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف ، وبعضها خسيس كإزالة النجاسة . فإذا أخذت المصحف باليسار ، وأزلت النجاسة باليمين ، فقد خصصت الشريف بما هو خسيس ، فغضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل . وكذلك إذا بصقت مثلا في جهة القبلة ، أو استقبلتها في قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم ؛ لأنه خلق الجهات لتكون متسعك في حركتك ، وقسم الجهات إلى مالم يشرفها ، وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتا أضافه إلى نفسه ، استمالة لقلبك إليه ، ليتقيد به قلبك ، فيتقيد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك . وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات ، وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ، ورمي البصاق. فإذا رميت بصاقك إلى جهة القبلة فقد ظلمتها ، وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة ، التي بوضعها كمال عبادتك . وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لأن الخف وقاية للرجل ؛ فللرجل فيه حظ ، والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف ، فهو العدل والوفاء بالحكمة ونقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل . وهذا عند العارفين كبيرة ، وإن سماه الفقيه مكروها . حتى أن بعضهم كان قد جمع أكرارا من الحنطة ، وكان يتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا ، فأريد أن أكفره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الأمور لأنه مسكين ، بل بإصلاح العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام ، وهم منغمسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها . فقبيح أن يقال الذي شرب الخمر ، وأخذ القدح

بيساره ، فقد تعدى من وجهين .أحدهما:الشرب ، والآخر:الأخذباليسار . ومن باع خمرا في وقت النداء يوم الجمعة ، فقبيح أن يقال خان من وجهين . أحدهما: بيع الخمر، والآخر: البيع في وقت النداء . ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة ، فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة ، من حيث إنه لم يجعل القبلة عن يمينه. فالمعاصي كلها ظلمات وبعضها فوق بعض ، فينمحق بعضها في جانب البعض. فالسيد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه . ولكن لو قتل بتلك السكين أعز أولاده ، لم يبق لاستعمال السكين بغير إذنه حكم ونكاية في نفسه . فكل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب ، وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام ، فسببه هذه الضرورة . وإلا فكل هذه المكاره عدول عن العدل ، وكفران للنعمة ، ونقصان عن الدرجة المبلغة للعبد إلى درجات القرب . نعم بعضها يؤثر في العبد بنقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين . وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق اليد . أما اليد ، فإنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة . وأما الشجر فإنما خلقه الله تعالى ، وخلق له العروق ، وساق إليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ، ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده، مخالفة لمقصود الحكمة ، وعدول عن العدل. فإن كان له غرض صحيح فله ذلك ، إذ الشجر والحيوان جعلا فداء لأغراض الإنسان فإنهما جميعا فانيان هالكان . فإفناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ[1]) . نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا. لأن كل شجرة بعينها لا تفي بحاجات عباد الله كلهم، بل تفي بحاجة واحدة. ولو خصص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما. فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضعه في الأرض وساق إليه الماء ، وقام بالتعهد ، فهو أولى به من غيره ، فيرجح جانبه بذلك . فإن نبت ذلك

---

(1) الجاثية : ١٣

فى موات الأرض ، لا بسعي آدمي اختص بغرسه أو بفرسه ، فلا بد من طلب اختصاص آخر ، وهو السبق إلى أخذه . فللسابق خاصية السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به . وعبّر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض . إذ لا مالك إلا ملك الملوك ، الذى له مافى السموات والأرض . وكيف يكون العبد مالكا وهو فى نفسه ليس يملك نفسه ! بل هو ملك غيره . نعم الخلق عباد الله ، والأرض مائدة الله . وقد أذن لهم فى الأكل من مائدته بقدر حاجتهم . كالملك ينصب مائدة لعبيده ، فمن أخذ لقمة بيمينه واحتوت عليها براجمه ، فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده ، لم يمكن منه ، لا لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد ، فإن اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ، ولكن إذا كانت كل لقمة بعينها لا تفى بحاجة كل العبيد ، فالعدل فى التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفرد به العبد ، فمنع من لا يدلى بذلك الاختصاص عن مزاحمته . فهكذا ينبغى أن تفهم أمر الله فى عباده . ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته ، وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج إليه ، فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله . وإنما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضروراتهم ، وترتفع حاجاتهم . نعم لا يدخل هذا فى حد فتاوى الفقه ؛ لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة . فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار ، والتؤدة ، والسكوت عن كل كلام غير مهم . وهو بحكم نقصانهم لا يطيقونه . فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم ، لا يدل على أن اللهو واللعب حق

فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال ، والاقتصار فى الإنفاق على قدر الزكاة ، لضرورة ماجبلوا عليه من البخل ، لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرءان إليه إذ قال تعالى (إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا [1]) بل الحق الذى لا كدورة فيه ، والعدل الذى لا ظلم فيه ، أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب . فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان ، إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ، ثم منعه عن راكب

(1) محمد : ٣٧

آخر محتاج إليه ، فهو ظالم تارك للعدل ، وخارج عن مقصود الحكمة ، وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرءان ، والرسول ، والعقل ، وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه في الدنيا والآخرة . فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات ، قدر على القيام بوظيفة الشكر . واستقصاء ذلك يحتاج إلى مجلدات ، ثم لانفي إلا بالقليل . وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [1]) وفرح إبليس لعنة الله بقوله (وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ [2]) فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله ، وأمورا أخر وراء ذلك تنقضي الأعمار دون استقصاء مباديها . فأما تفسير الآية ومعنى لفظها ، فيعرفه كل من يعرف اللغة ، وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن لله تعالى حكمة في كل شيء ، وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتمام تلك الحكمة ، وبلوغها غاية المراد منها ، وجعل بعض أفعالهم مانعا من تمام الحكمة . فكل فعل وافق مقتضى الحكمة ، حتى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر . وكل ماخالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران . وهذا كله مفهوم . ولكن الإشكال باق وهو أن فعل العبد المنقسم إلى مايتمم الحكمة ، وإلى مايرفعها ، هو أيضا من فعل الله تعالى . فأين العبد في البين حتى يكون شاكرا مرة وكافرا أخرى ؟

فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها . ونحن الآن نعبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها ، يفهمها من عرف منطق الطير ، ويجحدها من عجز عن الإيضاع في السير ، فضلا عن أن يجول في جو الملكوت جولان الطير . فنقول : إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع . وتلك الصفة أعلى وأجل من أن تلمحها عين واضع اللغة ، حتى يعبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها ، وخصوص حقيقتها . فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها ، وانحطاط رتبة واضعي اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادي إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم ، كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور

(١) سبأ : ١٣ (٢) الاعراف : ١٧

الشمس ، لا لغموض فى نور الشمس ، ولـكن لضعف فى أبصار الخفافيش . فاضطر الذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها ، إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادى حقائقها شيئاً ضعيفا جداً . فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق ، فقلنا لله تعالى صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق والاختراع

ثم الخلق ينقسم فى الوجود إلى أقسام ، وخصوص صفات ومصدر انقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصوص صفاتها ، صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التى سبقت ، عبارة المشيئة . فهي توهم منها أمراً مجملا عند المتناطقين باللغات ، التى هي حروف وأصوات المتفاهمين بها . وقصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها ، كقصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذى هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية . وكان لـكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة ، لرجوعها إلى الاختصاصات التى بها تم القسمة والاختلافات . فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة ، واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الـكراهة : وقيل إنهما جميعا داخلان فى وصف المشيئة ، ولكن لـكل واحد خاصية أخرى فى النسبة ، يوهم لفظ المحبة والـكراهة منهما أمراً مجملا عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات . ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ، ويكون ذلك قهراً فى حقهم بتسليط الدواعى والبواعث عليهم ، وإلى من سبقت لهم فى الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها فى بعض الأمور . فكان لـكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة . فاستعير لنسبة المستعملين فى إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا ، واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، فظهر على من غضب عليه فى الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها ، فاستعير له الـكفران ، وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة فى النكال . وظهر على من ارتضاه فى الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها ، فاستعير له عبارة الشكر ، وأردف بخلعة الثناء والإطراء زيادة فى الرضا والقبول والإقبال

فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى ، وأعطى النكال ثم قبّح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ، ثم يلبسه من محاسن ثيابه ، فإذا تم زينته قال يا جميل

ما أجملك وأجمل ثيابك وأنظف وجهك ! فيكون بالحقيقة هو المجمّل ، وهو المثنى على الجمال فهو المثنى عليه بكل حال ، وكأنه لم يثن من حيث المعنى إلا على نفسه ، وإنما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر والصورة . فهكذا كانت الأمور في الأزل ، وهكذا تتسلسل الأسباب والمسببات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب . ولم يكن ذلك عن اتفاق وبحث ، بل عن إرادة ، وحكمة ، وحكم حق ، وأمر جزم، استعير له لفظ القضاء ، وقيل إنه كلمح بالبصر أو هو أقرب . ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم ، بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلي ، ولفظ القدر بإزاء التفصيل المتمادي إلى غير نهاية . وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر . فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل ؟ وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل . وكان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر ، والاحتواء على مجامعه ، فألجموا عما لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع . وقيل لهم اسكتوا فما لهذا خلقتم . لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون

وامتلأت مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى في السموات والأرض، وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فمسته نار ، فاشتعل نورا على نور ، فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربها ، فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه ، فقيل لهم : تأدبوا بآداب الله تعالى واسكتوا ، [1] وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، فإن للحيطان آذانا ، وحواليكم ضعفاء الأبصار ، فسيروا بسير أضعفكم ، ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش ، فيكون ذلك سبب هلاكهم ، فتخلقوا بأخلاق الله تعالى ، وانزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ، ليأنس بكم الضعفاء ، ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل ، فيحيا به حياة يحتملها شخصه وحاله ، وإن كان لا يحيا به حياة المترددين في كمال نور الشمس ، وكونوا كمن قيل فيهم

شربنا شرابا طيبا عند طيب ... كذلك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ... وللأرض من كاس الكرام نصيب

---

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا : الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره . ولا تفهمه إلا إذا كنت أهلاً له. وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك . والأعمى ممكن أن يقاد، ولكن إلى حد ما . فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف ، وأدق من الشعر ، قدر الطائر على أن يطير عليه ، ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى . وإذا دق المجال ، والطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة ، فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن يعبر بنفسه ،وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر . فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ماهو مجال جماهير الخلق ، كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الارض. والسباحة يمكن أن تتعلم ، فأما المشي على الماء فلا يكتسب بالتعليم، بل ينال بقوة اليقين. ولذلك[١] قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن عيسى عليه السلام يقال أنه مشي على الماء. فقال صلى الله عليه وسلم «لَوِ ازْدَادَ يَقِيناً لَمَشِيَ عَلَى الْهَوَاءِ »

فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة ، والرضا والغضب، والشكر والكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها . وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم. ثم أخبر أن له عبدين ، يحب أحدهما واسمه جبريل ، وروح القدس ، والامين ، وهو عنده محبوب ، مطاع ، أمين ، مكين ، ويبغض الآخر واسمه ابليس ، وهو اللعين ، المنظر إلى يوم الدين . ثم أحال الإرشاد الى جبريل فقال تعالى (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ[١]) وقال تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ[٢]) وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى (لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ[٣]) والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة . فانظر كيف نسبه الى العبد الذى غضب عليه . والإرشاد سياقه لهم

---

(١) حديث قيل له يقال أن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا لمشى على الهواء هذا حديث منكر لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا الى البحر إذا هو قد أقبل يمشى على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور ولزالت بدعائكم الجبال

---

(١) النحل : ١٠٢ (٢) غافر : ١٥ (٣) الزمر : ٨

إلى الغاية . فانظر كيف نسبه إلى العبد الذى أحبه . وعندك فى العادة له مثال . فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب ، وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات ، وكان له عبدان ، فلا يعين للحجامة والتنظيف إلا أقبحها وأخسها ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنها ، وأكملها ، وأحبها إليه . ولا ينبغى أن تقول هذا فعلى ، ولم يكون فعله دون فعلى ، فإنك أخطأت ، إذ أضفت ذلك إلى نفسك . بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه ، والفعل المحبوب بالشخص المحبوب ، إتماما للعدل . فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها ، وتارة يتم فيك . فإنك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك ، وعلمك ، وعملك ، وسائر أسباب حركاتك ، فى التعيين هو فعله الذى رتبه بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال المعتدلة ، إلا أنك لا ترى إلا نفسك ، فتظن أن ما يظهر عليك فى عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك

وإنما أنت مثل الصبى الذى ينظر ليلا إلى لعب المشعبذ ، الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص ، وتزعق ، وتقوم ، وتقعد ، وهى مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها ، وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر فى ظلام الليل ، ورؤوسها فى يد المشعبذ ، وهو محتجب عن أبصار الصبيان ، فيفرحون ويتعجبون ، لظنهم أن تلك الخرق ترقص ، وتلعب وتقوم وتقعد . وأما العقلاء ، فإنهم يعلمون أن ذلك تحريك وليس بتحرك ، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله . والذى يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الذى الأمر إليه والجاذبة بيده

فكذلك صبيان أهل الدنيا . والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء . ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها المتحركة ، فيحيلون عليها . والعلماء يعلمون أنهم محركون ، إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك ، وهم الأكثرون ، إلا العارفون والعلماء الراسخون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية ، بل أدق منها بكثير ، معلقة من السماء ، منشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض ، لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط فى مناطات لها هى معلقة بها . وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أيدى الملائكة المحركين للسموات . وشاهدوا أيضا ملائكة السموات

مصروفة إلى حملة العرش ، ينتظرون منهم ماينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يعصوا الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون . وعبّر عن هذه المشاهدات فى القرءان فقيل(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ [١]) وعبّر عن انتظار ملائكة السموات لما ينزل إليهم من القدر والأمر فقيل (خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا [٢])وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم . وعبّر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص الراسخين فى العلم بعلوم لا تحتملها أفهام الخلق ، حيث قرأ قوله تعالى(يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ [٣]) فقال : لو ذكرت ماأعرفه من معنى هذه الآية لرجمتونى وفى لفظ آخر لقلتم إنه كافر . ولنقتصر على هذا القدر ، فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار، وامتزج بعلم المعاملة ماليس منه ، فلنرجع إلى مقاصد الشكر فنقول

إذا رجع حقيقة الشكر إلى قول العبد مستعملا فى إتمام حكمة الله تعالى ، فأشكرُ العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه . وأقربهم إلى الله الملائكة ، ولهم أيضا ترتيب . ومامنهم إلا وله مقام معلوم . وأعلاهم فى رتبة القرب ملك اسمه اسرافيل عليه السلام . وإنما علو درجتهم لأنهم فى أنفسهم كرام بررة ، وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام . وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض . ويلى درجتهم درجة الأنبياء . فإنهم فى أنفسهم أخيار ،وقدهدى الله بهم سائر الخلق ، وتمم بهم حكمته .وأعلاهم رتبة نبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم ،إذ أكمل الله به الدين . وختم به النبيين . ويليهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء . فإنهم فى أنفسهم صالحون ، وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ، ودرجة كل واحد منهم بقدر ماأصلح من نفسه ومن غيره . ثم يليهم السلاطين بالعدل ، لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين ، والملك والسلطنة ، لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان أفضل من سائر الأنبياء . فإنهم أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم . ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء . ثم يلى العلماء والسلاطين ، الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط، فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم . ومن عدا هؤلاء فهمج رعاع

(١) الذاريات : ٢٢ (٢-٣) الطلاق : ١٢ .

واعلم أن السلطان به قوام الدين ، فلا ينبغى أن يستحقر وإن كان ظالما فاسقا ، قال عمرو ابن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم[1] « سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ تَعْرِفُونَ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُونَ وَيُفْسِدُونَ وَمَا يُصْلِحُ اللهُ بِهِمْ أَكْثَرُ فَإِنْ أَحْسَنُوا فَلَهُمُ الأَجْرُ وَعَلَيْكُمُ الشُّكْرُ وَإِنْ أَسَاؤُا فَعَلَيْهِمُ الوِزْرُ وَعَلَيْكُمُ الصَّبْرُ » وقال سهل : من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق . ومن دعاه السلطان فلم يجب فهو مبتدع . ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أي الناس خير ؟ فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان ! فقال مهلا ، إن لله تعالى كل يوم نظرتين : نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أبدانهم ، فيطلع فى صحيفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول : الخشبات السود المعلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصًّا يقصون .

الركن الثانى

من أركان الشكر ، ما عليه الشكر

وهو النعمة . فلنذكر فيه حقيقة النعمة ، وأقسامها . ودرجاتها ، وأصنافها ، ومجامعها فيما يخص ويعم . فإن إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا[1]) فنقدم أمورا كلية تجرى مجرى القوانين فى معرفة النعم ، ثم نشتغل بذكر الآحاد ، والله الموفق للصواب

---

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يفسدن وما يصلح الله بهم أكثر ـ الحديث : مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء فعرفون وتنكرون ورواه الترمذى بلفظ سيكون عليكم أئمة وقال حسن صحيح وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله فى الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الاجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أوحاف أوظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ الا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فزع إليه الناس لما أنكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبد الله اصبروا فان جور امامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثا والامارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبرانى فى الكبير باسناد لا بأس به

---

(١) النحل : ١٨ .

بيان

حقيقة النعمة وأقسامها

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب ومؤثر فإنه يسمى نعمة . ولكن النعمة بالحقيقة هي السعادة الأخروية . وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط ، وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإن ذلك غلط محض . وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ، ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق . فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويعين عليها ، إما بواسطة واحدة أو بوسائط ، فإن تسميته نعمة صحيحة وصدق ، لأجل أنه يفضى إلى النعمة الحقيقية . والأسباب المعينة ، واللذات المسماة نعمة ، نشرحها بتقسيمات . القسمة الأولى أن الأمور كلها بالإضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع فى الدنيا والآخرة جميعا ، كالعلم وحسن الخلق ، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا ، كالجهل وسوء الخلق ، وإلى ما ينفع فى الحال ويضر فى المآل ، كالتلذذ باتباع الشهوات وإلى ما يضر فى الحال ويؤلم ولكن ينفع فى المآل ، كقمع الشهوات ومخالفة النفس

فالنافع فى الحال والمآل هو النعمة تحقيقا . كالعلم وحسن الخلق . والضار فيهما من البلاء تحقيقا ، وهو ضدها . والنافع فى الحال المضر فى المآل بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة . ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم ، فإنه يعده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سيق إليه . والضار فى الحال النافع فى المآل نعمة عند ذوى الألباب بلاء عند الجهال . ومثاله الدواء البشع فى الحال مذاقه ، إلا أنه شاف من الأمراض والأسقام وجالب للصحة والسلامة . فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء ، والعاقل يعده نعمة ويتقلد المنة ممن يهديه إليه ، ويقربه منه ، ويهيء له أسبابه . ولذلك تمنع الأم ولدها من الحجامة ، والأب يدعوه إليها ، فإن الأب لكمال عقله يلمح العاقبة ، والأم لفرط حبها وقصورها تلحظ الحال ، والصبي لجهله يتقلد منة من أمه دون أبيه ، ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدر الأب عدوا له . ولو عقل لعلم أن الأم عدو باطنا فى صورة صديق ، لأن منعها إياه من الحجامة يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامة ولكن الصديق الجاهل شر من العدو العاقل

وكل إنسان فإنه صديق نفسه ، ولكنه صديق جاهل . فلذلك تعمل به مالا يعمل به العدو . قسمة ثانية . اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة ، قد امتزج خيرها بشرها ، فقلما يصفو خيرها كالمال ، والأهل ، والولد ، والأقارب ، والجاه ، وسائر الأسباب . ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضره ، كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ما ضره أكثر من نفعه فى حق أكثر الأشخاص ، كالمال الكثير والجاه الواسع ، وإلى مايكافىء ضرره نفعه . وهذه أمور تختلف بالأشخاص . فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر ، فينفقه فى سبيل الله ، ويصرفه إلى الخيرات ، فهو مع هذا التوفيق نعمة فى حقه . ورب إنسان يستضر بالقليل أيضا ، إذ لايزال مستصغرا له ، شاكيا من ربه ، طالبا الزيادة عليه ، فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء فى حقه

قسمة ثالثة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ماهو مؤثر لذاته لالغيره ، وإلى مؤثر لغيره ، وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول : مايؤثر لذاته لالغيره كلذة النظر إلى وجه الله تعالى ، وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التى لاانقضاء لها ، فإنها لاتطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها

الثانى : مايقصد لغيره ولا غرض أصلا فى ذاته ، كالدراهم والدنانير ، فإن الحاجة لوكانت لاتنقضى بها لكانت هى والحصباء بمثابة واحدة . ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات ، سريعة الإيصال إليها ، صارت عند الجهال محبوبة فى نفسها ، حتى يجمعوها ويكنزوها ، ويتصارفوا عليها بالربا ، ويظنون أنها مقصودة . ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا . فيحب بسببه رسوله الذى يجمع بينه وبينه ، ثم ينسى فى محبة الرسول محبة الأصل ، فيعرض عنه طول عمره ؟ ولا يزال مشغولا بتعهد الرسول ومراعاته وتفقده ، وهو غاية الجهل والضلال .

الثالث : مايقصد لذاته ولغيره ، كالصحة والسلامة ، فإنها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى ، أو ليتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا . وتقصد أيضا لذاتها ، فإن الإنسان وإن استغنى عن الشىء الذى تراد سلامة الرجل لأجله ، فيريد أيضا سلامة الرجل من حيث إنها سلامة . فإذاً المؤثر لذاته فقط هو الخير والنعمة تحقيقا ، وما يؤثر لذاته ولغيره أيضا فهو نعمة ولكن دون الأول ، فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنقدين

فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما جوهران بأنهما نعمة ، بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرا ليس يمكنه أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ، ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته ، استوى عنده الذهب والمدر ، فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربما شغله وجودهما عن الفكر والعبادة ، فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة . قسمه رابعة . اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع ، ولذيذ ، وجميل . فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الذي يفيد في المآل ؛ والجميل هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشرور أيضا تنقسم إلى ضار ، وقبيح ومؤلم . وكل واحد من القسمين ضربان . مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة ، أما في الخير فكالعلم والحكمة ، فإنها نافعة وجميلة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة . وأما في الشر فكالجهل ، فإنه ضار وقبيح ومؤلم . وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل ، وذلك بأن يرى غيره عالما ، ويرى نفسه جاهلا ، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة ، ثم قد يمنعه الحسد ، والكبر . والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان ، فيعظم ألمه . فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك النقصان ، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات ، أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في عذاب دائم لا محالة

والضرب الثاني : المقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض . فرب نافع مؤلم ، كقطع الأصبع المتآكلة ، والسلعة الخارجة من البدن . ورب نافع قبيح كالحمق ، فإنه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع ، فقد قيل : استراح من لا عقل له ، فإنه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه . ورب نافع من وجه ضار من وجه ، كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق ، فإنه ضار للمال ، نافع للنفس في نجاتها

والنافع قسمان : ضروري كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل ، إذ لا يقوم مقامهما ألبتة غيرهما ، وإلى ما لا يكون ضروريا كالسكنجبين مثلا في تسكين الصفراء ، فإنه قد يمكن تسكينها أيضا بما يقوم مقامه

قسمة خامسة : اعلم أن النعمة يعبر بها عن كل لذيذ . واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أو مشاركته لغيره ثلاثة أنواع : عقلية ، وبدنية مشتركة مع بعض

الحيوانات ، وبدنية مشتركة مع جميع الحيوانات . أما العقلية فكلذة العلم والحكمة . إذ ليس يستلذها السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، ولا البطن ولا الفرج ، وإنما يستلذها القلب ، لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل . وهذه أقل اللذات وجودا ، وهي أشرفها

أما قلتها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم ، والحكمة لا يستلذها إلا حكيم ، وما أقل أهل العلم والحكمة ، وما أكثر المتسمين باسمهم ، والمترسمين برسومهم . وأما شرفها فلأنها لازمة لا تزول أبدا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ودائمة لا تمل . فالطعام يشبع منه فيمل ، وشهوة الوقاع يفرغ منها فتستثقل ، والعلم والحكمة قط لا يتصور أن تمل وتستثقل . ومن قدر على الشريف الباقي أبد الآباد ، إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد ، فهو مصاب في عقله ، محروم لشقاوته وإدباره . وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج إلى أعوان وحفظة ، بخلاف المال . إذ العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال . والعلم يزيد بالإنفاق ، والمال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق ، والولاية يعزل عنها ، والعلم لا تمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ، ولا أيدي السلاطين بالعزل ، فيكون صاحبه في روح الأمن أبدا ، وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبدا . ثم العلم نافع ، ولذيذ ، وجميل ، في كل حال أبدا والمال تارة يجذب إلى الهلاك ، وتارة يجذب إلى النجاة . ولذلك ذم الله تعالى المال في القرءان في مواضع ، وإن سماه خيرا في مواضع . وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم ، فإما لعدم الذوق ، فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق ، إذ الشوق تبع الذوق ، وإما لفساد أمزجتهم ، ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات ، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا ، وإما لقصور فطنتهم ، إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم ، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل والطيور السمان ، ولا يستلذ إلا اللبن . وذلك لا يدل على أنها ليست لذيذة ، ولا استطابته اللبن تدل على أنه ألذ الأشياء . فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة : إما من لم يحي باطنه كالطفل ، وإما من مات بعد الحياة باتباع الشهوات ، وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات . وقوله تعالى (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ [1]) إشارة إلى مرض العقول . وقوله عز وجل (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا [2]) إشارة إلى من لم يحي

(1) البقرة : ١٠ (2) يس : ٧٠

حياة باطنة . وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى ، وإن كان عند الجهال من الأحياء . ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين، وإن كانوا موتى بالأبدان

الثانية : لذة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات ، كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود فى الأسد والنمر وبعض الحيوانات . الثالثة: مايشارك فيها سائر الحيوانات كلذة البطن والفرج ، وهذه أكثرها وجودا ، وهى أخسها ، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات . ومن جاوز هذه الرتبة تشبثت به لذة الغلبة، وهو أشدها التصاقا ، بالمتغافلين . فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة ، فصار أغلب اللذات عليه لذة العلم والحكمة ، لاسيما لذة معرفة الله تعالى ، ومعرفة صفاته وأفعاله . وهذه رتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياسة من القلب . وآخر مايخرج من رءوس الصديقين حب الرياسة . وأما شره البطن والفرج فكسره مما يقوى عليه الصالحون . وشهوة الرياسة لايقوى على كسرها إلا الصديقون . فأما قمعها بالكلية حتى لايقع بها الإحساس على الدوام وفى اختلاف الأحوال ، فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى فى أحوال لايقع معها الإحساس بلذة الرياسة والغلبة ولكن ذلك لايدوم طول العمر ، بل تعتريه الفترات ، فتعود إليه الصفات البشرية، فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لاتقوى على حمل النفس على العدول عن العدل

وعند هذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام . قلب لايحب إلا الله تعالى ، ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر فيه ، وقلب لايدرى مالذة المعرفة ، وما معنى الأنس بالله ، وإنما لذته بالجاه ، والرياسة . والمال ، وسائر الشهوات البدنية ، وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه ، والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن قد يعتريه فى بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية ، وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ، ويعتريه فى بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة . أما الأول فإن كان ممكنا فى الوجود فهو فى غاية البعد .

وأما الثانى : فالدنيا طافحة به . وأما الثالث والرابع : فموجودان ، ولكن على غاية الندور . ولا يتصور أن يكون ذلك إلا نادرا شاذا . وهو مع الندور يتفاوت فى القلة والكثرة وإنما تكون كثرته فى الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام . فلا يزال يزداد

المهد طولا ، وتزداد مثل هذه القلوب قلة ، إلى أن تقرب الساعة ، ويقضي الله أمرا كان مفعولا وإنما وجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادى ملك الآخرة ، والملك عزيز، والملوك لايكثرون، فكما لايكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا ، وأكثر الناس من دونهم، فكذا في ملك الآخرة ، فإن الدنيا مرآة الآخرة ، فإنها عبارة عن عالم الشهادة، والآخر عبارة عن عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود ، فإنها أولى في حق رؤيتك . فإنك لاترى نفسك ، وترى صورتك في المرآة أولا ، فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة . فانقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة ، وانقلب المتأخر متقدما . وهذا نوع من الانعكاس . ولكن الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم . فكذلك عالم الملك والشهادة محاك لعالم الغيب والملكوت . فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الحق به فقال (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ [1]) . ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة ، وسينفتح إلى حبسه أبواب جهنم . وهذا الحبس مملوء نارا من شأنها أن تطلع على الأفئدة ، إلا أن بينه وبين إدراك ألمها حجابا . فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك . وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استنطقهم بالحق ، فقالوا . الجنة والنار مخلوقتان ، ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ، ومرة بإدراك آخر يسمى عين اليقين . وعين اليقين لايكون إلا في الآخرة ، وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ، ولكن للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين . فلذلك قال الله تعالى (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ [2]) أي في الدنيا (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [3]) أي في الآخرة ، فإذاً قد ظهر أن القلب الصالح لملك الآخرة ، لايكون إلا عزيزا كالشخص الصالح لملك الدنيا . قسمة سادسة : حاوية لمجامع النعم . اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها ، وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية . أما الغاية فإنها سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له ، وسرور لاغم فيه ، وعلم لاجهل معه ، وغنى لافقر بعده ، وهي النعمة

(١) الحشر : ٢ (٢) التكاثر : ٥ (٣) التكاثر ٧

الحقيقية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ » وقال ذلك مرة فى الشدة تسلية للنفس ، وذلك فى وقت [1] حفر الخندق فى شدة الضر . وقال ذلك مرة فى السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا ، وذلك ، عند إحداق الناس به [2] فى حجة الوداع . وقال رجل: [3] اللهم إنى أسألك تمام النعمه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « وَهَلْ تَعْلَمُ مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ؟ » قال لا قال « تَمَامُ النِّعْمَةِ دُخُولُ الْجَنَّةِ »

وأما الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس و إلى ما يليه فى القرب كفضائل البدن ، وهو الثانى ، وإلى ما يليه فى القرب ويجاوز إلى غير البدن ، كالأسباب المطيفة بالبدن من المال ، والأهل والعشيرة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية . فهى إذاً أربعة أنواع

النوع الأول :وهو الأخص . الفضائل النفسية . ويرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة ، وهو العلم بالله تعالى ، وصفاته وملائكته ، ورسله ،وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق ينقسم إلى قسمين : ترك مقتضى الشهوات والغضب ، واسمه العفة ، ومراعاة العدل فى الكف عن مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلا ، ولا يقدم كيف شاء ، بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الذى أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ قال تعالى (أَنْ لَا تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ [1]) فمن خصى نفسه لتزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة والأمن من الآفات ، أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر ، فقد أخسر الميزان . ومن انهمك فى شهوة البطن والفرج ، فقد طغى فى الميزان . وإنما العدل أن يخلو وزنه وتقديره عن الطغيان والخسران ، فتعتدل به كفتا الميزان

فإذاً الفضائل الخاصة بالنفس المقربة إلى الله تعالى أربعة . علم مكاشفة ، وعلم معاملة ،

---

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لاعيش إلا عيش الآخرة : متفق عليه من حديث أنس
(٢) حديث قوله فى حجة الوداع لاعيش إلا عيش الآخرة: الشافعى مرسلا والحاكم متصلا وصححه وتقدم فى الحج
(٣) حديث قال رجل اللهم إنى أسألك تمام النعمة ـ الحديث الترمذى من حديث معاذ بسند حسن

---

(١) الرحمن : ٧ ، ٩

وعفة ، وعدالة ولا يتم هذا فى غالب الأمر إلا بالنوع الثانى . وهو الفضائل البدنية ، وهى أربعة . الصحة ، والقوة، والجمال ، وطول العمر. ولا تتهيأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث ، وهى النعم الخارجة المطيفة بالبدن ، وهى أربعة : المال ، والأهل ، والجاه ، وكرم العشيرة . ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع ، وهى الأسباب التى تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة ، وهى أربعة :هداية الله، ورشده ، وتسديده ، وتأييده . فمجموع هذه النعم ستة عشر ، إذ قسمناها إلى أربعة ، وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة . وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض ، إما حاجة ضرورية ، أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق ، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة ألبتة إلا بهما ، فليس للإنسان إلا ما سعى ، وليس لأحد فى الآخرة إلا ما تزود من الدنيا . فكذلك حاجة الفضائل النفسية تكسب هذه العلوم، وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورى . وأما الحاجة النافعة على الجملة ، فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة ، مثل المال ، والعز، والأهل فإن ذلك لو عدم ربما تطرق الخلل إلى بعض النعم الداخلة . فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال ، والأهل ، والجاه والمشيرة ؟ فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلغ ، والآلة المسهلة للمقصود. أما المال ، فالفقير فى طلب العلم والكمال وليس له كفاية ، كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازى يروم الصيد بلا جناح

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) وقال صلى الله عليه وسلم [2] « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللهِ الْمَالُ » وكيف لا. ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات فى طلب الأقوات ، وفى تهيئة اللباس، والمسكن ، وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والفكر ، ولا تندفع إلا بسلاح المال.

---

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح : أحمد وأبو يعلى والطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد

(٢) حديث نعم العون على تقوى الله المال : أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا ومن طريقه رواه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا

ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج ، والزكاة ، والصدقات ، وإفاضة الخيرات . وقال بعض الحكماء ؛ وقد قيل له ما النعيم ؟ فقال الغنى ، فإنى رأيت الفقير لا عيش له. قيل زدنا. قال الأمن فإنى رأيت الخائف لا عيش له. قيل زدنا. قال العافية. فإنى رأيت المريض لا عيش له. قيل زدنا. قال الشباب . فإنى رأيت الهرم لا عيش له . وكأن ماذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ، ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة . لذلك قال صلى الله عليه وسلم [(١)] « مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »

وأما الأهل والولد الصالح ، فلا يخفى وجه الحاجة إليهما . إذ قال صلى الله عليه وسلم [(٢)] « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى الدِّينِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » وقال صلى الله عليه وسلم فى الولد [(٣)] « إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد فى كتاب النكاح . وأما الأقارب فمهما كثر أولاد الرجل وأقاربه ، كانوا له مثل الأعين والأيدى ، فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة فى دينه ، مالو انفرد به لطال شغله ، وكل مايفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين ، فهو إذاً نعمة

وأما العز والجاه ، فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذل والضيم ، ولا يستغنى عنه مسلم ، فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه ، وظالم يشوش عليه علمه ، وعمله ، وفراغه ، ويشغل قلبه ، وقلبه رأس ماله . وإنما تندفع هذه الشواغل بالعز والجاه . ولذلك قيل . الدين والسلطان توأمان. قال تعالى(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ[(١)]) ولا معنى للجاه إلا ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلا ملك الدراهم. ومن ملك الدراهم تسخرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه . فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر، وجبة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذئب عن ماشيته ، فيحتاج أيضا إلى من يدفع الشر به عن نفسه . وعلى هذا القصد كان

---

(١) حديث من أصبح معافى فى بدنه آمنا فى سربه ـ الحديث : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الانصارى وقد تقدم

(٢) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة :لم أجد له اسنادا ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة

(٣) حديث إذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث: مسلم من حديث أبى هريرة وتقدم فى النكاح

---

(١) البقرة : ٢٥١

الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة ، يراعون السلاطين ، ويطلبون عندهم الجاه، وكذلك علماء الدين. لا على قصد التناول من خزائنهم، والاستئثار والاستكثار في الدنيا بمتابعتهم. ولا تظنن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث نصره وأكمل دينه، وأظهره على جميع أعدائه ، ومكن في القلوب حبه ، حتى اتسع عزه وجاهه ، كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلي الهرب والهجرة .[1]

فإن قلت : كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] « الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم[3] من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام . وقال صلى الله عليه وسلم[4] « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمُ الأَكْفَاءَ » وقال صلى الله عليه وسلم[5] « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ » فقيل وما خضراء

---

(١) حديث مانا له صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الهرب والهجرة البخاري ومسلم من حديث عائشة انها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل الحديث : وللترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد الاشيء يواريه ابط بلال قال الترمذي معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال وللبخاري عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا فجاء أبو بكر فدفعه عنه ـ الحديث وللبزار وأبي يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشي عليه فقام أبو بكر فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله واسناده صحيح على شرط مسلم

(٢) حديث الأئمة من قريش النسائي والحاكم من حديث أنس باسناد صحيح

(٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة في نسب آدم الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث واثلة بن الأسقع مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وفي رواية الترمذي أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والمطلب ابن ربيعة وصححه والمطلب بن أبي وداعة وحسنه أن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم وفي حديث ابن عباس ما بال أقوام يبتذلون أصلي فوالله لأنا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا

(٤) حديث تخيروا لنطفكم : ابن ماجه من حديث عائشة : وتقدم في النكاح

(٥) إياكم وخضراء الدمن : تقدم فيه أيضا

الدمن ؟ قال « الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ » فهـذا أيضا من النعم . ولست أعنى به الانتساب إلى الظَّلمة وأرباب الدنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء ، وإلى الصالحين والأبرار ، المتوسمين بالعلم والعمل

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنية ؟ فأقول لاخفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة ، وإلى طول العمر ، إذ لايتم علم وعمل إلا بهما . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [١] « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى » وإنما يستحقر من جملته أمر الجمال ، فيقال يكفي أن يكون البدن سليما من الأمراض الشاغلة عن تحرى الخيرات . ولعمرى الجمـال قليل الغناء ، ولكنه من الخيرات أيضا . أما فى الدنيا فلا يخفى نفعه فيها . وأما فى الآخرة فمن وجهين . أحدهما أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة . وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب وجاهه فى الصدور أوسع ، فكأنه من هذا الوجه جناح مبلغ كالمـال والجاه ، إذ هو نوع قدرة ، إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح . وكل معين على قضاء حاجات الدنيا فمعين على الآخرة بواسطتها . والثانى أن الجمال فى الأكثر يدل على فضيلة النفس ، لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن ، فالمنظر والمخبر كثيرا ما يتلازمان ولذلك عول أصحاب الفراسة فى معرفة مكارم النفس على هيآت البدن ، فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن . ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغم . ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان ما فى النفس . وقيل ما فى الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن ما فيه . واستعرض المأمون جيشا فعرض عليه رجل قبيح ، فاستنطقه فإذا هو ألـكن ، فأسقط اسمه من الديوان وقال . الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة ، أو على الباطن ففصاحة ، وهذا ليس له ظاهر ولا باطن

وقد قال صلى الله عليه وسلم [٢] « اطْلُبُوا الْخَيْرَ عِنْدَ صِبَاحِ الْوُجُوهِ » وقال عمر رضى الله تعالى عنه : إذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن الوجه ، حسن الاسم . وقال الفقهاء إذا تساوت

---

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر فى عبادة الله : غريب بهذا اللفظ وللترمذى من حديث أبى بكرة أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح

(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه : أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد ابن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه آخر فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة

درجات المصلين فأحسنهم وجها أولاهم بالإمامة . وقال تعالى ممتنا بذلك (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ [١]) ولسنا نعني بالجمال مايحرك الشهوة ، فإن ذلك أنوثة . وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة ، مع الاعتدال في اللحم ، وتناسب الأعضاء ، وتناصف خلقة الوجه ، بحيث لاتنبو الطباع عن النظر إليه . فإن قلت فقد أدخلت المال ، والجاه ، والنسب والأهل ، والولد في حيز النعم ، وقد ذم الله تعالى المال والجاه ، وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم [١] ، وكذا العلماء ، قال تعالى (إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [٢]) وقال عز وجل (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ [٣]) وقال علي كرم الله وجهه في ذم النسب : الناس أبناء مايحسنون ، وقيمة كل امرىء مايحسنه . وقيل . المرء بنفسه لابأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الالفاظ المنقولة المؤولة ، والعمومات المخصصة ، كان الضلال عليه أغلب ، مالم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على ماهي عليه ، ثم ينزل النقل على وفق ماظهر له منها ، بالتأويل مرة ، وبالتخصيص أخرى . فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها . إلا أن فيها فتنا ومخاوف . فمثال المال مثال الحية التي فيها ترياق نافع ، وسم ناقع . فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها ، وطريق استخراج ترياقها النافع ، كانت نعمة . وإن أصابها السوادي الغر ، فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته أصناف الجواهر واللآلىء ، فمن ظفر بالبحر ، فإن كان عالما بالسباحة ، وطريق الغوص ، وطريق الاحتراز عن مهلكات البحر ، فقد ظفر بنعمه . وإن خاضه جاهلا بذلك ، فقد هلك . فلذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا . ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نِعْمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللهِ تَعَالَى الْمَالُ » وكذلك مدح الجاه والعز ، إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله ، وحببه في قلوب الخلق ، وهو المعني بالجاه . ولكن المنقول في مدحها قليل ، والمنقول في ذم المال والجاه كثير . وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب ، ومعنى الجاه ملك القلوب . وإنما كثر هذا وقل ذلك

(١) حديث ذم المال والجاه : الترمذي من حديث كعب بن مالك ماذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حب المال والشرف لدينه : وقد تقدم في ذم المال والبخل

(١) البقرة : ٢٤٧ (٢) التغابن : ١٤ (٣) التغابن : ١٥

لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال ، وطريق الغوص فى بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم ، فإنهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه ، ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره . ولو كانا فى أعيانهما مذمومين بالإضافة إلى كل أحد ، لما تصور أن ينضاف إلى النبوة الملك ، كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ، ولا أن ينضاف إليها الغنى ، كما كان لسليمان عليه السلام .

فالناس كلهم صبيان ، والأموال حيات ، والأنبياء والعارفون معزمون . فقد يضر الصبي مالا يضر المعزم . نعم المعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه ، وقد وجد حية ، وعلم أنه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده ، وأخذ الحية إذا رآها ليلعب بها فيهلك ، فله غرض فى الترياق ، وله غرض فى حفظ الولد . فواجب عليه أن يزن غرضه فى الترياق بغرضه فى حفظ الولد . فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ، ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ، ويعظم ضرره بهلاكه ، فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ، ويشير على الصبي بالهرب ، ويقبح صورتها فى عينه ، ويعرفه أن فيها سما قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يحدثه أصلا بما فيها من نفع الترياق ، فإن ذلك ربما يغره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة . وكذلك الغواص ، إذا علم أنه لو غاص فى البحر بمرأى من ولده لاتبعه وهلك ، فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والنهر . فإن كان لا ينزجر الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل ، فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ، ولا يقرب منه بين يديه . فكذلك الأمة فى حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم [2] « إِنَّكُمْ تَتَهَافَتُونَ عَلَى النَّارِ تَهَافُتَ الْفَرَاشِ وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ » وحظهم الأوفر فى حفظ أولادهم عن المهالك ، فإنهم لم يبعثوا إلا لذلك . وليس لهم فى المال حظ إلا بقدر القوت ، فلا جرم اقتصروا على قدر القوت . وما فضل فلم يمسكوه ، بل أنفقوه . فإن

---

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده : مسلم من حديث أبى هريرة دون قوله لولده وقد تقدم

(٢) حديث إنكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم : متفق عليه من حديث أبى هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس وقال مسلم ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدى

الإنفاق فيه الترياق ، وفى الإمساك السم . ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه ، لمالوا إلى سم الإمساك ، ورغبوا عن ترياق الإنفاق . فلذلك قبحت الأموال ، والمعنى به تقبيح إمساكها ، والحرص عليها للاستكثار منها ، والتوسع فى نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذاتها . فأما أخذها بقدر الكفاية ، وصرف الفاضل إلى الخيرات ، فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده فى السفر ، إذا صمم العزم على أن يختص بما يحمله فأما إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام ، وتوسيع الزاد على الرفقاء ، فلا بأس بالاستكثار . وقوله عليه السلام [1] « لِيَكُنْ بَلَاغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ » معناه لأنفسكم خاصة . وإلا فقد كان فيمن يروى هذا الحديث ويعمل به ، من يأخذ مائة ألف درهم فى موضع واحد ، ويفرقها فى موضعه ، ولا يمسك منها حبة . ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة ، [2] استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فى أن يخرج عن جميع ما يملكه ، فأذن له . فنزل جبريل عليه السلام وقال مره بأن يطعم المسكين ويكسو العارى ، ويقرى الضيف ، الحديث

فاذاً النعم الدنيوية مشوبة . قد امتزج دواؤها بدائها ، ومرجوّها بمخوفها ، ونفعها بضرها . فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته ، فله أن يقرب منها متقيا داءها ، ومستخرجا دواءها ومن لا يثق بها ، فالبعد البعد ، والفرار الفرار عن مظان الأخطار ، فلا تعدل بالسلامة شيئا فى حق هؤلاء ، وهم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه

فإن قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية ، والرشد ، والتأييد ، والتسديد ؟

فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد . وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره . وهذا يشمل الخير والشر ، وما هو سعادة وما هو شقاوة . ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره

---

(١) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد راكب : ابن ماجه والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلغة وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الأسناد * قلت هو من رواية أبى سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفى أحدكم مثل زاد الراكب

(٢) حديث استئذان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مره أن يطعم المسكين ـ الحديث : الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الأسناد * قلت كلا فيه خالد بن أبى مالك ضعيف جدا

كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ، فخصص عن مال إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق . ولذلك قيل

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر مايجنى عليه اجتهاده

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الإنسان قدتكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ، ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا ، فمن أين ينفعه مجرد الإرادة ؟ فلا فائدة فى الإرادة ، والقدرة ، والأسباب، إلا بعد الهداية . ولذلك قال تعالى (رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [١]) وقال تعالى (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ [٢]) وقال صلى الله عليه وسلم [١] « مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلاَّ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى » أى بهدايته فقيل ولا أنت يارسول الله ؟ قال « وَلاَ أَنَا » . وللهداية ثلاث منازل

الأولى : معرفة طريق الخير والشر ، المشار إليه بقوله تعالى (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [٣]) وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده، بعضه بالعقل، وبعضه على لسان الرسل. ولذلك قال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [٤]) فأسباب الهدى هى الكتب، والرسل وبصائر العقول . وهى مبذولة . ولا يمنع منها إلا الحسد، والكبر، وحب الدنيا ، والأسباب التى تعمى القلوب وإن كانت لاتعمى الأبصار . قال تعالى (فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ [٥]) . ومن جملة المعميات الإلف والعادة ، وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ [٦]) الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى (وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [٧]) وقوله تعالى (أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ [٨]) فهذه المعميات هي التى منعت الاهتداء والهداية

---

(١) حديث مامن أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله : متفق عليه من حديث أبى هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا لا أن يتغمدنى : الله بفضل منه ورحمة وفى رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة ـ الحديث : واتفقا عليه من حديث عائشة وانفرد به مسلم من حديث جابر وقد تقدم

---

(١) طه : ٥٠ (٢) النور : ٢١ (٣) البلد ١٠ (٤) فصلت : ١٧ (٥) الحج : ٤٦ (٦) الزخرف : ٢٢ (٧) الزخرف ٣١ (٨) القمر : ٢٤

الثانية : وراء هذه الهداية العامة ، وهي التي يمد الله تعالى بها العبد حالا بعد حال ، وهي ثمرة المجاهدة ، حيث قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [١]) وهو المراد بقوله تعالى (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى [٢]) . والهداية الثالثة وراء الثانية ، وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة ، فيهتدى بها إلى مالا يهتدى إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم . وهو الهدى المطلق ، وماعداه حجاب له ومقدمات . وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه ، وإن كان الكل من جهته تعالى ، فقال تعالى (قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى [٣]) وهو المسمى حياة في قوله تعالى (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ [٤]) والمعني بقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [٥]) . وأما الرشد ، فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده ، فتقويه على ما فيه صلاحه ، وتفتره عما فيه فساده . ويكون ذلك من الباطن ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ [٦]) فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ، محركة إليها . فالصبي إذا بلغ خبيرا بحفظ المال وطرق التجارة والاستنماء ، ولكنه مع ذلك يبذر ولا يريد الاستنماء ، لايسمى رشيدا ، لا لعدم هدايته ، بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على مايعلم إنه يضره ، فقد أعطى الهداية ، وميزبها عن الجاهل الذي لايدرى أنه يضره ، ولكن ماأعطى الرشد : فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال ، وهي نعمة عظيمة .

وأما التسديد ، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب ، وتيسيرها عليه ، ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت . فإن الهداية بمجردها لا تكفي . بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد . والرشد لا يكفي ، بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبعثت الداعية إليه . فالهداية محض التعريف ، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد .

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) محمد : ١٧ (٣) البقرة : ١٢٠ (٤) الانعام : ١٢٢ (٥) الزمر : ٢٢ (٦) الأنبياء : ٥١

وأما التأييد ، فكأنه جامع للكل . وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج . وهو المراد بقوله عز وجل (إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ [١]) وتقرب منه العصمة . وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن، يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس . وإياه عني بقوله تعالى (وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ [٢])

فهذه هي مجامع النعم . ولن تتثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافى الثاقب ، والسمع الواعى ، والقلب البصير المتواضع المراعى ، والمعلم الناصح ، والمال الزائد على مايقصر عن المهمات بقلته ، القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته . والعز الذى يصونه عن سفه السفهاء وظلم الأعداء . ويستدعى كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسبابا ، وتستدعى تلك الأسباب أسبابا ، إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيرين، وملجأ المضطرين ؛ وذلك رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها ، فلنذكر منها أنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا [٣]) وبالله التوفيق

بيان

وجه الأنموذج فى كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء

اعلم أنا جمعنا النعم فى ستة عشر ضربا . وجعلنا صحة البدن نعمة من النعم الواقعة فى الرتبة المتأخرة . فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التى بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها . ولكن الأكل أحد أسباب الصحة ، فلنذكر نبذة من جملة الأسباب التى بها تتم نعمة الأكل ، فلا يخفى أن الأكل فعل ، وكل فعل من هذا النوع فهو حركة ، وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ، ولا بد لها من قدرة على الحركة . ولا بد من إرادة للحركة، ولا بد من علم بالمراد وإدراك له . ولا بد للآكل من مأكول ، ولا بد للمأكول من أصل منه يحصل ، ولا بد له من صانع يصلحه . فلنذكر أسباب الإدراك ، ثم أسباب الإرادات، ثم أسباب القدرة، ثم أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء

(١) المائدة : ١١٠ (٢) يوسف : ٢٤ (٣) ابراهيم : ٣٤

الطرف الأول

فى نعم الله تعالى فى خلق أسباب الإدراك

اعلم أن الله تعالى خلق النبات ، وهو أكمل وجودا من الحجر ، والمدر ، والحديد ، والنحاس، وسائر الجواهر التى لاتنمى ولا تغذى ، فإن النبات خلق فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التى فى الأرض ، وهى له آلات فيها يجتذب الغذاء، وهى العروق الدقيقة التى تراها فى كل ورقة ، ثم تغلظ أصولها ، ثم تتشعب ، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط فى أجزاء الورقة ، حتى تغيب عن البصر ،إلا أن النبات مع هذا الكمال ناقص ، فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليه ، ويماس أصله ، جف ويبس ، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر . فإن الطالب إنما يكون بمعرفة المطلوب ، وبالانتقال إليه . والنبات عاجز عن ذلك . فمن نعمة الله تعالى عليك ، أن خلق لك آلات الإحساس، وآلة الحركة فى طلب الغذاء . فانظر إلى ترتيب حكمة الله تعالى فى خلق الحواس الخمس ، التى هى آلة الإدراك . فأولها : حاسة اللمس وإنما خلقت لك حتى إذا مستك نار محرقة ، أو سيف جارح ، تحس به فتهرب منه . وهذا أول حس يخلق للحيوان . ولا يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس ، لأنه إن لم يحس أصلا فليس بحيوان . وأنقص درجات الحس أن يحس بما يلاصقه ويماسه . فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم لا محالة. وهذا الحس موجود لكل حيوان ، حتى الدودة التى فى الطين ، فإنها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات . فإن النبات يقطع فلا ينقبض ، إذ لا يحس بالقطع . إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصا كالدودة ، لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك . بل ما يمس بدنك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط . فافتقرت إلى حس تدرك به ما بعد عنك . فخلق لك الشم . إلا أنك تدرك به الرائحة ، ولا تدرى أنها جاءت من أى ناحية . فتحتاج إلى أن تطوف كثيرا من الجوانب ، فربما تعثر على الغذاء الذى شممت ريحه ، وربما لم تعثر فتكون فى غاية النقصان لو لم يخلق لك إلا هذا . فخلق لك البصر، لتدرك به ما بعد عنك ، وتدرك جهته ، فتقصد تلك الجهة بعينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا

لكنت ناقصا ، إذ لا تدرك بهذا ماوراء الجدران والحجب ، فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوا لا حجاب بينك وبينه . وأما ما بينك وبينه حجاب فلا تبصره ، وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو ، فتعجز عن الهرب . فخلق لك السمع ، حتى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ، لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئا حاضرا . وأما الغائب فلا يمكنك معرفته إلا بكلام ينتظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع . فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك أذنك ، وميزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات . وكل ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حس الذوق ، إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف ، فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصب فى أصلها كل مائع ، ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها . ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق فى مقدمة دماغك إدراك آخر ، يسمى حسا مشتركا ، تتأدى إليه هذه المحسوسات الخمس ، وتجتمع فيه . ولولاه لطال الأمر عليك . فإنك إذا أكلت شيئا أصفر مثلا ، فوجدته مرا مخالفا لك فتركته ، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مر مضر مالم تذقه ثانيا ، لولا الحس المشترك . إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ؟ والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم تجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا ، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مر ، فيمتنع عن تناوله ثانيا . وهذا كله تشاركك فيه الحيوانات . إذ للشاة هذه الحواس كلها ، فلو لم يكن لك إلا هذا لكنت ناقصا . فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ ، فلا تدرى كيف تدفع الحيلة عن نفسها ، وكيف تتخلص إذا قيدت . وقد تلقى نفسها فى بئر ولا تدرى أن ذلك يهلكها . ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذه فى الحال ، ويضرها فى ثانى الحال ، فتمرض وتموت ، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر . فأما إدراك العواقب فلا . فميزك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هى أشرف من الكل ، وهو العقل . فبه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها فى الحال والمآل ، وبه تدرك كيفية طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك فى الأكل الذى هو سبب صحتك ، وهو أخس فوائد العقل ، وأقل الحكم فيه . بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ، ومعرفة أفعاله ، ومعرفة الحكمة فى عالمه . وعند ذلك تنقلب فائدة الحواس الخمس

فى حقك ، فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار الموكلين بنواحى المملكة ، وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به . فواحدة منها بأخبار الألوان ، والأخرى بأخبار الأصوات ، والأخرى بأخبار الروائح ، والأخرى بأخبار الطعوم ، والأخرى بأخبار الحر ، والبرد ، والخشونة ، والملاسة ، واللين ، والصلابة ، وغيرها . وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها إلى الحس المشترك . والحس المشترك قاعد فى مقدمة الدماغ ، مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك ، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحى العالم فيأخذها وهى مختومة ويسلمها ، إذ ليس له إلا أخذها ، وجمعها ، وحفظها . فأما معرفة حقائق ما فيها فلا . ولكن إذا صادف القلب العاقل ، الذى هو الأمير والملك ، سلم الأنهاآت إليه مختومة ، فيفتشها الملك ، ويطلع منها على أسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها فى هذا المقام . وبحسب ما يلوح له من الأحكام والمصالح يحرك الجنود ، وهى الأعضاء ، مرة فى الطلب ، ومرة فى الهرب ، ومرة فى إتمام التدبيرات التى تعن له . فهذه سياقة نعمة الله عليك فى الإدراكات . ولا تظنن أنا استوفيناها . فإن الحواس الظاهرة هى بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس ، والعين آلة واحدة له ، وقد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة ، بعضها رطوبات وبعضها أغشية . وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت ، وبعضها كالمشيمة . وبعض تلك الرطوبات كأنه بياض البيض ، وبعضها كأنه الجمد . ولكل واحدة من هذه الطبقات العشر صفة ، وصورة ، وشكل ، وهيئة ، وعرض ، وتدوير ، وتركيب لو اختلت طبقة واحدة من جملة العشر ، أو صفة واحدة من صفات كل طبقة ، لاختل البصر ، وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم

فهذا فى حس واحد ، فقس به حاسة السمع وسائر الحواس . بل لا يمكن أن تستوفى حكم الله تعالى وأنواع نعمه فى جسم البصر وطبقاته فى مجلدات كثيرة ، مع أن جملته لا تزيد على جوزة صغيرة . فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه وعجائبه ، فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثانى

فى أصناف النعم فى خلق الإرادات

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ، ولم يخلق لك ميل فى الطبع وشوق إليه ، وشهوة له تستحثك على الحركة، لكان البصر معطلا . فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له ، وقد سقطت شهوته فلا يتناوله ،فيبقى البصر والإدراك معطلا فى حقه . فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى مايوافقك ، يسمى شهوة ، ونفرة عما يخالفك ، تسمى كراهة ، لتطلب بالشهوة ، وتهرب بالكراهة . فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام ، وسلطها عليك ، ووكلها بك ، كالمتقاضى الذى يضطرك إلى التناول ، حتى تتناول وتغتذى ، فتبقى بالغذاء . وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات

ثم هذه الشهوة لولم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة ، أسرفت وأهلكت نفسك . فخلق الله لك الكراهة عند الشبع ، لتترك الأكل بها ، لا كالزرع ، فإنه لا يزال يجتذب الماء إذا انصب فى أسفله حتى يفسد ،فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة ،فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى . وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك ،خلق لك شهوة الجماع ، حتى تجامع فيبقى به نسلك . ولو قصصنا عليك عجائب صنع الله تعالى فى خلق الرحم ، وخلق دم الحيض ، وتأليف الجنين من المني ودم الحيض ، وكيفية خلق الأنثيين والعروق السالكة إليها من الفقار الذى هو مستقر النطفة ، وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق ، وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة فى بعضها فتتشكل بشكل الذكور ؛ وتقع فى بعضها فتتشكل بشكل الإناث ،وكيفية إدارتها فى أطوار خلقها مضغة وعلقة، ثم عظما ولحما ودما، وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس، ويد، ورجل وبطن، وظهر ، وسائر الأعضاء، لقضيت من أنواع نعم الله تعالى عليك فى مبدأ خلقك كل العجب ،فضلا عما تراه الآن . ولكنا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى فى الأكل وحده كى لا يطول الكلام

فإذاً شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات ، وذلك لا يكفيك ،فإنه تأتيك المهلكات من الجوانب . فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك ،لبقيت عرضة للآفات ، ولأخذ منك كل ما حصلته من الغذاء . فإن كل واحد يشتهى ما فى يديك ،فتحتاج

إلى داعية فى دفعه ومقاتلته ، وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يضادك ولا يوافقك
ثم هذا لا يكفيك ، إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع فى الحال . وأما فى المآل ، فلا تكفى فيه هذه الإرادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى ، مسخرة تحت إشارة العقل المعرف للعواقب ، كما خلق الشهوة والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة ، فتم بها انتفاعك بالعقل ، إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضرك لا يغنيك فى الاحتراز عنها ، ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة . وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبنى آدم ، كما أفردت بمعرفة العواقب . وقد سميناهذه الارادة اعثا دينيا ، وفصلناه فى كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا

الطرف الثالث

فى نعم الله تعالى فى خلق القدرة وآلات الحركة

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك ، والإرادة لا معنى لها إلا الميل إلى الطلب والهرب . وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والهرب . فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه ، مدرك له ، ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله ، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده ، أو لفالج وخدر فيهما . فلابد من آلات للحركة ، وقدرة فى تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا ، وبمقتضى الكراهية هربا . فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها . فمنها ماهو للطلب والهرب ، كالرجل للإنسان ، والجناح للطير ، والقوائم للدواب . ومنها ماهو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان . وفى هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة ، فخلق له الجناح ليطير بسرعة . ومنها ما خلق له أربع قوائم . ومنها ماله رجلان . ومنها ما يدب . وذكر ذلك يطول . فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ، ليقاس عليها غيرها فنقول . رؤيتك الطعام من بعد ، وحركتك إليه لا تكفى ، ما لم تتمكن من أن تأخذه . فافتقرت إلى آلة باطشة ، فأنعم الله تعالى عليك بخلق اليدين ، وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ، ومشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك فى الجهات ، فتمتد وتنثنى إليك فلا تكون كخشبة منصوبة . ثم جعل رأس اليد عريضا

بخلق الكف . ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هي الأصابع . وجعلها فى صفين . بحيث يكون الإبهام فى جانب . ويدور على الأربعة الباقية . ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك . فوضعها وضعا إن بسطتها كانت لك مجرفة ، وإن ضممتها كانت لك مغرفة ، وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة فى القبض . ثم خلق لها أظفارا ، وأسند إليها رءوس الأصابع حتى لا تتفتت ، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحويها الأصابع فتأخذها برءوس أظفارك . ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين ، فمن أين يكفيك هذا ، مالم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن فلابد وأن يكون من الظاهر دهليز إليها ، حتى يدخل الطعام منه . فجعل الفم منفذا إلى المعدة ، مع مافيه من الحكم الكثيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ، ثم إن وضعت الطعام فى الفم وهو قطعة واحدة ، فلا يتيسر ابتلاعه ، فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام ، فخلق لك اللحيين من عظمين ، وركب فيهما الأسنان ، وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة إلى القطع . ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك . فقسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس . وإلى حادة قواطع كالرباعيات . وإلى مايصلح للكسر كالأنياب . ثم جعل مفصل اللحيين متخللا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر ، حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرحى . ولولا ذلك لما تيسر إلا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا ، وبذلك لا يتم الطحن . فجعل اللحى الأسفل متحركا حركة دورية واللحى الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر الى عجيب صنع الله تعالى ، فإن كل رحى صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحى الذى صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى . فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه ، وأتم برهانه وأوسع امتنانه ثم هب أنك وضعت الطعام فى فناء الفم ، فكيف يتحرك الطعام إلى ما تحت الأسنان ، أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها ، أو كيف يتصرف باليد فى داخل الفم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف فى جوانب الفم ، ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة التى ترد الطعام إلى الرحى . هذا مع مافيه من فائدة الذوق ، وعجائب قوة النطق . والحكم التى لسنا نطنب بذكرها . ثم هب أنك قطعت الطعام وطحنته

وهو يابس ، فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها ، وينصب بقدر الحاجة ، حتى ينعجن به الطعام . فانظر كيف سخرها لهذا الأمر ، فإنك ترى الطعام من بعد ، فيثور الحنكان للخدمة ، وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك ، والطعام بعد بعيد عنك. ثم هذا الطعام المطحون المنعجن ، من يوصله إلى المعدة وهو في الفم ، ولا تقدر على أن تدفعه باليد؛ ولا يد في المعدة حتى تمتد فتجذب الطعام . فانظر كيف هيأ الله تعالى المريء والحنجرة ، وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ، ثم تنطبق وتنضغط حتى يتقلب الطعام بضغطه ، فيهوى إلى المعدة في دهليز المريء . فإذا ورد الطعام على المعدة ، وهو خبز وفاكهة مقطعة ، فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة ، بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه . فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر ، فيقع فيها الطعام ، فتحتوى عليه ، وتغلق عليه الأبواب ، فلا يزال لابثا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة ، إذ من جانبها الأيمن الكبد ، ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ، ومن خلف لحم الصلب ، فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب ، حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها، يصلح للنفوذ في تجاويف العروق . وعند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقته ، وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق ، وجعل لها فوهات كثيرة ، حتى ينصب الطعام فيها ، فينتهي إلى الكبد .

والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم ، وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد ، ، فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها ، وينتشر في أجزائها ، حتى تستولى عليه قوة الكبد ، فتصبغه بلون الدم ، فيستقر فيها ريثما يحصل له نضج آخر ، ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء . إلا أن حرارة الكبد هي التي تنضج هذا الدم . فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ ، إحداهما :شبيهة بالدردي والعكر وهو الخلط السوداوي ، والأخرى :شبيهة بالرغوة ، وهي الصفراء . ولو لم تفصل عنها

الفضلتان فسد مزاج الأعضاء . فخلق الله تعالى المرارة والطحال ، وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد ، داخلا فى تجويفه . فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ، ويجذب الطحال العكر السوداوى . فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة ، لما فيه من المائية . ولولاها لما انتشر فى تلك العروق الشعرية ، ولا خرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين ، وأخرج من كل واحدة منهما عنقا طويلا إلى الكبد . ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا فى تجويف الكبد ، بل متصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبد ، حتى يجذب مايليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التى فى الكبد. إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق . فإذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث ، نقيا من كل مايفسد الغذاء . ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ، ثم قسمها بعد الطلوع أقساما ، وشعب كل قسم بشعب ، وانتشر ذلك فى البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا ، فيجرى الدم الصافى فيها ، ويصل إلى سائر الأعضاء ، حتى تصير العروق المنقسمة شعرية كعروق الأوراق والأشجار ، بحيث لا تدرك بالأبصار ، فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء . ولو حلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم ، وحصل منه الأمراض الصفراوية ، كاليرقان والبثور والحمرة . وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوى ، حدثت الأمراض السوداوية ، كالبهق والجذام والماليخوليا وغيرها . وإن لم تندفع المائية نحو الكلا حدث منه الاستسقاء وغيره . ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم ، كيف رتب المنافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة ، أما المرارة فإنها تجذب بأحد عنقيها ، وتقذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ، ليحصل له فى ثفل الطعام رطوبة مزلقة ، ويحدث فى الأمعاء لذع يحركها للدفع ، فتنضغط حتى يندفع الثفل وينزلق ، وتكون صفرته لذلك

وأما الطحال فإنه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ، ثم يرسل منها فى كل يوم شيئا إلى فم المعدة ، فيحرك الشهوة بحموضته ، وينبهها ويثيرها ، ويخرج الباقى مع الثفل

وأما الكلية فإنها تغتذى بما فى تلك المائية من دم ، وترسل الباقى إلى المثانة

ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى فى الأسباب التى أعدت للأكل . ولو ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ ، واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء

الرئيسة إلى صاحبه ، وكيفية انشعاب العروق الضوارب من القلب إلى سائر البدن ، وبواسطتها يصل الحس ، وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ، ثم كيفية تركب الأعضاء ، وعدد عظامها ، وعضلاتها، وعروقها وأوتارها ، ورباطاتها ، وغضاريفها ، ورطوباتها ، لطال الكلام . وكل ذلك محتاج إليه للأكل ولأمور أخر سواه . بل فى الآدمى آلاف من العضلات ، والعروق ، والأعصاب . مختلفة بالصغر ، والكبر ، والدقة والغلظ ، وكثرة الانقسام وقلته ، ولا شىء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان ، أو ثلاث ، أو أربع ، إلى عشر وزيادة . وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك ، لو سكن من جملتها عرق متحرك ، أو تحرك عرق ساكن ، لهلكت يامسكين . فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا ، لتقوى بعدها على الشكر ، فإنك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ، ثم لا تعرف منها إلا أنك تجوع فتأكل ، والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ، ويتعب فينام ، ويشتهى فيجامع ، ويستنهض فينهض ويرمح . فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلا مايعرفه الحمار ، فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك . وهذا الذى رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط . فقس على الإجمال ما أهملناه من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل . وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى مالم يعرفوه من نعم الله تعالى ، أقل من قطرة من بحر . إلا أن من علم شيئا من هذا أدرك شمة من معانى قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا[1]) . ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء ، وقوام منافعها وإدراكاتها وقواها ببخار لطيف، يتصاعد من الأخلاط الأربعة ، ومستقره القلب ، ويسرى فى جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلا ينتهى إلى جزء من أجزاء البدن إلا ويحدث عند وصوله فى تلك الأجزاء مايحتاج إليه من قوة حس وإدراك ، وقوة حركة وغيرها ، كالسراج الذى يدار فى أطراف البيت ، فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت ، من خلق الله تعالى واختراعه ، ولكنه جعل السراج سببا له بحكمته . وهذا البخار اللطيف هو الذى تسميه الأطباء الروح ، ومحله القلب : ومثاله جرم نار السراج ، والقلب له كالمسرجة، والدم الأسود

(1) النحل : ١٨

الذى فى باطن القلب له كالفتيلة ، والغذاء له كالزيت ، والحياة الظاهرة فى سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج فى جملة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيته انطفأ ، فسراج الروح أيضا ينطفىء مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفتيلة قد تحترق فتصير رمادا بحيث لاتقبل الزيت ، فينطفىء السراج مع كثرة الزيت ، فكذلك الدم الذى تشبثت به هذا البخار فى القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب ، فينطفىء مع وجود الغذاء ، فإنه لا يقبل الغذاء الذى يبق به الروح . كما لا يقبل الرماد الزيت قبولا تتشبث النار به

وكما أن السراج تارة ينطفىء بسبب من داخل كما ذكرناه ، وتارة بسبب من خارج كريح عاصف ، فكذلك الروح تارة تنطفىء بسبب من داخل - وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بفناء الزيت ، أو بفساد الفتيلة ، أو بريح عاصف ، أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا بأسباب مقدرة فى علم الله مرتبة ؛ ويكون كل ذلك بقدر ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده ، فيكون ذلك أجله الذى أجل له فى أم الكتاب ، فكذلك انطفاء الروح . وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله ، وفارقته أنواره التى كان يستفيدها من الروح ، وهي أنوار الإحساسات ، والقُدر ، والإرادات ، وسائر مايجمعها معنى لفظ الحياة

فهذا أيضا رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ، ليعلم أنه لو كان البحر مدا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى عز وجل فتعسا لمن كفر بالله تعسا ، وسحقا لمن كفر نعمته سحقا

فإن قلت: فقد وصفت الروح ومثلته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم [1] سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) فلم يصفه لهم على هذا الوجه ، فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع فى لفظ الروح . فإن الروح يطلق لمعان كثيرة لا نطول بذكرها . ونحن إنما وصفنا من جملتها جسما لطيفا تسميه الأطباء روحا . وقد عرفوا صفته

(١) حديث انه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربى :متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم فى شرح عجائب القلب

(١) الاسراء : ٨٥

ووجوده ، وكيفية سريانه فى الأعضاء ، وكيفية حصول الإحساس والقوى فى الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة فى مجري هذا الروح ،فلايعالجون موضع الخدر ، بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ، ويعالجونها بما يفتح السدة ، فإن هذا الجسم بلطفه ينفـذ فى شباك العصب ، وبواسطته يتـأدى من القلب إلى سائر الأعضاء ، وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل

وأما الروح التى هى الأصل ، وهي التى إذا فسدت فسد لها سائر البدن ، فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ، ولا رخصة فى وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني ، كما قال تعالى (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) والأمور الربانية لاتحتمل العقول وصفها ، بل تتحير فيها عقول أكثر الخلق . وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات ، وتتزلزل فى ذكر مبادى وصفها معاقد العقول المقيدة بالجوهر والعرض المحبوسة فى مضيقها ، فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه ،بل بنور آخر أعلى وأشرف من العقل يشرق ذلك النور فى عالم النبوة والولاية ، نسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال

وقد خلق الله تعالى الخلق أطوارا . فـكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك المعقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد .فـكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ماوراءها ، لأن ذلك طور لم يبلغـه بعد . وإنه لمقام شريف ، ومشرب عذب ، ورتبة عالية ، فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين ، وذلك المشرب أعز من أن يكون شريعة لـكل وارد ، بل لايطلع عليه إلا واحد بعد واحد . ولجناب الحق صدر ،وفى مقدمة الصدر مجال وميدان رحب ، وعلى أول الميدان عتبة هى مستقر ذلك الأمر الربانى . فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ، ولا لحافظ العتبة مشاهدة ، استحال أن يصل الميدان . فكيف بالانتهاء إلى ماوراءه من المشاهدات العالية ! ولذلك قيل : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه . وأنى يصادف هذا فى خزانة الأطباء ! ومن أين للطبيب أن يلاحظه ! بل المعنى المسمى روحا عند الطبيب ، بالإضافة إلى هذا الأمر الربانى ، كالكرة التى يحركها صولجان الملك . بالإضافة إلى الملك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الربانى ،كان كمن رأى الـكرة التى يحركها صولجان الملك ، فظن أنه رأى الملك . ولا يشك فى أن خطأه فاحش . وهذا الخطأ أفحش

---
(١) الاسراء : ٨٥

منه جداً . ولما كانت العقول التى بها يحصل التكليف، وبها تدرك مصالح الدنيا، عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر ، لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه ، بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم . ولم يذكر الله تعالى فى كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ، لكن ذكر نسبته وفعله ، ولم يذكر ذاته . أما نسبته ففى قوله تعالى (مِنْ أَمْرِ رَبِّي [1]) وأما فعله فقد ذكر فى قوله تعالى (يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي [2])

ولنرجع الآن إلى الغرض ، فإن المقصود ذكر نعم الله تعالى فى الأكل ، فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى فى آلات الأكل

الطرف الرابع

فى نعم الله تعالى فى الأصول التى يحصل منها الأطعمة

وتصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته . اعلم أن الأطعمة كثيرة ، ولله تعالى فى خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، وأسباب متوالية لا تتناهى . وذكر ذلك فى كل طعام مما يطول . فإن الأطعمة إما أدوية ، وإما فواكه ، وإما أغذية . فلنأخذ الأغذية فإنها الأصل ، ولنأخذ من جملتها حبة من البر ، ولندع سائر الأغذية فنقول :

إذا وجدت حبة أو حبات ، فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعا . فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة فى نفسها ، وتزيد وتتضاعف ، حتى تفى بتمام حاجتك . فخلق الله تعالى فى حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك . فإن النبات إنما يفارقك فى الحس والحركة ، ولا يخالفك فى الاغتذاء ، لأنه يتغذى بالماء ، ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق ، كما تغتذى أنت وتجتذب . ولسنا نطنب فى ذكر آلات النبات فى اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أن الخشب والتراب لا يغذيك ، بل تحتاج إلى طعام مخصوص ، فكذلك الحبة لا تغتذى بكل شىء ، بل تحتاج إلى شىء مخصوص . بدليل أنك لو تركتها فى البيت لم تزد ، لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ، ومجرد الهواء لا يصلح

---

(1) الاسراء : ٨٥ (2) الفجر : ٢٧ - ٢٩

لغذائها . ولو تركتها في الماء لم تزد . ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد . بل لا بد من أرض فيها ماء ، يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طينا . وإليه الإشارة بقوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا[1])

ثم لا يكفي الماء والتراب . إذ لو تركت في أرض ندية ، صلبة متراكمة . لم تنبت لفقد الهواء . فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة ، يتغلغل الهواء إليها . ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه ، فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بقهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ[2]) وإنما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض . ثم كل ذلك لا يغنيك لو كان في برد مفرط ، وشتاء شات فتحتاج إلى حرارة الربيع والصيف . فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة . فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد . إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزراعة من البحار ، والعيون ، والأنهار ، والسواقي . فانظر كيف خلق الله البحار ، وفجر العيون ، وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرتفعة ، والمياه لا ترتفع إليها ، فانظر كيف خلق الله تعالى الغيوم وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار الأرض ، وهي سحب ثقال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدرارا على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة . وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه ، تتفجر منها العيون تدريجا . فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشي . ونعم الله في الجبال ، والسحاب ، والبحار ، والأمطار ، لا يمكن إحصاؤها . وأما الحرارة فإنها لا تحصل بين الماء والأرض ، وكلاهما باردان ، فانظر كيف سخر الشمس ، وكيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ، ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد ، والحر عند الحاجة إلى الحر . فهذه إحدى حكم الشمس . والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها ، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب ، كما جعل من خاصية الشمس التسخين ، فهو ينضج الفواكه ويصبغها بتقدير الفاطر الحكيم . ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق

---

(1) عبس : ٢٤ ـ ٢٩ (2) الحجر : ٢٢

الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها ، لكانت فاسدة ناقصة ، حتى أن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة . وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل ، فتغلب على رأسك الرطوبة التي يعبر عنها بالزكام . فكما يرطب رأسك يرطب الفاكهة أيضا . ولا نطول فيما لا مطمع في استقصائه ، بل نقول كل كوكب في السماء فقد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب . فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر بإحصائها . ولو لم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ، ولم يصح قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا [1]) وقوله عز وجل (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ [2]) وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضو إلا لفائدة ، فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه كالأعضاء له ، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك . وشرح ذلك يطول . ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم ، والشمس ، والقمر ، مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة مخالف للشرع ، لما ورد فيه من [1] النهي عن تصديق المنجمين ، وعن علم النجوم . بل المنهي عنه في النجوم أمران :

أحدهما : أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها ، مستقلة بها ، وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها ، وهذا كفر . والثاني : تصديق المنجمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها ، لأنهم يقولون ذلك عن جهل . فإن علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ، ثم اندرس ذلك العلم ، فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتميز فيه الصواب عن الخطأ . فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض ، وفي النبات ، وفي الحيوان ليس قادحا في الدين . بل هو حق .

---

(١) حديث النهي عن تصديق المنجمين وعن علم النجوم : أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد وللطبراني من حديث ابن مسعود وثوبان اذا ذكر النجوم فأمسكوا واسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يارسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتي الكهان قال فلا تأتوا الكهان الحديث

---

(١) آل عمران : ١٩١ (٢) الدخان : ٣٨

ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدين . ولذلك إذا كان معك ثوب غسلته وتريد تجفيفه ، فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فإن الشمس قد طلعت وحمي النهار والهواء ، لايلزمك تكذيبه ، ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمي الهواء على طلوع الشمس ، وإذا سألت عن تغير وجه الإنسان ، فقال قرعتني الشمس في الطريق فاسود وجهي ، لم يلزمك تكذيبه بذلك . وقس بهذا سائر الآثار .

إلا أن الآثار بعضها معلوم ، وبعضها مجهول . فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه، والمعلوم بعضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس ، وبعضه لبعض الناس كحصول الزكام بشروق القمر . فإذاً الكواكب ماخلقت عبثاً، بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء [١] وقرأ قوله تعالى (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [١]) ثم قال صلى الله عليه وسلم « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ثُمَّ مَسَحَ بِهَا سَبَلَتَهُ » ومعناه أن يقرأ ويترك التأمل ، ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب . وذلك مما تعرفه البهائم أيضا . فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته . فلله تعالى في ملكوت السموات ، والآفاق ، والأنفس ، والحيوانات ، عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ، ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبًّا له . فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى ، فإن العالم كله من تصنيفه ، بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنّفه بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصنيف فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذي سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته، وتسديده، وتعريفه . كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تعجب من اللعب ، فإنها خرق محركة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ

---

(١) حديث قرأ قوله تعالى ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته أى ترك تأملها : الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حية ضعيف

---

(١) آل عمران : ١٩١

المحرك لهـا بروابط دقيقة خفية عن الأبصار . فإذاً المقصود أن غذاء النبات لا يتم إلا بالمـاء ، والهواء ، والشمس ، والقمر ، والـكواكب . ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التى هى مركوزة فيها . ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها . ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها وكذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيها بما ذكرناه على ما أهملناه، ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات

الطرف الخامس

فى نعم الله تعالى فى الأسباب الموصلة للأطعمة إليك

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد فى كل مكان ، بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد فى بعض الأماكن دون بعض . والنـاس منتشرون على وجه الأرض ، وقد تبعد عنهم الأطعمة ، ويحول بينهم وبينها البحار والبرارى . فانظر كيف سخر الله تعالى التجار ، وسلط عليهم حرص حب المـال وشهوة الربح ، مع أنهم لا يغنيهم فى غالب الأمر شىء ، بل يجمعون ، فإما أن تغرق بها السفن ، أو تنهبها قطاع الطريق ، أو يموتوا فى بعض البلاد فيأخذها السلاطين . وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا فانظر كيف سلط الله الجهل والغفلة عليهم ، حتى يقاسوا الشدائد فى طلب الربح، ويركبوا الأخطار ، ويغرروا بالأرواح فى ركوب البحر ، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك . وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن، وكيفية الركوب فيها . وانظر كيف خلق الحيوانات ، وسخرها للركوب والحمل فى البرارى . وانظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى الفرس كيف امتدت بسرعة الحركة ، وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب ، وإلى الجمال كيف تقطع البرارى وتطوى المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش . وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات فى البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج . وتأمل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها، وأدواتها ، وعلفها ، وما تحتاج إليه السفن ،فقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة. وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن. ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلبا للإيجاز

الطرف السادس

في إصلاح الأطعمة

اعلم أن الذي ينبت في الأرض من النبات، وما يخلق من الحيوانات، لا يمكن أن يقضم ويؤكل وهو كذلك. بل لابد في كل واحد من إصلاح، وطبخ، وتركيب، وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض، إلى أمور أخر لا تحصى. واستقصاء ذلك في كل طعام يطول، فلنعين رغيفا واحدا، ولننظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض. فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض، ثم الثور الذي يثير الأرض والفدان وجميع أسبابه، ثم بعد ذلك التعهد بسقي الماء مدة، ثم تنقية الأرض من الحشيش، ثم الحصاد، ثم الفرك والتنقية، ثم الطحن ثم العجن، ثم الخبز. فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره، وعدد الأشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد، والخشب، والحجر وغيره، وانظر إلى أعمال الصناع في إصلاح آلات الحراثة، والطحن، والخبز، من نجار وحداد وغيرهما وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد، والرصاص، والنحاس، وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال، والأحجار، والمعادن، وكيف جعل الأرض قطعا متجاورات مختلفة. فإن فتشت علمت أن رغيفا واحدا لا يستدير بحيث يصلح لأكلك يا مسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع. فابتدىء من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء، إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة، حتى تنتهي النوبة إلى عمل الإنسان. فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع، كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق. ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات، حتى أن الإبرة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي يمنع البرد عنك، لا تكمل صورتها من حديدة تصلح للإبرة إلا بعد أن تمر على يد الإبري خمساً وعشرين مرة، ويتعاطى في كل مرة منها عملا. فلو لم يجمع الله تعالى البلاد، ولم يسخر العباد، وافتقرت إلى عمل المنجل الذي تحصد به البر مثلا بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه. أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة قذرة، لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة

والصنائع الغريبة . فانظر إلى المقراض مثلا ، وهما جامان متطابقان، ينطبق أحدهما على الآخر، فيتناولان الشيء معا ويقطعانه بسرعة. ولو لم يكشف الله تعالى طريق اتخاذه بفضله وكرمه لمن قبلنا وافتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ، ثم إلى استخراج الحديد من الحجر، وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل المقراض ، وعمر الواحد منا عمر نوح ، وأوتي أكمل العقول، لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها ، فضلا عن غيرها : فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان ، وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلا ، أو عن الحداد .أو عن الحجام الذي هو أخس العمال ،أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصناع ، ماذا يصيبك من الأذى ، وكيف تضطرب عليك أمورك كلها . فسبحان من سخر بعض العباد لبعض ، حتى نفذت به مشيئته ، وتمت به حكمته

ولنوجز القول في هذه الطبقة أيضا ، فإن الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء

الطرف السابع

في إصلاح المصلحين

اعلم أن هؤلاء الصناع المصلحين للأطعمة وغيرها ، لو تفرقت آراؤهم ،وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحش ، لتبددوا وتباعدوا ،ولم ينتفع بعضهم ببعض ، بل كانوا كالوحوش لا يحويهم مكان واحد ، ولا يجمعهم غرض واحد .فانظر كيف ألف الله بين قلوبهم ،وسلط الأنس والمحبة عليهم (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ[1]) فلأجل الألف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا ، وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ، ورتبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه . ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ، ويتنافسون فيها . ففي جبلة الإنسان الغيظ ، والحسد ، والمنافسة ، وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين ، وأمدهم بالقوة والعدة والأسباب، وألقى رعبهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها . وكيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح البلاد ، حتى رتبوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد ، تتعاون على غرض واحد ،ينتفع

(١) الأنفال : ٦٣

البعض منها بالبعض . فرتبوا الرؤساء ، والقضاة ، والسجن وزعماء الأسواق ، واضطروا الخلق إلى قانون العدل ، وألزموهم التساعد والتعاون ، حتى صار الحداد ينتفع بالقصاب ، والخباز ، وسائر أهل البلد ، وكلهم ينتفعون بالحداد . وصار الحجام ينتفع بالحراث ، والحراث بالحجام ، وينتفع كل واحد بكل واحد ، بسبب ترتيبهم ، واجتماعهم ، وانضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه ، كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض

وانظر كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أصلحوا السلاطين المصلحين للرعايا ، وعرفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق ، وقوانين السياسة في ضبطهم ، وكشفوا من أحكام الإمامة ، والسلطنة ، وأحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا ، فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين . وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء بالملائكة ، وكيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض ، إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى

فالخباز يخبز العجين ، والطحان يصلح الحب بالطحن ، والحراث يصلحه بالحصاد ، والحداد يصلح آلات الحراثة ، والنجار يصلح آلات الحداد ، وكذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة ، والسلطان يصلح الصناع ، والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والملائكة يصلحون الأنبياء ، إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ، ومطلع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وكل ذلك نعم من رب الأرباب ، ومسبب الأسباب . ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [1]) لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى . ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه ، لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء . ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة ، فقال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا [2]) فإن تكلمنا فبإذنه انبسطنا ، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا ، إذ لا معطي لما منع ، ولا مانع لما أعطى ، لأنا في كل لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبار (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [3]) فالحمد لله الذي ميزنا عن الكفار ، وأسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار

---

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) النحل : ١٨ (٣) غافر : ١٦

الطرف الثامن

فى بيان نعمة الله تعالى فى خلق الملائكة عليهم السلام

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله فى خلق الملائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهدايتهم، وتبليغ الوحي إليهم . ولا تظنن أنهم مقتصرون فى أفعالهم على ذلك القدر . بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة فى ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية، والسماوية، وحملة العرش . فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الذى ذكرناه، دون ما يجاوز ذلك من الهداية والإرشاد وغيرهما واعلم أن كل جزء من أجزاء بدنك، بل من أجزاء النبات . لا يغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة هو أقله إلى عشرة، إلى مائة إلى ما وراء ذلك . وبيانه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف، وذلك الغذاء يصير دما فى آخر الأمر، ثم يصير لحما وعظما . وإذا صار لحما وعظما تم اغتذاؤك . والدم واللحم أجسام ليس لها قدرة ومعرفة واختيار، فهى لا تتحرك بأنفسها، ولا تتغير بأنفسها، ومجرد الطبع لا يكفى فى ترددها فى أطوارها كما أن البر بنفسه لا يصير طحينا، ثم عجينا، ثم خبزا مستديرا مخبوزا إلا بصنّاع . فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما، وعظما، وعروقا، وعصبا إلا بصناع . والصناع فى الباطن هم الملائكة . كما أن الصناع فى الظاهر هم أهل البلد . وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغى أن تغفل عن نعمه الباطنة فأقول : لابد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم، فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه، ولابد من ملك آخر يمسك الغذاء فى جواره ولابد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولابد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم . ولابد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولابد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم، وما اكتسب صفة اللحم باللحم، حتى لا يكون منفصلا . ولابد من سابع يرعى المقادير فى الالصاق، فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته، وبالعريض ما لا يزيل عرضه، وبالمجوف ما لا يبطل تجويفه، ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فإنه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على فخذه لكبر أنفه، وبطل تجويفه، وتشوهت صورته وخلقته، بل ينبغى

أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها ، وإلى الحدقة مع صفائها ، وإلى الافخاذ مع غلظها ، وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، وإلا بطلت الصورة وربا بعض المواضع ، وضعفت بعض المواضع بل لو لم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط . فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ماينمو به إلا إحدى الرجلين مثلا ، لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر ، وكبر جميع البدن ، فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل ، وله رجل واحدة كأنها رجل صبي ، فلا ينتفع بنفسه ألبتة ، فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة ولا تظنن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فإن محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لايدرى مايقول . فهذه هي الملائكة الأرضية ، وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح ، وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ، ولا خبر لك منهم ، وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ ، حتى يفتقر بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز . والملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لايحيط بكنهه إلا الله تعالى . ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش . والمنعم على جملتهم بالتأييد ، والهداية والتسديد المهيمن القدوس ، المنفرد بالملك والملكوت ، والعزة والجبروت جبار السموات والأرض ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام [1] والأخبار الواردة في الملائكة

---

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحاب ينجر من جانب الى جانب انتهى ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لخازن السماء الدنيا افتح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح ... الحديث : ولهما من حديث أبي هريرة ان لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبدياليل فناداني ملك الجبال ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ الحديث : ولهما من حديث أنس أن الله وكل بالرحم ملكا ـ الحديث : وروى أبو المنصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الإسلمي مامن نبت ينبت إلا وتحته ملك موكل حتى يحصد ـ الحديث : وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو عمر البكراوي واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضعيف وللطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف ان الله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس وللترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهود ياأبا القاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمسلم من حديث أبي هريرة بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة ـ الحديث

الموكلين بالسموات والأرض ، وأجزاء النبات والحيوانات ، حتى كل قطرة من المطر ، وكل سحاب ينجر من جانب إلى جانب ، أكثر من أن تحصى ، فلذلك تركنا الاستشهاد به . فإن قلت : فهلا فوضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ، ولم أفتقر إلى سبعة أملاك ؟ والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أولا ، ثم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً ، ثم إلى من يصب الماء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يلصقها بالتنور سابعا ، ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد ، يستقل به ، فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الإنس ظاهراً ؟ فاعلم أن خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس . وما من واحد منهم إلا وهو وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب ألبتة ، فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ [(١)]) فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثالهم في تعين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس . فإن البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ، ولا الشم يزاحمها ، ولا هما ينازعان الشم . وليس كاليد والرجل . فإنك قد تبطش بأصابع الرجل بطشا ضعيفا ، فتزاحم به اليد ، وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد التي هي آلة الضرب . ولا كالإنسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن ، والعجن ، والخبز ، فإن هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل ، سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه ، فإنه ليس واحداني الصفة فلم يكن وحداني الفعل . ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرة ويعصيه أخرى ، لاختلاف دواعيه وصفاته . وذلك غير ممكن في طباع الملائكة . بل هم مجبولون على الطاعة ، لا مجال للمعصية في حقهم ، فلا جرم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . ويسبحون الليل والنهار لا يفترون . والراكع منهم راكع أبدا ، والساجد منهم ساجد أبدا ، والقائم قائم أبدا لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ، ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه .

وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم ، يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك . فإنك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان ، لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف

(١) الصافات : ١٦٤

فى طاعتك مرة ، ومعصيتك أخرى . بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ، ينفتح ، وينطبق متصلا بإشارتك . فهذا يشبهه من وجه . لكن يخالفه من وجه إذ الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتحا وإطباقا ، والملائكة أحياء عالمون بما يعملون . فإذاً هذه نعمة الله عليك فى الملائكة الأرضية والسماوية ، وحاجتك إليهما فى غرض الأكل فقط ، دون ما عداها من الحركات والحاجات كلها ، فإنا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم ، ومجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات !

فإذاً قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ، ثم قال (وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ[1]) فترك باطن الاثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد ، وسوء الظن ، والبدعة ، واضمار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب ، هو الشكر للنعم الباطنة ، وترك الاثم الظاهر بالجوارح ، شكر للنعمة الظاهرة . بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو فى تطريفة واحدة بأن فتح جفنه مثلا حيث يجب غض البصر ، فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه فى السموات والأرض وما بينهما . فإن كل ما خلقه الله تعالى حتى الملائكة ، والسموات والأرض والحيوانات والنبات ، بجملته نعمة على كل واحد من العباد ، قد تم به انتفاعه ، وإن انتفع غيره ايضا به ، فإن لله تعالى فى كل تطريفة بالجفن نعمتين فى نفس الجفن ، إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ ، بها يتم انخفاض الجفن الأعلى ، وارتفاع الجفن الأسفل ، وعلى كل جفن شعور سود ، ونعمة الله تعالى فى سوادها أنها تجمع ضوء العين ، إذ البياض يفرق الضوء ، والسواد يجمعه ، ونعمة الله فى ترتيبها صفا واحدا أن يكون مانعا للهوام من الدبيب إلى باطن العين ، ومتشبثا للأقذاء التى تتناثر فى الهواء ، وله فى كل شعرة منهما نعمتان من حيث لين أصلها ، ومع اللين قوام نصبها ، وله فى اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل ، وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ، ولو طبق لم يبصر ، فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب ، فينظر من وراء شباك الشعر ، فيكون شباك الشعر مانعا من وصول القذى من خارج ، وغير مانع من امتداد البصر من داخل .

(١) الأنعام : ١٢٠

ثم إن أصاب الحدقة غبار ، فقد خلق أطراف الأجفان خادمة منطبقة على الحدقة ، كالمصقلة للمرآة ، فيطبقها مرة أو مرتين ، وقد انصقلت الحدقة من الغبار ، وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان . والذباب لما لم يكن لحدقته جفن ، خلق له يدين فتراه على الدوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار . وإذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولعلنا نستأنف له كتابا مقصودا فيه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق ، نسميه عجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول :

من نظر إلى غير محرم فقد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى فى الأجفان . ولا تقوم الأجفان إلا بعين ، ولا العين إلا برأس ، ولا الرأس إلا بجميع البدن ، ولا البدن إلا بالغذاء ولا الغذاء إلا بالماء ، والأرض ، والهواء ، والمطر ، والغيم ، والشمس ، والقمر ، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ، ولا السموات إلا بالملائكة ، فإن الكل كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض . فإذا قد كفر كل نعمة فى الوجود ، من منتهى الثريا إلى منتهى الثرى ، فلم يبق فلك ، ولا ملك ، ولا حيوان ، ولا نبات ، ولا جماد إلا ويلعنه . ولذلك ورد فى الأخبار [1] أن البقعة التى يجتمع فيها الناس إما أن تلعنهم إذا تفرقوا أو تستغفر لهم . وكذلك ورد [2] أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر [3] وأن الملائكة يلعنون العصاة ، فى ألفاظ كثيرة لا يمكن إحصاؤها . وكل ذلك إشارة إلى أن العاصى بتطريفة واحدة جنى على جميع ما فى الملك والملكوت ، وقد أهلك نفسه ، إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها ، فيتبدل اللعن بالاستغفار ، فعسى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام . يا أيوب ، ما من عبد لى من الآدميين إلا ومعه ملكان ، فإذا شكرنى على نعمائى قال الملكان اللهم زده نعما على نعم فإنك أهل الحمد والشكر ، فكن من الشاكرين قريبا ، فكفى بالشاكرين علو رتبة عندى أنى أشكر شكرهم ، وملائكتى يدعون لهم ، والبقاع تحبهم ، والآثار تبكى عليهم .

---

(١) حديث أن البقعة التى اجتمع فيها الناس تلعنهم أو تستغفر لهم : لم أجد له أصلا

(٢) حديث ان العالم ليستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر : تقدم فى العلم

(٣) حديث أن الملائكة يلعنون العصاة : مسلم من حديث أبى هريرة الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى أخيه بحديدة وإن كان أخاه لأبيه وأمه

وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعما كثيرة ، فاعلم أن فى كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين ، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولولم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ،ولو سد متنفسه لاحترق قلبه بانقطاع روح الهواء وبرودته عنه وهلك، بل اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات ، فعليك فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك ، بل فى كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا

ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا[1]) قال . إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان ، أن لينت أصلها ، وأن طمست رأسها وكذا ورد فى الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا فى مطعمه ومشربه ، فقد قل علمه ، وحضر عذابه ، وجميع ماذكرناه يرجع إلى المطعم والمشرب ، فاعتبر ماسواه من النعم به ، فإن البصير لاتقع عينه فى العالم على شىء ولا يلم خاطره بموجود إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل ، فإنه طمع فى غير مطمع

بيان

السبب الصارف للخلق عن الشكر

إعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة . فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم . ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها . ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه . الحمد لله ، الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها ، وهى طاعة الله عز وجل . فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان . أما الغفلة عن النعم فلها أسباب . وأحد أسبابها أن الناس بجهلهم لا يعدون مايعم الخلق ويسلم لهم فى جميع أحوالهم نعمة . فلذلك لا يشكرون على جملة ماذكرناه من النعم ، لأنها عامة للخلق ، مبذولة لهم فى جميع أحوالهم . فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به ، فلا يعده نعمة ، ولا تراهم يشكرون الله على روح

---

(1) النحل : ١٨

الهواء، ولو أخذ بمختنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ؛ ولو حبسوا فى بيت حمام فيه هواء حار ، أو فى بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ، ماتوا غما . فإن ابتلى واحد منهم بشىء من ذلك ثم نجا ، ربما قدّر ذلك نعمة ، وشكر الله عليها . وهذا غاية الجهل . إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب عنهم النعمة ، ثم ترد عليهم فى بعض الأحوال. والنعمة فى جميع الأحوال أولى بأن تشكر فى بعضها . فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا أن تعمى عينه ، فعند ذلك لو أعيد عليه بصره أحس به وشكره ، وعده نعمة . ولما كانت رحمة الله واسعة ، عمم الخلق، و بذل لهم فى جميع الأحوال ، فلم يعده الجاهل نعمة . وهذا الجاهل مثل العبد السوء ، حقه أن يضرب دائما ، حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به منة . فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر ، وترك الشكر : فصار الناس لا يشكرون إلا المال الذى يتطرق الاختصاص اليه من حيث الكثرة والقلة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم ، كما شكا بعضهم فقره إلى بعض أرباب البصائر ، وأظهر شدة اغتمامه به ، فقال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال لا . فقال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال لا. فقال أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا .

وحكي أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرءان سورة الأنعام وأن لك ألف دينار ؟ قال لا . قال فسورة هود ؟ قال لا . قال فسورة يوسف ؟ قال لا . فعدد عليه سورا ثم قال . فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو ! فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السماك على بعض الخلفاء و بيده كوز ماء يشربه . فقال له : عظنى . فقال : لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك ، وإلا بقيت عطشان ، فهل كنت تعطيه ؟ قال نعم . فقال لو لم تعط إلا بملكك كله ، فهل كنت تتركه ؟ قال نعم . قال . فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء . فبهذا تبين أن نعمة الله تعالى على العبد فى شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها . وإذا كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ؛ وقد ذكرنا النعم العامة ، فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة فنقول . مامن عبد إلا ولو أمعن النظر فى أحواله ، رأى من الله

نعمة أو نعما كثيرة تخصه ، لا يشاركه فيها الناس كافة ، بل يشاركه عدد يسير من الناس ، وربما لا يشاركه فيها أحد . وذلك يعترف به كل عبد فى ثلاثة أمور : فى العقل ، والخلق ، والعلم .

أما العقل فما من عبد لله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله ، يعتقد أنه أعقل الناس ، وقل من يسأل الله العقل . وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالى عنه ، كما يفرح به المتصف به . فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس ، فواجب عليه أن يشكره ، لأنه إن كان كذلك فالشكر واجب عليه ، وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة فى حقه ، فمن وضع كنزا تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه ، فإن أخذ الكنز من حيث لا يدرى فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ، ويبقى شكره ، لأنه فى حقه كالباقى . وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها ، وأخلاقا يذمها ، وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا عنها . فإذا لم يشتغل بذم الغير فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى ، إذ حسّن خلقه ، وابتلى غيره بالخلق السيء

وأما العلم ، فما من أحد إلا ويعرف من بواطن أمور نفسه ، وخفايا أفكاره ماهو منفرد به ، ولو كشف الغطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لافتضح . فكيف لو اطلع الناس كافة ! فأذن لكل عبد علم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله . فلمَ لا يشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجميل وستر القبيح ، وأخفى ذلك عن أعين الناس ، وخصص علمه به حتى لا يطلع عليه أحد . فهذه ثلاثة من النعم خاصة ، يعترف بها كل عبد ، إما مطلقا ، وإما فى بعض الأمور . فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول . مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى فى صورته ، أو شخصه أو أخلاقه ، أو صفاته ، أو أهله ، أو ولده ، أو مسكنه ، أو بلده ، أو رفيقه ، أو أقاربه ، أو عزه ، أو جاهه ، أو فى سائر محابه أمورا لو سلب ذلك منه ، وأعطى ماخصص به غيره لكان لا يرضى به . وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا ، وحيا لا جمادا ؛ وإنسانا لا بهيمة وذكرا لا أنثى ، وصحيحا لا مريضا ، وسليما لا معيبا ، فإن كل هذه خصائص ، وإن كان فيها عموم أيضا . فإن هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها . بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا . وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما خص به أحد من الخلق ، أو لا يبدله بما خص به الأكثر . فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره ، فإذاً حاله أحسن من حال

غيره . وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه ، إما على الجملة ، وإما فى أمر خاص ، فإذاً لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه . وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض ، فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده ، فإنه لا محالة يراهم أقل بالإضافة إلى غيرهم ، فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير مما هو فوقه . فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدرى نعم الله تعالى على نفسه ، ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى دنياه بدينه . أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارفها ، يعتذر إليها بأن فى الفساق كثرة ، فينظر أبدا فى الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه ؟ فلم لا يكون نظره فى الدنيا كذلك ؟ فإذا كان حال أكثر الخلق فى الدين خيرا منه ، وحاله فى الدنيا خير من حال أكثر الخلق ، فكيف لا يلزمه الشكر ! ولهذا قال صلى الله عليه وسلم [١] « مَنْ نَظَرَ فِى الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَنَظَرَ فِى الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ كَتَبَهُ اللهُ صَابِراً وَشَاكِراً وَمَنْ نَظَرَ فِى الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ وَفِى الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ صَابِراً وَلَا شَاكِراً »

فإذاً كل من اعتبر حال نفسه ، وفتش عما خص به ، وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لاسيما من خص بالسنة ، والإيمان ، والعلم ، والقرءان ، ثم الفراغ ، والصحة ، والأمن وغير ذلك . ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به ... فى دينه ثم فى دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِآيَاتِ اللهِ فَلاَ أَغْنَاهُ اللهُ » وهذا إشارة إلى نعمة العلم . وقال عليه السلام [٣] « إِنَّ الْقُرْءَانَ هُوَ الْغِنَى الَّذِى لاَ غِنَى بَعْدَهُ وَلاَ فَقْرَ مَعَهُ » وقال عليه السلام [٤] « مَنْ آتَاهُ اللهُ الْقُرْءَانَ فَظَنَّ أَنَّ أَحَدًا أَغْنَى مِنْهُ فَقَدِ اسْتَهْزَأَ بِآيَاتِ اللهِ »

---

(١) حديث من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا الحديث : الترمذى من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف

(٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله : لم أجده بهذا اللفظ

(٣) حديث ان القرءان هو الغناء الذى لا غناء بعده ولا فقر معه : أبو يعلى والطبرانى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ أن القرءان غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطنى رواه أبو معاوية عن الاعمش عن يزيد الرقاشى عن الحسن مرسلا وهو اشبه بالصواب

(٤) حديث من آتاه الله القرءان فظن ان أحدا اغنى منه فقد استهزأ بايات الله : البخارى فى التاريخ من

وقال صلى الله عليه وسلم [١] « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْءَانِ » وقال عليه السلام [٢] « كَفَى بِالْيَقِينِ غِنًى » . وقال بعض السلف . يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة إن عبدا أغنيته عن ثلاثة ، لقد أتممت عليه نعمتى ، عن سلطان يأتيه ، وطبيب يداويه ، وعما فى يد أخيه . وعبر الشاعر عن هذا فقال

إذا ماالقوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات وأفصح الكلمات ، كلام أفصح من نطق بالضاد ، حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال [٣] « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِى سِرْبِهِ مُعَافًى فِى بَدَنِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » . ومهما تأملت الناس كلهم ، وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم ، ولا يشكرون نعمة الله فى هذه الثلاث ، ولا يشكرون نعمة الله عليهم فى الإيمان الذى به وصولهم إلى النعيم المقيم ، والملك العظيم . بل البصير ينبغى أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان . بل نحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من المشرق إلى المغرب ، من أموال وأتباع ، وأنصار ، وقيل له خذها عوضا عن علمك ، بل عن عشر عشير علمك ، لم يأخذه وذلك لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى فى الآخرة . بل لو قيل له لك فى الآخرة ما ترجوه بكماله ، فخذ هذه اللذات فى الدنيا ، بدلا عن التذاذك بالعلم فى الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذه ، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وباقية لا تسرق ، ولا تغصب ، ولا ينافس فيها ، وأنها صافية لا كدورة فيها ، ولذات الدنيا كلها ناقصة ، مكدرة ، مشوشة لا يفى مرجوها بمخوفها ، ولا لذتها بألمها ، ولا فرحها بغمها . هكذا كانت إلى الآن ، وهكذا

حديث رجاء الغنوى بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه وظن ان احدا أوتى افضل مما أوتى فقد صغر أعظم النعم وقد تقدم فى فضل القرءان ورجاء مختلف فى صحبته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة

(١) حديث ليس منا من لم يتغن بالقرءان : تقدم فى آداب التلاوة

(٢) حديث كفى باليقين غنى : الطبرانى من حديث عقبة بن عامر ورواه ابن أبى الدنيا فى القناعة موقوفا عليه وقد تقدم

(٣) حديث من اصبح آمنا فى سربه : الحديث تقدم غير مرة

تكون ما بقى الزمان ، إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع ، حتى إذا انخدعت وتقيدت بها ، أبت عليها واستعصت. كالمرأة الجميل ظاهرها، تتزين للشاب الشبق الغنى، حتى إذا تقيد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه ، فلا يزال معها فى تعب قائم ، وعناء دائم ، وكل ذلك باغتراره بلذة النظر إليها فى لحظة. ولو عقل وغض البصر، واستهان بتلك اللذة، سلم جميع عمره. فهكذا وقعت أرباب الدنيا فى شباك الدنيا وحبائلها . ولا ينبغى أن نقول إن المعرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها . فإن المقبل عليها، أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها ، وتحصيلها ، ودفع اللصوص عنها . وتألم المعرض يفضى إلى لذة فى الآخرة ، وتألم المقبل يفضى إلى الألم فى الآخرة. فليقرأ المعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى (وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ [1]) ، فإذا إنما انسد طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة ، والخاصة والعامة

فإن قلت: فما علاج هذه القلوب الغافلة ؟ حتى تشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر .

فأقول : أما القلوب البصيرة ، فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة . وأما القلوب البليدة التى لا تعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها ، أو شعرت بالبلاء معها فسبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ، ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى، والمقابر ، والمواضع التى تقام فيها الحدود . فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ، ثم يتأمل فى صحته وسلامته ، فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره ببلاء الأمراض ، ويشكر الله تعالى . ويشاهد الجناة الذين يقتلون ، وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ، ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنايات ، ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر ، فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا ، أما من عصى الله فليتدارك ، وأما من أطاع فليزد فى طاعته ، فإن يوم القيامة يوم التغابن . فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات ، فما أعظم غبنى إذ ضيعت بعض الأوقات فى المباحات . وأما العاصى فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر ، وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقى لهم من العمر ما بقى له ،

---

(1) النساء : ١٠٤

فيصرف بقية العمر إلى ما يشتهى أهل القبور العود لأجله ، ليكون ذلك معرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر ، بل فى الإمهال فى كل نفس من الأنفاس . وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله ، وهو التزود من الدنيا للآخرة .

فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فعساها تشكر . وقد كان الربيع ابن خيثم مع تمام استبصاره ، يستعين بهذه الطريق تأكيدا للمعرفة . فكان قد حفر فى داره قبراً ، فكان يضع غلا فى عنقه ، وينام فى لحده ثم يقول : (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا [١]) ثم يقوم ويقول : ياربيع ، قد أعطيت ما سألت ، فاعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . ومما ينبغى أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم : وقال بعض السلف : النعم وحشية فقيدوها بالشكر . وفى الخبر [١] ماعظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ [٢]) فهذا تمام هذا الركن

الركن الثالث

من كتاب الصبر والشكر فيما يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر

بيان

وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد

لعلك تقول ماذكرته فى النعم إشارة إلى أن لله تعالى فى كل موجود نعمة ، وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا . فما معنى الصبر إذاً ؟ وإن كان البلاء موجودا فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء ، فضلا عن الشكر على النعمة ،

---

(١) حديث ماعظمت نعمة الله على عبد الا كثرت حوائج الناس اليه ـ الحديث : ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ الاعظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث : ورواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث ابن عباس وقال انه موضوع على حجاج الأعور

(١) المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠ (٢) الرعد : ١١

فكيف يتصور الشكر على البلاء؟ وكيف يشكر على ما يصبر عليه! والصبر على البلاء يستدعي ألما، والشكر يستدعي فرحا، وهما يتضادان؟ وما معنى ما ذكرتموه من أن لله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده؟ . فاعلم أن البلاء موجود، كما أن النعمة موجودة، والقول بإثبات النعمة، يوجب القول بإثبات البلاء، لأنهما متضادان. ففقد البلاء نعمة، وفقد النعمة بلاء. ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه، أما في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى، وأما في الدنيا فكالإيمان وحسن الخلق وما يعين عليهما، وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه، كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويفسدة من وجه. فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد

أما المطلق في الآخرة، فالبعد من الله تعالى إما مدة وإما أبدا. وأما في الدنيا، فالكفر والمعصية، وسوء الخلق، وهي التي تفضي إلى البــــلاء المطلق . وأما المقيد فكالفقر، والمرض، والخوف، وسائر أنواع البلاء التي لا تكون في بلاء الدين بل في الدنيا

فالشكر المطلق للنعمة المطلقة. وأما البلاء المطلق في الدنيا، فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء، ولا معنى للصبر عليه: وكذا المعصية. بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي. نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر، فيكون كمن به علة، وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه، والعاصي يعرف أنه عاص، فعليه ترك المعصية. بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه. فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش، حتى عظم تألمه، فلا يؤمر بالصبر عليه، بل يؤمر بإزالة الألم. وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته . فإذاً يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه. فلذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر. فإن الغنى مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الإنسان، حتى يقصد بسبب ماله، فيقتل وتقتل أولاده. والصحة أيضا كذلك. فما من نعمة من هذه النعم الدنيوية إلا ويجوز أن تصير بلاء، ولكن بالإضافة إليه. فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة، ولكن بالإضافة إلى حاله. فرب عبد تكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صح بدنه وكثر ماله

لبطر وبغى . قال الله تعالى (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ[١]) وقال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى[٢]) وقال صلى الله عليه وسلم[١] « إنّ الله لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ » وكذلك الزوجة، والولد، والقريب

وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم ، سوى الإيمان وحسن الخلق ، فإنها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس ، فتكون أضدادها إذاً نعما في حقهم ، إذ قد سبق أن المعرفة كمال ونعمة ، فإنها صفة من صفات الله تعالى ، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ، ويكون فقدها نعمة . مثاله جهل الإنسان بأجله ، فإنه نعمة عليه . إذ لو عرفه ربما تنغص عليه العيش ، وطال بذلك غمه . وكذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه ، إذ لو رفع الستر وأطلع عليه ، لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام . وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه ، إذ لو عرفها أبغضه وآذاه ، وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة . بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه ، فإنه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانته ، ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لا محالة أعظم ، فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف

ومنها إبهام الله تعالى أمر القيامة ، وإبهامه ليلة القدر ، وساعة يوم الجمعة ، وإبهامه بعض الكبائر ، فكل ذلك نعمة ، لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد .

فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم . وحيث قلنا إن لله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ، ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس ، وهي أيضا قد تكون نعمة في حق سالم بها فإن لم تكن نعمة في حقه ، كالألم الحاصل من المعصية ، كقطعه يد نفسه ، ووشمه بشرته ، فإنه يتألم به وهو عاص به . وألم الكفار في النار فهو أيضاً نعمة ، ولكن في حق غيرهم من العباد لا في حقهم ، لأن مصائب قوم عند قوم فوائد . ولولا أن الله تعالى خلق العذاب ، وعذب به طائفة ، لما عرف المتنعمون قدر نعمه ، ولا كثر فرحهم بها . ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا

---

(١) حديث ان الله ليحمى عبده الدنيا ــ الحديث : الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم

(١) الشورى : ٢٧ (٢) العلق : ٦

فى آلام أهل النار . أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها ، من حيث إنها عامة مبذولة . ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء ، وهى أحسن من كل بستان لهم فى الأرض يجتهدون فى عمارته ، ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ، ولم يفرحوا بسببها : فإذاً قد صح ماذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ، ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة ، إما على جميع عباده ، أو على بعضهم . فإذاً فى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا ، إما على المبتلى ، أو على غير المبتلى . فإذاً كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ، ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان ، الصبر والشكر جميعاً . فإن قلت فهما متضادان فكيف يجتمعان ؟ إذ لا صبر إلا على غم . ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد يغتم به من وجه ، و يفرح به من وجه آخر . فيكون الصبر من حيث الاغتمام ، والشكر من حيث الفرح . وفى كل فقر ، ومرض ، وخوف ، و بلاء فى الدنيا خمسة أمور ، ينبغي أن يفرح العاقل بها ، ويشكر عليها . أحدها : أن كل مصيبة ومرض فيتصور أن يكون أكبر منها . إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو ضعفها الله تعالى وزادها ماذا كان يرده ويحجزه فليشكر . إذ لم تكن أعظم منها فى الدنيا .

الثانى : أنه كان يمكن أن تكون مصيبته فى دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه : دخل اللص بيتى وأخذ متاعي . فقال : اشكر الله تعالى . لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام فى دعائه إذ قال . اللهم لا تجعل مصيبتى فى دينى . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى علىّ فيه أربع نعم : إذ لم يكن فى دينى ، وإذ لم يكن أعظم منه ، وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال له : اشكر الله فضربه ، فأرسل إليه يعلمه ويشكو إليه ، فقال اشكر الله . فجيء بمجوسى فحبس عنده ، وكان مبطونا ، فقيد وجعل حلقة من قيده فى رجله . وحلقه فى رجل المجوسى : فأرسل إليه ، فقال اشكر الله . فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات ، وهو يحتاج أن يقوم معه ، ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته ، فكتب إليه بذلك ، فقال اشكر الله ، فقال إلى متى هذا ؟ وأى بلاء أعظم من هذا ؟ فقال

لو جعل الزنار الذى فى وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع ؟ . فإذاً ما من إنسان قد أصيب ببلاء ، إلا ولو تأمل حق التأمل فى سوء أدبه ظاهرا وباطنا فى حق مولاه ، لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ، ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط ، فاقتصر على عشرة ، فهو مستحق للشكر . ومن استحق عليك أن يقطع يديك ، فترك إحداهما ، فهو مستحق للشكر . ولذلك مر بعض الشيوخ فى شارع ، فصب على رأسه طشت من رماد . فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له ماهذه السجدة ؟ فقال كنت أنتظر أن تصب على النار ، فالاقتصار على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم . ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار ؟ فقال أنتم تستبطئون المطر وأنا أستبطىء الحجر .

فإن قلت : كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتى ، ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خبىء له ماهو أكثر . وإنما أمهل حتى يستكثر من الإثم ، ويطول عليه العقاب ، كما قال تعالى (إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا [1]) .

وأما العاصى ، فمن أين تعلم أن فى العالم من هو أعصى منه ؟ ورب خاطر بسوء أدب فى حق الله تعالى وفى صفاته ، أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصى بالجوارح . ولذلك قال تعالى فى مثله (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ [2]) فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ؟ ثم لعله قد أخرت عقوبته إلى الآخرة ، وعجلت عقوبتك فى الدنيا . فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك ؟ وهذا هو الوجه الثالث فى الشكر ، وهو أنه ما من عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ، ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة ، فيخف وقعها . ومصيبة الآخرة تدوم . وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى ، إذ أسباب التسلى مقطوعة بالكلية فى الآخرة عن المعذبين . ومن عجلت عقوبته فى الدنيا فلا يعاقب ثانيا ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَصَابَتْهُ شِدَّةٌ

(١) حديث ان العبد اذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء فى الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانيا : الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب فى الدنيا ذنبا عوقب به فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ـ الحديث : لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فعجل عقوبته فى الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له ـ الحديث :

(١) آل عمران : ١٧٨ (٢) النور : ١٥

أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَذِّبَهُ ثَانِيًا »

الرابع : أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب، وكان لا بد من وصولها إليه ، وقد وصلت ، ووقع الفراغ ، واستراح من بعضها أو من جميعها ، فهذه نعمة

الخامس : أن ثوابها أكثر منها فإن مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين :

أحدهما : الوجه الذي يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ، ويكون المنع من أسباب اللعب نعمة في حق الصبي . فإنه لو خلي واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب ، فكان يخسر جميع عمره . فكذلك المال ، والأهل ، والأقارب ، والأعضاء ، حتى العين التي هي أعز الأشياء ، قد تكون سببا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال . بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه . فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صبيانا ، ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى . فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية . فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ، ويقدر فيه الخيرة ، ويشكره عليه . فإن حكمة الله واسعة ، وهو بمصالح العباد أعلم من العباد ، وغدا يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا ، كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذه وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب . والبلاء من الله تعالى تأديب ، وعنايته بعباده أتم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد ، فقد روي[1] أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال « لَا تَتَّهِمِ اللَّهَ فِي شَيْءٍ قَضَاهُ عَلَيْكَ » [2] ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك ، فسئل فقال « عَجِبْتُ لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ إِنْ قَضَى لَهُ بِالسَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ قَضَى لَهُ بِالضَّرَّاءِ رَضِيَ وَكَانَ خَيْرًا لَهُ »

الوجه الثاني : أن رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا . ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب

---

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تتهم الله في شيء قضاه عليك أحمد : والطبراني من حديث عبادة بزيادة في أوله وفي اسناده ابن لهيعة

(٢) حديث نظر الى السماء فضحك فسئل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن ـ الحديث : مسلم من حديث صهيب دون نظره الى السماء وضحكه عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وللنسائي في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضاء الله للمؤمن ان أصابه خير حمد ربه وشكر ـ الحديث :

عن دار الغرور . ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها ، وأنسه بها ، حتى تصير كالجنة فى حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته : وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ، ولم يسكن إليها ، ولم يأنس بها ، وصارت سجنا عليه ، وكانت نجاته منها غاية اللذة كالخلاص من السجن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [1] « الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ورضى بها ، واطمأن إليها . والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا ، شديد الحنين إلى الخروج منها . والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفى . وبقدر حب الدنيا فى القلب يسرى فيه الشرك الخفى . بل الموحد المطلق هو الذى لا يحب إلا الواحد الحق . فإذاً فى البلاء نعم من هذا الوجه ، فيجب الفرح به . وأما التألم فهو ضرورى . وذلك يضاهى فرحك عند الحاجة إلى الحجامة بمن يتولى حجامتك مجانا ، أو يسقيك دواء نافعا بشعا مجانا . فإنك تتألم وتفرح ، فتصبر على الألم ، وتشكره على سبب الفرح . فكل بلاء فى الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذى يؤلم فى الحال ، وينفع فى المآل . بل من دخل دار ملك للنظارة ، وعلم أنه يخرج منها لا محالة ، فرأى وجها حسنا لا يخرج معه من الدار ، كان ذلك وبالا وبلاء عليه ، لأنه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه . ولو كان عليه فى المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه ، فأصابه ما يكرهه حتى نفره عن المقام ، كان ذلك نعمة عليه . والدنيا منزل ، وقد دخلها الناس من باب الرحم ، وهم خارجون عنها من باب اللحد ، فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء ، وكل ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة . فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلايا . ومن لم يعرف هذه النعم فى البلاء لم يتصور منه الشكر ، لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة . ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة .

وحكي أن أعرابيا عزى ابن عباس على أبيه فقال :

إصبر نكن بك صابرين فإنما ... صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعده ... والله خير منك للعباس

---

(١) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر : مسلم من حديث أبى هريرة وقد تقدم

فقال ابن عباس : ماعزاني أحد أحسن من تعزيته . والأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة . قال رسول الله صلى الله عليه[1] وسلم «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ» وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ تَعَالَى إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي مُصِيبَةً فِي بَدَنِهِ أَوْ مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ ذَلِكَ بِصَبْرٍ جَمِيلٍ اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزَانًا أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيوَانًا » وقال عليه السلام « مَامِنْ عَبْدٍ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ[1]) اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَعْقِبْنِي خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ فَعَلَ اللهُ ذَلِكَ بِهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « قَالَ اللهُ تَعَالَى مَنْ سَلَبْتُ كَرِيمَتَيْهِ فَجَزَاؤُهُ الْخُلُودُ فِي دَارِي وَالنَّظَرُ إِلَى وَجْهِي » . وروى[2] أن رجلا قال يارسول الله ، ذهب مالي وسقم جسمي . فقال صلى الله عليه وسلم « لاَخَيْرَ فِي عَبْدٍ لاَيَذْهَبُ مَالُهُ وَلاَ يَسْقَمُ جِسْمُهُ إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ابْتَلاَهُ وَإِذَا ابْتَلاَهُ صَبَّرَهُ »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] « إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونُ لَهُ الدَّرَجَةُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى لاَيَبْلُغُهَا بِعَمَلٍ حَتَّى يُبْتَلَى بِبَلاَءٍ فِي جِسْمِهِ فَيَبْلُغُهَا بِذَلِكَ » وعن[4] خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكونا إليه ، فقلنا يارسول الله ، ألا تدعو الله تستنصره لنا؟ فجلس محمرًا لونه ثم قال « إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ لَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ

---

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصب منه : البخاري من حديث أبي هريرة

(٢) حديث أن رجلا قال يارسول الله ذهب مالي وسقم جسدي فقال لاخير في عبد لايذهب ماله ولا يسقم جسده ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه واذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري باسناد فيه لين

(٣) حديث ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله لايبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية اللؤلؤي ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه الا أبو المليح الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عن خالد الا ابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منده سمى جده اللجلاج بن سليم فالله أعلم وعلى هذا فابنه خالد بن اللجلاج هو غير خالد بن اللجلاج العامري ذاك المشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منده وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي اياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية ابراهيم السلمي عن أبيه عن جده فالله أعلم

(٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكونا اليه ـ الحديث : تقدم

---

(١) البقرة : ١٥٦ (٢) الزمر : ١٠

فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ حُفَيْرَةٌ وَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ فِرْقَتَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » . وعن عليّ كرم الله وجهه قال . أيما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد . وإن ضربه فمات فهو شهيد ، وقال عليه السلام « مِنْ إِجْلَالِ اللهِ وَمَعْرِفَةِ حَقِّهِ أَنْ لَا تَشْكُوَ وَجَعَكَ وَلَا تَذْكُرَ مُصِيبَتَكَ » وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه . تولدون للموت ، وتعمرون للخراب ، وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى . ألا حبذا المكروهات الثلاث ، الفقر ، والمرض ، والموت ، . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا وَأَرَادَ أَنْ يُصَافِيَهُ صَبَّ عَلَيْهِ الْبَلَاءَ صَبًّا وَثَجَّهُ عَلَيْهِ ثَجًّا فَإِذَا دَعَاهُ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ صَوْتٌ مَعْرُوفٌ وَإِنْ دَعَاهُ ثَانِيًا فَقَالَ يَارَبِّ قَالَ اللهُ تَعَالَى لَبَّيْكَ عَبْدِي وَسَعْدَيْكَ لَا تَسْأَلُنِي شَيْئًا إِلَّا أَعْطَيْتُكَ أَوْ دَفَعْتُ عَنْكَ مَا هُوَ خَيْرٌ وَادَّخَرْتُ لَكَ عِنْدِي مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جِيءَ بِأَهْلِ الْأَعْمَالِ فَوُفُّوا أَعْمَالَهُمْ بِالْمِيزَانِ أَهْلِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْحَجِّ ثُمَّ يُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرُ صَبًّا كَمَا كَانَ يُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْبَلَاءُ صَبًّا فَيَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا لَوْ أَنَّهُمْ كَانَتْ تُقْرَضُ أَجْسَادُهُمْ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ مَا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الثَّوَابِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١))» . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال . شكا نبي من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه ، فقال يارب ، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك ، تزوى عنه الدنيا ، وتعرض له البلاء . ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترىء عليك وعلى معاصيك ، تزوى عنه البلاء ، وتبسط له الدنيا . فأوحى الله تعالى إليه ، إن العباد لى ، والبلاء لى ، وكل يسبح بحمدى . فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوى

---

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعبد خيرا وأراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا ـ الحديث : ابن أبي الدنيا فى كتاب المرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فاذا كان يوم القيامة الى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني فى الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف

(١) الزمر ١٠

عنه الدنيا ، وأعرض له البلاء ، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى فأجزيه بحسناته. ويكون الكافر له الحسنات ، فأبسط له فى الرزق ، وأزوى عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته فى الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته . وروى أنه [١] لما نزل قوله تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ [١]) قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه . كيف الفرح بعد هذه الآية ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ الأَذَى أَلَسْتَ تَحْزَنُ فَهَذَا مِمَّا تُجْزَوْنَ بِهِ » يعنى أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك

وعن [٢] عقبة بن عامر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يُعْطِيهِ اللهُ مَا يُحِبُّ وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَتِهِ فَاعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ » ثم قرأ قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ [٢]) يعنى لما تركوا ما أمروا به ، فتحنا عليهم أبواب الخير ، (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا [٣]) أى بما أعطوا من الخير (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً [٤])

وعن [٣] الحسن البصرى رحمه الله ، أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها فى الجاهلية . فكلمها ثم تركها فجعل الرجل يلتفت إليها وهو يمشى ، فصدمه حائط فأثر فى وجهه ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِى الدُّنْيَا » . وقال على كرم الله وجهه . ألا أخبركم بأرجى آية فى القرءان؟ قالوا بلى . فقرأ عليهم (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

---

(١) حديث لما نزل قوله تعالى من يعمل سوءا يجزبه : قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ـ الحديث : من رواية من لم يسم عن ابى بكر ورواه الترمذى من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له اسناد صحيح وقال الدار قطنى وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شىء يثبت

(٢) حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث : أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب بسند حسن

(٣) حديث الحسن البصرى فى الرجل الذى رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشى فصدمه حائط الحديث : وفيه إذا أراد الله بعبد خيرا عجل له عقوبة ذنبه فى الدنيا أحمد والطبرانى باسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مغفل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبرانى أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذى وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذى

---

(١) النساء : ١٢٣ (٢ ، ٣ ، ٤) الأنعام : ٤٤

وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [1])فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عاقبه الله في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً، و إن عفا عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة

وعن [1] أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ قَطُّ جُرْعَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ رَدَّهَا بِحِلْمٍ وَجُرْعَةِ مُصِيبَةٍ يَصْبِرُ الرَّجُلُ لَهَا وَلَا قَطَرَتْ قَطْرَةٌ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ قَطْرَةِ دَمٍ أُهْرِيقَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ قَطْرَةِ دَمْعٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ وَهُوَ سَاجِدٌ وَلَا يَرَاهُ إِلَّا اللهُ وَمَا خَطَا عَبْدٌ خَطْوَتَيْنِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنْ خَطْوَةٍ إِلَى صَلَاةِ الْفَرِيضَةِ وَخَطْوَةٍ إِلَى صِلَةِ الرَّحِمِ »

وعن أبي الدرداء قال: توفي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام، فوجد عليه وجداً شديداً. فأتاه ملكان، فجثيا بين يديه في زي الخصوم. فقال أحدهما. بذرت بذراً فلما استحصد مر به هذا فأفسده. فقال للآخر ماتقول؟ فقال. أخذت الجادة، فأتيت على زرع، فنظرت يميناً وشمالا فإذا الطريق عليه. فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق؟ أما علمت أن لا بد للناس من الطريق؟ قال فلم تحزن على ولدك؟ أما علمت أن الموت سبيل الآخرة؟ فتاب سليمان إلى ربه، ولم يجزع على ولده بعد ذلك. ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض، فقال: يابني، لأن تكون في ميزاني أحب إليّ من أن أكون في ميزانك. فقال ياأبت، لأن يكون ماتحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال: عورة سترها الله تعالى، ومؤنة كفاها الله، وأجر قدساقه الله. ثم نزل فصلى ركعتين ثم قال: قد صنعنا ماأمر الله تعالى. قال تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ [2])

وعن ابن المبارك أنه مات له ابن، فعزاه مجوسي يعرفه فقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل

---

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ـ الحديث: أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث على بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر ـ الحديث: وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل ـ الحديث: وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث:

---

(١) الشورى: ٣٠ (٢) البقرة: ٤٥

اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام . فقال ابن المبارك . اكتبوا عنه هذه

وقال بعض العلماء . إن الله ليبتلى العبد بالبلاء بعد البلاء، حتى يمشى على الأرض وماله ذنب

وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير

وقال حاتم الأصم : إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس . على الأغنياء بسليمان ، وعلى الفقراء بالمسيح ؛ وعلى العبيد بيوسف ، وعلى المرضى بأيوب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بنى اسرائيل ، واختفى فى الشجرة ، فعرفوا ذلك ، فجىء بالمنشار ، فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا ، فأنّ منه أنّة ، فأوحى الله تعالى إليه ، يازكريا لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحونك من ديوان النبوة . فعض زكريا عليه السلام على الصبر حتى قطع شطرين

وقال أبو مسعود البلخى : من أصيب بمصيبة فمزق ثوبا ، أو ضرب صدرا ، فكأنما أخذ رمحا يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه . يابنى ، إن الذهب يجرب بالنار ، والعبد الصالح يجرب بالبلاء . فإذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط . وقال الأحنف بن قيس : أصبحت يوما اشتكى ضرسى ، فقلت لعمى : مانمت البارحة من وجع الضرس ، حتى قلتها ثلاثا . فقال : لقد أكثرت من ضرسك فى ليلة واحدة ، وقد ذهبت عينى هذه منذ ثلاثين سنة ماعلم بها أحد

وأوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام ، إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلقى ، واشك إلىّ ، كما لا أشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضائحك . نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل فى الدنيا والآخرة

بيان

فضل النعمة على البلاء

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير فى الدنيا من النعم ، فهل لنا أن نسأل الله البلاء؟ فأقول لا وجه لذلك ، لما روي عن رسول الله [1] صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يستعيذ

---

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ فى دعائه من بلاء الدنيا والآخرة : أحمد من حديث بشر بن

في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة [1] . وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً) [2] وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيرها [3] . وقال عليّ كرم الله وجهه . اللهم إني أسألك الصبر . فقال صلى الله عليه وسلم « لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ الْبَلَاءَ فَاسْأَلْهُ الْعَافِيَةَ » وروى [4] الصديق رضي الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ فَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ إِلَّا الْيَقِينَ » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك . فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله . الخير الذي لا شر فيه ، العافية مع الشكر . فكم من منعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله . لأن أعافى فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر وقال صلى الله عليه وسلم [5] في دعائه « وَعَافِيَتُكَ أَحَبُّ إِلَيَّ »

وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد . وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما : بالإضافة إلى ما هو أكثر منه ، إما في الدنيا أو في الدين ، والآخر : بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب . فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة في الدنيا ، ودفع ما فوقه من البلاء ،

أبي ارطاة بلفظ أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولأبي داود من حديث عائشة اللهم اني أعوذبك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالعنعنة

(١) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آتنا في الدنيا ـ الحديث . ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا اتنا ـ الحديث

(٢) حديث كان يستعيذ من شماتة الأعداء : تقدم في الدعوات

(٣) حديث قال علي رضي الله عنه اللهم اني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم لقد سألت الله البلاء فسله العافية : الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وانما قال سمع رجلا وله وللنسائي في اليوم والليلة من حديث علي كنت ساكنا فمر بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول ـ الحديث . وفيه فان كان بلاء فصبرني فضربه برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن صحيح

(٤) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية ـ الحديث . ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة باسناد جيد وقد تقدم

(٥) حديث وعافيتك أحب الي : ذكره ابن اسحاق في السيرة في دعائه يوم خرج الى الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسلا ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسندا وفيه من يجهل

---

(٦) البقرة : ٢٠١

ويسأله الثواب فى الآخرة على الشكر على نعمة ، فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه على الصبر . فإن قلت : فقد قال بعضهم : أود أن أكون جسراً على النار يعبر عليّ الخلق كلهم فينجون ، وأكون أنا فى النار ، وقال سمنون رحمه الله تعالى

وليس لى فى سواك حظ فكيفما شئت فاختبرنى

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء . فاعلم أنه حكي عن سمنون المحب رحمه الله أنه بُلِيَ بعد هذا البيت بعلة الحصر ، فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب. وأما محبة الإنسان ليكون هو فى النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تغلب المحبة على القلب ، حتى يظن المحب بنفسه حبا لمثل ذلك . فمن شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع فى الكلام . ولو زايله سكره علم أن ما غلب عليه كان حالة لا حقيقة لها . فما سمعته من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط حبهم وكلام العشاق يستلذ سماعه ، ولا يعول عليه . كما حكي أن فاختة كان يراودها زوجها فمنعته ، فقال ما الذى يمنعك عنى ؟ ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لأجلك . فسمعه سليمان عليه السلام ، فاستدعاه وعاتبه ، فقال ، يا نبيّ الله ، كلام العشاق لا يحكى . وهو كما قال . وقال الشاعر

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ، ومعناه أنى أريد ما لا يريد ، لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين. أحدهما : أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتسب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال ، فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا ، والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب ، والوسيلة إلى المحبوب محبوبة . فيكون مثاله مثال محب المال إذا أسلم درهما في درهمين ، فهو بحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال . الثانى : أن يصير رضاه عنده مطلوبا من حيث أنه رضاه فقط ، ويكون له لذة فى استشعاره رضا محبوبه منه ، تزيد تلك اللذة على لذته فى مشاهدته مع كراهته . فعند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استشعارهم رضا الله عنهم ، أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا . فهؤلاء إذا قدروا رضاه فى البلاء

صار البلاء أحب إليهم من العافية . وهذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحب ، ولكنها لا تثبت . وإن ثبتت مثلا فهل هي حالة صحيحة ، أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال ؟ هذا فيه نظر ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه . وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء ، فنسأل الله تعالى المان بفضله على جميع خلقه ، العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة ، لنا ولجميع المسلمين

بيان

الأفضل من الصبر والشكر

اعلم أن الناس اختلفوا في ذلك . فقال قائلون الصبر أفضل من الشكر ، وقال آخرون الشكر أفضل ، وقال آخرون هما سيان ، وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال ، واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب ، بعيد عن التحصيل ، فلا معنى للتطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحق أولى . فنقول في بيان ذلك مقامان . المقام الأول : البيان على سبيل التساهل . وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ، ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته . وهو البيان الذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق ، لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة . وهذا الفن من الكلام هو الذي ينبغي أن يعتمده الوعاظ . إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم . والظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح الصبي الطفل بالطيور السمان وضروب الحلاوات ، بل باللبن اللطيف . وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير محتملا لها بقوته ، ويفارق الضعف الذي هو عليه في بنيته . فنقول هذا المقام في البيان يأبى البحث والتفصيل ، ومقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع وذلك يقتضي تفضيل الصبر . فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة في فضله ، فإذا أضيف إليه ما ورد في فضيلة الصبر ، كانت فضائل الصبر أكثر . بل فيه ألفاظ صريحة في التفضيل ، كقوله صلى الله عليه وسلم (١) « مِنْ أَفْضَلِ مَا أُوتِيتُمْ الْيَقِينُ وَعَزِيمَةُ الصَّبْرِ » وفي الخبر (٢) « يُؤْتَى بِأَشْكَرِ أَهْلِ الأَرْضِ

---

(١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم

(٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث : لم أجد له أصلا

فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كلا أنعمت عليه فشكر وابتليتك فصبرت لأضعفن لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » وقد قال الله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب [(١)]) . وأما قوله [(٢)] « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » فهو دليل على أن الفضيلة فى الصبر ، إذ ذكر ذلك فى معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته . ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر . لما كان إلحاق الشكر به مبالغة فى الشكر . وهو كقوله صلى الله عليه وسلم [(٣)] « الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل » وكقوله صلى الله عليه وسلم [(٤)] « شارب الخمر كعابد الوثن » وأبداً المشبه به ينبغى أن يكون أعلى رتبة ، فكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان » لايدل على أن الشكر مثله وهو كقوله عليه السلام « الصوم نصف الصبر » فإن كل ماينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفا ، وإن كان بينهما تفاوت. كما يقال الإيمان هو العلم والعمل . فالعمل هو نصف الإيمان . فلايدل ذلك على أن العمل يساوى العلم . وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم [(٥)] « آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه

---

(١) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم
(٢) حديث الجمعة حج المساكين وجهاد المرأة حسن التبعل : الحارث بن أبى أسامة فى مسنده بالشطر الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبرانى بالشطر الثانى من حديثه بسند ضعيف أيضا أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفى رواية ما جزاء غزوة المرأة قال طاعة الزوج .. الحديث. وفيه القاسم ابن فياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقى رجاله ثقات
(٣) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبى هريرة بلفظ مدمن الخمر ورواه بلفظ شارب الحارث بن أبى أسامة من حديث عبد الله بن عمرو وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبى هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصبهانى
(٤) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن ابن عوف لمكان غناه : الطبرانى فى الاوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل

---

(١) الزمر : ١٠

وَآخِرُ أَصْحَابِى دُخُولاً الْجَنَّةَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ لِمَكَانِ غِنَاهُ » وفى خبر آخر (١) « يَدْخُلُ سُلَيْمَانُ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا » وفى الخبر (٢) « أَبْوَابُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا مِصْرَاعَانِ إِلَّا بَابَ الصَّبْرِ فَإِنَّهُ مِصْرَاعٌ وَاحِدٌ وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُهُ أَهْلُ الْبَلَاءِ أَمَامَهُمْ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ »

وكل ماورد فى فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر ، لأن الصبر حال الفقير ، والشكر حال الغنى . فهذا هو المقام الذى يقنع العوام ، ويكفيهم فى الوعظ اللائق بهم . والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثانى : هو البيان الذى نقصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور ، بطريق الكشف والإيضاح ، فنقول فيه . كل أمر بين مبهمين لا تمكن الموازنة بينهما مع الأبهام مالم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما . وكل مكشوف يشتمل على أقسام ، لا تمكن الموازنة بين الجملة والجملة ، بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة ، فلا يتبين حكمهما فى الرجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أن هذه المقامات تنتظم من أمور ثلاثة ، علوم ، وأحوال ، وأعمال . والشكر والصبر وسائر المقامات هي كذلك . وهذه الثلاثة . إذا وزن البعض منها بالبعض ، لاح للناظرين فى الظواهر أن العلوم تراد للأحوال ، والأحوال تراد للأعمال والأعمال هي الأفضل . وأما أرباب البصائر ، فالأمر عندهم بالعكس من ذلك . فإن الأعمال

داود وسليمان الجنة بأربعين عاما وقال لم يروه إلا الشعيب بن خالد وهو كوفى ثقة وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمتى عبد الرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف

(١) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفا : تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشى أحد الكذابين على أنس والحديث منكر

(٢) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فانه باب واحد ـ الحديث : لم أجد له أصلا ولا فى الأحاديث الواردة فى مصاريع أبواب الجنة تفرقة فروى مسلم من حديث أنس فى الشفاعة والذى نفس محمد بيده ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى وفى الصحيحين فى خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام

تراد للأحوال ، والأحوال تراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ، ثم الأحوال ، ثم الأعمال ، لأن كل مراد لغيره ، فذلك الغير لامحالة أفضل منه ، وأما آحاد هذه الثلاثة ، فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض . وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف . وأفضل المعارف علوم المكاشفة ، وهي أرفع من علوم المعاملة . بل علوم المعاملة دون المعاملة ، لأنها تراد للمعاملة ، ففائدتها إصلاح العمل ، وإنما فضل العالم بالمعاملة على العابد ، إذا كان علمه مما يعم نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل ، وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر . فنقول . فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب . وفائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله تعالى فى ذاته ، وصفاته وأفعاله . فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه ، وهي الغاية التى تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها . بل هي عين السعادة . ولكن قد لا يشعر القلب فى الدنيا بأنها عين السعادة ، وإنما يشعر بها فى الآخرة فهي المعرفة الحرة التى لا قيد عليها ، فلا تتقيد بغيرها ، وكل ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها ، فإنها إنما تراد لأجلها ، ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها فى الإفضاء إلى معرفة الله تعالى ، فإن بعض المعارف يفضى إلى بعض ، إما بواسطة أو بوسائط كثيرة . فكلما كانت الوسائط بينه وبين معرفة الله تعالى أقل ، فهي أفضل » وأما الأحوال ، فنعني بها أحوال القلب فى تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وشواغل الخلق ، حتى إذا طهر وصفا اتضح له حقيقة الحق ، فإذاً فضائل الأحوال بقدر تأثيرها فى إصلاح القلب ، وتطهيره ، وإعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة . وكما أن تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال للمرآة ، بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض ، فكذلك أحوال القلب . فالحالة القريبة أو المقربة من صفاء القلب هي أفضل مما دونها لامحالة بسبب القرب من المقصود . وهكذا ترتيب الأعمال ، فإن تأثيرها فى تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه . وكل عمل إما أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة، موجبة لظلمة القلب ، جاذبة إلى زخارف الدنيا . وإما أن يجلب إليه حالة مهيئة للمكاشفة ، موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه ، واسم الأول المعصية، واسم الثانى الطاعة والمعاصى من حيث التأثير فى ظلمة القلب وقساوته متفاوتة . وكذا الطاعات فى تنوير

القلب و تصفيته . فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها ذلك يختلف باختلاف الأحوال .وذلك أنا بالقول المطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة ، وأن الحج أفضل من الصدقة ، وأن قيام الليل أفضل من غيره . ولكن التحقيق فيه أن الغني الذى معه مال ،وقد غلبه البخل وحب المال على إمساكه ، فإخراج الدرهم له أفضل من قيام ليالٍ وصيام أيام ؛ لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها ، أومنعه الشبع عن صفاء الفكر من علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع . فأما هذا المدبّر إذا لم تكن حاله هذه الحال ، فليس يستضر بشهوة بطنه ، ولاهو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه . فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره . وهو كالمريض الذى يشكو وجع البطن ، إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به . بل حقه أن ينظر فى المهلك الذى استولى عليه . والشح المطاع من جملة المهلكات ، ولا يزيل صيام مائة سنة ، وقيام ألف ليلة منه ذرة . بل لا يزيله إلا إخراج المال . فعليه أن يتصدق بما معه . وتفصيل هذا ما ذكرناه فى ربع المهلكات ، فليرجع إليه

فإذاً باعتبار هذه الأحوال يختلف . وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب المطلق فيه خطأ . إذ لو قال لنا قائل الخبز أفضل أم الماء ، لم يكن فيه جواب حق ، إلا أن الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل . فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب . فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل ، وإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، فإن تساويا فهما متساويان . وكذا إذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب اللينوفر ، لم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا . نعم لو قيل لنا السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ، فنقول عدم الصفراء ، لأن السكنجبين مرادٌ له ، وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة . فإذاً فى بذل المال عمل ، وهو الإنفاق ، ويحصل به حال ، وهو زوال البخل ، وخروج حب الدنيا من القلب .ويتهيأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وحبه . فالأفضل المعرفة ، ودونها الحال ، ودونها العمل

فإن قلت: فقد حث الشرع على الأعمال ، وبالغ فى ذكر فضلها . حتى طلب الصدقات بقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا[1]) وقال تعالى (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ[2]) فكيف لا يكون الفعل والإنفاق هو الأفضل ؟ . فاعلم أن الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على

(١) البقرة : ٢٤٥ (٢) التوبة : ١٠٤

أن الدواء مراد لعينه ، أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ، ومرض القلوب مما لايشعر به غالبا . فهو كبرص على وجه من لامرآة معه ، فإنه لايشعر به ، ولو ذكر له لايصدق به ، والسبيل معه المبالغة فى الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلا ، إن كان ماء الورد يزيل البرص ، حتى يستحثه فرط الثناء على المواظبة عليه ، فيزول مرضه . فإنه لو ذكر له أن المقصود زوال البرص عن وجهك ، ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لاعيب فيه : ولنضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرءان ، وأراد أن يثبت ذلك فى حفظه بحيث لايزول عنه ، وعلم أنه لو أمره بالتكرار والدراسة ليبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ، ولا حاجة بى إلى تكرار ودراسة ، لأنه يظن أن ما يحفظه فى الحال يبقى كذلك أبدا ، وكان له عبيد ، فأمر الولد بتعليم العبيد ، ووعده على ذلك بالجميل ، لتتوفر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم . فربما يظن الصبي المسكين أن المقصود تعليم العبيد القرءان ، وأنه قد استخدم لتعليمهم ، فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالى قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجلّ منهم وأعز عند الوالد ، وأعلم أن أبى لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفى به ، وأعلم أنه لانقصان لأبى بفقد هؤلاء العبيد ، فضلا عن عدم علمهم بالقرءان . فربما يتكاسل هذا المسكين ، فيترك تعليمهم اعتمادا على استغناء أبيه ، وعلى كرمه فى العفو عنه ، فينسى العلم والقرءان ، ويبقى مدبرا محروما من حيث لايدرى .

وقد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة ، وسلكوا طريق الإباحة . وقالوا إن الله تعالى غنيّ عن عبادتنا ، وعن أن يستقرض منا ، فأي معنى لقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا [١]) ولو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم ، فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم ، كما قال تعالى حكاية عن الكفار (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ [٢]) وقالوا أيضا (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا [٣]) فانظر كيف كانوا صادقين فى كلامهم ، وكيف هلكوا بصدقهم ، فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل . يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً

فهؤلاء لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء ، أو لأجل الله تعالى ، ثم قالوا

(١) البقرة ٢٤٥ (٢) يس ٤٧ (٣) الانعام : ١٤٨

لاحظ لنا فى المساكين ، ولاحظ لله فينا وفى أموالنا ، سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ، ولم يشعر بأنه كان المقصود ثبات صفة العلم فى نفسه ، وتأكده فى قلبه ، حتى يكون ذلك سبب سعادته فى الدنيا ، وإنما كان ذلك من الوالد تلطفا به فى استجراره إلى ما فيه سعادته . فهذا المثال يبين لك ضلال من ضل من هذا الطريق . فإذاً المسكين الآخذ للمالك يستوفى بواسطة المال خبث البخل وحب الدنيا من باطنك ، فإنه مهلك لك ، فهو كالحجام ، يستخرج الدم منك ليخرج بخروج الدم العلة المهلكة من باطنك . فالحجام خادم لك ، لا أنت خادم للحجام . ولا يخرج الحجام عن كونه خادما ، بأن يكون له غرض فى أن يصنع شيئا بالدم . ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ، ومزكية لها عن خبائث الصفات ، امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها ، وانتهى عنها[2] كما نهى عن كسب الحجام[1] وسماها أوساخ أموال الناس ، وشرف أهل بيته بالصيانة عنها .

والمقصود أن الأعمال مؤثرات فى القلب كما سبق فى ربع المهلكات ، والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة . فهذا هو القول الكلى ، والقانون الأصلى الذى ينبغى أن يرجع إليه فى معرفة فضائل الأعمال ، والأحوال ، والمعارف . ولنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فنقول : فى كل واحد منهما معرفة وحال . وعمل . فلا يجوز أن تقابل المعرفة فى أحدهما بالحال أو العمل فى الآخر . بل يقابل كل واحد منها بنظيره ، حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل

ومهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ، ربما رجعا إلى معرفة واحدة ، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلا من الله تعالى ، ومعرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان . هذا إن اعتبرنا فى البلاء والمصائب . وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة ، وعن المعصية . وفيهما يتحد الصبر والشكر . لأن الصبر

---

(١) حديث النهى عن كسب الحجام: تقدم

(٢) حديث امتنع من الصدقة وسماها أوساخ الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها : مسلم من حديث عبد المطلب بن ربيعة ان هذه الصدقة لا تحل لنا انما هى أوساخ القوم وانها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وفى رواية له أوساخ الناس

على الطاعة هو عين شكر الطاعة ، لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الهوى ، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين . فثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ، ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة ، وهو أن يصرع به باعث الشهوة ، فقد صرفه إلى مقصود الحكمة . فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشىء على نفسه ! فإذاً مجارى الصبر ثلاثة : الطاعة ، والمعصية ، والبلاء . وقد ظهر حكمهما فى الطاعة والمعصية

وأما البلاء ، فهو عبارة عن فقد نعمة . والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا ، وإما أن تقع فى محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال . أما العينان ، فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ، ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ، ولا يترخص بسبب العمى فى بعض المعاصى . وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين . أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية ، والآخر أن يستعملهما فى الطاعة . وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها . والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكر النعمة العينين ، وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين ، فقد دخل الصبر فى شكره : وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة ، فلا بد أن يضاف فيه من صبر على الطاعة . ثم قد يشكرها بالنظر إلى عجائب صنع الله تعالى ، ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر

ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلا ، وقد كان ضريرا ، من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام ، وغيره من الأنبياء ، لأنه صبر على فقد البصر ، وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا : ولكان الكمال فى أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ، ويترك كلحم على وضم ، وذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة فى الدين ، يفوت بفوتها ذلك الركن من الدين . وشكرها باستعمالها فيما هى آلة فيه من الدين . وذلك لا يكون إلا بصبر . وأما ما يقع فى محل الحاجة ، كالزيادة على الكفاية من المال ، فإنه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة ، وهو محتاج إلى ما وراءه ، ففى الصبر عنه مجاهدة ، وهو جهاد الفقر . ووجود الزيادة نعمة ، وشكرها أن تصرف إلى الخيرات ، أو أن لا تستعمل فى المعصية .

فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف إلى الطاعة ، فالشكر أفضل . لأنه تضمن الصبر أيضا ، وفيه فرح بنعمة الله تعالى ، وفيه احتمال ألم فى صرفه إلى الفقراء ، وترك صرفه إلى التنعم المباح . وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين أفضل من شىء واحد ، وأن الجملة أعلى رتبة من البعض ، وهذا فيه خلل . إذ لاتصح الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها .

وأما إذا كان شكره بأن لايستعين به على معصية ، بل يصرفه إلى التنعم المباح ؛ فالصبر ههنا أفضل من الشكر . والفقير الصابر أفضل من الغني الممسك ماله ، الصارف إياه إلى المباحات، لامن الغني الصارف ماله إلى الخيرات . لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسر نهمتها وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى . وهذه الحالة تستدعى لامحالة قوة . والغني أتبع نهمته ، وأطاع شهوته ، ولكنه اقتصر على المباح ، والمباح فيه مندوحة عن الحرام ، ولكن لابد من قوة فى الصبر عن الحرام أيضا ، إلا أن القوة التى عنها يصدر صبر الفقير أعلى وأتم من هذه القوة التى يصدر عنها الاقتصار فى التنعم على المباح . والشرف لتلك القوة التى يدل العمل عليها . فإن الأعمال لاتراد إلا لأحوال القلوب ، وتلك القوة حالة للقلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان ، فما دل على زيادة قوة فى الإيمان فهو أفضل لامحالة

وجميع ماورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر فى الآيات والأخبار ، إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص . لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة الأموال والغنى بها والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ، ولايستعين بالنعمة على المعصية لا أن يصرفها إلى الطاعة . فإذاً الصبر أفضل من الشكر ، أى الصبر الذى تفهمه العامة ، أفضل من الشكر الذى تفهمه العامة . وإلى هذا المعنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل فقال : ليس مدح الغنى بالوجود ، ولا مدح الفقير بالعدم ؛ وإنما المدح فى الاثنين قيامهما بشروط ماعليهما . فشرط الغني يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها ، والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتقبضها وتزعجها . فإذا كان الإثنان قائمين لله تعالى بشرط ماعليهما ، كان الذى آلم صفته وأزعجها أتم حالا ممن متع صفته ونعمها . والأمر على ماقاله ، وهو صحيح من جملة أقسام الصبر والشكر

فى القسم الآخير الذى ذكرناه . وهو لم يرد سواه . ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه فى ذلك وقال : الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر . فدعا عليه الجنيد ، فأصابه ماأصابه من البلاء من قتل أولاده ، وإتلاف أمواله ، وزوال عقله أربع عشرة سنة . فكان يقول دعوة الجنيد أصابتني . ورجع إلى تفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر

ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها ، علمت أن لكل واحد من القولين وجها فى بعض الأحوال . فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما سبق ، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر . وذلك هو الغني الذى يرى نفسه مثل الفقير ، إذ لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة ، والباقي يصرفه إلى الخيرات ، أو يمسكه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين والمساكين ، وإنما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف إليها . ثم إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ، ولا لتقليد منة، بل أداء لحق الله تعالى فى تفقد عباده ، فهذا أفضل من الفقير الصابر

فإن قلت :فهذا لا يثقل على النفس ، والفقير يثقل عليه الفقر ، لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذاك يستشعر ألم الصبر . فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك بلذته فى القدرة على الإنفاق

فاعلم أن الذى نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس ، أكمل حالا ممن ينفقه وهو بخيل به ، وإنما يقتطعه عن نفسه قهرا . وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة فإيلام النفس ليس مطلوبا لعينه ، بل لتأديبها . وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد . والكلب المتأدب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب ، وإن كان صابرا على الضرب ، ولذلك يحتاج إلى الإيلام والمجاهدة فى البداية ، ولا يحتاج إليهما فى النهاية . بل النهاية أن يصير ما كان مؤلما فى حقه لذيذا عنده ، كما يصير التعلم عند الصبي العاقل لذيذا. وقد كان مؤلما له أولا ولكن لما كان الناس كلهم إلا الأقلين فى البداية ، بل قبل البداية بكثير ، كالصبيان ، أطلق الجنيد القول بأن الذى يؤلم صفته أفضل . وهو كما قال صحيح فيما أراده من عموم الخلق ،

فإذاً إذا كنت لا تفصل الجواب. وتطلقه لإرادة الأكثر ، فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر ، فإنه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام . فإذا أردت التحقيق ففصل ، فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ، ووراءها الرضا ، وهو مقام وراء الصبر ،

ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بالا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به . وكذلك الشكر درجات كثيرة ، ذكرنا أقصاها ، ويدخل فى جملتها أمور دونها ، فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر ، والاعتذار من قلة الشكر شكر ، والمعرفة بعظيم حلم الله وكنف ستره شكر ، والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضاً نعمة من نعم الله وموهبة منه شكر . وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر ، وشكر الوسائط شكر ، إذ قال عليه السلام [1] « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » وقد ذكرنا حقيقة ذلك فى كتاب أسرار الزكاة . وقلة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكر ، وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر . وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها ، وهي درجات مختلفة ، فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر ، إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام ، كما ورد فى الأخبار والآثار :

وقد روي عن بعضهم أنه قال : رأيت فى بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن فى السن ، فسألته عن حاله فقال : إنى كنت فى ابتداء عمرى أهوى ابنة عم لى ، وهي كذلك كانت تهوانى ، فاتفق أنها زوّجت منى ، فليلة زفافها . قلت تعالى حتى نحيى هذه الليلة شكراً لله تعالى على ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا إلى صاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك ، فصلينا طول الليل ، فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ قالت العجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل . فإذاً لا وقوف على حقائق المفضلات إلا بتفصيل كما سبق ، والله أعلم .

---

(١) حديث من لم يشكر الله : تقدم فى الزكاة



كتاب الخوف والرجاء

كتاب الخوف والرجاء

وهو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من كتاب إحياء علوم الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه ، المخوف مكره وعقابه ، الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه ، والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه ، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأ نقمته ، والتهدف لسخطه و نقمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر . والعنف ، وأزمة الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته ، وعلى آله وأصحابه وعترته . أما بعد : فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤد ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان ، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ، إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم ، مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف . فلا بد إذاً من بيان حقيقتهما وفضيلتهما ، وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادهما وتعاندهما ، ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد يشتمل على شطرين : الشطر الأول في الرجاء ، والشطر الثاني في الخوف : أما الشطر الأول ، فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء ، وبيان فضيلة الرجاء ، وبيان دواء الرجاء ، والطريق الذي يجتلب به الرجاء .



بيان حقيقة الرجاء

إعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين ، وأحوال الطالبين . وإنما يسمى الوصف مقاما إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالا إذا كان عارضا سريع الزوال . وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل ، وإلى ما هو بينهما كصفرة

المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذى هو غير ثابت يسمى حالا ؛ لأنه يحول على القرب . وهذا جار فى كل وصف من أوصاف القلب . وغرضنا الآن حقيقة الرجاء، فالرجاء أيضاً يتم من حال ، وعلم، وعمل ، فالعلم سبب يثمر الحال ، والحال يقتضي العمل، وكان الرجاء اسما من جملة الثلاثة . وبيانه أن كل مايلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود فى الحال ، وإلى موجود فيما مضى ، وإلى منتظر فى الاستقبال . فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً . وإن كان ماخطر بقلبك موجوداً فى الحال سمي وجداً، وذوقا ، وإدراكا ، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك . وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء فى الاستقبال ، وغلب ذلك على قلبك ، سمي انتظاراً وتوقعاً . فإن كان المنتظر مكروها ، حصل منه ألم فى القلب سمي خوفا وإشفاقا . وإن كان محبوبا ، حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة فى القلب وارتياح ، سمي ذلك الارتياح رجاء . فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده .

ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب . فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق . وإن كان ذلك انتظارا مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء . وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء ، فاسم التمني أصدق على انتظاره ، لأنه انتظار من غير سبب . وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أمّا ما يقطع به فلا . إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع ، وأخاف غروبها وقت الغروب . لأن ذلك مقطوع به نعم : يقال أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه . وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها ، كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا مازرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه . كما لا ينمو بذر فى أرض سبخة . فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع . فكل من طلب أرضا طيبة ، وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده

بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ، سمي انتظاره رجاء : وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة ، مرتفعة لا ينصب إليها الماء ، ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ، ، ثم انتظر الحصاد منه ، سمي انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء . وإن بث البذر فى أرض طيبة ، لكن لا ماء لها ، وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً ، سمي انتظاره تمنيا لا رجاء .

فإذاً اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره ، وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات . فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة ، كان انتظاره رجاء حقيقيا ، محمودا فى نفسه ، باعثا له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان فى إتمام أسباب المغفرة إلى الموت . وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات . أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ، ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم [١] « الْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْجَنَّةَ » وقال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا [١]) وقال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا [٢]) وذم الله تعالى صاحب البستان ، إذ دخل جنته وقال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا

فإذاً العبد المجتهد فى الطاعات ، المجتنب للمعاصى ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة ، وأما العاصى ، فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه

(كتاب الرجاء والخوف)

(١) حديث الأحمق من أتبع نفسه هواها ـ الحديث : تقدم غير مرة

(١) مريم : ٥٩ (٢) الأعراف : ١٦٩

من تقصير ، فحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية ، تسوءه السيئة ، وتسره الحسنة ، وهو يذم نفسه و يلومها و يشتهى التوبة ويشتاق إليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة ، يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب . ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ [1]) معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله . وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ، ولا يذم نفسه عليه ، ولا يعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق ، كرجاء من بث البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهده بسقى ولا تنقية . قال يحيى بن معاذ من أعظم الاغترار عندى التمادى فى الذنوب ، مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصى ، وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنى على الله عزوجل مع الإفراط .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنته ، فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان ، فإن من حسن بذره ، وطابت أرضه ، وغزر ماؤه ، صدق رجاؤه ، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها ، وتنحية كل حشيش ينبت فيها . فلا يفتر عن تعهدها أصلا إلى وقت الحصاد . وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس ، واليأس يمنع من التعهد . فمن عرف أن الأرض سبخة ، وأن الماء معوز ، وأن البذر لا ينبت فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب فى تعهدها والرجاء محمود لأنه باعث ، واليأس مذموم ، وهو ضده ، لأنه صارف عن العمل . والخوف ليس بضد للرجاء ، بل هو رفيق له كما سيأتى بيانه ، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة ، كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة . فإذاً حال الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال ، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال . ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى

(1) البقرة : ٢١٨

والتنعم بمناجاته ، والتلطف في التملق له ، فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك . أو شخصا من الأشخاص ، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى . فإن كان لا يظهر فليستدل به على الحرمان عن مقام الرجاء ، والنزول في حضيض الغرور والتمني.

فهذا هو البيان لحال الرجاء ، ولما أثمره من العلم ، ولما استثمر منه من العمل . ويدل على إثماره لهذه الأعمال حديث [١] زيد الخيل ، إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد ، وعلامته فيمن لا يريد . فقال « كَيْفَ أَصْبَحْتَ » قال أصبحت أحب الخير وأهله ، وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه ، وأيقنت بثوابه . وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه ، وحننت إليه فقال « هذِهِ عَلاَمَةُ اللهِ فِيمَنْ يُرِيدُ وَلَوْ أَرَادَكَ لِلأُخْرَى هَيَّأَكَ لَهَا ثُمَّ لاَ يُبَالِي فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكْتَ » فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير . فمن ارتجى أن يكون مرادا بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

بيان

فضيلة الرجاء والترغيب فيه

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف . لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين ، يخدم أحدهما خوفا من عقابه ، والآخر رجاء لثوابه . ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب ، لاسيما في وقت الموت . قال تعالى (لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ [١]) فحرم أصل اليأس . وفي أخبار يعقوب عليه السلام ، أن الله تعالى أوحى إليه . أتدري لمَ فرقت بينك وبين يوسف ؟ لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . لم خفت الذئب ولم ترجني : ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم [٢] « لاَ يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ تَعَالَى »

---

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد ـ الحديث : الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه انه قال له أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سماه النبي صلى الله عليه وسلم الخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى فقام زيد الخير فقال يارسول الله ـ الحديث : سمعت أبي يقول ذلك

(٢) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله : مسلم من حديث جابر

---

(١) الزمر : ٥٣

وقال صلى الله عليه وسلم « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ [١] أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي مَاشَاءَ » [٢] ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال « كَيْفَ تَجِدُكَ ؟ » فقال أجدنى أخاف ذنوبى ، وأرجو رحمة ربى . فقال صلى الله عليه وسلم « مَا اجْتَمَعَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ إِلاَّ أَعْطَاهُ اللهُ مَا رَجَا وَأَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ » .

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : ياهذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك . وقال سفيان . من أذنب ذنبا فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه ، غفر الله له ذنبه ، قال لأن الله عز وجل عيّر قوما فقال (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ [١]) وقال تعالى (وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا [٢])

وقال صلى الله عليه وسلم [٣] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ أَنْ تُنْكِرَهُ فَإِنْ لَقَّنَهُ اللهُ حُجَّتَهُ قَالَ رَبِّ رَجَوْتُكَ وَخِفْتُ النَّاسَ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى قَدْ غَفَرْتُهُ لَكَ » وفى الخبر الصحيح [٤] « أَنَّ رَجُلاً كَانَ يُدَايِنُ النَّاسَ فَيُسَامِحُ الْغَنِيَّ وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْمُعْسِرِ فَلَقِيَ اللهَ وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنَّا » فعفا عنه لحسن ظنه ، ورجائه أن يعفو عنه ، مع إفلاسه عن الطاعات .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ [٣]) ولما قال صلى الله عليه وسلم [٥] « لَوْ تَعْلَمُونَ

---

(١) حديث أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء : ابن حبان من حديث واثلة بن الأسقع وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة دون قوله فليظن بى ماشاء

(٢) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو فى النزع فقال كيف تجدك ـ الحديث : الترمذى وقال غريب والنسائى فى الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووى اسناده جيد

(٣) حديث ان الله يقول للعبد يوم القيامة مامنعك اذ رأيت المنكر أن تنكره ـ الحديث : ابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد جيد وقد تقدم فى الأمر بالمعروف

(٤) حديث ان رجلا كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن المعسر ـ الحديث : مسلم من حديث أبى مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء الا أنه كان يخالط الناس وكان موسرا فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر قال الله عز وجل نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه واتفقا عليه من حديث حذيفة وأبى هريرة بنحوه

(٥) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ـ الحديث : وفيه فهبط جبريل ـ الحديث : ابن حبان

---

(١) فصلت : ٢٣ (٢) الفتح : ١٢ (٣) فاطر : ٢٩

مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَلْدِمُونَ صُدُورَكُمْ وَتَجْأَرُونَ إِلَى رَبِّكُمْ » فهبط جبريل عليه السلام فقال · إن ربك يقول لك لم تقنط عبادى؟ فخرج عليهم ورجاهم وشوقهم · وفى الخبر [(١)] ، إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : أحبنى ، وأحب من يحبنى ، وحببنى إلى خلقى . فقال : يارب كيف أحببك إلى خلقك ؟ قال اذكرنى بالحسن الجميل، واذكر آلائى وإحسانى، وذكرهم ذلك، فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل

ورؤي أبان بن أبى عياش فى النوم ، وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء ، فقال : أوقفنى الله تعالى بين يديه ، فقال ما الذى حملك على ذلك ؟ فقلت أردت أن أحببك إلى خلقك · فقال قد غفرت لك ، ورؤي يحيى بن أكثم بعد موته فى النوم ، فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال أوقفنى الله بين يديه ، وقال ياشيخ السوء ، فعلت وفعلت ، قال فأخذنى من الرعب ما يعلم الله . ثم قلت يارب ، ما هكذا حدثت عنك . فقال وما حدثت عنى ؟ فقلت حدثنى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أنس ، عن نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام ، أنك قلت أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما شاء . وكنت أظن بك أن لا تعذبنى. فقال الله عز وجل: صدق جبريل، وصدق نبيي، وصدق أنس، وصدق الزهرى ، وصدق معمر ، وصدق عبد الرزاق ، وصدقت ، قال فألبست ومشى بين يدى الولدان إلى الجنة ، فقلت يالها من فرحة · وفى الخبر [(٢)] أن رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ، قال فيقول له الله تعالى يوم القيامة : اليوم أؤيسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادى منها

وقال صلى الله عليه وسلم [(٣)] « إِنَّ رَجُلاً يَدْخُلُ النَّارَ فَيَمْكُثُ فِيهَا أَلْفَ سَنَةٍ يُنَادِى يَاحَنَّانُ يَامَنَّانُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِجِبْرِيلَ اذْهَبْ فَأْتِنِي بِعَبْدِي قَالَ فَيَجِيءُ بِهِ فَيُوقِفُهُ

فى صحيحه من حديث أبى هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة ولخرجتم إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم

(١) حديث ان الله تعالى أوحى الى عبده داود عليه السلام أحبنى وأحب من يحبنى ـ الحديث : لم أجد له اصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذى قبله

(٢) حديث ان رجلا من بنى اسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم ـ الحديث : رواه البيهقى فى الشعب عن زيد بن أسلم فذكره مقطوعا

(٣) حديث ان رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادى ياحنان يامنان ـ الحديث : ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله والبيهقى فى الشعب وضعفه من حديث أنس

عَلَى رَبِّهِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى كَيْفَ وَجَدْتَ مَكَانَكَ ؟ فَيَقُولُ شَرَّ مَكَانٍ قَالَ فَيَقُولُ رُدُّوهُ إِلَى مَكَانِهِ قَالَ فَيَمْشِي وَيَلْتَفِتُ إِلَى وَرَائِهِ فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَيِّ شَيْءٍ تَلْتَفِتُ ؟ فَيَقُولُ لَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ لَا تُعِيدَنِي إِلَيْهَا بَعْدَ إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى اذْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ » فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه

بيان

دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة ، حتى أضر بنفسه وأهله . وهذان رجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال . فأما العاصي المغرور المتمني على الله ، مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي ، فأدوية الرجاء تنقلب سموما مهلكة في حقه ، وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد ، وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة . بل المغرور لا يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف ، والأسباب المهيجة له . فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل ، معالجا لكل علة بما يضادها ، لا بما يزيد فيها . فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصفات والأخلاق كلها ، وخير الأمور أوساطها . فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين ، عولج بما يرده إلى الوسط ، لا بما يزيد في ميله عن الوسط. وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء ، بل المبالغة في التخويف أيضا تكاد أن لا تردهم إلى جادة الحق وسنن الصواب . فأما ذكر أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية . ولكنها لما كانت أخف على القلوب ، وألذ عند النفوس ، ولم يكن غرض الوعاظ إلا استمالة القلوب ، واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا ، مالوا إلى الرجاء ، حتى ازداد الفساد فسادا ، وازداد المنهمكون في طغيانهم تماديا . قال علي كرم الله وجهه : إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ، ولا يؤمنهم من مكر الله

ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس ، أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنهما مشتملان على الخوف

والرجاء جميعا ، لأنهما جامعان لأسباب الشفاء فى حق أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة ، استعمال الطبيب الحاذق ، لااستعمال الأخرق الذى يظن أن كل شىء من الأدوية صالح لكل مريض كيفما كان

وحال الرجاء يغلب بشيئين :أحدهما الاعتبار، والآخر استقراء الآيات والأخبار والآثار

أما الاعتبار ، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه فى أصناف النعم من كتاب الشكر، حتى إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده فى الدنيا . وعجائب حكمه التى راعاها فى فطرة الإنسان حتى أعد له فى الدنيا كل ماهو ضروري له فى دوام الوجود . كآلات الغذاء .وماهو محتاج إليه كالأصابع والأظافر ، وما هو زينة له . كاستقواس الحاجبين ، واختلاف ألوان العينين ، وحمرة الشفتين،وغير ذلك مما كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود ، وإنما كان يفوت به مزية جمال

فالعناية الإلهية إذا لم تقصر عن عباده فى أمثال هذه الدقائق ، حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم المزايد والمزايا فى الزينة والحاجة ، كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبد بل إذا نظر الإنسان نظرا شافيا ، علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة فى الدنيا ، حتى أنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت ، وإن أخبر بأنه لا يعذب بعد الموت أبدا مثلا،أو لا يحشر أصلا . فليست كراهتهم للعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لامحالة . وإنما الذى يتمنى الموت نادر . ثم لا يتمناه إلا فى حال نادرة ، وواقعة هاجمة غريبة

فإذاً كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة ، فسنة الله لا تجد لها تبديلا ، فالغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون ، لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد ، وهو غفور رحيم ، لطيف بعباده ، متعطف عليهم . فهذا إذا تُؤُمِّلَ حق التأمل قوي به أسباب الرجاء . ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسنتها فى مصالح الدنيا ، ووجه الرحمة للعباد بها ، حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء . فقيل له وما فيها من الرجاء ؟ فقال : الدنيا كلها قليل ، ورزق الإنسان منها قليل ، والدين قليل عن رزقه ، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ، ليهدى عبده إلى طريق الاحتياط فى حفظ دينه، فكيف لا يحفظ دينه الذى لا عوض له منه !

الفن الثانى :استقراء الآيات والأخبار ، فما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر

أما الآيات ، فقد قال تعالى (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [1]) وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « وَلاَ يُبَالِي إِنَّه هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وقال تعالى (وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ [2]) وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوف بها أولياءه ، فقال (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ [3]) وقال تعالى (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [4]) وقال تعالى (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى لاَيَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى [5]) وقال عز وجل (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ [6])

ويقال [2] إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ [7]) ؟ وفي تفسير قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [8]) قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار

وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول : أنتم أهل العراق تقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله (قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ [9]) الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [10]) . وأما الأخبار [3] فقد روى أبو موسى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أُمَّتِي أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ لاَعَذَابَ عَلَيْهَا فِي الآخِرَةِ عَجَّلَ اللهُ عِقَابَهَا فِي الدُّنْيَا الزَّلاَزِلَ وَالْفِتَنَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دُفِعَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقِيل

---

(١) حديث قرا قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبالي: الترمذى من حديث اسماء بنت يزيد وقال حسن غريب

(٢) حديث ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له اما ترضى وقد أنزل عليك وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم: لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والثعلبي فى تفسيرهما من رواية على بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحدا العيش ـ الحديث :

(٣) حديث أبى موسى أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها عجل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن . الحديث:

(١ ، ٩) الزمر : ٥٣ (٢) الشورى : ٥ (٣) الزمر : ١٦ (٤) آل عمران : ١٣١ (٥) الليل : ١٤ ، ١٥ ،

(٦ ، ٧) الرعد : ٦ (٨ ، ١٠) الضحى : ٥

هَذَا فِدَاؤُكَ مِنَ النَّارِ » وفى لفظ آخر[1] « يَأْتِي كُلُّ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ بِيَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِلَى جَهَنَّمَ فَيَقُولُ هَذَا فِدَائِي مِنَ النَّارِ فَيُلْقَى فِيهَا »

وقال صلى الله عليه وسلم[2] « الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ وَهِيَ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنَ النَّارِ » وروي فى تفسير قوله تعالى (يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ [(1)])[3] أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام « أنى أجعل حساب أمتك إليك ، قال لا يارب ، أنت أرحم بهم منى: فقال إذاً لا أخزيك فيهم . وروى عن[4] أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته ، فقال « يَارَبِّ اجْعَلْ حِسَابَهُمْ إِلَيَّ لِئَلَّا يَطَّلِعَ عَلَى مَسَاوِيهِمْ غَيْرِي » فأوحى الله تعالى إليه ،هم أمتك ،وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك ،لا أجعل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك . وقال صلى الله عليه وسلم[5] « حَيَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ وَمَوْتِي خَيْرٌ لَكُمْ أَمَّا حَيَاتِي فَأَسُنُّ لَكُمُ السُّنَنَ وَأَشْرَعُ لَكُمُ الشَّرَائِعَ وَأَمَّا مَوْتِي فَإِنَّ أَعْمَالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ فَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا حَسَناً حَمِدْتُ اللهَ عَلَيْهِ وَمَا رَأَيْتُ مِنْهَا سَيِّئاً اسْتَغْفَرْتُ اللهَ تَعَالَى لَكُمْ »

أبى داود دون قوله فاذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفى صحيحه من حديث أبى موسى كما سيأتى ذكره فى الحديث الذى يليه

(١) حديث يأتى كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم ـ الحديث : مسلم من حديث أبى موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فداؤك من النار وفى رواية له لا يموت رجل مسلم الا أدخل الله مكانه فى النار يهوديا أو نصرانيا

(٢) حديث الحمى من فيح جهنم وهى حظ المؤمن من النار : أحمد من رواية أبى صالح الأشعرى عن أبى أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه

(٣) حديث أن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أنى أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم منى ـ الحديث : فى تفسير قوله تعالى يوم لا يخزى الله النبى ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله

(٤) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ـ الحديث : لم أقف له على أصل

(٥) حديث حياتى خير لكم وموتى خير لكم ـ الحديث : البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبى داود وأن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائى فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده من حديث أنس بنحوه باسناد ضعيف

---

(١) التحريم : ٨

[1] وقال صلى الله عليه وسلم يوما « يَا كَرِيمَ الْعَفْوِ » فقال جبريل عليه السلام : أتدرى ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيئات برحمته، بدلها حسنات بكرمه [2] وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال « هَلْ تَدْرِي مَا تَمَامُ النِّعْمَةِ ؟» قال لا. قال « دُخُولُ الْجَنَّةِ » قال العلماء قد أتم الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا ، إذ قال تعالى (وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا [1])

وفي الخبر [3] « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا فَاسْتَغْفَرَ اللهَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ » . وفي الخبر [4] « لَوْ أَذْنَبَ الْعَبْدُ حَتَّى تَبْلُغَ ذُنُوبُهُ عَنَانَ السَّمَاءِ غَفَرْتُهَا لَهُ مَا اسْتَغْفَرَنِي وَرَجَانِي » . وفي الخبر [5] « لَوْ لَقِيَنِي عَبْدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذُنُوبًا لَقِيتُهُ بِقُرَابِ الْأَرْضِ مَغْفِرَةً » . وفي الحديث [6] « إِنَّ الْمَلَكَ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ عَنِ الْعَبْدِ إِذَا أَذْنَبَ سِتَّ سَاعَاتٍ فَإِنْ تَابَ وَاسْتَغْفَرَ لَمْ يَكْتُبْهُ عَلَيْهِ وَإِلَّا كَتَبَهَا سَيِّئَةً »

---

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوما يا كريم العفو فقال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم العفو ـ الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم والموجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره

(٢) حديث سمع رجلا يقول اللهم انى أسألك تمام النعمة ـ الحديث تقدم

(٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى للملائكة انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ أن عبدا أصاب ذنبا فقال أى رب أذنبت ذنبا فاغفرلي ـ الحديث : وفي رواية أذنب عبد ذنبا فقال ـ الحديث :

(٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء ـ الحديث : الترمذي من حديث أنس يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن

(٥) حديث لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوبا لقيته بقرابها مغفرة: مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئا لقيته بمثلها مغفرة والترمذي من حديث أنس الذي قبله يا ابن آدم لو لقيتني ـ الحديث :

(٦) حديث أن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فان تاب واستغفر لم يكتبه عليه ـ الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألق هذه السيئة حتى ألقي من حسناته واحدة من تضعيف العشر ـ الحديث : البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضا أطول منه وفيه أن صاحب اليمين

---

(١) المائدة : ٣

وفى لفظ آخر « فَإِذَا كَتَبَهَا عَلَيْهِ وَعَمِلَ حَسَنَةً قَالَ صَاحِبُ الْيَمِينِ لِصَاحِبِ الشِّمَالِ وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَيْهِ أَلْقِ هَذِهِ السَّيِّئَةَ حَتَّى أُلْقِيَ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَاحِدَةً تَضْعِيفَ الْعَشْرِ وَأَرْفَعَ لَهُ تِسْعَ حَسَنَاتٍ فَتُلْقَى عَنْهُ السَّيِّئَةُ » . وروى[1] أنس فى حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال « إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ ذَنْبًا كُتِبَ عَلَيْهِ » فقال أعرابى : وإن تاب عنه ؟ قال « مُحِيَ عَنْهُ » قال فإن عاد ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم « يُكْتَبُ عَلَيْهِ » قال الأعرابى فإن تاب ؟ قال « مُحِيَ مِنْ صَحِيفَتِهِ » قال إلى متى ؟ قال « إِلَى أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ مِنَ الْمَغْفِرَةِ حَتَّى يَمَلَّ الْعَبْدُ مِنَ الاسْتِغْفَارِ فَإِذَا هَمَّ الْعَبْدُ بِحَسَنَةٍ كَتَبَهَا صَاحِبُ الْيَمِينِ حَسَنَةً قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَهَا فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ثُمَّ يُضَاعِفُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ وَإِذَا هَمَّ بِخَطِيئَةٍ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ فَإِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ خَطِيئَةٌ وَاحِدَةٌ وَوَرَاءَهَا حُسْنُ عَفْوِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »[2] . وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يارسول الله ، إنى لا أصوم إلا الشهر لا أزيد عليه ، ولا أصلى إلا الخمس لا أزيد عليها ، وليس لله فى مالى صدقة ، ولا حج ، ولا تطوع ، أين أنا إذا مت ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نَعَمْ مَعِي إِذَا حَفِظْتَ قَلْبَكَ مِنَ اثْنَتَيْنِ .

أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بالقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ولم أجد لذلك أصلا

(١) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنبا كتب عليه فقال أعرابى فان تاب عنه قال محى عنه قال فان عاد ـ الحديث وفيه أن الله لا يمل من التوبة حتى يمل العبد من الاستغفار ـ الحديث : البيهقى فى الشعب بلفظ جاء رجل فقال يارسول الله انى أذنبت ذنبا قال استغفر ربك قال فأستغفر ثم أعود قال فاذا عدت فاستغفر ربك ثلاث مرات أو أربعا قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصرى منكر ـ الحديث : وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر لأحدنا يذنب قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يغفر له ويتاب عليه قال فيعود ـ الحديث وفيه ولا يمل الله حتى تملوا وليس فى الحديثين قوله فى آخره فاذا هم العبد بحسنة ألخ وهو فى الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وان هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فان هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم فى رواية أو محاها الله ولا يهلك على الله الا هالك ولهما نحوه من حديث أبى هريرة

(٢) حديث جاء رجل فقال يارسول الله أنى لا أصوم الا الشهر لا أزيد عليه ولا أصلى الا الخمس لا أزيد عليها وليس لله فى مالى صدقة ولا حج ولا تطوع ـ الحديث : تقدم

الْغِلِّ وَالْحَسَدِ وَلِسَانَكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ الْغِيبَةِ وَالْكَذِبِ وَعَيْنَيْكَ مِنِ اثْنَتَيْنِ النَّظَرِ إِلَى مَا حَرَّمَ اللهُ وَأَنْ تَزْدَرِيَ بِهِمَا مُسْلِماً دَخَلْتَ مَعِيَ الْجَنَّةَ عَلَى رَاحَتَيَّ هَاتَيْنِ » . وفى الحديث الطويل لأنس[1]، أن الأعرابى قال يارسول الله ، من يلى حساب الخلق؟ فقال « اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى » قال هو بنفسه ؟ قال « نَعَمْ » فتبسم الأعرابى . فقال صلى الله عليه وسلم « مِمَّ ضَحِكْتَ يَا أَعْرَابِيُّ » فقال : إن الكريم إذا قدر عفا ، وإذا حاسب سامح . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « صَدَقَ الْأَعْرَابِيُّ أَلَا لَا كَرِيمَ أَكْرَمُ مِنَ اللهِ تَعَالَى هُوَ أَكْرَمُ الْأَكْرَمِينَ » ثم قال « فَقُهَ الْأَعْرَابِيُّ » وفيه أيضا « إِنَّ اللهَ تَعَالَى شَرَّفَ الْكَعْبَةَ وَعَظَّمَهَا وَلَوْ أَنَّ عَبْداً هَدَمَهَا حَجَراً حَجَراً ثُمَّ أَحْرَقَهَا مَا بَلَغَ جُرْمَ مَنِ اسْتَخَفَّ بِوَلِيٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى » قال الأعرابى . ومن أولياء الله تعالى ؟ قال « الْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ تَعَالَى أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ[1]) وفى بعض الأخبار[2] « الْمُؤْمِنُ أَفْضَلُ مِنَ الْكَعْبَةِ »[3] « وَالْمُؤْمِنُ طَيِّبٌ طَاهِرٌ »[4] « وَالْمُؤْمِنُ أَكْرَمُ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ » . وفى الخبر[5] « خَلَقَ اللهُ تَعَالَى جَهَنَّمَ مِنْ فَضْلِ رَحْمَتِهِ سَوْطاً يَسُوقُ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ » . وفى خبر آخر « يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ[6] إِنَّمَا خَلَقْتُ الْخَلْقَ لِيَرْبَحُوا عَلَيَّ وَلَمْ أَخْلُقْهُمْ لِأَرْبَحَ

---

(١) حديث أنس الطويل قال أعرابى يارسول الله من يلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه ال نعم فتبسم الاعرابى .. الحديث : لم أجد له أصلا

(٢) حديث المؤمن أفضل من الكعبة : ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذى نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به الاخيرا وشيخه نصر بن محمد ابن سليمان الحمصى ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم

(٣) حديث المؤمن طيب طاهر : لم أجده بهذا اللفظ وفى الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا ينجس

(٤) حديث المؤمن أكرم على الله من الملائكة : ابن ماجه من رواية أبى المهزم يزيد بن سفيان عن أبى هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض الملائكة وأبو المهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف

(٥) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق به عباده الى الجنة : لم أجده هكذا ويغنى عنه ما رواه البخارى من حديث أبى هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة فى السلاسل

(٦) حديث قال الله انما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لاربح عليهم : لم أقف له على أصل

---

(١) البقرة : ٢٥٧

عَلَيْهِمْ » . وفى حديث [١] أبى سعيد الخدرى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَاخَلَقَ اللهُ تَعَالَى شَيْئاً إِلاَّ جَعَلَ لَهُ مَا يَغْلِبُهُ وَجَعَلَ رَحْمَتَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ » وفى الخبر المشهور [٢] « إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي » : وعن [٣] معاذ بن جبل ، وأنس بن مالك ، أنه صلى الله عليه وسلم قال « مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » [٤] « وَمَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ » [٥] « وَمَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ » [٦] « وَلاَ يَدْخُلُهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ » وفى خبر آخر [٧] « لَوْ عَلِمَ الْكَافِرُ سَعَةَ رَحْمَةِ اللهِ مَا أَيِسَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » [٨] ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى

---

(١) حديث أبى سعيد ما خلق الله شيئا الا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه : أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب الميزان ليس بواه ولا بمجهول

(٢) حديث ان الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق أن رحمتى تغلب غضبى : متفق عليه من حديث أبى هريرة وقد تقدم

(٣) حديث معاذ وأنس من قال لا إله الا الله دخل الجنة : الطبرانى فى الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو فى اليوم والليلة وللنسائى بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ ومن حديث أنس أيضا وتقدم فى الأذكار

(٤) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار : أبو داود والحاكم وصححه من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة

(٥) حديث من لقى الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار : الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله الا حرمه الله على النار وزاد البخارى صادقا من قلبه وفى رواية له من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جعله الله فى الجنة وللنسائى من حديث أبى عمرة الأنصارى فى أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى رسول الله لا يلقى الله عبد يؤمن بهما الا حجب عن النار يوم القيامة

(٦) حديث لا يدخلها من فى قلبه وزن ذرة من إيمان : أحمد من حديث سهل ابن بيضاء من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان انى لأعلم كلمة ولا يقولها عبد حقا من قلبه الا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هى كلمة الاخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت فى الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من الموحدين النار واخراجهم بالشفاعة نعم لا يبقى فى النار من فى قلبه وزن ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبى سعيد وفيه فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من ايمان فأخرجوه وقال مسلم من خير بدل من ايمان.

(٧) حديث لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٨) حديث لما تلا - ان زلزلة الساعة شىء عظيم - قال أتدرون أى يوم هذا - الحديث : الترمذى من حديث

(إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ[1]) قال « أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ هَذَا ؟ هَذَا يَوْمٌ يُقَالُ لِآدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ فَيَقُولُ كَمْ ؟ فَيُقَالُ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ إِلَى النَّارِ وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ » قال فأبلس القوم، وجعلوا يبكون وتعطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل ، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « مَا لَكُمْ لَا تَعْمَلُونَ ؟ » فقالوا ومن يشتغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا ؟ فقال « كَمْ أَنْتُمْ فِي الْأُمَمِ أَيْنَ تَاوِيلُ وَتَارِيسُ وَمَنْسِكُ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ أُمَمٌ لَا يُحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي سَائِرِ الْأُمَمِ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ وَكَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الدَّابَّةِ »

فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ، ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى ؛ إذ ساقهم بسياط الخوف أولا ، فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس ، داواهم بدواء الرجاء ، وردهم إلى الاعتدال والقصد . والآخر لم يكن مناقضا للأول ؛ ولكن ذكر فى الأول ما رآه سببا للشفاء ، واقتصر عليه ، فلما احتاجوا إلى المعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر : فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ ، فيتلطف فى استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة ، بعد ملاحظة العلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه

وفى الخبر[1] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ » وفى لفظ آخر « لَذَهَبَ بِكُمْ وَجَاءَ بِخَلْقٍ آخَرَ يُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » وفى الخبر[2] « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنَ الذُّنُوبِ » قيل وما هو ؟ قال « الْعُجْبُ » . وقال صلى الله عليه وسلم[3] « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ

عمران بن حصين وقال حسن صحيح قلت هو من رواية الحسن البصرى عن عمران ولم يسمع منه وفى الصحيحين نحوه من حديث أبى سعيد

(١) حديث لولم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم وفى لفظ لذهب بكم ـ الحديث : مسلم من حديث أبى أيوب واللفظ الثانى من حديث أبى هريرة قريبا منه

(٢) حديث لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب: البزار وابن حبان فى الضعفاء والبيهقى فى الشعب من حديث أنس وتقدم فى ذم الكبر والعجب

(٣) حديث والذى نفسى بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها : متفق عليه من حديث عمر بنحوه

---

(١) الحج : ١

مِنَ الْوَالِدَةِ الشَّفِيقَةِ بِوَلَدِهَا » وفي الخبر [١] « لَيَغْفِرَنَّ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْفِرَةً مَاخَطَرَتْ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ حَتَّى أَنَّ إِبْلِيسَ لَيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ » وفي الخبر [٢] « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى مِائَةَ رَحْمَةٍ ادَّخَرَ مِنْهَا عِنْدَهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَظْهَرَ مِنْهَا فِي الدُّنْيَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِيهَا يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ فَتَحِنُّ الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا وَتَعْطِفُ الْبَهِيمَةُ عَلَى وَلَدِهَا فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ضَمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التِّسْعِ وَالتِّسْعِينَ ثُمَّ بَسَطَهَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ وَكُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهَا طِبَاقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالَ فَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ إِلَّا هَالِكٌ »

وفي الخبر [٣] « مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يُدْخِلُهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُنْجِيهِ مِنَ النَّارِ » قالوا ولا أنت يارسول الله؟ قال « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام [٤] « اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْجِهِ عَمَلُهُ »

وقال صلى الله عليه وسلم [٥] « إِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي أَتَرَوْنَهَا لِلْمُطِيعِينَ الْمُتَّقِينَ بَلْ هِيَ لِلْمُتَلَوِّثِينَ الْمُخَلِّطِينَ » وقال عليه الصلاة والسلام [٦] « بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ السَّهْلَةِ »

وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى [٧] « أُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ أَنَّ فِي دِينِنَا سَمَاحَةً » ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم (وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

---

(١) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ماخطرت قط على قلب أحد ـ الحديث : ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف

(٢) حديث ان لله تعالى مائة رحمة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٣) حديث مامنكم من أحد يدخله عمله الجنة ـ الحديث : متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم

(٤) حديث اعملوا وابشروا واعلموا ان أحدا لن ينجيه عمله : تقدم أيضا

(٥) حديث انى اختبأت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ـ الحديث : الشيخان من حديث أبي هريرة لكل نبي دعوة واني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ورواه مسلم من حديث أنس وللترمذي من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ولابن ماجه من حديث أبي موسى ولأحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لانها أعم وأكفى أترونها للمتقين ـ الحديث : وفيه من لم يسم

(٦) حديث بعثت بالحنفية السمحة السهلة : أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله وللطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين الى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحاق ورواه بالعنعنة

(٧) حديث أحب ان يعلم أهل الكتاب أن في ديننا سماحة : أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد

إِصْرًا [1]) وقال تعالى (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ [2]) وروى [1] محمد بن الحنفية ، عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لما نزل قوله تعالى (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ [3]) قال « يَاجِبْرِيلُ وَمَا الصَّفْحُ الْجَمِيلُ » قال عليه السلام . إذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه، فقال « يَاجِبْرِيلُ فَاللهُ تَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَاتِبَ مَنْ عَفَا عَنْهُ » فبكى جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقرئكما السلام ويقول . كيف أعاتب من عفوت عنه ؟ هذا مالا يشبه كرمى

والأخبار الواردة فى أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال على كرم الله وجهه . من أذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا ، فالله أكرم من أن يكشف ستره فى الآخرة . ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا ، فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة، وقال الثورى : ما أحب أن يجعل حسابى إلى أبوى ، لأنى أعلم أن الله تعالى أرحم بى منهما . وقال بعض السلف : المؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة ، كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه ، فرفع يديه يدعو يقول ياربى ، حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة . حتى إذا قال الرابعة ياربى ، قال الله تعالى حتى متى تحجبون عنى صوت عبدى ؟ قد علم عبدى أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيرى . أُشهدكم أنى قد غفرت له

وقال ابراهيم بن أدهم رحمة الله عليه: خلا لى الطواف ليلة ، وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت فى الملتزم عند الباب ، فقلت ياربى اعصمنى حتى لا أعصيك أبدا . فهتف بى هاتف من البيت ، يا ابراهيم ، أنت تسألنى العصمة ، وكل عبادى المؤمنين يطلبون منى ذلك . فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ؟ ولمن أغفر ؟ . وكان الحسن يقول . لولم يذنب المؤمن لكان يطير فى ملكوت السموات ، ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت المسيئين بالمحسنين .

ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له . إلى كم تحدث الناس بالرخص ؟ فقال يا أبا يحيى ،

---

(١) حديث محمد بن الحنفية عن على لما نزل قوله تعالى ـ فاصفح الصفح الجميل ـ قال ياجبريل وما الصفح الجميل قال اذا عفوت عمن ظلمك فلا تعاتبه ـ الحديث: ابن مردويه فى تفسيره موقوفا على على مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث : وفى اسناده نظر

---

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) الاعراف : ١٥٧ (٣) الحجر : ٨٥

إني لأرجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كساءك هذا من الفرح .

وفي حديث ربعي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت . قال : لما مات أخي سجي بثوبه ، وألقيناه على نعشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال : إني لقيت ربي عزوجل ، فحياني بروح وريحان ، وربي غير غضبان ، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون ، فلا تغتروا ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه ، فكأنها كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه

وفي الحديث [1] « أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَوَاخَيَا فِي اللهِ تَعَالَى فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ الآخَرُ عَابِداً وَكَانَ يَعِظُهُ وَيَزْجُرُهُ فَكَانَ يَقُولُ دَعْنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيباً حَتَّى رَآهُ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى كَبِيرَةٍ فَغَضِبَ فَقَالَ لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْظُرَ رَحْمَتِي عَلَى عِبَادِي اذْهَبْ أَنْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ ثُمَّ يَقُولُ لِلْعَابِدِ وَأَنْتَ فَقَدْ أَوْجَبْتُ لَكَ النَّارَ قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَهْلَكَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ »

وروى أيضا أن لصا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة ، فمر عليه عيسى عليه السلام ، وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الحواريين . فقال اللص في نفسه : هذا نبي الله يمر ، وإلى جنبه حواريه ، لو نزلت فكنت معهما ثالثا . قال فنزل ، فجعل يريد أن يدنو من الحواري ، ويزدري نفسه تعظيما للحواري ، ويقول في نفسه مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد ! قال وأحس الحواري به ، فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي ! فضم نفسه ومشي إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ، فمشى بجنبه ، فبقي اللص خلفه . فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام : قل لهما ليستأنفا العمل ، فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما . أما الحواري ، فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه ، وأما الآخر ، فقد أحبطت سيآته بما ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك ، وضم اللص إليه في سياحته ، وجعله من حوارييه .

وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا ، فوطىء عنقه بعض العصاة ، حتى

---

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابدا الحديث : أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد جيد

ألزق الحصى بجبهته . قال فرفع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا ، فقال اذهب فلن يغفر الله لك : فأوحى الله تعالى إليه : تتألى علىَّ فى عبادى ! إنى قد غفرت له .

ويقرب من هذا ما روى عن [١] ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على المشركين ، ويلعنهم فى صلاته ، فنزل عليه قوله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ [١]) الآية فترك الدعاء عليهم ، وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام .

وروى فى الأثر أن رجلين كانا من العابدين ، متساويين فى العبادة ، قال فإذا أدخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول يارب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر منى عبادة ، فرفعته علىّ فى عليين ؟ فيقول الله سبحانه . إنه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله . وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف . فكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه ، وبين من يخدم ارتجاء لإنعامه وإكرامه . ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم [٢] « سَلُوا اللهَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فَإِنَّمَا تَسْأَلُونَ كَرِيمًا » وقال [٣] « إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَأَعْظِمُوا الرَّغْبَةَ وَاسْأَلُوا الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ » وقال بكر بن سليم الصواف . دخلنا على مالك بن أنس فى العشية

---

(١) حديث ابن عباس كان يقنت على المشركين ويلعنهم فى صلاته فنزل قوله تعالى ليس لك من الامر شىء فترك الدعاء عليهم ـ الحديث : البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد فأنزل الله عز وجل ليس لك من الامر شىء إلى قوله فإنهم ظالمون ورواه الترمذى وسماهم أبا سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلموا فحسن اسلامهم وقال حسن غريب وفى رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للاسلام وقال حسن صحيح

(٢) حديث سلوا الله من فضله فان الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ

(٣) حديث إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة وسألوا الفردوس الاعلى فان الله لا يتعاظمه شىء : مسلم من حديث أبى هريرة إذا دعا أحدكم فلا يقل اللهم اغفر لى ان شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فان الله عز وجل لا يتعاظمه شىء أعطاه والبخارى من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذى من حديث معاذ وعبادة بن الصامت

---

(١) آل عمران : ١٢٨

التى قبض فيها ، فقلنا يا أبا عبد الله ، كيف تجدك . قال لا أدرى ما أقول لكم ، إلا إنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم فى حساب . ثم ما برحنا حتى أغمضناه

وقال يحي بن معاذ فى مناجاته يكاد رجائى لك مع الذنوب ، يغلب رجائى إياك مع الأعمال لأنى اعتمد فى الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف . وأجدنى فى الذنوب اعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف . وقيل إن مجوسيا استضاف ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، فقال إن أسلمت أضفتك ، فمر المجوسى ، فأوحى الله تعالى إليه . يا إبراهيم ، لم تطعمه إلا بتغيير دينه ، ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك ؟ فمر ابراهيم يسعى خلف المجوسى ، فرده وأضافه ، فقال له المجوسى . ما السبب فيما بدالك ؟ فذكر له . فقال له المجوسى . أهكذا يعاملنى ؟ ثم قال اعرض علىّ الإسلام . فأسلم . ورأى الأستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاجى فى المنام ، وكان يقول بوعيد الأبد ، فقال له كيف حالك . فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا . ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة لا توصف ، فقال له يا أستاذ بم نلت هذا ؟ فقال بحسن ظنى بربى . وحكي أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى ، رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول . أين العلماء ؟ قال فجاؤا . ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا يارب قصرنا وأسأنا . قال . فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره ، فقلت أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه . فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم . ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل كان رجل شريب جمع قوما من ندمائه ، ودفع الى غلامه أربعة دارهم ، وأمره أن يشترى شيئا من الفواكه للمجلس فمر الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل لفقير شيئا ويقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات . قال فدفع الغلام إليه الدراهم فقال منصور . ما الذى تريد أن أدعو لك ؟ فقال لى سيد أريد أن أتخلص منه فدعا منصور وقال الأخرى ؟ فقال أن يخلف الله علىّ دارهمى ، فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ قال أن يتوب الله على سيدى فدعا ، ثم قال الأخرى ؟ فقال أن يغفر الله لى ولسيدى ولك وللقوم . فدعا منصور فرجع الغلام ، فقال له سيده : لمَ أبطأت ؟ فقص عليه القصة . قال وبم دعا ؟ فقال سألت

لنفسي العتق . فقال له اذهب فأنت حر . قال وإيش الثانى ؟ قال أن يخلف الله عليّ الدراهم
قال لك أربعة آلاف درهم . وإيش الثالث ؟ قال أن يتوب الله عليك . قال تبت إلى الله تعالى
قال وإيش الرابع ؟ قال أن يغفر الله لى ولك وللقوم وللمذكر . قال هذا الواحد ليس إلىّ .
فلما بات تلك الليلة ؛ رأى فى المنام كأن قائلا يقول له . أنت فعلت ما كان إليك ، أفترى
أنى لا أفعل ما إلىّ ؟ قد غفرت لك ، وللغلام ، ولمنصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين أجمعين

وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفى قال ، رأيت ثلاثة من الرجال وامرأة
يحملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة ، وذهبنا إلى المقبرة ، وصلينا عليها ، ودفنا الميت .
فقلت للمرأة من كان هـذا الميت منك ؟ قالت ابنى قلت ولم يكن لكم جيران ؟ قالت بلى
ولكن صغروا أمره . قلت وإيش كان هذا ؟ قالت مخنثا . قال فرحمتها وذهبت بها إلى منزلى
وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا .قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتانى آت كأنه القمر ليلة البدر
وعليه ثياب بيض ، فجعل يتشكرنى . فقلت من أنت ؟ فقال: المخنث الذى دفنتمونى اليوم ،
رحمنى ربى باحتقار الناس إياى . وقال ابراهيم الأطروش . كنا قعودا ببغداد مع معروف
الكرخي على دجلة ، إذ مر أحداث فى زورق ، يضربون بالدف ويشربون ويلعبون .
فقالوا لمعروف : أما تراهم يعصون الله مجاهرين ؟ ادع الله عليهم : فرفع يديه وقال إلهى كما
فرحتهم فى الدنيا ففرحهم فى الآخرة . فقال القوم ، إنما سألناك أن تدعو عليهم . فقال إذا
فرحهم فى الآخرة تاب عليهم . وكان بعض السلف يقول فى دعائه ، يارب، وأى أهل
دهر لم يعصوك ، ثم كانت نعمتك عليهم سابغة ، ورزقك عليهم دارا . سبحانك ما أحلمك
وعزتك إنك لتعصى ثم تسبغ النعمة وتدر الرزق ، حتى كأنك يا ربنا لا تغضب .

فهذه هى الأسباب التى بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين . فأما
الحمقى المغرورون ، فلا ينبغى أن يسمعوا شيئا من ذلك ، بل يسمعون ما سنورده فى أسباب
الخوف ، فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف ، كالعبد السوء ، والصبى العرم ، لا يستقيم
إلا بالسوط والعصا ، وإظهار الخشونة فى الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح
فى الدين والدنيا



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرست الجزء الثانى عشر



